ألكسندر سولجنيتسين

أرخبيل غولاغ

ترجمة
نجم سلمان الحجار

دار علاء الدين



ألكسندر سولجنيتسين

كاتب روسي وناشط اجتماعي.
له أعمال نثرية، شعرية، مسرحية اجتماعية. حائز على جائزة نوبل للآداب عام 1970.
عضو في الأكاديمية الروسية للعلوم من 1997
ولد عام 1918. أنهى دراسته العليا في جامعة روستوف - قسم الرياضيات والفيزياء.
شارك في الحرب العالمية الثانية. وحصل بعد نهايتها على رتبة «كابتن». تم اعتقل بسبب انتقاداته لسياسة ستالين في رسالة كتبها الى أحد أصدقائه.
لم تتوقف مسيرته الإبداعية رغم إصابته بالسرطان مرتين، وإجراء عمليتين جراحيتين.
قام أ. ت. تفوردوفسكي بنشر أولى مقالاته في مجلة «العالم الجديد». وهي بعنوان «يوم من أيام إيفان دينيسوفيتش»
استعاد جنسيته السوفييتية عام 1990. وفي العام نفسه أصدر منشورا بعنوان «كيف لنا أن نبني روسيا» وزعت منه 27 مليون نسخة
عاد الى وطنه عام 1994

أرخبيـــل

غـــولاغ

ألكسندر سولجنيتسين

أرخبيل غولاغ

ترجمة
نجم سلمان الحجار

منشورات دار علاء الدين

- **أرخبيـل غـولاغ.**
- تأليف: **ألكسندر سولجنيتسين.**
- ترجمة: **نجم سلمان الحجار.**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **لجنة الدار.**
- الغلاف: **أمل كمال البقاعي.**
- معالجة نصوص: **اسماعيل نصر الحلاق.**
- المتابعة الفنية والإخراج: **أُسامة راشد رحمـة.**

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

باسم كل من لم تكفه الحياة أتحدث:
وليعذرني جميعهم، إن لم أكن قد رأيت،
وتذكرت، وإن لم أكن قد عرفت عنهم
كل شيء.

مقدمة

يتعين على قارئ كتاب «أرخبيل غولاغ» تأليف الكاتب المنشق ألكسندر سولجنيتسين، التوقف عند الكثير من التساؤلات، والاستفسارات حول الغرض الذي أراده الكاتب في إطلاع القارئ على دقائق المرحلة السوفييتية، وإبانة التجاوزات غير القانونية كافة، التي تمظهرت في أشكال مختلفة من التنكيل، والقهر السلطوي في مرحلة بناء الدولة السوفييتية، ويحار المرء أيضاً في معرفة كنه السبب، وحقيقة تلك الغاية، التي أرادها الكاتب من التعرض لتلك المرحلة، ولتاريخها غير المرئي بأسلوب شيق متميز، ومعرفة بالغة الدقة لجميع التفاصيل المحيطة بعمليات الاعتقال الممارسة على الجماعات السياسية المنظمة، وعلى مجمل الأحزاب، المغايرة لحزب الطبقة الواحدة، وعلى الفئات الشعوبية، والعرقية، والقومية، والدينية، والشخصيات المثقفة، وأصحاب الرأي والأدمغة غير المتأقلمة مع عملية البناء الأولي لكيان الدولة العمالية من العقد الثاني للقرن العشرين، دون الالتفات إلى معتقدات هذه الفئات، وروح ودوافع مناهضتها، ومعارضتها، أو قل عدم اتساقها في منظومة التغيير الفكري، والتبدل الاجتماعي، الذي كان لا بد من أن ينتج عن الترهل السياسي لتحول الدول ذات المنظومات القروسطية، والفكر الذي يبرز عبر هذه العملية للتطور الفكري الإنساني، والذي قد يكون حلاً آنياً لمعضلة اجتماعية، يتأتى عنها، خلق معضلات أكثر تعقيداً.

لم يـأتِ الكتـاب عمومـاً، ليـدحض نظريـة فكريـة سياسـية عـبر الجـدل والنقـاش في مـدى صـوابية هـذه الفكـرة، ومـدى ملاءمتهـا لقيـام مجتمع جديد. على أساس المصالح الجماعية للطبقات المقهورة، بل جاء النفـي بمثابـة، إظهـار الـسلبيات، الـتي رافقـت قيـام الدولـة الجديـدة، وكشف الماحكات السياسية على التنظيمات، والأحزاب، التي كانـت سـائدة في ذلـك الوقـت (مثـل البونـد، الاشـتراكيين، الاشـتراكيين الـديمقراطيين)، والـذين بـدؤوا معارضـة هـذا النظـام، مـن خـلال فـضح ممارسات القائمين عليه، وكشف الأساليب، التي تظهـر الجانب الخفـي لطبيعة تلك الممارسة، المناقضة لقيمة الفكـرة السياسية ذاتهـا، المعتمـدة في بنـاء الدولـة الحديثـة، وقـد يكـون مـن حـق المثقفين، والكتـاب إبـراز مـا يعتمـل في الـنفس البـشرية، ويغلبـون الاهتمـام فيـه، بأحاسـيس بـني جلـدتهم، أكثـر ممـا يعولـون علـى خلاصـهم، وإن كانـت عمليـة إظهـار المعانـاة والمآسـي في مجتمـع مـا، مـا هـي إلا عوامـل مـساعدة في تقيـيم الواقـع، أو عمليـة اسـتنهاض لعقـول البـشر وتحـريضها لمنازلـة البغـي علـى أسس قواعدية يختارهـا، من يتولى عملية المنازلة في سياق قيادتـه الـصراع نفـسه، أو لربمـا كانـت نزعـة في حـد ذاتهـا، تـأتي ضـمن إطـار دأب الكاتب، أو المثقف ذاته.

إذاً جاء الكتاب ضمن سياق الإظهار التـاريخي لمداخل الغلو الفكـري في مجتمـع روسـيا، دون الأخـذ بالحسبان الاتجـاه الإيجـابي لتوجـه الأحـداث السياسية، في مجتمع قام إثر أحداث درامية كثيرة، وربمـا كـان هـذا ديدن المجتمـع الروسـي منـذ كانـت الإمبراطوريـة الروسـية، الـتي شـكل تاريخهـا ظـاهرة روسـية متفـردة، كنههـا أنهـا كانـت قائمـة علـى العمليـات الإثنيـة، والاجتماعيــة - الاقتــصادية، والــسيكولوجية، والإقليميــة. ويــأتي الخيــار الممكن لمنظومة الدولة والاقتصاد على أنقاض تلك العوامل المأساوية لتاريخ

روسيا، الذي لن يحقق الهوية الذاتية الحضارية في خضم عدم توافق التطلعات «الجيوسياسية» والاقتصادية، مع الإمكانات الفعلية الداخلية والخارجية، والقدرة على حل المشكلات المعقدة الموروثة. وقد علق تولستوي في تلك الفترة على هذا الوضع قائلاً: «إن روسيا تفتقر إلى النظام، الذي لم يتكون بعد». إذاً وبعد كل هذا يمكن القول بأن لروسيا خصوصية فيها الكثير من التمايز عن البلدان الأخرى، من حيث النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

لقد مارس ألكسندر سولجنيتسين بعد انشقاقه اللهجة الخطابية القوية، واستخدم نظرته الحادة للأمور في تهييج الرأي العام في روسيا السوفييتية، من منطق قومي معارض للسائد في تلك الآونة، ودأب على التحدث إلى مواطنيه كما تقول صحيفة الإكسبريس، «وكأنه وسط جمهور ثائر، وليس أمام عدسة الكاميرا». وعلى المنوال نفسه كان يخاطب قارئيه.

لا شك إن نظرة الكاتب تختلف عن مثيلتها لدى الساسة، فالساسة يفكرون بعقل المستقبل، لا بعقل الماضي، دون نفي الماضي، ودوره في استقراء المستقبل ذاته، على العكس من ممتهني مهنة صقل العواطف، ونسّاجي الخيال، ومؤججي الانفعال الغلواني، وقد سبق لمكسيم غوركي أن عاد إلى الاتحاد السوفييتي في نهاية العقد الثالث بعد أن أمضى فترة طويلة في أوروبا، تبادل خلالها الكثير من الرسائل مع الشخصيات المعروفة، استخدم بعضها كوثائق عدم ولاء للسلطة السوفييتية، لكن لم تحتو هذه الرسائل، إلا على إبداء القلق، والألم. وتقديم النصح. وتعايش بعد عودته، بفضل ما كان بيديه، على العكس من سولجنيتسين، الذي اختار أسلوب الإيثار والإثارة، دون أن يتطرق في أسلوبه ذاك، إلى تغليب منطق الحوار السياسي.

عاد سولجنيتسين إلى روسيا، إبان البيروسترويكا، ودخلها من أقصى الشرق على اعتقاد منه، في أنّه سيأخذها من أقصاها إلى أقصاها، وسيحمله الشعب على الأكف مهللاً، مبتهجاً بعودته التتويجية. لكن ما كان لم يطابق الاعتقاد، إذ لاقى رجوعه بعض الصدى في القرى، والمدن الصغيرة، وتلقى الرسائل «وتوجه إليه مواطنوه، كما وكأنهم يتوجهون إلى اللجنة المركزية» حسبما أوردت صحيفة «الإكسبريس»، وكانت مداخلاته الجوابية موجزة، كان من شأنها أن ترتقي إلى مستوى الحوار السياسي «لكن قسماً كبيراً من روسيا سئم على ما يبدو خطب سولجنيتسين»، وجاء على لسان أحد الشبان العاملين في برنامج «الخطة الحقيقية» «إنه لا يستطيع أن يفهم كيف لعجوز غاب عن البلاد، أن يدعي اليوم، إملاء ما يجب أن يفعله الروس». «يبدو إن الطلاق بين سولجنيتسين، والطبقة المثقفة قد تم بالفعل.. ويقول ساشافييف مدير مجلة «خيارك»: «إن الروس قد سئموا مزايدات الديمقراطيين، والقوميين المتطرفين، وإنهم يتطلعون إلى الهدوء».. وينتقده آخرون: بأنه يخاطب الروس بلغة عفا عليها الزمن، مثل التركيز على الوطنية الروسية، حيث يرد على لسانه القول: «لقد أخرجنا الغربيين من المستنقع، أنقذناهم من بطش هتلر.. وكانت الوطنية الروسية أملهم الوحيد.. ويقف سولجنيتسين أمام نسب الوفيات والولادة في روسيا.. ويهاجم «الوحل، الثقافي الغربي، الذي يخرب أرواح مواطنيه».

ألم يكن هو ذاته من غاص في ذلك الوحل الغربي، وراح يستقطب التداعيات الكلامية كافةً، والأساليب المفعمة بالخطابية، ليدين الوطنية الروسية، ذاتها التي كانت أمل الغرب في الخلاص من البطش الهتلري، ألم يعتمد في كتابه الذي بين أيدينا، على الكثير من الشهادات المنقولة، مخطوطة كانت أم شفاهاً، عن ألسنة من كان مشكوكاً في غيرتهم،

وولائهم لروسيا الوطنية من أمثال اليهود المنشقين[1]، المتغلغلين في التنظيمات السياسية، وخاصة التي كانت بحكم المسيطر عليها من قبلهم، مثل البوند - الاشتراكيين، والجمعيات، والإيخائيات المختلفة. ألم يأتِ نشر هذا الكتاب في مرحلة البعث الصهيوني في روسيا في أعقاب صدور وتوزيع دليل العمل اليهودي في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٨.

كثيراً ما تتسق الخطوات في حيثيات العمل السياسي، وتحدد من خلال عرضها التأليفي صدق انتمائية الكاتب، وغيرته على مجتمعه - خاصة وأنه عانى آلام الاعتقال، ووقع في قبضة المنافي، والمعسكرات، ورأى المظالم بعين وقّادة، وعقل عاطفي بارز، ودوّن مجموع ما رآه، وما سمعه بصياغة أدبية تاريخية، لتلك المرحلة، مرحلة نشوء الدولة السوفييتية، مرحلة التنافر، والصراع بين الأحزاب، والتنابذ بين شخصيات الحزب الثوري الواحد، وتتبع أيضاً سلسلة الاعتقالات، وسياسته المتعددة، مطلقاً عليها «أسيقة الاعتقال» وعالج موضوعات الألم الإنساني بلهجة تغلب عليها مسحة العتب واللوم على المعتقلين، الذين لم يفلتوا من إطار تخوفهم النفسي، ولم يتغلبوا على ذواتهم في أشد الأوقات ضيقاً، ليخلقوا فيها عناصر الردع الذاتي، لممارسات أولئك الذين تعاملوا معهم بقسوة.

إلا أن الريب يكتنف هذا الكتاب لما فيه من معلومات عن أحداث جرت مع شخصيات مشكوك في انتمائها للحركة السوفييتية، وكانت غير منفعلة مع البناء الأولي للمجتمع الاشتراكي، وشاركت في حركات مضادة، إن كان قبل الثورة أو بعدها، عدا عن تلك الشخصيات الأمنية في

١- اعتمد الكاتب في مصادره على الشخصيات اليهودية العاملة في حقل السياسة، وكانوا من قادة التنظيمات السياسية المعروفة قبيل ثورة شباط عام ١٩١٧ وأثناءها، وهم فلر لام شالموف: وديمتري بيترو فيتش فيكتوفسكي، وغينز بورغ، وآدموف سليبز برغ.

العهد السوفييتي القائمة بالإشراف المباشر على عمليات الاعتقال والمحاكمات، والتي تكشفت فيما بعد لتظهر بأصوليتها اليهودية - الماسونية مثل (بيريا - لازارغاغانوفيتش نوفيتش ميخايلس) الأمر الذي يؤكد بأن المسؤولية تقع على عاتق هؤلاء الذين مارسوا تلك الممارسات المؤثرة على الأحداث في الاتحاد السوفييتي، بينما نرى الكاتب يجيرها ويلقيها على عاتق ستالين ذاته مستثنياً دور أولئك في عمليات الاضطهاد المباشر. سيما وأن الكاتب نفسه كان على صلة بتلك الأصولية اليهودية. ومارس دوره المضاد للسوفييتية بعدما أصبح من عداد المنشقين في الغرب، وتبوأ مركزاً مرموقاً في الدعاية الغربية المضادة للسوفييت. وألقى بكل عواصف اللوم على النظام، مسوغاً الأعمال كافةً حتى بما فيها التعاون مع قوى التدخل الغربي، وارتكاب الأعمال التخريبية والتنظيمية المخالفة للمنحى العام لضوابط السلطة، التي يحرمها الحق من أبسط قواعد الضبط القانوني، ويلقي عليها التبعات دونما عناء.

المعرِّب

دراسة تحليلية

بين أيديكم كتاب «أرخبيل غولاغ»، واحدٌ من أكثر المؤلفات أهمية للكاتب المعروف ألكسندر سولجنيتسين - الناقد اللاذع لواقع مجتمعنا أبداً، أقول، ولديّ أساس لقولي، بأننا نرنو وإياه لكل ما يجري في حياتنا من انقلاب، وتغيير، بكثير من الأمل، لكي تتعافى بلادنا بسلام.

إنما الشيء الأهم. وكلما كان الحدث درامياً أكثر، وكلما كانت معاناتنا في هذا الزمن أكثر قساوة، كلما نكس «الأصدقاء» الحراب صوب الأرض، ممجدين الرواد العظماء آباء الشعب، سيما وأن عناصر الشر، والدم، والختل رافقت الحياة الآدمية منذ أزمان بعيدة، ولم يخف وراءها قط، على الرغم من استبانة ذلك الختل، وندب الدماء، وإبداء الندم العظيم. وقد يكون جل ما يتطلبه مجتمعنا. هو العظماء العقلاء، والمحاربون الشرفاء، أكثر مما هو بحاجة إلى ممتلكي تلك الصراحة بأبخس الأثمان، وإن كانوا أصدقاء مقربين.

أما إذا كان ألكسندر سولجنيتسين بثباته اللا متردد، ضرورياً لنا هذه الأيام - فإنه يجب علينا أن نعرفه، ونسمعه، وليس لنا الحق، لا معنوياً ولا عقلانياً، ألاّ نعرفه، ولا نسمعه.

وكيما لا نذهب بعيداً نقول حتى وإن كنا لا نشاطر مؤلف «الأرخبيل» فيما قاله، فعلينا الآن وحيث نسوي الحساب مع الماضي، أن نتيقن، بأنه إلى حدّ ما، قاوم ولو بأقل مما لديه من وعي، وإدراك، إنما وفي كل الحالات بكل حياته الإبداعية. وقد يفرض هذا الأمر علينا، أن نمعن

التفكير كثيراً، لا سيما وأننا نحن أنفسنا أصبحنا آخرين، وليس كأولئك الذين قام كاتبنا بتحريضهم، وحسبنا على هذه الشاكلة، الكثير مما ما نعرف، والكثير مما نفهم، والكثير ما نعاني، فإننا سنقرؤه بشكل مختلف، وقد تكون قراءتنا..، ليس حسبما أراد لنا الكاتب نفسه.

لكن هذه هي بالحقيقة الحرية المنتظرة - حرية الكلمة المكتوبة، حرية القراءة التي لولاها، لما تحققت الفاعلية، والفائدة التي لا ريب فيها للمجتمع، وللحياة الأدبية - التي يتكون منها وعلى مر القرون الأدب، والمجتمع.

سيرغي زاليكين

جاء في مجلة العلوم الصادرة عن أكاديمية العلوم السوفييتية عام ١٩٤٩ ملاحظة مدونة بخط ناعم مفادها. إنه وأثناء القيام بالتنقيبات على ضفاف نهر كاليم، تم العثور على كتلة ثلجية كبيرة منغرسة تحت الأرض ويعتقد بأنها نتجت، إما عن انزلاق كتل ثلجية كبيرة، أو أن المياه المتدفقة إلى تلك الوهدة تثلجت في غابر الأزمان «عبر عدة آلاف من السنين» وجرفت في طريقها بعض الجثث الحيوانية الفريدة، التي تشبه الأسماك، أو بما يعرف بالتريتون، وبقيت طازجة حسب شهادة العلماء، والخبراء، والصحافيين، الذين تناولوا لحمها، وازدردوها بشهية عارمة.

قد يستغرب القارئ كيف يمكن لهذا اللحم السمكيّ المتجلد، أن يبقى طازجاً، وقد يتساءل المرء أيضاً، كيف لهذه المجلة أن تنشر مثل تلك المعلومات، التي يصعب تصديقها.

«من فورنا.. ما أن رأينا المشهد أمامنا كاملاً، حتى قمنا وبسرعة فائقة، بكسر الجليد الحديدي الصلب، بدافع من الاهتمام الجامح، ودفعنا بأيدينا ننتزع بعض القطع اللحمية، التي بقيت لحماً منذ آلاف السنين، وحملناها لنشبع وفاضاً».

لقد أدركنا فيما بعد أن أولئك الأوائل، وتلك القبائل الوحيدة، التي بقيت على هذه الأرض. منذ عابر الأزمان الغارقة في القدم، وحتى الوقت الحالي، قد تمكنت من تناول هذه اللحوم، والإتيان على آخر ما وُجد منها.

أما كاليم هذا - عبارة عن مجموعة جزر كبيرة معروفة، جعلت من هذه الأقاليم الغرائبية، ما يعرف بالغولاغ، أعطته هذه التكونات الجغرافية من مضائق، وأرخبيلات، موضعاً متميزاً يسوده الضباب، وتلفه المجاهل، وقد قام السكان الأوائل من قبائل التريكوف بالتوطن فيه، والتأقلم بأجوائه، وسنعمد إلى تسمية هذا المكان اصطلاحاً، بالأرخبيلاك.

الأرخبيلاك هذا، مساحات أرضية من الوهاد الواسعة، تقع ضمن منطقة من البلاد، شاع عنها الخوف والرعب، الذي تطاول ليرمح المدن والقرى، وينشر في أزقتها وشوارعها العسف، والتنكيل. ومن الصعب لأحد أن يقدّر مدى ذلك الهول، وتلك الفظاعة، ما دام البعض، لم يكن قد سمع عنها، حتى ولو بشكل مقتضب. على العكس من أولئك الذين مورس عليهم، وعاشوا في مختلف هذه الجزر الأرخبيلاكية المآسي الجهنمية على الرغم من أن الكثير من معاناتهم ما زالت طي الكتمان.

إن تبدلاً، أو تغيراً ما، يطغى على تاريخنا، وقد يسمح بإلقاء شيء من الضوء، على تلك الخفايا المتلبدة في جزر الأرخبيلاك، لكن

هيهات قد فات الأوان، ومر الزمن، وبقيت مع ذلك ذات الأيدي التي كسرت عظامنا، تتضرع بأكف مفتوحة، متجدثة، وكأنها تقول: «لا... لا ضرورة لأن نفضح الماضي، وإذا ما سولت نفس أحد بذلك، فلا بد.. إنا قالعو عينيه»... لكن هيهات لنا أن نقلع عين المهيض، حسبما تقول الحكمة: «من ينسى.. لا بد من أن يحوز المرتبة الدنيا».

انقضت السنون الطوال.. وذهبت تلك الأيام بلا رجعة، واندملت القروح المنغرسة في الماضي، وبقيت هذه الأرض مع كل ذلك ترتجف وتهتز، بعدما طغت عليها بحور النسيان، وانسدلت عليها الأزمان، ولا بد في النهاية من أن يكون الزمن آتياً، ولا بد من أن تنقضي القرون، وتنخرط في عمر هذا الأرخبيلاك، وفي هوائه، وعظامه، وتتلذذه، لتحيله إلى ما كانت عليه تلك «اللقى الحيوانية» وتقربها من الحقيقة كما التريتون.

لا أعتزم البتة كتابة تاريخ الأرخبيلاك، ولم يتح لي حتى مطالعة «الوثائق المتعلقة بذلك كلها، لكن قد يفلح أحد ما في الوصول إلى هذا، أما أولئك الذين لا يملكون الرغبة أيّاً كان من كان) لا بد من أن لديهم الوقت الكافي لأن يقوموا بطمس كافة الوثائق ويمحوا أي أثر لها.

إن الأحد عشر عاماً، التي قضيتها هناك، ومعايشتي لتلك البشاعة، التي أضحت الآن بالنسبة لي حلماً، تعرى مع الزمن من بشاعته المطلقة وعوداً على بدء، أقول: ربما أحببت ذلك العالم البشع لدرجة، رأيتني فيها الآن، وفي هذه المرحلة السعيدة، أقوم بصياغة الخفايا، والقصص القديمة في سرد تأليفي، محاولاً أن أنقل إليكم من خلال ذلك بعضاً من العظم، ومزقاً من اللحم، الذي هو من حيث

الواقـــع مـــا زال لحمـــاً حيـــاً ، وإن كـــان ذا طعـــم كمـــا طعـــم التريتون.

لا توجـد في كتابنـا هـذا أيّ وجـوه، أو شخـصيات وهميـة، أو حـوادث وهمية خيالية، وإن الأسماء والأمكنة كافة تحمل تسمياتها الحقيقية، وإذا ما حصل، وكانت بعض الأسماء والكنى محورة، فذلك يرجع إلى قدرتي الشخصية في التـذكر، وإن كانـت بعـض الأسمـاء والكنـى غير مطابقـة للواقـع، فـذلك يعـود إلى طبيعـة الـذاكرة الإنسانية، التي يعتورهـا النسيان أحياناً.

كان يجب ألاّ يكون مثل هذا الكتاب في حدود قدرتي واستطاعتي كإنسان، لكنه قدر لي، أن يكون الخلاص بجلدي، هو أجمل ما حملته مـن الأرخبيلاك، الـذي حـوى ذاكرتـي، وأذنـي وعيني، وتبقـى مـواد هـذا الكتاب، الذي بين أيدينا، إما قصص، أو أحاديث مروية، أو ذكريات، أو رسائل تلقيتها أو سمعتها مباشرة.

وما ذكري لأولئك هنا، وفي هذا الموضع، إلا تعبير عن عرفاني لهم بالجميل، طالما كانت ذاكرتنا، وذكرياتنا في التعذيب، والموت واحدة. وفي تعميمي هذا، أود ألا أستثني أولئك الذين قدموا لي المساعدة، بغية، أن يكون هـذا الشيء الكتابي مليئاً، وجامعاً لكل المعلومات الموثقة المستخلصة مـن الكتـب المتـوفرة حاليـاً، أو مـن الكتـب المفقـودة، أو التالفة، ذلك أن العثور على نسخة واحدة منها، يكلف الجهد الكثير والبحـث المـضني الطويـل.. وأقـدم عرفـاني أيـضاً لأولئـك الـذين خطـوا بأيديهم وفي اللحظات الصعبة هـذه المخطوطات، وأخرجوهـا للنشر فيما بعد.

ترى ألم يحن الوقت، كي أبدأ بتعداد هـذه الأسماء كتابةً؟ كان أولهم، السلافي العريق ديمتري بيتروفيتش فيكتوفسكي، الذي كان

٤

من المفترض، أن يكون المحرر الأول لهذا الكتاب، إلا أن نصف حياته التي قضاها هناك (كان قد سمى مذكراته عن معسكر الاعتقال (نصف الحياة). أورثته الشلل المبكر، واستطاع على الرغم من ذلك، وبصعوبة بالغة، أن ينتزع الكلمات، ويتناول الأجزاء الرئيسية بصفة عامة، ليتأكد من هذا الكتاب، الذي يجب أن يكون كتاباً شاملاً لكل شيء.

كان يمكن ألا يحالفنا الحظ، لولا الحرية التي عمت بلادنا الآن، في نشر وتداول، وتناقل هذا الكتاب، الذي ألزمني، كما وسيلزم قراء المستقبل، بتقديم الشكر، والانحناء لأولئك الشهداء باحترام، وإجلال كبيرين.

عندما بدأت تأليف هذا الكتاب عام ١٩٥٨، لم تكن لديّ أيّ معلومات عن المذكرات السابقة، أو حتى عن الكتب المؤلفة في معسكرات الاعتقال، ورحت أطلع بشكل تدريجي، عبر السنوات التي عملت فيها (حتى عام ١٩٦٧) على «قصص كاليم» التي ألفها فارلام شالموف، ومذكرات فيكتوفسكي وغينز بورغ، وآدموف سليبزبرغ، واعتمدت عليها، وعلى ما ورد في مؤلفاتهم، التي يعرفها المجتمع (وكان أخيراً ما كان)، وقمت بتأليف هذا الكتاب.

ولا شك أنهم لولا قوة عزائمهم، وقدرتهم في التغلب على ذواتهم، ما كانوا تمكنوا من إعطائنا المواد القيمة لهذا التأليف، الذي يحفظ في طياته الكثير من الحوادث المبهمة، ولما تمكنت «من إيراد أدق الأرقام، ووصف الهواء الذي تنشقته عناصر المخابرات أمثال: م. يا. سود ابليتس، ن. ب. كريلكنو النائب الحكومي العام لأعوام طويلة، وخليفته أ. يا فيشينسكي، ومساعدوه المحامون الذين لا يتسنى لنا إلا أن نذكر منهم المحامي ن. ل. فيرباخ.

تضمنت مواد الكتاب أيضاً معلومات مأخوذة عن ستة وثلاثين كاتباً سوفييتياً، بمن فيهم مكسيم غوركي. وقد قام جميعهم بإصدار الكتب، والمؤلفات، التي تفضح تلك الأعمال العبودية الطاغية.

في زمن الدكتاتور المحاط بالأعداء من كل الجهات أبدينا الكثير من الليونة. وطيبة القلب غير الضرورتين.

حديث كريلانكا

في إحدى جلسات المحكمة

الفصل الأول

الاعتقال

كيف يتم الوقوع في هذا الأرخبيلاك السري؟

بين ساعة وأخرى تقلع الطائرات، وتبحر السفن، ويعلو ضجيج القطارات دونما أيّ إشارة، أو سمة دالة على وجهة الرحلة لا في مكتب قطع التذاكر، ولا في مكاتب شركة «السياحة السوفييتية» وإذا ما توجهت إليهم بالسؤال، إلى أين تخولك بطاقة السفر هذه، أبدوا الانفعال، كونهم لا يعرفون ذاك الأرخبيلاك، ولم يسبق لهم أن سمعوا عن جزره المتعددة قط. وهكذا فالمسافرون على أنواع، منهم أولئك الذين يرسلون إلى الأرخبيلاك، لاستلام زمام القيادة، والإدارة من خريجي كلّيات الشرطة، ومنهم أولئك المعنيون بأمر الحراسة، الذين تم استدعاؤهم عن طرق شعب التجنيد، ومنهم أولئك الذين يذهبون إلى الموت، نحن وأنتم أيها السادة القراء، حيث لا بد من أن يمروا قبلاً، في خضم عملية اعتقالية أولية تؤدي في النهاية إلى تلك الرحلة.

الاعتقال ماذا يسعنا القول عنه؟ ما هو إلا تحطيم لحيواتنا كاملةً؟ أو هو صاعقة برق مباشرة تقطع أوصالنا، أو هو زلزال نفسي كاسح يجتاح الجميع، وغالباً ما يخرُّ من لم يستطع الصمود أمامه زاحفاً، فأقد العقل والجنان، تحتوي الدنيا الكثير من الأقاليم والأصقاع والمناطق، بقدر ما لديها من موجودات حيوية، وما نحن فيها إلا بؤرة دنيوية حيوية، يهتز

كيانها، ويضطرب بنيانها عندما تسمع جأرة قوية تقول: أنتم معتقلون!!
وإذا ما يتم معتقلين فما الضمانة، لأن يبقى كل شيء على حاله في خضم
هذا الزلزال الأرضي الكاسح.

فمن الصعب، احتواء هذا الكون المهتز، بعقل مظلم مرتج حتى ولو
كان منا من هو أكثر عقلاً، وهدوءاً وبساطةً، إذ لا يمكن له أن يجد في
هذه اللحظات، حتى ولو كان من أكثر الناس خبرة، وتجربة في هذه
الحياة، من أن تتساق على لسانه ودون إدراك منه كلمة «كيف هذا».

آ آ نا... ولماذا.... تعتقلونني؟

هذا السؤال الذي تكرر على الألسن ملايين المرات والمرات، ومع ذلك
لم نجد الرد عليه، ولو لمرة واحدة.. حتى ولو بإجابة ما.

الاعتقال... هو القذف اللحظي الصاعق، هو الرمي، والانقلاب من
حالة إلى أخرى.

على الدروب المتعرجة الطويلة لحياتنا السعيدة إن كانت، أو التعيسة
منها مررنا قرب بعض الأبواب الخشبية العتيقة. المزملة بالأسافين المنغرسة في
جوف الأحجار، والصبات البيتونية، مشكلة الأسوار والأسيجة العالية.. التي
لم يخطر ببالنا يوماً معرفة ما تخفيه سواءً بالعين المجردة، أو بالتفكير
والتصور، ولم نتبين مرة واحدة أولئك القابعين في داخلها.. حيث تمتد
المسافات، وتقصر إلى معتقل الغولاغ، الذي يتدثر على مسافة خطوة، أو
خطوتين منا.. ولم يتح لنا أن نلحظ، ما وراء هذه البوابات المصقولة البهية
المموهه.. كأنها مداخل أقفاص.. معدة لنا ولكم، دونما استثناء. وما أن
تتفتح دفاتها، حتى تمتد تلك الأيدي الرباعية البيضاء، التي لم تخشنها
قساوة الأعمال، لتأخذ بتلابيبنا، وتقيدنا من الأرجل، والأيدي، والرقاب،
والقبات، والأردية، والآذان، وتخيطنا كالأشواك إلى قضبان هذه الأقفاص
التي يصم صرير إغلاقها وفتحها آذان حيواتنا السابقة أجل.. إنكم معتقلون!

وتحـــارون ـ في إيجــاد الجــواب لهــذا الــسؤال.. إذ لا تجــدون.. إلا بــضع كلمات خائفة مرتجفة، تائهة.. آ آ نـ ـا لماذا؟

إذاً هــو الاعتقــال.. شــرارة تــصعقك.. وصــدمة تأتيــك مــن الماضــي الــذي بشدك إليه أبداً.. دون أن يتحـرك إلى الأمـام مـرة واحـدة.. حيـث زمـن العـدل الكلي المطلق.

لا يمكــنكم الاســتيعاب.. لا ـ في الــساعة الأولى، ولا ـ في اليــوم الأول، ويبدو لكم ـ في لحظات اليأس تلك القمر الكنسي اللعوب متألقاً «إنه خطـأ لا بد من أنهم مصححوه»...!!

ليس هذا كل شـيء.. فكل مـا ورد مـن الألفـاظ التقليدية ـ في سـردنا، وكل مـا تـضمنته الأدبيـات مـن خـواطر، وتـصورات حـول تعريـف الاعتقـال، فإنها لا تفيه حقه، وأنه باق... يتراكم ـ في أذهانكم وـ في أذهـان عـائلاتكم، وجيرانكم ـ في الحارة، والجادة، ليفطـر عـن تعريف جديـد منـافٍ لما عرفنـاه سابقاً.

إذاً هـذا هـو.. صـوت رنـين الأجـراس.. والقـرع علـى الأبـواب.. بجزمـات المغـاوير الجديـدة الملمعــة.. الـتي يحتــذيها هــؤلاء الجنــود الأشــاوس. الــذين يداهمون البيوت وخلفهم ذلك الشاهد الدليل، المرافق لهم (أنـى لنـا أن نعـرف مـا الـضرورة لهـذا الـشاهد).. ـ في هـذا الموقـف عليـك أنـت الـضحية أن تفكـر ما العمل؟.. ذلك أن هؤلاء لا يفهمون.. إلا أن يقولوا.. هكـذا قضت الأوامر، والتشريعات.. والقـوانين.. ومـا علـى المعتقـل، إلا أن يجلس طوال الليل وحتـى الصباح يكتب.. ويكتب.. هذا الإنسان المقبوض عليه.. المنتشل مـن الـسرير هو والشاهد الدليل اللذان داهمهما هذا الإزعاج المبيت المباغت..

وكيف لك أن تقارن هذا مع ذاك.. فالشاهد يظل يدور، ويلف ليساعد المعـارف والجـيران المعـتقلين. وليقـدم لهـم خدمــة. ـ في أن يكــون هــو شــاهد الإثبات على تورطهم!!..

الاعتقال التقليدي.. هو تقييد أيدي المعتقل المرتجفة.. وتحضير بعض البياضات. وقطعة صابون.. وشيء من الطعام، على الرغم من أنه لا يعلم.. ما الضروري من كل ذلك وما اللباس الذي سيرتديه.. ربما كان من الأنسب ارتداء الملابس الأكثر ملاءمةً، وأناقةً.. إلا أن الجنود في عجلة من أمرهم.. ويلحون «لا حاجة لك في شيء.. فهناك الدفء. والطعام اللذيذ الشهي».. كلهم يكذبون.. إنما يتعجلون فقط.. من أجل بث الرعب والخوف والذعر.. ليس إلا.

الاعتقال التقليدي - هو أن يقاد ذاك المهيض الجناح المسكين من شقته الخاصة، تحت قوة القمع والقهر البشعين.. تلك القوة التي تبدأ من التحطيم. والاندفاع، والاقتحام عبر الجدران، والقفز من فوق الخزائن الخشبية.. والطاولات. ونشر وتمزيق، وتحطيم كل شيء تحت الأرجل. ومع كل هذا.. لم يتم العثور أثناء التفتيش التجريبي هذا على أي شيء. إن تم اعتقال فحام القطارات آنيوشن، بينما كان يهدهد لطفله الصغير.. حتى كان دعاة صوت القانون يرمون الأطفال ومهدهديهم. زيادة في الترويع، حيث يقتضي البحث والتفتيش.. قذف المرضى من على أسرتهم، والتفتيش في أدواتهم[1] دون أن يعثروا على أي دليل.. لقد وجدوا عند بعض الهواة مجموعة من التعليمات القيصرية القديمة.. قبل الإعلان عن انتهاء الحرب مع نابليون. أو عثروا على بطاقات دعوة، إلى إقامة اتحاد يقيم الصلوات، والأدعية، لوقف وباء الكوليرا المنتشر عام ١٨٣٠.. لقد وجدوا عند العالم الضليع (تيبا فاستريكوف) بعض العاديات الخشبية، كتب عليها مخطوطات تيبتية (وبصعوبة بالغة تمكن العلماء فيما بعد من انتزاعها من

١- عند اقتحام معهد الدكتور كزاكوف في عام ١٩٣٧، قاموا بتحطيم الأوعية والأنابيب الاختيارية، والمشارط المبتكرة، واندفع المرضى والمصابون يتوسلونهم، بالحفاظ على الأدوية (حسب المصدر الرسمي صودرت المشارط والمباضع واعتبرت سامة - تم الاحتفاظ بها كأدلة إثبات).

أيدي المخابرات بعد ثلاثين عاماً). بينما وجدوا عند اعتقال المستشرق نيفيسكي مخطوطاً (وخلال خمسة وعشرين عاماً، وبعد أن تم فك تشفير، ورموز هذا المخطوط، منح المذكور المرحوم وسام لينين). أما عند اعتقال كاركيرا، وجدوا أرشيفاً لشعب «ينسييكي أوساك» الذي ابتدع بنفسه أحرفه الأبجدية اللغوية الكتابية - ومذاك؟. ومنذ اللحظة التي اعتقل فيها كاركيرا بات شعب «ينسييكي أوساك» دون لغة مكتوبة!!.. لا شك أن اللقى الثقافية ستبقى عند مصادرتها رهناً عند المعتقلين، وأنى للشعب أن ينسى ذلك، وسيبقى يحثُّ، ويقول... ابحثوا.. ابحثوا لكن دون جدوى.

كان القائمون بالاعتقال يأخذون المصادرات، وكان يجبر المعتقل على حملها، مثلما حدث أثناء اعتقال نينا الكسندرفنا يالتشكايا، التي حملت على ظهرها كيساً معبأً، بالأوراق، والرسائل القديمة المتبادلة مع زوجها المرحوم المهندس الروسي الشهير، وعلى أثر هذا الاعتقال لحقت به دون رجعه.

أما أولئك الذين، لم يطلهم الاعتقال تلك الذيول البشرية العريضة، التائهة في حياتها، تبحث عن سبيل ما، من سبل التواصل مع هذا، أو ذاك المعتقل المجهول المصير، وكثيراً ما كانت تأتيها تلك الأصوات الزاجرة من خلف الكوى كنباح يرد السائلين عن معتقليهم، (أمثال هؤلاء كثر، وعددهم لا يحصى». «هذا الذي تسألون عنه لا وجود له عندنا). أجل كان يجب ألا تقف مثل هذه الطوابير الذيليه في مدينة لينينغراد خمسة أيام، كي تسلم الرسائل الموجهة إلى المعتقلين، وكان لا بد من أن يمر عام، أو نصف عام، ليأتي الرد من المعتقل، أو منهم مذيلاً بعبارة «لا يحق له المراسلة»، الأمر الذي يعني الحرمان من «حق المراسلة، للأبد، وبالتالي تبرز الشكوك حول احتمال إعدام المعتقل.

بكلمة موجزة «نحن نعيش ظروفاً قذرة، عندما يضيع الإنسان بلا عودة، ويبقى الأقارب والزوجة، والأولاد، والأمهات، في الانتظار سنين دون

معرفة كنه ذاك الذي حصل لمعتقلهم» لقد كتب لينين عام ١٩١٠ رثاءً للجدات، يقول فيه بصراحة مطلقة: على الجدات حمل السلاح من أجل الاشتراك في الانتفاضة. لقد عرف بنفسه الطريق الذي اختار، فما بالك بعد هذا كله أن يقال عن الأرانب أمثالنا!!!

هكذا نتصور الاعتقال

أصدقك لو قلت، إن الاعتقال الليلي، يعتبر أخطر أنواع الاعتقالات، إنما الحسنة الفضلى له.. هي.. إنه ما أن يدق الباب، حتى يهتاج، ويضطرب الجيران..

كلهم يبتغون انتزاع المعتقل من سريره الدافئ، وهو ما زال نصف نائم، مسلوب الإرادة والقوة، لا يملك قدرة المحاكمة.

لا شك أنه عند تنفيذ الاعتقال الليلي يملك عناصر الاقتحام التفوق في القوى إذ تأتي عناصر الاقتحام من عدة مسلحين، ضد إنسان مهيض، لم يتح له الوقت لأن يزرر بنطاله، وعند المباشرة في التفتيش والبحث عن الأدلة، قد يصادف ويجتمع قرب المدخل جمع من الضحايا المشيعين.. أجل بهذه الكيفية تتم المداهمة لشقة واحدة، وتتلوها ثانية، وثالثة.. مما يتسنى لقادة عمليات الاعتقال مزاولة استجرار الناس القاطنين في المدينة، بأعداد تفوق ما يخططه، وما يقرره المقر العملياتي المركزي.

تنحصر إيجابية الاعتقال الليلي، في أنه لا يستطيع أحد من الجيران، أو من المارة في شوارع المدينة معرفة أعداد المعتقلين ليلاً، ويبقى الذعر والخوف، في دواخل الجيران والمقربين، الذين رأوا الواقعة طي الكتمان، وكأنهم لم يروا شيئاً، وهكذا وعلى امتداد هذه الشوارع الإسفلتية، التي ولدت عليها عمليات (القمع) ليلاً، كانت تتزاح صفوف الأطفال عليها، متراقصةً، ترفع الرايات والزهور، وتصدح بالأغاني الحماسية المرحة. أما المتحامون أولئك، يبقى دينهم وديدنهم الاعتقال، وجل اهتمامهم منحصر في

حمل الرعب والألم للمعتقلين دائماً وأبداً.. ويبقى تصورهم لعملية الاعتقال أعم وأوسع مما هو مرسوم لدينا، لا بل إنهم يملكون النظريات الكبيرة، حيث يقولون لا لزوم للتفكير بشيء، طالما أنه ليس موجود في الواقع.. الاعتقال إذاً هو السبيل الأكثر أهمية، والطريق الأمثل لامتلاء السجون، ولا بد من أن تصاغ لهذا الفهم الاعتقالي نظرية اجتماعية وأساسية، وكذلك لا بد من أن يصنف الاعتقال حسب درجات متفاوتة، فمنه الليلي، والنهاري، ومنه البيتي والخدمي والطرقي، والاعتقال المتكرر، والاعتقال للمرة الأولى، والاعتقال الإفرادي، والاعتقال الجماعي، ويختلف مستواه حسب درجة تحقيق المفاجأة، وحسب درجة المقاومة المتوقعة، (على الرغم من تكرار عمليات الاعتقال عشرات الملايين من المرات، لم يؤخذ بالحسبان توقع المقاومة ولو لمرة واحدة، وفي الحقيقة لن يحصل هذا قط، ويتميز الاعتقال كذلك حسب جدية البحث والتفتيش، هل تستدعي الضرورة القيام بالمصادرة، أو ختم الغرفة أو الشقة بالشمع الأحمر، وتقتضي الحاجة لأن يعتقل الزوج أولاً، ومن ثم الزوجة، وبعدها الأطفال، حيث يرسلون إلى بيت الطفل، أو يرسل كل ما تبقى من العائلة إلى المنفى، أو إلى بيت العجزة، أو إلى المعسكر.

للتفتيش علم كامل متكامل (وقد أتيح لي أن أطلع على هذه الأصول في مادة تدريبية للشرطة في آلماآتا) حيث يكيلون المديح للمحامين اللذين نفذوا التفتيش، وقاموا بنقل طنين، أو ستة أمتار مكعبة من الخشب، ونظفوا الثلج عن جزء كبير من حديقة المنزل، وانتزعوا الآجر من الأفران، وحفروا عدة حفر، وفتشوا دورات المياه، وبحثوا في الأحذية والأقنان، ونبشوا الفرش والوسائد، ونزعوا الضمادات واللزقات عن الجروح، وقلعوا الأسنان المعدنية للبحث عن الوثائق الميكروية.. ويسدى النصح بعد ذلك كله.. في أن يبدؤوا بالتفتيش الشخصي.. وينتهوا به. إذ إنه من المتوقع أن

يقوم المعتقل بالتقاط شيء ما أثناء التفتيش، وكذلك عليهم أن يعودوا للمكان ذاته.. لكن في وقت آخر من اليوم، لإعادة التفتيش ثانيةً.

لا.. إن الاعتقال يختلف في الأشكال والطرق والأساليب /ايرما ماندل/ إلغاء الهنغارية الأصل، كانت قد اشترت، أو قد حصلت على بطاقتي دخول إلى مسرح البولوشوي (الكبير) في موسكو.. وفي المقاعد الأولى.. أولاها المحقق «كليكل» الاهتمام والملاطفة، وقامت على الأثر بدعوته، وأمضوا معاً وقتاً ممتعاً لطيفاً أثناء عرض المسرحية.. وبعد ذلك قام باعتقالها، ونقلها بسيارته إلى «لوبيانكا»[1].

وها إليكم.. واقعة أخرى.. بينما كانت الفتاة الروسية الجميلة آنا سكربيكوف تتمشى على جسر (كوزنيتسكي) في أحد الأيام من عام ١٩٢٧، عرجت في طريقها إلى السوق، واشترت قطعة قماش زرقاء، وبعدها قام أحد الشبان المتأنقين، بالتقدم إليها، ودعاها إلى الركوب في عربة تجرها الخيول (عندها لا بد من أن يكفهر وجه الحوذي ويتجهم، لأنه يعرف أن هؤلاء العناصر لا يدفعون الأجرة) وكما تعلمون لم يكن هذا اللقاء لقاء حب، وعشق، إنما هو لقاء اعتقال. دارت العربة، وتوجهت إلى لوبيانكا، لتتوقف أمام البوابة السوداء.. وإليكم القصة الثالثة، قبل ربيعين من تاريخه، قام الشاب المغدور بوريس بورا كوفسكي، الذي كان يرتدي قفطاناً أبيض، ورائحة العطر تفوح منه، قام بشراء شطيرة معجنات لفتاته.. حذار.. لا تلتفت.. ستقوم فتاتك بأخذ الشطيرة. اقتيد تحت تهديد الطعن بالسكين إلى المعتقل، وزج بالحجرة رقم /١/.. إنه اعتقال من نوع جديد لم ينفذ سابقاً. سواء كان نهاراً، أو ليلاً، أكان في الطريق أو بين الناس.... لا بد من أن ينفذ الاعتقال... إنما بشكل نظيف وهذا هو وجه الغرابة كيف

١- مقر الاستخبارات في مدينة موسكو.

كان الضحايا يطيعون عناصر المخابرات المكلفين بالاعتقال، ويتصرفون بشكل منضبط وعاقل كي لا يتاح للآخرين رؤية الإنسان «المحكوم» عليه بالقضاء، أو الموت.

في كل الأحوال والحالات، ينفذ الاعتقال في أي وقت من اليوم، عند البيت وحتى أمام الباب (وإذا سُئل: من الطارق؟... يأتي الجواب، بواب البناية، أو ساعي البريد)، إضافة إلى هذا يمكن أن يتم الاعتقال في العمل، وإذا حصل واحتد المعتقل، لا بد من أن يتم انتزاعه حسب الحالة الاعتبارية، . إما من بين أفراد عائلته، أو من وسط زملائه ورفاقه وأترابه في الفكر، أو من بين رفاقه السريين، لكنه في كل الحالات يجب ألاّ ينجح في إتلاف أو إخفاء أو إرسال وإعطاء وتسليم أي شيء للآخرين. وأما الشخصيات البارزة من العسكريين، والحزبيين، كانت تطبق عليهم طريقة أخرى، حيث كان سيتم الحجز لهم في مقطورة «الصالون» في القطارات، وأثناء السفر وفي الطريق يتم الاعتقال، إن أي إنسان كان محكوماً بالرعب والموت والخوف، في أن يطبق عليه قانون الاعتقال الجماعي، ما أن يرى رئيسه يرمقه بنظرة شزرة، حتى يدرك بأنه، لا بد واقع في حمأة الاعتقال... وبمرور أسبوع يتم استدعاؤه إلى غرفة الرئيس /المدير/ ويسلم بطاقة استجمام في مدينة /سوتشي/... وما أن يتسلم البطاقة حتى يشعر الأرنب، بأن الخوف الذي اعتراه ما هو إلا أضغاث أحلام.... ويرد بالشكر والامتنان... ويسرع إلى بيته، ليحضر حقيبة السفر إذ لم يبق لانطلاق القطار سوى ساعتين. ويقذع زوجته، ويعنفها بسبب إبطائها في تحضير تجهيزات السفر... هذه هي المحطة... ما زال لدى متسع من الوقت... في صالة الركاب... أو عند الرصيف... يصطدم به شاب أنيق «أوه... إنكم لا تعرفونني بيتر إيفانوفيتش؟ ويجيب بيتر إيفانوفيتش بصعوبة متلعثماً... «يبدو... لي... لا... إنما» ويبدي الشاب اللطيف الأنيق «كيف هذا... سأذكركم»... وينحني أمام زوجة بيتر إيفانوفيتش ويقول: «أعذروني...

لـو سمحـتم لـي بدقيقـةً واحـدة... أتحـدث بهـا مـع زوجـكـم»... وتـسمح الزوجـة للشخصية المجهولة، باقتياد زوجها بيتر من يده، وبشكل ودي... إلى الأبد... أو لمدة عشرة أعوام.. مع أن المحطة تعج بالناس ومع هذا لا يلحظ أحد شيئاً ما... الناس يحبون الترحال والسفر، لكن لا تنسوا... بأنه يوجد في كل محطة قسم خاص للمخابرات مؤلف من عدة غرف للسجن، والاحتجاز المؤقت.

قد يبدو هذا التصنع، والتكلف في طرح هذه المعرفة الوهمية، لتلك الطرائـق الفظـة، بأنـه شـرط أساسـي كـي، يـتم هـذا التحـضير الإرادي للدخول إلى عالم معسكرات الاعتقال، ولا نعتقد البتة، حتى ولو كنتم من العاملين في السفارة الأمريكية، وتحملون اسم الكسندرولغان، بأنهم لا يستطيعون اعتقالكم في وضح النهار جهاراً، وفي وسط شارع غوركي، قرب الهاتف المركزي، فإن صديقكم المجهول المقرب هذا، سينبري من بين جموع الناس فاتحاً ذراعيه «سا... شا... لا بل يصرخ... كيريوفا (بتصغير الاسم)... أوه منذ زمن بعيد لم أرك... تعالَ نقف جانباً... كي لا نعيق الناس».. هكذا إذن جانباً. وعلى الرصيف... ومشيا (وخلال عدة ساعات تعلن وكالة تاس، باستنكار مطلق، وعبر كل الصحف من أن الدوائر المختصة لا تتوفر لديها أيّ معلومات عن اختفاء «الكسندرولغان».

أيّ حكمة هذه... في أن ينفذ قبضاياتنا مثل هذا الاعتقال في بروكسل (حيث اختطفوا جورا بليدنوف) فكيف إذا كان الأمر في عاصمتنا موسكو.

من الضروري مكافأة هذه الأجهزة على مثل هذه الأعمال.. في زمن تبدو فيه كلمات الخطباء، وسرد المسرحيات التمثيلية، والأنماط السياسية، وكأنها عمليات تركيبية راقية - وكذا الاعتقال - قد يبدو بنفس الطريقة متعدد النماذج... يتم اقتيادكم، بعد أن تسلكوا ممر الدخول إلى المصنع وبعد إبرازكم بطاقة الدخول والخروج... وعلى حين غره تختطفون......

ويمكن اعتقالكم من المشفى العسكري، حتى ولو كانت درجة الحرارة ٣٩° «إنس بير شتاين» ومع ذلك فإن الطبيب لا يعارض اعتقالكم (وإلا فليحاول) ويمكن اختطافكم من على طاولة العمليات، حتى وإن كانت العملية قرحة في المعدة (ن. م. فارابيوف مفتش حكومي عالي المستوى ١٩٣٦) وهو بين الحياة، والموت.... يسبح في الدماء، ويساق إلى حجرة السجن (من ذكريات كاريوفيتش).... أنت (ناديا ليفتسكايا) استحصلي لنا على معلومات عن أمك المتهمة.... فإنها لا بد أن تعطيكي إياها.. هذا يعني بأنها ستكون شاهد وجاهي، وبالتالي الاعتقال!... قد يستدعونكم أثناء وجودكم في المحال التجارية، إلى قسم التوصيات، ومن هناك يتم الاعتقال، أو ربما سيعتقلكم القسيس الذي سيقدم إليكم في البيت في عيد تقديس الفصح (صلب المسيح) قد يعتقلكم الساعي قارئ العدادات، أو راكب الدراجة الذي ارتطم بكم مصادفة في الشارع، قد يعتقلكم مراقب القطار، أو سائق التكسي، أو قاطع التذاكر في السينما، كلهم مخولون في اعتقالك، وإن تأخروا، فإنك لا بد من أن ترى يوماً البطاقة الحمراء الجميلة.

هكذا يبدو المعتقلون كاللعب - يمارسون عليهم الكثير من الابتكارات ويستنزفون جل طاقاتهم، على الرغم من أن أولئك الضحايا، لا يبدون أيّ مقاومة حتى ولو كانت طفيفة... وكأن المداهمين العملياتيين يريدون إثبات كفاءتهم، ويظهرون مهاراتهم المتعددة!!!. ألا يبدو هذا كافياً، لأن يرسل الجميع إلى حظيرة الأرانب المخبرية لإجراء التجارب؟... وما عليهم إلا أن يتواجدوا بأنفسهم أمام البوابات الحديدية السوداء، لأقسام الأمن الحكومي، لكي يعرف كل منهم القطاع المخصص في الحجز (أما طريقة اعتقال الكولخوزيين فهي مختلفة إلى حد ما إذ لا يستحق الأمر، أن ترحل إليهم تلك العناصر المداهمة، وتتحمل مشقات، وعناء السفر على الطرقات الترابية... إذ إنه من الأسهل أن يتم استدعاؤهم إلى مركز الأمن... ومن هناك... يؤخذون).

من الطبيعي، أن يكون لكل آلة قدراتها الخاصة، التي قد لا تستطيع أن تتحمل أكثر من استطاعتها المحددة، إلا أن السيل الاعتقالي ما بين ١٩٤٥-١٩٤٦، تتالت فيه القوافل، وأخذت تتتالى وتتتالى من أوروبا، وتم ابتلاعها، وإرسالها مباشرة إلى الغولاغ - أجل لقد استنفذت الألاعيب كافة، وسقطت الحيل، حتى أن النظرية ذاتها بهتت وتغير لونها، وخفت بريقها، وسقط ريشها التزييني الطقوسي، إذ إن اعتقال عشرات الألوف، المصطفة بالطوابير، وهي تحمل بطاقاتها (التي تحدد القافلة المخصصة لكل منهم)... لتسير إلى حيث تسير.

كان يتسم بطبيعة مختلفة إلى حد ما عن سابقيه... إلا أنه اعتقال على أيّ حال.

لقد تميزت الاعتقالات السياسية عبر عشرات السنين عندنا، بسمة أساسية، في أنهم كانوا يلتقطون الناس الأبرياء، الذين لا ذنب لهم، الذين لم يبدوا أيّ مقاومة. أو لم تتوفر لديهم حتى بادرة تنم عن هذا، وقد تشكلت لدى جميع الناس، قناعة مطلقة بالتسليم خاصة (عند العمل بتطبيق منظومة جوازات السفر) حيث لا يمكن الهروب، ولا بأي شكل من الأشكال، من تحت سطوة إدارة الأمن الحكومي، والأجهزة الأمنية في وزارة الداخلية، وطالت حمم الاعتقال الحميمي عقول الناس، وباتوا لا يخرجون للعمل، قبل أن يودعوا عائلاتهم، كل يوم، إذ لا تتوفر مصداقية العودة في المساء، حتى أنهم لم يفكروا بالهروب (إنما قام البعض منهم بالانتحار) وهذه غاية في حد ذاتها، فالأغنام الوديعة تذهب إلى فك الذئب بطوعها.

لقد كان هذا - أيضاً - نتيجة لعدم الفهم الصحيح لآلية انتشار وباء الاعتقال، ولعدم توفر قاعدة عميقة للاختيار، والانتقاء لدى الجهاز الأمني، إذا إن كل إنسان يتعرض للاعتقال، وكل يجاز اعتقاله... والمهم... والمهم فقط أن يتم تنفيذ اعتقال الأرقام الواردة في الخطة الأمنية، وقد يكون من قوام تعداد

هذه الأرقام من هو بالفعل مستحق للاعتقال، وقد يكون من هو واقع تحت لزوم الصفة المطلقة، ففي عام ١٩٣٧، جاءت امرأة إلى قسم الاستعلامات في وزارة الداخلية تسأل، عن الطريقة التي ستتعامل فيها مع طفل الجارة المعتقلة، والذي رفض قبول الرضاعة الصناعية «اجلسوا، قال لها... سنتحقق»، وجلست ساعة وساعتين، واقتادوها من حجرة الاستعلام إلى حجرة أخرى، لقد اقتضت الضرورة استكمال الرقم، وبشكل فوري، ولا تتوفر الرغبة لديهم في تكليف عناصر الأمن بالذهاب إلى المدينة... لا... لا حاجة لذلك... فإنها بين أيديهم!!!. بيد إن الأمر قد يكون على شكل آخر.... ففي إحدى المرات... انطلقت عناصر الأمن لاعتقال اللاتفي أندريه باقل قرب مدينة أورشي، وما أن فتح الباب، قفز المطلوب من النافذة، وتمكن من الفرار، ورحل إلى سيبريا، ليعيش هناك، وتحت ذات الاسم الذي يحمله في الهوية الشخصية، التي تبين مكان عيشه السابق في مدينة أورشي، وبالفعل لم يتم اعتقاله مدى الحياة، ولم يتم استدعاؤه، أو لم يكن حتى موضع شك وريبه... مع العلم بأنه تتوفر في مثل هذه الحالة طرق متعددة للملاحقة، فمنهم من تتم ملاحقتهم في عموم الاتحاد، ومنهم ما هو مطلوب على مستوى الجمهورية، أو على مستوى المحافظة، أو الإقليم، ويمكن القول أن من طالهم هذا الاعتقال الوبائي، لم يتكرر طلبهم حتى على مستوى المحافظة أو الجمهورية، حيث إن المخصصين للاعتقال بالمصادفة، يكونون ضحية وشاية من جار على جاره، طبقاً لما حدث مع باقل السابق ذكره، أو مع أولئك الذين تواجدوا مصادفة في مكان الاعتقال، أو داخل المسكن المداهم، أما أولئك الذين توفرت فيهم الشجاعة الكافية للفرار والهروب، فإنهم لم يتعرضوا للاعتقال أو الاستجواب ثانية، وأما من بقوا ينتظرون العدالة، صدر الحكم عليهم بالاعتقال، والسجن لآماد طويلة مختلفة، حتى إنه يمكن القول إن غالبية الذين كانوا رهن الاعتقال، كانوا من نوعية هؤلاء المستضعفين والمستسلمين ومسلوبي الإرادة.

الحقيقة أن وزارة الداخلية (القوميسارية الوطنية للأعمال الداخلية) كانت تكتفي في عدم العثور على الشخصية المطلوبة، بتوقيع التصاريح من الأقارب، بعدم السماح لهم بالتنقل، ولم تقم بتدوين المعلومات في الملف عن مكان وجود الهارب.

إن البراءة، واللا مبالاة قد تلحق الضرر بصاحبهما، لكن من المحتمل ألاّ يطالك الاعتقال، حتى هذا التاريخ.. ويمكن لك أن تفلت!!!. لقد كان آ. ي. لاديجينسكي أستاذاً فاضلاً في مدرسة منسية (كالاكريف)... وفي عام ١٩٣٧... وبينما كان يتجول في «السوق»، اقترب منه رجل ما، وسر له برسالة شفوية تلقاها من مصدر ما (الكسندر ايفانوفيتش)... ارحل... فاسمك مدرج في القائمة. إلا إنه لم يعر لذلك اهتماماً، إذ أعتقد أن المدرسة وتلاميذها، يرغبون في بقائه، ويؤيدونه... وراح يقنع نفسه، ويتساءل... كيف يمكن اعتقالي... وأطفال عناصر المخابرات من تلامذتي (وخلال عدة أيام تم اعتقاله) ولم يتح للجميع الفهم، والاستيعاب، كما أتيح لـ (فانيا ليفتسكي) الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، ليدرك... أن كل إنسان شريف لا بد من أن يقع في السجن... فوالدي يقبع الآن هناك، وعندما أكبر لا بد أني ملاقٍ نفس المصير، وبالفعل تم سجنه عندما بلغ عمره ثلاثة وعشرين عاماً. يتعلق أغلبية الناس ببصيص أمل، فلطالما كنت بريئاً - فلا يعقل أن يأخذوك قط، وهذا هو الخطأ بعينه، إنهم يأخذونك، ويتهمونك، وأنت ما تزال تمني نفسك.. بأنه خطأ... ولا بد من أنهم يتحققون من الأمر... ولا شك في إنهم مطلقو سراحي، وقد يقومون أحياناً بالسجن والاعتقال جماعياً، إنما هذه ليست قاعدةً صالحةً في غالب الأحيان، إذ إن لكل حالة من الحالات، تتوفر جوانب مظلمة «يمكن أن يكون هذا الذي حصل بالفعل»... أما أنت... قد يكون من المحتمل ألا تكون مذنباً!!!... لكنك ما زلت تنظر للجهاز بمثابة مؤسسة إنسانية، تتحرى الأمور بشكل منطقي، وتطلق سراحك فيما بعد.

إذاً نعود لنقول... ما النفع من هروبك؟.. وكيف يمكنك المقاومة؟ فأنت بهذا تحط من قَدْرتك، وتعيق التحقيق.. ومن الخطأ القاتل، لو أنك قاومت الاعتقال.. وعليك الهبوط من على الأدراج، والقيود في يديك... دون إحداث أيّ ضجة.. كي لا يسمع الجيران جلبة الاعتقال..

ما أن تصبح في المعسكر، حتى ينتابك الندم المحرق... لتقول ماذا لو أن كل عنصر من عناصر الاقتحام، الذين يمضون الليل في تنفيذ الاعتقالات، أعتقد أو أحس باحتمال ألا يعود حياً، أو قل شعر بأنه عودته ليست محققة، وكاف لأن يودع في كل ليلة يخرج فيها أفراد عائلته؟... ماذا لو أن الناس في لينينغراد، الذين طال الاعتقال، ربعهم، قاوموا واعترضوا على سجانيهم أمام الإدارة... الحكومية، أو لو أنهم تململوا عند كل نقرة، أو دقة على الباب، أو أنهم اتخذوا موقفاً ما عند سماعهم وقع خطوات قوية على الأدراج... لأدركوا دون شك بأنهم لا يفقدون شيئاً عندها.. وكان من الأفضل أن يحمل بعضهم البلطات أو المطارق، أو أي شيء في اليد... طالما بات معروفاً: بأن هؤلاء الذين يجوبون البيوت ليلاً، ليسوا نادمين بحسن نية مطلقة... عندها لن تخونك فراستك، لتدرك أنه عليك أن تقوم بطرد ذلك السائق القابع في سيارته على ناصية الشارع... أو على الأقل تنفس له العجلات... عندها وعندها فقط.. لا بد من أن يتناقص عدد العاملين في الجهاز، أو قد تخف سطوة القوى المتحركة، بغض النظر عن التعطش الستاليني لتلك السطوة.. أو قد تتحطم بعدها تلك القذارة... عندها... وفي تلك الحالة قد تستحق الحياة وإلا ماذا يبقى لك من أشياء تفعلها بعد الاعتقال، وكيف لك أن تقاوم؟ أتقاوم في تلك الحالة، عندها ينزعون منك حزامك؟، أو عندما يقال لك تَنحَّ في تلك الزاوية، أو عند خروجك من منزلك... لا أبداً عليك أن تعلم، أن الاعتقال جاء نتيجة بضع حيل طفيفة، وعدة تصرفات معينة، ولم يأت قط نتيجة عدم الاعتقاد بفكرة الجدل

والمناقشة والممانعة، حتى ولو جزئياً. (لكنه وعند نضوب كافة أفكار المعتقل، لا يستطيع أن يتمعن في جدوى السؤال العظيم... (ما السبب)؟ - يكون التمعن عندها والتساؤل عن السبب قد جاء دون امتلاك لقدرة مراوغة الاعتقال نفسه.

أجل ليس هو بالقليل، ذاك الذي يعتلج في طوية المعتقل الطازج!!!

ولربما قد لا تحيط تلك المعلومات والعلوم، التي احتوتها المؤلفات، بتلك الأحاسيس التي تعتمل في سريرته... ولا تستطيع حتى إدراكها!... فعندما اعتقلوا الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً عام ١٩٢١، عاث يغفيني دورينكو مع ثلاثة من عناصر المخابرات الفتيان فساداً، وعبثوا في فراشها، وثيابها، وأغطيتها... وبقيت مع ذلك هادئة... وهي تقول: لا يوجد شيء... ولن تجدوا شيئاً... وفجأة وضعوا أيديهم على دفتر مذكراتها اليومي، الذي كانت أخفته عن أمها... فكيف لها أن تتصور أن يطلع هؤلاء الشبان على تلك المذكرات الشخصية.... أجل لا بد من أن هذا أثر فيها، أكثر من تلك الحالة التي كان يمكن أن تقع فيها تحت تأثير لوبيانكا، وأقفاصها، وأقبيتها.... وبلا شك، بأن هذه الأحاسيس الشخصية، الفائقة الشفافية، التي تنتاب العديد من الناس عند الاعتقال... لهي أقوى إلى حد ما... من مجمل تلك الأفكار السياسية، ومن الخوف المطبق عليه في السجن نفسه. إذ إن الإنسان الذي لا يملك نزعة الظلم... فلا بد من أنه سيكون أضعف من ظالمه.

يندر اجتماع الجرأة والعقل في لحظة واحدة... فعندما قدموا لاعتقال مدير المعهد الجيولوجي الأكاديمي غريغورروف عام ١٩٤٨... أقام متراساً، وبقي يحرق الأوراق على مدى ساعتين...!!

غالباً ما يكون الإحساس الرئيس عند المعتقل - هو تهوين الأمر، والتخفيف من حدته: لا بل يمكن أن يكون حتى أحساساً بالسرور، وبخاصة عندما ترى بأن الجميع من حولك يؤخذون... ويؤخذون في حمأة

الوباء الاعتقالي.. وأنت كما أنت... قائم في مكانك حتى الساعة، ولم يأتوا إليك لسبب يبرر إرجاء اعتقالك لوقت آخر.. ترى... أليس الألم، والمعاناة الدائمان... أشد إيلاماً وحدة، من ألم التوتر وانتظار ساعة الاعتقال، الذي يطال الجميع من حولك دونما استثناء... حتى ضعاف العزيمة منهم. وفي هذا السياق لا بد أن نذكر الشيوعي العريق فاسيلي فلاسوف، الذي رفض الهروب، والفرار أكثر من مرة... على الرغم من العروض، والاقتراحات من قبل معاونيه اللا حزبيين. ولم يرضخ... أو حتى يتقبل... أن تعتقل قيادة فرع منطقة كاوسكي (١٩٣٧)، ويبقى.... لوحده دون اعتقال... وها تراه استطاع.. تلقي الضربة في الجبين... واستقبل الاعتقال هادئاً... لا بل إن حساً رائعاً اعتراه في الأيام الأولى لاعتقاله.

في عام ١٩٣٤ سافر الأب القسيس إيركس إلى «آلماآتا» لتقديس المنفيين المؤمنين، بينما كانوا في ذات الوقت يداهمون شقته في موسكو، ولمرات ثلاث كي يقوموا باعتقاله، وما أن عاد إلى موسكو حتى استقبله أتباع أبرشيته في محطة القطار، ومنعوه من الذهاب إلى مسكنه، وأخفوه في منزل تم إعداده له في موسكو لمدة ثماني سنوات، ولكم كان من الصعب على هذا القسيس أن يعيش أعواماً تحت وطأة القلق والتوتر، ومع ذلك وعلى الرغم من هذا التحرز اعتقل في عام ١٩٤٢، ورفع تراتيل الحمد للرب فرحاً زجلاً!!!.

- نتحدث في سياق الفصل الأول من الكتاب، عن جماهير الأرانب المسجونة بلا ذنب وسبب، وسنتعرض لاحقاً إلى الزمن الحالي، وإلى أولئك الذين، ما زالوا سياسيين أقحاحاً - لقد حلمت فييرا ريباكوفا الطالبة في معهد الاشتراكية - الديمقراطية حلمت، بإدارة جياشة عن منفى سوزدالسكي، حيث اعتقدت بأنه هناك، وهناك فقط تستطيع أن تتوقف وتلتقي الرفاق القدماء (الذين لا يقيمون هناك بملء إرادتهم)، وتقوم بصقل تصوراتها العقائدية. وعلى غرارها كانت الأخرى إيسيركا يكتيرنا

أولتسكا حيث اعتبرت نفسها عام ١٩٢٤، بأنها لا تستحق حتى شرف الدخول إلى السجن، حيث يتواجد خيرة، وأفضل الناس في روسيا، وإنها ما زالت صغيرة، ولم تقدم بعد التضحيات، ولا أي شيء آخر من أجل بلدها الحبيب روسيا، إنما أخرجتها إرادتها من نفسها، وذهبت وإياها إلى السجن، باعتزاز وسرور بالغين.

«المقاومة... أين مقاومتكم التي أبديتموها»؟- الآن فقط، يلوم هذا الذي أفلح في البقاء خارج السجن، أولئك الذين يلاقون فيه الويل، والظلم.

نعم.... كان عليه أن يبدأ من حيث المعتقل...

إنما تراه... لن يبدأ أبداً.

وهكذا يقتادونكم... وربما توفرت لكم فرصة لا تعوض عند تنفيذ الاعتقال نهاراً، في أن تقوموا بشيء ما إلا إنكم تعمدتم عدم تذكر هذا الفعل تحت ضغط جبنكم المتحرج، أو تعمدتم الرضوخ وبشكل واضح تماماً، لسلطة المسدسات المحشوة - وهكذا تقتادون إلى حيث مئات المعتقلين الأبرياء، المظلومين... ويبقى فمكم مع ذلك مطبقاً أبداً... ألا يتوجب عليكم على الأقل أن تصرخوا... ما بالكم أيها المعتقلون لا تصرخون في وجه هؤلاء المتلبسين الأشرار، الذين يصطادون الناس بجريرة تلك التقارير والبلاغات الكاذبة المزورة.... لماذا لا تصرخون في وجه هذا التنكيل الصامت المطبق على ملايين البشر. لو أن الأصوات عمت المدن، والأحياء يومياً، لما كان يمكن أن يجدي صراخنا هذا ضمن الحدود الدنيا بشيء ولم يحدث وجاء تنفيذ عملية الاعتقال أكثر ليناً.

في عام ١٩٢٧ حيث لم تكن عقولنا خربت بفعل الإذعان، والاستسلام بعد، حاول عنصران من الجهاز اعتقال امرأة في وضح النهار عند ساحة سيربوخو - فسكي، وتمسكت على الأثر بعمود الكهرباء، وراحت تصرخ، وتصرخ، ولم تستسلم، وتجمهر الناس..... (أجل كان من الضروري

أن تكون مثل هذه المرأة، ومن الضروري كذلك أن يتجمهر لفيف من المارة فالبعض منهم لا يستطيع غض الطرف، والبعض الآخر يتصنع العجلة، وينزلق جانباً)، وعلى الفور ارتبك الشابان، وأسقط في يدهما إذ لم يتعودا العمل وسط التجمعات الكبيرة المستثيرة، وامتطيا سيارتهما وهربا. (أما المرأة فقد غادرت المحطة على الفور، وذهبت إلى بيتها لترتاح من عبء الحادثة... لكنهم جاؤوا فيما بعد ليلاً، واقتادوها إلى لوبيكانا).

لكن... لا صوت يخرج من شفاهكم الجافة!!! بينما يحتضنكم هذا الجمع وسط الزحام دون مبالاة، مثلما يحتضن أولئك الشبان الخلان، الذين ما هم في الحقيقة، إلا جلاديكم الذين يرتعون، ويتنزهون وسط الزحام ذاته.

أنا نفسي... كانت لدي الإمكانية لأن أصرخ أكثر من مرة.

في اليوم الحادي عشر على اعتقالي، كنت برفقة ثلاثة من المتطوعين الوقحين المطهمين بأحزمة ثلاث حقائب، تفوق حجمي (كانوا كدسوها فوقي طوال الطريق) نقلوني إلى محطة روسيا البيضاء في موسكو.... وسيرنا في ناقلة أطلقوا عليها صفة القافلة، إلا أنها في الحقيقة لم تكن تحمل هذه الصفة، ذلك لأن الأسلحة التي يحملونها كانت هي وحدها التي تعيقهم من حمل الأمتعة.... التي نهبوها.... أو التي نهبها قادتهم، أثناء عمليات الاستطلاع المضاد المنفذ على الجبهة في روسيا البيضاء، وأطلقوا عليها تسمية القافلة الخاصة، تحت يافطة التعذر بمرافقتي مع سبعة من أترابي الوطنيين، ولكم كانت رغبتي جامحة، ألا أحمل الحقيبة الرابعة، التي كانت تحتوي على مذكراتي اليومية، وإبداعاتي التي ستكون أدلة في إدانتي.

كان هؤلاء الثلاثة لا يعرفون المدينة، وكان علي اختيار أقصر الطرق المؤدية إلى السجن، وفُرض علي كذلك أن أقتادهم إلى لوبيانكا، إذ لم يسبق لأي منهم أن جاء إليها من قبل. (لقد ضللت الطريق، وأخطأت في التفريق بينها (لوبيانكا) وبين بناء وزارة الخارجية). وبعد أن أمضيت اليوم الأول في أروقة

مبنى مخابرات الجيش، أحلت إلى مخابرات الجبهة، حيث بقيت ثلاثة أيام في عهدة قسم الزنزانات المنفردة (حيث يجري هناك الاستجواب التلفيقي، وممارسة التهديد، والإحباط.. ولم يحصل ولو مرة واحدة، أن أعيد المعتقل من حيث أتى... كأمثاله من العشرات) أو أن أفلت منهم بأعجوبة ما وهاأنذا قد مضى علي أربعة أيام... مسافراً طليقاً بين الطلقاء، مع العلم بأن جوانبي قد تمرغت على مصاطب الهشير العشبي بين الأغنام، ورأت عيناي المعذبين المحرومين من النوم، وسمعت أذاني الحقيقة... وفمي مطبق أبداً... ولكم ساءلت نفسي... لماذا أصمت... وما الذي يمنعني من أن أقوم بتنوير وتوعية هذه الصفوف المخدوعة في آخر الدقائق الباقية من حياتي.

لقد صمتُ في المدينة البولونية /برودنيتسا/ ربما لأنهم لا يعرفون هناك التكلم باللغة الروسية!!! ولم أصرخ في شوارع /بيلاستوكا/ ربما لأن قضيتي لا تهم البولونيين؟!.... ولم أنبس ببنت شفه في محطة فولكافيسك - ربما لأنها لم تكن مكتظة بالناس.... وهكذا على الرغم مني أتنزه مع هؤلاء المرافقين قطاع الطرق على أرصفة شوارع /مينسك/ - وزئير المحطة يدق سمعي، ويقترب شيئاً فشيئاً، وأنا أقود خلفي هؤلاء الأوغاد على مصاعد السلالم المتحركة الدائرية لمحطة مترو الأنفاق (بيلا روسيا رايالنا)، التي كانت تزدان بالأنوار الساطعة من أسفلها إلى أعلاها، وفي مواجهتنا السلالم الصاعدة المكتظة بالموسكوفيين،.. وخيل إلي في تلك اللحظات بأن نظرات الناس، مصوبة نحوي، وهم يندفعون كشريط متواصل بلا انقطاع صعوداً من الأعماق المجهولة.... ويتواصل هذا الشريط البشري... ويتواصل... دون أن يحاول أحد ما... أن ينبس بكلمة ما عن الحقيقة - إذ لا حول لهم مثلي إلا الصمت.... والصمت الثقيل!!!.

قد يكون لكل قاعدة، أسباب لدنة، تعطي الإنسان الحق في ألا يضحي بنفسه... فالجميع.... يأملون الخلاص والصفاء... ويخافون من

أصواتهم التي قد تفسد هذا الكيان (إذ كما تعلمون، إننا لا نملك علم الغيب. ولا نعلم ما المستقبل الذي ينتظرنا بعد الاعتقال... ربما كان الموت.. في أدنى الحالات... حيث لا يمكن لك أن تتوقع ما هو أبعد من ذلك).

أما الآخرون.. لم يستوعبوا بعد، ولم يصلوا إلى مستوى الإدراك، من أن يجمعوا أصواتهم أثناء انضوائهم في طوابير الاعتقال... إذ إن فهماً كهذا يوجد فقط لدى الثوريين، عندما تخرج الشعارات من بين شفاههم، يصرخون للعلن... بينما كيف لهذا الهادئ المسكين الضيق الأفق.. أن يعرف بكل بساطة من أنه يستصرخ، على الرغم من وجود الكثير من الناس الذين تملأ صدورهم غيظاً، ورأوا بأم أعينهم الكثير الكثير، وكان بإمكانهم أن يقذفوا هذا السيل بصرخات متقطعة من آن لآخر.

أما أنا... ما زلت صامتاً لسبب وحيد: وهو أني أرى هؤلاء الموسكوفيين الصاعدين على أدراج المترو، قلة قليلة! وإذا ما أسمعت ولولتي لهؤلاء الناس الذين لا يتجاوز عددهم المئتين أو أكثر بقليل... فكيف لي أن أسمع صوتي لأولئك المئتي مليون... لهذا تراني حائراً... في أن أصرخ... وهل يتاح لي يوماً أن أصرخ... لهؤلاء المئتي مليون..... لا أدري.

فلطالما........ كنت واجماً لا أفتح فمي.... حتى هذه السلالم المتحركة باتت في عجلة.. لأن تدفعني للسقوط...

ومع ذلك، وبملء إرادتي ما زلت صامتاً

ولا أصرخ قرب الميتروبول..

ولا أشير بيدي إلى ساحة كالكوفسكي لوبيانكا

لقد كان اعتقالي من أبسط أشكال الاعتقال حسب تصوري، ذلك أنني لم أختطف من بين أقاربي... ولا من وسط حياتي المنزلية العزيزة على قلوبنا جميعاً، ففي شهر شباط الأوروبي المترهل، نبشني الاعتقال من حيز أرضي ضيق على بحر البلطيق، حيث كانت كتيبتي العادية متمركزة،

دونما حراك على مدى ثلاثة أشهر من الحرب فلا كنا في حالة حصار من قبل الألمان، ولا هم محاصرون من قبلنا.

دعاني قائد الكتيبة إلى مركز القيادة، ولسبب ما طلب مني المسدس، وسلمته إليه دون أن أرتاب بأيّ مخاتلة - وفجأة انبرى اثنان من عناصر المخابرات من بين مجموعة الضباط الذين بدا عليهم التوتر والاضطراب. وعبرا الغرفة متقافزين، وامتدت أياديهم الأربع، لتنتزع النجمة من على العمرة والرتب، وانتزعا الحزام والحقيبة، وصرخا... بشكل دراماتيكي!!! أنت معتقل.

لقد وخزني توتر شديد، لفني من الرأس حتى القدمين، ولم أجد في ذاكرتي كلمة أكثر حكمة من أن أقول... أنا... ولأي سبب.

على الرغم من أنه لا توجد أجوبة على مثل هذا السؤال... إلا أنه ويا للغرابة لا نتردد في توجيهه بتلقائية مطلقة حتى ولو جاء مغايراً، بشكل كلي وغير اعتيادي لعاداتنا... وبعد أن فرغ هؤلاء المغاوير من تجريدي... ومن نزع أحشاء الحقيبة، أمسكوا برزمة من الأوراق دونت فيها كل الخواطر السياسية المعتلجة في خاطري..

وفجأة يرتج الزجاج على أثر انفجار قنبلة ألمانية... وبسرعة فائقة يدفعونني إلى المخرج.. ولكم عزّ علي هذا الوداع القاسي - أجل حدث وكان هذا الفاصل الصمتي بيني وبين هؤلاء الذين سأتركهم هنا... هذا الفاصل الصمتي، الذي ولدته هذه الكلمة المرعبة، المريعة «معتقل»... فمن أين لك في خضم هذا الموقف الطاغوتي، أن تكون أو تألف، أو تنشئ في ذهنك أيّ عبارة كلامية - انطلقت من فم القائد كلمات - سولجنستين... عد إلينا

وبدوران حاد... أفلت من يد المرافقين، ... خطوت نحو القائد الذي بات خلفي... والذي لم أكن أعرفه في السابق عن كثب... حيث لم يتساهل معي

قط... ولم يتح لكلينا تبادل الأحاديث البسيطة.. وكنت ألفت وجهه فقط عندما كان يفصح بالأوامر، والتعليمات، والغضب... بيد إن وجهه الآن بدا وضاءً خجلاً حائراً من مشاركته غير الإدراية في تنفيذ هذا العمل القذر، وتراه متحرجاً مما قام به من فعل قد يكون في مستقبله الحياتي ندم لا ينسى إلى الأبد، خاصة وإني كنت قبل عشرة أيام من هذا التاريخ قد أفلحت في سحب فصيلة الاستطلاع من التطويق، وما زالت الكتيبة المؤلفة من طواقم اثني عشر مدفعاً، قابعةً هناك تحت الحصار... وها هو الآن يتنازل عني مرغماً تحت سطوة الملف الورقي الممهور بالخاتم الرسمي.

هل لديك صديق على الجبهة الأوكرانيّة؟ سأل القائد باهتمام بالغ.

ممنوع... إنكم لا تملكون حق السؤال... صرخ في وجه القائد كل من الرائد ونقيب المخابرات.... وتكورت في الزاوية مجموعة من ضباط القيادة والأركان... وكأنهم خافوا من اقتسام هذا التهور الأخرق الذي قام به القائد (أما العاملون في القسم السياسي - لا بد من أن يكونوا جاهزين لتقديم أيّ مواد ضرورية ضد القائد)... لقد كان هذا كافياً لأعرف، من أن اعتقالي كان بسبب مراسلتي مع زميل الدراسة، وعرفت كذلك أين يكمن الخطر.

إن ما حصل كان كافياً لأن يحجم زافاغيو - كيفتش ترافكين عن الكلام، إلا أنه استمر في إظهار نقاوته، واستقامته أمام نفسه... إذ نهض من وراء المكتب (علماً بأنه لم يسبق، وأن قدم لي الدعم خلال الفترة التي خدمت فيها عنده)، وعلت وجهه ملامح طاعونية، وأخذ يدي وشد عليها (كذلك لم يسبق أن شد على يدي)، وقال: وهو ما زال يضغط بكفه على يدي، ويهزها أمام الحاشية المرتعبة، وقد وشّت وجهه حمرة لم أعهدها على هذا الوجه المتجهم أبداً... قال بحدة:

- أتمنى لك السعادة أيها النقيب.

نعم منذ لحظة نزعت صفة النقيب عني، وها أنذا الآن غدوت من عداد أعداء الشعب (إن كافة المعتقلين يصبحون أعداءً للشعب من لحظة الاعتقال).... وبهذا تراه تمنى السعادة للعدو[1].

الزجاج يرتج، والانفجارات تمزق الأرض على امتداد مئتي متر، وكأني بها تذكرنا، بأن هذا الذي ترون، لا يمكن أن يحدث هناك في أعماق أرضنا الممتدة، الواسعة وتحت سقف أولئك القابعين في كيانهم مستقرين.... لكن هذا يحدث هنا فقط، تحت أنفاس الذين ينظرون إلى الموت بلا مبالاة.

إن كتابنا هذا ليس مذكرات حياتية خاصة، وتراني لن أعمد إلى التحدث عن التفاصيل المنسية لاعتقالي، الذي لا يشبه أي اعتقال آخر.... في تلك الليلة يئس المرافقون الأشاوس بشكل كامل من تحليل وقراءة الخريطة (ذلك لأنه لم يسبق لهم قط أن تعاملوا مع هذه الطلاسم)، وناولوني إياها بلطف، وأوكلوا إلي مهمة توجيه السائق على الطريق المتبع إلى مركز الجيش لمكافحة الجاسوسية، وذهبت وإياهم إلى ذلك السجن، وامتناناً للعبد المذكور، فإنه لم يسجن في حجرة عادية، إنما زجوه في حجرة ضيقة شبيهة بالزنزانة، ومقتطعة من مستودع فلاح ألماني، يستخدم الآن سجناً مؤقتاً لا يمكن الإفلات منه.

كان طول الزنزانة تلك بطول قامة الإنسان، وعرضها يتسع لثلاثة أشخاص - أما ذلك الرابع فيمكن حشره... وكنت إذاك هذا الرابع، الذي مضى عليه مساقاً نصف ليلة، تمدد قبلي ثلاثة من المعتقلين، أومؤوا إليّ بنظرة من عيون ثقلى يداعبها النوم، بدت لي تحت شعاع نور ينبعث من مصباح كيروسيني، تململوا قليلاً، وأفسحوا لي مكاناً أضع فيه جنبي،

١- من أوجه الغرابة: إن الإنسان في كل الحالات ذو كينونة - فترافكين هذا لم يتعرض للأذى، ولم يمض الوقت الطويل، إذ تقابلت معه بسرور بالغ، وتعرضت اليه عن كثب لأول مرة، وهو الآن جنرال متقاعد، وعضو في اتحاد الصيادين.

وتحت قوة الثقل انغرست بينهم كالإسفين، حتى لامست الأرض المغطاة بطبقة سميكة من التبن والقش، وبرزت أحذيتنا الثمانية من تحت معاطفنا نحو الباب... ها هم يغطون في نومهم... أما أنا كنت أتقد غيظاً من شدة الحنق إذ إنني كنت قبل نصف يوم من الآن نقيباً، وأكثر ما زاد من ألمي، وحرقتي هذا الحشر داخل الوكر، الذي ما أن يتحرك أحد ما تحت ضغط الخدر في جنبه، حتى تأخذنا عدوى التقلب كلنا.

استفاقوا صباحاً... وتثاءبوا... وتنحنحوا... وجمعوا أرجلهم، ودسوها في زوايا مختلفة، وبدأ التعارف.

أنت... ما سبب وجودك هنا؟

ولفحتني نسيمات مبهمة من الحذر، تحت هذا السقف المسموم في مركز مكافحة الجاسوسية. وقلت بطيبة قلب مستغرباً.

ليس لدي أيّ فكرة... وتساءلت... هل يعقل أن تبوح هذه الأفاعي بشيء؟

كان زملائي في الزنزانة من سلاح الدبابات، يتلفحون الوشاح الأسود الدال عليهم، لقد كان هؤلاء ثلاثة شرفاء، ثلاثة جنود طيبي القلب، من أولئك الناس أمثال من كانت علاقاتي معهم أثناء سنوات الحرب، وكان منهم من هو على شاكلتي، أو أكثر تعقيداً، وسوءاً. لقد كان هؤلاء ضباطاً، ونزعت الرتب عن أكتافهم بحقد مطلق، هذا إذا لم تنزع بعض النتف اللحمية من تحت الكتافيات، حيث بدت على أرديتهم بعض البقع، التي تميزت بلونها عن لون الرداء الحالي، وقد يستدل على إنها كانت راقدة تحت الأوسمة، وعلت أجسادهم بعض الكدمات الحمراء، وبدت واضحة على الوجوه، والأيدي - بعد أن تعرضت للقصف، بالقرب من مكان تمركز مقر مكافحة التجسس للجيش الثامن والأربعين، الذي خرج من المعركة أول البارحة، وإن ما فعله هؤلاء الثلاثة، هو أنهم شربوا

في مجاهل هذه القرية، واقتحموا الحمام بعدما لاحظوا دخول فتاتين للاستحمام، وتمكنتا بعد التخبط من التخلص منهم، وهما نصف عاريتين، واستطاعتا الهرب أمام هذه الأرجل، التي أعياها السكر، إلا انه تبين فيما بعد، أن واحدة منهما، ما هي إلا عشيقة أحد ما... عشيقة قائد مكافحة الجاسوسية «الاستطلاع المضاد».

أجل... مضى ثلاثة أسابيع على انتقال الحرب إلى الأرض الألمانية، وكلنا يعلم جيداً، بأنه لو كانت هاتان الفتاتان ألمانيتين - لكان من الممكن اغتصابهما، وعلى الأثر تطلق النار عليهما... وربما كان هذا إنجازاً قتالياً مميزاً، ولنفترض كذلك لو أنهما كانتا بولونيتين، أو روسيتين... ربما كان... من الممكن ملاحقتهما في المدينة عاريتين، مع التربيت على أفخاذهما - ولاعتبرت الواقعة مزحة مضحكة ليس إلا. إنما وبقدر ما كانت إحداهما (زوجة المسير، أو زوجة الميدان) لقائد مكافحة الجاسوسية - فإنه بات من المشروع، أن يقوم حسيب ما، بنزع رتب هؤلاء الضباط الثلاثة، بناءً على أوامر مصدقة من الجبهة... نعم هنا يجاز نزع الرتب الممنوحة من رئاسة مجلس السوفييت الأعلى، وبقي الآن على المقاتل الذي شارك في الحرب، واكتسح الخنادق المعادية، بقي عليه أن ينتظر المحاكمة العسكرية، على الرغم من أنه لولا هؤلاء المقاتلين، لما كان من الممكن، وصول الدبابات حتى هذه القرية.

أطفأنا الفانوس بعد أن عبق الجو بدخانه، وأثقل تنفسنا، وما أن راح يتسرب إلى الغرفة شعاع عبر الشقوق العريضة في الباب، يتسع لدس مظروف بريدي، حتى أنبأنا بقلق عن قدوم نهار آخر، يضاعف من ضيق هذه الغرفة، ويدفع إلينا بزائرين جدد... وبالفعل لم يمضِ الوقت الطويل حتى قدم الزائر مرتدياً المعطف العسكري الجديد، ومعتمراً القبعة العسكرية، وما أن صار أمام الباب حتى بان وجهه الندي من بين الشقوق، وترتسم عليه البقع الحمراء التي توشي خديه. بمسحة جميلة..

من أنت أيها الأخ.... ومن تكون؟

أجاب وجلاً... جاسوس من تلك الناحية (وأشار بيده باتجاه الجبهة).

أتمزح؟.... سألناه والذهول يعلو وجوهنا (لو أن كل جاسوس فضح نفسه بهذه الطريقة - لما تكلف الكاتب شانين، والأخوة تور - عناء التأليف عن كيفية كشف الجواسيس).

أي مزاح يمكن أن يكون في زمن الحرب - تنهد الشاب وقال بروية: أهكذا تتم العودة من الأسر على الوطن؟... تعلموا!!

ببطء شديد راح يروي القصة لنا... كيف أن الألمان سيروه عبر الجبهة قبل يومين من الآن، بهدف أن يقوم بالتجسس، ونسف الجسور، وبدءاً من اللحظة التي وصل بها، ذهب إلى أقرب كتيبة صديقة، وسلم نفسه، إلا أن قائد الكتيبة الذي أنهكه التعب، والسهر لم يصدق وما قاله عن أمر تكليفه بالتجسس، وأرسل في طلب الممرضة لتعطيه بعض الحبوب الدوائية... وبينما كنا نصيخ السمع إليه... وإذ بالأوامر تصدح فجأة!!

هيا جهزوا أنفسكم للتنفس - الميدان إلى الخلف... صرخ المساعد من الباب المنفتح على مصراعيه، وهو يبدي جهوزيته لأن يضغط على الزناد الرشاش الذي يحمله / من عيار ١٢,٢ مم/.

لقد انتشرت حول هذا المنزل الفلاحي أطقم الرشاشات تحرس الطريق، أو المعبر الضيق، الذي يؤدي إلى مدخل هذه السراي «وكدت أنفجر من الغيظ»... كيف يمكن لهذا المساعد الفظ إعطاء الأوامر لنا نحن الضباط «الأيدي إلى الخلف» ووضع جنود الدبابات أيديهم خلفهم... ولحقت بهم.

خلف هذا البيت كانت توجد زريبة ذات مساحة ضيقة، انتشر الثلج على أرضها، وامتلأت بكتل البراز البشري المبعثر بشكل فوضوي ومتقارب مما أسهم في ازدياد المهمة تعقيداً، وضاعف من صعوبة إيجاد

موضع للقدمين، كي تقرفص و... ومع كل هذا استطعنا أن نتبين أمكنة لأرجلنا، وقرفصنا (نحن الخمسة)... واثنان من حملة الرشاشات يقفان قبالتنا برشاشاتهم المنخفضة، وسبطانتها الموجهة نحونا... إلى الأسفل... أما ذاك المساعد لم يترك ثانية تمر دون، أن يستنشق بعمق وهو يقول:

- عجلوا... التنفس عندنا يتم بشكل سريع.

قرفص بالقرب مني واحد من أطقم الدبابات ملازم أول روسي من روستوف، ممتقع الوجه.... بدا عليه السواد من آثار السخام، والغبار، والدخان المعدني، وبدت تحت رقبته بضع خطوط حمراء بادية للعيان، وقال:

أين هذا.... عندكم؟.... سأل بهدوء وكأنه لا ينوي الاستعجال في دخول الحجرة، التي تنبعث منها رائحة الدخان الكيروسيني.

قال المساعد عندنا في مقر مكافحة الجاسوسية، قالها المساعد هذا.... بشموخ أكثر وزناً من الرتبة التي يحمل. (لقد أحب عناصر المخابرات، التلفظ بمثل هذه الكلمات الهامشية المضلّلة «الموت للجواسيس» - كلمة ذات وقع مخيف)..

أما عندنا.... ببطء شديد.... وبتردّد... أجاب الملازم الأول... الذي أزاح طرف ردائه، ورده إلى الخلف لينسدل على كتفه ورأسه الذي لم يكن حليقاً حتى بانت مؤخرته... الجبهوية تتلقف الرياح الباردة المنعشة، وقد رقشتها الحبيبات الحمراء، والحليمات العاجية.

أين هذا عندكم؟ قال المساعد بصوت، فاق صوت الملازم الأول:

في الجيش الأحمر... أجاب الملازم الأول... بشكل هادئ.. وهو مقرفص... يرمق المساعد «الزليمه» بنظرة استعراضية..

هكذا إذن... هذه هي أولى جرعاتي من فترات التنفس في السجون!!!

الفصل الثاني

تاريخ تصريفنا في الأسيقه

كلما ضاعفوا من ممارسة العنف والاستبداد على رقاب العباد، كلما اكتسبوا عناداً جديداً... على غرار ما كان في عامي السابع والثلاثين، والثامن والثلاثين... إذ بدا للعيان وكأنهم لم يزجوا بأحد قبل، أو بعد هذا التاريخ... إلا أن عملية الزج الاعتقالي انحصرت بشكل أكثر ضراوة في هذين العامين.

إني لا أخاف الخطأ في قولي، لو قلت: إن السيل الاعتقالي، لم يكن خلال هذين العامين، هو الوحيد، وكذلك لم يكن هو السيل الرئيس الأساس، إنما ربما كان من أكبر السيول الاعتقالية الثلاثة الكبيرة، في عمليات السحق الكئيب المريع النتن، التي امتلأت فيها تلك الأسيقة المؤدية للسجون.

كان قد تم قبل تنفيذ هذا السيل الاعتقالي، اعتقالات عام ١٩٢٩-١٩٣٠، إضافة إلى أولئك الذين تاهوا، وفروا هائمين على وجوههم في التاندرا، والغابات، والذين قد يفوق عددهم الخمسة عشر مليوناً، تاركين خلفهم عائلاتهم، دون أيّ صلة، أو مراسلة دون امتلاك حق الدفاع، والشكوى، والتظلم... وغدوا بلا ذكريات... إلا أنهم لم يتعرضوا لذلك الإزعاج الليلي، والإجهاد اللذين يخلفهما التحقيق في غارب النفس، ولم

تكتب لهم المحاضر ولم تنفق أو تهدر أوراق البيانات الصادرة عن مجالس القرى الزراعية.

لقد انسكب هذا السيل البشري من غمرة الصمت الجليدي الأبدي، لا بل يمكن القول، بأن أكثر العقول حرارة، ونفاذاً، قد لا تمتلك قوة التذكر عن تلك الجموع المسفوحة... فكيف إذا كان هذا الضمير، والوجدان الروسي لم يجرح...

تراني أقول هذا... وفي هذا السياق بأن ستالين لم يقم (وكذلك نحن وأنتم) بجرائم تصل إلى هذه الدرجة الكبيرة.

توالت الاعتقالات الجماعية ما بين عامي ١٩٤٤-١٩٤٦، ودفعت الأمة بكاملها في مئات الأقنية إضافة إلى تلك الملايين، الملايين التي وقعت في الأسر (كل هذا بسببنا نحن)، والذين نقلوا إلى ألمانيا... وعادوا بعد ذلك (ترى أليس هو ستالين نفسه، الذي أذاقهم مر العذاب... وقام وعلى الفور بعد عودتهم إلى توجيههم إلى هناك على وجه السرعة، لكي لا يقيض لهؤلاء المواطنين الحصول على الراحة، أيّ راحة كانت جسمية، أو نفسية... كي لا يتعافوا... لأن هذا بحد ذاته يؤدي إلى اشتداد عودهم، ليدافعوا عن أنفسهم، من الأسر... ليلتحقوا في السيل الجحيمي المرهق... وكانوا في غالبيتهم من الناس البسطاء الذين لا يكتبون المذكرات.

إن السيل الاعتقالي عام ١٩٣٧، صب بعدد من الأسيقه في الارخبيلاك، وتناول جميع أولئك الناس، الذين كانوا من أصحاب المبادئ، أو من ذوي المنزلة الرفيعة، أو من الحزبيين القدامى (الأوائل)، أو من أولئك المتعلمين... عدا عن العديد العديد... من أولئك الذين بقوا في المدن يكتوون بجراحهم... وبعضهم كان من أولئك الذين يمسكون بأقلامهم!!: وها تراهم الآن يكتبون، ويتكلمون ويتذكرون، ذلك العام المشؤوم عام ١٩٣٧، ويتذكرون ذلك الألم الذي حمله الشعب في تلك الآونة.

إنك إذا ما ذكرت هذا العام ١٩٣٧، أمام تتري، أو أمام كاليكي، أو أمام شيشاني، فإنه يصر كتفيه، ويزم شفتيه تبرماً، وإذا ما ذكرت اللينغراديين بهذا العام وبالعام الذي سبقه وما قبله، أو ما ذكرت البلطيقيين ونوهت لهم. بأن هذا العام لم يكن أكثر ثقلاً من عامي ١٩٤٨-١٩٤٩، فعندها لا بد من أن يقوم هؤلاء جميعاً، الغيور منهم، والعالم بالجغرافية، بتوجيه اللوم كل اللوم لي، لأنني لم أذكر أسماء جميع أنهار روسيا وسيولها، ولم أذكر أيضاً جميع تلك السيالات البشرية... عندها.... وعندها فقط أقول... امنحوني مزيداً من الصفحات، وعندها لا مناص من أن نقوم بتعداد تلك السيول الاعتقالية الجارفة.

من المعلوم، أن كل عضو، أو جهاز لا يخضع للتمرين، لا بد من إنه صائر للموت!

وإننا لو عرفنا هذه الأجهزة (بهذه الكلمة المقززة، فلا بد من أنهم أنفسهم كذلك مسمون) لذا كان لزاماً على هؤلاء أصحاب السوء والرفعة، أن يبقوا أحياء، دون أن يموت منهم أي قرن، لا بل على العكس من ذلك، يجب تطويرهم، وتقوية عضلاتهم - ولا شك إذاك بأن من السهل التوقع، في أنهم يتدربون على هذا بشكل دائم، ومتواصل.

لقد عرفت تلك الأسيقه الاعتقالية تدفقات مختلفة - إذ كانت أحياناً تفوق ما هو مقرر، وأحياناً أخرى تقل عن المطلوب، وهكذا حتى تستمر الأقنية بالجريان، بحيث لا تبقى السجون فارغة... أجل إن الدم، والعرق، والبول في الحشر الذي عشناه، لم تكن إلا سياطاً تلهب أنفسنا بشكل دائم، وما تاريخ تصريف الأسيقة هذه، إلا تاريخ الحشر، ودفع التيارات بشكل دائم ومستمر، حتى إذا ما انتهى الطوفان الأول، يبدأ الطوفان الآخر، بحيث يستمر انصباب هذه السيول الكبيرة منها والصغيرة من كل حدب وصوب، ومن أقاصي البلاد، لتشكل ودياناً وأنهاراً. وأما

حبيب النقمة والتذمر لم يزد عن بضع قطرات، ولم تخرج من زمام السيطرة قط.

إن ما سيرد ذكره لاحقاً من تعداد لا بد من أن يذكرنا بهذه التيارات المؤلفة من ملايين المعتقلين، ومن عشرات الجداول، التي لم تلحظ ولا ريب، بأنه ربما يكون قد بقيت بعض البؤر الكبيرة من تلك التي لم تسمح لي إمكاناتي باختراق الماضي، مما يتطلب إضافات كثيرة من قبل الناس العارفين، والذين ما زالوا على قيد الحياة.

★★★

إنه من الصعب البدء بتعداد تلك القوائم واللوائح، إذ إن الغوص في عمق عشرات السنين، يضعك أمام واقع لا تجد فيه إلا قلة من الشهود، الذين ما زالوا على قيد الحياة، حيث خفتت شعلة بعضهم وربما انطفأت، وإذا ما حاولت العودة إلى الأرشيف والوثائق والمخطوطات، فحنانيك إنها ما زالت تحت الأقفال، على الرغم من أنه ليس من العدل أن ننظر هنا إلى فترة محددة، أو إلى تلك السنين المتميزة بالقساوة (الحرب الأهلية) - أو إلى سنين المسالمة الهادئة، التي كان ينتظر منها الطيب والخير.

لقد بدا أن روسيا قبل الحرب الأهلية من حيث تركيبها السكاني، ليست مهيأة لتطبيق النظام الاشتراكي، بسبب ما تعانيه من التدنيس والقذارة. وكانت أولى الضربات التي وجهتها الديكتاتورية إلى الكاديت الذي مثل في زمن القيصرية الاتجاه الثوري المتطرف، وصار في زمن حكم البروليتاريا - ممثلاً للاتجاه الرجعي المتطرف). وفي نهاية كانون الثاني عام ١٩١٧، وعند أول موعد للاجتماع الدوري لحزب الكاديت، الذي لم ينعقد صدر مرسوم باعتقال أعضائه، وتم في الوقت نفسه إلقاء القبض على أعضاء «اتحاد المحافظين في الاجتماع الدوري» وعلى حركة «المعاهد العسكرية». ونتيجة لسيادة أفكار الروح الثورية، وحسبما كان متوقعاً،

فقد امتلأت السجون خلال عدة أشهر (سجن كريسي، وبوتيركي، والسجون الريفية الصغيرة) بكل الأنواع، من الأغنياء الكبار، والشخصيات المرموقة البارزة، والجنرالات، والضباط، وموظفي الوزارات، وكل شخصيات الجهاز الحكومي التي رفضت تنفيذ توجيهات نظام الحكم الجديد. وكانت المهمة الأولى التي أوكلت إلى أجهزة لجنة الطوارئ هي اعتقال لجنة المضربين لعموم العاملين في روسيا، حيث ورد في بيان اللجنة الوطنية للشؤون الداخلية في كانون الأول عام ١٩١٧: «نظراً للتخريب الذي يقوم به الموظفون تعلن حالة الطوارئ القصوى، بحيث يبقى الجميع، كل حسب موقعه في مكان العمل، وفي حالة الضرورة تتخذ إجراءات الالتزام بالعمل، وفي حال الامتناع تتم المصادرة والاعتقال».

بغية تثبيت أقدام النظام الثوري الصامد، طلب فلاديميير آيلتش لينين في عام ١٩١٧ «سحق محاولات الفوضى، التي يقوم بها السكارى، والزعران دون رحمة» التي يشارك بها أعداء الثورة، والشخصيات الأخرى، الأمر الذي يعني، بأن الخطر الأول على ثورة أكتوبر حسبما هو متوقع، قد يأتي من قبل السكارى، فبينما ضعفت خطورة أعضاء الثورة المضادة في المركز الثالث - وهكذا أعطيت المهمة بخطوطها العريضة، لقد جاء في إحدى المقالات تحت عنوان (كيف يتم خلق روح المبادرة) التي أصدرها لنيين في تاريخ ٦-٩ كانون الثاني عام ١٩١٨ «إن الهدف العام الوحيد هو تنظيف الأرض الروسية من كل الحشرات» والمقصود من كلمة الحشرات، ليست فقط الطبقات المناهضة، بل قصدت أولئك العمال، الذين يتقاعسون عن العمل، ومن بينهم عمال التنضيد في المطابع الحزبية (إليكم ماذا يعني البعد الزمني، حيث بات من الصعوبة الآن أن تدرك كيف أن هؤلاء العمال، الذين يشكلون قوام الديكتاتورية نفسها) (باتوا هم أنفسهم الذين يتهربون، ويتكاسلون في تنفيذ العمل)، ويضيف كذلك «لا يوجد في أحياء

المدن الكبيرة، أو في المصانع، أو في القرى مخربون، يطلقون على أنفسهم مناشفة». إن حقيقة طريقة التطهير للحشرات، تصورها لينين، وتوقع تنفيذها بطرق مختلفة، حسبما ورد من مقالة: (أين سيتم سجنهم، وأين يتم فرز هذه الحشرات المطهرة، وكيف سيتم تزويدها، بعد أن يتم إطلاق سراحها من الزنزانات، ببطاقات خضراء، يحدد عليها مكان إعدام هذه الطفيليات، أو يحدد عليها السجن الذي سيقضي فيه (صاحب البطاقة) العقوبة، أو يحدد المكان الذي سينفذ فيه المحكوم الطفيلي السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة» وعلى الرغم من التصور والإيحاء الجيدين اللذين، أبرزهما لينين في تحديد الاتجاهات، لتنفيذ العقوبات. فإنه كان يقترح إيجاد أفضل التدابير لتنفيذ عملية التطهير عبر إقامة مراكز خاصة، تقام لهذا الغرض (كومونه - بؤرة مشاعية) تستخدم فيها أساليب خلق المبادرة والتنافس.

لن نعمد إلى التحري عن هؤلاء الذين أطلق عليهم الحشرات، ذلك إنه يوجد بين الشعب الروسي، على اختلاف نوعيته ومشاربه كثير من الأفراد المهملين المنعزلين، وكثير من الجماعات المنسية، ولا بد من أن تكون هذه الحشرات من أعضاء المجالس المحلية قبل الثورة، أو من أعضاء الجمعيات التعاونية، أو من مالكي البيوت، أو أن الكثير منهم كان من أوساط المعلمين، بيد أنه كانت تعتبر المجالس الدينية الكنسية برمتها حشرات، إضافة إلى أولئك الذين يشتركون في جوقات الترتيل في الكنائس والقساوسة، ورجال الدين والرهبان والراهبات. أما أولئك الأغنياء الدسمون، الذين بادروا إلى الاشتراك في خدمة الحكم السوفييتي، وأولئك الذين استمروا في عملهم في السكك الحديدية، ولم يقوموا بتأدية القسم المطلوب بالدفاع عن نظام الحكم السوفييتي بالسلاح، والأيدي - فإنهم كذلك أدرجوا تحت التصنيف إياه، (وسنتعرض لاحقاً للحالات التي قدموا

فيها للمحاكمة)، وكثير منهم من توارى تحت صفة العمل في السكك الحديدية، وكان لا بد من انتزاعهم، وتوجيه اللكمات للبعض منهم. لكن الأمر لم يفت عمال البرقيات، من أن يكونوا شديدي الولع بالانتماء إلى تلك الحشرات، ولم يبدوا التعاطف مع الحكم السوفييتي، ولا يسعنا كذلك أولاً أن نذكر شيئاً عن تلك النقابات، والتنظيمات العمالية الغاصة بالحشرات المادية المعادية للطبقة العاملة.

لقد تضاعفت أعداد هذه المجموعات الواردة آنفاً، وتم فيما بعد تصفيتها وتطهيرها على مدى السنوات العشر القادمة.

ولكم كان المثقفون الملعونون والطلاب النجسون والآخرون الذين بدوا غريبي الأطوار في بحثهم عن الحقيقة، وبخاصة منهم المحامون، الذين باتوا أشد خطراً من كل الفئات الأخرى، ولا غرو أن نجد أن بطرس الأول كان قد استمات في تطهير روسيا القيصرية من هؤلاء الذين يعيقون الأنظمة الاستبدادية باستمرار.

كان من الممكن أن تنجح عمليات التطهير الوقائي، وبخاصة في ظروف الحرب، لو أنهم استخدموا التشريعات القديمة، والطرق القانونية بلبوس جديد، أي دون اللجوء إلى إجراء المحاكمات، لكنهم بدلاً من هذا عمدوا إلى إلقاء مسؤولية التنفيذ على عاتق أعضاء جهاز لجنة الطوارئ العامة، وعلى عاتق حراس الثورة الذين قلما تجد في تاريخ الإنسانية مثيلاً لهذه الأجهزة التكنيكية، التي تتحكم بالسيطرة عليها يد واحدة يعول عليها تنفيذ كافة الأوامر القضائية، بدءاً من الاعتقال والتحقيق، وانتهاءً بتمثيل النائب العام والمحكمة، وبالتالي تنفيذ حكم الإعدام.

في عام ١٩١٨، وبغية تسريع الإنجازات الثقافية للثورة، قاموا بنسف، وتقويض الزوايا القدوسية، وطهروا البيت الكنسي من سدنته، الأمر الذي أدى إلى قيام بعض الاضطرابات الشعبية، التي راحت تدافع عن اجتياح،

وتهديم الكنائس، والأديرة، ونزع الأجراس هنا وهناك. مما فاقم من ردة الفعل الأرثوذكسية، التي هب أتباعها إلى التسلح بالعصي دفاعاً عن مقدساتهم، لكن أنى لهم ذلك، لقد استهلك البعض منهم في الميدان، وسيق البعض الآخر إلى الاعتقال.

من الصعب علينا الآن تصور تلك الأحداث التي مرت بين عامي ١٩١٨-١٩٢٠، ومعرفة فيما إذا كان قد أرسل هذا الكم البشري الهائل إلى السجن، أو وجهت للبعض منهم الصفعات القوية، دون الوصول إلى مرحلة الدخول في زنزانات السجون الكبيرة... بيد أن جزءاً كبيراً من الفلاحين الفقراء منهم، قد تم استيعابه محلياً، إذ قامت اللجان المحلية في القرى بزجهم في زواريب القرى... ونتساءل... هل أفلح كل هؤلاء المشتركين في عمليات التآمر، في أن تطأ أرجلهم أرض الأرخبيلاك؟ لا سيما وإنهم توافدوا من الولايات كافة، والأقاليم والمقاطعات (اثنان من ريازانسكي، أو من كاستراموسكي، أو من فولغا العليا، أو من فيليجنسكي، وبعض من كييف، ومن موسكو، وساراتو - فسكي، أو تشيرناكوفسكي، واسترخانسكي، وسيلكريسكي، وسمولنسكي، وبوبروسكي، وشاميوفسكي، وكافالريسكي، وتشيرمباسكي، ونيلاكولوسكي سنيسلافسكي، ومن محافظات أخرى)، أم لم يفلحوا؟.... أم تراهم لا يدخلون في مادة البحث والدراسة التي نحن بصدد التحدث عنها؟ أم علينا تجاوزهم في هذا التقصي للأحداث، الذي نقوم فيه بالتحدث عن عمليات القمع، وحركات التمرد، والعصيان المشهورة في كل من الأقاليم (بارسلافسكي، مورفسكي، ريبانسكي، ازرامسكي)، وغيرها من الأحداث الأخرى، التي لا نعرف منها إلا أسماءها فقط، كحادثة إعدام كاليبنسكي عام ١٩١٨، دون أن نعرف الهوية الشخصية لأولئك الذين نفذ فيهم حكم الإعدام، أو انتماءهم السياسي، وطوائفهم الدينية، وتاريخ زجهم؟

من الصعب التقدير... ومعرفة تصنيف هؤلاء، وأولئك، وتحت أيّ قائمة، أو لائحة، يمكن إدراجهم... هل تحت قائمة سيل المساجين؟، أم تحت يافطة رصيد الحرب الأهلية؟ الذي شمل هؤلاء الرهائن الأبرياء، الذين زاد عددهم عن عشرات الألوف من السكان المدنيين، دون أن تدون أسماؤهم، ولو بقلم رصاص على أيّ صحائف، أو وثائق، إما بسبب التعذر لضيق الوقت، أو نكاية بالعدو الفكري، لأن جلّهم كانوا من المشاركين في انتفاضة ما، وسيقوا إلى القتل والفتك انتقاماً وأخذاً بالثأر، وبخاصة بعد صدور أمر من وزارة الداخلية بتاريخ ١٩١٨/٨/٣٠، الذي نصّ، وحض على «الإسراع في اعتقال كافة القوى اليمينية المتطرفة، والثوريين الاشتراكيين، واعتقال أكبر عدد ممكن من البرجوازيين، والضباط كرهائن) ويتضح من هذا بأن الصفة الاعتبارية، تسبق الفعل عند الاعتقال (ولنتصور لو أن السلطات قامت وبعد الاعتداء على جماعة أوليانوفا، باعتقالها واعتقال كافة الطلبة من روسيا، حتى مع أعضاء (الزيمتسي)[1] حتى تتحقق مقولة استباق الصفة على كل عمل إجرامي آخر، حيث نوه (السيد لاتسيس) في مقال له، نشرت صحيفة (الإرهاب الأحمر) - تشرين الأول ١٩١٨: «نحن لا نشن حرباً ضد أشخاص معنيين، إنما نشنها ضد البرجوازية كطبقة... وليس عليكم التحري في محاضر التحقيق عن ذلك المتهم الذي قال كلمة ما، أو قام بعمل ما ضد النظام - إنما يجب عليكم أن توجهوا إليه الكلمة الأولى، وهي: لأيّ طبقة تنتمي، وما منبته، وتربيته، ودرجة تحصيله العلمي، ومهنته... هذه هي الأسئلة، التي تحدد مستقبل المتهم. هذه هي فكرة وجود أو قيام الإرهاب الأحمر».

لقد ورد في قرار مجلس الدفاع بتاريخ ١٩١٩/٢/١٥ برئاسة لينين - «وبناءً على اقتراح مقدم من جهاز الأمن الطوارئي، وعلى اقتراح وزارة

١- أعضاء المجالس المحلية المنتخبة في الريف الروسي قبل الثورة - المترجم.

الداخلية، بأنه يجب احتجاز الرهائن من أولئك الفلاحين، الذين يقيمون في تلك الأماكن، التي لا تتم فيها بشكل أمثل، عمليات تنظيف الثلوج عن خطوط السكك الحديدية». هذا يعني (بأنه إذا لم تتم عملية التنظيف بشكل جيد... وهذا أمر يصعب تحقيقه... فإنه في هذه الحالة ينفذ حكم الاعدام... واستتبع هذه المقترحات قرارٌ صادرٌ عن اللجنة الوطنية السوفييتية، يتضمن حجز حريات أعضاء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي، وعند تتبع طبقة الاعتقالات العادية، يلاحظ وبدءاً من ربيع عام ١٩١٨/ بأنه تتالت سيول المعتقلين دون انقطاع، فمنهم الاشتراكيون الخونة، الذين انضووا تحت لواء الأحزاب، الاشتراكي - الديمقراطي، والمنشفي، والفوضوي، والاشتراكي الوطني، التي تمظهرت - على مدى عشرات السنين بالثورية المقنعة - وسيق أعضاؤها المتظاهرون بالاشتراكية، إلى معسكرات الأشغال الشاقة، أو تبين حسب تقدير الحرس الثوري الجامح، بأن هذه الأحزاب ذات جوهر برجوازي - وداعية لاشتراكية منحرفة وخائنة. وكان من الطبيعي الإقدام على اعتقال أعضائها.

بداية تم اعتقال الكاديين[1]، عند انعقاد الاجتماع اليومي، وقاموا بتجريد كتيبة (بريوبراجينسكي) وكتائب أخرى من الأسلحة، وبعد ذلك عمدوا إلى اعتقال أعضاء الحزب الديمقراطي - الاشتراكي، والمنشفي، وطردوا من المجالس السوفييتية اعتباراً من ١٤ حزيران عام ١٩١٨، بعد أن تم اعتقال بعض الزمر منهم بشكل عادي، وحبي، على أثر قيام البعض منهم بتشكيل تنظيم في ٦ حزيران من العام نفسه مؤلف من يساريّي الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الذين كانوا أكثر استعداداً، لا بل أكثر حاجة لترك حزبهم، وأكثر صراخاً للانضواء تحت عصبة الحزب البروليتاري الوحيد. إلا أنه على أثر هذه الاعتقالات عمت الاضطرابات

١- طلاب المدرسة الحربية.

الشعبية، والعمالية المدن والمصانع (وخاصة في صيف عام ١٩١٨، وربيع عام ١٩٢١ (آذار)، واضطرمت الاحتجاجات في كل من بيتروغراد، وموسكو، وفيما بعد من مصانع كرانشتات، حيث. أجبرت القيادة على الانصياع إلى مطالب العمال العادلة، مقابل توقف أعمال العنف، إلا أن الجهاز الأمني للطوارئ استمر في عمله، وكان ينفذ الاعتقالات ليلاً تحت جنح الظلام بهدوء مطلق، وشمل أعضاء المناشفة، والديمقراطيين - الاشتراكيين، بصفتهم يحملون مسؤولية التحريض على الاضطرابات. وفي صيف عام ١٩١٨ من نيسان عام ١٩١٩ تم اعتقال الفوضويين[1]، بعد أن كان قد تم الانتهاء من اعتقال أعضاء اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي - الاشتراكي، وسجنهم في (سجن بوتيركا)، حتى جرت محاكمتهم في عام ١٩٢٢. وقد كتب أحد قياديّي الجهاز الأمني من ذلك الوقت المعروف بـ (لاتسيس) عن اعتقال المناشفة؟ «إن هؤلاء يعيقون مسيرتنا، ... وها ترانا نقوم بتنظيف الطريق منهم، لئلا يقعوا تحت الأرجل، ونزجهم في أماكن متواضعة (سجن بوتيركا)، ونحجز حريتهم، ونجبرهم على المكوث هناك، ريثما ينتهي نضال العمال ضد الرأسمالية». وفي حزيران عام ١٩١٨ تم اعتقال كل أعضاء مؤتمر العمال غير الحزبيين، من قبل الفرقة اللاتفية التابعة لحرس الكرملين، وسحبوا إلى سجن /تكانكي/ بعد أن نجوا بصعوبة من إطلاق الرصاص عليهم في ذات الساعة، التي أدخلوا بها السجن.

منذ عام ١٩١٩، بدأت الريبة والشك، تحيط بكل الروس العائدين من البلاد الأجنبية (لماذا؟... ربما كانت عودتهم بمثابة مهمة معينة) بما فيهم أيضاً الضباط كافةً الذين كانوا في قوام تجريدة الفيلق الروسي في فرنسا، الذي كان يؤدي مهمات التعاون العسكري مع الجمهورية الفرنسية ضد ألمانيا.

١- تنظيم نقابي يعرف بتنظيم الفوضويين.

ازداد التنويه في بداية عام ١٩١٩ إلى قيام مؤامرة حقيقية، وكاديّة (المركز القومي) - «المؤامرة العسكرية»، ونفذت على أثر أحكام الإعدام في موسكو، وبيتروغراد، ومدن أخرى (حسبما نصت اللوائح الاسمية للمشمولين بحكم الإعدام)، وزج بعدها بمجموعات كبيرة من المثقفين، الذين عرفوا «بأدعياء الكادية»، أي أنهم ليسوا كاديين، إنما بدوا كذلك إن شئت القول ليسوا هم بالملكيين، ولا بالاشتراكيين، مما يعني بأنهم من الأوساط العلمية الجامعية والفنية والأدبية والهندسية، بما فيهم أولئك الكتاب المتطرفون، واللاهوتيون ومنظرو الاشتراكية، الذين كانت نسبة ٨٠٪ منهم من عداد (أدعياء الكادية)، وكان ينتمي إلى هذه الفئة حسبما أفاد لينين، كريلنكو - «المسكين صنيعه الأفكار البرجوازية» - والذي سيرد ذكره فيما بعد ولا نرى في ذلك أي شك، أو خطأ حتى لو زج بمثل هذه العبقرية، في السجن لمدة أسبوع.

لقد أتيح لي الاطلاع على مجريات هذه الاعتقالات الجماعية المنفصلة، من خلال قراءتي مذكرة الاحتجاج، التي قدمها الكاتب غوركي في ١٩١٩/٩/١٠، والذي جاء الردّ عليها من قبل لينين «بينوا لنا... بأن مثل هذه الأخطاء ارتكبت»، ولكن «ما المصيبة في هذا حسب رأيك؟... بل أين الظلم في ذلك»؟، وأردف يقدم النصيحة لغوركي، بألا يضيع نفسه بالتباكي على مثل هؤلاء المثقفين العفنين».

لقد ازدادت اتساعاً عملية جمع المواد الغذائية، وإعادة توزيعها منذ عام ١٩١٩، وقد تم تشكيل مجموعات خاصة، لتقوم بهذا العمل، وكثيراً ما واجهت هذه المجموعات المقاومة في جميع القرى، التي دخلوا إليها حيث تراوحت بين الغاضب منها والمتذمر. وحسبما جرت العادة، أعطيت الأوامر بخنق هذه الظاهرة (بغض النظر عن الذين لاقوا حتفهم في المكان)، ونتيجة لهذا توالت السيول الاعتقالية على مدى سنتين (وكانت بمجموعها من الفلاحين الذين رفضوا تسليم المواد الغذائية).

في هذا السياق، لا بد من أن نتجاوز وبدراية تامة، مجموع ما قامت به أجهزة الأمن الطوارئي، وفروع المخابرات الخاصة، والمحاكم العسكرية الثورية، التي كانت منهمكة في صد الخطر على الجبهة، ومنع احتلال المدن، والأقاليم حيث ورد في بيان لوزارة الداخلية الصادر في ١٩١٨/٨/٣٠، بأنه يجب حشد القوى «لتنفيذ إطلاق النار الفوري على كل من يشترك في الثورة البيضاء (الغفاردية) المضادة»[1]... وهنا لا بد لك من أن تحار.... كيف لك أن تميز حقيقة ما جرى، إذ إنه في عام ١٩٢٠ لم تكن الحرب الأهلية قد أشرفت على النهاية في غالبية المناطق بل على العكس من ذلك ازداد أوارها في منطقة الدون، وراحوا يرسلون الأعداد الكبيرة من الضباط من منطقتي روستوف، ونوفاتشيركراسك، إلى ارخانكليسك، ليتم نقلهم من هناك بواسطة البوارج إلى سالوفسكي (ولقد غرق الكثير من هذه البوارج في البحر الأبيض - أو في بحر قزوين)، ولنا أن نتساءل، هل يمكن إضافة هذه الخسائر، إلى خسائر الحرب الأهلية، أم يتطلب إلحاقها بضحايا البناء العالمي؟... وإذا ما استطعنا أن نصنف هذه الضحايا. فكيف لنا أن نصنف مقتل إحدى زوجات الضباط، التي كانت في الأشهر الأخيرة من الحمل، والتي تعرضت إلى إطلاق النار، تحت ذريعة إخفاء زوجها؟...

وتحت أيّ يافطة يمكن أن نصنف هذه الواقعة؟

لقد وردت في قرار اللجنة المركزية الشهير، الصادر في عام ١٩٢٠، فقرة عن (أعمال التخريب في المؤخرة)، وما أن قرأناها... حتى أدركنا وحسب التجربة، والخبرة التي نملك، بأن التحضيرات قد بدأت، لدفع سيل اعتقالي جديد... حسب الدلائل والمؤشرات الظاهرية... لقد كمنت كل

١- عرفت عملية التدخل الأجنبي من روسيا لمساعدة القوى الروسية المحلية المضادة للثورة، بالثورة البيضاء.

الصعوبات (ويا لها من إيجابية مميزة)، في تنظيم هذه الاعتقالات الجماعية سيما أنه من عام ١٩٢٢، لم تكن موجودة القوانين والتشريعات الجنائية، لا بل حتى النظم التشريعية الضابطة لقانون الجنايات، إنما بفضل التشريعات الثورية (التي لا يعتورها الخطأ أبداً) تمكنوا من اعتقال هذه الجموع، واستطاعوا تحديد اللوائح الاسمية بأولئك المزمع اعتقالهم، وتحديد الإجراءات التي ستتخذ ضدهم.

لن نعمد في سياق حديثنا إلى تتبع هذه التدفقات من الجناة، والمرتكبين، إنما سنذكر فقط حجم هذه الفاجعة الوبال، التي كمنت في عدم استكمال إعادة البناء للإدارات، والمؤسسات وإعادة سن القوانين، الأمر الذي ضاعف من حالات السرقة، والنشل، والاغتصاب، والسلب، والمتاجرة، والمضاربة، وعلى الرغم من أن هذه الأعمال لا تؤثر على كينونة الجمهورية، إلا أنه مع ذلك تمت متابعة هذه الأعمال الإجرامية كافة، وأدت إلى زيادة في الاعتقالات، والتدفقات الاعتقالية، مما جعلها من حيث الحجم تفوق تلك التدفقات، التي شكلتها سيول اعتقالات مناهضي الثورة. ولقد أصبحت المتاجرة صفة ذات طابع سياسي، طبقاً لما ورد في القرار الوزاري المصدق من قبل لينين بتاريخ ١٩١٨/٧/٢٢ «إن المتهمين في الترويج وشراء وتخزين المواد بغية تصريفها عن طريق إعادة تصنيعها، أو المحتكرين في الجمهوريات (بما في ذلك الفلاح الذي يقوم بتخزين القمح، بغرض تحويله إلى تصنيع غذائي... ويا لها من صناعة تحويلية!). يخضعون للسجن لمدة لا تقل عن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، ولمصادرة ممتلكاتهم كافة.

بدءاً من العام نفسه، تفاقم الوضع في الريف، بشكل غير اعتيادي، وتردت الحالة من سنة إلى أخرى، وسلمت المحاصيل إلى الدولة مجاناً دون تعويض، مما آثار الانتفاضات الفلاحية، التي تعرضت للقمع والقهر، وأدى

إلى تشكيل سيل اعتقالي جديد (اجتث الجزء الأكبر من الشعب المحب للعمل، واستئصاله عن بكرة أبيه). وقد جاء في رسالة كريلنكو إلى غوركي بتاريخ ١٩٢١/٨/١٠، قد نعلم (ولا نعلم) عن حدوث تلك العملية عام ١٩٢٠، المسماة (بعملية اتحاد الفلاحين السيبيريين.. وعن عملية قمع الانتفاضة الفلاحية في تامبوسكي، التي أشرف على القيام بها اتحاد العمال الزراعيين (طبقاً لما حصل في سيبيريا)، إلا أنه يمكننا القول، بأنه لم تنفذ أيّ إجراءات قضائية أثناء عمليات القمع هذه.

لقد تمت مصادرة القوت الأساسي للمواطنين في تامبوسكي في حزيران عام ١٩٢١، وأقيمت معسكرات الاعتقال في المحافظة ذاتها، لعائلات الفلاحين المشاركين في الانتفاضة، وتم تسييج الحقول بالأسلاك الشائكة، واحتجزت العائلات الفلاحية لمدة ثلاثة أسابيع، بسبب الشك في أن تكون تلك العائلات قد حرضت أربابها على الاشتراك في الانتفاضة، حتى إذا ما قام الزوج بتسليم نفسه خلال ثلاثة أسابيع، ويشتري سلامة عائلته برأسه، وإلا قد تساق العائلة كلها إلى المنفى.

قبل ذلك في آذار عام ١٩٢١، كان قد أرسل إلى جزيرة الأرخبيلاك، وعبر حصن ترويتسكي، وقلعة بيروبافلسكي، الجنود البحارة المشتركون في انتفاضة كرانشتسات، الذين نجوا من الإعدام سابقاً ومن نفس المكان.

صدر في العام نفسه أمر من إدارة جهاز الأمن الطوارئي رقم ١٠/ تاريخ ١٩٢١/١/٨ ينص «على مضاعفة الاضطهاد على كل من له علاقة بالبرجوازية الرجعية»... نعم زيادة الاضطهاد، وليس الإقلال منه... على الرغم من أن الحرب الأهلية قد وضعت أوزارها، وكان من الأوجب التقليل منه وليس العكس، ولم يفت الشاعر فالوشين، أن يصور لنا بعدة قصائد شعرية محفوظة ذلك الاضطهاد من جزيرة القرم.

في صيف عام ١٩٢١، تم إلقاء القبض على اللجنة الاجتماعية لمساعدة متضرري المجاعة (كوستوف، ويراكوبوفيتش كشكين، وآخرون)، وانحصرت جريمتهم في أنهم حاولوا، إيقاف أو التخفيف من تأثير هذه المجاعة على روسيا، إلا أن القضية من حيث الأساس، كانت في طبيعة الأيدي التي تطعم الجوعى، إذ إنها ليست هي الأيدي التي يسمح لها بتقديم الطعام. وقد وصف كريلنكو انهيار هذه الجمعية، وبعد أن قدم التعازي، وترحم على رئيسها: «بأنه أردأ وأسوأ فعل على الإطلاق، يقوم به هؤلاء اللاعبون السياسيون» - رسالة إلى غوركي في ١٩٢١/٩/١٤، يضيف في الرسالة ذاتها، «إن أكثر الصفات خصوصية في سجون عام ١٩٢١ هي - «إنها عجت بحمى التيفوس»... وهذا ما أكدته فيما بعد سكريتكوفا؛ والآخرون، الذين كانوا نزلاء السجون في تلك الآونة.

طفت حملة اعتقال للطلاب في العام نفسه (كان فيها طلاب أكاديمية تيمرزليفكي ومجموعة دويارنيكو، بسبب ما وجهوه من نقد للنظام، الذي لم ينشر إنما دار في أحاديث متبادلة بينهم) وقد أشرف لأول مرة، على التحقيق معهم كل من ميجينسكى، وياغودا شخصياً، وكانت تعتبر مثل هذه الحالة من الحالات النادرة، ولم يسبق إن شاركا في مثلها سابقاً، ولم تكن تلك المجموعة قليلة العدد، وأضيف إليها فيما بعد اعتقال مجموعات أكبر، بسبب قيام اضطرابات طلابية غير متوقعة في كليتي الرياضيات، والفيزياء في ربيع عام ١٩٢١، احتجاجاً على تبديل رئيس الجامعة، حيث جرت العادة، ومنذ سنوات طويلة، بأن يتم انتقاء وانتخاب رئيس الجامعة من بين مجموعة الأساتذة العاملين فيها، وسبق أن تم انتخاب كالينكوف بالطريقة نفسها (سنتحدث لاحقاً عن محاكمته بالتفصيل)، إلا أن النظام الثوري قام بتعيين شخص يدعى سيرنكوف يحمل شهادة مهندس، ليشغل منصب رئيس الجامعة. جاء هذا الإجراء في معمعان دورات

الامتحان، ورفض الطلاب التقدم للفحوص، وتجمهروا بأعداد كبيرة على مدخل الجامعة، ونبذوا الرئيس المبعوث، وطالبوا بالحفاظ على قاعدة الإدارة الذاتية للكلية... وانطلق هذا التجمع الطلابي إلى (موخاي)، للالتقاء مع زملائهم - وهنا يكمن اللغز والمعضلة - فكيف سيتصرف النظام؟... أمام هذه المعضلة الشائكة... إلا أنها ليست كذلك أمام الشيوعيين... فلو أن الأمر كان في زمن القيصرية، لأثيرت عواصف من الضجيج في الصحف، ولعمت العالم كله.... وقد تسقط الحكومة.... ويسقط القيصر..... لكن هيهات.... أن يحصل هذا في مثل هذا الزمن.... لقد اعتلوا المنابر وراحوا يلقون الخطابات، وفرقوا الجمع الطلابي.... وأوقفوا الامتحانات... وقاموا فيما بعد، وأثناء العطلة الصيفية بالتقاطهم واحداً بعد الآخر... واحد من هنا وآخر من هناك، حتى تم إلقاء القبض على جميع المعنيين، دون أن يتاح لهم نيل شهادة الهندسة قط.

اتسعت دائرة الاعتقال في نفس العام (١٩٢٠)، وتناولت الاشتراكيين غير المتحزبين... وشملت عملياً كافة الأحزاب السياسية المنتصرة منها (الهوينا... لا تحفر حفرة أخرى)، وشتت قوامها البنيوي دونما رجعة، واستدعت الضرورة أن تتم عملية تفكيك، وتشتيت هذه الأحزاب، ليس بانحلال أعضائها وتخليها عن العمل الحزبي فقط، إنما كان من الواجب أن تنحل أجسادهم أيضاً.

لم يبق أي مواطن روسي واحد، من هؤلاء المنضويين من صفوف الأحزاب عدا البلاشفة، إلا وأمّه قدره المحتوم، وحكم عليه (إلا إذا أفلح في النجاح على غرار ما فعل كل من فاينسكى، وفيشنيسكى، حتى إذا ما حلت الكارثة هرباً، وأصبحا شيوعيين بلاشفة)، وقد أتيح للبعض منهم، عدم التعرض للاعتقال المباشر، وتمكن بعضهم من العيش (حسب درجة خطورته) حتى عام ١٩٢٢-١٩٢٣، أو حتى عام ١٩٣٧، مع أنهم ما زالوا

تحت لوائح التصنيف، والأضابير الخاصة لكل منهم... وأرجئ زجهم في السجون، ريثما يحين الوقت المناسب، لاستدعائهم واعتقالهم، وليواجهوهم بسؤال واحد فقط... هل كنت عضواً في... من.... وحتى؟ (لا بد من أن تنوه الأسئلة إلى الأعمال المعادية للثورة). وبعد ونتيجة لهذه الأسئلة يتفاوت مستقبلهم، على الرغم من أن منهم، من وقع في السجون القيصرية المركزية المعروفة (ومن الممتع أن نذكر أن أحد هذه السجون المركزية قد حافظ على وضعية وضعه، وأن كثيراً من الاشتراكيين صادف وأن زج في الحجرة نفسها التي كان فيها في الزمن القيصري، بل إنه وقع تحت يد السجان ذاته، الذي كانوا على معرفة به سابقاً)، وخُيِّر البعض منهم بالنفي ليس لسنة، أو سنتين، أو ثلاث، إذ إن التخيير كان أسهل من ذلك (بل أكثر سهولة.... المهم أن يحل الحيف (ويا لكثرة المدن) التي يقع على عاتق المنفي أن يختارها بنفسه مكاناً للعيش الجديد... أما فيما بعد رافقتك السلامة، فلتعش ساكناً دون حراك، تترقب، ما تمليه عليك إرادة الإدارة، والجهاز القيم (الإدارة السياسية العامة).

استمرت هذه العملية عدة سنين، لأن الشرط الأساسي لتحقيقها، كان الهدوء، وعدم لفت الأنظار. وكان مهماً كذلك تطهير مدينة موسكو، وبيتروغراد والمراكز والموانئ والمراكز الصناعية من وقت لآخر، ليصار فيما بعد إلى تطهير الأقسام الإدارية من صنوف وأنواع الاشتراكيين كافة. وأن تنفيذ هذه المهمة الرائعة الهادئة، دون ضجيج، وبلا قاعدة، يعتبر ظاهرة لم يتمكن معاصرو ذلك الوقت من فهمها. وربما أتيح لنا الآن فقط، أن نتصور ونقدر حجم ذلك الذي كان، وأن نحدد صاحب هذا العقل الكبير الثاقب، الذي خطط لهذا، وصاحب تلك الأيدي الماهرة، التي لم تترك فرصة واحدة إلا وقبضت على أولئك وهؤلاء. فمنهم من زج في السجون المركزية - وحولوا بعدها، ليرسلوا إلى المنفى، أو إلى أبعد من ذلك، ومنهم من غادر السجن إلى

المنفى ليبقى تحت الأنظار، ليعود بعد ذلك ونتيجة المراقبة، إلى سجن آخر جديد، ومنهم من تحول من منفى، إلى منفى آخر، وبعدها ينتهي المطاف به إلى السجن المركزي. أجل لقد تم كل ذلك بصبر وأناة، مكنت ذلك العقل من السيطرة على الأكداس المكدسة من المعتقلين بهدوء مطلق، ودون أيّ ضجة. لقد فقد هؤلاء غير المتحزبين، كل وسائل الاتصال، والتواصل مع المكان الذي عاشوا فيه، ومع الناس الذين عرفوهم من خلال ما كانوا قدموه من أعمال ثورية في السابق - وتم كل هذا دون أن يلحظ أحد كيف تمت عملية التحضير لهذه التصفية الإنسانية، لهؤلاء الذين رفعوا أصواتهم في الاجتماعات الطلابية، ولأولئك الذين كانوا قد حملوا بفخر وعزة الأصفاد والقيود القصيرية في أيديهم.

لقد كتب كريلنكو[1] إلى غوركي في ١٩٢١/٦/٢٩ «إن التاريخ سيسطر يوماً ما، كيف تعاملت الثورة البلشفية مع الاشتراكيين الثوريين المخلصين، وكيف استخدمت ذات الوسائل والوسائط، التي استخدمتها القيصرية» لو أن هذا ما كان فعلاً... لبقي جميع المعتقلين على قيد الحياة. ولما كان قد تم ما تم من عملية إفناء لهذه الغالبية الكبيرة من السياسيين القدماء، المحكومين بالأشغال الشاقة، أمثال الاشتراكيين، والملاكين، حتى إن هذا الإفناء لم يتجاوز أعضاء الحزب الديمقراطي - الاشتراكي، الذين تلقوا أقسى الأحكام أيضاً في المحاكم القيصرية، وها هم الآن يعانون من نفس ما فرض عليهم سابقاً، الأشغال الشاقة.

إلا أنه يمكن القول، بأن تتابع تنفيذ عمليات التصفية كانت عادلة: ففي العشرينيات، طلبوا كتابة تصريح انسحاب من أحزابهم، وإدانة

١- لقد سبق الحديث عنه، وهو من الذين خرجوا إلى صفوف اليساريين بعد انحلال الحزب الاشتراكي - الديمقراطي، وانتسب إلى الحزب الشيوعي الحاكم ومارس فيما بعد وظيفة النائب العام.

أفكارهم التي آمنوا بها يوماً... وقد رفض البعض ذلك.... لينضوي في أول حلقة تصفية، أما البعض الآخر الذي انصاع لذلك.... فقد أضاف إلى عمره سنوات عدة أخرى، ريثما جاء دورهم، الذي لا يرحم.... ولتسقط رؤوسهم عن أكتافهم، دونما رحمة أو شفقة[1].

في ربيع عام ١٩٢٢ قررت اللجنة الاستثنائية، مكافحة أعداء الثورة، والتجار المضاربين، وما أن أصبح اسمها (أي اسم اللجنة) الإدارة السياسية العامة، حتى قررت لاحقاً، التدخل في الأعمال الكنسية، بشخصيات دينية جديدة، تتمتع بآذان تصغي إلى السماء، وإلى اللوبيانكا[2] في الوقت نفسه، حسبما تعهد به الكنسيون الجدد، على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على الجهاز الكنسي دون مساعدة الجهاز نفسه (جهاز الأمن)، لذا عمدوا فوراً إلى اعتقال البطريرك (تيخون)، وتبع ذلك تنفيذ عمليتين تصفويتين هائلتين، طالت الأتباع والأنصار لذلك البطريرك، كانت الأولى في موسكو، أما الأخرى في بيتروغراد، وشملت الميتروبوليت (بنيامين)، الذي عارض وأعاق عملية انتقال الحكم الكنسي إلى المربين الكنسيين الجدد. مما أدى إلى اعتقال الميتروبوليت، ورؤساء الأساقفة في كل المقاطعات والأقاليم كما جرت العادة، ومن ثم تم استجرار ذوي السيقان

١- ملحوظة: تقرا في بعض الأحيان مقالة في جريدة ما، وينتابك شعور الغرابة، والدوار. لقد جاء في «الإزفستيا» الصادرة بتاريخ ١٩٥٩/٥/٥٤: «بعد استلام هتلر السلطة بسنة واحدة، تم اعتقال مكسيمان خاوكي بسبب جنسيته- لا بسبب انتسابه لأي حزب ما، إنما للحزب الشيوعي- وتمت تصفيته؟!! لا بل تم الحكم عليه بسنتين- وبعدها الحق طبعاً بحكم جديد- لا بل اطلقوا سراحه- لك أن تفهم ما شئت- وبعدها عاش بهدوء، ومارس العمل السري- وإني اكتب عنه الآن، لاعتقادي بأن ما اكتبه لا يلحق الضرر به.

٢- مقر الأمن الداخلي - تابع لوزارة الداخلية، من موسكو.

القصيرة، القمامصة والرهبان، والشمامسة الذين لم ينوه أو يذكر عنهم شيء في الصحف، وألحقوا فيما بعد بأولئك الذين رفضوا الانصياع والخضوع، للطاقم الكنسي الجديد... كل ذلك حتى يتم اصطياد السمكة الكبيرة!!!..

لقد تدفقت جموع السدنة الكنسية، التي تراكم اصطيادها يوماً بعد يوم، وغصت بهم حجرات السجون، وراحت شعورهم الفضية تتمايل عند الانتقال من حجرة إلى حجرة، ومن سجن إلى سجن، بينما كان ذكرهم يرد في الترانيم، والتراتيل التي كانت تصدح في الكنائس.

لقد سقطت مجموعات كثيرة، قبل انقضاء عام ١٩٢٠، في براثن الاعتقال، وكان من تلك المجموعات، مجموعة (تيوسوفيف)، ومجموعة سبيزتوف، ومجموعة كرافابالين (كانت هذه المجموعة الأخيرة، قد وقعت بروتوكول محادثات مع الرجال المتدينين). إضافة إلى الجمعيات الدينية، ومجموعة (بيركوسيف)، وحلقة (بيريافسكي) الفلسفية، وجماعة الكاثوليك الشرقيين (أتباع فلاديمير سوليفييف) والكاثوليك الأعداء، والقساوسة البولنديين.

كانت التصفية الجذرية للدين في أنحاء البلاد كافة، قد تمت ما بين أعوام ١٩٢٠-١٩٣٠، وظهرت هذه التصفية كأحد أهم الأهداف السياسية للإدارة السياسية العامة، ولوزارة الداخلية، وكان يمكن ألا تنجح هاتان المؤسستان في تنفيذ هذه التصفيات، لولا عمليات إلقاء القبض على كافة المؤمنين الأرثوذكسيين، ومصادرتهم ونفيهم وسجنهم، وقد شملت هذه العملية التصفوية كافة القيمين الدينيين والرهبان والراهبات، حتى طغى السواد على الحياة الروسية، وعمت دائرة الاعتقال لتطال حتى أولئك المجدفين، والمؤمنين والأمهات، والشيوخ، الذين ملكوا الإيمان الراسخ، الذي حملوه معهم إلى المنافي والمعسكرات، وبقي في داخلهم حتى غدوا يحملون لقب الراهبات والرهبان.

إن الغرابة، كل الغرابة من إنهم كانوا ينفذون الاعتقال والمحاكمة لهؤلاء وكأنهم لا ينتمون لتلك العقيدة التي يؤمن بها المعتقلون بصلة ما، حتى إنهم راحوا يروجون هذه القناعات الملحدة على مسمع الأطفال، ويمارسون مثل تلك السبل التربوية عليهم، وقد كتبت تانيا خودكيفتش في هذا الصدد قائلة:

صلِّ كما شئت، وبحرية

إنما

كي يسمع الله فقط

(لقد حكم عليها بسبب هذه القصيدة عشر سنوات)، ولم يبق للإنسان المؤمن، إلا أن يخفي حقيقته الروحية حتى عن.... أطفاله، لدرجة أصبحت فيها ممارسة التربية الدينية على الأطفال في العشرينيات مشمولة بالمادة (١٠-٥٨) أي تحت الدعاية المضادة للثورة، إلا أنهم ويا لحسن الحظ، منحوا المتهم فرصة التبرؤ من الدين أمام المحكمة. وكثيراً ما حصل أن تنازل الأب عن تربية الأولاد، أما الأم ذهبت إلى سالوفسكي (لا غرو في ذلك لأن النساء آمنَّ إيماناً منطقياً، راسخاً تراكم عبر عشرات السنين)، وحكم على المتدينين بعشر سنوات، حيث كان يعتبر مثل هذا الحكم في ذلك الوقت زمناً قياسياً.

قاموا في تلك السنوات، وبغية تطهير المدن وإقامة المجتمع النظيف، بخلط الحابل بالنابل، لا سيما في عام ١٩٢٧، عندما كانوا يرسلون إلى سجن سالوفكي، الراهبات والعاهرات معاً، وحكموا على المولعات بالزهد بالحياة الدنيا تكفيراً عن ذنوبهن بثلاث سنوات، ومنهن من استطعن، وبسبب التغيير الدوري في المنافي، وانتقال سجينات سالوفكي، وبفضل امتهانهن المتعة أن يكتسبن ود القادة والجنود وحراس القوافل،

ويعدن بعد ثلاث سنوات وأن مع حقائبهن المعبأة، إلى نقطة الانطلاق الأولى. على الرغم من أن القانون، كان لا يسمح للمتدينات بالعودة إلى أطفالهن، أو حتى إلى أرض الوطن حيث كن يعشن.

كانت قد تدفقت بعض السيول الاعتقالية قبل السنة العشرين، من القوميين، وعلى الرغم من قلة أعدادهم قياساً بالمعدلات، والمقاييس الروسية، وشملت الموسافاتيستف من جمهورية أذربيجان، والداشيك من أرمينيا، والملاكين الجيورجيين، والتركمان (باسماتشي) الذين قاوموا قيام النظام السوفييتي في وسط آسيا، وفي عام ١٩٢٦ تم اعتقال أعضاء الحركة الصهيونية «كيخالوتس»، التي لم يستطع أعضاؤها الارتقاء إلى مستوى الاندماج الحماسي في سلك الأممية.

لقد ثبت فيما بعد، وفي أوساط الأجيال اللاحقة، بأن الاعتقالات في مرحلة العشرينيات، جاءت نتيجة ممارسة السكر والعربدة وليس نتيجة قمع الحريات، وسنعمد لاحقاً، وضمن دفتي هذا الكتاب إلى توضيح هذه النقاط، بالاعتماد على بعض آراء من يتذكرون، ويقيمون تلك السنوات بشكل مغاير إلى حد ما.

كان الاعتقال هو الرد الوحيد على الطلاب غير المتحزبين، الذين رفعوا شعار المطالبة «بحرية المدارس العليا»، وحقها باتخاذ القرار الجماعي، وتخليص البرامج من المواد السياسية الكثيرة، إلا أنهم بعد ذلك أجبروا على حضور الاحتفالات (في أعياد الأول من أيار عام ١٩٢٤)، وحكم على مئة طالب عام ١٩٢٥، بالسجن ثلاث سنوات، بسبب تداول قراءة منشورات «المبشر الاشتراكي»، ودراسة بليخانوف (ننوه إلى أن بليخانوف كان قد حكم عليه، عندما كان شاباً، بالسجن في قلعة كازاتسكي سايور، لمدة زمنية، أقل من هذه الأحكام التي تلقاها الطلاب، بسبب إلقائه خطاباً معادياً للدولة في زمن قبل الثورة الأكتوبرية).

وفي العام نفسه تم سجن الفتية الصغار أنصار تروتسكي (أيضاً تم ألقاء القبض على اثنين من جنود الجيش الأحمر البسطاء، بسبب قيامهما بجمع بعض المواد الغذائية للمعتقلين التروتسكيين، طبقاً للعادة الروسية القديمة ليس إلا).

كان من الطبيعي، ألا تفلت طبقة المستغلين من الضربة، إذ استمرت في سنوات العشرينيات، الحملة ضد الضباط السابقين، الذين بقوا على قيد الحياة: وضد الضباط البيض (الذين لم ينالوا شرف القتل (الموت) في الحرب الأهلية، وضد الضباط البيض - الحمر الذين حاربوا هنا وهناك، وضد الضباط (قيصري - أحمر) الذين لم يخدموا في الجيش الأحمر كل الوقت، أو خدموا بشكل متقطع دون الحصول على شهادة إثبات خدمة مصدقة... نعم لقد تعرضوا للإنهاك - ذلك أنهم لم يتلقوا أحكامهم فوراً... إنما كان عليهم، أن يمروا بمرحلة عدم اتزان (تعليق) - فمنهم من تعرض إلى تحقيق لا نهاية له، وحدد له العمل، ومكان الإقامة، والعيش، إنما دون أن يتركوا أحراراً لمرة واحدة. أو أن يتم احتجازهم بشكل متواتر، ليؤول الأمر في النهاية إلى المعسكر، حيث لا يعودون من هناك أبداً.

إلا أن إرسال الضباط إلى معسكر النفي بالأرخبيلاك خلق مشكلة لم ينته حلها قط، بسبب بقاء أسرهم من أمهات وزوجات وأطفال في أماكن عيشهم السابقة وحيدين، الأمر الذي يتطلّب قيام أصحاب طريقة التصنيف الاجتماعي بتفسير كل حركة أو مزاج أو حتى إحساس بغياب رب الأسرة.... سبباً لأن يخضعوا للاعتقال... وبالتالي يصيرون مدداً لتدفق سيل اعتقالي جديد.

صدر العفو العام في السنة العشرين، عن القوزاق المشاركين بالحرب الأهلية مع ليمانوس، وعاد الكثير منهم إلى كوبان، أو إلى الدون، واقتطعت لهم الأرض... لكن لم يمر الوقت الطويل، حتى طالهم الزج في السجن من جديد.

استمر الانصباب الاعتقالي سراً، وتزايد كما في السابق (اعتقال الموظفين الحكوميين، وبمهارة مطلقة تم التستر، والتمويه، بالاستفادة من عدم توفر نظام جوازات السفر والهويات، وبالتذرع ببطاقات العمل، التي لم تكن موجودة في أيّ جمهورية، ذلك إنها دكت، أو ذابت كلها في كينونة المؤسسات السوفييتية وساعدتهم في تنفيذ هذا الطغيان الاعتقالي، الفلتات الكلامية، أو بعض المعارف العرضيين، أو بالاعتماد على تقارير الجيران، أو التقارير العسكرية (وفي غالب الأحيان بسبب المصادفات البريئة - على غرار ما حصل مع نكتوموف، الذي كان مولعاً بحب النظام، واحتفظ لنفسه بلائحة، تتضمن أسماء العاملين في مجال القانون في المقاطعة حيث يعمل. وشاءت المصادفات، أن تكتشف هذه اللائحة عام ١٩٢٥، وجرى اعتقال جميع من كان اسمه موجوداً في هذه اللائحة المشؤومة، ونفذ حكم الإعدام بهم جميعاً).

إلا أن سيلاً اعتقالياً آخر، أخذ في التشكل المتزايد، تحت يافطة ذنب عُرف «بإخفاء المنبت الاجتماعي» أو «بالوضع الاجتماعي السابق» واستخدمت هذه الأسباب بشكل واسع، واعتقل الإقطاعيون، وعائلات النبلاء، حسب السمة الطبقية، لهذا تراهم في النهاية طالوا جميع النبلاء، دون أن يحاولوا معرفة صيغة الانتماء الاجتماعي، معتمدين في ذلك على أساس بسيط للغاية، ألا وهو اعتقال كل من أنهى الدراسة الجامعية... وكل من تعرض لمثل هذا الاعتقال، لم تتوفر له قط العودة.... لأن ما تم فعله لا يمكن أن يرد أو يعاد... ذلك لأن الآلة الثورية لا تعرف التراجع ولا تخطئ أبداً.

(لا... على الرغم من ذلك، فإنه يوجد طريق للعودة... وإذا كانت هذه العودة تشكل ساقية مرتدة، شحيحة قياساً بذلك السيل الاعتقالي العرمرم... إلا أنه استطاع البعض أن يعود... وبخاصة أنه وجد وسط زوجات

الضباط، والنبلاء وبناتهم.... كثيرات من بعنَّ أنفسهن، واستخدمن جمالهن الأخاذ، واستطعنّ السير في التيار المعاكس.... المرتد!!! كن أولئك من اللائي يعتقدنّ، بأن الحياة تمنح لمرة واحدة فقط... ولا يوجد أغلى منها قط... لذا تراهنّ عرضن أنفسهن على أجهزة الأمن، للامتثال كشهود، أو مخبرين لصالح الأجهزة، أو عرضن إمكاناتهن لفعل أي شيء يمكن فعله... فمن نلن الإعجاب منهنّ تم قبولهنّ واعتمدنّ بعد ذلك كمخبرات ناجحات، وساعدن الجهاز قدر طاقتهنّ، ذلك لأن الزميلات السابقات قد وثقن بهنّ.

في هذا السياق، لا بد من أن نذكر (الأميرة السيئة الصيت) إن لم تكن أردأ أميرة على الإطلاق، ألا وهي الأميرة فيازيمسكي، التي تعتبر أشهر مخبرة من مخبرات ما بعد الثورة (بالمناسبة نقول، إن ابنها كذلك كان مجنداً في سجن سالوفكي، كما نذكر امرأة بهية الطلعة تدعى كانكورد نيقولايفنا أوسي، التي كان زوجها ضابطاً، حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص أمامها مباشرةً، نقلت بعد ذلك إلى سجن سالوفكي، واستطاعت أن تعاكس التيار، وتعود لتفتح صالوناً للسيدات بالقرب من بناية لوبيانكا الكبيرة، حيث كانت تؤمه أبرز الشخصيات العاملة في ذلك البناء الكبير، وفي عام ١٩٣٧، أعيدت إلى السجن من جديد مع مجموعة عملاء ياغودا).

من المضحك القول، بأن التقاليد السخيفة قد حفظت منذ عهد روسيا القيصرية، وبخاصة الصليب السياسي الأحمر، الذي تألف من ثلاثة أقسام: قسم موسكو (ترأسه بيشكوف) وقسم خاركوف (ساندايرسكاي)، وقسم بيتروغراد. وبقي قسم موسكو صامداً، وتصرف بشكل لائق حتى عام ١٩٣٧، حيث انفرط عقده. أما قسم بيتروغراد (ترأسه أحد أنصار النارودنايا واسمه شيفتسوف، والأعرج كارتمان، و كاتشيرو - فسكي)

ولقد حافظ هذا القسم على الوقاحة، واللؤم اللذين لا يحتملان، وتابع تدخله في القضايا السياسية، والبحث عن مساندة البرجوازيين القدماء (مثل رجل الأعمال ألكسند أوليانوف من مدينة نوفاروسكي)، وكذلك قدم المساعدة ليس فقط للاشتراكيين، إنما لحزب الكايير المضاد للثورة، وأغلق هذا القسم في عام ١٩٢٦، وأرسل كافة العاملين فيه إلى المنفى.

تنقضي السنون، وتمحي الأشياء القديمة من ذاكرتنا، حتى إذا ما حلّ عام ١٩٢٧، استقبلناه غافلين شبعى، ووجوهنا ترنو إلى البعيد... البعيد.... حيث لم يفلح جهاز «النيب» في أن يقطع غفلتنا، على الرغم من التوتر، الذي يعتريها، من شدة تلك القرقعات الصحفية، التي أوحت لنا!!!! وكأنه زمن يسبق حرباً شرسة، وينذر بثورة عالمية. لقد ملأت الصحف أعمدتها كاملةً، بسيل من المقالات، حول عملية اغتيال رئيس ممثلية الاتحاد السوفييتي من مدينة فرصوفيا، وكان من جملة هذه المقالات، والمتنوعات ما قاله الشاعر ماياكونسكي: الذي أغنى المناسبة بأربع قصائد: ويا لها من مصادفة منحوسة، لقد قدمت بولونيا الاعتذار، وتم اعتقال القاتل[1]، وخلد الشاعر هذه المناسبة:

بالتماسك
بالصمود
بالتحمل
والتنكيل
وبحبال المشانق
ستلوى الرقاب!

١- قام بوريس كافيردا، وهو من انصار الملكية، بالانتقام الشخصي من فايكوف (رئيس الممثليه السوفياتية) الذي كان مسؤولاً عن لجنة اوراك ومن عام ١٩١٨، نفذت عملية إعدام العائلات القيصرية رمياً بالرصاص، وقام بعد ذلك بطمس أثار هذه العملية (بتقطيع الجثث وحرقها ـ لقد تم التقطيع بالمنشار ومن ثم حولت الى رماد).

من الذي سيطاله التنكيل، وأيّ رقاب ستلوى على حبال المشانق... لا، إنها هي ذاتها الأدوات، أدوات فايكوف، وكالعادة، وعند حدوث أي اضطراب أو توتر ما، يصار إلى اعتقال أصحاب السوابق رجال الدين والاشتراكيين - الديمقراطيين، والمناشفة والمثقفين ومن الطبيعي ألا يطال الاعتقال أبناء الطبقة العاملة في المدن، بل سيساق أولئك المثاقفة من أنصار «الكاديت»، بعد أن تم نبشهم في عام ١٩١٩... ترى ألم يحن الوقت لضرب هذه الطبقة المثقفة التي تطلق على نفسها الطليعة.

ونعود ثانية.... وثالثة.... ورابعة إلى مايكوفسكي، وهو يقول:

فـــــــــكر
بالكومســــــمول
فــكر أيـــاماً، وأســــــابيع!
من أجل رفاقك
وعاين بدقة أكثر.
هل هم في الحقيقة، كومسموليون
أم هـــــــم... فقـــــط كومـــــــــسموليون بالأصـــــــوات

هكذا تلد العقائد المريحة، وتخلق المصطلحات القانونية العادلة، والوقاية الاجتماعية، عبر الصراخ المدوي المسرع في تحقيق عملية الفهم في عقول الجميع (لقد أعرب قادة التنظيم البحري من البحر الأبيض ويدعى أحدهم لازركو كان قائلاً: «إني متأكد بأنكم لستم مذنبين في شيء، لكنكم وبحكم وعيكم الإنساني عليكم أن تفهموا ذاك الشيء الذي أدى إلى الوقاية الاجتماعية الواسعة»!!!... حقاً... متى يمكن التقاط هؤلاء الرفاق الموثوقين من الطبقة المثقفة العفنة،.... إذا لم يساقوا الآن... والآن فقط... عند عشية الحرب من أجل الثورة العالمية... إذ ما إن تبدأ تلك الحرب الكبرى... حتى يصبح الوقت متأخراً على ذلك... كثيراً.

بدأ تنفيذ خطط الاعتقال في مدينة موسكو، وطالت الحي تلو الآخر، وعمت الاعتقالات لتطال الجميع دونما استثناء، وصار الشعار حيز التنفيذ

(ما إن نضرب الطاولة بقبضتنا، حتى يرتعد العالم خوفاً)، واستمرت قوافل السيارات المحملة، تزحف إلى بناء لوبيانكا، وإلى سجن بوتيركا، نهاراً جهاراً مكشوفة دون غطاء... تغص بجماهير المعتقلين المزدحمين على الأبواب والمداخل، ريثما يتم تفريغ هذه الشحنات، وتتخذ إجراءات التسجيل حسب الأصول (لم تكن موسكو هي المدينة الوحيدة، بل اكتظت على غرارها المدن الأخرى كذلك، حيث كان في مدينة روستوف على الدون، نفس هذا الازدحام على مدخل البناية رقم/٣٣/ وكان من الصعب إيجاد مكان للجلوس حتى على الأرض.

ولا بد لنا وفي هذا السياق من أن نورد الأمثلة النموذجية لهذا الزحف الاعتقالي، (فبينما كانت مجموعة من عدة فتيان تلتف مساء، لإحياء حفلة موسيقية، دون موافقة مسبقة على ذلك من الجهات المختصة، وبينما كانوا يطربون بسماع الموسيقى واحتساء الشاي الذي صنعوه بعد أن جمعوا عدة كوبيكات طوعاً، للمساهمة في تكاليف حفلتهم، التي كانت سبباً في اعتبارها مساعدة مادية من البرجوازية العالمية، واعتبرت كدليل فاضح وتغطية، وتستر لتنظيم معاد للثورة، وسيقوا إلى السجن، وحكم عليهم من ثلاث إلى عشر سنوات (تلقت آنا سكر يبيكوفا حكماً بخمس سنوات) وأما أولئك من لم يقروا بالذنب (كإيفان نيقولايفيش فارانتسوف، وآخرين) فقد تضاعفت عقوبتهم، أضعافاً أدى إلى الإعدام رمياً بالرصاص.

في هذا العام نفسه، اجتمع في باريس عدد من المهاجرين الروس[1]، اجتماعاً تقليدياً، إحياءً لذكرى بوشكين، ونشرت الصحف خبر هذا الاجتماع، واتضح بأن هذا الاجتماع، ما هو إلا تدبير من الإمبريالية العالمية المحتضرة، لذا كان لا بد من اعتقال الليسيين المتبقين المتواجدين داخل

١- من رابطة خريجي كلية الليسية الباريسية.

الاتحاد، بسبب نصوص التشريع القانوني، التي اعتبرت (أن الانتساب إلى مثل هذه الكلية الممتازة ذنباً يعاقب عليه المنتسب).

كان معسكر سالوفينسكي المخصص لتنفيذ المهمات الخاصة، هو المعسكر الوحيد تقريباً الذي يتسع، لاستيعاب آلات، ومعدات فايكوف سالف الذكر، إلا أن النية الخبيثة اتجهت نحو إقامة معسكر أرخبيل غولاغ، والذي سيقوم قريباً باستيعاب المتضررين من جراء التعذيب في كافة نواحي البلاد.

قد ظهر للوجود اتجاه جديد، تبعته شهية جديدة أيضاً، لالتهام تلك الفئة المثقفة التي كان من الضروري توجيه الضربة لها منذ زمن بعيد، مع القضاء على أولئك الذين يعتبرون أنفسهم منفردين ولا بديل لهم، ولم يتعودوا قط على تلقي الأوامر من أيّ جهة كانت.

أجل... إننا لم نثق بالمهندسين قط - صنائع وخدام الرأسماليين القدامى، لذا ومنذ اللحظة الأولى، وضعناهم تحت مراقبة الطبقة العاملة، وسمحنا لهم في مرحلة النهوض بالعمل في مؤسساتنا الصناعية، تحت إشراف القبضة الطبقية الموجهة لهم أبداً، إلا أنه ومع نضوج إرادتنا الصناعية... واستيعابها التطور التخطيطي التقني، كثرت تلك الخطط المتعارضة، والمتناقضة مع الخطط السابقة، إن لم تكن مخالفة لها.... وبدا واضحاً ذاك الجوهر التخريبي للهندسة السالفة في ذلك. وبرز عدم الإخلاص والمراوغة والتبعية للغير، إنما أنى لهم أن يفلتوا، فالرقيب الثوري ثاقب النظرة أبداً.... وحيثما راحت هذه النظرة الثاقبة، فلا بد من أن نكتشف البؤر التخريبية الجديدة.

لقد تمت هذه الصحوة الإنعاشية عام ١٩٢٧، وبينت الطبقة البروليتارية، تلك الأسباب التي أدت إلى عدم النجاح، وإلى السلبيات التي برزت في صناعتنا، إذ عمّ التخريب في مؤسسة الخطوط الحديدية (إن كان من حيث

توفر المقاعد للمسافرين، أو من حيث عدم الانتظام في تسيير الرحلات) وفي مؤسسة توليد الطاقة الكهربائية (بسبب عدم انتظام الاستفادة من التيار، وبسبب انقطاعه الدائم)، وفي مؤسسات الصناعة النفطية (إذ لا وجود لمادة الكيروسين) وفي الصناعات النسيجية (صعوبة إكساء العمال) وفي مؤسسة الصناعات المعدنية (صناعة الآليات العسكرية) وفي بناء السفن، والصناعات الكيميائية، والصناعة التعدينية للذهب، والبلاتين، والري، وفي مؤسسات استخراج الفحم لقد عمّ التخريب، وانتشر في كل المناحي... عجباً لقد حلّ التخريب في كل مكان، والأعداء يمسكون بالمساطر اللوغارتمية بأيديهم، وينشرون التخريب. وإدارة المخابرات العامة، تلهث وراء إلقاء القبض على كافة هؤلاء المخربين... وتتواصل تحركات عناصر الأجهزة الأمنية، والمحاكم البروليتارية في العاصمة، وفي المحافظات الأخرى، لتسحق هؤلاء السفلة الشياطين، وتنشر الصحف سلسلة هذه الأعمال الدنيئة التي يقف وراءها المخربون.

لقد أتيح لنا معرفة كل ذلك من خلال ما نشر في صحف العمال الكادحين (وإلا كيف لنا أن نطلع على هذا كله)، لقد تعرفنا... على بالتشينسكي، وفون ميكي، وفليتشينكو[1] وعلى الآخرين، الذين لن يتسنى لنا معرفة أسمائهم. ونتيجةً لهذه الحملة المحمومة، توجب على كل قسم صناعي، وعلى كل معمل، وجمعية تعاونية البحث عن التخريب والحزبيين، وإذا ما بدؤوا بحثهم بالتعاون مع الجهاز الأمني، حتى وجدوا كافة المهندسين المتخرجين قبل الثورة، (على الرغم من عدم اعتبارهم حتى تاريخه خونة) عناصر يمكن توجيه الريبة نحوها، ولا بد من أن تكون بشكل أو بآخر موضع اتهام.

١- مهندس حزبي كان بروفسوراً في أكاديمية القيادة والأركان العليا، وحمل رتبة عميد، وقاد إدارة الاتصالات العسكرية في وزارة الدفاع القيصرية.

يا لهم من أنذال، وأشرار هؤلاء المهندسين المثقفين القدامى...! كيف تسنى لهم القيام بكل هذا التخريب بأسلوب شيطاني!!. كان منهم المهندس نقولا - كارلوفيتش فونميك، رئيس اللجنة الوطنية لإدارة الطرق، وكان قد قام بابتكار طرق جديدة في الاقتصاد، واستطاع أن يتحدث مطولاً عن سياسة الإنعاش، وعن المشكلات الاقتصادية لعملية البناء الاشتراكي، وأحب بشكل دائم ازداء النصائح، وكانت إحدى نصائحه التخريبية: الزيادة في الأحمال السلعية والبضائعية، دون تخوف من نقل الحمولات الثقيلة، سيؤدي إلى تعطيل، وتخريب السكك الحديدية... على أثر هذه النصيحة... سرعان ما تم كشفه (وأطلق عليه النار)... لقد رغب باهتلاك الخطوط الحديدية والقاطرات والقطارات التجارية، ويحرم الجمهورية من خطوطها الحديدية إبان عدوان المتدخلين (على غرار ما كان من تدخل من قبل الدول الأجنبية بمساعدة الجيش الأبيض المعادي للثورة)!!، ولم يمضِ وقت طويل، حتى احتلّ منصبه الرفيق غاغانوفيتش وقرر نقل البضائع الثقيلة، وبمعدلات تفوق معدل الاستطاعة بمرتين أو ثلاث: ومن جراء هذا الإبداع... تلقى وموظفيه وسام لينين. أما أولئك المهندسون أصحاب النية السيئة، الذين صرخوا بأعلى أصواتهم، بأن هذا الإجهاد الكبير لا بد من أن يؤدي مستقبلاً، إلى تخريبها وإتلاف وسائط النقل، فعليهم وعليهم بالذات طبقت شريعة العدل: وأعدموا رمياً بالرصاص، بسبب قلة ثقتهم بوسائط النقل الاشتراكية.

إن هؤلاء المتراقصين الحديين، الذين يقرقعون منذ عدة سنوات في كافة القطاعات، ويلوحون بوثائقهم الحسابية، لم يريدوا قط فهم الكيفية الصحيحة، التي يمكن للجسور والآلات، أن تساعد في تحقيق الغيرية الشخصية (إن تلك السنوات من التحايل على نفسية الشعب، والهزء من الحصافة، والحكمة الشعبية القائلة: بان كل شيء حسن، لا يمكن

تحقيقه على وجه السرعة، ورفض الحكمة القديمة القائلة «بالتأني السلامة)...

بأن ما أخر اعتقال المهندسين الفنيين القدامى فقط، هو عدم جاهزية البدلاء... وكان أول المعتقلين نقولا إيفانوفيتش لادجينسكى - كبير مهندسي المصنع الحربي إيخوفسكى، بسبب «النظرية الحديثة»، وبسبب «الثقة العمياء في احتياطي، القادة، والصلابة». وانطلاقاً من هذه الرؤية، اعتبر أن المبلغ المخصص من قبل أوردجينكدزه غير كاف لتوسيع المصنع «يقول البعض الآن: إن أوردجينكدزه كان عندما يتحدث مع المهندسين القدامى، يضع أمامه على المكتب مسدسين - الأول من اليمين، والآخر من اليسار»، مما أدى إلى فرض الإقامة الجبرية (الاعتقال المنزلي) على نقولا، وكان يُساق دورياً للعمل في المكان السابق (لا بد من أن الفوضى ستعم دونه) ليضبط الأمور... ومع كل هذا لم يتغير شيء، وما زال المبلغ المخصص غير كاف... - لذا أعيد إلى السجن من جديد «بسبب سوء الاستثمار للمبلغ المخصص»... ولم يكفهم... من أن كبير المهندسين أخفق في التصرف بسببهم!!! ولم يمض عام واحد.... حتى توفي لاديجنيسكي من جراء الأشغال الشاقة في قطع الأخشاب.

وبمرور عدة أعوام أفلحوا في كسر متن الهندسة الروسية القديمة التي استحقت التخليد في تاريخ وطننا، وكان من عداد أولئك المهندسين، المهندس كارتيا فيما نيلوفسكي، وزمياتن.

كان من البدهي، أن تضم هذه الموجه الاعتقالية، بعضاً من الأقارب والمقربين، الذين كانوا على علاقات، أو صلات مع هذا المعتقل أو ذلك.... ولا أريد هنا أن ألحق العيب في الشخصية النيرة للمخابراتيّ، إلا أن الواجب يقتضي، ألا نترك هؤلاء المخربين الباطلين، متخفين تحت ستار السرية، دون أن ننشر ما قاموا به ونلعنه، ولقد طلبنا من القارئ دائماً أن

يحتفظ في ذاكرته، تتابعية موجات الاعتقال، بخاصة بعد مضي السنوات العشرين على قيام الثورة: في ذلك الزمن، كان الناس أصحاب كرامة، وعزة، ولم يكن لدى الكثير منهم التصور، بأن الأخلاق نسبية، أو يمكن أن تحمل الصفة الضيقة في الفكرة الطبقية - لقد رفض الناس الخدمات المقدمة، وتمت معاقبة الجميع دون رحمة لأنهم رفضوا الخدمة مقابل التعامل معهم.... لقد عرضوا على الفتاة مجدولين ايدجويوفا أن تقوم بمراقبة المهندسين.... ولم تكتف برفض هذا العرض فحسب، بل باحت لولي أمرها بهذا السر (مما أوجب مراقبتها).... واعتقل على الأثر ذاته الولي، وأقر بما سمع... أما الحامل مجدولين تعرضت للاعتقال (بسبب فضح السر العملياتي)، وحكم عليها بالإعدام (نذكر هنا، بأن الأغلال كانت تنزع عنها لفترات متقطعة طوال فترة سجنها لمدة خمسة عشر عاماً)... في ذات السنة ١٩٢٧، رفضت ناديجدا ليفناسورفيتسونا الموظفة في الجهاز الحكومي، أن تنقل الأخبار عن الشيوعيين في مدينة خاركوف، وعن أعضاء حكوميين في أوكرانيا.... ولهذا السبب تم إلقاء القبض عليها.... وبعد ربع قرن من الزمن.... وبعد أن تمرغت في أوحال كاليم... تمكنت أن تخرج حيةً... ومن هذا الذي لا يستطيع السباحة، والعوم.... لكننا لا نعرف أمثالاً لهؤلاء قط.

تضاءلت موجات اعتقال العصاة في الثلاثينيات حتى بلغت الصفر بسبب ما كانت تطلبه الإدارة الأمنية من زيادة في عدد المراقبين والمخبرين، والتحري... مما يعني بأن هذا الأمر ما هو إلا فرض لا مناص فيه (فالكرباج لا يخطئ رأس أحد). «فإن لم أكن أنا... فلا بد من أنه سيكون غيري». «خير أن أكون أنا الإنسان الطيب مخبراً، ولا يكون ذلك الأسوأ مني».... ويندفع المتطوعون..... وأنىّ لك أن تمنعهم..... فهذه هي الحرفة الأكثر ربحاً.... والأكثر معنوية.

في عام ١٩٢٨ شاعت على الملأ قضية شاكينسكي، ونشرت الصحف نصوص الاعترافات الصاعقة المؤلمة لمن هو تحت المحاكمة (لم يزل البعض دون محاكمة)... وعلى مدى سنتين... وفي أيلول عام ١٩٣٠ تمت محاكمة هؤلاء منظمي المجاعة، بقرقعة وتهويش بالغين. (هؤلاء.... هم) - ثمانية وأربعون مخرباً في مجال الصناعات الغذائية... إلا أنه وفي العام نفسه وقبيل نهايته تم التخطيط، لعملية عرفت بعملية «البروم بارتيا»[1]، تحت عاصفة من الصراخ، والجلاجل، وقلة الحياء.

وقام من هم تحت المحاكمة، بإلصاق الدناءات والتفاهات والكلام الفارغ، بأنفسهم على العلن، دون أيّ مواربة، وأمام حشد من الكادحين.. تكلموا عن أنفسهم.... وكأنهم تماثيل أزيح الستار عنها للتو، وثارت ثائرة من قام بالعمل على تخطيط هذه الدسيسة، الملعوبة بدهاء وحنكة منقطعتي النظير، حول اكتشاف عمليات التخريب، التي تمّت صياغتها في حبكة شيطانية من أولئك مخططي هذه العملية، أمثال: ميلياكوف، ريابوشينكي، ديتردينن، وبوانكر.

إذا ما حكمنا خبرتنا العملية في معرفة كنه هذه العمليات من المحاكمة، لأدركنا بأن ما نراه من محاكمات علنية، ما هي إلا كومة تراب ظاهرة دفعها الخلد للظهور، بينما تخفى تحتها الكثير من الأخاديد. وإن مثل هذه المحاكمات تتم فقط على فئة صغيرة من المتهمين، الذين يوافقون، بشكل مخالف لقواعد الطبيعة على إهانة أنفسهم، وإدانة الآخرين بغية الخلاص. أما البعض من أولئك المهندسين، الذين يملكون الجرأة والرجولة والعقل لأن يدحضوا سخافات هذا التحقيق الملفق - هؤلاء تتم محاكمتهم، دون أن يسمع أحد بهم، وتلصق بهم الأحكام بعشرات

١- البروم بارتيا (جماعة من العاملين في الصناعات).

السنين، كونهم رفضوا الإقرار والانصياع لعاملي الجهاز الأمني، وملفقي الاتهامات.

وتنداح السيول الاعتقالية تحت الأرض، وفي الأسيقه، وفي الأنفاق، لتعود وتظهر على السطح من جديد، على شكل قنوات زاخرة بالحياة الرغيدة.

إذاً... اعتباراً من تلك اللحظة، اتخذت كافة الإجراءات الضرورية ضد جميع أفراد الشعب، لصهرها في أسيقة الاعتقال، وألقيت المسؤولية كاملة على عاتق هؤلاء الأفراد. أما أولئك الذين لم تلق أجسادهم في أتون أسيقة الاعتقال تلك، أو الذين لم تحملهم قنوات السوق إلى معسكرات - الارخبيلاك - هؤلاء... يبقى لهم السير على السطح حاملين الرايات، الممجدة للحكمة، والتصفيق لمحاكمات التشكيل تلك (ما هذا إلا توقعاً - وقد تمر السنون العديدة، ليصحو التاريخ - ويتضح أن المحققين والقضاة والنواب العاملين ليسوا مذنبين... أكثر منا نحن... وإياكم... يا أبناء الوطن!!!... ذلك إنا نحن «الشباب الموقرون... كنا نصوت.... وبشكل دائم.... بوقار وهيبة... مع)... إذا لم نأخذ في الحسبان تجربة عمليات اعتقال اللينينيين - والتروتسكيين، والآيسيريين في عام ١٩٢٢، فعندها يكون ستالين قد بدأ تجاربه هذه مع جماعة منظمي المجاعة - وإذا لم يكتب النجاح لهذه التجربة في زمن طال فيه الجوع كل من كان على أرض روسيا الفتية، والذين راعهم ما رأوا حولهم، وراحوا يتساءلون: إلى أين يذهب قوتنا؟!!... ينتفض العمال في المعامل وفي المنشآت ليعلنوا قرارهم قبل المحكمة... وليصوتوا بحقد على قرار الحكم بالموت على المتهمين اللئام.... وتنعقد الاجتماعات، وتسير المظاهرات (ويخرج الطلاب من المدارس وهم يرفعون رفيقاتهم).... إنها لخطوات مرتسمة... لهذه الملايين، التي تصرخ من خلف زجاج بناية المحكمة «الموت، الموت، الموت» لجماعة البروم بارتيا.

لقد خنقت أصوات الاحتجاج، والمعارضة في منعطف حياتنا الحالية... ويتوجب الكثير الكثير من الرجولة، لأن نقول في وسط هذه الجوقة، وهذا الزئير كلمة... لا.... الشيء الذي لا يمكن مقارنته بالسهولة، التي نتقول بها هذه الأيام. (وحتى في أيامنا هذه لا يحتجون، ولا يعترضون)... حصل ذات مرة، وفي أحد اجتماعات المعهد الفني اللبيغرادي، أن احتج البروفيسور ديمتري إبوليناروفيتش روجانسكي قائلاً: (ترون أن العدو اللدود العام لنا هو الحكم بالإعدام... وكما تعلمون وحسب لغة العلم... بأنه حالة غير قابلة للتجدد) - تم اعتقاله.... ويحتج الطالب ديما اولتسكي - ويعتقل... فلا بد من أن ينقطع دابر الاحتجاجات أبداً.

بقدر ما نعلم نحن العمال، ذوي الشوارب الشهباء.... رحبنا بهذا الإعدام.... بدءاً من الكومسموليين المتقدمين حماساً... وانتهاءً بالزعماء الحزبيين، والقادة الأسطوريين - كل هذه الطلائع، لم تهتم لذلك، وشجعت الإعدام، لدرجة أن الثوريين المعروفين، والمنظرين المفكرين والشخصيات المهمة.... حيوا صراخ هذه الصفوف منذ سبع سنين، قبل أن تدركهم الميتة الشنيعة، دون أن يدركوا، أو يخمنوا، بأنه وفي القريب العاجل، وعلى عتبة أزمانهم، سيطال هدير وهيجان هذه الصفوف أسماءهم، وستنعتهم بأقذر الصفات «قذرون» «دنيئون»..... وبأكثر مما كانوا ينعتون غيرهم.

انتهت عملية سحق المهندسين، حدد يوسف فيساروفيتش في صيف ١٩٣١ «ستة شروط» للبناء، وسمحت له بلاده المترامية الأطراف، أن يحقق الشرط الخامس، ويعطي توجيهاته: بدءاً بسياسية تحطيم الطبقة المثقفة القديمة، وإنهاءً باستمالتها إليه، والعناية بها.

أجل العناية بها... وأيّ عناية... وإلا كيف لحقدنا العادل أن يتبخر؟.... وكيف لكل هذه الاتهامات العاصفة، أن تضمحل؟ لذا جاءت العمليات...

أي عمليات التخريب البربري للصناعات «التي أفرغناها من كل هذه الكوادر» -... لنرى أن المتهمين قاموا، وبشكل حبي، بإلقاء التبعية على أنفسهم، واعترفوا بذلك - فكيف لو أنهم صرخوا بأعلى أصواتهم كذلك وبشكل حبي، بأنهم غير مذنبين!! فلربما... أخلوا سبيلهم..!!! (يمكن القول إنه في ذلك العام ظهر سيل يسير في الاتجاه المعاكس (لاتجاه التيار الاعتقالي). حيث عاد الذين تم الانتهاء من محاكمتهم، والتحقيق معهم إلى سياق الحياة العادية، وعاد مع هؤلاء روجانسكي. أفلا يمكن القول بعدها، بأنه صمد في مبارزته مع ستالين.. لو صح هذا... لكان سبباً أساسيا في اختفاء المبررات لكتابة مثل هذا الكتاب، حيث تقتضي الرجولة الوطنية عندها، ألا يكتب شيء، مما نكتبه الآن.

أعاد ستالين الكرة ثانية على أولئك المناشفة، الذين ما زالوا يستلقون على ظهورهم، منذ الموجة الاعتقالية الأولى، ليقوم في هذه المرة، بتقليم أظافرهم، ويعلن في شهر آذار ١٩٣١، عن عملية «المكتب الاتحادي للمناشفة»، كرومان، سوخانوف ياكوبوفيتش (كرومان من الكاديت، وياكوبوفيتش من البلاشفة تقريباً، أما كامير سوخانوف فهو من منظري شباط. الذي عقد في بيته في مدينة بيتروغراد اجتماع اللجنة المركزية للبلاشفة، في خضم أحداث كاريوفك ١٠/١٠/ عام ١٩١٧، وتم اتخاذ القرار بإعلان الثورة المسلحة) وما عليك بعد هذا كله، إلا أن تستغرق في التأمل المفاجئ.

يقول بحارة البحر الأبيض: - إن الماء تتأمل... ويحصل هذا عادة قبل أن يبدأ انحسار الجزر... لكن من الصعب... لا بل من غير المناسب، أن نقارن مزاج ستالين العكر، مع مياه البحر الأبيض، ألا يمكن القول، بأنه إلى حد ما، وبقدر معين قد تأمل.... لكن دون أي انحسار... أو أي جزر.

أيضاً وفي هذا العام ١٩٣١ تمت أعجوبة أخرى، إذ ما إن تم الانتهاء من تصفية جماعة الصناعيين، حتى بدأ التحضير لعملية أخرى لا تقل ضخامة

عن الأولى، وهي عملية اعتقال جماعة الفلاحين الكادحين، على الرغم من عدم وجود مثل هذا التجمع السري المنظم، للطبقة الزراعية المثقفة، إلا أنه وحسب ما قيل، كان يضم أعضاء الجمعيات الاستهلاكية والزراعية والفلاحين في وقت من الأوقات وإلا فكيف تسنى لقادة هذا التنظيم الفلاحي أن يُعدّ عدته، لقلب نظام الحكم الدكتاتوري البروليتاري. هكذا ارتسمت عمليتا التصفية للتجمع الصناعي. ولتجمع الفلاحين الكادحين. لما في طيات ذاكرتنا من أنه أمر حاصل، ومعلوم لدينا في السابق، لذا عمل جهاز التحقيق في أجهزة المخابرات، دونما كلل أو ملل، بعد ما أدلى كافة المتهمين باعترافاتهم وبالانتساب إلى حزب الفلاحين الكادحين، لا بل أقروا بأهدافه الإجرامية، وتعهد كافة الأعضاء البالغ عددهم مئتي ألف، من أن يعينوا قائداً لهذا الحزب الاقتصادي الزراعي، الكسندر فاسيليفتش تشانوف «الذي سيشغل في حال نجاح مؤامرتهم مستقبلاً منصب رئيس الوزراء» ون. د. كاندراتييف، ول. ن. بوروفسكي وماكاروف، والكسي دويار رينكو وهو بروفيسور من تيماريا رفسكي (وزيراً للزراعة) (ربما كان من الأفضل، أن يعين في هذه الوظيفة ذلك الإنسان، الذي استوزره أربعين عاماً... ويا للحظ الإنساني..!. لقد كان دويارينكو إنساناً غير مهتم بالسياسة، وما أن قامت ابنته فيما بعد، بالانتساب إلى حزب الآيسيروف، وقامت بنقل بعض أفكار ايسروفسكي إليه... حتى طردها من البيت شر طردة).

فجأة، وفي إحدى الليالي، غير ستالين من طريقة تفكيره - لماذا....؟ - هذا الذي لا تستطيع أن تجيب عليه قط... ربما أراد أن يكفر عن ذنوبه، كي تصفو روحه بشلل مبكر قبل أن تأتي ساعته!!.. أو ربما انتابته الأحاسيس الهزلية، طالما أن الأكل على ضرس واحدة، يؤدي إلى التضريس!!! ولا أحد يلومني لو قلت، إن تلك الأحاسيس الهزلية كانت

متجذرة في شخصية ستالين... طالما استطاع التوقع وبسرعة أن القرى والأرياف مقبلة على الجوع، ومن أن مئتي ألف من السكان سوف لا يجدون مكاناً للعمل، لذا سارع، وخلّق، وألف هذا الحزب (من الأعضاء المعترفين، حسبما اقترح عليهم!! إذ لا مناص من عدم الإقرار، بالاعترافات المعدة مسبقاً (يمكن لك أن تتصور حجم ما كانت عليه فرحه المتهمين بهذا المقترح)... لذا تيسر الأمر، وعمدوا إلى محاكمتهم بطرق غير طرق المحاكم، سيقوم عاملو الجهاز الأمني بمحاكمتهم، على غرار ما حوكمت به مجموعة كاندرا تييف - تشايتوف[1] (في عام ١٩٤١ وجهت التهمة للمسكين فانيلوف، بأنه قاد حزب الفلاحين الكادحين بشكل سري).

تتوالى الأيام، والسنون، ولا أحد ينقل لنا آلية التسلسل التنظيمي لذلك الحزب المزعوم، الذي كان دون شك من تصنيع الإدارة السياسية العامة (التي عملت بكافة جهودها، لتحمي كافة الآثار المتعلقة بهذا الحزب)!، وإلا كيف تمكن هذا التنظيم، من أن يتصرف، ويعمل دون أن يترك أي أثر... إلا أن الفضل كل الفضل يعود لتلك الأجهزة المتيقظة أبداً.. ولا بد من أننا... سنبقى نتذكر دائماً:

كيف أنهم اعتقلوا المؤمنين المتدينين، دون انقطاع (إذ إن اعتقالهم تم حسب طبيعة المراحل، وكلما ازداد التعطش، للتشفي منهم في ظلمات ذلك الليل (ليل الصراع ضد الدين)، وعند عشية عيد الميلاد عام ١٩٢٩، قاموا بإلقاء القبض على المتدينين المثقفين من مدينة لينينغراد، لكن ليس لليلة واحدة كما يحصل في حكايا عيد الميلاد، وألحقوا بهم فيما بعد وفي عام

١- عندما تم إعتقال، وزج كاندراتييف في السجن، تعرض لمرض نفسي توفي على اثره، ولحق به ايضاً بورومسكي، اما تشايتوف نقل الى معسكر الاعتقال في الماآتا عام ١٩٤٨، بعد ان امضى خمسة عشر عاماً في السجن.

١٩٣٢ جماعة الروحيين، بعد إن أغلقوا الكنائس. في شهر شباط من ذلك العام.... وكثيراً ما يفرض علينا جهلنا، من ألا نعرف تلك التواريخ، والأمكنة..... ولم يتسنَّ لنا معرفتها حتى الآن!

لم يفتهم سحق الجماعات المتعاطفة مع الشيوعية، حيث قاموا باعتقال كافة أعضاء الكومونة «بين سوتشي - وخوستي» في عام ١٩٢٩، على الرغم من أنه كان كل شيء في هذه الكومونة يسير حسب الطريقة الشيوعية - إن في الإنتاج، أو في التوزيع، وكان كل شيء يجري بشرف، الشيء الذي لا تستطيع البلاد أن تحققه عبر مئات السنين... لكن هيهات... أما لكم أن تعرفوا، بأن أولئك الأعضاء كانوا من المتعلمين، والحائزين على أعلى درجات العلم... ولديهم الاطلاع الكافي على الكتب الدينية، إنما لم تكن نظرتهم مبنية على فلسفة الإلحاد، بل هي خليط من الباربتيزم[1]، والتولستوية (أتباع تولستوي)، واليوغا.... كل هذا يفترض أن هذه الكومونة إجرامية، وتحمل التعاسة للشعب. وهذا ما استدعى، أن ينفوا في العشرينيات مجموعات كبيرة من التولستويين إلى تلال ألطاي، وهناك في المنفى، أحدث هؤلاء قرية كومونية، بالتعاون مع المتصوفين المسيحيين (البابتيزم).... وبدؤوا ببناء معمل كوزيتسكي، حيث قام النظام بتمويلهم في البداية.

... طال الاعتقال بعد ذلك المعلمين (الذين لم يحصِّلوا تعليمهم حسب المنهاج الحكومي)... وتراكض التلاميذ خلف السيارات التي أقلتهم إلى الاعتقال... وذهب صراخهم... دون جدوى... ومن ثم لحق الاعتقال بقيادة الجماعات المشاغبة.

هكذا... وعلى هذا المنوال كانت التصفية لتلك الجماعة (إن لم تكن التصفية بطريقة التطهير من الرواسب التربوية ناجعة، عندها لا بد من

١ـ المسيحيون المتصوفون المتكثلكون.

استخدام الرصاص الأكثر نجاعة) المؤلفة من الشبان الذين قاموا على إحداث هذه الكومونة المشاعية في العشرينيات، إلا أن الأرض غاصت تحتهم، وفقدوا كافة الطرق المؤدية إلى المدنيّة، والمدينة... واختفت من الوجود...

لم تفلت من المساءلة، أيّ حادثة تعاضد، أو تعاطف غير مشروع من العقاب (إذ إن الاعتقال يشمل أولئك المتعاطفين من العمال، الذين قاموا بجمع بعض النقود من عمال ورشتهم، لصالح تقديم المساعدة لزوجة أحد المعتقلين).

استمر اعتقال الاجتماعيين، الذي لن يعرف الانقطاع من بدايته... حتى غدا أمراً طبيعياً.

زُجّ عام ١٩٢٩ بالمؤرخين، الذين أفلتوا من النفي إلى خارج الاتحاد (أمثال بلاتونف، تارل، ليوفسكي، كوتيه، واسماعيلوف) وبالمؤلفين الكتاب (م. م. باختين، ليخاتشوف الذي كان في ذلك الوقت فتياً) - كما وطالت الموجة الاعتقالية القوميين في كل حدب، وصوب.

وشملت الياقوتيين بعد انتفاضتهم عام ١٩٢٨ والقوميين من البوريات - والمنغوليين بعد انتفاضتهم عام ١٩٢٩ (قيل بأنه أعدم منهم حوالي خمسة وثلاثين فرداً، دون أن يتاح لنا التأكد من ذلك).... وفي وقت لاحق الكازاخ على أثر قيامهم بالإبادة البطولية لفرسان الحملة العسكرية، التي قادها بوديونيي عام ١٩٣٠-١٩٣١. وفي العام نفسه تمت محاكمة أعضاء اتحاد إنقاذ أوكرانيا (البروفيسور يفريموف، تشيخوفسكي، ونيكوفسكي وآخرين). ولكم يتضح لنا بعد الاطلاع على هذه الأمثلة، العلنية منها والسرية، ذلك الكم البشري الهائل الذي تركوه هناك خلف ظهورهم... عدا عن وجود العديد من تلك الحوادث والأشياء التي لم نسمع بها قط.

تمر الأيام، وتتوالى الدورات الاعتقالية لتطال أعضاء الحزب اليميني الذين خضعوا لهذه التسمية المؤقتة (١٩٢٧-١٩٢٩) إذ كان أغلبهم من «المعارضة العمالية» ومن التروتسكيين الذين لم يحالفهم الحظ في اختيار أنفسهم زعماءً - وبلغ عددهم في ذلك الوقت المئتين.... وصار فيما بعد إلى الآلاف المؤلفة... إلا أنه يمكن القول، بأن مصيبة المصائب قد حلت، فكما كان هؤلاء التروتسكيون يراقبون سقوط غير الحزبيين في براثن الاعتقال بهدوء مطلق.... ها هم المتحزبون الآخرون يراقبون سقوط التروتسكيين بفرح وسرور... وهكذا دواليك... كل حسب دوره... ليتلو ذلك التدفق الاعتقالي للمعارضة اليمينية (التي لم تكن موجودة من الأصل) إنما الاعتقال لحق بهم عضواً تلو الآخر.. حيث تتابعوا.. إلى السقوط، واندحت في النهاية كافة الرؤوس...

كان لا بد من أن يحين الوقت، وتتم تصفية الحساب مع أبناء الطبقة البرجوازية، وما إن حل عام ١٩٢٨، حتى إذا ما عجز (نيبمان) وجماعته من المهنيين، عن دفع الضرائب باضطراد، وصار من المتعذر عليهم الاستمرار في عملية الدفع، بسبب الشح في إنتاجيتهم، مما أدى إلى سجنهم بتهمة الإفلاس، وتمت مصادرة كافة ممتلكاتهم (كان من هؤلاء الحرفيون الصغار، كالحلاقين والخياطين والمصلحين) وسحبت منهم التراخيص.

لا بد من أن تكون هناك مصلحة اقتصادية، وراء اعتقال الحرفيين، ذلك لأن الدولة بحاجة ماسة للمعدات، والذهب، وإذ إنه حتى هذا التاريخ لم تتوفر لديهم المجوهرات، وبدءاً من عام ١٩٢٩، طغت حمى الذهب المشهورة التي لم تصب أولئك الباحثين عن الذهب فقط، بل طالت هذه الحمى المقشعرة أولئك الذين انتزع الذهب من بين أيديهم، وتكمن هذه الهستريا الاعتقالية، في أن الجهاز الأمني، كان يرمي من وراء توجيه الاتهام لهؤلاء الأرانب، ومن وراء إرهابهم وتهديدهم بالنفي إلى معسكرات

الاعتقال في الفولاغ، إلى تخليصهم من الذهب، حسب قاعدة الأقوى.. لذا امتلأت السجون، واكتظّت لدرجة أضنت المحققين، الذين كانوا يعملون ليل نهار، بسبب ما نقل إليهم من أعداد تتناسب عكسياً مع طاقة هذه السجون الكثيرة.

إن كل من طالته هذه الموجة الاعتقالية (الذهبية)؟، لا بد من أن يكون قد مارس هذه المصلحة قبل عشرين عاماً، أو يكون قد مارس التجارة، أو امتهن أيّ حرفة، عاش بإيرادها في ذلك الوقت. ولم تتعد نظرة الجهاز الأمني لهؤلاء، إلى الشك في أنهم قد خزنوا بعض الذهب، على الرغم من أن الحقيقة لم تثبت شيئاً من هذا لأن معظمهم كان لا يملكه. مما دفع الجهاز الأمني إلى الاستيلاء على التجهيزات الثابتة والمتحركة، دون أن يتم الاستفادة منها وقد تبين فيما بعد بأنها قد أتلفت في زمن الثورة.

هذا الاعتقال، ما كان ليتم إلا بهدف العثور على أسنان، أو مصاغ أو ساعة ذهبية وعادة يكون الذهب بين تلك الأيدي التي لا يمكن لك أن تتوقع، في أن يكون لديها هذه السلعة، لذا وبغية تفعيل هذا التوقع، نشط مفعول الإخباريات، والتقارير التي قد تتضمن مثلاً: إن أحد العمال (عمال الصياغة والخراطة) قد أخذ من أحد ماستين ليرة ذهبية (نيقولاية) واحتفظ بها، أو أن تأتيهم إخبارية: إن السيبيري الفدائي مورافييف ذهب إلى أوديسا، وحمل معه كيساً من الذهب (كان قد سرقه أثناء الحرب الأهلية) أو إن لدى التتر الذين يقيمون في بيتربورغ وخاصة منهم من يعمل في مهنة الحوذية، الكثير من الذهب المكنون وبغية التأكد من هذا، كان لا بد من القيام بالبحث عنه في الأقبية... حتى إذا ما طالت الإخبارية أحداً ما من الطبقة العاملة... سقطت عنه تلك الصفة البروليتارية، وصيغة التفاني في خدمة المصلحة الثورية.... ويخضع للاعتقال هو ومن معه، ويقذفون في زنزنات الجهاز الأمني بأعداد كبيرة، لا تتوفر الإمكانية لإحصائها حتى

هـذا التـاريخ - أجـل مـن الأفـضل لكـم أن تـسلموا كـل شـيء... وكـل ما لديكم... وإلا ستصلون إلى حالة مزرية... حيث سيزج النساء والرجال في حجـرة واحـدة... ويقـضون حاجـاتهم علـى مـرأى بعـضهم بعـضاً في مرحـاض مفتوح - أمن السهل عليكم تقبل مثل هـذا الوضـع... فلتسلموا الـذهب أيها السفلة! بينما المحقون جالسون... ينتظرون دون فتح أي تحقيق أو حتى كتابة محـضر.... إذ لا حاجـة لمثـل هـذه الأوراق.... ولا لـزوم لهـا سـواءً تم تلفيـق الحكم.... أم لم يتم... فالأمر يبدو تافهاً... وتافهاً جداً.... أمـام الهدف الأهـم الأوحـد الوحيـد: سـلم الـذهب أيهـا الـسافل! فالحكومـة بحاجـة إليـه... ومـا حاجتـك بـه... لقـد بحـت حنـاجر المحققـين، وخـارت قـواهم مـن جـراء التهديد والوعيد. وكان لا بد من إيجاد طريقة أخرى أكثر نجاعةً وهـي تقديم الطعـام المالح لهم، والـضن عليهم بالماء... فمن يسلّم ذهبه... شـرب... فقطعة النقود من فئة العشرة... بكأس ماء عذب.

الناس يموتون

يموتون ضحية المعدن

إن أهم ما يميز الموجات الاعتقالية الجديدة عن القديمة منها، هـو أن نـصف المعـتقلين الجـدد يملكـون مـستقبلهم بأيـديهم، وإن لم يكـن لـديك الـذهب - فحالتـك ميـؤوس منهـا. لأنـك ستـضرب، وتحـرق، وتعـذب وتـدق عنقك، وتتبخر حتى الموت، وفي أحسن الحالات ربما يصدقونك.

أما إذا كان الذهب لديك.... عندها تستطيع أن تحدد طريقة التعذيب بنفسك، لا بل تستطيع أن تحـدد إجـراءات الـسجن، ومـستقبلك الـذي تريـد. ولا شـك بـأن مثـل هـذا التـصرف يـشكل عبئـاً نفـسياً، إذ لـيس مـن الـسهل القبول به، وينطوي على صعوبات جمة، فإن أخطأت ستدين نفسك بالذنب، أو النـدم علـى مـر الأيـام. أمـا مـن يملـك الأخلاقيـة ذاتهـا الـتي تملكهـا هـذه المؤسسة الأمنية، لا بد من أن يسهل الأمر عليه، سواءً تراجع أو دفـع،... هنـا

في هذه الحالة.... لا بد من الحذر، إذ إنه يجب عليك ألا تسلم بسهولة.... وبشكل مباشر، فمن المحتمل عندها، ألا يصدقوا بأنك قد أديت كل ما لديك... ويحتجزونك لفترة أطول... وفي الوقت نفسه يمنع عليك التقاعس بالدفع، وفي هذه الحالة، قد تخسر نفسك، وتلصق بك أكثر الأحكام قسوة من جراء الغضب الذي يعتريهم...

استطاع أحد الحوذيين، أن يتحمل كافة أنواع التعذيب وأصر بأن لا ذهب لديه... وما أن زجوا بزوجته.... وبدؤوا بتعذيبها استمر التتري في الصراخ... لا ذهب لدي... لا ذهب عندي..... عندها زجوا بابنته.... وأسقط في يده... ولم يستطع التحمل... وسلم مئة ألف روبل... على أثرها أطلقوا سراح عائلته... وثبتوا الحكم عليه - إن أكثر الحزبين وعناصر السلب والنهب فظاظة هم في الواقع أولئك المتمركزون في جسد الحكومة العظيمة.

إن تطبيق نظام الهويات الشخصية في أوائل الثلاثينيات، خلق دفقاً جديداً من المعتقلين، وغصت المعسكرات بموجات المعتقلين الجديدة... مع العلم، بأنه في السابق، وفي زمن بطرس الأول، كان قد تم تبسيط قانون الأحوال المدنية للشعب، وقوضت كل المشارب والتباعدات بين كافة الفئات الاجتماعية، تماماً، كما يفعل نظامنا الاشتراكي الآن، الذي لم يترك وسيلة، إلا واستخدمها لسحق الحشرات الهائمة، وقام بكل ما من شأنه، أن يقوض المشردين الذين لا يصلحون لأي شيء - وهنا لا بد من التنويه، بأن الناس قد أخطؤوا كثيراً في تطبيق هذا النظام الجديد للأحوال الشخصية - فمنهم من سجل إقامته في مدينة... كذا.. ومنهم من ألغى تسجيل إقامته... وكل من أخطأ في هذا سيق إلى معسكر الأرخبيلاك لمدة عام كامل.

وهكذا تضاعفت الموجات الاعتقالية المكتويّه بنار العذاب، وكان أكثرها ازدياداً تلك التي تدفقت عام ١٩٢٩-١٩٣٠، وشملت ملايين

الملاكين (الكولاك) الذين انتزعت ملكيتهم، وبلغت أعدادها الكبيرة جداً، حداً لم تستطع فيه شبكات التحقيق من تنفيذ مهماتها الأولية في السجون (الغاصة في ذلك الوقت بالموجات الاعتقالية الذهبية). لذا كان من الأفضل، نقلهم إلى المعسكرات الانتقالية، أو إلى بلاد الغولاغ. لقد تضخمت هذه الموجة، أكثر من أيّ موجة أخرى تمت حتى ذلك الوقت، وفاقت حدود الإمكانات، لأيّ منظومة سجون أو محاكم في أعظم الدول من حيث استيعابها لهذا العدد الكبير، الذي لم يحصل أن حدث مثله من حيث كميته، وكثافته في تاريخ روسيا كلها، وإن ما تم كان وبصريح العبارة، تهجير سكاني، وحلول كارثة إثنية، إلا أن ما يلفت النظر، هو أنه كيف تم إعداد هذه القنوات الاعتقالية من الكولاك؟ وكيف استطاع الجهاز الأمني تنفيذها بهذا الذكاء، بحيث لم تلحظ المدن تلك الإجراءات! لولا لم تجتحهم، وتهزهم تلك المجاعة التي استمر أوارها ثلاث سنوات - إنها مجاعة مجانية - بلا حرب، وبلا جفاف.

إن الخاصية المميزة لهذه الموجة الاعتقالية عن سابقاتها، هي عدم لجوء السلطات، ومنذ البداية، إلى اعتقال رب الأسرة، ريثما تتم دراسة الوضع العائلي، ليصار بعدها إلى الاعتقال الفوري لكافة أفراد العائلة، مع القيام بحرق الأعشاش الأسروية حيث تؤخذ كافة العائلات مع التدقيق، والتحري، بألا يفلت من أيديهم، أي من الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة، والرابعة عشرة، كي لا يضيعوا في اتجاه ما. إذ يجب أن يساقوا كلهم تحت أصفاد واحدة، وإلى مكان واحد، وإلى تصفية تدميرية واحدة.

لم يضم هذا السيل الاعتقالي في صفوفه، الكثير من الكولاك، كما تدل التسمية، وما هذا إلا خداع وتمويه «فالكولاك» كلمة تعني باللغة الروسية، التجار الزراعيين البخلاء، فاقدي الضمير، الذين يزدادون غنى: دونما أيّ جهود. وكان أمثال هؤلاء قلة في الأقاليم قبيل الثورة، التي

قامت بالقضاء عليهم تحقيقاً للعمل الثوري. وبعد عام السابع عشر، وحسب خاصية التناقل، أصبحت تطلق هذه التسمية «الكولاك» (في الأوساط الرسمية، وفي الكتب الأدبية، ودخلت هذه الكلمة في سياق اللغة الشفوية المرعبة) على كل من يقوم باستثمار جهد غيره، وحسب هذا الزمن، صارت تنطبق حتى على كل من يستثمر جهد عائلته. إنما علينا ألاّ نسقط من الحسبان، من أن كافة الجهود التي بذلت بعد الثورة، كان لا يمكن أن تجزي بشكل غزير أولئك - حراس الأجراء الزراعيين! أعضاء لجان حماية الفقراء، والمجالس المحلية في القرى. فليحاول أو يجرب، أي كان من أن يزعج هذا الأجير الزراعي.... إن مقولة استثمار الجهود غير العادلة.... قاعدة يتم الخروج عن إطارها في بلدنا هذه الأيام.

إن عملية تناقل هذا المصطلح اللاذع «الكولاك» طغت كتيار جارف، وبات يطلق هذا الاسم بدءاً من عام ١٩٣٠ على كل الفلاحين الأقوياء - الأقوياء في الأمور الزراعية، والأقوياء في قناعاتهم... إن هذا اللقب «كولاك» استخدم من أجل تهشيم، وتحطيم قلاع الفلاحين، ولنتذكر... إنه ومنذ اثني عشر عاماً، ومنذ إعلان المرسوم الأساسي - العظيم عن ملكيته الأراضي - الذي لولاه ما سار الفلاحون وراء البلاشفة، ولما انتصرت، وتحققت ثورة أكتوبر، التي وزعت الأراضي على الفلاحين بالتساوي، لكن وبعد تسع سنوات، وما أن عاد الرجال من التطوع في الجيش الأحمر، وانقضوا على الأراضي، التي دافعوا عنها حتى أضحوا فجأة - «كولاك فقراء»... فلمَ حصل هذا... وعمّ نتج! ربما يكون نتيجة لعدم التوزيع المتساوي للأدوات أو ربما يكون نتيجة لعدد أفراد الأسرة السعداء... أو التعساء.... وإنه ليس بناتج بحال من الأحوال، عن حبّ العمل أو التمسك بالأرض. وها هم الآن، أولئك الرجال ذاتهم، الذين أكلوا عيش روسيا، بشكل فعلي، يندفعون عام ١٩٢٨ ليقوموا باستئصال، واجتثاث التعساء

المشردين المحليين، أو القادمين من المدن من خدورهم... وعندما يتوحش الإنسان يفقد كل التصورات (الإنسانية)... فبعدما فقدوا كافة المفاهيم الإنسانية المتجذرة عبر آلاف السنين - بدؤوا بإلقاء القبض على أفضل مزارعي الحبوب، وعائلاتهم، وألقوا بهم خارجاً، دون أيّ أمتعة، قذفوا بهم إلى الأرض الشمالية القفراء حتى من البشر، أو دفعوهم إلى الأقاليم (التايغا، التندرا).

لقد فاقم هذا التخلخل البشري الوضع، وزاده تعقيداً تبدّى بشكل واضح، على تلك القرى التي تم تطهيرها من هؤلاء الفلاحين، الذين أعلنوا وببساطة مطلقة، بأنهم لا يودون الانتساب إلى الكولخوز، وأبدوا عدم الرغبة في العيش حياة جماعية، لا يملكون عنها أيّ تصورات مسبقة، ولم يسبق لأحد منهم أن عاشها، وشك البعض منهم في مصداقيتها، (الآن بتنا ندرك، وبشكل أولي بأن هذه الجماعية ستكون تحت قيادة الكسالى... وسينتج عنها الحاجة، والعوز. والمجاعة)، وهل كان من الضروري؟ أن يتم التخلص من أولئك الفلاحين (الذين لم يكونوا أغنياءً قط) الذين أبدوا البسالة، بقواهم الجسدية وبإصرارهم وصراحتهم العلنية من الاجتماعات، وبحبهم للعدل، وحب الأهالي لهم ولآرائهم الحرة - بينما الآن عدوا بأنهم يشكلون الخطر على قيادات الكولخوزات (كان منهم الفلاحان الخالدان تشيبسان تشارسوف، وسيرغي زالكين) وعلى تطبيق الحياة الزراعية الجماعية، على الرغم من أنه لم تخلُ قرية واحدة من أناس اعترضوا على هذه الجماعية في العمل، إلا إن ذلك لا يجدي نفعاً فقد حانت الفرصة للانتقام منهم بدوافع الغيرة والحقد، وكان لا بد من ابتكار كلمة جديدة تشمل هؤلاء الضحايا، وتلفهم بجزائها... وجاءت البشارة... وولدت الكلمة... مع أنها لا تحمل أي معنى (اجتماعي)، أو (اقتصادي) إنما كان لها الواقع السماعي العظيم... بادكولاك (أي إنها طبقة أدنى مرتبة من الكولاك)...

الأمر الذي يعني بأنك اعتبرت - ظهيراً معادياً، وهذا كاف لأن يسمّى هذا الأجير الزراعي الخارج عن إرادة الجماعية... بالباد كولاك (إني أتذكر جيداً من شبابي، من أن هذه الكلمة بدت لنا واضحة بشكل منطقي).

أجل لقد كانوا محكومين بكلمتين... هؤلاء الذين يمثلون جوهر القرية وطاقتها وفراستها وحبها للعمل، ومناعتها ووجدانها، ابعدوا وإلى الأبد، .. وتم تطبيق العمل الجماعي..، .. وانداحت السيول الاعتقالية من هذه القرى، التي لم تطبق العمل الجماعي في أوساطها:

- سيل من مخربي العمل الزراعي، بعدما اكتشفوا وبقدرة قادر تنظيمات هؤلاء المخربين في كل المناحي، هؤلاء الذين أمضوا السنوات من عمرهم، وهم يكدحون بشرف، وجد... ها هم يرحلون... وأضحى الحقل الروسي الآن متسخاً بفعل هذه الطفيليات (حسبما ورد في تعليمات المعهد الموسكوفي التي كشف النقاب عنها لاحقاً: إن جل هذه الطفيليات هي من عداد المئتي ألف من أعضاء حزب الفلاحين (الذين لم يعتقلوا حتى الآن).... إنهم المهندسون الزراعيون الوحيدون، الذين لم ينفذوا المراسيم الحاذقة التي أصدرها ليسينكو (كان من عداد هذا السيل الاعتقالي، المتجه إلى كازخستان عام ١٩٢١- (ملك البطاطا، ألمكنى بوراخ). ولشد ما انتُقدت تلك المراسيم بكافة تفصيلاتها، إلا أن مصدرها، نعت المنتقدين بالغباء (قام المهندسون الزراعيون في عام ١٩٣٤، في إقليم بسكوف، ببذر بذار الكتان على الثلج - تماماً كما نصت أوامر ليسينكو - ونفخت حبات البذار وتبرعمت، وتلفت، وترك الحقل عارياً، دون بذار لسنة كاملة، ولم يستطع ليسينكو أن يعترف بأن السبب في ذلك هو الثلج - وليس الكولاك، إنما غباء أوامره - لذا قام وعلى الفور باتهام المهندسين - الكولاك الذين شوهوا قدراته التكنولوجية، وتم سحبهم إلى سيبيريا). وتم فيما بعد الكشف عن الكثير من المخربين في قطاع إصلاح التراكتورات (كل هذه

الأسـباب الـسالفة الـذكر، مجتمعـة توضـح بـوادر الفـشل في عمـل الكولخوزات).

سيل من (جراء الخسارة في المحصول). وقد قدرت هذه الخسارة مقارنة بالرقم التعسفي المقدر من قبل اللجنة المشكلة في الربيع قبل جني المحصول.

- سيل اعتقالي من جراء «عدم تنفيذ التوجيهات الحكومية حول بذر الحبوب». حيث أصدرت اللجان الزراعية أوامرها في كافة المحافظات، ببذر الأرض، ولم تنفذ الكولخوزات... إذن إليكم بالسجن).

- سيل اعتقالي مؤلف من لصوص الحصاد - الذين كانوا يحصدون ليلاً، ويسرقون ما حصدوه... لا بد من أنه نوع جديد من العمل الزراعي، وطريقة مبتكرة لجني المحصول - لقد شكل هؤلاء سيلاً اعتقالياً من عشرات الألوف من الفلاحين، وكان أغلبهم من الذين لم يبلغوا سن الرشد، من الرجال والنساء والشباب والفتيات والصبيان والصبايا، الذين قال لهم من هو أكبر منهم، أن يذهبوا للحصاد الليلي وسرقته لأنهم لم يأملوا يوماً في الحصول على أجرهم من الكولخوز، مقابل عملهم النهاري الصعب والقليل المردود، (لم يحصل سابقاً حتى في زمن الإقطاع، أن وصل الفلاحون لهذه الدرجة من العوز)!!.. وقدر القضاة حكماً واحداً للجميع، مدته عشر سنوات، بسبب السرقة الخطيرة للملكية الاشتراكية، وبناءً على أحكام القانون التاريخي الصادر في ١٧ آب عام ١٩٣٢ (سمى هذا القانون حسبما ما هو متداول بين المعتقلين - قانون سبعة الثمانية).

سمح هذا القانون وعلى مدى عشر سنوات، بتدفق سيل اعتقالي من المعامل ومن القطاع التجاري، وقطاع المواصلات، وكان المطلوب من الجهاز الأمني التابع لوزارة الداخلية، ممارسة قمع هذه السرقات الكبيرة، ولقد استمر هذا التيار بدءاً من سنوات الحرب، بل ازداد اتساعاً، وقسوةً، وبشجاعة حتى عام ١٩٤٧.

ها قد حان الوقت أخيراً... لنلتقط أنفاسنا... فمن الآن وصاعداً، ستتوقف كافة السيالات الاعتقالية.... لقد قال الرفيق مالوتوف في ١٧ أيار عام ١٩٣٣!! «إننا نرى أن مهمتنا، ليست في الاضطهاد الجماعي»... بخ... بخ... بخ، ليته حان زمن التخلص من خوف الليالي!!!... لكن ما لهذا العواء التي تطلقه الكلاب... هاتو.... هاتو!!!.

هكذا إذن... وبعد هذا... بدأ السيل الاعتقالي الكبير وفي مدينة لينينغراد، حيث بلغ درجة الإجهاد الأعظمي، مما دعا وزارة الداخلية، تشكيل مراكز قيادة وسيطرة في أحياء المدينة، وأعطيت التعليمات لتتبع ملفات الإحالة إلى القضاء (على الرغم من إنها في السابق لم تكن تشكو قط من ظاهرة الإبطاء، إلا أن الكم الاعتقالي الكبير فاق إمكانية الأجهزة) على أن يحرم أصحابها من حق التظلم (هذا ما كان في السابق) لقد طال هذا التطهير الاعتقالي ما بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٥ ربع سكان لينينغراد (منهم من تعرض للاعتقال ومنهم للتحقيق) فليكن هذا الرقم حافزاً لمن لديه المعلومات الأدق، أن يعطي رقماً آخر «للتنويه نقول إن هذا السيل الاعتقالي لم يقتصر على اللينينغراديين فقط، بل انتشر وعمّ باقي البلاد كما جرت العادة، علماً بأنه لم يكن هناك شيء عام أو اتصالات عامة مع الآخرين).. لقد تم على أثر هذا الاعتقال... التسريح والصرف من الخدمة لكل من ثبت بأنه ابن لأب كان قسيساً، أو ملكياً... أو من له أقارب في الخارج).

في خضم هذه السيول الاعتقالية، لم يكن مكان قط، لأيّ قناة اعتقالية متواضعة لم يعلن عنها أو على الأقل لم تعلن عن نفسها بشكل قوي، ومسموع.. لقد انسابت... بصمت... وصمت.!! كان منها.. نفر من أولئك الفارين الذين خسروا معركتهم الطبقية، ولاذوا بفلندا بعد خسارتهم تلك، وعادوا فيما بعد إلى موطن البروليتاريا الأم، طلباً للملاذ والحماية في حضن الأممية.

كان منها الإسبيرانتيين (لاقت هذه المجموعة البطش (ليس من قبل ستالين فقط... بل من قبل الزعيم الآخر هتلر في وقت سابق.

كان منها، أولئك الناجون الذين لم تقتلهم شظايا قمع حركة الفلاسفة السرية.

كان منها بعض المعلمين، الذين لم يوافقوا على تطبيق العمل الجماعي المخبري في التعليم، (تم اعتقال ناتاليا إيفانوفا بوكانيكا عام ١٩٣٣ في مدينة روستوف، وأقرت أثناء سير التحقيق، بصلاحية القرار الحكومي... وتم إطلاق سراحها).

كان منها، أعضاء الصليب الطبي الأحمر، الذين استمروا محافظين على وجودهم من عهد الإمبراطورة يكاتيرينا بشكوفوي حتى الآن.

كان منهم، أتراك شمال القوقاز، بسبب انتفاضتهم عام ١٩٣٥... ويا للكارثة! القوميون ينشطون (ننوه إلى أنه تصدر الصحف على ضفاف الفولغا بأربع لغات، التترية، التركية، الأوزبكية، والكازاخية.. ويتوفر العدد الكبير من القراء لها).

كان منها... للمرة الثانية المؤمنون المتدينون... الذين لم يرغبوا بالذهاب إلى العمل في أيام الآحاد (أقروا العمل في خمسة أو ستة أيام)، (ومنهم الكولخوزيون الذين يقضون يوم السبت في الأعياد الكنسية، حسبما اعتادوا في زمن القروية).

كان منها، ... من رفض التعاون مع الأجهزة الأمنية التابعة لوزارة الداخلية، ورفضوا الإدلاء بالشهادة ضد غيرهم (منهم التسعة، الحافظون لسر الاعتراف - هؤلاء البشر المؤمنون بفائدة معرفة محتوى الاعتراف، التي تشكل بالنسبة لهم الفائدة الوحيدة في الدين).

كان منها... الطائفيون ومنها الاجتماعيون

جاء في الخاتمة أولئك الذين تطلق عليهم تسمية واحدة، ولمرة واحدة، الذين ما زالوا يتداحوان تحت الاعتقال من كل الأزمنة، والأمكنة... هؤلاء الذين يشملهم البند العاشر (دعاة الثورة المضادة)... أو (دعاة المناهضة للحكم السوفييتي).

تميز الاعتقال تحت يافطة البند العاشر، بأنه أكثر ثباتاً، واستمراراً من بقية الأسباب المؤدية للسيول الاعتقالية، ولم ينقطع البتة، حتى في زمن الاعتقالات الكبيرة في عام ١٩٣٦، وفي ١٩٤٥، و١٩٤٩، لا بل ازداد غزارة...

أمسك هذا السيل الاعتقالي بتلابيب الجميع دونما تمييز في كل الأوقات، وإن كان قد تميز بالنسبة للمثقفين في الثلاثينيات بصورة أكثر لباقة، حيث عمدوا إلى إلصاق التهم ضد البعض.. (ويا لدجل الرجال... أعلنت الصحف أن البروفيسور بليتوف، قام أثناء عيادة إحدى الفتيات - بعض تهدها - وما عليك، إلا أن تدخل، وتكذب الافتراء بنفسك).

التناقض - إن كل نشاطات السنوات الطويلة... التي عمل خلالها أعضاء الجهاز الأمني - والتي اخترقت صدور الجميع، وما زالت خالدة في الذاكرة غير منسية - كانت في إيلائهم الأهمية القصوى لمادة واحدة من مجموع المواد المئة والثمانية والأربعين، ولم يولَ الاهتمام لكافة مواد التشريع الجنائي الصادر في عام ١٩٢٦، إلا لمادة واحدة، أكيلت عليها النعوت والصفات، حتى لتجدها أكثر من تلك التي وصف بها، توركينوف مؤسس اللغة الروسية، أو أكثر من تلك النعوت الواسعة التي اتسم بها نيكراسوف، الذي كالها لروسيا الأم: العظيمة، القوية، الهائلة، الواسعة المتنوعة.... إنها المادة الكاسحة ذات الرقم الثماني والخمسين، التي شدهت العالم... ليس في دقة صياغتها فحسب... بل في عمق تفسيرها الديالكتيكي العام، والشامل.

من منا لم يختبر الارتماء في أحضانها؟ لأنه لا يمكن، أن يوجد فكر أو عمل أو فعل تحت هذه السموات، إلا وشملته عقوبات المادة الشاملة الثامنة والخمسين.

إن صياغتها بهذه الشمولية، يعتبر في حكم المستحيل، حيث تتوفر الإمكانية العريضة فيها للتفسير والتأويل.

لم تتضمن المادة الثامنة والخمسون، تحت بنودها أيّ صفة سياسية، حتى أنها لم ترد في التشريع الجنائي تحت عنوان «الجرائم السياسية، ولم ينوه إليها قط، إلا أنها أدرجت تحت صفة الجرائم المضادة للنظام الحكومي، وأعمال قطع الطريق في حقل «الجرائم الحكومية». وبهذا يكون قانون الجنايات العامة قد قلب، منطلقاً من مبدأ رفض الاعتراف بأي كان، ولأي سبب، أن يكون مجرماً سياسياً - بل يكون جانياً ليس إلا. تتضمن المادة الثامنة والخمسون أربعة عشر بنداً:

ما أن نطلع على البند الأول، حتى نتعرف على الأعمال المضادة للثورة، التي هي في الحقيقة كل الأعمال الموجهة، لإضعاف نظام الحكم (حسبما جاء في المادة السادسة من المرسوم)، إنما وعند التعرض للتفسير الشامل الأعم، يتضح بأن فعل رفض الذهاب للعمل في معسكرات الاعتقال على الرغم من جوعك وإعيائك، هو أحد السبل لإضعاف نظام الحكم، وتصل عقوبتك لحد لا تقل عن حكم الإعدام (مثلك مثل الذين رفضوا المشاركة في الحرب).

في عام ١٩٣٤، أعيد للاستخدام مصطلح الوطن، وتضمنت هذه المادة أيضاً بنداً يسمى «صيانة الوطن» ١-أ، ١- ب، ١-جـ، ١- د، وإن أي عمل يتطابق ومفهوم هذه البنود، فإنه يلحق الضرر والخسارة في قدره القوات المسلحة لعموم الاتحاد، وعندها لا بد من أن تكون العقوبة، دون أدنى شك الإعدام طبقاً لما جاء في البند (١- ب). أما في حال الاسترحام وتوفر الظروف

لذلك، تخفض العقوبة للمتهم حسب (البند ١- أ) إلى السجن عشر سنوات. ولقد طبق هذا البند في ذلك الوقت وعلى نطاق واسع على الجنود فقط (بسبب إلحاق الضرر بالقدرة العسكرية)، أو وقوعهم في الأسر، وقد يبدو هذا إنسانياً لدرجة كبيرة يغدو فيها الأسير مخالفاً للقانون حسب التشريع، والسنّة الستالينية - إذ على كل من رحل ليشارك في الحرب، ألاّ يعود إلى أرض الوطن إلا وقد قتل من قتل، وأعدم من أعدم.

(سنعمد الآن إلى سرد مثال آخر، عن شمولية التغيير، أذكر جيداً إحدى تلك الحالات، التي قد حصلت عام ١٩٤٦ في سجن بوتيركا: أحد البولونيين ولد في مدينة ليمبرغ، التابعة في تلك الآونة للدولة النمساوية - الهنغارية، وعاش حتى قبل الحرب العالمية الثانية في مدينة بولونيا، وانتقل بعد ذلك إلى النمسا، وخضع للخدمة العسكرية، وألقي القبض عليه أثناء ذلك من قبل قواتنا العاملة في ذلك البلد، وحكم عليه بعشر سنوات طبقاً للمادة الرابعة والخمسين - البند الأول من القانون الجنائي في جمهورية أوكرانيا، وكأنه ارتكب جرم خيانة وطنه - بعدما أصبحت مدينته ليمبرغ تابعة إلى أوكرانيا، ولغوف!! ولم يتمكن المسكين من الإثبات، بأنه ذهب إلى فيينا، ليس بهدف خيانة وطنه أوكرانيا! وليس في نيّته أن يكون خائناً).

(وهنا نسوق تفسيراً شمولياً للبند المتعلق بالخيانة، المستخدم في المادة المئة وخمسة وتسعين، حسب ذلك النص القانوني، الذي يوضح مفهوم «النية» أي في حال عدم وجود فعل الخيانة، فللمحققين الحق، في أن يعتبروا بأنه كان ينوي الخيانة - وهذا كاف، لأن يحكم عليه حكماً كاملاً، كما وكأنه ارتكب عملياً جرم الخيانة.

وفي الحقيقة، إن المادة التاسعة عشرة، تفترض العقوبة، ليس حسب النية، ربما حسب المباشرة بالفعل، إلا أنه وعبر الصياغة الديالكتيكية،

يتساوى كلا المفهومين، النية، والمباشرة في فهم واحد، وتطال العقوبة المباشر بالفعل (كما وكأنه حقق فعل الخيانة، وبالتالي تغدو الجريمة بحد ذاتها «فعل خياني».

«إننا لا نميز بين النية، وفعل الجريمة، وهنا تكمن بلا شك، أفضلية وتفوق القانون السوفييتي على القانون البرجوازي»!.

إن التآلف الفني الرحب لكل مادة، كالمادة السادسة عشرة، من نصوص التشريع - هو «التشابه» أي عندما يصعب تصنيف فعل الجريمة تحت أيّ مادة، عندها يلجأ القاضي إلى «التشابه».

يرد في البند الثاني، اعتبار الانتفاضات المسلحة، واغتصاب الحكم في المراكز، أو في الأمكنة الأخرى، بهدف سلخ أي جزء من الجمهورية عن جسم الاتحاد السوفييتي عنوةً، عمل إجرامي، يعاقب مرتكبه بالإعدام (حسبما ورد في البنود الأخرى).

أما الإسهاب أو التفصيل «بدا وكأنه، كان محصوراً في كتابة المواد بطريقة مسهبة لهذا كتبت بطريقة الاختزال، والإيحاء بالحقوق الثورية» وبموجب هذه المواد، ستتعرض أيّ محاولة للمطالبة بحق الانفصال، لأيّ جمهورية عن جسم الاتحاد للإخفاق حيث إن كلمة (عنوة) لا تتعلق بأحد ما بالتحديد، حتى ولو أراد السكان كافة في الجمهورية الانفصال، دون أن تكون لموسكو المركز رغبة في ذلك، وبالتالي يدخل هذا التصرف تحت المحاولة (عنوة)، وبهذا نرى بأن للسلطة الحق في أن تفرض على الأستونيين، واللاتفيين، والليتوانيين، والأوكرانيين، والقومية التركستانية عقوبة عشرة أعوام إذا ما حاولوا الانفصال عن جسم الاتحاد.

البند الثالث هو «تقديم المساعدة من قبل أي كان، وبأيّ طريقة كانت لدولة أجنبية تكون في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي».

وفرّ هذا البند الإمكانية لمحاكمة أي مواطن، كان واقعاً تحت الاحتلال، سوءاً كان رازحاً تحت نعال جنود الاحتلال الألماني، أو أنه قام ببيع باقة فجل لهم، أو أن مواطنة ما، قامت برفع الحالة المعنوية لأحد الجنود المحتلين، من خلال مراقصتهم أو قضاء الليل معهم..!.. لكن يجدر التنويه، بأنه ومع ذلك لم يحاكم الجميع بما جاء في هذا البند (بسبب كثرة الاحتلالات) إنما كان من الممكن أن يتعرض كل من وقع تحت الاحتلال للمحاكمة.

أما البند الرابع فقد تحدث عن تقديم العون الفانتازي (الخيالي) للبرجوازية العالمية. وقد يحار المرء لأول وهلة، في فهم كنه، وطبيعة هذه المساعدة، ومن ذا الذي يستطيع تقديمها، ومن سيتعرض لحساب هذه المادة؟.. وبعد التفسير والتأويل، وبمساعدة الوجدان الثوري، تتضح البساطة في إيجاد تلك الجماعة التي تقع عليها، مسؤولية مخالفة هذا البند: (إنهم المهاجرون الذين تركوا البلاد قبل عام ١٩٢٠ أي قبل أن يكتب هذا القانون التشريعي الجنائي بعدة سنوات... وألقي القبض عليهم من قبل القوات السوفييتية في أوروبا، بعد ربع قرن من الزمن (١٩٤٤-١٩٤٥) وتم الحكم عليهم بموجب المادة الثامنة والخمسين - البند الرابع بعشر سنوات، أو بالإعدام رمياً بالرصاص، بغض النظر عن طبيعة الأعمال التي قاموا بها في الخارج، حيث إن إقامتهم تعتبر بحد ذاتها مساعدة للبرجوازية العالمية!!.

(وإن لم تتيقنوا كنه هذه المساعدة نقدم إليكم مثالاً: كيف إن جمعية الموسيقيين قد ساعدت من خلال موقعها داخل الاتحاد، الدول الأجنبية). أو كيف قام الآيسيريون، والمناشفة بتقديم المساعدة الكبيرة للبرجوازية العالمية (وقد وضعت هذه المادة في الأصل، لأجلهم)، وأعقبهم بعد ذلك المهندسون، والفنيون المنفذون للخطة الحكومية والاتحاد الوطني.

البند الخامس: الميل لدولة أجنبية تكون في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي.

لا شك إنها حالة مغفلة، لو أن هذا البند بالذات طبق على ستالين، وجهازه الدبلوماسي وقادته العسكريين، لجهلهم وغبائهم لتلك الويلات الكارثية، التي حلت على روسيا عام ١٩٢٩-١٩٤١، بسبب مسؤوليتهم الكاملة عن تعريض بلدنا للعيب المشين، والهزيمة، التي قل وأن وجد لها مثيل عند مقارنتها بمجموع تلك الهزائم التي تعرضت لها روسيا القيصرية عام ١٩٠٤، وعام ١٩١٥، أو حتى مع كافة الهزائم، التي لا نعرفها في القرن التاسع عشر!!.

البند السادس. الجاسوسية لكم كانت صياغة هذا البند، شاملة رحبة، إذ لو قمنا بإحصاء كافة الذين وجه لهم الاتهام بموجبه، لوصلنا إلى نتيجة مفادها: بأن لا زراعة الأرض، ولا الصناعة، ولا أي شيء آخر، منحنا القدرة على العيش في الزمن الستاليني سوى الجاسوسية لحساب الأجانب والعيش على دراهمهم... أجل الجاسوسية - إنها أكثر الأشياء راحة وبساطة، ومفهومة للمجرم الجاهل، وللعالم وللمحامي، وللصحفي، وللرأي العام في المجتمع[1].

إن بلاغة نصوص هذه المواد، انحصرت في أنهم لم يوجهوا الاتهام بالجاسوسية بشكل مباشر، إنما على الشكل التالي:

١- يمكن القول، إن الجاسوسية لم تكن شغفاً ستالينياً، ضيق الأفق، إنما كانت مجرد لفت انتباه لكل من احتاج إلى تبرير طبيعي، لأن يعطى درجة السرية، ويمنع تسرب الأخبار ويغلق الأبواب، ويطبق منظومة بطاقات الدخول، ويسور المصايف، والأماكن السرية، بشبكة حماية قوية، ضد جاسوسية الشعب، الذي لم يستطع أن يخترق هذه الأسوار ليرى عن كثب، كيف ان البيروقراطية تجلس دون عمل، وترتكب الأخطاء.

- الاشتباه بالجاسوسية

- جاسوسية غير مثبتة بالبراهين، وهذه يتبعها الكثير من اللف والمداورة.

- اتصال يؤدي إلى الاشتباه في الجاسوسية فعلى سبيل المثال: لو أن أحد معارف صاحبة زوجتك، خاطت ثوباً عند تلك الخياطات (اللاتي هن بالوقت نفسه عميلات للجهاز الأمني) اللاتي يقمن بخياطة ثوب لإحدى زوجات الدبلوماسيين لكانت زوجتك في حكم المشتبه بها.

إن المادة الثامنة والخمسين، والبند السادس (الذي يتضمن الاشتباه بالجاسوسية أو حدوث اتصال يؤدي إلى الاشتباه بالجاسوسية)، الذي هو من البنود الوبائية اللزجة، المحتوية على شروط قاسية، ومراقبة صارمة (ذلك أن المخابرات تستطيع أن تمد قرونها الاستشعارية إلى معبودها، حتى ولو كان في معسكر النفي). كما وتضمنت تلك المادة، منع تسيير الحراسة المرافقة. وكتبت نصوص هذه المواد بالحروف الكبيرة خلافاً لكل الحروف الكتابية المستخدمة في كتابة المواد الأخرى (سنتعرض خلال سردنا، وفي هذا الفصل إلى أشياء كثيرة أخرى). وكانت السمة الأساسية لها، بأنها غُلفت بطبقة رقيقة من الأحاجي، كي تبدو واضحة، ومفهومة، ولم يكن جلياً...، بأن هذه الفقرات البارزة، بالخط الكبير، إن كانت هي في قوام المادة الثامنة والخمسين، أم هي مستقلة، وخطيرة لدرجة كبيرة، حتى إن المساجين الذين جروا بجريرة هذه المادة ذات الخط العريض، كانوا يعانون الضيق في بعض المعسكرات، مقارنة بأقرانهم السجناء الذين طالتهم المادة الثامنة والخمسون.

- البند السابع، ممارسة التخريب في الصناعات والمواصلات، والمؤسسات التجارية، والمتاجرة بالعملات، وإنشاء الجمعيات.

ما أن أصبح مفعول هذا البند سارياً في الثلاثينيات حتى أمسك بتلابيب الناس تحت يافطة صفة «التخريب» وفي الواقع إن كل ما ورد من

صيغ مختلفة تحت عنوان البند السابع، فقد تناولت تهمة التخريب، بشكل جلي وواضح - (أولئك الذين كان لزاماً عليهم أن يكونوا متهمين)!. نعم لقد مرت السنون الطويلة، والشعب يبني ويشيد كل ما هو قائم بصدق وشرف، ولم يحدث قط، حتى في الأيام الصعبة، أن ترامى إلى السمع، بأن تخريباً ما قد حصل حتى أثناء وجود الإقطاع. فكيف الآن عندما أصبح الشعب يملك الحيازة بنفسه - تكون مئات الألوف من الأبناء الشرفاء لهذا الشعب، قد سلكوا طريق التخريب (إن التخريب في الممتلكات الزراعية، لم يطرح في هذا البند، إلا أنه ودونه يصعب توضيح سبب تغطية الحقول بالأعشاب الطفيلية الضارة، وسبب إتلاف المحاصيل، وتعطيل الآلات وذلك أن الديالكتيكية تسربت إليه، دعمت القطاع الزراعي).

البند الثامن - الإرهاب (ليس ذلك الإرهاب الذي «وضعت أسسه، وتحت سوفياتي» بل ذاك الذي يجب أن يحدث من أجله تشريع جنائي وفياتي.

لقد اتسع مفهوم الإرهاب بشكل واسع: وليس هو إرهاباً، ذاك الذي يقوم في وضع القنبلة تحت العربة التي تقل المحافظ، إنما الإرهاب هو كسر رقبة ذلك العدو الشخصي، حتى ولو كان حزبياً، أو كومسمولياً، أو شرطياً، أو حتى مسؤولاً. هذا هو الإرهاب، الذي يعتبر عملية قتل أيّ شخصية مسؤولة، لا تقارن أبداً مع عملية قتل الإنسان الهادئ (خلافاً لما ورد في شريعة حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد). فإذا قام الزوج بقتل عشيق زوجته، واتضح بأن ذاك المقتول غير حزبي - عندها تكون سعادة الزوج القاتل عارمة، طالما أنه سيحاكم بموجب المادة ١٣٦، ويكون له كيان اجتماعي، وقد يطلق سراحه، أما إذا كان العشيق حزبياً، فإن الزوج سيكون عدواً للشعب، بناءً على البند الثامن من المادة الثامنة والخمسين.

اتسعت شمولية، ومفهوم البند الثامن، وتضاعف استخدامه من خلال تطبيق المادة التاسعة عشرة، أي بموجب توفر النية للمباشرة في التنفيذ، وليس حسب المباشرة بتوجيه التهديد تحت حالة من السكر (على رسلك) لأي مسؤول حكومي... حتى إذا ما شوهدت أيّ امرأة سوقية نزقة تقترب منه (ولو بهدف التودد إليه) يمكن أن تصنف هذه الواقعة بموجب توفر النية الإرهابية، وتعطي المبرر لأن تستخدم الحدود الأكثر قسوة في هذه المادة (إنها لمهزلة وظلم - على الرغم من أننا لم نقم نحن بصياغة هذه المهزلة - لكننا شاركنا من قام بصياغتها بالمعاشرة، والمجالسة).

البند التاسع - التدمير وإلحاق الضرر... إن كان بالتفجير أو إشعال الحرائق، (أي أن يكون الدافع لهذه الأعمال هو القيام بأعمال مضادة للثورة) باختصار يطلق عليه عمل تخريبي.

إن عمومية المادة، انحصرت في تحقيق الأهداف المضادة للثورة (وهذا تصور يعرفه المحقق بشكل جيد، ويدرك ما يريد في خلد المجرم)، أما تلك الهفوات الإنسانية، وارتكاب الأخطاء وممارسة الغش في العمل، وفي العملية الإنتاجية. كل هذه الأخطاء لا يمكن قبول الغفران عنها ومع ذلك صنفت تحت صفة أعمال تخريبية.

إن كل ما ورد من البنود في المادة الثامنة والخمسين، لم توضح طبيعة الوجدان الثوري المتقد كما تطرق إليه البند العاشر، الذي انتشر صداه في كل الأرجاء (إن كل دعاية، أو تحريض يتضمن دعوة إلى قلب نظام الحكم، أو تقويضه أو إضعافه حتى ولو كان من قبيل النشر أو التأليف والاقتناء لأيّ كتب تتضمن نفس المحتوى) يكون الحكم بموجب هذا البند في حالة السلم، بالحدود الدنيا من العقوبات (أجل الدنيا.... ولكنها بقيت أكثر رحمة)، أي أدنى من الحد الأعلى الذي لم يحدد عملياً!!.

أجل... هكذا كانت شجاعة البلاد العظيمة، أمام سطوة الكلمة...

إن الشمولية الموسوعية الشهيرة لهذا البند الشهير، كانت في أنه يفهم تحت «الدعاية المتضمنة طرح الشعارات» وحتى لقاءات الصداقة، أو قل (حتى الزوجية) سواءً كانت لقاءات تلتقي فيها العين بالعين، أو كانت بتبادل الرسائل، أو ربما يكون حتى طرح الشعارات من خلال إزداء النصيحة الشخصية (وما تحديدنا بالقول يمكن أن يكون، إلا هو ذاك الذي كان بالفعل).

أما التفويض، أو إضعاف النظام، هو كل الأفكار، التي لا تتطابق مع الأفكار الواردة في الصحف اليومية، وكذلك التي لا تتقد بالحماسة والهيجان، طبقاً لما يأتي في الصحف، لأنه كما يقال: يضعف ذلك الشيء، الذي لا يقوّي. ويقلب نظام الحكم كل شيء لا يتطابق بشكل كامل مع ما يقوله النظام.

كل أولئك الذين يصدحون بأغانيهم اليوم
منهم ليسوا معنا
إنما هم
معـــادون لنـــا

(مايكوفسكي)

وتحت عبارة «تأليف الكتب» يفهم كل الكتابات حتى ولو كانت نسخة وحيدة من رسالة، أو كتابة يوميات عادية.

أجل إنه لبند شامل وعام، وحيوي ذلك البند العاشر الذي يطال حتى جريمة التفكير قبل النطق، أو التعبير، أو الكتابة، ... فأي شيء لا يمسك به هذا البند!!

أما البند الحادي عشر كان من نوع خاص - إنه لم يحتو أي مضمون إنما كان كبيضة القبان (زيادة وزن) إلى كل البنود السابقة، سواءً كانت الأعمال قد تم لها الإعداد بشكل منظم، أو إن المخربين (المجرمين) قد دخلوا فعلاً في مرحلة التنظيم. ولقد اتسعت عملياً شمولية هذا البند

لدرجة لم يفلت منه تنظيماً ما إلا وشمله، ولقد كنت شخصياً، ممن عانوا من لطف هذا البند ورقته. كنا في التنظيم اثنين، لا ثالث لهما، تبادلا الآراء بشكل سري - هذا يعني بداية تنظيم -... ويا له من تنظيم!

أما البند الثاني عشر - لا شك بأنه لامس ضمير المواطن بشكل كبير، لقد احتوى هذا البند حالة التكتم عن كل ما أوردناه سابقاً، وعدم الإبلاغ عنه، وكلما طال التلكؤ في عدم التبليغ، كلما اقتربت العقوبة من الحدود القصوى!!

تطور هذا البند لدرجة كبيرة، وازدادت شموليته، وخاصية إمساكه بالجميع، سيان كان المواطن عرف وتكتم أو لم يعرف، إنما المهم ما قام به هو من عمل أو فعل.

البند الثالث عشر - يبدو للوهلة الأولى، بأن مفعول هذا البند لم يعد سارياً منذ زمن طويل، وإلا كان تناول أولئك الذين خدموا في الحرس القيصري (انقلبت الآية فيما بعد، وتغيرت وأصبحت مثل هذه الخدمات المماثلة بسالةً وطنيةً مطلقةً.

لا بد من توفر الأسس، والقواعد النفسية. لتوجيه التهمة - لذا نرى بأن ستالين نفسه كان قد أحيل للمحاكمة بموجب هذا البند من المادة الثامنة والخمسين، وإن الكثير من الوثائق التي تتعلق بمثل هذه المحاكمات التي لم تطَلْها يد العبث والإتلاف، وبقيت بعد أحداث شباط عام ١٩١٧، وباتت معروفة لدى الجميع بشكل واسع، وإن السرعة التي تم فيها حرق أرشيف الشرطة منذ اليوم الأول لقيام ثورة شباط، بدا وكأنه انفعال رفاقي قام به عدو معين من الرفاق أصحاب المصلحة في ذلك الحرق، وإلا ما الضرورة في أن يحرق الأرشيف المهم للخصم، بعد أن تحقق النصر عليه؟

البند الرابع عشر، عاقب كل من «اعترف بعدم تنفيذ الواجبات الوظيفية المحددة، أو من حاول حتى التفكير عن سابق عزم وإصرار بعدم

تنفيذها» وشملت عقوباته حتى الإعدام تحت ذريعة توجيه اتهام مختصر، ألا وهو «التخريب» أو «أي عمل اقتصادي معادٍ للثورة».

إن من يستطيع التمييز، ما بين سبق الإصرار أو عدمه هو المحقق فقط، الذي يعتمد في هذا على مدى وعيه ومعرفته للقوانين الثورية. لقد استخدم هذا البند ضد الفلاحين الذين رفضوا تسليم المحصول، وطبق كذلك على الكولخوزيين الذين لم يقوموا بتنفيذ أيام العمل المطلوبة منهم، وكذلك على أعضاء المعسكرات الذين لم ينفذوا العمل المحدد لهم (على شكل عمل يومي مقتطع)، وكذلك استخدم فيما بعد الحرب ضد الذين فروا من المعسكرات، سواءً كان الفرار ناتجاً عن التوق للحرية، أم كان ناتجاً عن رفض النظام المطبق في المعسكر.

لقد كانت هذه آخر صرعات العنفة العظيمة للمادة الثامنة والخمسين، هذه العنفة الطاغية، التي قطعت أوصال الوجدان الإنساني.

إذا ما مر معنا ذكر هذه المادة العظيمة، فإنه دون شك، لن تعترونا الغرابة، ذلك أنه حيث يوجد القانون... لا بد من أن تكون الجريمة.

★★★

اختيْر حديد المادة الثامنة والخمسين الدمشقي عام ١٩٢٧، كي تتم عمليات كنس الجميع في موجات اعتقالية، استمرت عشرات السنين التالية - وأكثر ما استخدمت هذه المادة، تحت غلالة تهويش إعلامي، عند ذلك الهجوم التشريعي، المنفذ على الشعب ما بين عامي ١٩٣٧-١٩٣٨.

ومن داعي القول، بأن عملية ١٩٣٧ لم تأت مصادفة، إنما كانت مخططة بسبب ما تم في النصف الأول من العام نفسه، من عمليات إعادة ترميم وتجهيز السجون - حيث قاموا بإخراج الأسرّة القديمة من القواويش، والزنزانات وشيدوا مكانها قوائم خشبية، طرحت عليها طبقة، أو طبقتين من الخشب (ولم يكن من قبيل المصادفة قط، أن يتم الانتهاء من بناء

السجن، الذي يعرف بالبيت الكبير في مدينة لينينغراد عام ١٩٣٤، قبل مقتل كيروف، ويتذكر المعتقلون القدماء من أن الضربة الأولى عمت الجميع، وتناول الاعتقال الجماعي (الجماهيري) في ليلة من ليالي آب عموم البلاد (نظراً لمعرفتي المطلقة بالكسل والتثاقل في تنفيذ الأوامر، تراني لا أصدق ما يقال في هذا الصدد... ليلة واحدة).. حتى إذا ما حلت الأيام، التي انتظر فيها الجميع صدور عفو عام، بمناسبة حلول الذكرى السنوية العاشرة لثورة أكتوبر حتى الحق ستالين الظريف الناس بإضافة أحكام جديدة لا مثيل لها، ولا تتطابق مع القانون العام، وبلغت العقوبة بالسجن - خمسة عشر عاماً - وخمساً وعشرين سنة.

لا جدوى من التكرار، والتنويه عن عام ١٩٣٧، الذي كتب عنه الشيء الكثير، وستتكرر الكتابة مرات ومرات، وإن ما حدث كان دون ريب، توجيه ضربة قاضية إلى القيادات الحزبية في الإدارة السوفييتية، وإلى القيادات العسكرية، وإلى إدارات الأمن الحكومي، ووزارة الداخلية (اللجنة الوطنية للشؤون الداخلية)، مع الحفاظ والإبقاء على بعض المعاونين في بعض القيادات، وعلى السكرتير الأول في اللجان الحزبية في المحافظات أو على بعض رؤساء اللجان التنفيذية - لقد اختار ستالين أولئك الذين يؤمنون له الراحة.

لو تعمقنا في النظرة إلى «الثورة الثقافية» في الصين (وإلى عام ١٩١٧ بعد تحقيق النصر النهائي) لاستطعنا عندها أن نوجه الشك، والطعن إلى تلك الشرعية القانونية التاريخية، ولا بد عندها من أن يبدو لنا ستالين، أنه سطحي وأعمى في فهم القوى التاريخية.

نقلت لنا أولغا تشافتشادزه، ما حصل في مدينة تبليسي قائلة: في عام ١٩٣٨، قاموا باعتقال رئيس اللجنة التنفيذية في المدينة، ومعاونه ورؤساء الفروع ومعاونيهم (بلغ المجموع أحد عشر رئيساً) والمحاسبين والاقتصاديين،

وعينوا بدلاً منهم في الوظيفة. وما أن مر شهران، حتى تم اعتقال المعينين الجدد، أي الرئيس والمعاون، ورؤساء الفروع... إضافة إلى ضاربي الآلة الكاتبة والبوابين.

كان يتم اعتقال الأعضاء العاديين في الحزب بشكل سري، ولم تدوّن الأسباب قط إن كان في قرارات الاتهام، أو في محاضر التحقيق. وكانت الأفضلية في الاعتقال حسب المدة العضوية في الحزب، وامتد ليطول أولئك الذين كانوا أعضاء في الحزب عام ١٩٢٤، وطبق هذا الإجراء بشكل صارم في مدينة لينينغراد، لأنهم وقعوا بغالبيتهم «ببرنامج» المعارضة الجديدة (كيف لهم ألا يوقعوا؟ وهل بمقدورهم التجرؤ على عدم «الثقة» بمحافظ مدينتهم)؟.

هكذا بدت لوحة الأحداث في تلك الأيام، يُعقد مؤتمر فرع الحزب في منطقة موسكو ويشرف على إدارته، أمين فرع جديد بدلاً من ذاك الذي لم يمضِ على اعتقاله إلا القليل، ويتخذ القرار السياسي في نهاية المؤتمر، بتقديم الولاء والإخلاص للرفيق ستالين، ومن البدهي، أن يقف الجميع (كلما ورد ذكر لاسمه أثناء سير المؤتمر)، وتصطخب القاعة الصغيرة (جراء التصفيق الحاد العاصف، الذي يشق عنان السماء) ثلاث دقائق.. أو قل أربع... وخمس... وها هم يصفقون... ويصفقون.... ألم تكل الأيدي؟.... أو لم تتخدر هذه الأكف المشرعة.... ألم يختنق الطاعنون في السن... ألا يصبح هذا حتى بالنسبة لأولئك الذين يؤلهون ستالين شيئاً ممجوجاً وغبياً... لكن من يجرؤ أن يوقف التصفيق أولاً. ربما كان يستطيع ذلك... السكرتير الأول للفرع.... المعتلي فوق المنصة... الذي انتهى للتو من تلاوة نص الولاء... لكنه ما زال حديث العهد - ولم يمضِ عليه الوقت الطويل، من لحظة تعيينه وإلا لكان ذلك القابع في السجن - لذا تراه يخاف هذا التصرف.... لا سيما أن القاعة تعج بعناصر الأمن الذين يراقبون من سيتوقف أولاً عن

تصفيق الولاء!! ويستمر المصفقون، تصفيقهم الكسول في هذه الصالة الصغيرة...

ويتابعون التصفيق بخمول ست، ثمان دقائق.... إنهم يموتون... لا بد من أنهم يتساقطون.... ومع ذلك لا يستطيعون التوقف... حتى يرتمون على الأرض، وتتفجر قلوبهم!!. لو أن هذا المؤتمر كان منعقداً في صالة النادي، لخفتت بلا شك حدة التصفيق، وقوته.

كان مع القوم وراء المنصة، مدير مصنع الورق المحلي... وقد تميز هذا بطبع حر وحازم، ووقف مع أولئك، وهو مدرك مدى الخداع والكذب، ومدرك كذلك صعوبة هذا الموقف، الذي لا مخرج منه.... يصفق! - وتمر الدقيقة التاسعة... والعاشرة.... وينظر بحسرة، وغمز إلى السكرتير الأول لكن دونما فائدة.... لا يستطيع التوقف.... ووسط جو عمّه الجنون، يلتفت كل إلى الآخر بنظرة يشوبها الأمل الضعيف.... وترتسم على الوجوه علامات ابتهاج مصطنعة.... وها هم أعضاء القيادة الفرعية... يتابعون التصفيق... طالما كانوا قادرين على الوقوف... وحتى ينقلوا من هنا على الحمالات... ويستمر الباقون دونما تراجع.....! وها هو مدير معمل الورق.... يتخذ هيئة جدية في الدقيقة الحادية عشرة.... ويجلس في مكانه على المنصة.... ويا لها من معجزة - أين ذهبت حمية هؤلاء الناس؟ لعلهم خافوا، أن يرحلوا إلى السجن. فيما لو أوقفوا التصفيق كلهم.... لكنه جاء الفرج.... وتم خلاصهم!! لقد أدرك السنجاب كيف يخرج من الدولاب.

أجل... من خلال هذه المواقف، يمكنك التعرف على هؤلاء الناس الأحرار... هؤلاء الذين تتم مصادرتهم... ويعتقل مدير المعمل في الليلة ذاتها..... وكان من السهل تلفيق أي سبب آخر، تكون مدة عقوبته عشر سنين... وبعد أن وقع المحضر (محضر التحقيق النهائي) الذي يحمل الرقم ٢٠٦، ذكره المحقق.

إياك أن تتوقف عن التصفيق قبل أن يتوقف الجميع. (كيف يمكن أن يكون هذا.... وكيف لنا أن نتوقف؟..).

أجل... هذه هي عملية الاصطفاء الدارويني... هذا هو التهكم الأحمق! الذي يتشكل بفعله هذا العالم الجديد، ولا شك بأن محتوى الروايات، والمذكرات عن عام ١٩٣٧- إنما هي حكايات تراجيدية عن الشيوعيين القادة. التي أقنعونا بصحتها وحقيقتها، واستسلمنا نحن لهذا القول بشكل لا إرادي. ربما يكون عام ١٩٣٧-١٩٣٨ هو العام المخصص لزجّ الشيوعيين الكبار، وربما يبدو أكثر من ذلك - لأنه من خلال استعراض الملايين، التي تم زجها واعتقالها، يتبين بأن نسبة الشيوعيين، والموظفين الحكوميين لا تتجاوز نسبة ١٠٪ من مجموع المعتقلين، ويمكن القول بأنه في مدينة لينينغراد وحدها امتلأت السجون بنسبة كبيرة من النساء الموظفات من الدرجة الدنيا.

من معطيات الإحصاء اللا مباشر، ومن خلال الاستنتاجات من أدلة الشهود، يتبين بأن الإرساليات الخاصة التي لم تتلاشَ قط، كانت من «الملاكين، الذين نزعت ملكيتهم - الكولاك» والذين أرسلوا عام ١٩٣٧ إلى معسكرات الأرخبيلاك، سواءً كانوا موجهين بشكل مباشر إلى المعسكر، أم إلى مناطق مجاورة له، مسيجة بالأسلاك الشائكة، وهكذا نجد أن السيول الاعتقالية في عام ١٩٢٩، قد انصهرت في السيول الاعتقالية عام ١٩٣٧، والتي فاقتها بعدة ملايين.

كان في عداد المنقولين إلى معسكر الأرخبيلاك عام ١٩٣٧، بعض أو قل نصف أموات، دقت رؤوسهم كنقع مبرقش الألوان خاصة منهم أولئك الذين تحطمت رؤوسهم من جراء المقارعة في تثبيت الأحقية العلمية للشرعة القانونية (أن الشيء المضير في ذلك هو أنه لم ينظر إلى هؤلاء المعاندين، بعين التفهم من قبل متحضري هذه الأيام).

كان القانون الحقيقي للاعتقال في تلك السنوات عبارة - عن جدول عددي محدد، تُبينّ فيه، الأعداد المطلوبة للاعتقال، في كل مدينة، وفي كل حي، وفي كل وحدة عسكرية، يتم على أساسها مراقبة دقة تنفيذ اعتقال الأعداد المطلوبة في الموعد المحدد المدون في اللائحة - أما الباقي فمتعلق بحذاقة عناصر أجهزة الأمن.

إن عنصر المخابرات السابق ألكسند كالاكاتوف يتذكر، كيف وردت إليه في إحدى المرات برقية إلى مدينة طشقند «أرسلوا مئتين»... وعلى الفور بدؤوا وفي البحث عن العدد المطلوب، إلا أن الأمر بدا وكأنه لا يوجد أحد يمكن اعتقاله، إلا أننا تدبرنا أمرنا، واستطعنا جلب نصف مئة من الأحياء - لا شك في أن الفكرة منحصرة في أن يتم الاعتقال أولاً - ثم يصار إلى تصفيتهم تحت شمولية المادة الثامنة والخمسين، أجل هكذا قيل وهكذا حصل!.... ومع ذلك لم يتم اعتقال الأعداد حسب الخطة... وتم إبلاغ السلطات المحلية، مع الاستفسار عن ماهية الإجراءات المطلوب تنفيذها! شاءت الأحوال، أن تكون في ذلك الوقت مجموعة من الغجر في ساحة المدينة... لا بد من أنهم كانوا يهمون بنصب خيامهم هناك... فكرة رائعة.. حاصرناهم، ونكشنا الرجال المئة... من السابعة عشرة... وحتى الستين عاماً وألبسناهم لبوس المادة الثامنة والخمسين... ونفذت بهذا خطة الاعتقال!.

حدث أن أعطيت الأوامر للجهاز الأمني في أوستي (تحدث عن هذا قائد في الشرطة رابلوفسك) كي يقوم وحسب الخطة بإعدام خمسمئة رجل من تلك الجمهورية.... وطلب إضافة إلى هذا زيادة الرقم المقرر... وسمح لهم بإضافة مئتي وخمسين شخصاً زيادة عن المقرر.

كان من السهل تشفير تلك البرقيات، حيث كانت ترسل عبر الاتصالات العادية، وكانت عاملات البرقيات، وببساطة مطلقة، يرسلنها عبر مقسم الجهاز الأمني: يطلب إليكم إرسال مئتين وأربعين صندوقاً من

الصابون إلى مدينة كراسنادرا غداً... ما أن بدأت عملية الاعتقال الكبيرة حتى تمكّنت عاملة المقسم من حل اللغز... وباحت لصديقتها بمضمون البرقية المرسلة... وألحقت بالاعتقال (ترى هل هو بحكم الدقّة، ... أن يحسّ الإنسان بكلمة صندوق الصابون... أم هي معرفة عميقة بالتصبن!

إن كافة مواطنينا في الخارج جواسيس حقيقيون (غالباً ما كانوا من عائلات العناصر الأممية الوفية، أو من المخابرات الذين كانوا على الأغلب من النساء الجذابات، وكثيراً ما كان يتم استدعاؤهم إلى أرض الوطن ببساطة مطلقة... ويعتقلون عند الحدود... ويواجهون بشهادات الإدانة التي يقدمها رئيسهم السابق في المنظمة، هذا ما جاء في نظرية ميراي كاروي، الذي كان يعمل شخصياً في إحدى المنظمات المخابراتيّة، إذ يقول: «إن كل مرؤوس، يمكن أن يكون ضاراً، أكثر من أن يكون شريفاً».

العاملون في الخطوط الحديدية، على حدود الصين (لا ريب بأنه قد تبين بأن جميع السوفييت العاملين في تلك المؤسسة، هم من العملاء، وجواسيس يابانيين، دونما استثناء حتى بما فيهم الأطفال، والنساء والعجائز، والشيوخ... بيد أنه يجب الاعتراف، بأنهم ربما استبقوا الزمن في إلقاء القبض عليهم، مبكرين عدة سنين.

الكوريون من الشرق الأقصى (نُفُوا إلى كازاخستان)، ولا بد من أنها كانت التجربة الأولى للاعتقالات العرقية.

الآستون اللينينغراديون (اعتقل الجميع تحت اسم واحد فقط، وهو الجواسيس الآستون البيض).

اعتقال اللتوانيين العاملين في أجهزة المخابرات، وفي سرايا الرماة - أجل اللتوانيون، الذين كانوا يعتبرون لأمد قريب، الهيكل الأساسي، ومفخرة الجهاز المخابراتي... تم اعتقالهم جميعاً، بما فيهم شيوعيو لاتفيا البرجوازية، الذين كانت قد تمت مبادلتهم في وقت سابق عام ١٩٢١،

لتحريرهم من السجن على أساس هذه المبادلة، بينما كانوا يقضون فترات محكوميتهم التي تراوحت بين السنتين، والثلاث سنوات (إضافة إلى إغلاق المعهد الفرعي الليتواني المسمى كرتيسنا، والمركز الثقافي الليتواني، والنادي الاستوني، والمعهد الفني الليتواني، وأوقفت جميع المطبوعات والصحف الليتوانية، والإستونية).

بغية تخفيف الاضطرابات والهيجان الشعبي، تم التوقف عن إرسال التدفقات الاعتقالية الضخمة، وبدأ البحث، والتفتيش في تلك الآونة، عن أولئك الذين لم يتمكنوا من اعتقالهم في السابق، وبات لزاماً إنهاء حالة التخفي، ووجوب إيقاف هذه المهزلة.... وها هم الآن يرسلون كافة الاشتراكيين إلى السجون، ويدفعون بإرساليات متتابعة (كما كان من أوفاوفي ساراتوف)، لتتم محاكمتهم بشكل جماعي، وبعدها إلى الأرخبيلاك قطعاناً.

في غمرة تلك الأحداث، لم ينسوا خلال الاعتقالات المنفذة في السابق المثقفين، كما يجري الآن، وكان يكفي ورود إخبارية، أو تقرير طلابي (إن التلفظ بهذه الكلمات لم يعد له أي وقع ثقيل وغريب منذ زمن)، يتضمن معلومة عن أستاذ محاضر، كان يستشهد غالباً، بأقوال لينين، وماركس، وليس بأقوال ستالين - وبعدها لن يعود الدكتور المحاضر... لإلقاء المحاضرة الثانية، إلا إذا لجأ إلى الاقتباس والاستشهاد!. إضافة إلى ما سبق، قاموا بنفس تلك الفترة، باعتقال المستشرقين اللينينغراديين الشباب، ومتوسطي الأعمار، وألحقوا بهم كافة أعضاء الكادر التعليمي في المعهد المسمى بالشمال (ما عدا المخبرين) ولم يستثنَ من الاعتقال حتى المعلمين في المدارس الابتدائية، وحصل أن أثيرت في ذلك الوقت قضية ثلاثين معلماً في سفردولوفسك من معلمي المدارس المتوسطة، ووجهوا إليهم تهمة قاسية، متصفةً بأقصى

أنواع الاتهامات، وأرجسها: لقد نصبوا في المدارس شجرة عيد الميلاد، بغية إحراق المدارس[1].

أما على جباه المهندسين (مهندسو الجيل السوفييتي، وليس مهندسو الجيل البرجوازي) انهالت الهراوى، وكأنها تتأرجح حسب توقيت نواس دقيق، وتلقت المهندسة ماريكا نيقولا ميركوردفيتش حكماً بالسجن عشرين عاماً، بسبب عدم تعشيق المسننات في أحد الأقراص، نتيجة خطأ قام به أحدهم!! (المادة الثامنة والخمسون - البند السابع) وكذلك علقت مجموعة من الجيولوجيين مؤلفة من ستة أشخاص (عرفت المجموعة تحت اسم مجموعة كانوفيتش) وتلقت الحكم بعشر من السنوات، بسبب «توفر النية في التكتم على كمية الاحتياطي من القصدير في أعماق الأرض (أي عدم إفشاء سر هذا الاحتياطي) ريثما يصل الألمان، وتحتل المنطقة» إخبارية! المادة الثامنة والخمسون. البند السابع».

أُلحق بهذه الموجة الرئيسية، تدفق اعتقالي خاص، مؤلف من زوجات الشيشان، والآستون وأفراد عائلاتهم، ومن زوجات كبار الحزبيين من مدينة لينينغراد وزوجات كل من تلقى حكماً (بالعشر... وحرم من حق المراسلة). وهل يوجد بعد غير هؤلاء؟... لقد بلغ الحكم على الشيشان، والآستون بمعدل ثماني سنوات لكل منهم (لا بد من أنه أخف وطأةً، من الحكم الذي طال المعتقلين المنزوعة ملكيتهم، والمنزوعة في الوقت نفسه أفواه أطفالهم عن صدور أمهاتهم).

١- مات خمسة منهم أثناء التحقيق قبل المحاكمة، وأربعة أثناء إقامتهم في المعسكرات وعاد المعلم الذي يحمل الرقم الثلاثين «إيفان إستولوفيتش بونيتش» مع رد الاعتبار (وقضى الثلاثون، واغفلناهم واغفلنا الملايين من الناس الذين قضوا). وما زال الكثير من الشهود على هذه القضية على قيد الحياة، وينعمون بعيش هانئ - وأسماؤهم مدرجة في لوائح المتقاعدين - هذا هو قانون الاصطفاء الدارويني.

الضروع ضحية! والتلال ضحية!.... والسهول ضحية!.... إنه اقتحام جبهوي أمني على المدينة.... اعتقل ماتييف الزوج، وأخوته الثلاثة... كل باتهام يختلف عن الآخر (ثلاثة من الأربعة لن يعودوا أبداً).

حصل وانقطع كابل التغذية بالجهد العالي عند الميكانيكي الكهربائي.... عشرون عاماً... حسب المادة الثامنة والخمسين - البند السابع.

اتهم العامل.. ينفوكفوف في التحضير، لتفجير جسر كامسكي (في بيرم).

اعتقل بوجوكوف من مدينة بيرم جهاراً نهاراً، ولحقت به زوجته فيما بعد، واطلعوا على لائحة اسميّة كبيرة، وطلبوا منهم التوقيع، على إن هؤلاء جميعاً، كانوا قد اجتمعوا عندهم في المنزل (وهم ثلة من المناشفة، والآيسيريين - بالطبع أن الخبر عار عن الصحة) مقابل وعد بإطلاق سراح الزوجة، لتعود إلى أطفالها الثلاثة الذين ما زالوا في البيت.... وقعت... وأهلكت الجميع... وبقي لها أن تجلس في البيت!

اعتقلت ناديجدا آبودنيتش بسبب انتمائها العائلي، وتبين بعد مرور تسعة أشهر، بأنها لا صلة لها، ولا قرابة مع الجنرال، وأطلقوا سراحها (كل هذا ليس بالمهم.... سيما وأن أمها ماتت جزعاً)!.

بينما كانت مجموعة من النظار، تشاهد فيلماً سينمائياً في سينما روسيا القديمة، اسمه (لينين في أكتوبر). لفت انتباه أحد المشاهدين عبارة وردت في سياق الفيلم «هذا ما يجب أن يعرفه بالتشينسكي» - وبالتشينسكي هذا هو الضابط، الذي كان تولى الدفاع عن القصر الشتوي، إبّان قيام الثورة.... عذراً لدينا ممرضة تعمل في القسم لها نفس الكنية، بالتشينسكي - صدر الأمر باعتقالها! وتبين أنها بالفعل زوجة الضابط المذكور، إذ عمدت بعد أن نفذ حكم الإعدام على زوجها، إلى الاختفاء في بقعة ما من الأرض المنسية.

وصل الأخوة الأطفال بوراشكو (بافل، إيفان، سيبان) من بولونيا، لزيارة أقاربهم.... ووقعوا... في الشبكة (الارتياب بالجاسوسية) وبالتالي في مصيدة مادة الارتياب، والحكم عشر سنوات.

بينما كانت السائقة العاملة في حافلات كراسنادار، عائدة من العمل في آخر الليل سيراً على الأقدام، مرت بالقرب منها، ولسوء طالعها سيارة نقل، تدلت من تحت غطائها، الأيدي، والأرجل، ولا بد من أنها كانت محملة بالجثث، دونوا اسمها، وفي اليوم الثاني تم اعتقالها.... سألها المحقق... ماذا رأيت؟؟ اعترفت بصدق بما رأته (الاصطفاء الدارويني)... التهمة أعمال مضادة للحكم السوفييتي - وبالتالي عشر سنوات.

وضع أحد عمال التمديدات الصحية، مكبراً للمذياع في غرفته، وكان يشغله وفي كل المرات، وفي الوقت الذي يبدأ فيه أحد البرامج، ببث رسائل إلى ستالين (من منكم يتذكر تلك الرسائل)!.... تكررت الواقعة في الساعات، والأيام على نفس الوتيرة! لا بد من أن الدكتور ليفتان يتذكر تلك الرسائل جيداً، لأن المذيع كان يقرؤها بلهف، وإحساس فائقين). تقرير من الجار (ثماني أين أصبح هذا الجار الآن)!، التهمة معاداة النظام، عنصر خطر اجتماعياً... الحكم ثمان سنوات.

كان صانع المواقد، وهو نصف متعلم، يقوم في أوقات فراغه بتوقيع اسمه - الشيء الذي أرضى به ذاته، ومتعها. ولعدم توفر الأوراق كان يوقع على الصحف، ويشطح القلم أحياناً على صورة أبيه، ومعلمه. واكتشف الجيران فيما بعد، وفي محتويات أكياس القمامة، نتفاً من تلك الصحف الممهورة بالتواقيع، وعلى أثرها، أصبح الهاوي من عداد مناهضي النظام، وعشر سنوات.

لقد أحب ستالين، والمقربون إليه، صوره التي كانت تملأ الصحف اليومية، مزينة برقشة بملايين الأعداد، لكن الذباب هو الوحيد الذي لم

يقم لهذا وزناً، ولا لتلك القدسية هماً، وعزّ عليه، ألا تستخدم هذه الصحف - ولكم تلقى العديد من المساكين، أحكاماً من إجراء هذا التصرف الذبابي.

انتشر الاعتقال، كوباء كاسح في الشوارع، وفي البيوت، وبدا وكأن الناس يقومون بنقل هذا الوباء دونما مصافحة أو تنفس، أو تبادل الأشياء - حيث إن المصافحة والتنفس والمقابلات في الشوارع، أعطت المبرر الذي لا مفر منه للاعتقال، ولنفرض هنا بأنك اتهمت غداً وفرض عليك الاعتراف بأنك تقود مجموعة للقيام بأعمال التخريب، ولتكن تسميم مصادر المياه مثلاً، وحصل في الوقت ذاته، وقابلتك في الشارع، وسلمت عليك - لا محالة عندها من أنني سأتلقى الحكم نفسه، الذي ستتلقاه.

مرت سبعة أعوام والمدينة تشاهد وترى كيف تتم عملية الإجهاز على القرى ووجدت هذا أمراً طبيعياً، إنما الآن انقلب الأمر، وأصبحت القرى تشاهد كيف تتم العملية نفسها على المدن نفسها - ولكم كان الليل في القرى حالكاً، ومع ذلك استطاعوا، أن يظفروا بها:

تلقى المرشد الريفي! ساونين حكماً بعشر سنوات، بسبب الوباء الذي اجتاح المواشي!... وأيضاً بسبب سوء المحصول في منطقته!، وتم إعدام كافة المسؤولين في المنطقة للسبب نفسه.

وصل إلى الحقل، السكرتير الأول للجنة المناطقية، يستعجل الفلاحة وسأله أحد العمال الزراعيين الطاعنين في السن: فيما إذا كان الرفيق السكرتير الأول يعلم، بأننا خلال سبعة أعوام من العمل في الكولخوز، لم نستلم مقابل عملنا أي شيء من الحبوب، وأن ما استلمناه لا يتعدى التبن، مع ذلك كان أدنى من الحد المطلوب - تلقى العجوز حكماً بعشرة أعوام، من جراء هذا السؤال - الذي جعله مناهضاً للحكم السوفييتي.

حصل فلاح معيل لستة أطفال، لم يبخل حتى من التضحية بنفسه، أثناء العمل في الكولخوز، علّه يستطيع سدّ رمق هذه الأفواه الجائعة على وسام، تقديراً لعمله المتفاني، وبعد ما قلدوه الوسام أثناء الاجتماع التكريمي، ألقيت الكلمات الخطابية - وفي كلمة الفلاح الجوابية لهذا التكريم قال بتأثر بالغ: أيه.... لو خصص لي بدلاً من هذا الوسام - كيساً من الطحين: هل هذا في حكم المستحيل؟ عم الضحك، وعلت القهقهة في الاجتماع، وذهب حامل الوسام على الأثر وأفواهه الستة إلى المنفى.

ترى، هل هذا كاف، لأن يتوحد مفهوم الجميع... حول زج الأبرياء دون طائل في مفهوم واحد؟؟.... ربما فاتنا القول، بأنه حتى مفهوم الذنب أو الاتهام قد تبدل في زمن الثورة البروليتارية، إذ إنه في بداية الثلاثينيات، صدرت قوانين محاسبة الانتهازيين اليمينيين. وهكذا بتنا لا نستطيع التحايل، والمراوغة على تلك المفاهيم السابقة للذنب والبراءة منه[1].

إن إخلاء السبيل، الحاصل في ١٩٣٩- يعتبر حالة ذات أثر خارق للعادة في تاريخ هؤلاء القادة، على الرغم من أن هذا التدفق المضاد (الرجعي) لم يكن كبير الحجم وربما عادل من ١-٢٪ من مجموع المعتقلين - الذين لم يحاكموا، أو من الذين لم يرسلوا بعيداً، أو على الأقل لم يموتوا حتى الآن. إنه تدفق رجعي حقير، استخدم بشكل حاذق وهو عبارة عن إعادة بضعة كوبيكات من الروبل المصادر.... لكنه كان إجراءً ضرورياً لأن ترمى عاقبة كل شيء، على عاتق ذاك النذل يوجوف - وفي الوقت نفسه يأتي تدعيماً لموقف البديل الجديد لرئيس الجهاز المخابراتي بيريا، وزيادة في لمعان السيد الزعيم.

١- في عام ١٩٤٦ تطلّب الزمن (في ١٩٤٦/٧/١٢ رقم ٥/١٨) ان يصدر قرار خاص من رئاسة المحكمة العليا لعموم الاتحاد السوفييتي «إن إمكانية استخدام العقوبة تتم فقط على الأشخاص الذين يقومون فعلاً بجرائم محددة ما»! إلا انه وفيما بعد أصبح استخدام هذا القانون مغايراً لما في القانون نفسه.

لقد سُكّت هذه الكوبيكات، بمهارة فائقة للروبل المتبقي في عمق الأرض (ويا ليتهم تأكدوا من ذنب هؤلاء، ثم أطلقوا سراحهم)، (حتى إن الصحف كتبت في ذلك الوقت، عن هؤلاء المغدور بهم وشاية) - الأمر الذي يعني، بأن البقية الباقية من المعتقلين - لا بد من أن تكون في نهاية الأمر من السفلة!! أما العائدون من السجون انتابهم الصخب، الذي تعهدوا به، ووقعوا عليه، وانعقد لسانهم من الخوف، وقلة قليلة منهم، من عرفت الشيء اليسير عن معسكر الأرخبيلاك. وسار الأمر كما في السابق وحسب الخطة الموزعة للحدود الإنتاجية في الاعتقال، كان القمع يتم في الليل، والمسيرات الصاخبة في النهار.

أجل..... هكذا... عادت الكوبيكات المحررة فيما بعد إلى حيث خرجت وعلى وجه السرعة - لتقضي سنوات الحكم السابقة (التي سبق وأن حكم عليهم بها)، بالطريقة نفسها، وتحت المواد، والبنود ذاتها. لا بل تنعمت عودتهم، كما كنا قد عرفنا، بدفقة اعتقالية جديدة، مؤلفة من زوجاتهم، اللاتي أبين رفض أزواجهن!، أو ليس لنا أن نتذكر في تلك السنوات السلمية كيف اعتقلوا فرقة موسيقية، كانت تقيم حفلة في سينما «موديرني» في مدينة كييف، وتعزف إحدى المقطوعات من موسيقى الجاز - وقد تبين أن أعضاء الفرقة أعداء للشعب!!.

من منكم كان قد لا حظ أن ثلاثين ألفاً من التشيك الفارين من تحت نير الاحتلال عام ١٩٣٩، إلى بلاد السلاف (اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية) قد أرسلوا جميعهم دون استثناء إلى معسكر الشمال، ونتساءل... ما الداعي لذلك؟... حتى لو سلمنا، بأنه قد يكون من بينهم جاسوس ما.... وهكذا وبمرور بعض الوقت بدأت الأجساد «التشيكوسلوفاكية» تقوم من هناك حيث أودعوا... ولنا أن نسأل كذلك؟ لماذا مددنا يد المساعدة في عام ١٩٣٩ إلى الأوكرانيين الغربيين، وإلى

الـروس البـيض الغـربيين، وقمنـا بعـدها في الأربعينيـات بتقـديم المساعدة لجمهوريات البلطيق، وإلى المولدافيين!.

لقد تبين فيما بعد، بأنه لم يتم تنظيف أخواتنا بشكل جيد، ولا بد من أن تتدفق سيولهم الاعتقالية صوناً للجميع - إلى معسكرات النفي الشمالية أو إلى معسكرات النفي في وسط آسيا. لتبلغ أعدادهم أرقاماً كثيرة من الألوف.

كان من بينهم، الأشخاص الميسورون، والشخصيات المتنفذة، التي أخذت تحت يافطة ما، وأخذ معهم كذلك الحكماء، والمشهورون البولونيون، والضباط السابقون، الذين أدوا خدمتهم في المناطق البولونية (لقد تم تجنيد هؤلاء المساكين الكيتان - عندما بدؤوا في ذلك الوقت بإعداد جيش المستقلين بقيادة سيكورسكي، وأندريس)، وأخذوا معهم الضباط من كل مكان، وتقلقل الوضع السكاني العام بصمت دونما ضجيج، وفقدوا من تعدادهم القادة الأكفاء، وألهموا الصبر والرشاد، والتبصر والتروي، ريثما فترت الصلات، وانقطعت علاقات التعارف السابقة.

لقد تركت لنا فلندا بعض الجيوب الأرضية الضيقة، المتطاولة الصغيرة خالية من السكان، ونكاية بذلك، بدأت عمليات الشجب، والترحيل للسكان من منطقتي كاريلي، ولينينغراد، وتبعتها عمليات ترحيل الأفراد الذين يمتون بصلة ما إلى الدم الفلندي إلى المنافي... (لم نعاني نحن من ذلك قط... لأنه لا يجري في عروقنا ذلك الدم..... وتم تطبيق أول تجربة في التاريخ الإنساني خلال الحرب الفلندية، ألا وهي محاكمة أولئك الذين يسلمون للأسر، كخونة لوطنهم - فلا تعجب ذلك.... إنّا لم نلحظ ذاك قط!.

ما إن تم الانتهاء من البروفات - حتى دوت الحرب - وتبعها الانسحاب الرهيب من الجمهوريات الغربية، المتروكة للعدو، وكان

لا بـد مـن التعجيـل لاكتـساب عـدة أيـام، لاعتقـال أحـد مـا مـن تلـك الجمهوريـات ففـي ليتوانيـا ، وضـمن خطـة التعجيـل والإسـراع، تحولـت الأهـداف إلى أهـداف عـسكرية، وقامـت الألويـة وكتائـب المدفعيـة، والمدفعيـة المضادة - بالتوجه إلى أهـداف اعتقـال عـدة آلاف مـن العـائلات الليتوانية غير الموثوقة (لقد تحول فيما بعد حوالي أربعة آلاف منهم إلى معـسكر كراسنايارسـك للنهـب والـسلب) وبـدءاً مـن ٢٣ حزيـران، تم الإسراع في تنفيذ الاعتقالات في كل من لاتفيا، وإيستونيا، لكن الوقت كـان يـضغط، والتراجـع يـتم بـسرعة، وربمـا نـسوا أن ينقلـوا الحـصون كاملة بمن فيها (حصن بريستوسكي) إلا أنهم لم ينسوا تنفيذ حكم الإعدام على المسجونين داخل الحجرات في سجون لغوف، ورفيين، وتالين وفي كثير مـن الـسجون في الجمهوريـات الغربيـة، وقـد أعـدموا في سـجن واحد (يدعى سجن تارتوس) مئة واثنين وتسعين إنساناً، ورموا جثثهم في الآبار.

كيف لنا أن نتصور ذلك؟ فجأة وأنت جاهل لكل شيء، يُفتح باب الحجـرة، وتطلـق النـار عليـك، وتطلـق صـرخة مـا قبـل المـوت - ولا سميـع، ولا مجير غير هذه الجدران الحجرية التي لا تسمع، ولا تتحدث عمّا رأته، وسمعته. لقد قيل بأن بعضهم نجا من الموت، وربما هذا يزيد من احتمال أن نقرأ مستقبلاً كتاباً حول تلك الحوادث.

في عـام ١٩٤١، أسـرع الألمـان بتطويـق مدينـة تاكـانروغ، وتم قطـع الطريق، الأمر الذي أدى إلى بقاء قاطرات الشحن المحملة بالسجناء، الذين كان قد تم ترحيلهم على عجل إلى المحطة.... لكن ما العمل؟ فمن المتعذر إطلاق سراحهم، وكذلك لا يمكن تسليمهم للألمان أحياءً، لذا كان لا بد من أن يحضروا صهريجاً من النفط، ويدلقوه على المقطورات، ويشعلوها، ليحترق الجميع أحياءً.

في بداية الحرب، تدفق كذلك سيل اعتقالي من - مروجي الإشاعات، وناشري الذعر وصدر قرار جنائي خاص، لمثل هؤلاء في الأيام الأولى للحرب، وكان عبارة عن عملية رصد (وحجابه بغية الحفاظ على الانجذاب العام، وقد تلقى بعض هؤلاء من ثماني، إلى خمس سنوات دون أن يؤخذ في الحسبان مضمون المادة الثامنة والخمسين)، (لقد بقي الكثير من هؤلاء المحكومين أحياء في معسكرات الاعتقال طوال الحرب، وشملهم العفو فيما بعد عام ١٩٤٥). كان من الممكن أن أتعرض لأحكام هذا القرار لو لم يسعفني الحظ. وإليكم القصة كاملة بينما كنت أقف في الدور أمام متجر الخبز في مدينة روستوف الواقعة على نهر الدون، وإذا بشرطي يستدعيني، ويقودني لتصفية الحساب.... وكان يمكن أن أُرسل إلى المعسكر الاعتقالي المسمى بالغولاغ - لو لم أذهب إلى الحرب ولو لا تدخل الشفاعة الإلهية.

بعد فترة وجيزة، بدأ سيل اعتقالي آخر مؤلف من أولئك الذين لم يقوموا بتسليم أجهزة الراديو لاستخدامها كقطع تبديل، وكان يكفي بلاغ واحد عن ذلك حتى يكون جزاؤه، السجن عشر سنوات.

عدا عن ذلك، كان يجري في الوقت نفسه سيل اعتقالي ألماني - من ألمان مدينة بافلوج، والألمان المستوطنين في جمهورية أوكرانيا، وفي شمال القفقاز، ومن كافة الألمان الذين كانوا على أراضي الاتحاد السوفييتي الذين تجمعهم رابطة الدم، بغض النظر عن أولئك الذين كان من بينهم الأبطال في الحرب الوطنية العظمى، أو من كان منهم من تعداد الأعضاء القدماء في الحزب. إذاً كان يكفي، أن تكون ألمانياً لترسل إلى السجن أو المنفى.

كان يتم تحديد قرابة الدم، على أساس الكنية، أو الاسم، وكان أن قام المهندس الإنشائي فاسيلي اوكراكوف، بتغيير اسمه عام ١٩٣٠ بعد

أن لاحظ بأن توقيعه لم يكن جميلاً على المخططات الإنشائية، بخاصة وأن القوانين قد سمحت في تلك الآونة بهذا التغيير، وأصبح روبرت شتيكرا - إنه اسم جميل وزوق توقيعه على هذا الأساس - لكن الوقت يمر ومن الصعب عليه إثبات ذلك، وتم اعتقاله مع الألمان «من يدري ربما تلقى مهمة من المخابرات الفاشية». أما قصة الآخر شامبوفيتس كافيزرنيف، الدال اسمه على الوقع السماعي الثقيل، أبدل اسمه بكولب وتلقى نفس المصير.

في الحقيقة، إن السيل الاعتقالي الألماني، كان شبيهاً بسيل الناس الذين نزعت ملكيتهم من الكولاك، وإن كان أقل وطأة، حيث سمح لهم اصطحاب بعض الأمتعة، ولم يرسلوا إلى أمكنة الموت والفناء، عدا عن أن هذا الاعتقال، لم يكتسب الصفة القانونية، كما عند أولئك منزوعي الملكية حيث حظي هذا السيل بتشريع جنائي خاص، تم على أساسه اعتقال مئات الألوف.... وهكذا أملت الإرادة الشخصية للعاهل الذي كان من الممتع له - تنفيذ هذه التجربة الاعتقالية القومية لأول مرة، من هذا القرن.

اعتباراً من نهاية ١٩٤١، وفي الخريف منه، بدأت السيول الاعتقالية لأولئك الذين وقعوا تحت الحصار، وسبق أن كانوا من حماة الوطن، وودعتهم قرانا، ومدننا قبل عدة أشهر بالموسيقى الاحتفالية، والورود هؤلاء الذين تلقوا الضربة الأولى للدبابات الثقيلة، ولم يقعوا في الآسر في خضم تلك الفوضى والإرباك العام، ولا ذنب لهم في ذلك - بعد أن تشتتوا إلى مجموعات قتالية، وقضوا أوقاتاً طويلة تحت الحصار الألماني، ريثما تمكنوا من الإفلات. فبدلاً من أن نقوم باحتضانهم وضمهم إلى صدورنا بكل قوة بعدما عادوا إلينا سالمين (على غرار ما تفعل جيوش العالم) ونؤمن لهم الراحة والعودة إلى عائلاتهم إلى وقت محدد، يعودون بعدها من جديد إلى الصفوف - قمنا بوضعهم في خانة الشك والريبة، وجردناهم من

الصفوف القيادية، ومن أسلحتهم - ووضعناهم تحت المراقبة والاختبار والفرز والتصنيف، وراح القسم الأمني الخاص باستجواب الضباط منهم، دون أن يصدق كلمة واحدة قالوها - لم يصدق هؤلاء الذين بذلوا أنفسهم من أجل أولئك المحققين، الذين يسألونهم، ويستجوبونهم، متبعين معهم طريقة الاستجواب المتقاطع وسماع الشهود، ومواجهتهم لبعضهم فيما قالوه وشهدوا ضد أنفسهم، وانتهى التحقيق وتم فرزهم، منهم من أعيدت إليه الثقة، وأعيدت إليه الرتبة السابقة، ليعود إلى الصفوف من جديد، ومنهم القلة القليلة التي ما زالت على قيد الحياة إلى الآن بعد أن جرفوا بسيل اعتقالي أولي «لخونة الوطن» وحكم عليهم بناءً على البند الأول من الفقرة /ب/ من المادة الثامنة والخمسين بالسجن ليس أقل من عشر سنوات.

لقد تم تطهير الجيش العامل، وبقي الجيش العرمرم المتمركز في الشرق الأقصى في منغوليا، وكان لا بد من الحفاظ على هذا الجيش من التآكل والصدأ، طالما أنه قائم في مكانه دون حرب، أو عراك، لذا قامت الأقسام الأمنية الخاصة بمهمتها على الوجه الأكمل لكن بسبب قلة العمل والحرب فلتت السنة العسكريين، وكان منهم كوليا، وحسان، وزادوا الطين بله، بأنهما كانا مكلفين بالتدريب على الرشاشات طراز ديكتيوردف وعلى الهاون اللذين اعتبرا في ذلك الوقت من الأسلحة السرية، وما أن أمسكا هذين السلاحين بأيديهما حتى تساءلا عن سبب الهزيمة في الغرب، ولم يخطر ببالهما، أو لم يكن واضحاً بالنسبة لهما، أن عملية التراجع اليومي لمسافة مئة أو مئة وعشرين كيلو متراً عبر الأورال وعبر سيبيريا، إنما هي تكرار لعملية المناورة الكاذبة، التي قام بها كوتوزف وبغية تسهيل الفهم كان لا بد من تسيير سيل اعتقالي قادم من جيش الشرق إلى معسكر الأرخبيلاك، وبذلك شدقت الأفواه، وتمعدنت الثقة.

من البدهي أن يتدفق سيل اعتقالي مؤلف من الحلقات العلية التي لُطخ أصحابها، بتهمة مسببي الهزيمة (ترى ألم يكن الإستراتيجي العظيم من تعدادهم) وبلغ عدد أفراد هذا السيل، ليس أكثر من خمسين إنساناً من الجنرالات القابعين في سجون موسكو. وفي صيف عام ١٩٤١، وفي شهر أكتوبر تم نقلهم حسب العادة، وكانت غالبيتهم من جنرالات القوى الجوية - قائد القوى - سموكيفيتش، الجنرال بوتوخين «الذي أعلن عند اعتقاله: لو عرفت بمصيري هذا لقمت أولاً بقصف وطن الآباء وذهبت بعدها إلى السجن».

إن الانتصار قرب موسكو، أحدث أيضاً سيلاً جديد مؤلفاً من الموسكوفيين الذين وجه إليهم الاتهام (بعد تدقيق وتمحيص هادئين بأنهم - أي هؤلاء الموسكوفيين - لم يفروا) أو يرحلوا من المنطقة، التي غادرها نظام الحكم، أثناء تنفيذ الحصار على موسكو، ولهذا واجههم السيد ليتسيس باتهامه: أما وإنكم قمتم بذلك، استخفافاً بهيبة الحكم طبقاً للمادة (٥٨ - البند العاشر) أو إنكم بقيتم انتظاراً للألمان (المادة ٥٨ - البند الأول - الفقرة أ) (وحسب مضمون المادة التاسعة عشرة) ولم يقصر المحققون في كل من مدينتي لينينغراد، وموسكو بتغذية هذا السيل حتى نهاية عام ١٩٤٥.

لا شك من أن المادة - ٥٨ - البند العاشر (أي العمل المضاد للنظام السوفييتي) احتلت الساحة ولم ينقطع العمل بها طوال سنوات الحرب، وطالت الجبهة والمؤخرة معاً، وشملت بسعيرها أولئك المهاجرين، الذين تكلموا عن بشاعة الهزيمة والتراجع (لأن الصحف كانت تؤكد بأن عملية الانسحاب تتم بشكل مخطط) وطالت أيضاً أولئك المفترين في المؤخرة، الذين أشاعوا بعدم توفر المواد الغذائية، وطالت حتى من كان في الجبهة، متلفظاً بأقوال تنوه، إلى أن الألمان يملكون قوة ميكانيكية جبارة، وما أن

حل عام ١٩٤٢، حتى تناولت جميع الذين تقولوا أثناء الحصار على لينينغراد، بموت الناس جوعاً.

في العام نفسه، وبسبب الفشل الذريع، الذي لاقته القوات قرب مدينة كيرتش (حيث تم أسر ١٢٠ ألف جندي) وقرب مدينة خاركوف (تم أسر عدد يفوق الأول) وبسبب فشل عملية التراجع، والانسحاب في جنوب القوقاز إلى الفولغا، تدفق سيل اعتقالي مهم من الضباط والجنود، الذين رفضوا الصمود حتى الموت، وتراجع بعضهم دون أوامر - أو لم يأخذوا بكلمات الأمر الستاليني الخالد رقم ٢٢٧ (تموز ١٩٤٢) الذي جاء فيه: إن الوطن لن يغفر أعمالهم المشينة - بيد أن هذا السيل المذكور لم يصل إلى معسكرات الغولاغ، حيث تشكلت لهم على وجه السرعة محاكم ميدانية وساقتهم إلى سرايا التعذيب، وابتلعتهم فيما بعد رمال الطليعة الحمراء، المعتبرة القاعدة الاسمنتية لتحقيق الانتصار في معركة ستالينغراد دون أن تترك لهم أي أثر مستقبلاً، وأن هذه الواقعة لم تدخل في سياق التاريخ الروسي العام، وبقيت ضمن أرشيف التاريخ الخاص، لأسيقة الاعتقالات (سنذكر هنا تباعاً التدفقات الاعتقالية التي وردت إلى الغولاغ من الخارج.

ولن نعمد إلى ذكر التنقلات الدائمة داخل المعسكرات نفسها، حيث كان يتم التفريغ من خزان إلى خزان، بسيطرة كاملة من قادة هذه المعسكرات التي احتدمت في زمن الحرب ولن ننظر إليها تحت هذا العنوان).

يفرض الوجدان علينا، أن نتذكر التدفقات العكسية التي نتجت عن عملية إخلاء السبيل زمن الحرب، وشملت فيما شملت، التشيك، البولون، الذين أطلقوا من معسكر الاعتقال إلى الجهة القتالية.

مع بداية عام ١٩٤٣، أخذت كفه الحرب تميل لصالحنا، لكن في الوقت نفسه كانت تجري بعض السيول الاعتقالية الضخمة حتى سنة

١٩٤٦ ، والمؤلفة من ملايين كثيرة قادمة من الأراضي المحتلة في أوروبا عبر منحيين:

الأول ضم المدنيين، الذين وقعوا تحت الاحتلال الألماني أو من كان منهم عند الألمان (حكم عليهم بعشر سنين بناءً على أحكام الفقرة أ من المادة الثامنة والخمسين - البند الأول).

الثاني من العسكريين، الذين وقعوا في الأسر (كانت أحكامهم كذلك في حدود العشرة، بناءً على أحكام الفقرة ب - المادة ٥٨ - البند الأول.

لا شك، أنه كان لزاماً على كل من بقي تحت الاحتلال، وأراد العيش، أن يعمل حسب الضرورة، وبشكل يومي ليكسب قوت يومه، وبالتالي ليكوّن بنفسه عناصر جريمته المستقبلية، حتى وإن لم يكن خائناً للوطن، إلا أنه على الأقل قدم العون للعدو، على الرغم من أنه كان يكفي عملياً، لأن تكون الهوية الشخصية ممهورة، بكلمة /تحت الاحتلال/ حتى يتم اعتقاله، بيد أنه كان من الصعب، وغير المعقول حتى بالنسبة للمبدأ الاقتصادي - أن يتم إخلاء هذه المناطق الواسعة من الناس، لذا اكتفوا وبدافع الضرورة ذاتها، بزج نسبة معيّنة من المذنبين، أو أنصاف المذنبين، أو أرباع المذنبين، ومن لف لفهم بغية رفع المستوى المعرفي العام. على الرغم من أنه حتى لو افترضنا أنهم اكتفوا بنسبة واحد من المليون لشكلت هذه النسبة، دستة كبيرة لملء تلك المعسكرات.

ترى، ألا يستدعينا الأمر بعد الذي قرأناه لأن نفكر في أن شرف المشاركة في صفوف المقاومة السرية ضد الألمان، إنما جاء فقط، نتيجة النزوع إلى التخلص من الوقوع في شرك السيول الاعتقالية لاحقاً.

كثيراً ما حصلت حوادث مثيلة لتلك التي تعرض لها الكييفي الكومسمولي (من مدينة كييف)، الذي كان كلف من قبل التنظيم

السري للمقاومة، بالذهاب إلى مدينة كييف، بغرض الاستطلاع، وجمع المعلومات الاستخبارية من خلال انضمامه إلى صفوف الخدمة في الشرطة لتلك المدينة، ونقل المعلومات إلى الكومسموليين، وقام هذا الشاب، بكل شرف بنقل المعلومات. إلا أنه ما أن عاد جماعتنا إلى تخليص المدينة (مدينته) من الاحتلال حتى حكم عليه بالسجن عشر سنوات بسبب أنه ما كان يمكن له أن يتمكن من الخدمة في جهاز شرطة العدو، لو لم يعطِ انطباعاً، بأنه يحمل روحاً معادية، أو أنه لو لم يقم بالفعل في تنفيذ المهمات الموكَلة إليه من قبل المحتلين.

لقد حاكموا جميع من كان في أوروبا بشدة متناهية، حتى وإن كان بعضهم تحت الاحتلال عبيداً، أو رقيقاً، لا شيء إلا لأن هؤلاء يستطيعون أن يتحدثوا، وينقلوا صور ما رأوه في الحياة الأوروبية، وتعد مثل هذه الأحاديث، مصدر قلق دائم (خاصة من أولئك الذين يحصلون على تأشيرة الخروج من الأدباء، والكتاب الحصفاء). لقد كان من الصعب القول، وبخاصة في تلك الظروف التي أعقبت الحرب من تشويش، وفقر لأن يقال إن كل شيء في أوروبا رديء، ويستحيل العيش في تلك الرداءة. الأمر الذي لم يُمكن أن يقوله الجميع.

إذاً لهذا السبب كان لا بد من أن يحاكم كل الذين وقعوا في الأسر، ليس بسبب استسلامهم للآسر بسهولة - إنما بسبب أنه أتيح للبعض منهم، وبقدر ما، أن يشاهد الغرب حتى ولو كانت مشاهدته، تزيد قليلاً عما رآه في معسكرات التعذيب العسكرية.

سنورد في هذا السياق مثالاً، قد يصعب فهمه من الوهلة الأولى، وهو أنه في عام ١٩٤٣، جرى سيل اعتقالي سمي «بالسيل الأفريقي» وقد استخدمت هذه التسمية لفترة طويلة، ولم يكن قوام هذا السيل، إلا من أولئك الجنود الروس، الذين كانوا في قوام جيش رومل في شمال أفريقية،

ووقعوا في الأسر على يد القوات الأمريكية، وأرسلوا عام ١٩٤٨ إلى (ستودبيكرا) عبر مصر - العراق، إيران، وبالتالي إلى الوطن، وأودعوا هناك في خليج صحراوي على شاطئ بحر قزوين، وطوقوا بالأسلاك الشائكة، ونزعت عنهم بزاتهم العسكرية، وأشياؤهم المهداة لهم من قبل الأمريكان (من الطبيعي أن هذه الهدايا ذهبت لصالح العاملين في الأمن، وليس لحساب الدولة)، واقتيدوا بعدها إلى خاركوفا، ريثما تصدر الأوامر الخاصة بالحكم عليهم، دون أن يحالوا إلى المحكمة حسب القوانين المرعية. وعاش هؤلاء الإفريقيون في خاركوفا، في أسوأ الظروف دون حراسة ولم يسمح لهم بالتحرك خطوة واحدة دون إذن خطي، ودفعت لهم أجور زهيدة، دون أن يؤمن لهم السكن، على غرار ما كان يُعامل به المسجونون المحكومون، وتوالت الأيام ولم يصدر أي أمر خاص، يتعلق بهم، وتم نسيانهم وعفا عليهم الزمن...

لقد ظهر للعيان، بأن مثل هذا الأمر عادي وصحيح، طالما أنهم تعرضوا للأسر، فلا بد من أن يتعرضوا للمحاكمة والحجز، إنما الحقيقة كانت على العكس من ذلك.

نسوق مثالاً آخر عن مجموعة من البحارة الذين كان قد تم إلقاؤهم على الشواطئ السويدية! إبان الحرب بغرض الاستطلاع، وعاشت هذه المجموعة في السويد بملء إرادتها - حيث توفرت لهم سبل العيش الهنيء، والرفاهية، الشيء الذي لم يحصل، ولن يحصل فيما بعد قط - إلا أنه وعلى أثر تراجع الاتحاد السوفييتي آنذاك، وتواتر مجريات الحرب بين عودة واندفاع، وكرّ وفرّ مات من مات... وجاع من جاع، وكان أولئك الأوغاد متخمي البطون من خلال إقامتهم في المنطقة المحايدة. وما إن انتهت الحرب، حتى أعادهم السويد لدولتنا. ولا شك بأنه كان يمكن أن تسمى هذه الحالة خيانة عظمى للوطن - لكن لم تلتصق هذا التهمة بهم، وأطلق

سراحهم، وتفرقوا في طول البلاد وعرضها، إلا أن التهمة التصقت بهم من جديد، وهي الدعاية المضادة للنظام السوفييتي، بسبب ما أبدوه من إعجاب خلال أحاديثهم عن الحرية، والشبع في الدولة الرأسمالية - السويد (سميت هذه المجموعة باسم كادينكا).

الطريف في الأمر، إن المجموعة قد أقلعت عن ذكر أيّ جملة، يرد فيها ذكر كلمة السويد، أثناء وجودهم في المعسكر، خوفاً من أن يصدر حكم جديد بحقهم، ومع هذا عرفت الصحافة السويدية بشأنهم، وبدأت تنشر المقالات، والأنباء التي تفضح قضية الافتراء، والتلفيق الموصومة بهم، وفي الوقت نفسه، كان هؤلاء قد انتشروا في المعسكرات القاصية والدانية، وفجأة صدر أمر بتجميعهم في مدينة لينينغراد في سجن كريست، وبدؤوا بتقديم أطيب الطعام لهم، وطالت شعورهم، وألبسوا بعد ذلك لباساً جديداً، وقيفوهم وحذروهم كي لا يصأصئ أحدهم، ويتلفظ بشيء عن هذا، وإلا تلقى في رأسه تسعة غرامات - اقتادوهم إلى المؤتمر الصحفي لعرضهم أمام المراسلين الصحفيين الأجانب، وأمام البعض الذي عرف هذه المجموعة في السويد، وتحدث المحتجزون عن أماكن معيشتهم ودراستهم، وعملهم بشكل جيد، وتزعزع الافتراء البرجوازي الذي قرأنا الكثير عنه في الصحف الغربية (للعلم، إن مثل هذه الصحف تباع عندنا في الأكشاك). إذاً هكذا هو الأمر.. تم تجهيزهم، وترحيلهم إلى مدينة لينينغراد (لدرجة إنهم لم يحملوا دفع أجور الطريق)، ولا بد من أن منظرهم اللائق وصحتهم المكتنزة، كذبت الافتراء المنشور في الصحف. وتفرق الصحفيون المخزيون، ليكتبوا الاعتذارات... لم يستطع التصور الغربي من أن يطرح هذه الواقعة بطريقة أخرى... وما أن انتهى المؤتمر الصحفي، حتى حلقت شعورهم وبدلت ألبستهم، ووزعوهم من جديد إلى تلك المعسكرات، التي تناسب كلاً منهم حسب التصرف الجيد الذي أبدوه... ولم يصنف لهم حكم آخر.

انساق مع هذا السيل الاعتقالي للخارجين من تحت الاحتلال - سيول اعتقالية تدفقت الواحدة تلو الأخرى من القوميات الدنيا الآثمة.

في عام ١٩٤٣- من الكاميك، الشيشان، الأنغوش، بلغار كاراتشا يفتسي.

في عام ١٩٤٤- تتار القرم.

كان يمكن ألا يتم نقلهم إلى المعسكرات المخصصة لهم بهمةٍ ونشاط لولا تقديم المساعدة المنظمة لجهاز الأمن، وإمداده بسيارات النقل العسكرية المخصصة لنقل القوات.

لقد قامت القوات الباسلة في تطويق القرى الجبلية - المعشعشة هناك منذ مئات السنين، وخلال أربع وعشرين ساعة، اندفع الإنزال إلى المحطات ونقل إلى سيبيريا، وكازخستان، ووسط آسيا، وإلى الشمال. وتحولت الأرض وما عليها من مخلوقات إلى ورشة عمل دؤوبة.

ما حدث، كان على غرار ما فعله الألمان في الأيام الأولى للحرب - وسيقت هذه الأمم على الأساس ذاته - القائم على مقولة رابطة الدم، دون أن تفتح، أيّ محاضر تحقيق، ودونما تمييز، سواءً كانوا من أعضاء الحزب، أو من أبطال الإنتاج، أو من أبطال الحرب الذين عادوا للتو منها، فكلهم سواء، يساقون إلى هناك.

ومن البدهي، أن يتدفق سيل جديد من العسكريين الألمان المجرمين، الذين تمت غربلتهم من كافة معسكرات أسرى الحرب، وتمت محاكمتهم، وأدخلوا منظومة معسكرات اعتقال الغولاغ.

في عام ١٩٤٥، وعلى الرغم من أن الحرب مع اليابان، لم تستمر أكثر من ثلاثة أسابيع، تم سوق الكثير من الأسرى اليابانيين للعمل في تنفيذ الإنشاءات المستعجلة في كل من سيبيريا، ووسط آسيا، وجرت حسب هذا السياق عملية الغربلة الآنفة الذكر، إذ سيق المجرمون منهم إلى منظومة

معسكرات الغولاغ (بما أنني لا أعلم التفاصيل إلا أنني على يقين كامل، من أن جزءاً كبير منهم (أي اليابانيين) لا يمكن أن يحال إلى المحاكمة حسب القانون، وما هذا الاحتفاظ المحلي بهم، إلا بغرض تأمين قوة عمل كبيرة لأطول وقت ممكن).

في نهاية عام ١٩٤٤، وأثناء دخول قواتنا إلى البلقان، وما إن بلغت وسط أوروبا عام ١٩٤٥- حتى حملت الأسيقة الاعتقالية للغولاغ، سيلاً من المهاجرين الروس - العجائز، الذين غادروا وطن الآباء، عند قيام الثورة، والفتيان، الذين ولدوا في المهجر (الحقيقة إنهم ساقوا أولئك الذين عبروا عن أرائهم خلال خمسة عشر عاماً، ولو بشكل طفيف، أما أولئك الذين عاشوا حياة نباتية ليس إلا، فلم يتم سوقهم)! وكانت هذه السيول قادمة، من بلغاريا، ويوغسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا، وقليل منها من النمسا، وألمانيا، ولم يجرِ أي سيل من باقي دول أوروبا، بسبب عدم تواجد الروس هناك بشكل عملي.

في ذلك الوقت تدفق سيل اعتقالي من منشوريا عام ١٩٤٥، مؤلف من المهاجرين الروس (الذين لم يتم اعتقالهم فوراً، إنما تلقوا دعوة وعائلاتهم للعودة إلى الوطن، بشكل حر وحسب إرادتهم، ومن هناك تم توزيعهم إما إلى المنفى أو إلى السجن).

طوال عام ١٩٤٥ استمر جريان سيل اعتقالي إلى الغولاغ مؤلف في هذه المرة، من الأعداء الحقيقيين للنظام السوفييتي (وكان منهم الفلاسوفيون - الكازاك، الكراسنوفيون، ومن المسلمين، ومن الفصائل المختلفة، التي قام على عسكرتها هتلر) - كان من هذه الفئات المذكورة، من انتسب إلى التنظيمات المعسكرة بشكل إرادي، ومنهم من فُرض التطوع عليه.

في سياق السيل الاعتقالي السابق، ألقي القبض على حوالي مليون هارب، وفار من نظام الحكم السوفييتي خلال سنوات الحرب - وجميعهم

من المدنيين من مختلف الأعمار ومن نماذج إنسانية مختلفة، وبعضهم كان من الذين احتموا، واختبؤوا على أراضي الدول الحليفة، لكنهم أعيدوا عام ١٩٤٦-١٩٤٧ إلى الدولة الحليفة، وبالتالي إلى اليد السوفييتية[1].

١- من المدهش في الغرب، انه لا يحفظ، ولا يكتم اي سر سياسي، إذ لا بد من ان تنشر الصحف وتعم الأخبار، إلا إنه وفي هذه المرة، بقيت هذه المخاتلة، والخيانة طي الكتمان، وتم الحفاظ على سرها من قبل الحكومتين الإنكليزية، والأمريكية - ربما كان هذا السر في حقيقة الأمر هو السر الأخير من أسرار الحرب العالمية الثانية، أو ربما يكون البقية الباقية من الأسرار.

وبقدر ما كنت قد قابلت الكثير من هؤلاء في السجون، والمعسكرات، فرض علي عدم التصديق خلال ربع قرن من الزمن، من أن المجتمع الغربي لا يعرف شيئاً عن هذه العملية، التي تعتبر من العمليات الفريدة من نوعها، في ان تقوم الحكومات الغربية، بتسليم هؤلاء البسطاء الروس، الى يد التنكيل، والموت في عام ١٩٧٣ فقط (قامت صحيفة الصنداي أوكارهوما - بنشر مقالة ليوليوس إنشتاين تاريخ ٢١ كانون، والذي كان له عظيم الشكر، باسم أولئك الذين استشهدوا، وأولئك الذين ما زال البعض منهم على قيد الحياة، لما ما قام به من نشر جزء صغير من الوثائق السرية، التي تخص القضية - قضية ترحيل وإعادة المحتمين منهم إلى الاتحاد السوفييتي، التي ما زالت حتى هذا التاريخ قيد التقييم «فبعد أن عاش هؤلاء الروس سنين في كنف الحكم الإنكليزي، تحت شعور أمني كاذب، تبين لهم، في أنهم كانوا في غفلة من هذا كله، ولم يدركوا، أو يصدقوا، في أن يقوم الإنكليز بتسليمهم بهذه الطريقة.. لقد كان هؤلاء من عداد الفلاحين البسطاء، الذين ذاقوا مرارة الظلم، وعاندوا البلشفية» وتصرف الحكام الإنكليز معهم وكانوا مجرمي حرب من العسكريين، وقاموا بتسليمهم على الرغم من إرادتهم، إلى تلك الأيدي التي لا يمكن أن ينتظر منها، ولا بحال من الأحوال، المحاكمة العادلة، «أرسل الجميع الى الأرخبيلاك للتدمير، والإفناء.. أجل لقد تجرات الحكومات من ذلك الجزء من العالم، من الغرب القاري، على تسليم هؤلاء.. دون أن يخافوا الحقد، والغضب الاجتماعي! »
دونت الملاحظة عام ١٩٧٣.

كان قد عبر من عندنا، ومن خلال سجون الفولاغ عام ١٩٤٥، عدد معين من البولونيين من أعضاء جيش كرابيوف، ومن جماعة ميكاليتشكايا. وكان من عدادهم أيضاً بعض الرومان، والهنغار.

بدءاً من نهاية الحرب، وحتى وقت طويل، استمرت السيول الاعتقالية الكبيرة دون توقف، من القوميين الأوكرانيين (البانديروفسيون) نسبة إلى جماعة بانديروف.

وعلى شاكلة هذه الموجات الاعتقالية التي أعقبت الحرب، والتي لم تكن ملحوظة على الرغم من أنها كانت مؤلفة من ملايين البشر واندفعت تيارات صغيرة مثل:

«الفتيات - نفايات الأجانب» اللاتي سمحن للأجانب بمواقعتهن - وطبقت عليهن المادة السابعة - الفقرة ٣٥ (الخطر الاجتماعي).

الأطفال الأسبان - أولئك الذين نقلوا أثناء الحرب الأهلية من أسبانيا وأصبحوا الآن بعد الحرب فتياناً وعلى الرغم من أنهم تربوا في مدارسنا الداخلية، إلا أنهم انخرطوا في حياتنا بشكل سيئ، وسعى جميعهم بالعودة إلى ديارهم، وكان لا بد من أن يتلقوا أحكاماً، بناءً على المادة السابعة - الفقرة ٣٥ (الحظر الاجتماعي). أما من عاند منهم خضع للمحاكمة بموجب المادة ٥٨- البند السادس - جاسوس للأمريكيين (وللإنصاف نقول، بأنه يجب ألا ننسى، ذلك السيل الإرجاعي عام ١٩٤٧، والمؤلف من رجال الدين الذين أطلق سراحهم.... ويا لها من معجزة!.. ولأول مرة منذ ثلاثين عاماً، إذ أطلق سراح القساوسة ليس بطريقة البحث عنهم في المعسكرات، إنما بطريقة الاعتماد على ذاكرة الذين أطلق سراحهم، فمن استطاع منهم، تحديد الاسم، ومكان تواجد المعتقلين، المعروفين لديهم وبشكل دقيق، أطلقوا سراحه - وقاموا بتجميعهم وتنظيمهم، وزجوهم.... بغية إعادة تقويم الكنائس.

يجدر التنويه بأن مجمل ما ورد تحت هذا العنوان، ومن مختلف السيالات الاعتقالية، لا يمكن أن يغير بحال من الأحوال، من عداد تلك السيالات التي رميت في مزبلة الفولاغ - واتسمت فقط بمسحة سياسية، تماماً كما في مدرسة علم التشريح، فبعد أن يتم توصيف الدورة الدموية، تبدأ من جديد متابعة، وتوصيف المنظومة اللمفاوية. فعلى غرار ما سبق، لا بد من أن تبدأ عملية الاستقصاء من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٥٣، للسيالات الاعتقالية، من أصحاب السوابق، والجناة. وعندها لا يمكن إلا أن تحتل عملية التوصيف هذه مكاناً بارزاً، وتتسع دائرتها، ولتشمل عملية شرح، وتفسير الآراء والمراسم الشهيرة، التي أصبحت الآن في طي النسيان (مع العلم بأنه يمكن القول، بأن الشكل القانوني لم يتغير).... على الرغم من أنها وضعت، كي يتخم هذا الأشعب الجائع أبداً - الأرخبيلاك - الفاغر فاهه لالتهام المزيد من المادة الإنسانية، فهذا قانون يطال الضحايا المقصرين في الإنتاج، وآخر يطال منتجي النوعية السيئة من المواد، وثالث يشمل مصنعي الخمر البيتي (في أوائل العشرينيات، كان المصادرون يشربونه، أما في نهايته، صاروا يأخذونه سائلاً إلى البيوت) ورابع، مرسوم عن عقوبات الكولخوزيين، بسبب عدم تنفيذ الخطة المقررة، وخامسٌ عن التعبئة العسكرية للخطوط الحديدية (صدر في نيسان عام ١٩٤٣، في الوقت الذي تحولت فيها موازين الحرب لصالحنا، ولم يصدر أبداً في بدايتها.

بدت المراسيم وكأنها ذات قيمة بالغة في التشريع القانوني، دون التذكير أو الاستناد على القوانين السابقة، على الرغم من إنه عند تنفيذ هذه العملية الاعتقالية أو تلك، لا بد من أن تتم المقارنة بين القانون الأساسي والفرعي على يد المشرعين، إلا أنهم نقضوا كل ذلك، ضاربين بعرض الحائط بكل هذه الأسس.

إن التـواتر في إصـدار المراسـيم، قـاد إلى حالـةٍ غرائبيـة في كـل مـن مجالي الجناية، والجريمة الاجتماعية من البلاد، وكان بادياً للعيان، بأن جرائم السرقة والقتل وصناعة الخمور والاغتصاب، التي كانت تحصل هنا وهناك، لم تكن ناتجة عن الوهن والضعف الإنساني حيال نزعة الشهوة، ومتعة السكر، بل لوحظ أن كل الجرائم، تشابهت بشكل أساسي، من حيث كثرة، واكتظاظ البلاد بالقتلة والمتعصبين، وصانعي الخمور، الذين استجابوا بشكل دقيق للمرسوم الحكومي الأخير، الأمر الذي تطلب، أن يصدر لكل جريمة مرسومها التشريعي الخاص، بغية القضاء عليها، وبخاصة منها تلك الجرائم. التي طال رذاذها كافة المناطق، والتي كان قد تنبأ بها المشرعون الحكماء.

دفع مرسوم عسكرة الخطوط الحديدية، بالكثير من النساء والفتيات العاملات في سنوات الحرب في الخطوط الحديدية دون اتباع أيّ دورة مهنية عسكرية تمكنهم من تلافي الممنوعات، مما أوقعهن في مطب المخالفة والتأخير. إضافة إلى ذلك كان قد صدر مرسوم آخر، تناول المتقاعسين في الواجبات الوظيفية، والمتلكئين في تنفيذ أيام العمل المقررة، مما سهل إجراءات النفي للكولخوزيين المحلين، الذين لم يذعنوا للعصي المعدة لهم. وبالتالي صار يكفي أن يصدر قرار واحد من الكولخوز ممهوراً بالخاتم والتوقيع، ومصدقاً من اللجنة المناطقية، لتتخذ بحقهم الإجراءات القانونية المبنية على قاعدة «التخريب الاقتصادي المضاد للثورة» الذي كان يتم في السابق عن طريق أمر الإحالة إلى المحكمة. وعلى الرغم من النظر لهؤلاء الكولخوزيين، بأنهم غير معادين للشعب، إلا أن ذلك لم يخفف من حنقهم، وغصتهم (وننوه إلى أن عدد أيام العمل المقررة كان يختلف من منطقة إلى أخرى، حيث بلغ عند القوقازيين خمسة وسبعين يوماً، ومع ذلك استمروا، بالتدفق إلى معسكرات كراسنايارسكي على مدى ثماني من السنين.

كما أسلفنا في السابق، لن نعمد إلى الإسهاب والتفصيل والبحث عن تلك الموجات الاعتقالية، المتعلقة بأصحاب الجرائم الجنائية والاجتماعية، وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن نصل إلى عام ١٩٤٧، دون ذكر أي مرسوم تشريعي، من المراسيم الستالينية، والذي يلزمنا التنويه، إلى القانون الشهير عام ١٩٣٢ «قانون سبعة - الثمانية»، الذي طبق عند اعتقال الأعداد الوفيرة، بسبب سنبلة قمح، أو حبة بطاطا، أو ملف خيطان، أو عظمة (لقد ذكر في التحقيق «مئتا متر من القماش» لأنه من العيب، أن يكتب فيه ماسورة خيطان، وتلقى الجميع الحكم بعشر سنوات.

إلا أن متطلبات الزمن، كما استوعبها ستالين، قد تبدلت فالعشرة كانت كافية لأن تبدو في زمن توقيع حدوث حرب شرسة وكأنها عادلة، أما الآن وأصبح الزمن زمن سلم، بخاصة بعد الانتصار التاريخي، بدت وكأنها بقدرة قادر قليلة، لا بل وكأنها استخفاف بالتشريع ذاته، لذا فقد تم اعتقال، ونسيان الكثير من مواد المراسيم من السرقة أو الاختلاس، وأعادوا صياغة هذه المراسيم في حزيران عام ١٩٤٧، التي عمرت بسيل من السجناء، على قاعدة «سابع الستة». (أي المادة السادسة بند الرابع).

إن التدليل على عظمة القانون، يبدأ من لحظة صدوره طازجاً، وما أن يتم إعلانه، حتى تتطلب الضرورة، وتستوجب مضاعفة حل الجرائم المنوه عنها بالقانون الصادر.... وبالتالي تتوالى السيالات الاعتقالية... وتتأتى العظمة كذلك بسبب زيادة فترات الأحكام: إذ لم يكتفوا بسبب سنابل القمح، بإحالة فتاة واحدة إلى المحكمة، بل أحالوا ثلاثاً منهن، زيادة في الاستبسال والشجاعة في تطبيق القانون، تحت يافطة «عصابة منظمة» وزج بعدد كبير من الصبية، بسبب القثاء والتفاح.

وتلقوا أحكاماً قاربت العشرين عاماً نفياً إلى المعسكرات، وخمسة وعشرين عاماً فيما إذا كان المحكوم عاملاً من عمال المصانع (إن الحكم بالسجن لمدة ربع قرن أضحت الآن غير كافية، واستبدلت بالإعدام بعد عدة أيام من تاريخ هذا التحول الإنساني[1] وأخيراً تم تقويم الزور والبهتان القديم، واعتبر التواني عن الإبلاغ السياسي، جريمة تكتم حكومية، عدا عن أن التقاعس في الإبلاغ عن اختلاس المواد الغذائية الحكومية أو التابعة لملكية الكولخوز: يعرض صاحبه، للإلصاق بثلاث سنوات في المعسكر، أو بسبع سنوات من النفي.

ما أن انقضت سنون قليلة على صدور هذا المرسوم حتى أرسلت فيالق كاملة من القرى والمدن، لتقاسم فلاحة أرض جزيرة الأرخبيلاك مع السكان المحلين، ووجهت هذه الفيالق عن طريق سلك الشرطة المدنية، مع تنفيذ إجراءات محاكمة عادلة، في هذا السياق لا بد من تذكر تلك السيول الاعتقالية، المرسلة عن طريق الأجهزة الأمنية، أو تلك السيالات المؤلفة من منهكي القوى بعيد سنوات الحرب.

هذه هي السياسة الستالينية، فبعد أن تم الانتصار على الفاشية، زجت الأعداد الكبيرة، لا بل أكبر من أي وقت مضى وأصبحت غزيرة، مستمرة... ومثمرة... لمدة طويلة - تحت يافطة تهمة الساعة، ألا وهي التهمة السياسية.

برزت خلال عامي ١٩٤٨-١٩٤٩، في الحياة الاجتماعية، ظاهرة المطاردة والاقتضاء، لأولئك الذين لا مثيل لهم في الكوميديا - التراجيدية للظلم الستاليني، وأطلق على البعض منهم، ترميزاً، مكروري الظلم.

١- غطي مرسوم الحكم بالإعدام، بستر من الرقع مؤقتاً، حتى إذا ما أزيحت، انفضحت تأشيرته بعد مرور سنتين ونصف (يناير عام ١٩٥٠).

أجـل هكـذا ، يـسمون بلغـة أهـل الغـولاغ، هـؤلاء الـذين لم يـتم الإجهاز عليهم عام ١٩٣٧ ، وكتب عليهم النجاح في تجاوز مـدة السنين العـشرين العجـاف، والـلا محتملـة ليعـودوا ثانيـة عـام ١٩٤٧-١٩٤٨ عـاد هؤلاء المتعبون المنهمكون التعساء، عادوا لتطـأ أقدامهم الوجلة الأرض رغبة - وأملاً في إطالة ما تبقى لهم من أيام في هـذه الحيـاة، إلا أن نـزوة وحشية (أو حقداً متجذراً بحب الانتقام المطلق) دفعت الجنـرال ليبموس - المنتصر أن يعطي أمراً: بإعادة زج هذه المجموعة دون سابق ذنب، على الـرغم مـن أنـه لم يكـن مـن المـريح لـه، لا مـن الجانـب الاقتـصادي، ولا السياسي، أن يعبئ آلته هذه بنفايات التهمتها سابقاً لكن ستالين... أمر وكفى!!

فحالـة كهذه لا يمكـن القـول عنها أكثـر مـن: الشخـصية التاريخيـة الجامعة لما هو فوق تاريخية الضرورة واللزوم.

اقتـضت الـضرورة، أن يؤخـذ الجميـع، الـذين لم يمـض عليهم وقـت طويـل، وبعـد أن عـادوا والتـصقوا بالأمـاكن، والعـائلات الجديـدة الـتي كانوا قد شكلوها، وها هم الآن يتعرضون للاعتقال البطيء من جديد، ويـساقون إلى المعتقـل بـوهن، وتعـب فـائقين، علـى الـرغم مـن أن الكـثير مـنهم، كـان قـد عـرف الـدروب، والمسالك إلى المعتقلات، وبمـا فيهـا مـن تفرعات، دون أن يتوجه بسؤال ما «لماذا» دون أن يقول لأهله «سأعود» لقـد ارتــدوا الألبــسة المتــسخة، ونثــروا أوراق التبــغ في الكــيس الخــاص بالمعسكر، وذهبوا لتوقيـع محاضـر التحقيـق (الـتي تـضمنت سـؤالاً واحـداً فقـط - أنـتم الـذين فعلـتم كـذا.... الجـواب «نعـم.... أنـا».... إذاً هـا.... إليـك عشرة.... أخرى».

كـان قـد تـصدى، واعترض علـى ذلـك المـدعو - يـديتا ديـرجيتس... ما هذا إنها فترة قصيرة.... لقد سجنتم أولئك الـذين سـلموا مـن مرحلـة

١٩٣٧، ولم تسجنوا أطفالهم، الأوغاد، الذين سيكبرون، وسيفكرون بالانتقام لأهلهم، (لا بد من أن هذا المعترض، قد أكثر من العشاء كثيراً، مما جعله يحلم بهذا الحلم الغبي عن الأطفال)... وبالفعل تم زج الأطفال، وسيق منهم أطفال أتباع كامندراسكي.... وأطفال أتباع تروتسكي... وتدفق سيل اعتقالي من «الأطفال - الأيتام»، (لقد كان من بين هؤلاء فتاة في السابعة عشرة من عمرها، تدعى لينا كيروفا، والفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعاً إلينا روكوفسكايا).

أتيح لستالين أن يحتاط بشكل أكثر وثوقية، بعد أن أوصل السقف بالأرض بعد التحول الأوروبي العظيم عام ١٩٤٨، وأخذ يدور في الحيز الفراغي القديم، ليتصل بالخواء الهوائي لعام ١٩٣٧، ويهب عليه برياحه الاعتقالية حتى أعوام ١٩٤٨-١٩٤٩-١٩٥٠، وليطال.

- الجواسيس المزعومين (الذين كانوا من قبل جنسيات مختلفة ألماني ياباني أما الآن من جنسية أمريكي بريطاني).

- المتدينين (إنما في هذه المرة الأكثر تشيعاً).

- المتبقين من علماء علم الوراثة، والاصطفاء، والبابليين، والمندلفيين.

- المثقفين، وخاصة منهم المفكرون (الطلاب بشكل خاص)، الذين لا يوجد لديهم الخوف من الغرب، إذا جرت العادة (الموضة)، في توجيه التهم إليهم:

- مدح التكنولوجيا الأمريكية.

- مدح الديمقراطية الأمريكية.

- الانحناء أمام الغرب.

وتماثلت هذه السيول الاعتقالية مع غيرها من معتقلي عام ١٩٣٧، إنما بفارق، وعدم تماثل في طول، وقصر فترات الأحكام، إذ أصبح الحكم

العشري الآن، تقليدياً، ولا بد من أن يقفز إلى الحد الستاليني الربع قرني، ولتقتصر العشرة على الأطفال فقط.

تدفق سيل اعتقالي، نتيجة صدور المرسوم حول إفشاء الأسرار الحكومية (حيث اعتبر إفشاء السر مجرد الإفصاح عن أيّ إحصائية تتعلق بالمحاصيل والأوبئة، أو أيّ معلومات عن مؤسسة صناعية، أو ذكر أي مطار مدني، أو التكلم عن خطوط المواصلات المدنية، أو عن كنية السجين القابع في معسكر ما) وكانت مدة حكم هذا المرسوم خمسة عشر عاماً.

ولا نغفل من الذكر في هذا المجال.... تلك السيول الاعتقالية القومية التي استمرت في تدفقها لفترات زمنية طويلة، وطالت حتى أولئك الذين قطنوا الغابات (عبر عمليات عنيفة وقوية من أتباع باندروفيتسوف، وطالت تلك العقوبات، الأوكرانيين الغربيين، من سكان القرى، الذين كانوا على علاقة مع الفدائيين، وسمحوا لأحدهم في قضاء ليلة في بيته، أو قدموا الطعام لهم، ولم يقوموا بالإبلاغ عنهم، وبدءاً من عام ١٩٥٠، ثم التحضير لسيل اعتقالي جديد، مؤلف من زوجات الباند روفيتسوفين، حيث وجهت لهن تهمة التكتم، وعدم الإبلاغ عن أزواجهن وتلقين الحكم بعشر سنين.

في الوقت نفسه، وما أن اضمحلت المقاومة في جمهورية ليتوانيا، وايستونيا حتى بدأت طلائع سيل اعتقالي كبير، نتيجة لتطبيق قرارات الضمان الاجتماعي وتنفيذ العمل الجماعي عام ١٩٤٩(على غرار ما حصل في روسيا في الثلاثينيات) وجرت هذه التدفقات من جمهوريات البلطيق الثلاث، متجهة إلى سيبريا، وضمت في صفوفها حشوداً من سكان القرى، والمدن (لا غرو في ذلك، فلقد تشوه التوازن التاريخي في تلك الجمهوريات، لذا كان عليهم أن يجتازوا، ذلك الطريق، الذي اجتازته

البلاد السوفييتية خلال زمن قياسي قصير، ومضغوط)، (لقد أدخلت هذه الجمهوريات بعد الحرب العالمية الثانية في قوام التابعية للاتحاد السوفييتي - المعرب).

تدفق القوميون عام ١٩٤٨ في سيل اعتقالي، من سكان ساحل بحر أزوف، والكوبان، ومنها اليونانيين، سكان مدينة سوخومي) الذين لم يلحقوا أي عيب، أو شين اتجاه الأب خلال سنين الحرب العالمية الثانية، لكنه وجب الانتقام منهم الآن بسبب الذي وقع على الاتجاه اليوناني (لا بد من التنويه، إنه كان في نية ستالين، قيام نظام اشتراكي في اليونان - إلا أن هذه المساعي باءت بالفشل لأسباب كثيرة - المعرب). ولا شك أن هذا التدفق الاعتقالي الجديد، جاء ثمرة جنون شخصي، دفع بالعديد من اليونانيين إلى منافي وسط أسيا، وبقي العدد القليل منهم قيد الاحتجاز في المحاجر السياسية.

أيضاً في عام ١٩٥٠، ومن الأمكنة ذاتها، جرى سيل جديد حاملاً معه إلى الأرخبيلاك مقاتلي جيش ماركوس، الذين سلمهم البلغار، بعد خسارتهم في الحرب، إضافة إلى الرغبة في خلق حالة من التوازن بين المنفيين، بدأ في السنوات الأخيرة من حياة ستالين شيء ما يوحي في التحضير لسيل اعتقالي يهودي (إذ واعتباراً من ١٩٥٠، بدأت تتدحرج بعض السواقي الاعتقالية كاكوز موبولتين)، وبغية المباشرة فيه، طرحت قضية الأطباء العاملين في طبابة أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي، الأمر الذي يؤكد، بأنه كان يحمل في داخله النية في تنفيذ مجزرة يهودية كبيرة، إلا أن هذه النية، كانت أول نية في حياته لم تتحقق.... وهداه الرب - وكأن أيدي إنسانية ما منعته عن التنفيذ في أخر لحظة (أو قد تكون أيد إنسانية أخرجته من شفير الهاوية).

ممـا سـبق.... نـستخلص... ونـستنتج الـدليل علـى أن ترحيـل الملايـين، وإسـكانها في الغـولاغ... جـاء نتيجـة فكـرة مبنيـة، ومنفـذة. ببـرودة أعـصاب وبتسلسلية، وصـلابة قـويتين. ذلـك كـي لا تكـون لـدينا أيّ سـجون فـارغـة قط..... فإما أن تكون ملآى... أو ملآى بشكل مفرط.

وبينما تمارسون هواياتكم في دراسـة أسـرار الـذرة أو تدرسـون ظـاهرة تأثير (هايدكير على سارتر)، أو تجمعون لوحات بيكاسو، أو تسافرون في جناح محجوز على متن قطار إلى الاستجمام، أو تبنون شـاليه، أو مـصيف في ضواحي موسكو - كانت «أفراخ الغراب» تجوب الشوارع بلا انقطـاع وتـدق الأبواب، وتقرع الأجراس.

أتـصور بـأن هـذا كـاف... لأن نـستنتج... بـأن الجهـاز لم يأكـل الخبـز عبثاً».

الفصل الثالث

الآثار

لو توجهت بسؤال إلى المثقفين التشيخوفيين، أو إلى كافة المنجمين: كيف سيكون الحال خلال العشرين، الثلاثين، والأربعين سنة القادمة... لأجابوا... لن يكون في روسيا بعد أربعين عاماً سوى آثار التعذيب، ستسحق الجماجم بأطواق من الحديد، ويلقى الإنسان في حوض من الأسيد، ويكبل عارياً، ليرتع القمل، والبق على جسده دون رادع، ويكوى دبره بسيخ متوهج (الوشم السحري) أو تداس الأماكن الحساسة من جسمه بشكل بطيء وموجع، وتمارس عليه كافة أنواع التعذيب السهل، لتعريضه لعدم النوم لمدة أسبوع، أو للعطش، والضرب حتى يختلط لحمه مع دمه - إن أيّ مسرحية من المسرحيات، التي ألفها تشيخوف، لم تقترب من النهاية ولو حصل ذلك، فلا بد من أنّ الجنون سيطال الجميع، بما فيهم أبطال المسرحية - وليس أبطال تشيخوف فحسب... بل كل إنسان روسي بسيط عاش بداية هذا القرن، وكل عضو من أعضاء حزب العمل الديمقراطي الاشتراكي الروسي (الشيوعي فيما بعد). فمن كان ليصدق، أو يتحمل مثل هذا الافتراء عن المستقبل الزاهر؟... إن ما كان مناسباً في زمن ألكسي ميخائيلوفيتش، أو في عهد بطرس الأول، من أعمال بربرية حسبما نعدها الآن، أو ما كان يحصل في عهد بيرون، حيث كان التعذيب يطول

العشرات - والعشرينات من الناس أصبح لا يناسب على الإطلاق زمن يكاتيرنا - فكيف به الآن يناسب مجتمع القرن العشرين، الطامح لتحقيق المبدأ الاشتراكي، أو كيف له أن يتطابق وعصر الطائرات، وعصر السينما الناطقة، والراديو - بيد أن المصيبة، ليست مقتصرة على شرير واحد، وليس من ظالم يشغل مكاناً معيناً، بل جل المصيبة في عشرات الألوف من الاختصاصيين الدارسين - فكيف بعد كل هذا، يمكن للإنسان أن يصبح وحشاً مفترساً للملايين الضحايا المستضعفة.

ترى، أليس من المخيف انفجار هذه الردة، التي نلثغ بها، مرددين «عبادة الشخص»، أو ليس من المرعب، أن نحتفل في خصم تلك السنوات بالعيد المئوي لبوشكين؟ أو أن نقوم بعرض المسرحيات التشيخوفية، على الرغم من أن الإجابة على تساؤلات هذه المسرحيات، كان قد تم، منذ زمن بعيد، إلا أنه... ليس من البشاعة، أن يقال لنا بعد ثلاثين عاماً: لا.. لا لزوم للتكلم عن هذا!... لأنه لو ذكرنا، ألم، ومعاناة الملايين، لقالوا لنا: إن مثل هذا القول يشوه الموقف التاريخي!.. وإذا ما حاول أحدنا البحث عن جوهر أخلاقيتنا، لقالوا: إن هذا يعتم التقدم المادي الاقتصادي. والخير لكم، أن تذكروا كيفية تشغيل الأفران العالية، وآلات الخراطة اللعينة، وكيفية حفر الأقنية.. والعفو منكم لا لزوم لتذكر ذلك... ربما يجب تذكر كيفية استخراج الذهب... وكذلك.. لا ضرورة حتى التذكر عن هذا.. إنما اختصاراً يمكن لك التذكر عن كل شيء، بحيث يكون أكثر عقلانية، وتبجيلاً..

إلا أنه من غير المفهوم لنا... لماذا تستجدى دواوين التفتيش؟ ألا توجد طريقة أخرى لعبادة الرب، غير إشعال النار الاحتفالية؟... وكذلك ليس مفهوم لنا، الشيء الذي لا يعجبنا في الحق الممنوح تحت ظل النظام الإقطاعي، على الرغم من أنه لم يمنح الفلاح ثمرة عمله، وكده اليومي،

إلا أنـه اسـتطاع مـع ذلـك، أن يتفـرج علـى احتفـالات عيـد المـيلاد، وأعيـاد التقديس، وعلى الفتيات، حتى وهن يعقدن أكاليل الزهر على صدورهن.

★★★

الاستثنائية، هذه الأسطورة المتداولة الآن، تدويناً وتلقينا، تعود إلى عام ١٩٣٧، وتحولت الآن، إلى ممارسة حقيقية، عبر تلفيق الجرائم، والتعذيب المخطط.

وهـذا أيضاً، لـيس مـن الـصحة والدقـة بـشيء. فعبـر الـسنين المختلفـة، وخلال العشرين سنة الماضية، التي طبقت فيها المادة الثامنـة والخمـسين، لم توضـح أو تفـسر، ولـو لمـرة واحـدة حقيقـة تطبيـق هـذه المـادة، بـل كـان يـتم التطبيـق علـى شـكل إجـراء قـذر محتـوم، لا مفـر للإنـسان الحـر الحـديث العهد، المعتد بنفسه، خاصة وإنه لم يكن جاهزاً قط، لمثل هـذا الإجـراء - لأن يلـوي، ويـسحب عـبر أنبوبـة ضـيقة، تنغـرس في جنبيـه أسـياخ التـسليح الحديدي، وينقطع عنه التنفس، ويفـرض عليـه الزحـف، إلى مخـرج الأنبـوب الآخر - ليقـذف مـن هنـاك جـاهزاً، لأن يـصبح أو يـصير مواطنـاً مـن مـواطني معسكر الأرخبيلاك غولاغ - أرض الميعاد (ويبقى هذا الغبي آملا إلى الأبد، بأنه لا بد من أن يكون لهذه القناة الأنبوبية مخرج آخر للعودة).

إن الشيء الذي جعل هذه السنوات تمر، دون تدوين تلك الأحـداث، هـو صـعوبة جمـع الـشهود، الـذين مـا زالـوا علـى قيـد الحيـاة، ويعيـشون الآن في منـاطق مختلفـة ومتفرقـة، إذ إن بعـضهم قـد أفادنـا، بـأن عمليـات تزويـر القضايا، كان قد بدأ عملياً منـذ الـسنوات الأولى لإحـداث الجهـاز الأمـني - بحيـث تبقـى أعمـالهم، متصفة بالثبـات والاسـتمرارية العلنيـة لتكـون المنقـذ للجهاز من السكوت والاضـمحلال في لحظـات الـنحس، الـتي لا يتـوفر فيهـا أي عـدو فبـالعودة إلى ملـف قـضية كاسـيروف المتناقلـة بـين أيـدي الجهـاز الأمني الطوارئي في عام ١٩١٩، وبعد اطلاعي على الصحف الصادرة في عام

١٩١٨، وقعت على خبر رسمي، يعلن اكتشاف مؤامرة، قامت بها مجموعة مؤلفة من عشرة أشخاص، أرادوا (أرادوا حالياً فقط)، نصب مدافع على سطح بيت مخصص لإدارة التربية (لكم أن تتصوروا، مدى ارتفاع هذا البيت) بغية قصف الكرملين.

من هناك... أجل... قد بلغ عددهم عشرة أشخاص (ويمكن أن يكون بينهم الصبية، والنساء)، لكنه لم ينوه قط إلى عدد المدافع المزمع نصبها - إذ إن المسافة من هناك، وحتى الكرملين، تتطلب مدافع من العيار الثقيل!... لكن كيف سيتم رفع هذه المدافع من على السلم إلى العلية، الواقعة تحت الجملون؟!... وكيف يمكن تثبيتها عن السطح المائل؟ بحيث لا تتدحرج أثناء الإطلاق!... بالمناسبة كنا قد قرأنا هذا التفصيل الوهمي الخيالي التركيبي الملفق عام ١٩٣٨، وصدقناه إذاك!... كما وأنه توجد قضية ملفقة أخرى، ألا وهي قضية (كومبليوفسكي) في عام ١٩٢١[1]، وهي «مؤامرة المثقفين المحليين». (إلا أن احتجاجات، قدمها سميك تشيكوف قد وصلت إلى موسكو، وأوقفت القضية آنذاك). أيضاً في العام ذاته، ثم تنفذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص، على كافة أعضاء لجنة سوبر بليف، المنتظمين في لجنة تدعى «التوافق بين القوى الطبيعية». ويكفينا أن نطلع على أمزجة، ومخزون عقول علماء الدوائر العلمية الروسية في ذلك الوقت، الذين لم تحجب عنهم ستائر الدخان التعصبية في تلك السنوات، حقيقة التزوير والوهم، لنستطيع أن نتصور، ونثمن حجم هذه القضية.

كان قد ذكر ديرجينسكي، في رسالته الموجهة إلى قيادة الجهاز الأمني الطوارئي، تاريخ ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٢٠، أن الجهاز «غالباً ما يستسلم لطريقة الإعلان الافترائي».

١- لقد سميت لي أ. أ. اخموتفا، اسم ذلك العنصر المخابرتي، الذي عمل في الجهاز أو قام بتلفيق هذه القضية - هو باكوف آكرانوف.

أما دورينكو، يتذكر عن عام ١٩٢٠ قائلاً: إن قسم النظارة في سجن لوبيانكا، يحوي أربعين، خمسين سريراً من الخشب، وطوال ساعات الليل، يقتادون، ويقتادون النساء إليها، دون أن تعرف إحداهن ذنبها، على غرار كافة المعتقلين، الذين لا يعرفون، الأسباب المسوغة لتوجيه التهم إليهم، إلا أن امرأة واحدة من بين النسوة، كانت تعرف ذنبها - إنها من أعضاء تنظيم الآيسير، وكان السؤال الأول الموجه لها، من قبل رئيس الجهاز ياغدا: «حسناً... ما السبب الذي أوقعكم هنا»؟ - أي على المتّهمة الموقوفة أن تقول السبب، وتساعدهم في أن يعرضوها للدعك كما يجب هذا ما كان يجري في الأجهزة بشكل عام، وينطبق القول كذلك على الجهاز الأمني الحكومي في منطقة بازايازانسكينسكي حيث قام باعتقال مجموعة كبيرة عام ١٩٣٠ دون توضيح الأسباب الوجيهة لارتكاب الذنوب، حيث كانت إحدى التهم الموجهة إلى المدعو د. ك. فا... تزوير اسمه (مع العلم، أن اسمه كان حقيقياً وليس مزوراً، وذبح بالبند العاشر من المادة ٥٨ وتلقى حكماً بعشر سنوات) ويسأل المحقق، دون تبرم، وإتقان لطرق المحاكمة... «ما هي مهنتكم»؟ -«اختصاص في التخطيط» - إذاً أكتبوا لنا تقريراً توضيحياً عن التخطيط في العمل، والكيفية التي ينفذ فيها هذا المخطط، وعندها ستفهم لماذا قمنا باعتقالك؟ (لا بد أن يجد المحقق خيطاً ما في التقرير ليتعلق به).

أجل لم يعودونا عبر هذه السنين العشر، على أن يعود من هناك أي إنسان! عدا عن تلك الأفواج القليلة، المرجعة عام ١٩٣٩ بشكل متعمد، وندر أن سمعنا، عن أيّ قصة واحدة، تمت فيها عملية إخلاء سبيل لأي إنسان بعد انتهاء التحقيق... وإذا... ما حصل فإنه لا بد من أن تتم إعادته قريباً... وما عملية إخلائه إلا طريقة مستخدمة للاقتفاء حسبما اقتضت العادة والتقليد، بحيث لا يبقى لدى الجهاز أي نفايات في العمل، حتى ولو كان من بينهم غير مذنب.

يـرد في المعجـم الوسـيط هــذا التمــايز: «إن التحقيــق، يختلــف عــن الاستقصاء، فالتحقيق يجري من أجل الإثبات التمهيدي، الـذي بدوره يـؤدي إلى الاستقصاء».

أيه... يا لهذه البساطة المقدسة! إن الجهاز لا يعرف أبداً، أيّ معلومات تتعلق بالتحقيق!، إذ إن لوائح المعتقلين كانت ترد من الأعلى، ويتم الاعتقال على أسـاس الارتيـاب الأولـي، بنـاءً على تقريـر مخبر، أو بنـاءً علـى بلاغـات مكتوبة مغفلة التوقيع.

ويؤدي هذا بمجموعه إلى الاعتقال، على أن يتم فيما بعد توجيه الاتهام الـذي لا مفــر منــه، إذ إن الــزمن المخـصص للتحقيـق لا يـستخدم لإجــلاء الجريمة، بل يستخدم الـزمن كله لإنهاك وإسقام وإضعاف المتهم، بحيث يصل إلى مرحلة، يتمنى فيها لـو أن سـاطوراً يقطعـه، ويتخلص مـن الوضع الذي هو عليه، وعلى وجه السرعة.

جـرت العـادة بـدءاً مـن عـام ١٩١٩، علـى وضـع المـسدس أثنــاء عمليـة التحقيق على الطاولة أمام المحقق، وكان هـذا الإجـراء لا يتم في القضايا الـسياسية، بــل في القــضايا الاجتماعيــة المعيــشية. وقــد احتجــت المعلمــة ماخورفسكايا أثنـاء محاكمتهـا في قضية كـلاف بـوب عـام ١٩٢١، علـى أنهـم أسـكروها أثنـاء التحقيـق وأعطوهـا جرعـات مـن الكوكـائين: ويـرد المدعي العام عليها[1]: «لو أنها صرحت، بأنها عوملت أثناء التحقيق بـالعنف، وهُددت بالقتل، إلا أنه مـع هـذا يمكـن تصديق نصف مـا قيـل تحـت ضغط الخوف» إذاً هكذا... يتموضع المسدس المرعب، الـذي قـد يوجه إليـك في أيّ

١- لقد ورد في المادة ٣٩ - من البند ياء من القانون التشريعي الجنائي «إن البلاغ المغفل التوقيع يمكن أن يستخدم طريقة تحريضية للقضية الجنائية». «وإن ورود كلمة الجنائي يجب الا تستغرب هنا، لأن كل القضايا السياسية اعتبرت جنايات».

لحظة، ولا يتعب المحقق في التدقيق أو حتى التفكير فيما إذا كنت مذنباً أم لا، لكنه بدلاً من ذلك يطلب منك «أن تقول ما تعرف». لقد وجه المحقق هذا السؤال إلى كل من سكرينيكوفا عام ١٩٢٧، وإلى فيكتورفسكي عام ١٩٢٩، ولم يتغير شيء من ذلك الحين، وعلى مدى ربع قرن من الزمن، حيث تكررت المسألة عام ١٩٥٢، مع المتهمة المذكورة التي سجنت للمرة الخامسة حيث قال لها رئيس قسم التحقيق سيافاكوف، العامل في إدارة أودجنيكزه «لقد قدم طبيب السجن تقريراً، يقول فيه، إن الضغط عندك ارتفع إلى ١٢٠/٤٢٠ ومع هذا قليل أيتها اللئيمة (كان عمرها في ذلك الوقت ستين عاماً)! سنجعله يرتفع إلى ٣٤٠، لتموتين خنقاً أيتها اللعينة، دونما أثر للازرقاق، ولضرب أو لكسور. ومع كل هذا لن نسمح لك بالنوم»!. وكانت إذا ما أغمضت (سكرينيكوفا) عينيها أثناء النهار، بعد ليل طويل من الاستجواب، انقض عليها الحارس صارخاً:

«لا.. افتحي عينيك، وإلا علقت من رجليك على الحائط رأساً على عقب»!.

كانت إجراءات التحقيقات الليلية، هي الطريقة الرئيسية عام ١٩٢١، واستخدمت أضواء السيارات لتسليطها على الوجوه، (استخدمت هذه الطريقة في مخابرات زازناسكي سيل ماخ واستخدمت (في سجن لوبيانكا عام ١٩٢٦ حسب شهادة بيركاندال) واستخدمت وسائط التدفئة والتبريد لحقن الحجرات بالهواء البارد والساخن، إذ كانت الحجرة الخاصة المصمته في هذا السجن لا نوافذ فيها، وتزود مع هذا كله بالهواء الساخن، وأعتقد بأن الشاعر كلويف، أقام في هذه الحجرة وكان فيها، بيرت كاندال، والمشاركون في انتفاضة يارسلافسكي عام ١٩١٨ ولقد روى فاسلي الكندروفيتش كسيانوف قائلاً: في هذه الحجرة، يتعرق الجسم لدرجة ينزل الدم فيها مع العرق وما أن يروا السجين عبر فتحة المراقبة على هذه

الحال، حتى يسرعوا إلى نقله على النقالة ليوقع برتوكول التحقيق، إضافة إلى ذلك أفلحوا في استخدام الوسائط الطبيعية المعروفة «الحر» و «الملح» حسبما نصت القاعدة الذهبية للطبيعة أما في جورجيا وفي عام ١٩٢٦، أحرقوا أيدي المتهمين بالسجائر ودفعوا السجناء في الظلام إلى حفر المجارير في سجن ميتخيسكي.

بكل بساطة، يجب أن توجه التهمة بأي طريقة، وهذا وعيد لا مفر منه سواء كان بالقوة، أو بالتعذيب. وكلما كان حجم الاتهام أكثر أهمية أو خيالياً كلما كان التحقيق أكثر قسوة، بغية الحصول على الاعتراف المطلوب. وطالما استمر تلفيق القضايا الوهمية دون انقطاع كان لا بد من أن تستمر كذلك ممارسة التعنيف، والتعذيب مع التنويه إلى أن وسائل التعذيب لم تكن نتاج عام ١٩٣٧، بل كانت حصيلة ممارسات طويلة المدى اتسمت خلالها بهذه الصفة العامة، لذا لا يبدو الأمر مستغرباً عندما نقرأ الآن في مذكرات بعض السجناء القدامى «من أن السماح بالتعذيب طبق بدءاً من ربيع ١٩٣٨»[1]، مع العلم، بأنه لم تستطع أيّ حواجز منع الجهاز من التعذيب، حتى بما فيها الروادع الأخلاقية الدينية، وكثيراً ما نوقشت مسألة التعذيب، وإمكانية تطبيقه من وجهة النظر الماركسية في السنوات الأولى بعد الثورة، على صفحات المطبوعات الأسبوعية لقيادة الجهاز الأمني الطوارئي المسماة «بالسيف الأحمر» و «الإرهاب الأحمر» وورد في إجابة

١- يكتب غيزبورغ، إن السماح باستخدام «التأثير الفيزياني» كان قد اعلن عام ١٩٣٨، واما السجين القديم شالوموف يعتبر: «ان السماح بالتعذيب كان من اواسط عام ١٩٣٨»، اما السجين القديم ميتروفيش، وهو على ثقة مما يقول: (صدر امر بتخفيف الاستجواب، واستبدال الطرق النفسية بالطرق الفيزيولوجية) اما ايفانوف رازفيك يخص «ان اكثر الأزمان قساوة في الاستجواب كانت في اواسط عام ١٩٣٨».

قاضـي التحقيـق مقـالاً ، قـد تكـون الإفـادة مـن أسـاليب التعـذيب إيجابيـة لكنها لا تنطبق في كل الحالات.

نرى من الأصح، توصيف عـام ١٩٣٨ بشكل آخـر، فـإذا كـان الأمـر يتطلب حتى هذا التاريخ، الحصول على موافقة تسمح بممارسة التعذيب في كـل قـضية تحقيـق بشكل منفـرد (علـى الـرغم مـن إنـه كـان مـن الـسهل الحـصول عليهـا) - فإنـه في عـام ٩٣٧-٩٣٨، ونتيجـة لظـروف اسـتثنائية (تم استقدام تلك الملايين المحددة بشكل مسبق إلى الأرخبيلاك، وتم احتواؤهـا خلال وقت قصير، عبر قسم التحقيق الإفـرادي، وحسب الأوامـر المخططـة، الشيء الذي لم تعرفه جماهير تلك الاسيقة الاعتقالية المؤلفة «من الكـولاك منزوعي الملكية» ومن «القوميين» وسمح للمحقق، باستعمال القوة والتعـذيب والضغط دونما حدود وحسبما مـا رآه مناسبـاً، وحسبما تطلبـه حجـم العمل المطلوب للتنفيذ في الوقت المحدد، دون تنسيق أيّ أنواع للتعذيب، بل تركـوا الباب مفتوحاً للابتكار).

إلا إنـه في عـام ١٩٣٩، سـحبت صـلاحية اسـتخدام التعـذيب المكثـف وأصبح الأمـر يتطلـب مـن جديـد موافقـة خطيـة (نقـول بالمناسبـة، بـأن هـذا لا يشمل التهديدات البسيطة، والترويع، والخداع، والإنهاك، والحرمـان مـن النوم، والتعتيم) لكـن مـا أن انتهـت الحـرب، حتـى صـدرت مراسيم، تحـدد أصنـاف، وأنـواع المـساجين والمعـتقلين، والفئـات الـتي يمكـن معرفـة حجـم وطرق التعذيب التي ستمارس عليها، مسبقاً، وكـان مـن عـداد هـذه الفئـة - القوميون الأوكرانيون بشكل خاص، والليتوانيون، سيما في تلـك الحـالات الـتي كـان يكـشف أو يلفـق لهـم تنظـيم سـري، يقتـضي الأمـر إبادتـه، إذ كانـت تـستخلص الأسمـاء من المعـتقلين أنفـسهم - فعلـى سـبيل المثـال كـان ضمن مجموعة رموالـداس بـراس سيكيورسيا، خمـسون شخـصاً مـن أصـل ليتواني اتهموا في ذلك الوقت، أي في عام ١٩٤٥، بتوزيـع المنشورات المـضادة

لنظام الحكم السوفييتي، ونظراً لعدم توفر السجون في جمهورية ليتوانيا، تم إرسالهم إلى معسكر قرب فيلسكا من محافظة ارخانكليسك، حيث نفذ التعذيب عليهم، ولم يستطع البعض منهم تحمل نظام التحقيق المزدوج، الذي كان من نتائجه، اعتراف أعضاء المجموعة المؤلفة من خمسين شخصاً بجريمتهم، وبمرور بعض الوقت، وردت أنباء من جمهورية ليتوانيا، تفيد بأن موزعي المناشير الحقيقيين، أُلقي القبض عليهم، وما هؤلاء إلا أبرياء لا ذنب لهم!

صادف وأن كان في معسكر بتشيفسكي، منفيّ أوكرانيّ من مدينة دنيبر بروفسك، وبعد التدقيق والتمحيص، تبين بأنه تعرض والكثير ممن لهم صلة معه، إلى كافة أنواع التعذيب والحجز وقوفاً في زنزانة ضيقة مع بعض العوارض الخشبية المخصصة كأسرة للنوم، ومع كل هذا كان لا يسمح له بالنوم أكثر من أربع ساعات. وجاء بعد هذه المجموعة، دور تعذيب أعضاء مجموعة المراسلين العلميين لأكاديمية العلوم المسماة باسم لينغو.

يصعب علينا إعطاء الوصف الدقيق لعام ١٩٣٧، دون التعرض «لفكرة الاكتشاف المبتكر» القائلة، بأن الاعتراف الشخصي من المتهم نفسه، لهو أهم الإثباتات والأدلة، فقد بدأت فكرة الإبداع هذه في العشرينات، وآتت أكلُها في عام ١٩٣٧ على يد فيشينسكي، علماً بأنه لم يولَ الاهتمام في ذلك الوقت، للاعتراف من قبل المحقق، والنائب العام على حد سواء، إنما اعتبر قاعدة معنوية، إلا أننا علمنا بعد مرور عشرين عاماً، وعندما أخذت الصحف تنشر في ملاحقها الأساسية، وعلى صفحاتها الثانوية، هذه الإيضاحات التي كانت معروفة من قبل الجميع منذ زمن بعيد، وتبين لنا في هذه السنة المرعبة، ومن خلال تلاوة التقرير السنوي، المقدم من العظيم الشهير بأندريه بابواريفيتش فيشينسكي إلى الدوائر المعنية (لكم أود أن

أطلق عليه اسم ياغداريفيتش[1]) المحمل بروح الديالكتيك المرن (الذي لن نستطيع، لا نحن، ولا الدوائر الحكومية من فك رموزه، ولا تستطيع حتى أعقد الحاسبات الإلكترونية ذلك، طالما إنها تعمل على قاعدة ثابتة واحدة: نعم هي نعم وليست لا... هذا هو الديالكتيك القائل: بأنه لا يمكن بحال من الأحوال تحديد الحقيقة الإنسانية المطلقة، إنما يمكن تحديد حقيقتها النسبية فقط. وبهذا يكون قد خطا خطوة، لم يستطع المحامون، إقرارها منذ ألفي عام: التي على أساسها تكون الحقيقة المقدمة من قبل المحقق، أو من المحكمة، قد لا تكون حقيقة مطلقة، إنما نسبية، لذا فعند توقيع حكم الإعدام، لا يمكن لنا أن نكون مصدقين بشكل مطلق، من إن الذي نراه هو تنفيذ حكم الإعدام بل حكم إعدام نسبي، تقريبي، عدا عن إنه افتراض مكون من عدة افتراضات تكونها الفكرة المعلومة (من المحتمل أن فيشينسكي ذاته وربما متهميه كانوا بحاجة، وبخاصة في ذلك الوقت لمثل هذا العزاء الديالكتيكي، إذ بصرخة واحدة من على منصة النائب العام «فليعدم الجميع كالكلاب المسعورة» سواءً كان النائب غاضباً أم هادئاً يكون المتهم في كلتا الحالتين بريئاً. ومع كل هذا الرعب، الذي هو في الواقع من طبيعة الحوت الديالكتيكي الماركسي، يكون بوخارين قد سحق تحت غطاء التزيينات الديالكتيكية للمحاكمات الكاذبة، وكان من الغباء، أن يقتل بوخارين بهذه الطريقة الفجة، القاضية على إنسان بريء لا ذنب له - إنسان أُلزم، أن يجد نفسه باحثاً عن تهمته - أما فيشينسكي كان من الأمتع له: أن يبدو إنساناً منطقياً، خيراً له من أن يبدو لئيماً بادياً للعيان).

١- إن تبديل اول جزء من الكنية تم ليطابق اسم وزير داخليته في دلك الوقت، كناية عن إن فيشنيسكي هو ضيعة ياغدا وزير الداخلية.

نستنتج مما ورد النتيجة العلمية التالية: مضيعة للوقت، أن نبحث عن الأدلة المطلقة (فالأدلة كلها نسبية)، وعن الشهود الموثوقين (الذين يمكن أن يدلوا بشهادة مغايرة). فعملية إثبات التهم النسبية التقريبية، يستطيع المحقق إيجادها دون أدلة وشهود، دون أن يخرج من مكتبه «معتمداً بذلك، ليس على عقله فقط، بل على حدسه، وعلى حاسة شمه الحزبية، وعلى قواه الأخلاقية»، (إذاً كل شيء يعتمد على مزية الإنسان المنقذ، وعلى مدى رجوعه ونزوعه للقوة)، «أي على مزاجه»، «بمعنى آخر على مدى طبعه الميال لاستخدام القوة»، وتبقى الصياغة التي رأيناها سابقاً، أكثر لباقة من التوجيهات المعطاة من ليتسيس، إلا أنها لا تختلف عنها في الجوهر، على عكس الشيء الذي جعل فيشنسكي متخلفاً، ولم يستطع بلوغ حد المنطق الديالكتيكي، بسبب استخدامه لطلقة الرصاص في حدود المطلق.

إذاً وهكذا تطور علم القضاء المتقدم على قاعدة اللولب، وعاد لفكرة القرون الوسطى، على طريقة معلمي ذلك الزمن، صاحبيّ الأختام، لذا فإن محققينا، والنواب العامين، والقضاة، اتفقوا على أن الإثبات الرئيس للمتهم هو الاعتراف أمام المحققين.

بيد أن الوسيلة البسيطة المستخدمة في القرون الوسطى، في انتزاع الاعتراف المرغوب فيه، هي اللجوء إلى الوسائل الدراماتيكية، كالتعذيب بواسطة أدوات خاصة، كالأطواق، والمجامر، والحشرات، والخوزقة، بينما تستخدم في القرن العشرين، وسائط الطب المتطور، والخبرات الفنية المكتسبة في السجون، (وربما استطاع الكثير منهم الدفاع عن مثل هذا الدبلوم) بسبب اعترافهم باستخدام هذه الوسائط بشكل كثيف، ومفرط على تلك الجماهير العريضة... التي تعرضت لمثل هذا الاستخدام المطلق لكافة الأدوات الأخرى!.

من الملاحظ أن ستالين لم يقل أبداً كلمة الفصل النهائي، بل كان يلقي على عاتق المرؤوسين، أن يتوقعوا ما يريد، وكان يترك بشكل دائم مهرباً للثعلب، يستخدم عند الضرورة، دون أن يترك أي أثر مكتوب (فلما يوجع رأسه بهذا النجاح) إلا أنه لم يعرف التاريخ الإنساني مثل هذا التعذيب المنظم ولا لمرة واحدة، لأن حجم النتاج المادي لهذه التجربة كان كبيراً، لدرجة أن ستالين نفسه، لم يكن مصدقاً لهذه المطلقية في النجاح على الرغم من حجم تلك القوة التي كان يملكها النظام الستاليني، إذ إنه كان من الممكن، أن يؤدي هذا التصرف (النجاح) إلى أفعال أخرى كبيرة، لكن كان يجب أن يبقى ستالين في هالة القداسة الإنكليزية النظيفة (على الرغم من أنه يوجد في محاضر الاجتماعات الدورية للجنة المركزية بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٩ - توجيهات تقول «استخدام التأثير الفيزيولوجي».

ترى ألا يشدنا تفكيرنا، إلى أنه لا توجد أيّ لوائح مكتوبة، تنص على طرق التعذيب والامتهان، إذ من المحتمل أن تكون قد سلمت ليد المحقق على شكل أوامر مطبوعة، أو قد طلب إليه شفاهاً، أن يقوم كل قسم، وخلال وقت محدد، بتقديم عدد معين من الأرانب لتقرّ بذنبها، وتحال إلى المحاكمة، أو قيل له ببساطة مطلقة «التلقين الشفوي المتكرر»: من أن كل التدابير، والوسائط جيدة، طالما هي موجهة، لصالح تحقيق الهدف السامي النبيل، بحيث، لا يتمكن أحد من أن يستفسر من المحقق، عن سبب موت المتهم، ويكون التدخل في أدنى الحالات من قبل طبيب السجن، قد أبطل أثناء سير التحقيق... ومن الجميل أن نتذكر، بأنه قد تم تنظيم تبادل الخبرات الرفاقية في هذا المجال «حيث يقوم المحقق المتفوق بتعليم الآخرين» عدا عن أنه تم الإعلان عن «المصلحة المادية» - التي تخص القائمين بتعويض مادي كبير، على ساعات التحقيق الليلي، وقدمت

المكافآت المادية عند اختصار زمن التحقيق، ووجهت في الوقت نفسه، التهديدات لأولئك المحققين المتقاعسين عن تحقيق النتيجة المطلوبة خلال المهلة الزمنية المحددة، وعند حصول حدث كارثي ما، في أروقة الجهاز الأمني كفشل، أو إخفاق، فإن رئيس هذه الأروقة، لا بد من أن يبدو نظيفاً أمام ستالين، لأنه لم يعطَ أي قرار، أو أمر مباشر بممارسة التعذيب، إنما أوحى به ليس إلا.

من الطبيعي أن يقوم القادة بحماية بعض المرؤوسين المحققين (لكن ليس حماية أولئك، الذين قد يمارسون عملية القتل عند الغضب)، الذين يبدؤون التعذيب في النقاط الأكثر ضعفاً، أما أولئك الذين يتركون الآثار، والعلامات الظاهرة على الجسم من جراء التعذيب، كعين مفقودة، أو إذن ممزقة أو كسر في العمود الفقري، أو آثار كدمات، وازرقاق على الجسم، فأنهم لا بد سيتعرضون للاستغناء عن خدماتهم، عند توفر المحققين البدلاء.

لهذا... فإننا لم نلحظ عام ١٩٣٧، إلا استخدام وسيلة تعذيب واحدة، ألا وهي الحرمان من النوم، التي كانت عممت على كافة الأقسام والفروع في الأقاليم، وقام المحققون بممارستها، بيد أنه يقتضي التنويه، بأن التعذيب في منطقة روستوف الواقعة على نهر الدون في كراسنادار، اختلف وامتاز بالقوة، حيث ابتكروا طريقة جديدة، أجبروا فيها المتهم على توقيع الأوراق فارغة، ليقوم المحققون بتعبئتها بشتى الأكاذيب، ولنا أن نتساءل، ما الضرورة الداعية لاستخدام التعذيب عام ١٩٣٧، طالما إنه لم يكن في السجون أيّ إجراءات للتعقيم من الحمى ووباء التيفوس، حيث الجثث البشرية مرمية خمسة أيام، ليجن جنون كل السجناء في الحجرات - وتنزل الهراوى على رأس كل سجين خارج إلى البهو.

إلا أنه، قد تكون أعطيت أفضلية استخدام الوسائط، التي يسمونها بالخفيفة (سنرى لاحقاً)، وربما كان ذلك الطريق الأسلم، إذ إن مجال

الاستقرار الإنساني الحقيقي ضيق جداً، ولا ضرورة لاستخدام آلات التعذيب والمحارق، لتجعل من الإنسان المتوسط الاستقرار، إنساناً مخبولاً.

وسنحاول هنا وفي هذا المجال سرد أكثر الطرق بساطةً التي تحطم الإرادة الشخصية للمعتقل، دون ترك أيّ آثار على الجسم.

نبدأ من الطريقة النفسية: ومن اعتبار تلك الأرانب لا تملك الاستعداد النفسي لتحمل الآلام وعذاب السجون - ولا شك بأنها طريقة مريعة ومحطمة للقوى. حتى ولو مورست على شخصية تملك الإقناع الشخصي، فإنها ليست بالطريقة السهلة، التي يمكن تحملها:

١- تتم هذه الطريقة في ممارسة تحطيم الروح ليلاً، ونتساءل، لماذا كان الجهاز يعمد إلى استخدام هذه الطريقة منذ الأيام الأولى لتكوينه - باختيار الليل لتنفيذ هذه العملية؟ ولأنه في الليل، وبعدما ينتزع المعتقل من النوم (خاصة وإن كان يتعرض لأول مرة للحرمان من النوم) يفقد قدراته الشخصية في المحافظة على توازنه أكثر مما يكون في النهار، وبالتالي لا يزال رخواً.

٢- طريقة الإقناع عن طريق المصارحة، وتعد من أبسط الطرق، ولا ضرورة لممارسة لعبة القط والفأر، إذ إن قضاء وقت قصير وسط المعرضين للتحقيق كاف، لأن يجعلك تطلع على الوضع العام، ولا يبق للمحقق إلا أن يواجه الموقوف متكاسلاً، متودداً: «ها إنك ترى بنفسك، بأنه لا بد من أن يحكم عليك في كل الأحوال، لذا لا ضرورة لإبداء المقاومة لأنها تجعلك تستنفذ صحتك في السجن، فبدلاً من هذا ما عليك إلا الاعتراف، وستذهب إلى المعسكر حيث ترى النور وتستنشق الهواء هناك، لذا... فمن الأفضل لك أن توقع بسرعة»، لا ريب أنه منطق ممتاز، فبعضهم من كان صاحياً، يوافق على التوقيع، وبعضهم الكثير، ندر أن وافق على ذلك... لأنهم... وآمنوا بضرورة المقاومة.

للإقناع احتمال آخر - خاص بالحزبيين «فإذا ما كانت في البلاد بعض السلبيات، وحتى ولو كانت مجاعة، فعليك، وكونك عضواً بلشفياً أن تقرر مصيرك!: فهل تسمح يا ترى، بأن يقال بأن المسؤولية في ذلك تقع على الحزب... أو على النظام السوفييتي؟... - «بالطبع لا»... هكذا كان قد أجاب مدير مركز صناعة النسيج «إذاً... طالما الأمر كذلك كن رجلاً، وتحمل مسؤولية هذا الذنب على عاتقك»!... وتحمل المسؤولية.

٣- التقريع بالشتائم المقذعة.. إنها ليست بالطريقة الماكرة، لكنها ذات تأثير ممتاز على أولئك الناس، الناشئين على اللباقة، والإحساس المرهف، وأطلعت على حادثتين من هذا النوع، كانتا قد وقعتا مع قساوسة تراجعوا أمام هذه الشتائم البسيطة، كان أحدهم يدعى «بوتريك ١٩٤٤، قامت بالتحقيق معه امرأة، ولكم أبدى لها الامتنان لشدة لطفها وفي إحدى المرات عاد من التحقيق عابساً متجهماً، رافضاً التصريح، والإعلان عما حصل له، لقد كانت تتلوى أمامه إغراءً، وتضع رجلها فوق الأخرى (وإني لأعتذر عن ذكر أيّ عبارة، تلفظت بها).

٤- الصدمة النفسية بالتباين، أي بالانتقال المفاجئ: إذ يتم التحقيق كاملاً بأقصى حدود اللياقة، ويخاطب المتهم بكافة ألقابه... وإعطاء الوعود... لا بأس كل شيء سيكون على ما يرام... وفجأة ينتفض المحقق، ويلوح بنشافه الحبر في وجه المتهم (يا لك من سافل - إنك تساوي تسعة غرامات من الرصاص)، وتمتد الأيدي، بشكل يوحي بشد الشعر، وتبدو الأظافر وكأنها إبر طرفت نهاياتها حدة (أجل... لقد استخدمت هذه الطريقة بشكل ممتاز من قبل النساء) بغية تنفيذ هذا النوع من التحقيق يتم توزيع الأدوار بين المحققين أحدهما يزأر والآخر يتعاطف ويتأثر. وكثيراً ما كان يقع في حالة من الاضطراب والتحسب... ترى من سيكون المحقق؟، وتحت ضغط هذا التباين، كان المتهم يكاد يهم بالاعتراف، ويوقع للمحقق الآخر، حتى ولو لم يكن مذنباً.

٥- التحضير التمهيدي: في أحد الأقبية الشهيرة في مدينة روستوف، التابعة لجهاز الأمن (رقم ٣٥)، وخلف الزجاج السميك للنوافذ، المساوية للشارع (كان القبو يستخدم في السابق مستودعاً)، رمي المحتجزون، منكبين على وجوههم في الممرات، انتظاراً للاستجواب ساعات طويلة، دون أن يسمح لهم برفع الرؤوس أو حتى التكلم، وسجدوا كالمصلين المسلمين لساعات طويلة ريثما يأتي المكلف باقتيادهم، وبعد لكزة على الكتف... هيا إلى الاستجواب. ترفض الكسندرافا بغضب الإدلاء بالمعلومات المطلوبة في سجن لوبيانكا... فاقتادوها إلى لبفرتوف... وهناك طلبت الحارسة منها... أن تنزع ثيابها، إذ اعتقدت بأنها ستخضع لفحص طبي، وحملت الثياب، وتركتها عارية، وأغلقت باب الحجرة وخرجت... قدم بعدها الحراس من الرجال... وراحوا يسترقون النظر من خلال فتحة المراقبة... ويقهقهون، ويناقشون قضيتها - قدها الممشوق والأمثلة كثيرة على ذلك، والغرض فقط - هو خلق حالة ضغط دائمة.

٦- إن استخدام أيّ طريقة تثير في السجون التشويش والهياج، وسنورد لكم، الكيفية، التي تم فيها استجواب المدعو ف. ي. من مدينة كراسناكورسكي التابعة لإقليم موسكو (أورد الخبر كل من أ. ب. ي. ف.) قامت بالاستجواب محققة مغناج، عرضت مفاتنها بحركات استغوائية (سريبتز) أثناء التحقيق، وكأن شيئاً لم يكن، وراحت تتمشى في الغرفة، مع الاقتراب منه، كي تنتزع منه الإقرار والاعتراف، وربما كانت في تصرفها هذا تعبر عن رغبتها الحقيقية، أو قد يكون أحد التدابير الفطنة، ليختلط الأمر على المتهم ويوقع! دون أن تأبه لخوف، طالما المسدس والجرس إلى جانبها.

٧- التخويف، هو من أكثر الطرق استعمالاً وتنوعاً، فتارةً يتم عن طريق الاستدراج والإغواء، وتارة بإعطاء الوعود، وإن كانت كذباً في

كذب، ففي عام ١٩٢٤ كان يقال لهم: «حسناً لا تعترفوا! إذاً سترسلون إلى سجن سالوفكي، بينما من يعترف منكم، سيطلق سراحه، أما في عام ١٩٤٤ قيل لهم «إن اختيار المعسكر الأفضل لإقامتكم، أمر يتعلق بي، واعلموا أن كل المعسكرات واحدة، فلدينا منها للأشغال الشاقة، لذا عليك أن تكون صريحاً - وتذهب إلى مكان سهل ومريح إلا إذا كنت عنيداً - عندها إليك خمسة وعشرون عاماً بالأصفاد، والأغلال، والعمل في الأنفاق تحت الأرض»! إضافة إلى هذا كله، هناك طريقة أخرى، وهي الترهيب بالنقل إلى سجون أكثر سوءاً «فإذا ما اعتدت على هذا السجن فسنرسلك إلى سجن لبفرتوف (وإذا ما كنت في سجن لوبيانكا) سنرسلك إلى سجن سوخونوفك (وإذا أرسلت إلى سجن ليفرتوف) هناك طريقة أخرى للتعامل»! فهنا كما ترى يا صاح، قد تعودت - حيث لا يوجد النظام الصارم في هذا السجن... إنما هناك حيث سترسل، سيكون العذاب في انتظارك... حسناً سننقلك إلى هناك... لا.. حاجة لذلك... ويبدأ التراجع.

للتخويف تأثير كبير، على أولئك الذين لم يسبق لهم التعرض للاعتقال، وجاؤوا إلى هذا البيت الكبير بناء على دعوة، أو مذكرة إحضار... وما زال الطريق في أوله... وسيفقد كليهما (إن كان هو أو هي) الشيء الكثير، وأول ما يعتريهما الخوف من ألا يطلق سراحهما اليوم، أو يخافا مصادرة الأثاث والشقة. أما هو كان جاهزاً لأن يقدم الكثير من الشهادات، ويتراجع عن الكثير، مقابل تخليص نفسه من هذا الخطر، أما تلك فلا تملك أيّ معرفة بطبيعة القانون الجنائي، حيث يرمى لها قبل الاستجواب، أو في بدايته ورقة، مكتوباً عليها موجزاً من العبارات القانونية «لقد تم تحذيري إنه في حال الإدلاء بشهادة زور... السجن خمس سنوات»، «والحقيقة أن المادة التي تعاقب على الإدلاء بشهادة زور، هي المادة ٦٥ - وتنص على العقوبة سنتين»، أما في حال رفض الإدلاء بشهادة ما، تفرض

عقوبة ثلاثة أشهر يقضيها المحكوم في أعمال الإصلاح والترميم، وليس في السجن» وهكذا ترى أن الطريقة الأولى قد تم تنفيذها، وستنفذ مستقبلاً الكثير من طرق التحقيق.

٨- الكذب - ألا اعلموا بأن الكذب ممنوع علينا نحن الخراف، بينما يحق للمحقق الكذب في كل الأوقات، وما هذه المواد التي نعددها، إلا أشياء لا تتعلق به! حتى بتنا لا نعرف طريقة ما نتساءل فيها... عن... وماذا لو إنه مارس الكذب... فبماذا يحكم عليه؟... لا... فهو يستطيع، أن يضع أمامنا الكثير من محاضر التحقيق، التي ذيلت بتواقيع مزورة، لأصدقاء، أو أقارب لنا - وهذا التصرف ما هو - إلا إحدى الطرق اللبقة للتحقيق.

إن الترويع، والإغواء، والكذب - طرق أساسية للتأثير على المعتقلين الأقارب، الذين يتم استدعاؤهم للإدلاء بشهاداتهم «إنكم، وإذا ما رفضتم الإدلاء (بالشهادة المطلوبة) فلا بد من أن يصبح وضعكم أكثر سوءاً... وتشاركون عندها في قتله... (ترى ماذا لو سمعت الأم هذا الكلام)؟، وبتوقيعكم هذه (الورقة المقدمة) تستطيعون إنقاذه وإلا سيموت»[1]!.

٩- اللعب على المعتقلين بالتأثير على الأقارب - إنه تأثير رائع على المتهم، وهو من أكثر الطرق فعالية من طرق الترويع على الذين يملكون التعلق الشديد بالأقارب، وإن هذا الأسلوب كاف لتحطيمهم مهما كانوا شجعاناً، (كيف يمكن قبول هذا «فهل يعقل أن يكون الأعداء من داخل البيت). ونذكر هنا ذلك التتري، الذي تحمل كل شيء - تحمل عذابه، وعذاب النساء! إلا أنه لم يستطع قط. أن يتحمل تعذيب بناته!. كان هذا

١- حسب القانون الروسي الإمبراطوري، يستطيع الأقارب، رفض الإدلاء بشهادة، وإذا ما حصل أثناء التحقيق التمهيدي، فإنهم يستطيعون وبكامل إرادتهم، الا يؤكدوا شهادتهم امام المحكمة لا بل حتى إنه لم تعتبر شهادات المعارف، والأقرباء، أدلة قضائية.

عام ١٩٣٠، حيث كانت المحققة المدعوة ريما ليس تهدده بالتالي: «سنعتقل ابنتكم، وسنسجنها في حجرة واحدة مع المصابين بمرض الزهري».

يمارس التهديد، بسجن أي إنسان، يعرفون أنك تحبه، ويصرخون في وجهك، لقد تم اعتقال زوجتك، ويتعلق مستقبلها بصراحتك.. ألا تسمع ها هم يستجوبونها في الغرفة المجاورة! ويتناهى صوت نهنهة البكاء خلف الجدار (أليس لهن صوت واحد، وخاصة عند البكاء من وراء الجدران لكن يكون الخبل أخذ منك كل الحصافة، وأصبحت في حالة لا تسمح لك أن تكون خبيراً وقد يكون الصوت صادر عن آلة تسجيل (صوت زوجات نموذجيات) مترافق مع السبرانو، أو الكنتر لاتول (إنه تنظيم علمي إنتاجي) قد يتيحون لك أن ترى زوجتك من خلف باب زجاجي، وهي تمشي صامتة حزينة، مطأطئة الرأس - سحقاً... إنها زوجتك تتلوى في ممرات مبنى إدارة أمن الدولة! أترى لقد قتلتها بعنادك!.. وها هي الآن رهن السجن! (وفي الواقع، ربما يكونون قد استدعوها بكل بساطة لسبب تافه، وحقير) وفي لحظة معينة تركوها تمشي في الممر، وأوصوها، بألاّ ترفع رأسها، وإلا لن تخرج من هنا). واعلم أنها رسالة مقروءة واضحة الخط تقول: إنني لا أريدك... بعد أن سمعت هذه الشناعات والخساسة التي رووها لي عنك... ولا لزوم لك عندي بعد الآن، (أترى... إنها مثل كل الزوجات، ومثل كل الرسائل في بلدنا هذا، فليس هناك شيء لا يمكن حصوله، وبقي لك، أن تتألم وتحطم نفسك وروحك... هل يمكن أن تكون زوجتي هكذا!

طلب المحقق كولدمان عام ١٩٤٤ من المدعوة أ. ف. كورنييفا، أن تدلي بشهادة عن الآخرين مهدداً إياها «نستطيع مصادرة بيتك، وطرد عجائزك إلى الشارع». ولشد ما كانت كورنييفا مؤمنة وواثقة من نفسها، بأنه لا يمكن بحال من الأحوال، أن يتسرب الخوف إلى نفسها، وهي جاهزة لتتحمل كل الآلام، إنما هذه التهديدات المطلقة من قبل المحقق، لهي

حدث واقع في قانوننا... تباً... اعتراها الخوف على الأقارب... وما أن يحين الصباح، وبعد مرور ليل طويل، مزقت فيه الكثير من محاضر التحقيق، يبدأ كولمان بكتابة محضر، يتضمن احتمال رابع لاتهام يوجه إليها من جديد... وتوقع كورنييفا بكل سرور، وإحساس بالتفوق، والانتصار الروحي... إنها بساطة الغريزة الإنسانية - التي تجعلنا نبرر ونتخلص من هذه الاتهامات الملفقة - بقولنا: إننا ندرك ذلك، بأننا لا نحمي أنفسنا إنما كُرمى أحد ما، نضع بكل سرور مسؤولية هذا الاتهام على عاتقنا[1] وهكذا لا يوجد في الطبيعة، أي تصنيف، يمكن أن يتصف بوجود حدود فاصلة، واضحة، وكذا نحن البشر، قد لا يتاح لنا، أن نفصل بدقة بين النوازع النفسية والفيزيولوجية،... ترى... إلى أي شيء يمكن أن تعزى مثل هذه اللعبة!.

١٠- الوسيلة الصوتية، وهي أن يجلس الإنسان المستجوب على بعد ستة أو ثمانية أمتار، مع إجباره على الكلام بصوت عال، وعليه تكرار هذا مراراً... ولا تعتقد البتة، بأن يكون مثل هذا النوع من التعذيب سهلاً، بخاصة بالنسبة لإنسان خائر القوى. وقد يقوم المحقق بوضع بوقين من الورق المقوى على الأذنين، ويقوم مع محقق آخر بالصراخ العالي: «اعترف أيها السافل»! ويصرع المعتقل، وقد يفقد سمعه، بيد أن هذه الطريقة ليست اقتصادية، إنما أراد المحقق التسلية والترويح عن نفسه بكل بساطة، نتيجة لما يعانيه من رتابة العمل، ذي الطبيعة الواحدة... وهكذا كل يعمل على هواه.

١- ماذا تراها تقول الآن «بعد مرور احد عشر عاماً، وبعد ان اعادوا لي اعتباري وسمحوا لي بقراءة ذاك المحضر الذي وقعته - لقد انتابني شعور بالإقياء، كيف استطعت الفرح ذلك اليوم»، لقد أتيح لي شخصياً، وبعد إعادة اعتباري أن أمر بنفس التجربة، واستمع لتلاوة بعض المقتطفات من محضر التحقيق السابق.

١١- الزكزكة - أيضاً هي إحدى طرق التسلية، واللهو، حيث يربط المعتقل من يديه، ورجليه، ويمسكون بريشة ناعمة، ويدسونها في أنفه، ويتهيج المعتقل، ويشعر وكأن شيئاً ما يثقب دماغه.

١٢- إطفاء السجائر على جسم المعتقل (لقد وردت سابقاً).

١٣- الطريقة الضوئية - تسليط الأضواء الحادة على مدى يوم كامل في الحجرة، أو الزنزانة، المطلية جدرانها باللون الأبيض وتلتهب الجفون، والعيون من الألم الذي لا يطاق، ويستمر تسليط الضوء الشديد عليه حتى أثناء التحقيق (استهلاك لكهرباء الخاضعة في تلك الآونة لقانون التقنين على طلاب المدارس، وربات البيوت).

١٤- الابتكار - مورس على المعتقلة تشيبا تاريوفا، في إحدى الليالي من عام ١٩٣٣ في سجن إدارة أمن الدولة في مدينة خباروفسك أسلوب جديد، حيث كانوا يقتادونها على مدى اثنتي عشرة ساعة، إلى الاستجواب، مكبلة اليدين وراء الظهر، ويخرجونها من الغرفة بسرعة، وصعوداً على الدرج راكضة إلى مكتب التحقيق، ويتركها المرافق، ويخرج، وتقف بين يدي المحقق، دون توجيه أي سؤال، ويمسك بسماعة الهاتف، ويردد تعالوا... خذوا المعتقل من الغرفة!... ويأتون، ومن جديد إلى الحجرة، وما أن تستلقي على السرير الخشبي، وإذا بصوت المفتاح في الباب، يتبعه نداء يقول: تشيبا تاريوفا إلى الاستجواب! اليدان إلى الخلف، وإلى هناك من جديد... خذوا (نزيل الحجرة ١٠٧.. من هنا)!.

نعم هذه وسائط التأثير، الممارسة قبل تنفيذ الاستجواب بوقت طويل.

١٥- تبدأ الطريقة باستخدام الحشر في الصندوق (البوكس)، أو الخزانة، وكما هو معروف، ما أن يعتقل الإنسان، حتى تتولد لديه الرغبة... وحسب الفطرة في نوازعه الداخلية - لأن يستوضح، ويوضح، ويسأل، وينافح - لكن أنّى له ذلك، ففي اللحظة الأولى، يزج في العلبة،

وتسلط عليه الأضواء الساطعة، بينما هو قابع في قفص خشبي ضيق، لا يسمح له بالوقوف، أو القرفصاء، تارة يسوده الظلام، وتارة تغمره الأنوار، والباب يضغط عليه، ويبقى مصروراً لساعات عدة، أو قل لنصف يوم.. أو يوم كامل.. وتمر الساعات الطويلة من المجهول - ويشده اليقين، إلى أنه سيبقى هنا.. داخل القفص مرتجاً عليه مدى الحياة!

كيف لا... وهو... الذي لم يسبق له أن رأى مثل الذي هو فيه في حياته.. لا يستطيع حتى، أن يتوقع بأن يحصل له مثل هذا!.. وتمر الساعات الأولى... وكل شيء يحترق في داخله، بثورة نفسية متوترة عاصفة... والكثير منهم من تخور عزائمهم.

ويصيحون.. معلنين الاستعداد لبدء الاستجواب معهم فوراً!.. ومنهم من يشتعل غضباً وغضباً - (وهذه نتائج مثلى للتخفيف) لأنهم سيحرقون المحقق، ويقذفونه بسيل من الكلام دون حذر، أو ترو - وعندها يصبح من السهل حبك، وتلفيق القضية لهم.

١٦- في حال عدم توفر الصناديق، قد تنفذ الطريقة على الشكل التالي: جلست إلينا ستروتينسكي في ممر ضيق، من ممرات سجن وزارة الداخلية في مدينة نوفاتشيركاسكي، على كرسي صغير دون مسند لمدة ستة أيام، دون أن تتكئ، أو تستند على أي شيء، ولم تنم، ولم تسقط، ولم تقف، استمر هذا ستة أيام... تصوروا... تجريب مثل هذا الجلسة لست ساعات.

إضافة إلى ما سبق، قد يجلس المعتقل على كرسي عال شبيه بكرسي المخابر، إذ لا تطال رجليه الأرض، وتتخدر... ويبقى جالساً بهذه الوضعية ثماني ساعات أو عشر، وعند الاستجواب، يتمنى المعتقل نفسه الجلوس على كرسي عادي... لا.. أنه يجلس على حافة الكرسي، (تقدم... أيضاً.. تقدم إلى الأمام)! وهكذا بحيث لا يقع الكرسي.. ويبدأ الألم ينخر

العجز طوال ساعات التحقيق، دون السماح له، بالحركة، والتململ قط..
وإذا ما رغبت في التصور أكثر مما توصّف ما عليك إلا التجريب.

١٧- قد يستبدل الصندوق، وحسب الشروط المكانية، بحفرة تسمى حفرة الكتبه، وقد طبق مثل هذا الأسلوب في معسكر كوراخوفيتسكي العسكري أثناء الحرب الوطنية العظمى... يدفع المعتقل إلى حفرة عمقها ثلاثة أمتار، وقطرها متران... ويبقى هناك عدة أيام تحت السماء، والمطر، حيث تصبح الحفرة، غرفة النوم، والملحق الصحي. بوقت واحد.. ومع ذلك يقدم له فقط ثلاثون غراماً من الخبز.. ويدلى الماء له بواسطة حبل... فهل... تبقى لديك بعد ذلك القدرة لأن تتصور هذا الوضع.. على الرغم من إنه لم يمض على اعتقالك بضع ساعات، وكل شيء من حولك يَحِزك:

ترى... أهي التعليمات الموحدة، المعممة على أقسام الأمن الخاص في وحدات الجيش الأحمر... أم تراها ظروف التمركز، والتموضع هي التي فرضت تعميم استخدام هذه الطريقة حدث في كتيبة (المشاة الميكانيكية ٣٦) المتمركزة في الصحراء المنغولية، إذ اعتقل المحظوظ كوليا خالخين عام ١٩٤١، دونما توضيح لسبب اعتقاله، وقام (رئيس قسم الأمن الخاص) بتسليمه رفشاً، واقتادوه... ليحفر حفرة، حسب مقاييس القبور (في هذا النوع من الممارسة، تتقاطع فعالية هذه الطريقة مع التأثير النفسي)... وما أن بلغ عمق الحفرة مستوى حزام الرجل... أوعزوا إليه بالتوقف، والجلوس في الحفرة! حتى غار رأسه، ووضعوه تحت الحراسة، وبدا كل شيء، كما وكأنه صمت مطبق، يشابه صمت القبور[1]، حيث قبع المعتقلون في هذا الحيز تحت الشمس، وفي العراء دون لباس يقيهم برد الليالي الصحراوية في

١- يبدو انها طريقة منغولية، ولقد ورد في مجلة «نيفا» العدد الصادر في (١٩١٤/٣/٥) صورة تمثل السجن المنغولي، حيث يجلس كل سجين في صندوق، له فتحة علوية، يطل الراس منها احياناً للطعام، والحراس يتجولون بين الصناديق.

منغوليا، دون ممارسة أيّ إجراءات تعذيب - إذ لا ضرورة لذلك... ولا ضرورة لإضاعة الوقت على مثل هذه الأشياء التافهة! وقدمت لهم الجراية اليومية، من مئة غرام من الخبز. وكأس من الماء... وأمضى فيمن أمضى من المعتقلين، الملازم الهرقلي الملاكم نشولبيينف ذو الأحد عشر عاماً، مدة شهر كامل.. تحت هذه الظروف القاسية... وبعد عشرة أيام من بقائه هناك، عج القمل في جسمه... وبعد مرور... نصف شهر، اقتيد لأول مرة إلى التحقيق!.

١٨- إجبار المتهم بالوقوف على الركب، ولنا عذرنا في ألاّ نسميها جلوساً، إذ إن الصورة تشبيهيه حسبما تعني الكلمة بالحرف الواحد: الوقوف على الركب، دون أن تقع مؤخرته على كعوب رجليه، بحيث يبقى الظهر قويماً، ويستمر في البقاء على هذا الوضع، في الممر، أو في غرفة التحقيق لمدة اثنتي عشرة ساعة، أو ثمانٍ وأربعين ساعة... (يستطيع عندها المحقق الذهاب إلى البيت للراحة، والتسلية ريثما يُؤتى أكل الخطة المنسقة، ... ويبقى المعتقل على ركبتيه... تحت نظر الحراس[1]. ونتساءل... هل طبقت هذه الطريقة على أولئك المعتقلين المحطمين، المنهارين الجاهزين للاستسلام، أم لها الأفضلية في التطبيق على النسوة؟ - فحسبما يروي إيفانوف رازومنك، عن أحد الاحتمالات لتطبيق هذه الطريقة قائلاً: بعد جلوس المعتقل المدعو لوردكيبا نديزي على ركبتيه... جاء المحقق، وبال على وجهه! (وانهارت نفسية الشاب، الذي لم تجدي معه، أيّ طريقة أخرى، أمام هذا الأسلوب الذي ثبت، بأن له التأثير القوي، على الناس الأعزة، ذوي النفوس الشامخة).

١- تبدأ الطفولة عند كل البشر من هذه الوضعية - لكن دونما حراسة منظمة - أليس من الممكن أن يكون من بين هؤلاء الموظفين الكبار، اطفال في هيئة كبار.

١٩- الإجبار على الوقوف، أثناء التحقيق، الذي ينهك المتهم، ويحطم نفسيته، وينفذ هذا الأسلوب بطرق مختلفة، إما أن يسمح له بالجلوس عند التحقيق، ويمنع منه في فترة الانتظار ما بين جلستي التجقيق، واقفاً تحت الحراسة، التي تمنعه من الاستناد على الحائط، حتى إذا ما سقط، أو نام تتم إعادته إلى الحالة الأولى، وقد يستمر الوقوف يوماً كاملاً، بحيث يضعف الإنسان، ويهون، وتخور قواه، ويبدي استعداده لكل شيء.

٢٠- في كل مراحل الوقوف، المستمر لثلاثة، أو أربعة أيام، لا يقدم للموقوف طعام أو شراب... وتؤثر عليه في هذه الحالة طريقة تأثيرية مركبة - من التأثير السيكولوجي والتأثير الفيزيولوجي... وعندها تصبح كل الطرق قابلة للتنفيذ.

٢١- الأرق القسري... لم يحدد زمن التحمل لهذا النوع في القرون الوسطى، ولم يعرف في ذلك الوقت، الحد الأدنى للفترة الزمنية، التي يستطيع فيها الإنسان الحفاظ على شخصيته، فالأرق (قد يصل مع الوقوف والعطش والنور المبهر والتخويف من المجهول - أو أيّ وسائل أخرى)! يصرع العقل وتحطم الإرادة، ويتحول الإنسان إلى تفكيره الأحادي في البقاء. (بقاء الأنا) (أريد النوم - تأليف تشيخوف، على الرغم ممّا يبدو الأرق في التأليف أكثر سهولة، حيث تستطيع الفتاة، أن تستلقي على السرير، ومن فترة لأخرى تعود إلى حالة الوعي، ولو لدقيقة واحدة، التي قد تكون كافية لصحوة الدماغ).

فالإنسان يتصرف في مثل هذه الحالة، إما بغياب جزء من وعيه، أو بغياب وعيه كاملاً، وفي كلتا الحالتين، تصبح شهادته، وإثبات الدليل على ذاته، قليل الإساءة إليه.

(ليتصور الإنسان نفسه في مثل هذه الحالة من التكرار لا سيما فيما إذا كان أجنبياً، لا يفقه ولو كلمة واحدة من اللغة الروسية، وتقدم إليه

ورقة ما، ليوقعها، وهذا ما كان: لقد وقع باخاريتس يوب اشينبرنير اعترافاً في أنه كان يعمل في دوشي كوبك، واكتشف عام ١٩٤٥ خطأ ما ورد في اعترافه علماً بأنه كان في مثل ذلك الوقت المعترف به، يدرس في مدينة ميونيخ اختصاص اللحام الكهربائي).

كان يقال لهم: «إنكم إن لم تكونوا صريحين في الإدلاء بشهادتكم، ستحرمون من النوم» وزيادة في الرقة، واللطافة، كانوا لا يتركونه دون توجيب، يجلسونه على أريكة مريحة، تبعث الراحة، وتزيد الرغبة في النوم (وجواره حرس يلكزه... كلما أغمض عينيه) وهكذا يُصنّع المسكين (بعد أن أمضى يوماً كاملاً في الصندوق)، المسكون بعد هذا التعذيب، بإحساس «يقشعر له بدنه، نتيجة فقدان الدم، وجفاف الأغشية المخاطية العينية، وكأنما، أحد ما يمسك بقطعة حديد متوهجة أمام عينيه، ويتصلب اللسان من العطش، ويشوك فمه، كأنه قنفذ يلهب الفم وخزاً، عند البلع، ويمزق الحنجرة من آثار التشنج القسري.

الأرق - السبيل الأعظم للتعذيب، الذي لا يترك أيّ آثار مرئية قد تعتبر مثاراً للشكوى... وسبباً في إجراء تفتيش مفاجئ[1]... وإذا ما حدث (ها... ألا يسمحون لكم بالنوم؟... لا بأس فا لمكان هنا ليس للاستجمام!.. كما وإن العاملين مثلكم... لم يناموا)!. (لقد شبعوا نوماً في النهار).. وهكذا يمكن القول: إن طريقة الحرمان من النوم، أو الأرق القسري، أصبحت الطريقة المصممة في كافة فروع الجهاز الأمني، وتفوقت على كل الطرق الأخرى، بسبب تنفيذها «دون أيّ رقابة، لاقتصاديتها، وحرم النوم في كافة سجون

١- يا لها من لجان تفتيش مهمة هذا فيما إذا كانت موجودة في الواقع.. حصل وأن دخلت اللجنة إلى الحجرة التي صار فيها سجيناً فيما بعد، وزير الدولة المدعو اياكوموف عام ١٩٥٣، وما أن رآها حتى قهقهة قائلاً.. ما هذه الشعوذة؟.

التحقيق، ولو لدقيقة واحدة، بدءاً من لحظة الاستيقاظ حتى النهاية (وكان يتم في سجن سوخانوفسك، أو في بعض السجون الأخرى، طي الأسرة على الجدران، وفي البعض منها، كان يمنع الاستلقاء، أو حتى إطباق الجفون) وكان الاستجواب الأساسي ينفذ ليلاً، أو طوال الليل، وقضت القاعدة طوعاً، بألا يكون لدى المحقق وقت للنوم مدة خمسة أيام في الأسبوع (إذ جرت العادة، أن ينام هؤلاء ليلتي الأحد، والاثنين، المخصصتين لراحة المحققين).

٢٢- تطويراً لما سبق - أفتتح خط إنتاجي للتحقيق المتواصل، الأمر الذي يعني، بأنه ليس عليك، أن تحرم من النوم ثلاثة أيام، أو أربعة، إنما عليك أن تخضع للاستجواب المتواصل من قبل المحققين المناوبين.

٢٣- صندوق البق - قد مر ذكره سابقاً - وما هو إلا خزانة خانقة معبأة بالمئات بل الألوف منها، ما أن يجلس السجين عارياً، حتى تزحف إليه من الجدران والسقوف، جائعة تنهش بجسده دون رادع، على الرّغم ممّا يبديه من مقاومة، ودفاع في فركها على جلده، والجدران، ويكاد يختنق من تلك الرائحة المنبعثة منها، إلا أنه بعد مرور ساعات عدة، يضعف، ويستسلم لها.

٢٤- الغرف المظلمة - فمهما كانت حالة الحجرات في السجن، فهي مظلمة، ولا يمكن مقارنتها بتلك الموجودة في جنة عدن، حيث يتعرض الإنسان فيها للبرد، والجوع، وتتمايز السجون عن بعضها (فبينما توجد الغرف الساخنة في سجن سوفانوفاك)، تكون في سجن ليفرتوفسكي باردةً جداً، ولا تدفأ إلا الممرات حيث يقبع الحراس الجوالون فيها جيئة وذهاباً، مرتدين الألبسة الدافئة من اللباد، بينما ذاك المعتقل عار من ثيابه الخارجية، ويبقى جالساً بما يستر عورته من لباس داخلي خفيف، يتجمد الدم في عروقه، دونما حركة، داخل مكان ضيق، تطول إقامته فيه أياماً تمتد لثلاثة أو خمسة (استراحة التدفئة تتم في اليوم الثالث)، وهكذا تعتري

المعتقل حالة من اليأس، يعتقد فيها، بأنه قد لا يتحمل هذا الوضع أكثر من عدة ساعات، إلا أن المعجزة في تحمل الإنسان هذه الظروف لمدة خمسة أيام، تعرضه للإصابة بأمراض قد تستمر معه مدى الحياة.

تمارس على هؤلاء، مختلف أنواع الأجواء، من رطوبة أو مياه، حيث تعرضت المدعوة ج. ماشا أثناء اعتقالها بعد الحرب، في سجن تشيرنافيتسكي، إلى تغطيس رجليها في الجليد لمدة ساعتين.. وما عليك إلا الاعتراف، (كان عمرها سبعة عشر ربيعاً ومع شديد الأسف نقول: بأن هذه الأرجل ذاتها، هي التي ستحملها مدى الحياة)!.

٢٥- نحار فيما تسمى الطريقة التالية من حيث تنوعها، إذ يحشر الإنسان وقوفاً في تجويف أسمنتي، دون أن يستطيع طي ركبتيه، أو تحريك يديه، أو حتى رأسه بينما تنقر جسده نقاط من الماء البارد بشكل رتيب (كنقط المزراب في الشتاء)، وتتحدر على جسم ذلك الغافل، سيالات مائية باردة، لمدة أربع وعشرين ساعة. وكان أن دفع المدعو س. أ. تشيباتروف في سجن باروفسكي عام ١٩٣٣، عارياً إلى ذلك التجويف لمدة أربع عشرين ساعة، أغمي عليه في اليوم التالي، وسقط كالميت، إلا إنه عطس في سرير المستوصف، بعد أن لقموه بعضاً من الكحول والقهوة مع التدليك المستمر، ولم يعد إلى رشده، إلا بعد شهر كامل، واستطاع النجاة وصار جاهزاً للاستجواب، (نقول وبتأكيد واضح، دونما افتراض، من أن هذا التجويف، وآلية التنقيط تلك، لم تصمما تكريماً لـ تشيباتريوف فقط، إنما لأجل الجميع كان تعرض في عام ١٩٤٩، لمثل هذه التجربة أحد مواطني مدينة دنيبرابيتروف في ذات الظروف، إنما دون تنقيط (ويجدر التنويه بأنه وبعد مرور ستة عشر عاماً، وجدت الكثير من النقاط المشتركة بين سجني خاباروفسك، ودنيبرابيتروف، ربما كان الكثير من التلاقي في جميع الأشياء على الإطلاق).

٢٦- الجوع - تم التعرض له سابقاً عندما تكلمنا عن الطرق المركبة، وكثيراً ما استخدم في انتزاع الاعتراف، بخاصة بعد دمجه مع المنظومة الاستثمارية الليلية، بغية التأثير المزدوج سيما وأن جراية الطعام في حد ذاتها كانت زهيدة، ولم تتعد ثلاثمئة غرام في اليوم عام ١٩٣٢، بينما بلغت إبان الحرب عام ١٩٤٥ أربعمئة وخمسين غراماً، بيد أن تقديم الجراية للمعتقل نفسها، كان يستخدم لعبة، ومجال مساومة، إمّا أن يمنع تقديمها للمعتقل، ليعاد بعدها إلى الصندوق، أو أن تقدم على أثر ظهور بوادر اللين والاعتراف، وربما كانت من حيث استخدامها أكثر حدة من ممارسة التجويع، إذ كان يعطى للمدعو تشولبيتوف في البداية مئة غرام وبقي على هذه الحالة مدة شهر كامل - وفيما بعد، وعندما انتشل من الحفرة، قدم له المحقق، قصعة من حساء البورش اللذيذ، وراح يقطع أمامه الخبز الأبيض السمين بشكل مائل (ونتساءل، ما الفرق في أن يكون الخبز مقطعاً أم لا - إلا أن تشوليبوف ما زال يصر حتى يومنا هذا، بأن ذاك التقطيع كان مغرياً) - إلا أن هذه التقدمة لم تتم إلا لمرة واحدة، لقد كان هذا الأسلوب تقليداً إقطاعياً قديماً، وعادوا لاستخدام هذه البدعة ذاتها في المجتمع الاشتراكي الجديد. وكثيراً ما نقل لنا الناس، أثناء تحدثهم إلينا، صيغاً من الطرق المركبة، لكنا سنعود للتكلم عنها ثانية، وبخاصة تلك المنفذة على تشيباتاريوف، لأنها أكثر الطرق المركبة إثارة، إذ أجلسوه في غرفة التحقيق لمدة اثنتين وسبعين ساعة، وسمحوا له خلالها بالخروج لقضاء الحاجة فقط، دون أن يقدموا له شيئاً من الطعام، والشراب (على الرغم من وجود دورق مليء بالماء إلى جانبه)، ولم يسمحوا له بالنوم، إذ تواجد في الغرفة بشكل دائم ثلاثة محققين، عملوا على تنظيم ثلاث نوبات متتالية... واحد ينام على الأريكة، والثالث يجوب الغرفة، والآخر يعمل، وما أن يغزو النعاس جفون المسكين، حتى يلكزه أحدهم بضربة مباغتة، وهكذا

يتبادلون الأدوار (قد يعرضون أنفسهم للسجن في حال الفشل). وعلى حين غرّة، يقدمون الغذاء لتشيباتاريوف، من البورش الأوكراني الدسم، وقطعة من الكستليتا مع البطاطا، ودورق كريستالي مملوء بالنبيذ الأحمر، إلا أنه كان يكره حتى ذكر الشراب طوال حياته، ولم يشربه قط، وفي الوقت نفسه لم يجبره المحقق على ذلك (لا يستطيع إجباره، ربما أفسد اللعبة). وبعد الغذاء قالوا له: «هيا وقع الآن على ما اعترفت به أمام المحققين الثلاثة» - أي على ما تم صياغته من الصمت، والسكوت أمام ثلاثة منهم، بينما كان واحد منهم على صمت طوال الوقت، وآخر يمثل دور المحقق المنقذ، وثالث يتمشى. وقرأ تشيباتاريوف في أول صفحة المؤلف: عبارات تقول: بأنه تلقى مهمة التجسس من كل الجنرالات اليابانيين المعروفين، وراح يشطب الصفحات الواحدة تلو الأخرى... وانهالوا عليه ضرباً، وطردوه، أما ذاك الذي كان قد اعتقل معه من مؤسسة الخطوط الحديدية للشرق الأقصى المحاذية للحدود الصينية، المدعو بلاكنين، مر بنفس التجربة، وشرب الخمرة بنشوة غامرة، ووقّع - وأعدم. (لا ريب أن من يتعرض للجوع ثلاثة أيام، لا تكفيه كأس واحدة، وقد يلزمه دورق كامل).

٢٧- فعل الضرب دون آثار - الضرب بالكرابيج المطاطية، وبالمدقات وبالأكياس المعبأة بالرمل، إنه ألم لا يطاق، عندما تكدم العظام وتدق الركب بجزمات المحققين على العظم مباشرة دون أيّ حماية. لقد مورس الضرب على رئيس مجموعة العمل المدعو كاربونيتش - برافين مدة عشرين يوماً متتالياً (ليقول الآن: «بأنه وبعد مرور ثلاثين عاماً، ما زالت عظامي ورأسي يؤلمانني»)، ويتذكر بأنه تعرض لحوالي خمسين طريقة للتعذيب، واليكم بعضاً منها، تضغط الأيدي إلى آلة خاصة - بحيث تنبسط الذراع والأكف على الطاولة - ويقومون بضرب مفاصل الأضلاع بالمساطر - التي تتعرض للكسور... وتنتقى الأماكن

الأكثر حساسية للضرب - وتنزع الأسنان (لقد نزعوا ثمانية أسنان من فك كاربونتيش).

(بينما نجد التعذيب المنفذ على سكرتير اللجنة المناطقية في كارلسكي المدعو كوبيرناتف، المعتقل عام ١٩٤٩، لم يدخل في حساب انتزاع الأسنان العادية، إنما تلك المذهبة (في الأمانة)، وسلموه مقابل ذلك إيصالاً يبين أنها في عهدة المستودع، وأخذوا الذهب ومزقوا الإيصال فيما بعد.

الجميع يعلم، بأن ضربة واحدة من قبضة اليد على الحنجرة، كافية لأن توقف التنفس، دون أن تترك أي أثر، وقد استخدم المقدم سيدروف من قسم الأمن الخاص في مدينة ليفرتوف، هذه الطريقة، بالضرب على خصيتي الرجل المتدليتين (لا شك بأن لاعبي كرة القدم، يدركون حجم هذا الألم)، وقد لا يوجد مشابه له، وربما أدى إلى فقدان الوعي[1].

٢٨- تم اختراع آلة ضغط الأرجل في قسم الأمن الخاص لوزارة الداخلية في مدينة نوفاراسيسك، ولوحظت الأرجل المسلخة عند المعتقلين النوفاراسيسكيين، الموزعين في معسكرات النفي.

٢٩- قميص المجانين.

٣٠- تكسير الفقرات الظهرية (في إدارة الأمن الحكومي - مدينة خاباروفسك عام ١٩٣٢).

٣١- «اللجام» (الخطاف) - طبقت هذه الطريقة في سجن سوخانسك، أما في سجن أرخانلسيك، استخدمت على الشكل التالي: (نفذها المحقق إيفكوف ١٩٤٠).

١- قامت المحكمة الثورية المسكوفية، بمحاكمة الحارس السابق في السجن القيصري باندريسا عام ١٩١٨، وتم كما في المثال السابق استخدام القوة (وضرب احد السجناء السياسيين، بقوة كبيرة أدت إلى تمزيق الحجاب الحاجز). (ن. ف. كريلنكو).

تؤخذ منشفة كبيرة مبللة بالماء، وتوضع على الفم (كاللجام)، وتؤخذ فيما بعد نهاياتها لتتصالب خلف الظهر، وتربط إلى كعب الأرجل، ويلقى المعذب على البطن، بحيث يتقوس ظهره على شكل حلقة، أو قوس ويبقى هكذا دون طعام، أو شراب لمدة يومين وماذا... بعد... هل من الضروري الاستمرار في تعداد مختلف الطرق؟، على الرغم من أنه يمكننا تعداد الكثير منها، وبخاصة تلك الابتكارات المبدعة لأولئك العاطلين عن العمل، المتخمين، فاقدي الإحساس!.

فيا أخي... وبعد كل هذا... لا تدن أولئك، الذين سقطوا في الفخ... وبدوا أمام جلاديهم ضعفاء... ومهروا بتواقيعهم محاضر الاعتراف، والإقرار بالذنب... أكثر مما يجب... وأكثر مما كان..

★★★

نعم... لم يكن من الضروري... استخدام هذا التعذيب القاسي، إذ إن الطرق «السهلة» كافية للحصول على الاعتراف، والإقرار من قبل الغالبية العظمى... وليس من الضروري لأن يؤخذ هذا الحمل بالنواجذ الحديدية، طالما أنه ما زال يطمح لأن يكون بين أحضان وطنه الدافئ، ولا ضرورة لأن نجعله يدخل في حالة تنازع وتجاذب بين قوى غير متكافئة.

لكن... إلى أيّ طريقة، ستعمد مكاتب التحقيق عند تصوير الأخطار الجسام في حيواتنا السابقة، كما وكأنها، مماثلة لتلك الموجودة في مجاهل أفريقيا، على الرغم من أنها انقضت، وأضحت في طي النسيان والتاريخ، ومع العلم بأننا كنا ننظر إليها في ذلك الزمن، بأنها أكثر بساطة وعفوية!.

لنقل افتراضاً... إنك أنت الحرف «أ» ولك صديق «ب» كنتما قد عرفتما بعضكما، وتبادلتما الثقة منذ مدة طويلة، وما أن تقابلتما، حتى بدأتما في تجاذب أطراف الحديث السياسي، وإن كانت الأحداث الصغيرة

منها والكبيرة، دون وجود لأحد ما، ودون أن يتمكن أحد من سماعكما... ولم يبلغ أحدهم عنكما شيئاً:

إنما... ولسبب ما... أنت أيها «أ» تم اختيارك... وانتزعوك من حياتك الخاصة، واقتادوك من أذنك إلى السجن، لأي سبب كان، إذ لا يمكن أن يحصل أي شيء بلا سبب... أي دون أن يكون هناك تقرير عنك. ودون أن تمر في مرحلة التخوف على الأقارب، ودون أن يمارس عليك الأرق القسري، والحرمان من النوم، ودون أن تزج في الزنزانات، قررت أنت... نعم لا أحد غيرك، أن تدل على نفسك، بيدك، إذ لا يمكن أن تسمح لك نفسك حتى بهذا، وتقوم، وتسلم الآخرين، مقابل أي ثمن! واعترفت في أربعة محاضر تحقيق ممهورة بتوقيعين جاء فيها: إنني العدو الألد للنظام السوفييتي، وتقولت بالنكات على الزعيم، وأبديت الشفقة (شفقتي على المرشحين الآخرين (أي المرشح الثاني للرئاسة) للانتخابات، ودلجت حجرة التصويت، بغية شطب /النعم الوحيدة/ ولسبب ما لم يكن في الحجرة أحد، عداك عندما وضعت المذياع على الموجه السادسة عشرة متراً، وحاولت التقاط الإذاعات الغربية، عن طريق السماعات الأذنية ومقابل كل هذا، إليك عشر سنوات، مع أن أضلاعك، ما زالت سليمة، ولم تظهر أيّ دلائل لالتهاب الرئة بعد، ولم تقم بخيانة أحد، واعتقدت بنفسك، بأنك قد تملقت بشكل ذكي... وأصبحت تتحدث في قراره نفسك، وأنت في حجرة السجن وتمنيها باقتراب التحقيق من النهاية.

إنما... يا للعنة... ولحظك الكريم... يبدأ المحقق، بتأن وحبٍ متقطع النظير... بإملاء التحقيق الخامس (س ٥) سؤال هل كنت صديقاً، للمدعو «ب»؟... نعم... وغالباً ما تحدثتما بالسياسة؟... لا... لا... فأنا لا أثق به... لكنكم غالباً ما كنتما تتقابلان؟ لا.. ليس كثيراً! كيف ليس بالكثير؟ فحسب شهادة الجيران... كان عندك في الشهر الماضي... بأي تاريخ يا ترى...

أي تاريخ.. كان يا ترى عندك... ربما كان في... وأثناء هذا لو حظ إنكم كالعادة لم تتململوا... ولم تصدروا أيّ ضجة... وتكلمتم بصوت هادئ غير مسموع... إلى من كان في الممر (أخ... اقتلوا الأصدقاء! وأشربوا الكأس! ونوحوا بصوت عال! - فهذا يجعل منكم أكثر فائدة)...

إذن هكذا؟ - كذلك أنت كنت عنده... وتبادلتما الحديث بالهاتف فيما بعد... وقلتما... يا لها من أمسية غنية قضيناها معاً - وبعد هذا رآك بعضهم عند التقاطع - كنت تقف وإياه لمدة نصف ساعة في جو بارد، وبدا وجهك عابساً. مما يدل على عدم الرضى... بالمناسبة.. قد التقطت الصور لكما - أثناء ذلك اللقاء (تقنية العملاء... أصدقائي... تقنية العملاء) وهكذا - عن أي شيء تحدثتما في ذلك اللقاء؟

عن أي شيء؟... يا له من سؤال وجيه، إنها الفكرة الأولى - لا بد من أنك نسيت الحديث الأول... وكذلك الثاني... والثالث... وحتى نسيت تلك الأمسية الغبية؟ - عند تقاطع الطرق!... ونسيت الأحاديث مع «ب». وكل الأحاديث مع «ك»... لا... لا يمكن.. عليك أن تفكر، وتتذكر «نسيت» - لا هذا ليس مخرجاً... لا يمكن أن تصمد عند هذا... ففي حمأة الاضطراب من الاعتقال، والانقباض من الخوف، والإرهاق من الأرق، والجوع - كيف للعقل، أن يتحفز ليبتكر شيئاً قريباً من التصديق، قد يستطيع به، تضليل المحقق.

إيه... عن أي شيء تكلمنا إذاً... حسناً عن الهوكي (إن مثل هذا الحديث، يتم عادة بين الأصدقاء الأكثر هدوءاً)!... ربما عن النساء... أو لعله عن العلم، قد يكون أفضل مخرج -... لا... عندها قد يفضي الحديث، إلى أن العلم - لا... لا ضرورة لأن أذهب بعيداً... لا... الأفضل أن أقول عن الهوكي... بعدما أصبح كل شيء يخص العلم سرياً في الوقت الحالي... وربما يشملني عندها قانون - إفشاء الأسرار)، وربما كنتما تتحدثان عن

الاعتقالات الجارية في المدينة، أو عن الكولخوزات (إن هذا أكثر سوءاً... إذ لا يمكن لأحد أن يتكلم عن هذه الكولخوزات، كلاماً جيداً)! أو ربما عن انخفاض الإنتاجية عن الحد المطلوب؟... هكذا إذاً... لهذا السبب كنت عابس الوجه على مدار نصف ساعة، من اللقاء عند مفترق الطرق - إذاً تحدثتما عن هذا؟.

من المحتمل أن يكون «ب» قيد الاعتقال (فالمحقق يؤكد لك بأنه - قدم الأدلة ضدك... وسيأتون به لمقابلتي وجهاً لوجه)، وربما يكون الآن جالساً في البيت مطمئناً... وقد يحضرونه عند بدء الاستجواب.. وتتم المقارنة بما يقوله عن!، لماذا كنتما عابسين أثناء اللقاء... عند مفترق الطرق؟.

لقد أدركت الآن، بأن كل شيء يأتي في الحياة متأخراً... وستحدث المفارقات في كل الحالات، ربما كان يجب عليكما، أن تتفقا على ما تقولانه من كلام... وتتذكر هذا جيداً... عن أي شيء.. تكلمتا هذا اليوم... وذلك اليوم! عندها فقط، يتطابق إثباتكما في أي ظرف استجوابي طارئ، أو تحقيق مفاجئ. إلا أنكما لم تتفقا، وفي كل الأحوال... أنىّ لك أن تتوقع مثل هذه الأشياء المجهولة.

إذاً... يجب القول.. إننا اتفقنا أن نذهب إلى صيد السمك، لكن ذلك الـ «ب» قد يقول، بأننا لم نتفق على الذهاب إلى صيد السمك... إنما قد يقول على الذهاب إلى الدراسة المسائية.. الأمر الذي يعقد التحقيق، ويزيده صعوبة وتقوم أنت.. بشد هذه العقدة، ... إذاً عن ماذا... عن أي شيء.. عن أي شيء.

وتجذب الأفكار!... نافعة كانت أم ضارة!.. يجب القول، كيفما أمكن، وبحيث يكون القول قريباً من الذي كان بالحقيقة (من البديهي، أن يتم تلطيف الأشياء الحادة... وتترك الخطرة منها) - ألا يقول البعض... بأنه يجب أن يكون الكذب دائماً، قريباً من الحقيقة، ... لربما يقول «ب» أي شيء قريب من هذا... وبالتالي قد تتطابق الإثباتات في شيء ما، وينفكون عنك.

لا بد من أنكم ستتذكرون... ولسنوات طويلة، أن هذه الفكرة لم تكن فكرة سليمة، وكان من الأفضل لك.. أن تلعب دور الغبي، الذي لا مثيل له في الغباء... لا أتذكر أي يوم في حياتي... حتى ولو قتلتموني... لكنكم قد تتعرضون للحرمان من النوم لمدة ثلاثة أيام، وربما.. بالكاد قد تكون لكم القوة، لمتابعة طريقتكم الخاصة، مع عدم ظهور أي تعبير في ملامح الوجه. فهذا ليس هو بزمن التفكير - حتى ولو لدقيقة واحدة.. إذ سيظهر أمامك محققان، بدلاً من محقق واحد (إنهم يحبون بعضهم، ويتبادلون الزيارات، والضيافة)، ويتشبثا بكم، عن أي شيء، ... عن أي شيء.. عن أي شيء.

لو قلتم... إننا تحدثنا عن الكولخوز (ليس كل شيء الآن كما يجب، وربما سيكون كذلك قريباً)، إذاً تحدثتما عن انخفاض الإنتاج... ماذا قلتما حرفياً؟

أسررتم يا ترى بانخفاض الإنتاج؟... اللعنة... إنه قول.. لا يتقوله الناس العاديون... وها... ولمرة ثانية.. لا يبدو هذا القول قريباً من الحقيقة...

فكي لا يكون كل شيء قريباً من الحقيقة.. لا بد من القول.. لقد شكونا قليلاً من أن الإنتاج... كان متدنياً، عما كان متوقعاً.

لكن المحقق.. في تلك الآونة التي كنت فيها مرتبكاً.. كان يقوم بكتابة محضر التحقيق لوحدة.. ويترجمه بلغته.. في تلك المقابلة... افترينا على سياسة الحزب، والحكومة في مجال دفع الراتب.

وقد يأتي زمن ما في المستقبل... ويقابلك هذا الـ «ب»... آخ... يا للمغفل!... لو أني قلت اتفقنا على صيد السمك.

ولشد ما كانت رغبتكم، في أن تكونوا أكثر مكراً.. وذكاءً من محققكم! فلديكم أفكار حاذقة، وسريعة! ولا بد من أنكم مثقفون... إلا أنكم زدتم الأمر تعقيداً.

في كتاب «الجريمة والعقاب»، يقدم برفوري بيتروفيتش ملاحظةً انتهازيةً دقيقةً وغريبةً، لا يستطيع كشفها، إلا ذاك، الذي مرت على رأسه ألاعيب القط والفأر... ما دهاكم أيها المثقفون... لماذا يجب علي، أن ألفق أسطورتي بيدي؟ - فلتحولوها أنتم... وكما شئتم، وأعطونيها جاهزة... أجل هذه هي الحقيقة. فالإنسان المثقف، لا يستطيع إعطاء الإجابة بجمل بديعة مفككة... كما فعل بطل تشيخوف (في الجرم المتعمد)، لكنه حاول أن يحبك القصة الأسطورية، التي أدين بها.. كما شاء كذباً... إنما بشكل مترابط..

أما المحقق اللاحم - التقط من فوره عدم الترابط هذا، بمجرد سماعه لعبارة، أو عبارتين... ولديه الخبرة - لأن يثمن كل عبارة... أما نحن... لسنا لكل هذا جاهزين!.

يعلموننا، ويثقفوننا منذ الصغر - على التخصص في العمل، وعلى الواجبات الملقاة على عاتق المواطن، وعلى الانخراط في الخدمة العسكرية، والحفاظ على أجسادنا قوية.. وعلى التصرف المناسب، وقل حتى.. على إدراك، وتفهم اللباقة (ليس منها الكثير)، ولكن لم يعلمونا على التعليم، ولا على التربية، ولا على الخبرة في الاطلاع، ولم نوجه وجهة التجربة الحياتية الرائعة: لا على الاعتقال دون سبب؛ ولا على كيفية التحقيق في كل شيء. وتصدر الروايات، والأغاني، والأفلام (لقد شرب المؤلف نفسه، كأساً من الغولاغ)، التي تصور لنا أولئك، الذين يمكن أن تقابلهم في مكاتب التحقيق بأنهم فرسان الحقيقة، ومحبو الإنسانية، وآباء الوطنية - ويلقون لنا المحاضرات عن كل شيء - حتى أنهم يسوقوننا إليها سوقاً - بينما لم يلق أحدهم محاضرة أبداً، عن الأفكار الحقيقية الشاملة، لمواد التشريع الجنائي لا بل حتى إن هذه التشريعات لا تتوفر في المكتبات، ولا تباع في الأكشاك، ولا تقع قط، بيد الشباب المسلوب.

إنها كالحكاية الشعبية. كان يا مكان.. خلف ثلاثة بحور... إن المتهم يحق له استقدام محامٍ، الأمر الذي يعني، بأن يكون إلى جانبه في اللحظات الحرجة عند الدفاع محامٍ ذو عقل نير، يملك المعرفة الكاملة بالقوانين.

إن المبدأ الحقيقي لاستجوابنا، يكمن في حرمان المتهم، حتى من معرفة القانون.

تُعلن مذكرة الادّعاء... (للعلم... «ستوقعون عليها» - «لكني لا أوافق» - «وقعوا» - «لكني لست مذنباً في شيء»!... إنك متهم، بناء على المادة ٥٨-١٠ القسم الثاني، والمادة ٥٨-١١ من قانون الجنايات لجمهورية روسيا الاتحادية الفيدرالية.. وقع الآن - لكن ماذا تعني هذه المواد؟... أعطونيها... لأقرأها: - (لا وجود لها عندي لكنك تستطيع طلبها من رئيس الفرع! - كذلك ليس لديه.. وقع! أتوسل إليكم، أتسمحون لي برؤيتها... والفرجة عليها! - لا يسمح لك حتى أن تراها. وعموماً.. كتبت المواد... ليس لأجلكم... إنما من أجلنا نحن، وفي الواقع لا تلزمكم... إلا أنني سأعمد إلى شرحها لكم... إن ما توقع عليه الآن، لا يعني بالضرورة، إنك موافق عليه، إنما يعني بأنك اطلعت عليه، وقرأته، ويعني بأن مذكرة الادّعاء، قد تُليت عليك... وأمامك وقد تلمح، وأنت توقع هذه الوريقات، عدة حروف كبيرة (ق. م. ج.)، وعليك أن تكون حذراً، لأنه هناك فارق كبير بين الحروف (ق م ج) والحرفان (ق ج) - وفهمك لهذا يتعلق باللحظة المزاجية عند المحقق، إما أن يشرح لك: قانون المرافعات الجنائية (ق م ج)... كيف هذا - هذا يعني بأنه ليس قانوناً واحداً، سيبقى مجهولاً بالنسبة لك، إنما قد يكونا اثنين كاملين، تمارس عليكم - بموجبهما عمليات الاضطهاد، والتنكيل.

مرت منذ تلك اللحظة، عشر سنوات، وخمسة عشر عاماً... ونمت الأعشاب الكثيفة على مقبرة شبابي، وأمضيت مدة الحكم، وزمن النفي

في المعسكرات، ولم أعثر ولا في أي مكان ما - لا في أقسام «كتب التربية - والتثقيف الأدبي» ولا في مكتبات المعسكر، ولا في المكتبات الإقليمية، ولا في المدن المتوسطة - ولم أستطع حتى رؤيته بعيني، وألمسه بيدي، ولم أتمكن من شرائه، أو الحصول عليه، أو قل حتى، أن أسأل. هل يوجد عندكم قانون الجنايات العامة - السوفييتي للحقوق - سألت المئات من معارفي المعتقلين، والمحققين القدماء، والقضاة... ولم يره أحد ما، حتى أولئك نزلاء المنافي، والمعسكرات. لم يره أحد بعينه، ولم يلمسه أحد بيديه (لأن المطلعين على أجواء توجيه التهم الظنية، يدركون سبب منع، طلب هذا التشريع الحقوقي في المحاكم الشعبية، أو في المحاكم التابعة للأقاليم والمناطق، لقد كان مجرد اهتمامكم بهذا التشريع، ظاهرة خارقة، فإما أن تكون قد نويت التحضير لجريمة ما، أو أنك تتبع آثار شيء ما).

لم تتح لي رؤية هذين القانونين، إلا بعد أن بدأت الأيام الأخيرة من حياتهما، التي استمرت خمسة وثلاثين عاماً حتى انتهاء مفعولهما، وباتت الضرورة تستدعي تبديلهما، بقانونين آخرين جديدين - عندها فقط، تمكنت من رؤية هذين الشقيقين (ق. ج) القانون الجنائي، و (ق. م. ج) قانون المرافعات الجنائية اللذين كانا مرميين في أكشاك المترو في مدينة موسكو، دون ثمن (لا بد من أنهم قرروا إلغاءهما، بعد ما بات النفع منهما غير مجد).

وأمسك الآن هذين القانونيين، بحنان. ورقة فائقتين، فمثلاً تضمن قانون المرافعات الجنائية (ق م ج) التالي:

- بموجب المادة ١٣٦ ي، لا يملك المحقق حق التطلع في الحصول على الأدلة، أو الاعترافات من المتهم، باستخدام القوة، والتهديد (يا للخجل... ماذا أرى).

- بموجب مادة ١١١ ي، المحقق ملزم، بإيضاح الملابسات، والمبررات لتهمة المتهم، التي من شأنها، تخفيف الجرم.

(«لكن... أنا من أولئك الذين ساهموا في إقامة الحكم السوفييتي في أكتوبر، أنا من أولئك الأوائل، الذين وجهوا نيرانهم إلى صدور الكولاك الإقطاعي!... أنا من قام بنزع الملكيات الكبيرة...! أنا الذي منحت الاقتصاد الحكومي عشرة ملايين روبل...! أنا الذي شاركت في الحرب الأخيرة، وجرحت مرتين...! ومنحت مقابل ذلك، الأوسمة ثلاث مرات»).

«إننا لا نحاكمكم من أجل هذا! - ويكشف التاريخ عن أنياب المحقق - إن ما قمتم به، كان جيداً دون شك - إنما لا يتعلق بهذه القضية التي بين أيدينا).

- بموجب المادة ١٣٩، أ. ي. للمتهم الحق، في أن يكتب إثباتاته بخطه الخاص، وكذلك له الحق، في طلب التعديل، والتصحيح للمحضر، الذي يقوم المحقق بكتابته.

(أخ... لو أني علمت هذا في وقته!... عفواً... لو أن هذا كان قيد التطبيق العملي آنذاك!... لكن كيف لنا... أن نقوم باسترحام المحقق دون طائل، ونطلب منه، أن يدون «ذاك التلفيق البشع، الذي افتريته على نفسي» بدلاً من تلك «التقولات الخاطئة التي قلتها»، وتطلب منه، أن يدون عبارة «مستودعنا السري للسلاح» بدلاً من «سكيني الفلندي الصدئ».

آه... لو أنهم علّموا المتهم منذ الأساس، علم السجون، ... آه لو أنهم قاموا منذ البداية، بمتابعة جمع المعلومات، ومن ثم، استدعت الضرورة لأن يقوموا بالتحقيق بشكل عملي... ففي عام ١٩٤٨، لم تجر أيّ تحقيقات مع أولئك الذين تم إعادتهم إلى السجن، إذ لا جدوى، من إجراء مثل هذا التحقيق، لكن الأمر قد يختلف بالنسبة لأولئك، المستجدين الأغرار، الذين لا تتوفر التجربة لديهم، ولا يملكون المعرفة... ولا يوجد حتى أحد ما يستشيرونه، أو يستوضحون منه... ما العمل؟!.

عزل المتهم - أجل هذه هي أهم الشروط، لتحقيق النجاح الكامل في الاستجواب الكاذب! يضغط الجهاز بكامل ثقله على هذه الإرادة الإنسانية المتحرجة، في لحظة الاعتقال، ومروراً بممارسة الضربة الأولى من إجراءات التحقيق، ويصبح المتهم في عزلة تامة، إن كان في الحجرة، أو في الممر أو على الدرج، أو في المكتب، إذ لا يسمح له، بالتماحك مع المعتقلين الآخرين، لا بالابتسامة، ولا بالنظرة، ولا يسمح له في أن يستمد تعاطف الآخرين معه، إن كان بتقديم المساعدة، أو بإزداء النصح، عدا عن أن الجهاز لا يتوانى عن القيام بأي فعل، بدءاً من تصوير المستقبل للمتهم، أسود قاتماً، وتشويه صورة الحاضر في عينيه، وانتزاع الإثباتات من الأهل، والأصدقاء المنتمين إليه، وتصويرهم كأدوات تقدم الأدلة والبراهين ضده وتتضاعف الوسائل، في ممارسة الإرهاب، والتنكيل عليه، وعلى أقاربه، ويحرمون من كل الحقوق، حتى بما فيها طلبات الاسترحام، والرفق بتخفيف الحكم، وتخفيف فعالية تطبيق أنظمة المعسكر عليه (لم تكن مثل هذه العلاقات قائمة في الأصل) ويحاول التحقيق باستجرار الكثير من المعلومات غير المطابقة للحقيقة بشيء، ويعمد إلى إرباك هؤلاء الأقرباء، للحصول على قدر كبير من الافتراءات (من هؤلاء الذين تحطمت نفوسهم، وأُثبطت عزائمهم، حتى بت تراهم يجلسون، لسماع المحضر التحقيقي المتلى على سماعهم وقد خارت قواهم، وهم يستجمعون ما بقي منها، فيما إذا وجُدت، ليوقعوا، ويتخلصوا بسرعة من هذا الواقع الكئيب) - بعدها فقط... يتحررون من العزلة، وينقلون إلى الحجرة (القاووش) الكبير، ليكتشفوا، إنما متأخرين، مدى الخيبة، والخطأ الذي ارتكبوه.

نعم... من يستطيع ألاّ يخطئ في مثل هذه العزلة القاتلة - وإن استطاع فلا بد، من ألا يخطئ أبداً.

كما أسلفنا «فإنه كي تتضاعف عملية خلق الشروط المثالية للتحقيق، كان لا بد من أن يكون المتهم وحيداً، إلا أن أحوالاً طارئة كثيرة، حدثت في عام ١٩٣٧ (عام ٩٤٥) وامتلأت السجون... وبات تطبيق هذا المبدأ المثالي في عزل المتهمين في حكم المستحيل إذ ما أن يقدم المتهم الجديد، حتى يصبح من ساكني الحجرات الكبيرة (القواويش) على الرغم مما فيه من خلل وعيوب، لكنه في الوقت نفسه، له حسناته، إذ إن حشد هذه الأعداد الكبيرة في الحجرات الواسعة، لم تأت بديلاً، للاستغناء عن العزل في الغرف المظلمة، أو في الصناديق فحسب، إنما اعتبر، وكأنه طريقة تعذيب أولية غالية الثمن، لا سيما إن طال زمن هذا الحشر لعدة أيام، أو أسابيع عديدة - دون ممارسة أي تعنيف من المحققين، - حيث كان المعتقلون أنفسهم، يعذبون بعضهم بعضاً، ويتدافعون في الحجرة للحصول على قطعة أرض صغيرة، حتى إذا ما حاول أحدهم التنقل داخل الحجرة، كان عليه أن يمشي على الآخرين، ولم يتح لهم حتى التململ كي يجلس الواحد إلى جانب الآخر، بل كانوا يجلسون على أرجل بعضهم بعضاً، ... وقد سميت هذه الحجرات في سجن كيشنوفسكي (بالحجرات التمهيدية للمعتقلين) (ح. ت. م) وزجوا في الواحدة منها عام ١٩٤٥ بحوالي ثمانية عشر شخصاً، بينما في سجن لوكامنسك[1] بخمسة عشر شخصاً عام ١٩٣٧، ويقول المدعو إيفانوف رومانينكا، إنه عام ١٩٣٨، حشر ورفاقه المئة وأربعون في غرفة مخصصة لخمسة عشر شخصاً، ووصف العيش في تلك الحجرات، بأنه لم يكن في الغرفة إلا مكان واحد لقضاء الحاجة، وكان مشغولاً بشكل دائم، ولم

١- استمر التحقيق معهم ثمانية عشر شهراً (كان من بين المعتقلين نيبس كليم فورشيلوف جلس في هذه الظروف الحرجة، ولنفس المدة)- هكذا روى الشباب (ترى هل استطاع بعد ذلك ان يجلس)!

يتمكن الإنسان من الخروج إلا لمرة واحدة في اليوم، وقد يكون في بعض الأحيان أثناء فترة الخروج للتنفس مساء. ويضيف واصفاً غرف النظارة في سجن لوبيانكا (حجرات الكلاب)، بأنها ضيقة، خصص فيها المتر المربع، لجلوس ثلاثة أشخاص يقيمون فيها لعدة أسابيع (تصوروا هذا)[1] دون أن يوجد في حجرات الكلاب هذه، أيّ منافذ، أو وسائط تهوية. وكانت ترتفع درجة الحرارة حتى ٤٥° درجة مئوية، نتيجة للحرارة المنبعثة من الأجسام، ومن التنفس الصادر عن هذه الأرواح البشرية المكدسة، فوق بعضها عارية إلا من شيء يستر العورة (فرشوا ألبستهم تحتهم)، والتصقت الأجسام في هذه العلب، وانساح العرق منها، وانتشرت الأمراض الجلدية (الأكزما)، وطال بقاؤهم على هذه الحالة أسابيع عديدة، محرومين من الهواء، والماء (عدا الشاي الصباحي، ونقيع بعض الحبوب، البالاندا).

كان يترك بعض المساجين، الذين تم اعتقالهم مؤخراً (بعد أن أنهوا رحلة العزل في الحمامات، والصناديق) على الأدراج، وفي الممرات أياماً، وأسابيع، ريثما تفرغ بعض الحجرات، ويغادر ساكنوها إلى مكان ما، ويصف المدعو ن. ف. المسجون عام ١٩٣١ في هذا المكان مدة سبعة أعوام، قائلاً: تعج الأمكنة بالمساجين، وتشغل المساحات المتبقية تحت الأسرة الخشبية، ويفترش البعض الأرض الإسفلتية. وعاد هذا السجين فيما بعد ليقضي سبعة أعوام أخرى عام ١٩٤٥ في سجن بوتيركا - وتكررت الحالة نفسها - قد تلقى المؤلف مؤخراً شهادة موثقة من المدعو. ك. ب. يصف فيها السجن نفسه عام ١٩١٨: كان سجن بوتيركا ممتلئاً

١- حشر في سجن فلاديميرسكي (في قبو) عام ١٩٤٨، وفي حجرة لا تتعدى مساحتها تسعة امتار مربعة، ثلاثون شخصاً (روى هذا س. ياتوف). اما في سجن كراسنا - دار عام ١٩٣٧، تم حشر اربعة اشخاص على متر مربع واحد.

في شهر تشرين الأول من ذلك العام (أي الشهر الثاني لبداية الإرهاب الأحمر)، وكان مزدحماً، لدرجة، أنهم خصصوا غرفة المغاسل للنساء، ودكوا فيها سبعين شخصاً.

ماذا يمكننا القول عن ذلك الزمن، حتى أماكن قضاء الحاجة غيرت فضلاتها (لا بل على العكس من ذلك، زالت الفوارق ما بين تلك الفضلات، وحامليها، وأصبحت الحجرات في بعض سجون سيبيريا خالية من أماكن قضاء الحاجة، إذ لا ضرورة لذلك طالما إن الحجرة نفسها حققت الغرض) وإذا ما أصبح كل أربعة سجناء يأكلون من قصعة واحدة في ذلك الوقت، وإذا كان كل يدوس على أرجل غيره، عندما يلحون في طلب أي منهم للتحقيق، أو عندما يدفع بفائض جديد من السجناء منهوكي القوى من الحرمان من النوم. لقد أصبحت هذه طريقة من الطرق، التي يهدد بها المحققون أولئك المساكين، الذين قضوا شهوراً عدة في هذا الوضع، دون استدعاء للتحقيق مرة واحدة، وصاروا في حالة يفضلون فيها الموت، أو النفي إلى أي معسكر خلاصاً من هذه الحالة، التي يتلوون فيها... أليس هذا كله... قد غير من قيمة النظرية للعزل؟...

وصار المعتقل في خضم هذا الخليط (الشورباء) البشري، صامتاً، دون أن يملك القدرة على البوح بسره إلى أحد ما، أو دون أن يتمكن من إزداء النصح لأحد، بعدما بات متيقناً، مؤمناً، بأن المحقق يعني ما يقول، وإن كان ما يتلفظ به من تهديد، ووعيد، أثناء جلسات الاستجواب، ما هو إلا فعل يراه بعينيه، منفذٌ على هؤلاء الذين يجلسون أمامه، وعليه.

لو أنك قابلت، أياً من المعتقلين لأعلمك: كيف أنهم كانوا يحقنون المعتقل بحقنة مالحة في الحنجرة، ويترك بعدها للعذاب في صندوق، يعاني من سكرات العطش (على غرار ما كان مع كاربونيتش) أو أن يقوم ثلاثة، بفرك ظهر المعتقل حتى ينزّ الدم، ويصبون عليه التربنتين. وكثيراً

ما نفذت هذه الطريقة، وغيرها على قائد المجموعة المدعو، رودلف بيتوف، وقاموا بحقن الإبر تحت الأظافر بالماء حتى تنتفخ - وبعدها طلبوا منه التوقيع على محضر التحقيق، الذي ورد فيه، أن المذكور، أراد تنفيذ الهجوم بقوام مجموعة من الدبابات أثناء العرض العسكري بمناسبة الاحتفالات بذكرى ثورة أكتوبر، على أعضاء الحكومة[1] أما ما تعرض له الكسندر الذي كان يشغل منصب رئيس فرع الفنون التابع (للجمعية الثقافية الروسية للعلاقات الخارجية) من تكسير للفقرات الظهرية أدت إلى أن يتهدج في مشيته يميناً ويساراً، دون أن يستطيع التحكم باحتجاز الدموع من مقلتيه، عندما يتصور حجم تلك الضربات المنفذة عليه عام ١٩٤٨، مما يؤكد بشكل قاطعٍ واضحٍ، وبيّنٍ لدرجة لا يستطيع فيها إيكوموف نكرانها.

إيكوموف هذا... وزير دولة، لا تشمئز نفسه قط، من ممارسة هذه الأعمال السوداء القذرة، (من الطبيعي أن يكون سومورف في الطليعة)، ولم يتوانَ، من أن يمسك بيديه العصا المطاطية، والأنكى أن معاونه (يومين) كان يمارس الضرب بقوة، وبشهية منقطعة النظير، في مكتب رئيس المحققين التابع لسجن سوفانوفسك التي كانت تغطي جدرانه طبقة من خشب الجوز، وتتدلى الستائر الحريرية على النوافذ والأبواب، وفرشت الأرض بالسجاد الفارسي الفاخر المغطى بقماش مبقع، بدت عليه آثار دماء، المعذبين، حفاظاً على ألا يتلوث ذاك الفرش الجميل، بهذه النجاسات الدموية، التي كانت تقفز من جلود المتهمين، تحت سياط

١- لقد قاد مجموعة الدبابات هذه إلى العرض بالفعل، لكن لسبب ما لم تتحرك، وكل هذا لم يحسب له أي حساب، أو يؤخذ بالحسبان ما هي الأسباب المانعة، إنما كان المهم بأنه تعرض للتعذيب، وحكم عليه بعدها بعشر سنوات، حتى أن الجندرما نفسها لم تصدق بأن تبلغ العقوبة هذا الحد.

إيكوموف، ومعاونه يومين، اللذين كانا يتبادلان الضرب ليس مع الحارس أو الجلاد، بل مع ضابط برتبة عقيد «هكذا إذن - يقول يومين بكل لباقة وهو يربت بكفيه على العصا المطاطية ذات القطر (أربعة سنتيمترات) - تجربة الحرمان من النوم تحملوها بكل شرف (استطاع الكسندر دولكان أن يتحمل مدة شهر دون نوم، وأتقن فن النوم واقفاً) - فلنجرب الآن السوط، الذي لا يمكن لك أن تتحمله أكثر من جلستين، أوقل ثلاثة... انزل السروال، واستلق على الأرض)!. ويجلس العقيد على ظهر المعذب، ودولكان هذا يحاول أن يقوم بعد الضربات، إلا أنه لم يجرب الضرب على الأعصاب الوركية قط، لا سيما عندما تتهال العصا على إليته، التي فقدت تكورها نتيجة الجوع، يحس بالألم ليس من مكان اللسعة إنما في الرأس... وبعد أول ضربة سوط، يجن جنونه من الألم، ويتشبث بأظافره بغطاء السجادة القماشي، ويتابع يومين الضرب محاولاً إصابة المكان المحدد، والعقيد يضغط بجثته - إنه لعمل متقن يناسب هذه الرتب التي تتسع لثلاث نجوم، تقوم بمساعدة يومين القوي المتين! (ما إن تنتهي الجلسة الأولى... ولا يقوى المعذب على المشي، ولا يقومون مع ذلك بنقله، بل يقذفونه بأرجلهم على أرض الغرفة، وتتورم إليته، لدرجة لا يستطيع فيها ارتداء السروال بعد أن اختفت منها الدمامل، والحبيبات الحمراء الصغيرة، واندملت من جراء الضرب، ويتظاهر دولكان، بأنه استطاع تحمل الجلسة الأولى، لكن ما إن يقعد في تواليت حمام) زنزانته حتى يزحمه الزحار الوحشي ويعمل عمله بينما كان يسمع القهقهات..! لم يبق أمامه سوى جلسة ثانية، أو ثالثة... ليتم سلخ جلده كاملاً.. لم يستطع يومين السيطرة على حنقه، ويعتزم ضربه على بطنه، ويخترق السوط الأحشاء، وينفتق البطن، وتندلق الأمعاء، ويحملون المسكين المعذب إلى مستوصف سجن بوتيركا، مع التهاب حاد

في الصفاق، ويوقف التعذيب مؤقتاً ريثما يصار إلى إجباره على الفعلة الدنيئة إياها).

هكذا... يستطيعون جرجرتك! فبعد هذه التقدمة من البساطة، واللطافة الأبوية، يقوم المحقق كيشنوفسكي (دانيلوف) بضرب الأب القسيس فيكتور شيبا فالينكوف، بمسعر الموقدة على رأسه، ويمسك بجديلته، ويجره (نعم... هكذا يجر القساوسة... أما الدنياويون فيجرون من لحام الطويلة... ويقذفون من زاوية لزاوية في طول المكتب وعرضه... إلا أنه توجد طريقة مشابهة، وأكثر طرافة مما ذكر. لقد اعتقل كل من الجندي الفلندي ريكاردو داخيل من قوات الحرس الأحمر، وقائد السرية سيدني ليل، أثناء قمع انتفاضة كرانشتات، وقاموا برفعهما فوق الأرض بواسطة مخطاف، يمسك بشوارب أحدهما الطويلة، ويُعلق المعتقل الآخر بجسد الأول، وبقيا على هذه الحال مدة عشر دقائق، معلقين، ورِجلا الآخر مرتفعة فوق الأرض).

إنما الشيء الأكثر بشاعة من هذا كله، هو أن تؤمر بنزع الثياب الداخلية، وتتمدد على الأرض، بحيث يكون ظهرك للأسفل، مع فتح الرجلين، ليجلس عليهما مساعدان (من صف الضباط الأكارم)، ويمسكان بيديك بينما المحقق يقف بين الرجلين المنفردتين - لا تتعجل لا يشمئزون من ذلك أبداً، حتى بما فيهم النساء المحققات - ويضغط بمقدمة الحذاء (أو الجزمة) بكل تأن، وبطء على تينك اللتين جعلتا منك رجلاً، ويضاعف الضغط شيئاً فشيئاً، مع تكرار الأسئلة، والتحديق في العينين، مع تقديم المقترحات، التي تجعل منك خائناً، ويستمر الضغط حتى، إنه لم يبق أمامك سوى خمس عشرة ثانية، لتصرخ وبكل قوتك، قائلاً: سأقر، سأعترف بكل شيء تريدونه... وها أنت قد بت جاهزاً لأن تزج بأولئك العشرين

حسبما طلبوا منك، وجاهزاً لأن تفتري على نفسك، التي كنت تعتبرها أقدس مقدساتك.

لا جدوى... فالقاضي بالنسبة إليك.. رب، لا يمت لأبناء جلدتك أبداً.

- نعم... لا مناص! يجب الإقرار بكل شيء - هكذا يهمس في إذنك المعتقلون جلساء حجرتك، كأنهم دجاجات رابخة.

- المعادلة بسيطة ألا وهي... الحفاظ على الصحة! - هكذا يقول الأصحاء.

- إذ لا يمكنك بعد ذلك تركيب الأسنان - يومئ إليك أحدهم، الذي لا يملك منها شيئاً.

- سيحكمون عليك في كل الحالات سواءً اعترفت أم لم تعترف، ستزج في السجن لأي سبب كان.

- أما أولئك الذين لا يوقعون على الإقرار - فلا بد من أن يطلق عليهم النار - ويردف آخر من زاوية بعيدة - إنهم سيقتلونك رمياً بالرصاص، انتقاماً بحيث لا يبقى أي خيط شاهد على الكيفية، التي جرى فيها التحقيق معك.

- وتموت في مكتب الاستجواب... ويبلغون أهلك، بأنك محكوم بالنفي إلى معسكر، لا يسمح لك بالمراسلة، أو المقابلة...! وعلى الأهل أن يبحثوا.

أما إذا كنت أرثوذكسي المذهب، فسيلتصق بك إنسان من نفس المذهب ويتلفت حوله، خوفاً من أن يسمعه أحد ما، من أولئك الكفرة المجاورين، ويهمس في أذنك، واجبنا أن ندعم التحقيق السوفييتي، فالوضع فتالي (عصيب)، عدا عن أننا، نحن أنفسنا المذنبون، لقد كنا متهاونين لدرجة كبيرة، مما أدى إلى انتشار هذا التعفن في طول البلاد وعرضها، وأعلم بأن حرباً غير معلنة تدور الآن، بينما الأعداء يحيطون بنا من كل جانب... ألم تسمع ما يصرحون به؟... والحزب كما تعلم غير ملزم،

ولا يمكن له حتى أن يشرح كافة الأسباب، والظروف المؤدية إلى هذا الوضع - ولذلك ما داموا يطلبون التوقيع على الاعترافات، فلا بد من التوقيع.

قد تلقى أرثوذكسياً آخر ليقول:

- أنا نفسي اعترفت على خمسة وثلاثين شخصاً وعلى جميع معارفي تقريباً، ويستمرون في إزداء النصح، فكلما كانت الأسماء المفترى عليها كثيرة، كلما سحروا بك!... وكان يكفي لأن يبدو لهم هذا دليلاً، على أن الشهادة تلك، ما هي إلا سخافة... ويطلقون سراح الجميع!.

نعم... هذا هو الهدف، الذي يسعى إليه الجهاز الأمني الحكومي تماماً، أي أن اعتراف الأرثوذكسي، وهدف الجهاز يصبحان واحداً أحداً، إذ إن هذه الشخصية المطلوبة، والمناسبة للجهاز، هي الشخصية التي تمد بأجنحتها المروحية، لتطال العدد الأكبر من الناس، وتلفهم في عملية تحسين الإنتاج الاعتقالي - الحامل لرمز الجودة النوعية. أجل إنها الشخصية المصيدة، العاملة على مضاعفة مقدمي النصائح «أي الشركاء بالجريمة! والشركاء في الرأي وفي الفكر» - أولئك الذين أفلحوا في الإيقاع، بعدد كبير من كافة الأنواع، والأصناف من البشر (قيل أن المدعو (ر. رولوف) ذكر أن أحد شركائه، كان الكاردينال ريشيل، ودون اسمه في محضر التحقيق - وبقي حتى عام ١٩٥٦، ريثما تم تنفيذ استجواب إعادة الاعتبار، دون أن يبدي أحد الاستغراب حيال هذا).

نقول: وتوضيحاً لمصطلح الأرثوذكسي، بأن العملية التطهيرية كانت ضرورية لشخص ستالين، وضرورية في الوقت نفسه للحزب، ذلك أن غالبية المعتقلين، كانوا من صفوف نظام الحكم، ومارسوا حتى لحظة اعتقالهم، اعتقال الآخرين. ودمروا أنفسهم طوعاً، وبإذعان، لتلك القوانين، والتعاليم التي استندوا عليها، عند اضطهاد الآخرين، الذين

كان جلهم من الزملاء والرفاق، أصدقاء الأمس. وإن ما نراه، من إحاطة للبلاشفة، بهالة من خلوديتهم كشهداء، وما هو إلا تخليد لجلادي الأمس، الذين أفلحوا في تدمير البلاشفة الآخرين (هذا إذا لم يكن مأخوذاً في الحسبان، من أنهم جميعاً كانوا جلادي الآخرين) وربما كان من الضروري عام ١٩٣٧ ، أن يظهروا ضحالة عقيدتهم، التي استبسلوا من أجلها، ببساط منقطعة النظير في تغيير وجه روسيا، محطمين قلعتها، ومدنسين قدسيتها - روسيا هذه، التي لم توجه إليهم أي تهديد، ولم تمارس عليهم. أي تنكيل، ولم يقلّ عدد الضحايا البلاشفة، ما بين عامي ١٩١٨-١٩٣٦ ، ضآلة عن البلاشفة، الذين محقوا عندما طالتهم يد التعنيف والتهديد. وإذا ما تفحصنا تاريخ الاعتقالات، وعمليات المحاكمة تفصيلاً ما بين عامي ٣٦-١٩٣٨ ، لا بد من أن يتملكنا الاشمئزاز، ليس تجاه ستالين وحده، أو اتجاه مساعديه، بل تجاه أولئك المنحطين السفلة المتهمين، الساقطين في حمأة الخسّة والدناءة الرخيصة، بعدما كانوا قد ملؤوا الدنيا افتخاراً، واعتزازاً...

فكيف... كيف لك أن تصمد؟... أيها المتألم، والمنهك المسكين أمام تلك العلقات الحية، التي تمص دمك!.

لكن... ما هو السبيل، الذي يجب أن نسلكه، كي نتغلب على هذا المحقق، ونفلت من تلك المصيدة؟... عليك أن تأتي إلى السجن دون تحسر على الحياة الماضية الدافئة. عليك أن تقنع نفسك، بأنك قد وطئت العتبة، وأن الحياة قد غربت... ربما مبكراً... لكن لا بأس من ذلك... إنه قدري، الذي لا يمكّنني من العودة إلى الحرية أبداً... وها أنا جاهز للموت - الآن، وفيما بعد... وكلما كان الموت متأخراً، سيكون أكثر إيلاماً، ومن الأفضل أن يكون مبكراً... إذاً من هذه اللحظة بتّ لا أملك شيئاً، فالأقارب ماتوا لأجلي - وأنا من أجلهم أموت جسدي الذي أصبح ملكي

بـدءاً مـن هـذا اليـوم - ولا حاجـة لـي بأجـساد الآخـرين، وسـتبقى روحـي، ووجداني أغلى وأعظم شيء أملكه.

أمام ذلك المعتقل – لا بد من أن يرتجف المحقق!

وينتصر ذلك، ذاك – الذي لا يلوي على شيء!

إنما كيف لي، أن أحول جسدي إلى صخرة؟

كانوا قد اعتقلوه مع مجموعة دينية يرأسها بردیایف، وجعلوا منها ما عدا رئيسها أضحوكة أمام المحكمة، لكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا منه نفس الألعوبة. بعدما حاولوا استجراره إلى عملية محاكمة، وتم اعتقاله مرتين، وآخرها كان في عام ١٩٢٢، حيث اقتيد إلى الاستجواب الليلي، الذي أشرف عليه، وقام به ديرجينسكي، وجلس إلى جانبه كامنييف (حتى في هذه اللحظة، لم يتحاش، من أن يقوم بنضاله الأيديولوجي، في عقر دار جهاز الأمن الطوارئي كما كان يسمى آنذاك)، إلا أن بردیایف هذا، لم يهزم، ولم يتوسل، بل كان يطرح عليهم المبادئ الدينية، والأخلاقية، بيقين كامل، والتي دونها، لا يمكن أن تقوم قائمة أي نظام للحكم في روسيا - إنهم... وأمام هذا.. لم يقروا بعدم صلاحيته للمحكمة فقط - بل أطلقوا سراحه.. هكذا.. ولم يرد سوى الإفصاح عن رأيه.

تتذكر المدعوة، ن ستوليا روفا، أثناء فترة سجنها في يوتيرك، جارتها العجوز شريكتها في الجلوس على الخشبية عام ١٩٣٧ وكانوا يقتادونها كل ليلة إلى الاستجواب. إذ إن التهمة الحكاية، كانت في إن الميتروبوليت السابق قضى في بيتها ليلة منذ سنتين، أثناء مروره في موسكو، عندما كان هارباً من المنفى - «لا... ليس كما قلتم... عنه بأنه السابق... بل الميتروبوليت الحالي وما تقولته هو الحقيقة، لقد نالني شرف استقباله في بيتي» - «حسنا - إلى أيّ جهة غادر بعد خروجه من موسكو»؟ -«أعرف الجهة، والمكان... لكنني لن

أبوح بها»!. (استطاع المتروبوليت... وبمساعدة من المؤمنين الهروب إلى فلندا).
تبدل المحققون... وتعاونوا.. ولوحوا بقبضاتهم أمام وجه العجوز... وهي تقول لهم «إن لكم... أن تنتزعوا مني كلاماً، وتتمكنوا من فعل أي شيء، حتى لو قطعتم لحمي، وسحقتم عظامي... ها إنكم تخافون قيادتكم، وبعضكم، وتخافون قتلي». «لأنكم بقتلي تقطعون سلسلة التحقيق»!... إني لا أخاف شيئاً... وها أنذا... جاهزة... لأن يقبض الخالق العلي روحي»!.

لاقي أمثال هؤلاء عام ١٩٣٧ الأمرين، ومنهم لم يعد من التحقيق إلى الحجرة إلا والقيد في يديه، ومنهم من اختار الموت ولم يرضخ لتوقيع أي محضر يدين أحداً ما.

إننا لا نسرد هذه الوقائع، كي يعطى تاريخ الثوريين الروس لنا، أسطع مثال في الصمود والثبات، بما لا يمكن مقارنته، مع ما هو قائم الآن، إذ يتعرض الثوريون منهم، لمثل هذا التحقيق الرائع، الذي تستخدم فيه اثنتان وخمسون طريقة.

لم يعذب شيشكوفسكي المحقق في زمن ما قبل الثورة، المدعو راديشوف (المعتقل)، حسب ما كان متبعاً في ذلك الزمن، إذ إن المعتقل كان يعلم، بأنه وأولاده لن يتعرضوا للمساءلة، ولن يقع عليهم أي حيف، وسيخدمون ضباطاً في الجيش، ولا أحد يستطيع تحطيم حياتهم، ذلك لأن راديشوف هذا كان سليلاً للملكية الموروثة، ولا يستطيع أي كان مصادرة هذا الحق، إلا أنه ومع استمرار التحقيق لمدة أسبوعين، تراجع... هذا الإنسان المقدام عن قناعاته السابقة، وعن الكتب التي أصدرها... وطلب الرحمة.

حتى إن القيصر نيقولا الأول، لم يملك مثل هذه الوحشية، ولم يقم باعتقال زوجات الديسمبريين[1]، ويجبرهن على الصراخ في المكتب

١- الديكابريون - جماعة سياسية من الفوضويين حاولوا القيام بتمرد ضد القيصرية. وسميوا بهذا الاسم نسبة إلى زمن التمرد في شهر كانون الثاني - المعرب.

المجاور، ... ولم ينفذ التعذيب على المعتقلين أنفسهم - ولم تستدع الضرورة ذلك - حيث كان التحقيق يجري بشكل حر، وتقدم الأسئلة التمهيدية لهم، ويعطون الوقت الكافي للإجابة عنها، بعد تفكير في الحجر المنفصلة (المستقلة)، ولم يذكر أي منهم فيما بعد، عن تعرضه للقوة، والإجبار في كتابات الإجابات المحددة، ولم يصروا بمسؤوليتهم عن هذا التمرد «ولا حتى معرفتهم عن الكيفية، التي تم فيها التحضير لهذا التمرد كي يبلغوا عنه».

عدا عن أنه لم يتعرض أحد من أقاربهم لأي إزعاج، وبعد ذلك كله صدر العفو عن كافة الجنود، الذين كانوا قد سيقوا للاشتراك في التمرد، على الرغم من أن بعضهم، مثل المدعو ريلييف «كان قد أفاد بكل شيء، وبمنتهى الصراحة، دون إخفاء ومواربة»، «أما المدعو باسينيل انهار أمام التحقيق، وذكر أسماء رفاقه (بعضهم ما زال على قيد الحياة)، وذكر اسم المكلف بإخفاء صحيفة «روسيا الحقيقة» ودل على المكان الذي أخفيت فيه الصحف، وندر أن كان بينهم (بين المتهمين) مثيل للمدعو كينين، الذي وجه الازدراء، وقلة الاحترام للجنة المكلفة بالتحقيق وكان فهم من أوقع بزملائه لسذاجة ما، أو نتيجة عدم منهم، وضياع.. وطلب العفو.. على العكس من رافاليش، الذي حمل مسؤولية التمرد على ريلييف، واستعجال البعض منهم: ب. ي. أوباليتسكي، ب. ديروبتسكي في التشهير بزميلهما كريبيودوف - ومع ذلك كله لم يصدق القيصر نيقولا الأول هذا.

أما باكونين، كان قد خر ساجداً أمام القيصر نيقولا، طالباً العفو بعد إدلائه بالإقرار والاعتراف أمامه - إنها دناءة النفس، وربما تكون حالة من حالات المكر الثوري.

وتبين من التحقيق - أنه تم تكليف كلا من المتطوعين كرينيفسكي، وريساكوف، بقتل، قتله الكسندر الثاني لطمس معالم

الجريمة، وعَلِما عن سابق نية، وإصرار بكنه المهمة الموكلة إليهما!. أما ما حدث مع الأول كرينيفسكي، كان قد لقي حتفه وشاركه القيصر ذات المصير، وأما الآخر ريساموف، بقي على قيد الحياة، ووقع في مصيدة التحقيق، ودل في اليوم نفسه على المسكين، وعلى المشتركين في تنفيذ المؤامرة، وخوفاً على حياته الفتية، تعجل وزود الحكومة، بالمعلومات، التي فاقت في تصورها ما حصل في الواقع، وافترضها حسب ما شاء وأراد، وأبدى ندمه وحسرته، واستعداده «لفضح أسرار الفوضويين».

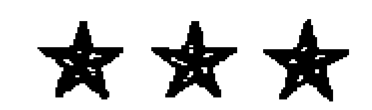
كان المحقق ضابط الجندرما (في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي) يسحب السؤال فوراً، إذا ما لاحظ أن المتهم قد وجد سؤاله سخيفاً، وتافهاً وقد يلحق المساس بمعارفه، وأقاربه - بينما في زمننا عام ١٩٣٧، ساطوا الثوري المحكوم بالأشغال الشاقة (في سجن كريست) جلداً، وطلبوا من المدعو زيلينسكي نزع سرواله كالأطفال، لتفعل السياط فعلها، وعاد إلى حجرته باكياً ينتحب ويقول: «لم يتجرأ المحقق القيصري في ذلك الوقت، أن يخاطبني بصيغة الفرد أنت)!. ونوردها على سبيل المثال، واحدة من طرق التحقيق القيصري، حيث نعلم أن الجندرما، قد أمسكت بمقالات للينين عنوانها «ما الشيء الذي يفكر فيه وزراؤنا» ولم يستطيعوا تحديد اسم المؤلف (وأثناء سير التحقيق، وحسبما كان متوقعاً)! (هذي المقالات أمامكم، والباقي عندي) اطلعوا على قليل من المعلومات، التي أدلى بها الطالب فانييف، التي تفيد «بأن ما لديه من مقالات، قد سلمت إليه ليقوم بتخبئتها، والحفاظ عليها مؤقتاً لعدة أيام، ريثما يصار إلى تسليمها إلى إنسان ما، لا يتمنى أن يفصح عن اسمه... ولم يستطع المحقق فعل شيء (ما بالكم... كيف هذا... - أين طريقة وضع اليدين حتى الرسغ في الماء المثلج)! أين الحقن الملحية؟... أين العصا المطاطية... وأين؟... وأين؟ كيف يمكن كشف المقالات».

لن يجدوا شيئاً... هكذا تصور بييريفيتوف، وسيعمل على إطالة زمن العثور على العناصر المهمة سنوات. وسنوات، بحيث لو وجد المحقق، تلك العناصر المهمة عن تلك المقالات «ما الشيء الذي يفكر به وزراؤنا» لا يملك أن يفعل شيئاً، بعد مرور هذا الوقت الطويل.

يتذكر د. مبيليكوتوف عن السجون القيصرية قائلاً «... كنت في السجون القيصرية سجيناً... وأتذكر هذا بغبطة... يشاركني فيها النزلاء... الذين ما زالوا يذكرونها بشعور عارم من السرور».

أجل... هذا هو الفرق بين الحالتين، بين هذه السجون وتلك، ولربما كان من الصعب إيجاد مقياس لمعرفة هذه الفوارق، إلا أنه وفي كل حال، تصعب المقارنة بين عربة تلك الأيام «أيام ما قبل غوغول» وبين آلة هذه الأيام، أيام سرعة الطيران النفاث، ولا يمكن لكل من لم يتعرض عملياً لتلك القدرات التحقيقية وتطبيق طرق سحق العظام في معسكرات الغولاغ، أن يدرك، أو حتى يكون بمقدوره تقدير حجم هذه الفوارق.

إذا ما عدنا إلى صحيفة «الإيزفستيا» في عددها الصادر في ١٩٥٩/٥/٢٤، وقرأنا، انتزعوا المدعوة بوليا رومانتسيفا، ودفعوها إلى السجن الداخلي، التابع لمعسكر النفي الخاص بالقوميين، بغية استجوابها، ومعرفة الشخص، الذي قام بمساعدة زوجها في الهرب من المعسكر، وربما كانت تعرف ذلك الشخص، إلا أنها رفضت البوح باسمه، ولنا، ولقارئنا، أن نقدر حجم هذا النوع من البطولات بشكل لا يقاس بمعرفة ذلك الذي عبر الزمن الغولاغي، وأدرك ماهية هذا الصمود، أمام نماذج وطرق التحقيق الأخرق. لكن بوليا لم تمت تحت سياط التعذيب، ولم تصل بها الأمور إلى نطاق الجنون، وأخلى سبيلها بعد شهر من ذلك.



إن مجمل ما أوردناه من أفكار، يعبر عن الكيفية التي يصبح فيها الإنسان مقدوداً من الصخر، وقد فاتتني معرفة هذه المقولة في تلك الأيام عندما طالني الاعتقال، ولم أكن في ذلك الوقت على استعداد، لقطع كافة العلاقات الدافئة، والحميمة مع العالم، عدا عن أن اعتقالي تم في تلك الفترة نفسها، التي تم فيها اعتقال عمال مؤسسات الطباعة والنشر، مما أقضّ مضجعي، وأرقني، بخاصة عند استعراض عمليات التحقيق الممارسة علي خلال وجودي في السجن، إذ بت لا أرى أيّ أسس، تمكنني من الاعتزاز بها، طالما كان متاحاً لي، أن أكون أكثر صموداً، على الرغم من محاولتي التملص قدر الإمكان بدهاء ملحوظ، وعلى الرغم مما تملكني من إحساس بالإحباط النفسي، والشعور بغلالة تلف عقلي خلال تلك الأسابيع الأولى من اعتقالي... وها تراني الآن، وفي سياق تذكري تلك الساعات، مرتاح الضمير، دون أن تغث خاطري تلك الذكرى، لأني استطعت والحمد لله، التخلص في ذلك الوقت من التوقيع، والإيقاع بأقاربي في السجن.

إن وقوعنا في الشرك (أنا وشريكي نيقولا فيتيكيفتش) كان مجرد مهزلة صبيانية، على الرغم من أننا كنا في ذلك الوقت ضباطاً على الجبهة، وتبادلنا الرسائل في زمن الحرب، بينما كنا في قطاعين مختلفين على الجبهة، الأمر الذي لم يمكننا من إخفاء رسائلنا المحملة بالعبارات السياسية البريدية المنفوخة، ولا تلك الأحاسيس المبثوثة، بالسباب والشتائم المحملة بالسخط على الرقابة العسكرية، هذه الشتائم المتناقلة من حكم إلى حكم عبر الزمن، حتى بلغتنا شفافة، صافية من شفاه أبائنا، ونحن ما زلنا في المهد (عند إجابتي على سؤال زملائي في السجن. عن قضيتي المسببة بالسجن، لم أواجه إلا الضحك والاستغراب من هذه البساطة، والغفلة التي ارتكبناها.. وقالوا لي: إن أمثالك، لا بد من أن يقطعوا إرباً،

ويذروهم بحيث لا يظهر لهم أي آثر. لا ريب تأكدت فيما بعد، من صدق هذا القول، لكنني ما إن قرأت قضية الكسندر إليانوف عند تعرضه لنفس التجربة عام ١٨٨٧ بسبب تبادله الرسائل بذات الطريقة، أدركت بأن الشيء الوحيد، الذي أنقذ حياة الكسندر الثالث في الأول من أيار عام ١٨٨٧، هو عدم توخي الحذر في المراسلة.

(أرسل أحد المشتركين في مجموعة اندريوشكين، رسالة علنية، إلى صديقه في خاركوف، : «إنني أومن بما لا يقبل الشك، بأن أكثر أنواع الإرهاب قسوة، هو الإرهاب الأحمر (الممارس بين ظهرانينا) لا بل يمكن القول، بأن لا مثيل للإرهاب الأحمر حتى في المستقبل... يا صديقي المقدام) واعلم إذا ما سحب لسان المرسل إليه، فإنه لا بد من أن يسحب لساني كذلك، وهذا ليس هو بالمستحب لكلينا... لأنه سيؤدي بدوره، إلى أن يستجر كل منا، الكثير من الناس الحصفاء). واستمر البحث حسب معطيات الرسالة، خمسة أسابيع في مدينة خاركوف، بغية معرفة كاتب الرسالة، ومرسلها من مدينة بيتريورغ... وتم تحديد اسم المرسل (أندريوشكين ٢٨ شباط) - إلا أنه في الأول من آذار، تساقطت القنابل، وأحتل المكان المطلوب في شارع نيفسكي، الذي كان محدداً، لتنفيذ عملية الاغتيال!.

كان مكتب محققي واسعاً، مضيئاً كبير النوافذ مرتفع الجدران (كانت شركة روسيا للتأمين أنشأت هذا البناء، ليس بغرض التعذيب). واستثمر أحدها (بعلو خمسة أمتار) في تعليق صورة شاقولية، طولها أربعة أمتار لكامل قامة الحاكم العظيم (الذي أكرهه بمقدار حبات الرمل)، وكان محققي يقف أمامها منحنياً، من آن لآخر ليقول «إننا جاهزون لبذل حياتنا فداء له. إننا - مستعدون لأن نرمي بأنفسنا تحت جنازير الدبابات كرمى له»!، ولشد ما أبديت أسفي، وأنا أقف أمام مذبح تلك الصورة

(المحراب) على تلك التمتمات التي قلتها حول اللينينية المصنعة، وأصبحت أنظر لنفسي بعدها، بأني لست إلا مجدفاً، مارقاً، لا أستحق أكثر من الموت.

إن ما تضمنته رسائلنا، كان كافياً في ذلك الوقت، لأن يحكم علينا، نحن الاثنين معاً، حيث بدى مستقبلي، وفيتيكيفتش، واضحاً منذ اللحظة التي بدأ فيها المراقبون العملياتيون، يكبون بأجسادهم على الطاولة للراحة، ولم يكن ما يمنح لنا من وقت للدفاع عن أنفسنا، إلا مضاعفةً للفائدة التحقيقية لهم، ويا لهم... من قوم فاقدي الرحمة، إذ مضى علينا سنة كاملة، ونحن نحمل هذه الأعداد الكبيرة من الرسائل في أجربتنا الميدانية، كي يتمكن أحدنا من الحفاظ عليها، فيما لو تعرض الآخر للموت - لقد تضمنت هذه النسخ التي بين أيدينا، البيان رقم (١)، الذي كنا قد كتبناه في أحد لقاءاتنا على الجبهة وحمل في طياته الكثير من النقد اللاذع، لكل منظومات الكذب، والتلفيق، والاضطهاد في بلدنا، وقمنا بسرد البرنامج السياسي، بكل هدوء ولباقة، وتعرضنا فيه للإصلاحات الحكومية المطلوبة مستقبلاً، وختمناه بالعبارة: «إن تنفيذ كافة هذه المهمات، لا بد من أن يتم عن طريق إحداث تنظيم سياسي»!، وكان هذا كافياً، وبلا أيّ ضغوط تحقيقية، لأن يكون وثيقة أولية لتشكيل حزب جديد، ولم نكتفِ بهذا القدر، بل قمنا بصياغة بعض الجمل، التي جاءت بمثابة ملحق للبيان، ورد فيها - كيف أننا، وبعد تحقيق النجاح (النصر) سنقوم «بشن الحروب حرباً تلو حرب».

توضعت كافة الأدلة أمام محققي، الذي بات مكتفياً بما لديه، ولم يعد بحاجة لأن يجترح ضدي أيّ تلفيقات، ولم يبق له، إلا أن يوجه الأسئلة لمعرفة أولئك الذين وجهت لهم هذه الرسائل، ومن تكون الشخصية الأساسية المنظمة لهذا كله... في الحقيقة.. إن كل رسائلي، التي كنت

أوجهها لأقاربي، كانت مبثوثة فيها أفكاري، وأرائي المشاغبة بكل وقاحة، وجرأة - ومع كل ذلك، استمر الأصدقاء في مراسلتي لسبب ما، حتى أنهم سطروا في رسائلهم الجوابية، بعض التعابير الحاملة للشك، والارتياب، والظنون[1]... والآن وبعد كل هذا، كيف لي الخلاص، والمحقق المدعو فيزيوف الحامل لكنية يروفريو بيترفيتش، يطلب مني توضيح وشرح هذه العلاقات، ويتساءل عما إذا كنا، قد كتبنا كل هذا في الرسائل المراقبة، وعن أي شيء كنا نتحدث، أثناء اللقاءات؟ لم أتمكن من إقناعه في أن كافة هذه الكلمات اللاذعة، قد قيلت (وردت) في الرسائل، ولم يبق أمامي بهذا الدفاع المنهك، إلا أن ألفق الآن، ما دار بيننا من أحاديث عندما كنا نلتقي كأصدقاء (للعلم، كانت الرسائل تنوه إلى تلك اللقاءات، ولا بد لهذا التلفيق من أن يكون متطابقاً بشكل عيني مع الرسائل، ويجب كذلك أن يكون قدر الإمكان بعيداً عن السياسة - فقط، وليس بعيداً عن التشريعات القانونية، العرفية مثلاً، إضافة، إلى أنه يجب علي، عند الإدلاء بهذه التوضيحات، أن أكون محافظاً على خروج الكلمات من حنجرتي، وكأنها الأنفاس العادية، بل

١- كان من بين هؤلاء زميل في الدراسة يدعى بـ سيمونيتا، ولم يلق القبض عليه، وبقي طلقاً، ولقد عرفت هذا الأمر بكل سهولة، إذ إنه وبعد مرور اثنين وعشرين عاماً، كتب لي: «يبدو من خلال مؤلفاتك المنشورة، بأنك تنظر للحياة نظرة وحيدة الجانب وأقولها بصراحة دون تحيز، من انك ستصبح رمزاً للرجعية الفاشية في الغرب، إن كان في المانيا الغربية أو في الولايات المتحدة الأمريكية. وانه لو كان لينين، الذي وثقنا به، وقرأناه، وأحببناه، او لو كان ماركس العجوز، وإنجلز، لو كانوا على قيد الحياة لأدانوك إدانةً قاسية. أرجو ان تفكر بكلماتي هذه» وانا الآن أفكر معك. ويا للحسرة. اخ لو أنهم اعتقلوك في ذلك الوقت معي. لكنت فقدت من نفسك هذه الكثير، الكثير.

علي كذلك إقناع محققي الصنديد هذا، بتظاهري وصراحتي حتى النهاية، بكل بساطة، حتى لا - وهذا الشيء الأهم، يضطر محققي الكسول، لأن يعود للتدقيق، إذ سيأتي عندها، دور هذا الحمل الشنيع الذي في حقيبتي الكريهة - أربع كراسات، من اليوميات العسكرية، المكتوبة بقلم أصفر، بُريت نصلته بشكل حاد، مما أدى إلى إزالة بعض الخطوط، إضافة إلى هذه اليوميات، كانت مجرد إدعاءات لأصبح كاتباً، حيث لم أثق عندها بقوى الذاكرة الخارقة، وحاولت طوال سني الحرب، أن أكتب عن كل شيء رأيته، (هذا نصف المصيبة)، أو سمعته من الناس، وكنت أقصُّ على زملائي في الحرب، الأحاديث كاملة دون أي تحرج - إن كان عن العمل الجماعي، وإما عن انتشار المجاعة في جمهورية أوكرانيا، أو عن مجريات الأحداث عام ١٩٣٧، مفصلاً كل نقطة، دون إغفال لأي جانب ما وأحدثهم عن جهاز الأمن التابع لوزارة الداخلية، وأذكر اسم ذاك الذي نقل لي هذه المعلومات بدقة، نعم.. لقد جمعت هذه اليوميات، ووضعت في حقيبتي، وختمت بالشمع الأحمر، وسلمت لي، كي أقوم بنقلها إلى موسكو... لقد انقبضت أساريري عندها، واعتصر قلبي... لأن كل هذه التقولات، التي كانت، أو بدت على الأقل، طبيعية بالنسبة لإنسان يعد نفسه طلائعياً، أوصلته هذه كلها، للوقوف الآن أمام صورة الموت، والامتثال أمام التمثال المكتبي لشخص ستالين، ذي الأربعة أمتار - لتؤدي به لأن يتنفس الهواء السجيني الرطب، كما يتنفسه أولئك الرجال الطهر، المتهورون، زملائي في الجندية.

أجل كانت معاناتي من جراء هذه اليوميات، أثناء التحقيق كبيرة، وزاد من ذلك، خوفي الدائم، من أن يضيق صدر المحقق ذرعاً بها، ويقوم بجر أفراد تلك القبيلة الأحرار من خطوط الجبهة، ولكم كان علي أن

أنـدم، وكـم كـان علـي أن أعيـد، وأدقـق وجهـة نظـري حيـال متاهـاتي السياسية، لقد قضّ مضجعي من السير على النصال - طالما كنت انتظر بين اللحظة والأخرى، إنساناً يقتادونه لمقابلتي وجهاً لوجه، أو طالما انتظرت اللحظة، التي تبدو بها أيّ بادرة، تدل على نهاية التحقيق. هذا الانتظار الواجف الذي تملكني، منذ أربعة أشهر، لم يحن فيها الوقت، لتقذف مذكراتي اليومية الأربعة في أتون لوبيانكا الجهنمي، ولتخرج منه لفائف حمراء، تلفلف شهيداً آخر، من شهداء هذه الحبكة الروسية، ولتتطاير بعد ذلك من أعالي فوهات مداخن هذا الأتون الجهنمي، أحداث أربع رزمات دخانية.

كنا نقضي ساعات التنفس تحت هذه المداخن - داخل العلب الأسمنتية المقامة على سطح سجن لوبيانكا الكبير، وعلى مستوى يحاذي الطابق السادس، كانت ترتفع جدران هذه العلب ثلاث قامات بشرية، وكنا نسمع موسكو... بأذاننا - وأبواق سياراتها، كما ورأينا تلك المدخنة، وذلك الحارس، القابع في برجه العلوي المساوي لسبعة طوابق، يا لها من قطعة تعيسة تراءت لنا من القبة السماوية الإلهية، التي فُرض عليها الوقوع فوق سجن لوبيانكا لتحجبه.

أوه... يا لهذا السخام!... يسقط، ويسقط طوال اليوم الأول من أيار بعد الحرب، ولشد ما كان كثيفاً، فاحماً. عند فترة تنفسنا، لدرجة اعتقدنا فيها، من أن لوبيانكا هذه تقوم بحرق أرشيفها المتراكم منذ تسعة وثلاثين عاماً، ولربما كانت تلك السحابة السوداء، التي تظللنا بضع لحظات، هي من سخام يومياتي الشهيرة تلك. وتأخذني الذكرى إلى تلك الأيام الجليدية المشمسة، التي كنت أجلس فيها في مكتب التحقيق، أتلقى الأسئلة الفظة، ومحققي يكتب، ويدون مشوهاً الكلمات الجوابية التي أنطق بها، بينما استرق النظر إلى تلك النافذة العريضة، لتتراءى لي الشمس المتلاعبة

على سطح البحيرات الجليدية، وأحس بشيء ما يدفعني، لأن أقفز إليها - علـه يشيع نبأ موتي في موسكو، ويتهشم جسدي المقذوف من الطابق الخامس على غرار ما كنت قد سمعته في طفولتي، من أن أحد أجدادي، الذي لا أتذكر اسمه، قد قذف بنفسه على نهر الدون في مدينة روستوف، من ارتفاع (ثلاثة وثلاثين متراً)... أجل تراءت لي من خلف تلك النافذة السطوح الموسكوفية، التي ترقص فوقها السحب الدخانية المرحة، المرتسمة أمام عيني، بعفوية، وأنا أرمق تلك الأكوام الضخمة من الأضابير، والمحفوظات التي تملأ وسط هذا المكتب ذي الثلاثين متراً، الملقاة على الأرض دون تنضيد، ظهرت فيها السجلات، والمصنفات الورقية الكبيرة المتوضعة على شكل دستات منفصلة وتلوح لي من فوق تلك المقبرة الورقية، المكومة على ارتفاع، يفوق مكتب المحقق علواً، وتحجب سحنته التي لم يبق لها إلا القليل من الأوراق حتى تختفي خلف الملفات التي قد تحمل جنازات الأرواح الإنسانية في طياتها، وبخاصة ذلك الإنسان المجهول، المعتقل في الليلة الماضية، الذي استحوذ على ألمي وحسرتي الأخوية، لشد ما لاقى من ثمرات التحقيق، التي ما زالت طي هذه الأوراق المرمية على هذه الأرض الخشبية لمكتب التعذيب أمام الصورة الأربعميترية الستالينية، ورحت أتساءل عن هذه الشخصية الخارقة، التي أجلسوها هنا في هذا الليل الغامض للتعذيب، والافتراس، والحرق!.

آه... يا لحجم تلك الأفكار، والجهود الإنسانية الموؤودة هنا!. التي قد تساوي أدباً ثقافياً كاملاً مقتولاً... إيه... والسخام يرتفع ويرتفع من مداخن سجن لوبيانكا! ومن المؤلم، أن أحفادنا سينظرون إلينا، كجيل غبي، جيل تائه، جيل أعجم... وفي الحقيقة إنا كذلك.



كي لا نترك لبساً يلف الحقيقة، نذكر نقطتين أساسيتين:

فحسبما يتذكر أرينسبورغ، كان جهاز الأمن الطوارئي عام ١٩٢٠، يطرح سؤالاً واحداً أحداً، وهو، «عليك أن تثبت لنا، من أنك لست - من عملاء فرانكلين».

أما في عام ١٩٥٠، بقي الأمر كما هو عليه، إذ كان أحد العقداء المحققين المشهورين في قيادة إدارة الأمن، المدعو فومافوفيتش جيلزوت، يقول للمتهم «إننا لسنا معنيين أن نثبت للمعتقل فعلته، بل علينا أن ندعه يثبت بنفسه، بأنه لا تتوفر لديه نوايا عدوانية»، ولا شك في أن الملايين من البشر، يحملون تلك الذكريات المكدسة في عقولهم، عن تلك الحقبة الزمنية، وما فيها من بشاعة، رافقت كافة العمليات الاعتقالية العشوائية، والعلنية، المنفذة من قبل آكلي لحوم البشر.

فمهما يشوب عملية التحقيق، من بساطة، وسرعة، فإنها مع ذلك تبقى مجهولة لأولئك البشر المبتدئين الأغرار، سيما وأن الجهاز قد حرر نفسه من مسؤولية البحث عن الأدلة، والإثباتات، وترك لذلك الأرنب المغتصب، المرتجف الأوصال، الشاحب الوجه، المتقع، المحروم من الاتصال بأحد من ذويه، الممنوع من القيام بأي عمل من شأنه أن يخفف عنه... بقي له، أن يفعل كل شيء، وبملء إرادته الإنسانية، المحرومة من النوم، والأكل، ومن الأوراق والأقلام، وحتى من الأزرار... عليه... أن يجلس هنا.. في ركن هذا المكتب على كرسي صغير، ليبحث مرغماً عن الأدلة، والإثباتات، ويقدمها للمحققين الكسالى، ويثبت لهم، بأنه لم تكن عنده أيّ نوايا عدوانية، وإذا ما عجز عن البحث والتفتيش عنها (من أين له أن يحصل عليها)؟ - عليه، أن يقوم هو بنفسه بتقديم الأدلة التقريبية لجرمه الذي ساقه إلى التحقيق.

وهنا سأروي لكم هذه الواقعة، في وقت ما من الحرب، وقع العجوز في معسكر الأسرى الألماني، ومع ذلك أتيح له أن يجلس على هذه التابورية، وأن يهمز بأصابعه العارية ذاكرته، محاولاً تقديم الأدلة، لمعلمه المحقق، في أنه لم يخن وطنه، ولم تكن لديه حتى، أيّ نية لذلك!... ويا للهول. أطلق سراحه؟... لكن الذي كان، لم يكن كل ذلك بالفعل! - لقد روى لي العجوز بنفسه عندما كنا في سجن تيرك، وليس على كورنيش تميورسكي في ذلك المساء الهادئ حضر مع المحقق، محقق آخر، وبدأ الاثنان معاً، إثارة ذكريات هذا العجوز، وقاما بعدها، بصياغة شهادة الإثبات التي نصت على أن هذا العجوز الجائع، الخائر القوى من جراء الحرمان من النوم، قام أثناء التحقيق، وفي ذات المساء، بنشر دعاية مضادة للنظام السوفييتي!.

وهذا ما كان في الواقع، إلا أنه كلام يقال... وما كان للمحققين أن يسمحا لنفسهما بالاستماع لتلك الأراجيف، وأحالوا العجوز إلى محقق ثالث آخر، وقام بشطب، وإسقاط الاتهامات، التي لا أساس لها، في خيانة الوطن، وبروية مطلقة، اقترح الحكم عليه بعشر سنوات... السبب نشر الدعاية المضادة لنظام الحكم أثناء التحقيق!.

انعدمت في ذلك الوقت عملية البحث، والتقصي عن الحقيقة، ولم يكن تنفيذ التحقيق في أعقد الحالات، إلا عملية تنفيذ واجبات الجلاد بأسهل الطرق - واجترار الوقت لتحقيق قاعدة استلام الراتب بكل بساطة.

كانت أسهل تلك الطرق قائمة على قاعدة دائمة في التحقيق - حتى في سنة الشؤم السابعة والثلاثين - كان قد اعتقل المدعو بوردك على أساس التهمة التالية: سافر منذ ستة عشر عاماً خلت، إلى أهله في بولونيا، دون الحصول على جواز سفر يمكنه من عبور الحدود (والبابا، والماما، لم يبعدا عنه في ذلك الوقت أكثر من عشرة فراسخ، لكن كان دبلوماسيو

البلدين قد وقعا وثيقة، تمنع بموجبها سكان روسيا البيضاء بالذهاب إلى بولونيا - بينما الناس كانوا قد تعودوا في عام ١٩٢١، الانتقال إلى الجانب الآخر)، استمر التحقيق نصف ساعة، وسافرا إنما في هذه المرة، على ظهر حصان - حكم عليه بعشر سنوات بموجب المادة (القيام بعمل مضاد للثورة).

أجل لقد تم التحقيق بسرعة، إنما بدت هذه السرعة نفسها حركة بطيئة، ولم تجد الكثير من الأنصار لها وسط معتمري القبعات الصفراء. حيث نص قانون المرافعات الأساسي، على أن تكون مدة التحقيق شهرين، وفي حال الضرورة، يطلب التمديد من النيابة العامة لأكثر من مرة، لمدة شهر (والنيابة، طبعاً لم ترفض ذلك الطلب)، لكن ربما كان من الحماقة، لو أن المحققين استنفذوا صحتهم، دون استخدام هذه الإطالات الزمنية، بغية - وحسبما تنص القاعدة الموضوعة - تضخيم الإمكانات الشخصية، إذ لا حاجة بعدها لتعريض الحناجر، والقبضات للإجهاد، خلال أسبوع الصدمة الأول من التحقيق، ولا حاجة لاستهلاك أمزجتهم، وإرادتهم (حسبما نصت الطريقة الخاصة بفيشينسكي).

وجل ما كان يهم المحققين، إطالة القضية، وكل قضية، بحيث يكون لديهم العدد الكبير من تلك القضايا الهادئة، القديمة، وعدد قليل من القضايا الجديدة قدر الإمكان... وببساطة نقول: بأنه من غير اللائق، انتهاء التحقيق في شهرين.

إن المنظومة الحكومية، تعاقب نفسها، بنفسها، بسبب عدم الوثوق بالكادر التحقيقي المنتقى، وبسبب المراقبة الدائمة لهؤلاء المحققين أثناء دخولهم، وخروجهم من وإلى العمل، إضافة إلى مراقبة المعتقلين الداخلين إلى التحقيق، والخارجين منه، وبعد هذا كله، لا يبقى للمحقق، إلا أن يعمل على حساب الأيام اللازمة لاستلام الراتب الشهري من المحاسب! مستهتراً بتسيير آلية التحقيق، وبتفعيلها، إذ ما أن يقوم باستدعاء أحد المعتقلين،

المخصصين له، حتى يجلسه في أقصى ركن في المكتب، ويطرح عليه الأسئلة المخيفة - ومن ثم يتركه، بل وقد ينساه، ليتسنى له قراءة الصحف، أو كتابة محاضرة، مكلف بإلقائها في المؤتمرات العلمية السياسية، أو أن يقوم بتسطير الرسائل، أو تبادل الزيارات (ويترك في المكتب أحد المجندين المتفرغين بدلاً منه)، ويسترخي في مكتب زميل له، ويسهو، ويستفيق على حين غرة، ويرمق المعتقل بنظرة وعيدية قائلاً:

يا لك من وغد... وغد متوحش... حسناً... لا بأس من أن نخصص لك تسعة غرامات.

كان المحقق، يستخدم الهاتف كثيراً، ويتصل مع البيت، ويتحدث مع زوجته، وهو يسترق النظر إلي بطرف عينيه... قائلاً... سيستمر اليوم في العمل، نهاراً وليلاً، ولا ضرورة لانتظاره قبل حلول الصباح (ويسقط قلبي... إذاً ينتظرني ليل بطوله)!، ويتناول السماعة ثانية... ويتصل مع عشيقته... وبصوت رقيق، ناعس يقول: بأنه قادم إليها بعد قليل، ليقضي الليل عندها!.

(حمداً لله... سأنام الليلة مطمئن الروح).

وهكذا... إن الشيء الذي لطف من قساوة تلك المنظومة الحكومية... هو إساءة المرؤوسين المنفذين لها.

كان الكثير من المحققين، يستخدمون الاستجواب (الفارغ) بغية إغناء تجاربهم الحياتية، وكثيراً ما كان يسأل المعتقل عن الوضع على الجبهة (وعن تلك الدبابات الألمانية، التي لم يتسنَ له الوقت الضيق للارتماء تحت جنازيرها) وعن العادات الأوروبية، وعن البلاد الأجنبية، التي تواجد فيها المعتقل، وعن المحال التجارية، وعن البضائع بشكل خاص - وعن النظم والتنظيم في البلاد الأجنبية الفوضوية، وعن مختلف الأوضاع مع النساء... نعم لم تجر التحقيقات، طبقاً لما جاء في قانون المرافعات الأساسي، القاضي بأنه على النيابة العامة مراقبة السير

الصحيح للتحقيق، بشكل دائم ومستمر، إلا أن أحداً لم يرهم ولو لمرة واحدة بأم عينيه، حتى أثناء جلسات الاستجواب اللحظية، المخصصة للنيابة العامة، الأمر الذي يثبت بأن التحقيق، مشرف على نهايته... وقد تعرضت لهذا النوع منه.

السيد المقدم جاهز - هادئ، متخم، أشقر قل مثيله، ومزاجه ليس اعتيادياً، ليس بالغاضب، ولا بالمنفرج - يجلس خلف مكتبه، يتثاءب بقنوط، ويمسك بملف قضيتي للمرة الأولى... وتمر الدقائق الخمس عشرة، وأنا أراقبه... يقلب ورقات إضبارتي بصمت مطلق (إذ لا ضرورة للاطلاع على القضية، ولم يرد في برنامجه وقت لمثل هذه الأمور، إضافة إلى أيّ درجة، ولأي وقت يستطيع فيه حفظ كافة التفاصيل في ذاكرته، فإن منظر الملف كاف ليثبت أن الاستجواب قد نفذ فعلاً، ودونت فيه جميع الملاحظات) لكنني اعتقدت، بأنه لم يلحظ فيه، أي ترابط... وبعدها... رفع جفنيه... وبنظرة لا مبالية إلى الجدار المقابل، وبعينين يلفهما الكسل... سألني، عن رغبتي في إضافة أيّ معلومات لاعترافاتي.

ألم يكن من المفروض، أن أسأل عن الملاحظات التي أريد أن أوجهها، عن الكيفية، التي سار بها التحقيق؟ ألم تكن أيّ انتهاكات لحقوقي، أو أيّ مخالفات للشرائع القانونية؟... لكن منذ زمن طويل... لم يقم النواب العامون بالسؤال عن مثل هذه الأشياء، ولو أنهم سألوا افتراضاً... في هذا البناء المؤلف من ألف غرفة، أو في الخمسة آلاف قسم، المخصصة للتحقيق، المنتشرة في البراكات الخشبية، أو في الأنفاق، أو في المقابر، والأقنية المنتشرة على أراضي الاتحاد، لوجدوا، أن المخالفات القانونية عششت فيها، ولا نستطيع لا نحن، ولا هم منع هذا... كثر هم النواب العامون الذين احتلوا أعلى المناصب، بموافقة هذا الجهاز - جهاز أمن الدولة - الذي كان من المفروض أن يقوموا، هم أنفسهم بمراقبته.

إن خمول المحقق... وعدم مبالاته، وسلميته، وتعبه من التدقيق في أضابير القضايا اللا محدودة... انتقلت إلي كلها، ولفتني بمسحة اللا مبالاة، ولم أقم بطرح أيّ مسائل أمامه، أو أيّ حقائق، إنما طلبت فقط تعديل إحدى الترهات، لقد اتهمنا بقضيتين، وقد جرى التحقيق بكل قضية على حدة (نفذ التحقيق معي في مدينة موسكو، وتم، التحقيق مع صديقي في الجبهة) وبهذا الشكل أكون قد أخذت بالقضية كلها، ووجه إلي الاتهام حسب البند الحادي عشر... كما وكأنني أنا الفرد.. أصبحت جماعة... أو فئة... وطلبت بحصانة انتزاع هذه الإضافة عني أي البند الحادي عشر.

تصفح الإضبارة ثانية ولمدة خمس دقائق إضافية... وبدا واضحاً من أنه، لم يجد تنظيماً، ومع ذلك تنهد، وعقد يديه وقال:

حسناً؟ إنسان واحد - إنسـ... ان... لكن... إنسانين - أصبح هذان... هؤلاء... أناس... وضغط على زر الجرس... وطلب: أن يأخذوني.

وفي اليوم نفسه، مساءً... وفي وقت متأخر في ليلة من ليالي أيار الأخيرة اقتادوني إلى المحقق... إلى ذلك المكتب نفسه رقم (٢٠٦) مكتب النيابة العامة ذي الساعة الجدارية البرونزية، ذات القاعدة المرمرية - بغية تنفيذ الإجراء الأخير - مما يعني الاطلاع، ولآخر مرة على القضية من قبل المتهم نفسه، وبعدها يتم التوقيع النهائي طبقاً، لما ما هو وارد في إحدى مواد القانون... وجلس المحقق واثقاً دون أدنى شك من أنه سيحصل على توقيعي، وراح يتعجل في قراءة نصوص الاتهام.

فتحت الإضبارة السميكة، وبدت على الغلاف من الداخل كلمات مطبوعة، قرأت البعض منها، ويا لها من أشياء تثير الاضطراب، وتبعث على الهيجان... اللعنة لقد تبين، بأني أملك الحق أثناء سير التحقيق، أن أقدم أيّ شكوى، أو احتجاج خطي على عدم تنفيذ التحقيق بشكل سليم - وتلزم

هذه المادة المحقق، بأن يرفق شكواي تلك مع ملف القضية، إنما أثناء التحقيق، وليس بعده.

على رسلكم... لا تتعجلوا... إن أحداً، لم يعرف عن هذا الحق، ولم أسمع به، من آلاف المعتقلين، الذين جالستهم.

تابعت تصفح الإضبارة، ورأيت نسخة مصورة عن رسائلي، وقد أُوّلت بشكل مغاير، لما ورد فيها من أفكار أساسية من قبل معلقين مجهولين (ربما كان النقيب ليبين)، ورأيت الافتراء الكاذب المبالغ به، الذي غلف به النقيب يزبوف مجموع ما أدليت به في إفادتي الحذرة.

لست موافقاً - لقد سيرتم التحقيق بشكل غير صحيح - قلت هذا، إنما دون حزم، أو صرامة.

حسناً، فلنبدأ من جديد! - عض شفتيه غضباً - سندحرجك إلى ذلك المكان حيث يسجن البوليسيون.

ما إن مد يده ليأخذ الإضبارة مني (أحسست للحظةٍ وكأن أصابعي لا تنفك عنها...)

عند غروب أحد الأيام من أيار، كانت الأشعة الذهبية تلف المكان، خلف نوافذ الطابق الخامس من بناء لوبيانكا المغلقة، مثلها كمثل بقية النوافذ الكتيمة في مبنى الوزارة، التي لم تنتزع عنها عصائب اللاصق الشتوي، كي لا تتسلل نسيمات الهواء الرطب النظيف، وكي لا يخترق الضوء هذه الحجرات المظلمة... وها هي الساعة البرونزية، الراقدة فوق القاعدة المرمرية للموقد، تهز بنواسها، معلنة توديع آخر شعاع شمسي.

لقد بدا الموت لي أهون، من أن أبدأ التحقيق من جديد وفي كافة الأحوال... لا يمكن إلا أن يكون قد قدر لي: المستقبل حياة (ليتني اعرف كنهها) وبعدها - ليكن ذلك المكان، حيث يسجن البوليسيون... إنما علي

ألا أزعجه، لأن الكثير من قضيتي يتعلق به... وبالشكل الذي يصيغ به، وثيقة الاتهام!.

وأخيراً... وقعت... لقد وقعت وكذلك وقع البند الحادي عشر (هذا الذي طالما تناوله «بياننا» وكنا مزمعين على إذاعته في رسائلنا). لم أكن أعرف في ذلك الوقت، وزنه وثقله، إنما قال البعض لي، بأنه لا يكثر من مدة الحكم، ودفعت من جراء هذا البند، إلى معسكر الأشغال الشاقة... ومن جراء هذا البند الحادي عشر، تلقيت حكماً بالنفي مدى الحياة، بعد أن أطلق سراحي من معسكرات الأشغال الشاقة.

لم يستخدم المحقق، ضدي أيّ أساليب، عدا الحرمان من النوم، والكذب، والتخويف - التي تعتبر قانونية بشكل مطلق، لأنه لم يضطر لأن يفعل أكثر من ذلك، حيث إن الحرص الزائد في الإدلاء بالمعلومات، قد يؤدي أحياناً، إلى أن يجعل المحقق أكثر أذىً. وبعد ما قدم المحقق لي مادة (في المكتب رقم ٢٠٦) الحكم، كي أوقع عليها، وأوقع كذلك على تصريح بعدم الإفشاء والإعلان عن الالتزام به: أنا فلان الفلاني أصرح، وتحت طائلة العقوبات المنصوص عليها بالقانون (لا أدري أيّ مادة منه) بأن لا أبوح أبداً، لأي كان، عن الطرق المنفذة أثناء التحقيق معي.

نفذت هذه الإجراءات في عدد من إدارات الأمن السياسي الحكومي المنتشرة في الأقاليم، بشكل تتابعي، أي أن يتم التوقيع على الحكم، وعلى تصريح عدم الإفشاء بوقت واحد (وفيما بعد، وعند إطلاق السراح في المعسكر - يوقع المطلق سراحه، على ورقة تعهد، بألا يفشي، أو يبوح لأحد عن نظام المعسكر).

ما العمل؟... هي عادتنا في الخضوع، والانصياع... هي ظهورنا «المحبطة» الساجدة أبداً، التي لا تسمح لنا، أن نرفض، أو أن نعترض على هذه الطرق العجيبة، التي ستأتي على نهايتنا!.

لقد أضعنا أسباب حريتنا - وبتنا لا نعرف... من أين تبدأ وتنتهي ويسلبون منا... ويسلبون... ويسلبون... هذه التواقيع، التي لا نهاية لها على تصاريح كتم الأسرار عن الجميع، وعن... أي كان.

بتنا لا نثق بأنفسنا - هل يحق لنا يا ترى... أن نروي... أو نقص حوادث حيواتنا اليومية.

الفصل الرابع

فرع التسيير الذاتي

في إحدى حجرات العزل من سجن بوتيرك المعروف بسجن المحطة - يوجد حجرة «نظارة» مسماة بحجرة النحل (يتم التفتيش فيها عن المعتقلين الجدد، القادمين لهذه الحجرة الزريبة التي تتسع لعشرين أرنباً وتسمح لخمسة أو ستة من عناصر الحرس بالتحرك، وسط هذه الأكوام) - (يستبعد أن يكون أحد منهم على قيد الحياة) تتوضع فيها الطاولات الخشبية، ذات النخاريب، فارغة إلا أن أحد رجال الأمن يقبع في زاوية بعيدة، وراء طاولة مكتب، وضعت بشكل عرضي، وبدت سحنته خلف ضوء خافت، حسنة الهندام، وزينت وجهه شوارب سوداء، وظهرت عليه سمات دالة على الملل الذي يعاني منه، متبرعاً من حدود طاقته في تحمل الانتظار، ريثما يجلب إليه معتقل آخر، يمثل أمامه ليوقع على العقوبات المفروضة بحقه، سيما وأنه أبدى الحرص الفائق على أن يتم سحب هذه التواقيع بسرعة، أكثر مما تجري عليه الوتيرة عادة.... أشار لي، بالجلوس على مقعد خشبيّ، متوضع في الجهة الأخرى من الطاولة التي يجلس خلفها!! وبعد أن تحقق من شخصيتي، بدأ البحث في رزم الأوراق المكدسة على الطاولات من على يمين ويسار الحجرة، ولاحت على الصفحة الأولى

لهذه الرزم، أسطر مكتوبة بالآلة الكاتبة بشكل مكثف، شبيه ببطاقات الوقود، الموزعة على المنازل كشهادة إثبات على استهلاك المواد وبعد لأيٍ وجد الرائد أوراقي الخاصة، وسحبها وقرأها على وجه السرعة دون مبالاة (وأخيراً... أدركت بأنه حكم علي بثمان سنوات) وأمسك القلم بقوة وبدأ يكتب، إنه قد أطلعني على النص كاملاً.

لم تتضاعف دقات قلبي، ولو نصف ضربة - وكان هذا بالنسبة لي أمراً اعتيادياً ، إن لم يكن أكثر من العادي، حتى إنني بدأت أتساءل بيني وبين نفسي... ترى هذا هو قلمي - الذي قد يمثل نقطة الانعطاف الحاسمة في حياتي؟ ولشد ما رغبت أن أفعل، أو أتأثر، إحساساً بهذه اللحظة - لكن ذلك لم يكن ممكناً بأي شكل من الأشكال، ناولني الرائد الورقة، بعد أن قلبها على الصفحة الثانية، ووضع أمامي قلم الحبر، الذي كان من ذلك النوع المساوي بضع كوبيكات، والمعروف بشفراته الرديئة، وزاده رداءة غمسه بالحبر بشكل عبثي.

- لا... يجب أن أطلع عليها بنفسي.

- هل تعتقد بأني أخدعك؟- حسناً قال الرائد متثاقلاً، كما تريد اقرأها!

ودون رغبة في ترك الورقة من يده، ناولني إياها.. أمسكتها وقلبتها، ورحت انظر، إليها بدقة، متفحصاً، ليس الكلمات فحسب، بل الأحرف التي كانت مطبوعة على الآلة الكاتبة، إلا أنها لم تكن النسخة الأولى، بل صورة عن النسخة الأساسية:

خلاصة حكم

مستخرج عن قرار وزارة الداخلية في عموم الاتحاد السوفييتي، الصادر في ٧ حزيران عام ١٩٤٥ رقم[1]..

ورد تحت هذا الكلام خط متقطع ينصفه خط شاقولي.

قرروا	تلي عليهم
حكم على فلان الفلاني بثماني سنوات يقضيها في معسكر العمل والإصلاح.	تلي على المتهم فلان الفلاني
السبب: نشر الدعاية المضادة للحكم السوفييتي، ومحاولته تشكيل تنظيم معاد لنظام الحكم السوفييتي	مكان وتاريخ الولادة صورة مصدقة

السكرتير

وهكذا لم يبق لي إلا أن أوقع وأخرج صامتاً؟ نظرت إلى الرائد - فيما إذا كان يريد أن أقول شيئاً... ويبدو أنه لا ينوي ذلك.. وزاغت عيناه باتجاه الباب.. وكأنه يقول.. إلي بالآخر.

سألته.. محاولاً أن أعطي هذه اللحظة شيئاً من الأهمية.. وبصورة دراماتيكية:

- أليس هذا قاسياً؟... ثماني سنوات.. ولأي سبب؟

لقد أدركت، أن كلماتي مشوبة بالنفاق.. إذا إننا... كلانا.. لم يحس بقساوة هذا الموقف.

١- لوحظ من تاريخ صدور الحكم، أنهم اجتمعوا في نفس ذاك اليوم الذي اعتبر يوم صدور العفو العام. لكن هذا هو العمل، لا يطيق صبراً قط!!.

- أشار لي ثانية.. أن أوقع.

وقعت... بكل بساطة ولم أجد أي شيء أفعله أو أقوم به.

طالما الأمر كذلك... أتسمحون لي، بأن أكتب أمامكم تظلماً. من هذا الحكم الجائر.

- كما تقتضي طبيعة النظام - حدجني، ووضع.. الورقة بين أوراق الرزمة المتوضعة على يساره، تلقائياً.

انصرف - أمرني الحارس

وخرجت.

(لم أكن سريع البديهة مثل جورجي كينو.. ما أن ناولوه الورقة، المحملة بقرار الحكم بخمسة وعشرين عاما، حتى قال: «هل هذا حكماً حياتياً - كانت التقاليد في السابق تقتضي عندما يحكم على الإنسان حياتياً كانت تقرع الطبول، وتصطف الصفوف، لكن. في هذه الأيام، بدا سماع قرار الحكم، وكأنه عبارة عن قراءة بطاقة الصابون - أجل خمسة وعشرون عاماً.. وانقلع».

أمّا ما فعله آرنولد رابوبورت، أمسك بالقلم، وقلب الورقة، وكتب: «أحتج، احتجاجاً قطعياً ضد هذا الحكم الإرهابي، الغير القانوني، وأطلب إخلاء سبيلي فوراً»... انتظر الضابط الناظر، متصبراً على هذا التصرف - إلا أنه هبّ بعدها، وثار، ومزق الورقة، مع ما كتب عليها... لا بأس ما زال قرار الحكم سالماً... ما هذا إلا صورة عنه.

أمّا المدعوة فيراكونييفا، كانت تتوقع أن يكون الحكم خمسة عشر عاماً، واستبشرت خيراً، وعندما اكتشفت، أن الحكم، كان عند التبليغ خمس سنوات فقط ضحكت ضحكة بهية، وسارعت إلى التوقيع، خوفاً من أن يتراجعوا.. ويسحبوا قرار الحكم... ارتاب الضابط من ذلك «هل فهمتم ما قرأته عليكم»؟ «أجل أجل... شكراً جزيلاً». خمس سنوات في معسكر العمل والإصلاح...

أما الشاب الهنغاري باتوش روجاش، تلوا الحكم عليه، عشر سنوات مكتوباً باللغة الروسية، دون ترجمة، وقف في الممر مشدوداً، وقام بتوقيعه دون إدراك منه بأن ما وقعه كان حكماً، وبقي بعدها زمناً طويلاً ينتظر انعقاد المحكمة.. إلا أنه وبعد مرور وقت طويل في المعسكر، تذكر الواقعة... وأدرك... بأنه قد تلقى قراراً بالحكم).

عدت إلى الغرفة، والابتسامة تعلو وجهي، والأكثر غرابة من هذا.. أنه وبمرور الدقائق، بت أكثر مرحاً واستهانة، لقد رجع الجميع بعشر سنوات، ومن بينهم كان فالنتين، لكن أكثر الأحكام صبيانيّة، كان قد تلقاها في مجموعتنا، المحاسب المجنون (لكنه بقي جالساً دون حراك).

تحت أشعة الشمس المنثورة بدت الأغصان من خلف النوافذ راقصةً جذلى، تداعبها نفحات النسيم الحزيراني الهادئ، وكما الأغصان كنا مسرورين نتجاذب أطراف الحديث، ويسود بيننا المرح والضحك، وتتعالى من هنا وهناك القهقهات.. لقد سر الجميع... في أن كل شيء سار بشكل طبيعي... وضحكنا معاً على صاحبنا المحاسب المضطرب.. ضحكنا على أحلامنا الصباحية، وكيف أخرجونا من الحجرات، وأوصوا لنا على زوادة محددة بأربع حبات من البطاطا وقطعتي خبز.

لا بد.. أنه العفو العام. قال البعض بثقة - ما هذا الذي نراه إلا إجراء عادياً، واعتيادياً من التخويف، بغية أن تترسخ الانطباعات في الذاكرة رسوخاً ما بعده رسوخ... لقد قال ستالين لأحد الصحفيين الأمريكيين:

ما كنية الصحفي؟

الكنية.. لا أعلم

ساقونا بعد ذلك، لاصطحاب الأمتعة... ووقفنا صفوفاً، وساقونا عبر الحديقة الجميلة، التي يكللها فصل الصيف.. ومن هناك إلى الحمام!

يا للسخرية... اعترتنا موجة من الضحك، وقهقهنا ملء أشداقنا، اللعنة.. يا لنا من مغفلين... نزعنا ثيابنا.. وعلقناها على المشاجب، وما زالت الضحكات، الصاخبة تعم بيننا... لقد أعطوا لكل منا قطعة صابون رقائقية من النوع الرديء.. ودخلنا في هذا الجو الصاخب، نغتسل كما العروس في ليلة عرسها، وتقاذفنا الماء الساخن، ودلقناه على أجسادنا مراراً، حتى بتنا كتلاميذ المدارس الذين انهوا امتحانهم للتو، منتعشين، لا شك من أن هذا السرور العارم السائد بيننا، خفف، عن أنفسنا وروح عنها، على الرغم من أنه لم يكن من حيثيته علامة رضا، بقدر ما كان دفاعاً حيائياً... وخلاصاً للجسد.. وبعد أن نشفنا أجسادنا ومسحنا همومنا، قال فالنتين مهدئاً، هامساً.

لا بأس.. ما زلنا شباباً.. وسنعيش مستقبلاً.. المهم الآن.. ألا نتراجع.. وما علينا عندما نذهب إلى المعسكر - إلا أن نصمت ولا نبوح بأيّ كلمة.. لأي كان، حتى لا يحكم علينا ثانية - سنعمل بشرف، ونصمت، ونصمت؟

هكذا.. آمن بالبرنامج المخطط.. وأمل هذا البريء المسحوق تحت الرحى الستالينية. إن أوافق معه على هذه الخطة، ونقضي مدة الحكم بسلام.. ولا بد بعد ذلك.. من أن تمحى من رأسك هذه الكوابيس المقلقة التي عشناها.

إلا أنني بدأت مع مرور الزمن، أحس في داخلي، إذا ما كان لزاماً علينا عيش الحياة، من أجل الحياة - إذاً فمن أجل أي شيء نعيش؟ من الغبن، أن نقول، بأن قسم التحقيق الخاص (٥٢٥) كان من نتاج مرحلة ما بعد الثورة... لا... فحتى في الزمن الغابر، كانت قد حكمت يكاترينا على الصحفي نيفاكوف، الذي لم يناسبها، ويعجبها، مدة خمسة عشر عاماً، ويمكن القول، أن قسم الأمن الخاص، الذي يقوم الآن، وبنفس الطريقة - بالحكم دون إجراء محاكمات، مثلما لجأ كل الأباطرة الذين

حكموا حب القاعدة الأبوية، القائلة، بأن (لا) تعني (لا)، /ونعم /تعني/ نعم/، وبدأت أسس الإصلاح القضائي، في ستينيات القرن التاسع عشر عندما بدأت تظهر عند الحكام وعند العامة، بوادر تشكل نواة لثمرة قوننة المجتمع، لا بل إن السبعينيات، والثمانينيات من ذلك القرن بدت أكثر من ذلك الحد، الذي بدأ عنده كريلنكو، متابعة حالات الاضطهاد الإداري، وإدانتها قضائياً، مع أنه كان هو نفسه، قد أرسل وطالبين معه إلى السجن، دون تحقيق أو إحالة على القضاء حسبما قضت أوامر الرفيق وزير أملاك الدولة (إحدى الحالات النموذجية، لنتاج قسم التحقيق الخاص). وأرسل مرة ثانية مع أخيه إلى منفى كلازون، وقد ذكر لنا كريلنكو المدعو فيودر رياكادين: بأنه استطاع، وبعد لأي، من أن يتوصل إلى مقابلة القيصر، وأرسل مع ذلك إلى المنفى حسب مشيئة الإرادة العليا، وأمثالهم الكثير الكثير.

بهذا يمكن القول من أن هذه العادة كانت موجودة، لكنها لم تكن مترابطة، وكانت تتم دون مسؤولية شخصية، عدا عن أنه هو من كان يمثل هذا القسم التحقيقي الخاص!! وإما أن يكون القيصر نفسه، أو المحافظ، أو الرفيق الوزير، واعذروني.. إن قلت بعد هذا كله، إن كل ذلك الذي كان فيما مضى، لم يكن جسيماً، كما هو كائن الآن، حيث يمكن لنا، أن نلم بتعداد تلك الحالات، والأسماء التي كانت ممثلة للقسم الخاص، وتتصرف حسب هواها ونستطيع كذلك تعداد الحالات التي تمت نتيجة هذا التصرف.

بدأت ضخامة، ومسافة التجاوزات في العشرينيات، وكي يتم مصادرة دور المحكمة، كان لا بد من أن تتكون سلطة ثلاثية فعالة، وأول هذه الثلاثية، ثلاثية الإدارة الحكومية السياسية، التي لم نكتفِ بالإعلان عن أسماء عناصرها - بل سخرت الدعاية لها!! ومن لا يعرف من كانوا في

سجن سالوفكسي هذا الثلاثي الموسكوي في الشهير - كليب بوكي، وفول، وفاسيلييف!

(من هو هذا الثلاثي... بالحقيقة!... إنه صاحب قرقعة التسلط والعنف في أعياد الصوم[1] عندما كان يسمع صوت اصطكاك أسنانه عند طحن العلف وعند أصوات اللسع بالسياط، ناهيك عما كان يتم في الخفاء.

لماذا.. هنا مكمن سر هذا الثلاثي... الذي لا يمكن معرفة هويته.. أهو محكمه - لا.. ألا ترى؟... إنهم ثلاثة.. وليس أربعة - إذاً ليست هي بالمحكمة!.. إنما هم أكمة مبهمة غير مرئية من قبل أي كان! على الرغم من أني كنت هناك مع من كان... إلا أننا لم نر قط أثراً لأحد. قام بمقاضاتنا، إنما قدمت الأوراق لنا والتي كان قد أقرها هذا الثلاثي وقالوا لنا: وقعوا... لقد كان الثلاثي هذا، أكثر ترويعاً، ورعباً من المحكمة الثورية، التي انعزلت فيما بعد واندثرت، وانقلعت في غرفة منفصلة، وأصبحت أسماء مكونيها وكنياتهم طي الكتمان. نعم.. هكذا تعودنا، أن نتصور أن أعضاء هذا الثلاثي لا يشربون ولا يأكلون ولا يتحركون وسط الناس، وما من مرة، اجتمعوا في جلسة واحدة - حتى تخرج من هناك قرارات الحكم - عبر الآلات الكاتبة (على أن تعاد النسخة بعد التوقيع من قبل صاحب الحكم، مع منع بقاء هذه الأحكام بين أيدي البشر).

هذا الثلاثي (الذي كنا قد تعودنا الكتابة عنه بصيغة الجمع، على الرغم من أننا لا نعرف، من هو، ومن يكون وأين يتواجد) لم يجب مرةً واحدةً على الطلبات المرفوعة إليه من المعتقلين على الرغم من الإصرار والإلحاح (ذلك بحجة عدم السماح بحدوث أيّ أعطال تعيق فرع المراقبة

١- كان يتم في بعض الأحيان، الإعلان عن الاعتقالات، لأسباب سياسية تبريرية تطلبتها المرحلة من ذلك الحين، إذ كان هذا بمثابة طقس من طقوس الاعتراف بانتهاء الصوم.

الفنيـة التـابع لإدارة الأمـن الـسياسي). لأنـه في حـال إطـلاق سـراح المتهم، تكشف الأمور عن عدم وجود أي ذنب يستحق هـذه الأحكام، بخاصة وأن الإحالـة للمحكمـة منعـت بتاتـاً، ولا بـد وأن يـترك المتهم، ليمـر عـبر هـذا الثلاثي، ليلقى نصيبه «منقوصاً بعشرين أو ثلاثين عامـاً من حياتـه» يقضيها (في مدينته ومقاطعته)، أو أن يوجه إلى المنفى لمدة سنتين، أو ثـلاث - حتى تصلم أذنه، ويكون موضع قلق وعذاب دائمين، طالما أنـه أصبح مـن عـداد أصحاب السوابق (نعم أستمحيك العذر أيها القـارئ الكـريم - إذ إننـا ثانية نضل، ونجد أنفسنا وقد عدنا إلى الكلام عن المنحى المسمى بانتهاك حقوق الإنـسان - وعلـى هـذه الـشاكلة يكـون مفهـوم الـذنب في أن يكـون غـير مذنب) حتى بتنا ندرك - أن القضية ليست من وقوع الذنب في حد ذاته، إنما مـن الخـط الاجتمـاعي الـذي يـشكله: إذ يمكـن أن يـزج الـبريء في الـسجن بغير ذنب، طالما لم يكن منسجماً مع الاتجاه الاجتماعي العام، وبالتالي قد يشكل خطـراً علـى ذلـك الاتجـاه، بينمـا يمكـن أن يطلق سـراحه، فيمـا لـو كان منسجماً معه، إنما عذراً منكم، لأننـا لا نملك قاعـدة حقوقية لـذلك ناهيك عن أننـا وآباءنـا، أمضينا خمسة وعشرين عامـاً، تحت ظل التشريع القـانوني الـصادر عـام ١٩٢٦، لا بل إننـا قمنـا بتوجيـه النقـد الـلاذع للقـانون الأسـبق، ووصـفناه «بأنـه ذو منحـى بورجـوازي غـير مقبـول». و «إنـه لا يملك الشمولية التشريعية لكافة قضايا المجتمع» وربما الخصر نقدنا «بسبب تلك العقوبة، عقوبة الإعدام شنقاً، وتنفيذها بطريقة التعليق البرجوازية، وتـرك جسم المحكوم عليه معلقاً بحسب ثقل جسده»[1].

لكـن... مـا بـالكم.. فهيهـات أن يتيح لنـا الـزمن، كتابـة هـذا التـاريخ الـشيق للجهـاز الـزمني، إذ إنـه عـبر الـسنين الطويلـة، الـتي تواجـد بهـا هـذا

١- من السجن الى مؤسسات الإصلاح.

الثلاثي، كان يملك الحق والصلاحية بشكل دائم، لأن يدين غيابياً، أو يحكم بالإعدام رمياً بالرصاص (مثلما طبق على الأمير المعروف بافل دولكاردكوف عام ١٩٢٧، أو ما طبق على بالتشنيسكي فون ميكو، وفيلشكو عام ١٩٢٩)، فهل استخدم هذا الثلاثي هذه الصلاحيات فقط، في تلك الحالات، التي كانت لا تكفي فيها الإثباتات والأدلة؟ لا.. لقد استخدمها بشكل ظاهر للعيان في تلك الحالات، التي كان يتشكل فيها الخطر الاجتماعي الشخصي - وترحرحوا فيها حسب ما أرادوا، ! وما إن جاء عام ١٩٤٢، حتى تغير اسم إدارة الأمن السياسي الحكومي، ليصبح اللجنة الوطنية للشؤون الداخلية، وصار يطلق على هذا الثلاثي في دار القضاء (بيليا كايي) الهيئة الاستشارية الخاصة في المركز، فيما صار يسمى في الأقاليم - بالهيئة الخاصة لمحاكم الأقاليم، وكانت هذه الهيئات الثلاثية، تجتمع بشكل سري مغلق، دون أن يحضر الاجتماع، أي من نواب الشعب. وشكلت في الأقاليم وفي الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، بدءاً من ١٩٣١، مجموعات ثلاثية مؤلفة من سكرتير لجنة الأقاليم، ورئيس الأمن الداخلي، والنائب العام في الإقليم (بينما أضيف إلى هذا الثلاثي في المركز (موسكو) ثنائي مؤلف من قوميسار الشعب لشؤون الأمن الداخلي (وزير الداخلية)، والنائب العام لعموم الاتحاد - وأظنكم لا توافقون، لو سمينا يوسف فاسيرنوفيتش في عدادهم، لأن ذلك ليس لائقاً في حقنا)، إنما وبحلول عام ١٩٣٨، أصبحت هاتان المجموعتان الثلاثية، والثنائية الإضافية، أثر بعد عين (لأن نيقولا يوجوف أراد ذلك) - إلا أنه في المقابل، تعزز وجود وليدنا المسمى بفرع التحقيق الخاص (٥٢٥)، الذي أعطى لنفسه الحق، بإنزال أشد العقوبات غيابياً - بدءاً من عشر سنوات، فما فوق حتى الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص، واستمر هذا الوليد يعمل بشكل فعال حتى عام ١٩٥٣، حتى لحظة تعثر السياسي النبيل الخير المدعو بيريا.

استمر وجود هذه الصيغة، تسعة عشر عاماً، وربما تساءلنا، من الذي شغل رئاسة هذا المنصب من سياسيينا المجدين العظام؟ وكيف جرت عملية التداول - كلٌ هذا على حد سواء، تحدثوا (تناقشوا) أو لم يتحدثوا!! فإننا لا نستطيع أن نكتب عن هذا - لأننا لا نعرف، إنما ترامى إلى أسماعنا، من أن الأساس في تشكيل الهيئة الثلاثية للتحقيق الخاص - على الرغم من صعوبة ذكر أسماء أعضائها - هو أن يشارك فيها كل من النواب، أو ممثليهم في الأجهزة، وواحد من اللجنة المركزية وواحد من القوميسارية الوطنية للشؤون الداخلية (وزارة الداخلية) وآخر من النيابة العامة، وربما لم يكن مستغرباً لو عرفنا أن هذه الهيئة لم تعقد أيّ اجتماعات، أو جلسات، بل كانت تتواجد مجموعة من ضاربي الآلة الكاتبة المجربين، وتقوم بصياغة النسخ من الأوامر والقرارات، دون اعتماد على أيّ محاضر تحقيق مصاغة من قبل الهيئة، ومرسلة إلى رئيس فرع ضاربي الآلة الكاتبة، ونستطيع أن نجزم أن ضارب الآلة الكاتبة هو البديل للهيئة السالفة الذكر - هذا ما نستطيع أن نضمنه ونكفله!

لم يذكر في أي نص، لا في دستور ولا في التشريع القانوني، شيء يعرف بهيئة التحقيق الخاص، وقد بينت التجارب بأنها ليست إلا فرامه كباب مريحة - غير عنيدة، ولا مطلبية، ولا لجوجة، ولم يعوزها أي تشحيم قانوني - فالتشريع القانوني موجود لذاته، والهيئة (التحقيق الخاص) موجودة كذلك لذاتها، وتصرفت بسهولة مطلقة، دون أي تفحص، وتمحيص في مواد القانون البالغة مئتين وخمس مادة لا بل أنهم لم يذكروها حتى.

وكما كان المعتقلون يتبادلون المزاح فيما بينهم: حول الإجابة لا... إذ يأتي الرد لا محكمة... إنما إليك هيئة التحقيق الخاص.

من الطبيعي، وبغية تحقيق الإنتاجية المطلقة في العمل، لجأت الهيئة إلى إيجاد نوع من المصطلحات، واخترعت لذاتها، نوعاً من المواد القانونية

المطبوعة، المسهلة للعملية (فلا ضرورة لوجع الرأس، طالما يمكن أن يتم توافقها مع الصيغة التشريعية للقانون)، وسنعمد هنا إلى ذكر بعض هذه المصطلحات التي علقت في الذاكرة منذ أيام الطفولة (وندون بعض ما تذكرناه):

- الدعاية المضادة للنظام السوفييتي - د. م. ن. س.
- عبور الحدود بشكل سري - ع. ح. س.
- نشاط معاد للثورة - ن. م. ث.
- نشاط تروتسكي مضاد للثورة (الجاسوسية التي تخرج عن إطار الارتياب تحال إلى المحكمة).
- إقامة العلاقة التي تؤدي!! إلى الارتياب بالجاسوسية.
- التفكير المضاد للثورة.
- القذف للنظام السوفييتي.
- عنصر اجتماعي مخرب.
- نشاط إجرامي (طبقت على سجناء المعسكرات السابقين، بشكل عشوائي، وفي تلك الحالة، التي لم يجدوا فيها تهمة أخرى).
- وأخيراً التهمة ذات الاستخدام الواسع.
- عنصر السبعة (أي المدان، بأي من المصطلحات السابقة).

ويجب ألاّ ننسى أن هذه المصطلحات لم تطبق على كافة الناس في كل السنين بشكل متماثل، إنما كانت تأتي مطابقة للمفهوم التشريعي أو المراسيم، والقرارات الصادرة بشكل فجائي كوباء طاحن.

نضيف مرة ثانية، إن هيئة التحقيق الخاص، لم تطلب الحكم على الإنسان المتهم - ولم تحكم عليه!! بل كانت تقرر العقوبة الإدارية.. هذا كل ما في الأمر، وطبيعي بعد ذلك، أن يكون المتهم مالكاً الحق في الحصول على الحرية القانونية.

رغم أن العقوبة لم تتحول إلى حكم قضائي، إلا أنه كان من الممكن أن تبلغ حتى خمس وعشرين سنة، أو قل قد تبلغ حد الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص، إضافة إلى:

- الحرمان من الرتبة، والأوسمة.
- مصادرة كافة الأملاك.
- الزج في السجون المغلقة.
- الحرمان من الحقوق المدنية.

كذلك كان يمكن للإنسان أن يختفي عن وجه الأرض، الشيء الذي يعتبر أكثر وثوقية من تلك البدائية، التي يتصف بها الحكم القضائي.

إن إحدى الأفضليات المهمة لهذه الهيئة، هي أن قراراتها، كانت غير قابلة للاعتراض، والشكوى، والطعن أمام أيّ هيئة، أو جهة كانت، ولا توجد أيّ مؤسسة، أو فرع أعلى أو أدنى منها، وكانت خاضعة فقط لسلطة الوزير (وزير الداخلية) (القوميسارية الوطنية للشؤون الداخلية) ولستالين.

من أكثر إيجابيات هذه الهيئة على الإطلاق، كانت السرعة إذ إن الشيء الوحيد، الذي كان يحد من سرعاتها فقط، هو الوضع الفني للآلات الكاتبة.

وأخيراً، إن الهيئة الموقرة لم يعوزها قط، أن ترى المتهم بأم عينها (الأمر الذي ساعد، وساهم في عملية الحد من المواصلات بين السجون)، بل إنها لم تطلب حتى صورته.

أما في الأوقات التي كان فيها السجن يشحن حتى الامتلاء - كانت تطبق ظاهرة حسنة، ألا وهي، أن السجين الذي أنهى مرحلة التحقيق، كان يرسل فوراً إلى المعسكر ليعمل بشرف وكي لا يشغل مساحة من

أرض السجن، ويأكل الخبز دون عمل، إذ إنه في المعسكر، يأكل قوته بعرق جبينه، ويستطيع لاحقاً أن يطلع على نسخة قرار الحكم، وإن كان متأخراً.

في الحالات الممتازة، كان يحصل التالي: بعد أن يتم تفريغ السجناء من المقطورات في المحطة المحددة للتفريغ، يركع السجناء قرب سكة القطار (ما هذا إلا حيطة وحذر وتحرز من فرار السجناء، عدا عن أن الركوع، كان بمثابة الصلاة خشوعاً للهيئة المكرمة). لتتلى عليهم قرارات الأحكام، وحدث في بعض الأحيان، نوع آخر من المنازعات، وهو أن القادمين إلى سجن بيربيور عام ١٩٣٨، لم يعرفوا مدة حكمهم، ولا المادة التي حوكموا بموجبها، ولا نوع السجن، وعند استقبالهم بدأ الكاتب يفتش في لائحة الأحكام، عنصر اجتماعي مخرب - خمس سنوات، وهكذا كان الكثير من السجناء، قد عملوا في المعسكرات لعدة أشهر دون أن يعرفوا مدد حكمهم، وبعد هذا كله (كما يقول المدعو وير باك) كان علينا، أن نقوم بالاصطفاف بشكل احتفالي - إذ إنه لم يكن هذا اليوم يوماً عادياً بل كان اليوم الأول من أيار عام ١٩٣٨، حيث رفرفت الأعلام الحمراء عالياً - وأعلنت قرارات الحكم، المقررة من الثلاثي بتوجيه من ستالين، من عشر سنوات، إلى العشرين - وكنت في ذلك الوقت ضمن جماعة في المعسكر، يقودها المدعو (سيس بريوخوف، وكان قد أرسل إلى المعسكر عام ١٩٣٨، مع قافلة كاملة من السجناء، الذين لم يحاكموا، ونقلوا من تشيليا بنسك، إلى تشيريوفيتش، ومرت الشهور، والسجناء يعملون، وفجأة في أحد الأيام الشتوية، الذي صادف وكان يوم راحة في المعسكر (لاحظوا أي يوم، وأيّ فائدة ترجى من هذه الهيئة الموقرة)! ساقوهم إلى الخارج، حيث الصقيع القارس، وصفوهم فوق الجليد الذي كان يقرقع تحت أقدامهم، وانبرى الملازم، ليقدم نفسه، بأنه مرسل

بتكليف من القيادة، لإعلان قرارات التهم الصادرة عن الهيئة، لم تظهر على وجه الشاب علامات الحقد، إذ وقف متمايلاً، وأدار حذاءه نحوهم، باتجاه الشمس، التي بدت لامعة على حذائه أكثر من لمعانها على أعمدة الجليد النازلة من مزاريب السطوح، وقال:

على أيّ حال، أيها الشباب، لا حاجة للإطالة هنا، وفي هذا الجو الجليدي! تعلمون أن الهيئة حكمت على كل منكم بعشر سنين، وقليل من حكم عليه بثمان!.

مفهوم... انصراف.

★★★

لا ضرورة، ولا حاجة حتى للمحاكمة - طالما يتوفر مثل هذا الوضوح، وتلك الصراحة، عند ضاربي هيئة التحقيق الخاصة... فلمَ امتطاء الخيول، طالما تتوفر وسيلة نقل عصرية، ألا وهي الترامواي التي لا تستطيع أن تقفز منها! ولا تحتاج فقط إلى تقديم العلف القضائي لها!!

لكن... ليس من اللائق، ألاّ تكون عند الدولة محاكم!، لقد ورد في برنامج الحزب الصادر عن المؤتمر الثامن عام ١٩١٩، يجب السعي، ولكي يستطيع السكان الكادحون، دونما استثناء المشاركة في توجيه الواجبات القضائية «دون استثناء». إلا أن المشاركة لم تتحقق، والعمل القضائي دقيق، إنما دون محاكم على الإطلاق.

على أيّ حال، إن محاكمنا السياسية - الهيئة الخاصة لمحاكم الإقليم، والمحكمة العسكرية للمناطق، وكافة المحاكم العليا - كلهم ينجذبون وراء الهيئة الخاصة للتداول والتحقيق، فهم أيضاً، لم ينغمسوا في المرافعات العلنية، والمداولة بين الأطراف إذ إن السمة الأساسية - هي السرية، ولذا تراهم قبل كل شيء منغلقين، بغية تأمين الأريحية في العمل.

لقد تعودنا على إدانة الملايين، الملايين من الناس في جلسات سرية، ولكم تكدّر عيشنا بسبب هذا الابن المعذب، أو ذاك الأخ، أو الحفيد الذي حكم عليه، وفوق كل هذا، وذاك، ما زال المسؤولون، يشكون إلينا، ويتذمرون بثقة كاملة: «كيف تريدون... أتريدون أن نتداول القضية علنا... كي يعرف الأعداء إنّه لأمر محذور كما تعلمون»!.

هكذا إذاً خوفاً من أن يعرف الأعداء، علينا أن نضع رؤوسنا بين الركب، ومن منا يتذكر ما حدث في تاريخنا الوطني، دون العودة إلى الكتب التي نخرها الدود والتي جاء فيها، إن كراكوزوف الذي أطلق النار على القيصر مباشرة، منح الحق في أن يعين محامياً له!، وإن بيليايوف، مع أعضاء حزبه، قد تمت محاكمتهم علنياً دون، أن يتلبسهم أي خوف، من أن «يعرف الأتراك»!، وإن فيرازاسولتيس، التي أطلقت النار على ما يعرف بمصطلحنا العصري، مدير إدارة العاصمة، (أي رئيس الشرطة). (قد جرح، ولم تكن إصابته بليغة، بسبب عدم الدقة في التسديد، على الرغم من أن عيار الطلقة كانت من النوع، الذي يستخدم في صيد الدببة) - لم تتم تصفيتها خلف الجدران، وكذلك لم تتم محاكمتها في الخفاء - بل حوكمت علناً ودافع عنها قضاة محلفون (ليس ثلاثي) - وسط حشد شارعي خرجت منتصرة، ورحلت على مركبة خيل فاخرة!!.

لا أريد القول عبر هذه المفارقات، إن المحاكم في روسيا القيصرية، كانت هي الأفضل، ولربما كان من الأجدى أن نقول: إن المحاكم الأفضل هي تلك، التي تأتي ثمره جهد المجتمع الناضج، الشيء الذي كان من الواجب أن يملكه القيصر سالامون، ويقول فلاديمير دال، إنه حتى ما قبل الإصلاح في روسيا القيصرية «لم تستخدم، ولا كلمة واحدة، من كلمات المديح لهيئة المحكمة»!! ولا بد من أن هذا قد يعني شيئاً ما، إذ إنهم لم يستطيعوا صياغة، أيّ عبارة مديح للحكام المدنيين، والقضاة الأرضيين،

وقد أدى الإصلاح القضائي عام ١٨٤٦، إلى تغيير جزئي في مجتمع المدنية، وبالتالي مجتمعنا، ووضعته على الطريق المؤدي إلى النموذج الإنكليزي.

أقول كل هذا، ولا أنسى قول ديستوفسكي ضد قضاتنا المحلفين (يوميات كاتب): عن الإفراط في بلاغة المحامين «السادة القضاة المحلفون: نعم أيّ امرأة كانت هذه، لو أنها لم تقم بطعن غريمها! أجل أيها السادة القضاة المحلفون: ترى من منكم... ممن لم يرم الطفل من النافذة»؟... ويضيف ديستوفسكي: كيف أن لدى القضاة المحلفين بواعث لحظية، يمكن أن تؤدي إلى تعليق المسؤولية المدنية، لكن ديستوفسكي لم يحذر من ذاك، الذي كان يجب أن يحذر منه: إذ اعتبر بأن المحكمة العلنية، ستكون موجودة في كل الأوقات!! (أجل... من استطاع حتى من معاصريه، أن يصدق، ويتوقع من أنه ستكون مثل هذه الهيئة، هيئة التداول، والتحقيق الخاص»، ويضيف الكاتب في مكان آخر «الأفضل» أن نخطئ في الرحمة، خير من أن نخطئ في العقوبة»...

أوه... نعم.. نعم.

إن المغالاة في استخدام البلاغة، لا يعتبر وباءً متفشياً في المحاكم فقط، بل تفشى على نطاق واسع في الديمقراطية المحدثة (وعلى الرغم من حداثتها، إلا أنها استطاعت أن تعقد أهدافها الأخلاقية)، ويعتبر الأنموذج الإنجليزي، من أسطع الأمثلة على ذلك، إذ إنه، ومن أجل خلق التوازن بين الأحزاب، فإن زعيم المعارضة لا يتحرج أبداً، من أن يصف الحكومة بالأسوأ تردّياً، أكثر مما هو في الواقع وإن الإكثار من البلاغة.. لهو دون شك، من أشر الشرور، إلا أنه يصعب علينا، إيجاد كلمة، تأتي مناسبة للإطراء على فرط الانغلاق، والتكتم هذا! لقد حلم ديستوفسكي[1] عن

١- نرى هذا في الحزب، وليس لنا أن نستغرب في أن ديستوفسكي حذر من هذا، أي علينا الا نذهب معنوياً بأنفسنا الى الأمام، بعيدا عن حياتنا الحالية.

تلك المحكمة، التي يتكلم فيها المدعي العام، ويقول كل ما هو ضروري، ليكون دفاعاً عن المتهم، وتبرئته، لكن كم علينا، أن ننتظر.. القرون!!.

إن تجربتنا الاجتماعية الحالية، أغنتنا بصورة منقطعة النظير، بمثل هؤلاء الحقوقيين، الذين يدينون المتهم (الذي هو في نهاية الأمر، إنسان سوفييتي شريف، وطني حقيقي، وإنه... ليتملكني الاشمئزاز عند ذكر هذه الشرور والفضائح). فيالروعة هذه الجلسات المغلقة! إذ لا داعي لارتداء قفاطين القضاة ويمكن لك حتى أن تشمر عن زنودك.. ويا لسهولة العمل - دون ميكرو - فونات، ودون صحفيين، ودون جمهور - (وننوه إلى أنه لا يوجد جمهور، ليس بمعنى كلمة جمهور.. إنما الجمهور هنا هو، حضور جماعة من المحققين، القادمين «للاستماع ومراقبة الكيفية، التي يتصرف فيها أربابهم المهنيون - مثلما كان في مدينة لينينغراد - وبعدها، وأثناء الليل يقومون بزيارة السجن، ليطلعوا على أوضاع أولئك الذين يجب أن يقدم الإنصاف لهم».

إن السمة الأساسية الثابتة، المميزة لمحاكمنا السياسية، هي التحديد الدقيق، أي تقدير الحكم بشكل مسبق.

كل ما أسلفناه، ورد في كراس عنوانه «من السجن»، وجاء فيه، أن تقدير الحكم وتحديده بشكل مسبق قضية قديمة، إذ إن الأحكام في عام ١٩٢٤، وحتى عام ١٩٢٩، كانت تنظم على التصور الإداري، الاقتصادي فقط، وبدءاً من عام ١٩٢٤، وبسبب العطالة العمالية، قللت المحاكم في البلاد من إصدار الأحكام التي كانت تنص على إرسال المحكومين للعمل، مع استمرار المحكوم بالعيش في المنزل، وأكثروا من تلك الأحكام القصيرة المنفذة في السجن (حدث هذا نتيجة للظروف المعاشية)، وامتلأت السجون، من جراء هذا بذوي الأحكام القصيرة الأجل (البالغة ستة أشهر) إذ إن الوقت القصير لم يكن كافياً. لاستخدامهم في

المستعمرات. وفي بداية عام ١٩٢٩، أصدرت الدائرة الحقوقية لعموم الاتحاد، بياناً أدانت فيه الأحكام القصيرة الأجل، واعتباراً من ١٩٢٩/١١/١٦ (أي قبل مرور الذكرى الثامنة عشرة لثورة أكتوبر، ثورة البناء الاشتراكي) حدد قرار اللجنة المركزية لإدارة هيئة القضاة والتحقيق، عدم إصدار حكم يقل عن سنة!.

إذاً، يعرف القاضي مسبقاً - طبقاً لقضيتك، وبعد الاطلاع بشكل موجز، وطبقاً للتوجيهات والإرشادات - الحكم الأنسب (للتنويه فقط كان يوجد هاتف في غرفة القضاة)، لدرجة كانت قرارات الأحكام مطبوعة، حسب النموذج الصادر عن الهيئة، ومعدة على الآلة الكاتبة مسبقاً، بحيث يبقى مكان الاسم والكنية شاغراً ليكتب فيما بعد بخط اليد، وربما يصرخ المحكوم الوجل في وجه المحكمة: «تباً كيف لي أن أكون متطوعاً في جيش ايكنانوفسكي، ولم يكن لي من العمر عندها، أكثر من خمس سنوات»!.. لقد تقرر كل شيء.. الإعدام لكافة أعضاء مجموعة ايكنانوفسكي، إلا أن واحداً منهم يدعى ليبوف، لم يتعرف إليه أحد من الأعضاء، ولم يستطع كذلك التعرف عليهم، وعلى الرغم من ذلك تلقى المسكين، حكماً بعشر سنوات - إنه التقدير المسبق للأحكام - ما بالكم فهذا يسهل حياة القضاة الشائكة!، ولا يتعلق هذا التهوين الحياتي، بالفعل نفسه، إذ لا ضرورة لاستخدام التفكير - بل يبقى التهوين، تهويناً معنوياً، فإنك لا تتألم، حتى لو أخطأت في إصدار الحكم، ويموت أطفال هذا المسكين، ولم يحدث قط، أن نطق هذا القاضي - القاتل الهادئ أولبرخ - بأيّ أحكام إعدام جماعية - فالإقرار يبقي الحكم ويحقق طيبة القلب.. ونظرت هيئة القضاة عام ١٩٤٥ في قضية «الآستون الانفصاليين»، وترأسها في تلك الآونة، أولبرخ - القصير البدين، الطيب القلب، المعروف، بأنه لا يفوت فرصة، دون مزاح، فسيان إن كان مع

زملائه، أو مع المعتقلين (أليست هذه حالة إنسانية محببة، وظاهرة جديدة... لكن الوبال في إنها تظهر في وقت غير مستحب)! وما أن عرف رئيس القضاة أن المتهم الواقف أمامه يدعى سوزي ويمتهن المحاماة حتى علت وجهه ابتسامة عريضة وقال متهكماً «إن مهنتكم تليق بكم» لكن ما الذي تتصرفه بعد هذا؟... ولمَ الضغينة؟.. فالمحاكمة تجري بنظام مريح وأدار رأسه على الفور باتجاه القضاة الذين يمجون بسجائرهم في هذا الوقت الممتع، وأعلن استراحة الغداء اللذيذ وجاء المساء - الأمر يتطلب المشاورة، والتداول لكن من سيقوم بهذا العمل في الليل - أما المعتقلون أجبروا على البقاء خلف المنصات طوال الليل، وذهب القضاة إلى منازلهم، وفي الصباح الباكر وفي الساعة التاسعة، : جاء القضاة حليقي الذقون «قيام... بدأت المحكمة» الحكم على الجميع بالسجن عشر سنوات.

وفي النهاية، بقي لنا أن نورد الخاصية الثالثة لمحاكمنا - ألا وهي خاصية الديالكتيك (لكن، وكما كان يقال قديماً، وإن بدا مثل هذا القول فظاً «تخرج الضرطة، مهما تبرمت منها» وهكذا لا يصح، ولا بحال من الأحوال، أن يكون القانون حجر عثرة في طريق المحكمة، ويجب ألا تعيقها هذه المواد، التي انقضى عليها عشرة أو خمسة عشر، أو عشرون عاماً، فالحياة إلى انقضاء كما يقول الشاعر فاوست:

إن العالم كله يتبدل

والكل يتحول

إلى الأمام

ولست لمخالف لهذا القول، ولن أتجرأ.

لقد ألحق الكثير من الإضافات المساعدة بالمواد، إن كان بالاجتهاد، أو بالقرارات أو بالإيضاحات، بحيث لم تعد تكفي مواد

التشريع القانوني، ولا بد من أن تتوفر لها مصادر أخرى، يتم الحكم على أساسها:

بالقياس (من كافة الأنواع).

حسب المنشأ (الملحق ٧-٣٥ فقرة عنصر خطر اجتماعياً).

الاتصال مع العناصر الخطرة[1] (أين تتوفر مواصفات مثل هذه الشخصيات الخطرة، وما عناصر الاتصال، وإقامة العلاقة - هذا ما سيعرفه القاضي فقط).

يجب ألاّ نلجأ إلى الفهم الدقيق لمواد ذلك القانون الصادر في ١٣ كانون الثاني عام ١٩٥٠، القاضي بإعادة استخدام عقوبة الإعدام (علينا أن نفكر.. بألا يكون هذا القرار، قد أعد خارج أقبية بيريا)، وورد فيه حرفياً: يمكن لنا أن نعدم المخربين - المتسللين)! ولكن ماذا يعني هذا القول؟. ولم يرد أي تغيير لهذا الكلام.. لكن يوسف فاسباريفوفيتش أراد أن يختصر القول، ويلمح تلميحاً إلى ما يريد، وهل المقصود هنا إعدام من يقوم بتفجير خطوط السكك الحديدية؟... لا إيضاح.. ولدينا التصور الكافي من هذا «المتسلل» منذ زمن بعيد، هو من يساهم في إنتاج مواد ذات نوعية رديئة - هذا هو المتسلل، أما ما تعنيه كلمه «المخرب»، ذاك الذي يتحدث في الترامواي بأحاديث تحط من قدر الحكومة - أي من يتقول بأحاديث تخريبية أو قد تكون تلك المتزوجة من أجنبي - أليس القيام بمثل هذا العمل يحط من قدر وطننا؟

نعم.. القاضي لا يمارس القضاء - بل يقوم باستلام الراتب، وإن من يقاضي هو الدليل القانوني، الذي نص في عام ١٩٣٧- على ضرورة تنفيذ من عشر إلى عشرين حالة إعدام، أما ما جاء في دليل عام ١٩٤٣، الحكم على

١- لم نسمع بهذا قط، إلا ان صحيفة الإزفيستيا كان قد نشرت هذه الأشياء عام ١٩٥٧.

الجميع (بقلب بعضهم بعضاً) بعشر سنوات، إضافة إلى خمس سنوات حرمان من الحقوق المدنية (أما إذا كان المتهم، من القوة العاملة، يكون الحكم ثلاث خمسات)[1] وفي دليل التاسع والأربعين: خمسة وعشرون عاماً (هكذا كان قد تلقى المدعو سولتس برلين «الجاسوس الحقيقي» حكماً في عام ١٩٤٨- عشر سنوات، الشيء الذي لم يحدث بالنسبة للمدعو هيونتر فاشكوي - خمسة وعشرون عاماً، السبب في الفارق بين الحكمين، هي أحداث عام ١٩٤٩).

وهكذا الآلة تدور، يتلقى أحد المتهمين حكماً بالحرمان من كافة الحقوق، حتى ولو قطعت كل أزراره على عتبات المسؤولين استجداءً، فالحكم حكم، لأن العاملين الحقوقيين، لم يتعودوا على مثل هذه الطلبات قط، ولقد فضحوا في عام ١٩٥٨: المقترح الجديد، على أثر نشر الصحف «لأسس القانون الجنائي الإجرائي لعموم الاتحاد السوفييتي، الذي لم يرد فيه، ولو بند واحد (ربما نسوا ذلك)، يشير إلى إمكانية الحكم بتبرئة المتهم، وقامت الصحيفة الحكومية بنشرها (الإزفيستيا بعددها العاشر من أيلول عام ١٩٥٨)، «الأمر الذي يترك انطباعاً عاماً، عن أن محاكمنا تعطي الحكم القضائي فقط.. وليس إلا».

لو أننا ما انحزنا إلى جانب القوميين قليلاً، وتساءلنا، لماذا المحكمة تملك حق الخروج من بابين، رغم أن الاختيار يتم من قبل النائب العام نفسه، دون أحد غيره؟ نعم.. هكذا فالحكم بالبراءة - يعتبر فكرة اقتصادية فارغة، كما يعني، أن المخبرين، والمحققين، والنواب العامين، والحراسة الداخلية للسجن، والحراسة الخاصة بالقوافل السجنية، كلهم

١- لقد صرخ بابايف في وجههم، معبراً عن الحقيقة (ماذا قلتم الحرمان من الحقوق السياسية؟) فو الله لو انكم علقتموني ثلاثمائة عام!، فإني لن ارفع يدي عليكم، ولو كان حتفي يا أيها العاملون الخيرون!!..

دون استثناء، يكونون قد عملوا عملياً في الفراغ، وضاع جهدهم هباءً منثوراً.

وهنا.. نورد أليكم نموذجاً بسيطاً عن محاكمنا؟ كانت قواتنا عام ١٩٤١، مرابطة في منغوليا، ساكنة دون حراك، ودون أي عمل، وكان لا بد من أن يعمل القسم العملياتي للأمن الخاص، لكي يعطي انطباعاً عن يقظته، وقد أفلح المرض في المستوصف العسكري، المدعو لازورفسكي، ونتيجة لغيرته (على ف)؟ على امرأة كانت تلاطف الملازم تشولبنيوف، حاول إيجاد طريقة ما ضد الملازم المذكور، وقام المرض باصطناع حديث متكلف مؤلف من ثلاثة أسئلة وجهها للملازم:

١- ما رأيك.. لماذا تنسحب قواتنا أمام القوات الألمانية؟ (تتوفر له القدرة التكنولوجية الكبيرة، ذلك أن الألمان قد قاموا بتأليل قواتهم منذ زمن بعيد.

- لازورفسكي... لا - إن ما تقوم به قواتنا من انسحاب ما هو إلا مناورة نخدع بها العدو)!.

٢- هل تثق بما يقوم به الحلفاء من تقديم المساعدة لنا؟ (أصدق في أنهم سيقدمون المساعدة لنا، لكن ليس دون هدف).

لازورفسكي - يكذبون... إنهم لن يقدموا المساعدة.

٣- لماذا أرسل فورشيلوف لقيادة الجبهة الشمالية الغربية؟ أجاب تشولنيوف، ونسي إجابته. أما لازورفسكي قام بكتابة التقرير، وتم استدعاء الملازم، إلى قسم الأمن الخاص في الغرفة، وحرم من الاشتراك في منظمة الكومسمول، بسبب إغوائه للنساء (وكيل المديح للتكنولوجيا الألمانية، والتقليل من أهمية الخاصية الإستراتيجية لقيادتنا، ونسي أن من أكثر الناس حذاقة في مثل هذه الزحلقة هم الزملاء الكومسموليون (اعترف لازورفسكي في خالخين - كول وأمام الملازم - بأنه جبان، ولم يبق أمام الملازم، إلا إبعاد هذا الشاهد الدليل).

اعتقل الملازم، نتيجة الأقوال التي أدلى بها الشاهد لازورفسكي أثناء الحديث، دون أن يعمد المحقق إلى السؤال عما دار بينهما - بل قام بتوجيه سؤال واحد: هل تعرف هذا الإنسان؟ - نعم - الشاهد انصراف (يخاف الشاهد أن يسقط الاتهام عن المتهم)[1].

بعد أن قضى الملازم شهراً في حفرة التعذيب، مثل أمام المحكمة الميدانية للفرقة النارية /٣٦/، وحضر الجلسة كل من: قوميسار الفرقة ليبيديف، ورئيس القسم السياسي سلياروف، دون استدعاء الشاهد ثانية لحضور المحكمة (غير أنه، وبغية توثيق الأدلة الكاذبة، يقومون بعد انتهاء المحكمة، بتوقيع الشاهد لازورفسكي - والقوميسار سيرغي). أما الأسئلة التي وجهتها المحكمة: هل كان بينكما حديث (أنت ولازورفسكي)؟ وماذا سألكم؟ وما هي الإجابات التي تفوهتم بها؟. ويقوم تشولبنيوف ببساطة مطلقة، بالدفاع، ولا يرى نفسه حتى هذا الوقت مذنباً في أي شيء «أليس الجميع يتبادلون الحديث»، إلا إن الملازم، ليس من نوعية ذلك الصنف!، وفي النهاية يسمحون له بكلمة أخيرة «أرجو من المحكمة، أن تغير النظر، وتتأكد من تاريخي الوطني، كما وأرجو أن أكلف بأيّ مهمة، تتطلب حياتي!، يا له من بطل عفوي: «أجل لقد أسندوا لي المهمة - أنا وذاك المفتري معاً».

إيه... لا... إنها عادة الفرسان الملكيين، ومهمتنا كما تعلم محدودة في أن نذبح الشعب ليس إلا، ولم يبق على لازورفسكي، إلا أن يقدم عناصر، وأسباب هذا الذبح، ويقوم سيرغي فيما بعد بدوره التربوي للمقاتلين[2] وهل

١ـ اصبح لازورفسكي الآن مرشحاً للعلوم الأكاديمية (بروفسور من الدرجة الأولى ـ اختصاص طب) ويعيش في موسكو، واموره بألف خير، اما تشولبنيوف يعمل سائقاً على الترامواي.

٢ـ الاسم الكامل سيرغي فيكتور إيفانوفيتش، يعيش الآن في مدينة موسكو، ويعمل في شركة المواد الغذائية التابعة لمجلس موسكو ـ ويعيش بشكل جيد.

من المهم بعدها، إن مت، أو لم تمت؟ فالمهم أن تكون دائماً على يقظة كاملة، وبعد أن خرجوا من المحكمة للتدخين، عادوا؟... وعشر سنوات سجن، وخمس حرمان من الحقوق.

تكررت مثل هذه الحوادث في كافة الفرق، لعشرات المرات (أليس من المكلف، المحافظة على محكمة واحدة في الفرقة). ويكفي لك أن تتصور عدد الفرق، وتقدر عدد هذه الحوادث، طالما لا يختلف المفسدون عن بعضهم بعضاً عند جلسات المحاكم، فالمعسكر قريب لتلك المحكمة الظالمة - حيث القفازات المطاطية، والأحكام - إنها خطوط الإنتاج الآلي.

يتصنع الجميع الجدية، إنما الكل يدرك بأن هذا - ما هو إلا عرض هزلي. وأكثر ما يدرك هذه المهزلة - هم شباب القوافل، الذين كان يتم استقبالهم عام ١٩٤٥ في المعسكر الانتقالي للنفي، المسمى نوفا سبيرسك، بناءً على لوائح اسمية، تبين مدد الأحكام لكل واحد منهم، «فلان... الفلاني - بناءً على المادة /٥٨/ البند الأول.. خمسة وعشرون عاماً» ولكم استساغ قائد القافلة في كثير من الأحيان، معرفة السبب «ما سبب حكمك»؟ - «ليس لأي سبب»! - «تكذب - ليس لأي سبب. عشرة أعوام»!.

إذا ما طلبت المحكمة التعجل، عندها قد تستمر جلسة «التداول» دقيقة واحدة - دخول خروج، وإذا ما تراكمت الأعمال لدى الهيئة القضائية لدرجة كبيرة، قد يستمر العمل ست عشرة ساعة، إذ تحضر غرفة الاجتماع، ويمد الغطاء الأبيض على الطاولات المجنحة، المزدانة بصحون الفاكهة، وها هم باتوا الآن ليس على عجلة من أمرهم، يقرؤون الأحكام «بتأثر نفسي».. «الحكم أشد العقوبات»!.. توقف، وينظر القاضي في عيني المتهم... وكأنه يقول.. ترى كيف يعتلج الاضطراب في داخله الآن، وما الأحاسيس التي تعتريه؟.. (هذا إذا أخذ في الحسبان، بأنه قد تاب توبةً طاهرةً).

لقد تجرحت جدران قاعة الانتظار في المحكمة، بالمسامير والأقلام، «بفعل من تلقوا حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص»، «ومن حكموا بالسجن أربعين عاماً»، «ومن بعشر سنوات»... وهكذا دواليك.. فالتواقيع على الجدران لا تمحى، إنها عظة... هيا اخشع، واجزع، ولا تفكر بأنك قد تستطيع، تبديل تصرفاتك، حتى ولو ألقيت خطاباً مطولاً، لتبرئة نفسك في قاعة بدت فارغة، إلا من حفنة القضاة، والمحقيقين (مثلما فعلت أولغا سليزاونبرغ - المحكمة العليا ١٩٣٨)- إن ما قلته لا يساعدك في شيء وإلا سنقوم برفع الحكم عشر سنوات سجناً، إلى الحكم رمياً بالرصاص.. أجل هذا كل ما تستطيع فعله، حتى ولو صرخت في وجوههم «أنتم فاشيون.. وإني لخجل من تلك السنوات، التي أمضيتها في حزبكم»! فإن نيقولا سيمينوفيتش داسكال - عضو اللجنة المناطقية للحزب من منطقة بحر آزوف - والرئيس هيلك، وبايكون - عام ١٩٣٧- قد يحبكون لك عندها قصة تلفيقية جديدة ويحل الهلاك، والفناء.

يروي تشاوزروف، كيف إن أحد المتهمين رفض الإقرار، بكل ما ورد من الاعترافات الكاذبة أثناء التحقيق.. حسناً؟.. إذا كانت هذه ذريعة، لإعادة النظر، نمهلك عدة ثوانٍ... يقوم النائب العام، بطلب الاستراحة، دون تقديم أي سبب لذلك... ويتم استقدام المحققين، مع عدتهم من المقاتلين على وجه السرعة. ويبدؤون بضرب المعتقلين القابعين وراء الأسلاك الشائكة في أقفاص الاتهام، ويهددونهم بالتهديد، والوعيد، من إنهم سيكملون عملهم في الاستراحة التالية.. انتهت الاستراحة... سأل القاضي؟.

- هل يقر الجميع بالاعترافات الآن؟

حصافة خارقة، أبداها ألكسندر غريغورفيتش كارتينكودف، مدير معهد البحث العلمي النسيجي، ما أن افتتحت جلسة الهيئة العسكرية العليا، حتى بادرهم (لماذا يحاكم المدنيون التي لا تعنيهم الواجبات العسكرية، أمام

محكمة عسكرية، قضاتها من المدنيين،... إنه لأمر يُبطل استغرابنا حقاً.. وإنا لن نعود للسؤال عن هذا ثانية) - طلب من حراسه، أن يسمحوا له، بالكلام، لأنه يريد أن يقدم اعترافات ثانوية - إضافية - مما أثار الاهتمام لديهم لسماع ما سيقول، استقبله النائب العام، وكشف كرتينكوف عن عظم ترقوته المحطم، على أثر ضربة كرسي عند التحقيق، وقال: (لقد وقعت اعترافاتي تحت التعذيب) لكنه على ما يبدو قد تأخر وفاته أن يعرف بأنه لا تختلج داخل أي منهم أيّ أحاسيس - طالما أن الآلة المخيفة تعمل، وما أن تتمحور المسؤولية كاملة عليه - حتى تراه، ممتقع الوجه اصفراراً، لأنه يدرك في قرارة نفسه، بأنه هو ذاته - لا يساوي شيئاً، وتراه قد تعلم الزحف عن أي شيء، حتى ولو كانت قشة صغيرة. هكذا اصطاد كرتينكوف النائب العام، إلا أن ذلك لم يغير من طبيعة القضية، وبدأت جلسة الهيئة، وأعاد كرتينكوف ما قاله هناك!.. كان من المفروض، أن يحمل قرار الحكم التبرئة، الأمر الذي يعني، إطلاق سراحه،.. صدر قرار الحكم ولم يحمل أي شيء من هذا القبيل، وكأن شيئاً لم يكن، أعيد المذكور إلى السجن، وحجز ثانية، وعولج ثلاثة أشهر، وكلف بالتحقيق معه، إنسان آخر لطيف، وسطر على الفور طلباً، يستأذن فيه النائب العام، باعتقال المتهم (هذا إذا لم تمطُّ الهيئة بشفتيها، مع العلم بأن كرتينكوف هذا، كان يملك الحق في أن يكون خارج السجن خلال ثلاثة أشهر)، وأعيدت الكرة، وطرحت أسئلة التحقيق ذاتها، ولطالما كان هذا، قد أحس طعم الحرية، صمد من جديد، ولم يعترف، بذنبه... حسناً؟.

بناءً على قرار الهيئة الاستشارية الخاصة للتداول، والتحقيق، تم الحكم عليه، ثمانية أعوام.

يبين مثالنا السابق، الإمكانية التي يملكها المتهم، وتبين كذلك، تلك التي تملكها الهيئة الكريمة، ولقد كتب الشاعر ديرجافين:

اضربي... أيتها الحكمة النحازة... بحقدٍ أكثر

القضاة أعداء... والقانون نائم

وأمامكم رقاب أبناء شعبكم

ممددة... دونما... دفاع.

نادراً ما كانت تحدث مثل هذه الأمور في الهيئة العسكرية للمحكمة العليا، ونادراً ما كانت الهيئة تمسح عيونها التعبة، كي ترى مثل هذا المعتقل التصديري المنفرد.

ثمة متهم آخر، يدعى أ. د. رومانوف، يحمل شهادة اختصاص مهندس كهرباء، اعتقل عام ١٩٣٧، وصعد على الدرج عدواً حتى الطابق الرابع، وأمسكت به من تحت إبطيه يدان خشنتان من أيدي الحراس العتاة (ندر ما عمل المصعد في ذلك الوقت، وإذا ما كان ذلك، فإنه مخصص للعاملين، بينما المعتقلون يدفعون على الأدراج) وراح المعتقل يتمايل يمنة عن هذا، ويساراً عن ذاك، حتى وصل إلى القاعة، التي كانت فيها الهيئة العسكرية على عجلة من أمرها، إذ وقف القضاة الثلاثة، وبعد لأي التقط أنفاسه، وتوقف لهاثه بصعوبة (من جراء ذلك الوهن والضعف، الذي ألم به أثناء التحقيق الطويل الأمد).

ونطق رومانوف، اسمه، وكنيته، وتمتموا بين بعضهم بشيء ما، وتبادلوا النظرات وأعلن أولبرخ - كما تعود الإعلان دائماً «عشرون عاماً»، واقتادوا رومانوف ثانية، عدواً على الدرج، وجاء الآخر كذلك عدواً... وهكذا... العجلة تدور.

حدث لي كما في الحلم. وعلى هذا الدرج بالذات في شهر شباط عام ١٩٦٣ (عندما امتنعت عن الصعود بالمصعد، كي أرمق هذا الدرج اللعين)! لكن الشيء الذي اختلف هذه المرة، بأن صعودي لم يكن اقتياداً بل كان

مع مرافقة لطيفة، إذ تكرم العقيد المنظم حزبياً بمرافقتي، وصعدنا على الدرج كما أسلفت، وكنت الوحيد من بين كل نزلاء معسكرات جزر الأرخبيلاك، الذي وافاه الحظ، والقدر المنفرد! ففي القاعة الممتلئة بالأعمدة الأسطوانية، حيث كان يتجالس ويأتمر، ويتكلم السادة أعضاء الهيئة العسكرية للمحكمة العليا لعموم الاتحاد، وراء منصة ضخمة: على شكل حذوة الفرس، توضعت داخلها سبع كراسي قديمة على شكل نصف دائرة.

استمع إلي سبعون شخصاً من العاملين في الهيئة نفسها تلك التي كانت قد حاكمت يوماً ماكر تينكوف، وورومانوف، وآخرين... وآخرين... كثيرين، قلت لهم «إنه ليوم مشهور.. لقد حكم عليّ في السابق بالنفي إلى المعسكر، وبعدها حكم علي بالنفي مدى الحياة، إلا إنني لم أرَ بعيني، ولو مرة واحدة قاضياً واحداً بشكل مباشر، كما يقال وجهاً لوجه، وها أنا أراكم الآن مجتمعين كلكم»!. (كانت المرة الأولى أيضاً، التي يرون فيها أرنباً مفتحاً).

تبين بأن هؤلاء.. ليسوا أولئك... نعم هكذا يقول هؤلاء الآن، فبعضهم من تقاعد، ومنهم من نزع من منصبه (أما أولبرخ - الذي يعتبر أعظم الجلادين على الإطلاق، نزع من منصبه في زمن ستالين نفسه عام ١٩٥٠.

السبب... قلة الأصل!!، وبعضهم (عدد محدود) تعرض للمحاكمة في زمن خروتشوف، ووقفوا وراء قضبان قفص الاتهام «حسناً إنك تحاكمنا اليوم.. إنما سنحاكمك.. في الغد»! وكانت الخطوات سريعة في بداية حكم خروتشوف، وتم نسيان أولئك بسرعة، وتركوا دون أن يتم القضاء عليهم، بصورة نهائية، الأمر الذي يعني، بأن بعضهم قد بقي كما في السابق.

نتذكر الآن بعضاً من أصوات القانونيين السابقين، وقد دفع بعضهم إلي بجزء من مواد هذا الفصل (ولو أنهم تذكروا، دون أن يعملوا على نشر

ما تذكروه، إلا أن السنوات تمر وتنقضي، وربما ما أن تأتي سنوات خمس أخرى، حتى يكون النور أكثر سطوعاً، أو أقل تعتيماً[1].

نعم لقد تذكروا كيف أنهم استطاعوا في جلسات القضاة الاستشارية، ومن خلف قوس المحكمة، متفاخرين بأنهم لم يستخدموا قط المادة الواحدة والخمسين من قانون المرافعات، التي تنص على تخفيف شروط إقرار الأحكام، وقد نجحوا بهذا، وأطلقوا أحكاماً بالسجن خمسة وعشرين عاماً، بدلاً من عشرة أعوام!.. وتذكروا أيضاً. كيف إن المحاكم كانت تخضع بذل، واستكانة للجهاز الأمني! ولم ترد إلى القاضي عملياً قضية يمكن أن يقال عنها قضية، وكان قد ورد على سبيل المثال إلى المحكمة الادّعاء التالي:

افترى المواطن السوفييتي العائد من الولايات المتحدة الأمريكية قائلاً: هناك - أي في الولايات - طرق رائعة للسيارات، ولم يزد على ذلك شيئاً، هذه هي القضية... لا شيء أكثر من ذلك... استبسل القاضي، فأعاد القضية لاستكمال التحقيق بهدف الحصول على «مادة أكثر قيمة، تكون مضادة لنظام الحكم» - بغية أن يكيلوا التعذيب، والضرب لهذا المعتقل. إلا أنهم لم يعتبروا هذا الهدف السامي متجاوباً ومنسجماً مع الحقد الدفين «ما بالكم.. ألا تثقون بجهازنا»؟ وتلقى القاضي جزاءه... ونفي إلى ساخالين في الشرق الأقصى.. وعين منصب سكرتير محكمة! (أما في عهد خروتشوف، كان هذا يحصل بصورة أكثر سهولة، حيث كان يرسل المذنبون من القضاة... لو تعرفون إلى أين؟... كانوا يعينون محامين[2] وبهذا يضطرون

١ـ او انه بمرور عشر سنوات، قد يظهر ستار يحجب هذا التمحيص (١٩٧٨).

٢ـ كتبت الإزفيستيا من ٦٤/٦/٩، انه اهتمام رائع، أن يزود الدفاع القضائي بمثل هؤلاء. أما في عام ١٩١٨، طلب فلاديمير إيلتش فصل القضاة المتهاونين في إعطاء الأحكام من الحزب.

للخضوع من جديد، وللركوع أمام الجهاز الأمني، أو أمام السيد النائب العام.

في عام ١٩٤٤، عام البؤس، حيث انتشرت، وعمت المظالم، التي قام بها المدعو ر. يومين، رئيس جهاز الاستطلاع المعتاد (مكافحة الجاسوسية) في منطقة بحر الشمال، وعلى الرغم من هذا لم تقم النيابة العامة، بالتدخل، ولم تستخدم سلطتها، إنما اكتفت بأن قامت باجلال إبلاغ ايكوموف عن العبث الذي ممارسة صبيه، وكان هذا الأخير يعتبر لسبب ما، إن الجهاز الأمني هو ملح الأرض! (عندها تم استدعاء يومبن، ومنحه ترقية، أهلته لأن يذهب إلى حتفه).

ما كان.. إن الوقت ينقضي.. ولو أنه كان أكثر سعة مما كان... لكانوا أضعاف ذلك بنحو عشرات المرات.. لكن ما إن تتأمل هذا.. حتى تقول: بأنه لو لم تكن المحاكم، والنيابة ضيعة في يد وزير أمن الدولة - لما كان مبرراً عندها، لأن نقوم بتخصيص فصل خاص، يتكلم عنهم في هذا الكتاب.

تحدثوا إلي، عبر فترات متقطعة، وفي كل المرات، التي كنت استمع فيها بإمعان كان يتملكني الاستغراب: هل يمكن أن يكون هؤلاء البشر بشراً.. أنهم يبدون كذلك يبدون فها هم يبتسمون.. وها هم يوضحون بإشراف وصراحة، كيف أنهم، أرادوا من كل ما فعلوه.. الخير كل الخير.. ترى لو افترضنا أن الزمن تكرر.. وقاموا بمحاكمتي من جديد؟.. وفي ذات القاعة.. (التي يصطحبونني الآن لزيارتها.. لا بد من أنهم سيبدؤون المحاكمة على الشكل التالي:

من الأصل - الدجاجة أم البيضة... الناس أم نظام الحكم؟ كان يقال عندنا، منذ سنوات طويلة، الحكمة التالية: لا تخف من القانون قط، إنما الخوف كل الخوف من المحكمة!

لكن يبدو لي الآن، بأن القانون تجاوز الناس، ووقع الناس تحت الظلم، وحان وقت لأن تقلب هذه الحكمة الشعبية رأساً على عقب، وعندها لا تخف من القاضي. - بل يستوجب أن تخاف القانون.

القانون الايكومويـ في بالطبع!

ها هم يصعدون قوس المحكمة، ويحاكمون «إيفان دنيسوفييتش» وها هم يتكلمون فرحين.. من أن هذا الكتاب هون، وخفف عن وجدانهم (هكذا يتقولون) ويعترفون، من أنني نقلت في كتابي هذا صورة ملطفة، بشكل كبير (إذ إن كلاً منهم يعرف معسكرات أكثر قسوة من تلك التي وصفتها - أجل لقد عرفوا)؟ وتبين من خلال الكلمات، التي ألقاها بعض من الأشخاص السبعين الجالسين وراء هذه المنضدة الدائرية، بأنهم خبراء في الأدب، بل قراء جيدون «للعالم الجديد»... ومتعطشون للتغيير والتصحيح، ويعلمون بشكل واقعي كاف، تقرحاتنا الاجتماعية، والإهمال، وعدم الاهتمام بالريف.

اجلس وأفكر: لو أن بعضاً من قطرات الحقيقة انفجرت كقنبلة، نفسية - ترى ماذا سيحل عندها ببلدنا، لا بد من أن الحقيقة، ستنهال كالشلالات؟ أجل - تنهال دون انقطاع، دونما انقضاء.

الفصل الخامس

القانون الطفل

كلنا ينسى، وكلنا يتذكر، إنما ليست تلك الوقائع، ولا ذاك التاريخ - بل ذاك النقيق الذي جاء على شكل نقرات متقطعة مرسومة، تلج في دماغنا، وتطن في آذاننا دونما توقف، وانقطاع.

وإني لا أعلم هل هي صفة إنسانية عامة؟، أم هي خاصية يتميز بها شعبنا فقط، إذ لو كان كذلك، فلا بد من أنها صفة مزعجة، ناتجة عن طيبة مفرطة، لدرجة تحمل القلق والاضطراب، وتساعد على فرز هذا الكم من الأفّاكين، والكذبة.

حتى إذا ما بدا... بأنه لا لزوم، لأن نتذكر عمليات المحاكمة العلنية - فإننا لن نتذكرها، حتى ولو طرقت أسماعنا علانية، ونشرت في الصحف اليومية - ومع كل هذا لا تنخرط في ذاكرتنا، إلا إذا حفرت في دماغنا حفرة (نتيجة الإعلان الدعائي اليومي المكرر في المذياع). وقولي هذا لا يتناول الشباب والفتية، بل يطول أولئك الأشخاص معاصري تلك العمليات، - واعتذر لو قلت - بأنه طال حتى أولئك الناس متوسطي الإدراك، الذين استطاعوا تعداد عمليات المحاكمة البوخارينية، والزينافية (نسبة إلى بوخارين، وزينافييف)، وعمليات محاكمة أتباع الحزب الصناعي التي لم يمضِ عليها الوقت لتشيخ، وتصبح في طي النسيان على الرغم من

أنه لا توجد أكثر من تلك المحاكمات، التي تمت علانية، إذ أخذت السرية فيما بعد تطبق بكلتا يديها.

إذاً ماذا يمكن القول عن معرفتنا للمحاكم السرية؟ - إذ إنه وبدءاً من عام ١٩١٨ كثيراً ما قرقعت أقواس المحاكم، حيث لم يكن في ذلك الوقت أيّ قوانين، وأيّ تشريعات، وتصرف القضاة حسب ضرورات، ومتطلبات نظام الحكم العمالي - الفلاحي، ولعله يأتي ذاك الزمان، الذي نستطيع فيه، تدوين تاريخ تلك الأيام، وتلك المحاكمات؟.

لكن أنى لنا، أن نكمل، دون إبراز مثال، أو نموذج من تلك المحاكمات التي حدثت في وقت كنا فيه خائفين، محطمين، وكان لزاماً علينا فوق هذا، أن نتحسس ونتلمس ذلك الضباب الصباحي الوردي المنخفض.

في تلك السنين المضطربة، التي لم تصدأ فيها أسنة الرماح من القراع والحرب، ولم ترقد تلك المسدسات في قرابها، فكروا وعند النهاية فقط، في تنفيذ أحكام الإعدام رمياً بالرصاص، أثناء الليل، وفي الأقبية، حيث كانت الرصاصات تتوسد قذال المحكومين، وما أن جاء عام ١٩١٨، حتى طبقت طريقة الإعدام رمياً بالرصاص في ريازان، في وضح النهار، وفي الساحة العامة، إذ كان عناصر الأمن ينفذون الأحكام على مرأى من المساجين، الذين تلبسوا نوافذ السجن، يرقبون وينتظرون الساعة التي يجيء بها دورهم.

لقد عم في ذلك الوقت، مصطلح رسمي متداول خاص، وهو التنكيل بلا رحمة، ليس بسبب عدم وجود المحاكم، بل بسبب وجود لجنة الطوارئ الأمنية، التي صار اسمها فيما بعد لجنة الطوارئ العسكرية المعروفة على المستوى العالمي.

(التخويف.. هذا الزغلول الزغب، ذو المنقار المقسى، بعث الدفء في سريرة تروتسكي ليقول: «إن التخويف يعتبر أكثر الوسائل السياسية قدرة، يجب أن يتصف بالمراءاة، والنفاق ليكون عيياً على الفهم والإدراك». لقد اغتبط زينافبيف لهذا، أيما اغتباط، دون أن يتوقع عندها نهايته على يد هذا الزغلول التروتسكي!)

لا شك أن عدم المحاكمة أكثر سرعةً، وخفةً، ونشاطاً لكن وعلى الرغم من توفر المحاكم، إلا أن لجنة الطوارئ العسكرية، والإدارة السياسية الحكومية، حاكمت، وقررت أحكامها بالإعدام دون العودة لتلك المحاكم، ولكن لا بد من أن نذكر من إنها كانت تجري بشكل موازٍ لهذه المحاكم الصورية، عمليات التنكيل، التي قد رسمنا لها صورة واضحة، من خلال الأرقام، التي صرح بها، وأعطانا إياها ليتسس الشخصية القيادية المعروفة في لجنة الطوارئ: (إنه خلال عام، ونصف العام (١٩١٨-١٩١٩) بلغ عدد الذين أطلق الرصاص عليهم في المحافظات الروسية المركزية دون محاكمة (٨٣٨٩) شخصاً، وبلغ عدد التنظيمات المكتشفة المعادية للثورة، (٤١٢) تنظيماً (نظراً لمعرفتنا المسبقة بعدم أهلية شعبنا للقيام بأعمال تنظيمية، وطغيان التشتت وتردي الحالة المعنوية في تلك السنوات، بدا هذا الرقم خيالياً)، وبلغ عدد المعتقلين (٨٧) ألف (إن هذه الأرقام بعيدة عن الأرقام الحقيقية، لكن هذا الرقم جاء مخفضاً، لإبرازه كتواضع أمني ليس إلا).

مع أي شيء يمكن لنا أن نقارن الأرقام الآنفة الذكر، بغية زيادة التصور لدينا؟

إذاً لا بد من العودة إلى عام ١٩٠٧، للاطلاع على مجموعة مقالات، كانت قد جمعت في كتاب نشر تحت عنوان «مقالات مضادة للإعدام»، كتبتها جماعة من الشخصيات الاجتماعية آنذاك (صدر الكتاب تحت

إشـراف رئـيس التحريـر كيرنيـت)، وتـضمنت لـوائح اسمية بـالمحكومين بالإعدام، اعتباراً من عام ١٨٢٦ وحتى عام ١٩٠٦، ونوه المؤلفون إلى أن هـذه اللوائح منقوصة (لكنها ليست أكثر إجحافاً مـن المعطيات، الـتي أوردهـا ليتسيس عن الحرب الأهلية)، وورد فيها عدد من الأسماء بلغ (١٣٩٧) سـقط مـنهم (٢٣٣) بـسبب تغـيير أحكـامهم، و (٢٧٠) محكومـاً، لم يـتم إلقـاء القبض عليهم (إذ كانوا من البولون المناهضين الفارين إلى الغـرب). ويتـضح من هذا الرقم، الذي شمل مرحلة زمنية مدتها ثمانون عاما، بأنه يكون أقل بـ (٢٥٥) مـرة، مـن الـرقم الليتيسيي! - مـع التنويـه، أن الـرقم الأمـني عـادة، لا يعطـي إلا نـصف المحافظـات المركزيـة (ولم تـدرج ضـمن هـذه الأرقـام، الإعـدامات المنفـذة مـن شمـال القوقـاز، والفولغـا الـدنيا)، علـى العكـس مـن الأرقـام الـواردة في الكتـاب، علـى شـكل إحـصائية (لا بـل يمكـن القـول، بأنها قد تكون زيادة عن الأرقام الحقيقية، بسبب رغبة المؤلفين في زيادتها) افتراضية لعدد المحكومين بالإعدام (يمكن ألا تكون الإعدامات تنفيذية، بـسبب صـدور الكـثير مـن حـالات العفـو، الـتي بلغـت عـام ١٩٠٦، حـوالي /١٣١٠/ محكوماً).

إن مـا أوردنـاه مـن أرقـام، جـاء في ذروة ردة الفعـل الـستالينية المزعومـة (رداً علـى إباحـة إراقـة الـدماء، تحـت يافطـة الإرهـاب الثـوري)، عـدا عـن أنـه يتوفر رقم إحصائي آخر، بلغت حالات الإعدام فيه، خلال ستة أشهر (٩٥٠) حاله (مع استمرار محاكمة الستالبيين ستة أشهر في المحاكم الميدانية[1]). ومـع ذلـك إنهـا أرقـام مرعبـة دون شـك، لـكنهـا لا تـشد أعـصابنا حتـى هـذه الأرقـام الأمنيـة، لفـترة لا تتجـاوز الـستة أشـهر، وإنـا بتنـا جـاهزين، لأن

١- الستالبيين – مجموعة قامت بأحداث، واصطرابات في زمن القيصرية، كرد فعل علـى الإرهـاب الثـوري الـذي مارسـته القيـصرية، وقـد تعرضـت هـذه المجموعـة للمحاكمة والإعدام

نتجرعها حتى الثمالة - فيما لو عرفنا، بأن هناك الكثير من حالات الإعدام، التي كانت تتم دون محاكمات لا عادية، ولا ميدانية، على امتداد المحافظات العشرين.

لكن كيف كان الأمر في المحاكم؟

صه... «هل يعقل دون محاكم!... لا... لقد أحدثت هذه المحاكم خلال شهر واحد فقط بعد قيام الثورة الأكتوبرية، وأول ما تم تعيين القضاة الشعبيين، الذين انتخبوا بشكل حر من أوساط العمال والفلاحين - شرط أن تكون لدى القاضي المنتخب الخبرة «السياسية في التنظيمات الحزبية البروليتارية». لقد تم تنفيذ هذا من قبل اللجان التنفيذية في مجالس الأقاليم، حيث تم استدعاء القضاة السابقين بشكل مفتوح وفي أي وقت (حسبما نص مرسوم القضاة رقم /١/ الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩١٧)، ليتم بعدها وخلال فترة وجيزة - طلب إعادة انتقائهم من قبل العمال والفلاحين، مع ضرورة تحديدهم من اللجان التنفيذية في المجالس - إذ لا فرق في ذلك من حيث الأساس، لأن تلك المجالس ما هي إلا تعبير عن مصالح الطبقة العاملة.

ثانياً - بل قل ثانية الأولى، حيث إن هذه المحاكم المعمول بها، بموجب المرسوم الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩١٧، كان قد سبقها للوجود المحاكم الثورية العمالية الفلاحية المبتكرة في المناطق والنواحي، وبدت وكأنها جهاز خاص بالدكتاتورية البروليتارية، ظهر فجأة في كافة الأمكنة. بينما لم تظهر المحاكم الشعبية المنصوص عليها في المرسوم، إلا بعد مرور زمن ليس بالقصير، وخاصة من تلك الزوايا النائية - وبهذا تكون المحاكم الثورية، قد أخذت على عاتقها، كل القضايا، حتى بما فيها القضايا الجنائية، وهنا ما علينا، إلا الاطمئنان العملي، إذ إن الفروق، ليست هي بالكبيرة بين المحاكم الشعبية، والمحاكم الثورية: على الرغم

من ظهور القانون الحقوقي في جمهورية روسيا الفيدرالية عام ١٩١٩، بقيت صفات المحكمتين المذكورتين متطابقة تقريباً، ولم تكن هناك أيّ فوارق في نوع العقوبات المفروضة من هذه، أو تلك، وظلت يديهما مطلقتين بشكل حراً.

لم يحدد القانون الحقوقي أيّ عقوبات تأديبية، وللقضاة الحق بحرية اختيار نوع الاضطهاد، مع حق استخدامه بشكل لا محدود (حتى ولو كانت العقوبة بالسجن، وحجز الحرية - فإنه قد يكون الزمن غير محدد، أو قل حتى إشعار آخر)، وهكذا فإن المحكمة الشعبية هي نسخة طبق الأصل عن الثورية، إلا إن الأخيرة تخضع لقيادة النقابات الثورية، والمجالس الثورية، والأحكام النهائية فيها لا تخضع لأيّ شكلية، إذ إن المعيار الوحيد المعتبر، هو مدى الضرر الذي ألحقه المتهم في مصالح النضال الثوري (عدا عن إمكانية تجديد قرار الحكم، بشكل متتابع وحتى النهاية. (ترأس المحاكم الثورية في البداية، عضو محلي معين من قبل المجالس المحلية، لكنها اكتست بعد ذلك بطابع خاص دقيق، إذ إنها صارت مؤلفة من ثلاثة أعضاء دائمين، يكون أحدهم من الجهاز المخابراتي في المحافظة - وبهذا تكون المحكمة قد وحدت من حيث الأساس هذه العلاقة الحميمية الحيوية ما بين الجهاز والمحاكم الثورية).

صدر في ٤ أيار عام ١٩١٨ مرسوم، ينص على إحداث محكمة ثورية عليا في دوائر اللجان التنفيذية المركزية - حيث افترضوا عندها، بأن هذه، ما هي إلا تكميل لمحاكم الإنشاء، والبناء، لكن هذا الاعتقاد، كان بعيداً عن الحقيقة.

اقتضت الضرورة كذلك إحداث منظومة قضائية لعموم البلاد مؤلفة من المحاكم الثورية، بغية الحفاظ على فاعلية الخطوط الحديدية.

وبعدها - منظومة المحاكم الثورية لقوات الأمن الداخلي.

عملت هذه المنظومات عام ١٩١٨، وتعاونت فيما بينها، دون أن تسمح بوقوع أيّ جريمة، أو ظهور أي مجرم يحاول إعاقة النضال الثوري الجماهيري - إلا أن العيون الحادة للرفيق تروتسكي، رأت في هذا الكمال نقصاً - لذا وقع في ١٤ أكتوبر عام ١٩١٨ أمراً ينص على تشكيل محاكم ميدانية عسكرية ثورية.

لذا أعطي الكثير من الاهتمام، لا بل الاهتمام كله للمجالس العسكرية الثورية، ولمسألة إنقاذ الجمهوريات من الأعداء الخارجيين، ولم يضف زعيمنا المجلس الثوري هذا، أيّ تفاصيل على نواياه المستقبلية - بل أفلح وبنجاح باهر في انتخاب أعضاء المحكمة المركزية العسكرية الثورية، المتمثلة بشخص دانشيفسكي، الذي عمل بشكل خارق، وطور منظومة المحاكم الجديدة، ليس هذا فحسب، بل كتب لها الأسس النظرية، ودليل العمل على شكل كراسات، عممت على كافة المحاكم العسكرية تحت درجة من السرية، وقد وقع بين أيدينا نسخة من الكراسات المعجزة بعد عدة سنوات من إصدارها، وإنّي لأسألهم الغفران، لقيامي بإيراد بعض النتف منها (وكل ما أخذ عن المحاكم، كان قد أخذ منها).

كان من المفترض بعد أكتوبر مباشرة، وحسبما نصت الشعارات المطروحة، أن تعمل في الجيش الأحمر اعتباراً من شهر شباط، محاكم ثورية منتخبة من الأفواج، والكتائب، إلا أن هذا الفصل الديمقراطي لم يحلُ لهم - إذ عمدوا إلى رفضه فوراً، وتعسفوا في تشكيل المحاكم الميدانية العسكرية الثلاثية، التي دخلت في قوامها الأجهزة الجبهوية المخابراتية (لجان الطوارئ العسكرية)، وأجهزة مكافحة الجاسوسية، حليفه الأقسام الخاصة بالأمن، وكان من البدهي، أن تفعل هذه المحاكم فعلها، وتنفذ الإعدامات حسبما تراه ضرورياً، ولقد قال الرفيق تروتسكي

في تلك الآونة العصيبة من حياة الجمهورية عن تلك المحاكم: (نحن أبناء الطبقة العاملة، عقدنا اتفاقاً مع الموت، على أن نحرز النصر) - الأمر الذي يتطلب، أن نفرض على الجميع دون استثناء، إجبارية تنفيذ الواجبات المنوطة بكل فرد... (المحاكم الثورية هي أولاً وقبل كل شيء جهاز تدمير وتصفية، ومنع الإرهاب المعادي لوطن العمال والفلاحين، وثانياً - هي محاكم تحدد جريمة المتهم «المحاكم الثورية العسكرية - هي محاكم أكثر طوارئية من المحاكم الثورية - التي دخلت في إطار المنظومة الواحدة للمحاكم الشعبية».

ترى... ما هذه «الأكثر طوارئية»؟.. وإن أول ما يتبادر إلى الذهن شيء، قد يكون غير قابل للتصديق!، ما الشيء الأكثر طوارئية من المحكمة؟.. لقد شرح لنا، أكثر القيمين أهميةً الكيفية التي تم فيها إقرار العديد من الأحكام في تلك السنوات:

«إنه يجب أن يكون إلى جانب الجهاز القضائي جهاز موازٍ وإن أردتم، فلتكن محاكم التنكيل والاضطهاد).

هل يستطيع القارئ، الآن التمييز، بين لجان الطوارئ، التي تأتي في المقام الأول؟ - وهي ليست بمحاكم تنكيل واضطهاد، ... وتأتي في الجانب الآخر المحكمة الثورية - التي هي ليست أكثر بساطةً ورحمةً، إن لم تكن لديها الرحمة كلها - إلا أنها أبدتها (أي الرحمة) لدرجة ما، وكأنها محكمة.... وماذا بعد، ما الفرق بين هذه، وتلك؟.... توقفوا (إن شيئاً ما يبدو بينهما ناقصاً... إذ لا بد من أن يكون الجهاز القضائي للتنكيل والاضطهاد - وهذا ما هو إلا المحاكم الثورية العسكرية نفسها!.

«إن المحاكم العسكرية الثورية كانت منذ اليوم الأول لوجودها، جهازاً عسكرياً للحكم الثوري، وسارت على خط محدد غير قابل لأي انحراف... وتطلّب الأمر منا، استخدام تلك التجارب المتوفرة لدى المحاكم

الثورية بحذاقة، مع الاستمرار في العمل على تطويرها لاحقاً» كل هذا من نسخة الكراس الأول الصادر في كانون الثاني عام ١٩١٩، وكان لا بد من أن تخلق عناصر التقارب، وتستخدم ذات التجربة التي تم تطبيقها في لجان الطوارئ الثلاثية، لذا كان الفرع الأمني الجبهوي يقوم بتعيين عضو من قوام المحكمة الثورية العسكرية، التي لم يدم بقاؤها في الجبهة طويلاً، بسبب تواجدها المحدد مسبقاً - لذا كان من المفروض، ألا تضحك ويجب تكليفها من جديد، بإدارة أمن المناطق، والأقاليم «إذ تولت أمر التنكيل، ومكافحة الانتفاضات الشعبية فيها.

لقد قامت المحاكم الثورية العسكرية، بمحاكمة «الفارين من العمل»، الذين «اعتبر تصرفهم هذا، كما وكأنه عمل مضاد للثورة، ويتساوى مع الانتفاضة المسلحة ضد العمال والفلاحين وهنا لا بد من أن نتساءل، من هذه الجموع، التي تستطيع أن تنتفض ضد العمال، وضد الفلاحين؟

هي... أي كانوا - حتى ولو من أولئك، الذين أدينوا بتهمة «معاملة المرؤوسين السيئة». أو بعدم تنفيذ الواجبات الوظيفية بدقة، أو بالتقصير بالعمل، وبعدم معرفة الحقوق.... إلى آخره.... لا تنحصر مهمة المحكمة الثورية العسكرية في محاكم العسكريين فقط، بل وجدت أيضاً من أجل كافة المواطنين المقيمين في منطقة عمل الجبهة... أليست هي بالفعل، جهاز نضالي طبيعي للشعب العامل... عدا عن ذلك... وكي لا تبرز نقاط اختلافات جدلية مع جارتها المحكمة الثورية، تم ترسيم الحدود الفاصلة بينهما (بين المحكمة الثورية وبين المحكمة العسكرية الثورية). على الشكل التالي: الحكم على كافة القضايا، المتعلقة بالإنتاج، مع الحرمان من استخدام حق الاعتراض أو النقض، أو الاستئناف، إذ صيغت قرارات الحكم على ضوء الوضع العسكري. لكن وبعد أن تم الانتصار في الجنوب، وبدءاً من

ربيع عام ١٩٢٠ صدر أمر للمحاكم العسكرية الثورية بتخفيض عدد أحكام الإعدام - وبالفعل، فقد بلغ عدد الذين خضعوا لتنفيذ حكم الإعدام /١٤٢٦/ خلال نصف سنة (إضافة إلى تلك الأعداد، التي كانت من نتاج المحاكم الثورية، ومحاكم السكك الحديدية، ومحاكم الحرس العسكري، والجهاز المخابراتي، ولجان الطوارئ، والفروع الخاصة! - ولنتذكر هنا، وفي هذا السياق الرقم الستاليني /٩٥٠/ ضحية من ضحايا العهد القيصري في روسيا كلها، ونفذت المحاكم الثورية العسكرية، خلال شهري حزيران، وتموز (دون... دون) ١٦٧٦ حالة إعدام (... لا لزوم لذكر حصاد الأشهر التالية).

كان من صلاحيات المحاكم الثورية العسكرية ممارسة التنكيل، والاضطهاد اللا مباشر على الفارين، وعلى الدعاة المناهضين للحرب الأهلية (أي المستسلمين..)... وكان يجب عليهم، التفريق، والتمييز بين القتل الجنائي (الإعدام) شنقاً والقتل السياسي (الإعدام) رمياً بالرصاص)، أما أعمال اللصوصية المتكررة التي يقوم بها اللصوص (فعلى المحاكم، أن تكون في هذا الشأن أكثر رحمة وليناً). إذ إن ثروات البرجوازية الكثيرة، دفعت بالناس لأن يكونوا لصوصاً). أما إذا سرقت ممتلكات الشعب «عندها نفرض أقصى العقوبات الثورية». «إنه لا يمكن وضع دليل لنظام العقوبات، حتى إذا ما وضع فإنه لا بد من أن يكون عديم الجدوى»، إلا أنه «يمكن التصرف دون أي دليل، أو قرار أو توجيه»، «في الكثير من الأحيان، تضطر المحاكم الثورية العسكرية، للعمل تحت الظروف والحالات، حتى إذا ما برزت صعوبة ما، فعلى المحكمة أن تتصرف على أساس أنها محكمة قائمة بحد ذاتها، طالما تحمل صفة الوحدة العسكرية، وكثيراً ما كان... يتم العمل بشكل متوازن إن كان في قاعات المحاكم أو في الشوارع». الإعدام رمياً بالرصاص «لا يمكن اعتباره

عقوبة، بل يمكن اعتباره، وبكل بساطة، تصفية فيزيولوجية لعدو الطبقة العاملة» و «يمكن أن يستخدم كوسيلة تخويف، وترهيب للمجرمين الآخرين». «إن العقوبة هي جزاء الذنب»، وليست تكفيراً عن الذنوب... المحكمة «تستوضح شخصية المجرم بقدر... ما تستطيع أن تستجليها على أساس طريقة حياته، وماضيه».

«تسقط في المحاكم الثورية العسكرية، فكرة حق الاستئناف، الموضوعة من قبل البرجوازية... ففي ظل نظام الحكم السوفييتي لا ضرورة لهذا الروتين البيروقراطي». «إن اعتماد تجربة الاستئناف غير ممكنة على الإطلاق»، «ويرفض إعطاء حق النقض والادّعاء»، «يجب أن تدخل الأحكام حيز التنفيذ، قدر الإمكان، وعلى وجه السرعة، ليكون الأثر الاضطهادي أكثر قسوة»، «إن المحكمة الثورية العسكرية - هي الجهاز اللازم الأمين لدكتاتورية البروليتاريا، التي تستعمل بكل ما أوتيت من قوة، لتقويض وتخريب كافة النظم السابقة، عبر محيطات من الدم، والدموع، بحيث تُنقل الطبقة العاملة... إلى عالم مليء بالعمل الجاد، وبالسعادة والجمال».

يمكننا أن نورد الكثير من الأمثلة، والدلائل، إلا أنه من الأجدى أن نكتفي بهذا القدر، ونعود لنتعمق في تطرقنا، ونزيد من تصورنا عن خارطة بلدنا المتوهجة، ومن تلك الأماكن الحية، التي تعج بالناس، وعما عانته من حيف تلك الأيام، التي لم ترد في كراريس المحاكم قط، ولنعد إلى الحرب الأهلية وويلاتها، حيث كنا نرى المدن، التي تم استردادها أثناء الحرب، ملفعة بالدخان ورائحة البارود، وحملة السلاح الحائمين أمام مقرات الأجهزة المخاباراتية، المشغولة بعقد جلسات المحاكمة المستمرة ليل نهار دونما انقطاع... ولم يكن شرط الحصول على رصاصة شيئاً بعيد المنال، إذ لا ضرورة، لأن تكون ضابطاً من ضباط الجيش الأبيض، أو أن تكون سيناتوراً، أو ملاكاً، أو رجل

دين، أو عضواً من أعضاء حزب الكاديت، أو من حزب الآيسروم[1] بل كان يكفي أن تكون يدك بيضاء طرية، لا خشنة متغضنة، لأن هذا كافٍ لتتلقى حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص، لكن يأخذنا التخمين في هذا السياق، لأن نقول: كيف كان الأمر بالنسبة لتلك الحركات المتمردة في منطقة إيجوفسكي، وخوتكنسيكي، ويارسلاف وفورم، وكازالوف، وتوجي؟... كيف استطاع القضاة تجاوز أولئك أصحاب الأيدي الخشنة، المخرشة بكل هذه البساطة. لقد عجت ملفات تلك القضايا - بالتنكيل والاضطهاد دون محاكمة - بالتنكيل والاضطهاد القضائي - وإذا ما شاءت الأقدار، ووقعت تلك الملفات بين أيدينا، ستتملكنا الغرابة من هول ما سنرى، إذ سيتبين، أن كافة المحكومين كانوا من الفلاحين البسطاء، بسبب كثرة الانتفاضات، والحركات الفلاحية في تلك السنوات ما بين عامي ١٩١٨، ١٩٢١، التي لم يعلن عنها آنذاك. لكن أنىّ لهم طمس ذلك، حتى ولو طلوا أزهار «تاريخ الحرب الأهلية» بالدهان، وربما صعب الأمر عليهم، لو أن أحداً ما، صور تلك الأحداث وحفظها في أفلام سينمائية، إنما لا داعي لذلك فالشواهد كثيرة على ذلك، لا سيما عندما اندفعت صفوف الفلاحين هائجة، ملوحةً بالسلاسل والمذاري، والبلطات، في وجه الرشاشات التي كانت تحصدهم، وهم يشكلون بأجسادهم سلاسل بشرية متشابكة بالأيدي، على شكل مجموعات مؤلفة من عشرة أشخاص، مقابل كل رامي رشاش وهكذا ذهبت هذه السيول البشرية إلى الموت، لتموت حسب قاعدة الإعدام رمياً بالرصاص. وكان من بين تلك الانتفاضات، انتفاضة الحذّائين، وبقي سفر هذه الواقعة في ذاكرة حذّاء من مدينة بيتيلينيه،

١ـ الكاديت حزب ديمقراطي، اما الأيسروم حزب اشتراكي ثوري.

وسميت تيمناً بانتفاضة بينيليسكي[1]. وعند العودة إلى كراس ليتسيس النموذجي، يتبين أنّ عدد الانتفاضات، التي تم خنقها في المحافظات العشرين هو (٣٤٤) انتفاضة (صنفت الانتفاضات الفلاحية، التي قامت منذ عام ١٩١٩، بأنها انتفاضات الملاكين «الكولاك» إذ إنه ليس من المعقول أن يهب الفلاح ضد نظام حكمه الفلاحي - العمالي!! لكن كيف سيتم توضيح مسألة هذه الانتفاضات التي لم تكن وفي كل المرات، إلا انتفاض ثلاث مزارع، أو بضع قرى زراعية، على الرغم من أن الانتفاضة، كان قد شارك فيها الريف بمجمله؟... ولماذا لم تقم الجماهير الفقيرة، بالتصدي لهذه الانتفاضة، أو تلك، بذات المذاري، والبلطات، للقضاء على المنتفعين الكولاك؟ ولم حدث على العكس من ذلك؟ واندفعت هذه الجماهير لمواجهة الرشاشات؟. يقول ليتسيس «إن الكولاك قاموا بإغراء الفلاحين البسطاء، وأمنوهم بالوعود افتراءً،... وأجبروهم تحت التهديد بالمشاركة في هذه الانتفاضات وماذا بعد... أفلا يمكن القول، بأن الوعود خير من شعارات اللجان الفلاحية، والتهديد خير من رصاص رشاشات وحدات المهمات الخاصة!.

إيه... كم التهمت هذه الرحى من الناس العرضيين، أو من الناس المصادفة... هذا التدمير الفوضوي، الذي هو من حيث الواقع، الجوهري الحتمي لهذه الثورة النارية، ومثالاً على هذا سنورد، الآن قضية فلستوفتس (الواقعة في عام ١٩١٩) حرفياً، كما رواها لنا بنفسه، دون أن نتمكن من ذكر كنيته:

١- إن تسمية انتفاضة الفلاحين، بانتفاضة الحذانين، ما هي إلا تسمية استهجان وسخرية وتهكم عن هذا المكان، الذي قامت فيه تلك الانتفاضة (انتفاضة بيتيلينيه).

عند الإعلان عن التعبئة العامة في الجيش الأحمر (كان هذا بعد مرور سنة من: «تسقط الحرب!، الحزب لحراثة الأرض. هيا إلى البيوت»[1]! وبلغ عدد الفارين، الذين تم الإمساك بهم في محافظة ريازان «حتى أيلول عام ١٩١٩، «٥٤٦٩٧» شخصاً تم إرسالهم إلى الجبهة). «كم بلغ عدد الذين تم إطلاق الرصاص عليهم في نفس المكان، عظة للآخرين». رفض المذكور (ي. ب.) الخدمة العسكرية بشكل صريح (دون أن يحاول الهروب والفرار» بسبب معتقداته الدينية، وعبئ بشكل إجباري، إلا أنه رفض استلام السلاح، والذهاب إلى التدريب. وعلى الأثر قام قائد الوحدة بتسليمه لجهاز الطوارئي مرفقاً بتقرير خاص «لا يعترف بالنظام السوفييتي»... التحقيق... جلس ثلاثة خلف الطاولة، وأمام كل واحد منهم مسدس «لقد رأينا الكثير من الأبطال أمثالك... ستركع الآن على ركبتيك!... وستوافق دونما إبطاء على الذهاب إلى القتال، وإلا ستطلق النار عليك»!

كان ي. ب. صلباً، وامتنع عن القتال، كونه مؤمناً بالمسيحية المتسامحة... وستحال القضية إلى المحكمة الثورية في محافظة ريازان: كانت جلسة المحكمة علنية، وتواجد في القاعة حوالي مئة شخص، تولى الدفاع العام محام معروف بلطافته، وخبرته الطويلة، مثل الدفاع عن المتهم، المحامي نيقولا العلامة العريق (كانت قد منعت، وسحبت من التداول، كلمة المدعى العام حتى عام ١٩٢٢).

حاول أحد أعضاء المحكمة، أن يستوضح من المتهم رأيه، واعتراضه (كيف تتجرأ، أنت ممثل الشعب العامل، أن تشارك الارستقراطي الكونت تولستوي، الرأي)؟ قاطع رئيس المحكمة المتهم، ومنعه من الإيضاح، وتابع عضو المحكمة إنك لا تريد أن تقتل الناس، وتثني الآخرين في الوقت نفسه

١- الشعارات المطروحة بعد قيام الثورة الأكتوبرية.

عن أن يدافعوا عن أنفسهم، لقد شن البيض الحرب، وأنت تعيقنا، أن ندافع عن أنفسنا، لذا سنرسلك إلى كوتشاك، وهناك يتم تطبيق تسامحك، ومسالمتك.

ي. ب. - اذهب حيث ترسلون

الدفاع العام - محكمتكم لا تزاول البت بالأفعال الجنائية، إنما تبت فقط في الأعمال المعادية للثورة، وأطلب حسب طبيعة التهمة، أن تنقل القضية إلى المحكمة الشعبية.

رئيس المحكمة - ها! افعل..! يا لك من رجل قانون! نحن لا ننصاع في محكمتنا للقوانين... بل لضميرنا الثوري!

الدفاع العام - أمل أن تدونوا طلبي في محضر المحكمة.

محامي الدفاع: إني أوافق الدفاع العام، فالقضية يجب أن تعالج في محكمة عادية.

الرئيس: يا له من أحمق قديم! أين وجدتموه؟

محامي الدفاع: أربعون عاماً، وأنا أعمل في المحاماة، ولأول مرة أسمع مثل هذه الإهانة، أطلب تدوينها في محضر المحكمة.

الرئيس - (مقهقهاً) - سندونها... سندونها!.

يعم الضحك القاعة، ويخرج القضاة للتداول، وسمعت من غرفة التداول أصوات الزعيق والصراخ والمنازعة، وعاد الثلاثة إلى المنصة... الإعدام رمياً بالرصاص!

ساد القاعة الضجيج، والاستياء، والامتعاض.

الدفاع العام - اعترض على الحكم، وسأتوجه بالاحتجاج، والشكوى إلى قوميسارية العدل (وزارة العدل).

المحامي - أوافق الدفاع العام.

الرئيس - اخرجوا من القاعة!

اقتاد الحراس ي. ب. إلى السجن، وهم يبثونه بكلمات خجلى. «لو كان الجميع كما أنت يا أخانا - لعم الخير! وعندها لما كانت على الأقل هذه الحروب البيضاء، ولا الحمراء»! وعاد المرافقون الجنود إلى ثكناتهم، وعقدوا اجتماعاً لأفراد الجيش الأحمر، وأدانوا في نهاية الاجتماع قرار الحكم بالإجماع، ورفعوا مذكرة اعتراض إلى موسكو بهذا الخصوص.

تمر الأيام... وأنا انتظر الموت، ويحيق اليأس بي من كل جانب، بخاصة عندما كانت تتكرر أمامي مشاهد الإعدام رمياً بالرصاص، بينما كنت أطل من النافذة المطلة على ساحة السجن، وبعد أن مر على وجودي سبع وثلاثون يوماً، جاء القرار بعدها، باستبدال الحكم، بالسجن خمسة عشر عاماً (توقيف شديد).

إنه مثال يحتذى، على الرغم من أن القانونية الثورية انتصرت إلى حد ما... وتطلب الأمر من رئيس المحكمة بذل الجهد الكبير لتحقيق هذا الانتصار! حيث واجه الإخلال وقلة الانضباط، وعدم الاعتراف بصيغة الاتهام - عدا عن أن المرافقين الحراس، قد تدخلوا في عمل غيرهم، وقاموا بتقديم الاحتجاج على ذلك... أخ ليس هو بالأمر هين، أن تحقق المحكمة الجديدة دكتاتورية البرولتياريا... لم تكن لتتم كافة المحاكمات بمثل هذا الهرج والمرج، إلا أنها لم تكن المرة الوحيدة، وما أن مرت سنوات عدة حتى ظهر للوجود منحى أكثر توافقاً، إذ أصبح الدفاع متفقاً مع وجهة نظر المدعي العام، ومع القضاة، وقل حتى مع المتهم نفسه، لتتأكد مقولة بيانات الجماهير الشعبية، في أن الكل يصبح في واحد.

لا شك إن تتبع هذه الطريق عبر السنين الطويلة هي مهمة سامية يقوم بها المؤرخون، لكن كيف لنا، أن نتحرك وسط هذا الضباب الوردي وإلى من نتوجه بالسؤال عن هذا؟!

أنسأل الذين ماتوا إعداماً.... فليسوا مجيبين... أم نسأل أولئك المشتتين... فإنهم غير قائلين أو رادين على سؤالنا... وكذا لن يفصح المتهم، ولا المحامي، ولا الحراس، ولا المراقبين، الذين ما زال البعض منهم على قيد الحياة.. عدا عن صعوبة الاتصال بهم، والبحث عنهم في حكم الممنوع.

لم يبق لنا بعد هذا، إلا أن نطلب مساعدة جهة الادّعاء، والاتهام، وهكذا وقعت تحت أيدينا بعض النسخ المتبقية، التي قدمها لنا المتبرعون، وكان منها...

خطابات الادّعاء التي قذف بها الثوري الهائج العضو الأول في اللجنة الشعبية العمالية - واللجنة الفلاحية العسكرية (رئيس اللجنة).

- الدليل الرائد لفرع محاكم الاستئناف التابع للجنة العدل الشعبية (لقد قام على تحضير هذا الدليل، رئيس المحاكم العليا، لكن فيما بعد، قام لينين باستبدال بعض المصطلحات الواردة فيه).

- كلمات المدعي العام الشهير ف. ن. كريلنكو.

إذا ما أردنا استعراض موجز هذه المحاكمات العلنية، تعترض الرغبة علينا، وتصد عن عيش هذه التجربة، وعن استنشاق هوائها المحكمي الذي عبق في السنوات الأولى بعد الثورة - ويتوجب علينا إذ ذاك، أن نعرف الكيفية التي يقرأ بها هذا الكتاب حيث إنه ليس كأي كتاب آخر... أما أولئك الذين ليست لديهم إمكانية الحصول عليه، وليس لديهم كذلك الصفة الاختصاصية في هذا المجال فما لهم إلا أن يعوضوا قصورهم هذا، بالتصور، وربما كنا نفضل بشكلٍ بدهي أن نشاهد محاضر الجلسات تلك المحاكم، ونسمع الأصوات الدراماتيكية المتحشرجة في حلوق المتهمين والمحامين الأوائل، التي منها أجدنا التصور لها، ولا بد من أن نعجز عن تمثيل تلك الفظاعة، والقساوة، أو حتى أن نتقبل هذا الكتاب - وأولئك القضاة الثوريين معاً.

لكن كريلنكو يوضح لنا، بأن طبع هذه النسخ من المحاضر (لم يكن مناسباً لعدة أسباب، منها الأمور الفنية، إلا أنه كان من المناسب له أن يعقد الخطب الاتهامية ويصدر قرارات الحكم، المتطابقة لدرجة الكمال مع توجيهات المدعي العام.

لقد تبين، بأن الأرشيف الخاص بالمحاكم الثورية الموسكوفية العليا «كان حتى عام ١٩٢٣ مكدساً بشكل فوضوي... وبدت نصوص بعض القضايا عويصة، ومستغلقة على الفهم، مما استدعى شطب صفحات كاملة من تلك المحاضر، ليعاد إنشاء النص من مخزون الذاكرة». عدا عن عدم وجود محاضر، (لكافة القضايا الكبرى)، بما فيها قضية عصيان الآيسروف، وقضية الأدميرال شاستوف، وقضية السفير الإنكليزي لوكارت «نفذت المحاكمات، دون أي محاضر» ويا للغرابة...! لم تكن إدانة الآيسيريين اليساريين، على مثل هذه الدرجة من التفاهة، كي تستحق هذا الإهمال - لقد كانت هذه القضية هي العقدة الأساسية الثالثة في تاريخنا بعد أحداث شهري شباط وأكتوبر، والتي تم خلالها الانتقال إلى صيغة اعتماد الحزب الواحد في نظام الحكم، عدا عن أن من نُفذ عليهم حكم الإعدام، لم يكن بالعدل القليل، ومع ذلك كله، لم تدون أي محاضر.

في عام ١٩١٩ كانت «المؤامرة العسكرية». «قامت لجنة الطوارئ العسكرية (جهاز الأمن العسكري) بتصفيتها مستخدمة طريقة الاضطهاد والتنكيل دون محاكمة»، الأمر «الذي أثبت حقيقة وجودها كمؤامرة»، (تم اعتقال أكثر من ألف شخص في تلك الآونة - فهل يعقل أن يعرض الجميع على المحكمة)؟.

هكذا إذن..... هيا حدثنا بالتفصيل عن محاكمات تلك السنين، وعن كل شيء حاق بها!

ويحدثنا المدعي العام... إن أكثر المبادئ أهمية، وأساسية، هو أن المحكمة التنفيذية المركزية العليا، تملك الحق في أن تتدخل في كل قضية قضائية «إن المحاكم التنفيذية المركزية العليا تعفي، وتعاقب حسب تقديرها الخاص دون حدود»، (إن ما ورد بين القوسين، نقل بالأصل من قبل الكسندر سوليجنيستين). وهكذا فإذا كان الحكم ستة أشهر، تستطيع هذه المحكمة أن تستبدله بعشر سنين (وكما فهم القارئ، ليس من الضروري، أن تجتمع الهيئة الكاملة، بل يرسل قرار الحكم إلى أيّ وجهة وليكن إلى مكتب سفرولوف)، ويوضح كريلنكو «إنه لمن المفيد، أن تتميز منظومتنا عن النظريات المزيفة لتجزئة السلطة»، التي تقول باستقلالية السلطة القضائية «صح قول سفرولوف: «الجيد في الأمر عندنا، بأن السلطتين التشريعية، والتنفيذية لا تنفصلان بحدود فاصلة، أو بجدران صماء، كما في الغرب، وبالتالي فهي تملك خاصية حل كل المشكلات على درجة من السرعة خاصة إذا حلت على المشانق، ويعطي كريلنكو صورة واضحة وصريحة عن هذه المحاكم وعن المهمة الموكلة للقضاة السوفييت، إذ يقول «عندما يكون القاضي قاضياً وفي الوقت نفسه إلها للحق (انفرج كريلنكو)... وسلاحاً للسياسة»، (أدخلت كلمة انفراج من قبل المؤلف).

إنه حق - أجل... لأنه لم يكن هناك أي تشريع قضائي في السنوات الأربع، التي أعقبت قيام الثورة، إذ قاموا منذ البداية، بإلغاء التشريع القيصري، ولم يضعوا البديل له «دعهم يقولون، إن قضاءنا الحقوقي، يعمل معتمداً بشكل مطلق على القوانين المتوفرة بين أيدينا... فنحن نعيش عملية الثورة»... «إن المحكمة العسكرية، أو المحكمة الثورية ليستا محكمتين عاديتين - لتبرز فيهما عوامل الحذاقة، والمهارة، والتفاصيل الحقوقية، والتغيير... نحن الآن نبدي حقوقاً جديدة، وقوانين أخلاقية

حديثة»، «ومهما قيل عن تلك القوانين، والحقوق العادلة الأبدية... إلى آخره - فنحن نعلم... أي ثمنٍ دفعنا من جراء هذا العدل»، «أجل... لو قارنا مدد الأحكام المقررة من قبلهم، مع مدد أحكامنا، لوجدناها ليست بهذا القدر الذي نحكم به؟... إضافة إلى أنه، يمكن أن يكون التعامل مع العدل الأبدي أكثر أريحية)؟.

لماذا لا تستدعي الضرورة البحث في التفاصيل الحقوقية؟ أمر يتطلب التوضيح - إن مقولة هل المتهم مذنب أم بريء؟ - هي مفهوم برجوازي قديم للاتهام، محق إلى غير رجعة.

هكذا سمعنا لأكثر من مرة على لسان الرفيق كريلنكو، من أن المحكمة الثورية - هي ليست بالمحكمة العادية: «إن المحكمة الثورية ما هي إلا جهاز نضال طبقي عمالي موجه ضد أعداء هذه الطبقة». ويجب أن ينطلق هذا الجهاز بشكل دائم «من موقع واحد أحد، ألا هو مصلحة الثورة... وأن يأخذ بالحسبان، بأن يحقق لجماهير العمال، والفلاحين النتائج المرجوة».

ليس كل البشر بشراً «فمهما كان البعض حاملاً لأفكار واضحة محددة»، «وأيّ كانت هذه النوعية، أو الحالة الفردية «للمتهم»، فإنه لا بد من أن يخضع لطريقة واحدة من التقييم: وهي تقدير حالة الاتهام، من خلال وجهة نظر النفع الطبقي»، هذا يعني تستطيع أن تكون موجوداً فقط في الحالة، التي تكون فيها نافعاً فكيف إذا «كان النفع يتطلب أن ينهال سيف العقاب على الرؤوس فعندها يكون إقناع المتهمين عن طريقة الكلمة، غير مجد، وغير ذي نفع»... إذاً ما قيمة الأدلة، والحجج والبراهين، التي ينفتق المحامون، ويجهدون أنفسهم في تقديمها... «ونحن في المحاكم الثورية، لا نسترشد بالمواد القانونية، ولا بشروط تخفيف الأحكام، ويجب على المحكمة فقط، أن تنطلق من التصور النفعي

للطبقة، ليس إلا»... لقد عاشوا... وعاشوا عبر السنين الطويلة... وتبين الآن، وبعد كل هذه الحقب، من أن عيشهم لم يكن ذا نفع، وجدوى.

يفهم من هذا: بأنه لا تقع على عاتق المتهم، مسؤولية ذلك الفعل الذي قام به، بل تقع عليه مسؤولية ذلك الفعل، الذي قد يقوم به، فيما لو لم يتم إطلاق النار عليه الآن «نحن نحمي أنفسنا، ليس فقط من الماضي. بل نحميها كذلك من المستقبل».

أجل هذه هي قرارات الرفيق كريلنكو الشاملة، التي تطبق علينا في كافة المراحل القضائية وفي كافة الأزمان، والأدوار فعملية التبخر الربيعي تقطع شفافية الخريف الصافية بشكل مفاجئ، وأرى إنه من الأجدى، أن نكتفي بما أوردناه، ولا ضرورة لتقليب كافة صفحات هذه العمليات، صفحة إثر صفحة، وعملية إثر عملية، إنما المهم أن نعرف بأن هذه القرارات قد استخدمت بشكل حرفي دون تحريف.

أغمض عينيك، كي تسهل عليك عملية التصور: قاعة المحكمة لم ترصع بالذهب بعد، وبدا القضاة المحنكون في بزاتهم العسكرية، نحيفي الأجساد، بارزي الوجنات، لم تظهر عليهم بعد علامات الشبع، جالسين وراء منصة سلطة الادّعاء العليا (كما يجب أن يسميها كريلنكو) يتصدرهم الرئيس، مرتدياً بزة مدنية انفرجت ياقتها، ليظهر من تحتها القميص المخطط المعروف لدى البحارة.

يتوضح معنى كلمة المدعي العام باللغة الروسية على الشكل التالي «من المهم أن أعرف الواقعة» «تمعنوا في هذه النزعة»، «إننا نقوم بعمليات تحليلية، لاستنباط الحقيقة الموضوعية» إذا ما نظرت حولك، قد تبرق أمام ناظريك الحكمة اللاتينية «تبقى الحقيقة مهما تغيرت واحدة، لكن كما تقول الحكمة نفسها، قد تظهر خلال السنين حقيقة أخرى». ولا غرو في ذلك، فهو قد أنهى الدراسة إبان معمعة الثورة في كليتين لذا فيحق له -

أن يعطي رأيه عن المتهمين بأنهم «ممتهنو نذالة» دون أيّ مواربة، وحدث ذات مرة، أن متهمة ابتسمت له ابتسامة لم ترق له، فلدغها بسيل من كلمات التهديد، حتى قبل أن تناقش مسألة قرار الحكم «فلتعلمي أيتها المواطنة إيفانوفنا، لدينا الأمكنة، في أن نجد الثمن المناسب لابتسامتك، ونستطيع أن نعمل، ما من شأنه أن نفقدك إمكانية الضحك بعدها إلى الأبد»!.

لندع هذا.

ولنعد إلى قضية «المطبوعات الروسية» وكانت هذه أول محاكمة مبكرة - للكلمة.

إذ نشرت الصحيفة المعروفة «بروفسيورسكي» في ٢٤ شباط عام ١٩١٨، مقالاً لسفينكوف عنوانه «من الطريق» وكان من المفترض أن يلقى القبض عليه، إلا أن الطريق لم تكن سالكة، وأين لنا أن نبحث عنه؟ فالأفضل إغلاق الصحيفة، وإحالة المحرر العجوز ف. ب. يكوروف إلى المحاكمة، واستوضحوا منه: كيف تجرأ على ذلك؟ ألم تمر أربعة أشهر على قيام العهد الجديد؟... ألم يحن لك التعود على هذا؟.

حاول يكوروف التبرير بشكل عفوي، من أن هذا المقال - «لأحد الشخصيات السياسية المعروفة وأن مجمل الآراء الواردة فيه، جاءت للصالح العام، بغض النظر عما إذا كانت إدارة التحرير توافقه الرأي أم لا» - وبالتالي لم يجد رئيس التحرير، أي افتراء في مقالة سفينكوف: «يجب ألا ننسى - أن لينين، وناتا نسون وك، عادوا إلى روسيا عن طريق برلين، وهذا يعني إن السلطات الألمانية قد قدمت لهم المساعدة أثناء عودتهم إلى أرض الوطن» - وفي الحقيقة هذا الذي كان، إذ إن ألمانيا التي حاربت ضدنا قد ساعدت لينين على العودة.

هتف كريلنكو بتعجب: لن نقوم بتوجيه تهمة الافتراء (لماذا)؟. لآن الصحيفة تحاكم، فيما إذا حاولت التأثير على العقول، (ترى هل يعقل أن يكون لهذه الصحيفة مثل هذا الهدف)؟!.

لن نوجه الاتهام للصحيفة، ولا لعبارة سفينكوف «لا بد من أن يكون مجرماً مجنوناً ذاك الذي يؤكد أن البروليتاريا العالمية لا تقدم لنا المساعدة» - لأنها بالفعل ما زالت تساعدنا...

لكن، وبسبب المحاولات التي أبديت للتأثير على عقلية القضاء: تم إغلاق الصحيفة التي كان أول صدور لها عام ١٦٦٤، والتي لاقت الكثير من الانتكاسات اللا محتملة من قبل أوراموف، بابيدا نستسوف، ستولبين، وكوسو، وكثيرين غيرهم، (وأغلقت بسبب مقالة واحدة - وللأبد! هكذا يجب المحافظة على السلطة)، أما رئيس التحرير ايكوروف، ويا للخجل! تلقى حكماً بثلاثة أشهر عزلاً انفرادياً. (ليس هو بالأمر المخجل لتلك الدرجة، لأنه لو فكرنا بأن عام الحكم كان عام ١٩١٨! وما زال أمام العجوز الكثير من الوقت ليزج ثانية، وثالثة، ... وربما لأكثر من مرة)!.

لكن ويا للغرابة، إن أكثر الأشياء دهشة في تلك الآونة، هو قبول الرشاوى السخية في تلك السنوات العاصفة، وبمثل هذه الكياسة، وأصبح ما كان سائداً في روسيا السابقة، صائراً في الاتحاد، وبخاصة منها تلك الأعطيات المقدمة للجهاز القضائي، والجهاز الأمني الطوارئي دونما خوف، أو وجل، وبقيت مع ذلك، مجلدات التاريخ ذات الأغلفة الحمراء، الممهورة بالأختام الذهبية، صامتة دون حراك، لكن أنىّ للتاريخ، إغفال ذكريات وشهادات العيان لأولئك الشيوخ، عن الزمن الستاليني الموسوم بسمة وحيدة واحدة وهي أن مستقبل المعتقلين السياسيين، كان متعلقاً إلى حد كبير، بمقدار الرشوة وقيمتها: لقد قبلوا منها دون حياء وخجل، وأطلقوا السراح،

إيفاءً بالوعود دونما إخلال، لذا ترى كريلنكو هذا، قد انتقى دزينة من القضايا خلال السنوات الخمس... وأعلمنا عن اثنتين منها... على مهلكم.... حتى المحكمة الموسكوفية، والمحكمة العليا ذاتهما قد اخترقتا القواعد للحصول على هذه الفضائل، بالطرق الملتوية - لتمرغنا بالبذاءة ذاتها.

كانت إحدى القضايا الكريلنكوفية... قضية ثلاثة محققين من المحكمة الثورية الموسكوفية، في (نيسان عام ١٩١٨)، اعتقل بيرديز مهرب السبائك الذهبية وراحت زوجته كما هي العادة، تبحث عن طريق خلاص لزوجها، وأتيح لها أن تجد سلسلة من المعارف أدت إلى الوصول إلى أحد المحققين، وقام ذاك المعني وجر بدوره اثنين من أبناء جلدته إلى مقابلة سرية طلبوا فيها، مئتين وخمسين ألف روبل لقاء عملهم، وبعد مساومة، وأخذ، ورد خفض السعر إلى ستين ألف روبل، يدفع نصفها مسبقاً، واشترط أن يتم التعامل عبر المحامي كرينا، وسارت الأمور بشكل خفي... مثل المئات من هذه القضايا النموذجية، التي لم تقع في سفر التاريخ الكريلنكوي، ولا حتى في أسفارنا (ولم يتم تداولها في مجالس اللجان الشعبية)، لولا تقتير الزوجة في الدراهم، ورفضها استكمال دفع السلفة (مبلغ الثلاثين ألف روبل) واكتفت بالدفع للمحامي كرينا مبلغ خمسة عشر ألف روبل، وأيضاً، لولا الململة النسائية، التي جعلتها تغير رأيها بالمحامي الموكل خلال ليلة واحدة، وتعتبره غير كفؤ لهذه المهمة، وراحت من توها في الصباح، تبحث عن محام آخر - اسمه باكولوف، الذي لم يعرف تحديداً أسماء قابضي الرشوة، إلا أنه قرر أن يكمش المحققين.

الأمر الممتع في هذه القضية، هو أن كافة الشهود حتى بما فيهم الزوجة الخائبة، حاولوا أن يقدموا الأدلة لصالح المتهمين، وتضليل الادّعاء (أمر قد يصعب حدوثه في المحاكمات السياسية)! يوضح كريلنكو المسألة على الشكل التالي: لقد كان هذا سبب ضيق أفقهم، ومحدودية

تصورهم في أنهم اعتبروا أنفسهم غرباء عن محكمتنا الثورية (وهنا نقول بجرأة، مرجحين أن هؤلاء ضعاف العقول: لم يتعلموا.... تخويف الشهود. بعد مرور نصف عام على قيام دكتاتورية البروليتاريا؟...

ألا يتطلب الأمر الكثير من الوقاحة - لتأجيج المحكمة الثورية - (لكن أي مصير ينتظرك)؟.

يا لهذا التعليل العجيب الذي ابتكره المدعي العام! ألم يكن هؤلاء المتهمون لشهر خلا مرؤوسين، ومعاونين، وزملاء له... لقد كانوا أناساً مرهونين للمصالح الثورية!؟.

حتى إن أحدهم المدعو ليست، كان «مدعياً عاماً» متجهماً، جاهزاً لأن ينزل البرق والرعد على من تجرأ بالتطاول على القواعد الأساسية»... وماذا لنا أن نقول الآن: عنهم؟ وأين لنا أن نجد أمراً أكثر شناعة؟ (إذا كانت شناعة الرشوة غير كافية) إنه لأمر واضح... من خلال استعراض السيرة السابقة!!.

«لو تحرينا عن ليست المذكور هذا، لأرضينا فضولنا «وعثرنا على معلومات طريفة للغاية»، إنه مغامر قديم - لا بل إنه ابن البروفسور رئيس جامعة موسكو، ولم يكن ذاك البروفسور بسيطاً، لقد استطاع أن يفلت ويسلم من كافة الارتكاسات التي مر بها خلال عشرين عاماً، بسبب عدم اكتراثه بالنشاطات السياسية! (نعم بغض النظر عن ردة الفعل - فإن كريلنكو أدرك هذا على وجه السرعة)... وهل مستغرب أن يكون ابنه - منافقاً؟.

أما باد كاييسكي - فهو ابن موظف في المحكمة - وهو بلا شك عضو في جماعة المئة السود، وإلا كيف استطاع الأب أن يخدم عشرين عاماً في الجهاز القضائي، ويعمل على تحضير الابن ليكون عاملاً في القضاء... لكن دارت الأحداث، وقامت الثورة وقفز إلى المحكمة

الثورية... سيما وأنه كان مثل هذا يعتبر بمثابة نجاح - بينما الآن بات الأمر مقرفاً!.

كان أكثرهم دناءة... بالطبع - كوكل، الذي كان في السابق ناشراً - ويا لطبيعة ونوعية هذا الغذاء الفكري، المقدم للعمال والفلاحين «لقد غذى الجماهير العريضة، بكتب رديئة المحتوى» - وليس بكتب كارل ماركس، بل بكتب، ومؤلفات الأساتذة المعلمين البرجوازيين، المعروفين على المستوى العالمي (سنقابل هؤلاء الأساتذة، على مقاعد المتهمين في المحاكم).

يتلبس الحقد والدهشة كريلنكو: كيف استطاع أمثال هؤلاء البشر، أن يكونوا من قضاة المحكمة الثورية؟ (إننا نشاركه عدم فهمه هذا): ومن يشكل قوام هذه المحاكم العمالية - الفلاحية؟... ولماذا فوضت طبقة البروليتاريا، مثل هذه النوعية لتضرب أعداءها.

الآن جاء دور المحامي كرينا «رجله» في مجموعة المحققين المتهمين، كان باستطاعته، كرينا هذا، أن يطلق سراح أياً كان. هذا «الأنموذج الرائع من الأصناف البشرية، المتنوعة الأجناس، الذي كان كارل ماركس، قد أطلق عليهم علقات النظام الرأسمالي» وأدخل في قوام التصنيف كلاً من الجاندرما، والقساوسة، وكتاب العقود، والمحامين أيضاً.

لم يألُ كريلنكو جهداً، بالمطالبة بأقسى العقوبات، وأعنف الأحكام، بغض النظر عن (مسحة الذنب الفردي)، لكن ما هذا الذهول... وما هذه الميوعة التي اعترت المحكمة الطيبة - النشيطة - وبالكاد على الرغم منه، ومن عناده، حكم على المحققين بالسجن ستة أشهر، وبالتغريم على المحامي والزوجة (للمحكمة العليا فقط، الحق «بحكم الإعدام دون حدود»، لقد حاول كريلنكو، أن يستصدر من «المستعمرة» حكماً بعشر

سنين على المحققين، وبخمس سنوات على المحامي مع مصادرة كافة أملاكه. ولشد ما ذاعت شهرة كريلنكو، بسبب يقظته، وحصافته، التي لولاهما، لكان قاب قوسين أو أدنى من إحالته إلى المحكمة).

نعترف بأن هذه العملية التعيسة، لم تستطع نسف الإيمان بقدسية المحكمة، ولا في أوساط الجماهير الثورية في ذلك الوقت، ولا في أوساط قراء اليوم، وبنفس هذا الوصل، ننتقل إلى المحكمة التالية، التي تتعلق بمؤسسة أكثر رفعة من تلك:

قضية كوسيروف (١٥ شباط ١٩١٩)، وكان فيليب مكسموفيتش كوسيروف، ومجموعة ليبرت، وروتينبورغ، وسلافيوف يخدمون معاً في لجنة إمداد الجبهة الشرقية (العاملة ضد قوات المؤتمر التأسيسي فين كولتشاك) وقد ثبت بأنهم هناك في الجبهة، وجدوا طريقة ما، مناسبة للحصول على مبلغ تتراوح قيمته بين السبعين ألف إلى المليون روبل بضربة واحدة، وتفرقوا لممارسة السكر، ومضاجعة المرضات.

كانت اللجنة تملك بيتاً وسيارة، وعاث رئيسها في الضواحي سكراً وعربدةً ومعاشرة نساء (لم نعتد على التصور، أن يكون مثل هذا قد حصل في عام ١٩١٨، لكن المحكمة الثورية تشهد على ذلك)!. ومع ذلك فالمشكلة ليست في هذا: لأنه لم يحاكم أي منهم بجريرة الأفعال تلك المرتكبة في الجبهة، وتم الصفح عن كافة الارتكابات، إلا أنه يا للعجب! - تم حل اللجنة بعد لأي، وانتهت أعمالها، وتم استدعاء الأربعة، بما فيهم عضو هذه المجموعة المتمرد نازارنيك المحكوم سابقاً بالأشغال الشاقة، بسبب ارتكابه جرم الجناية، وأسندت لهم مهمة تشكيل هيئة الرقابة، والتفتيش التابعة للجهاز الأمني العسكري الطوارئي.

وهذه نبذة عن مهمات الهيئة: للهيئة الحق في أن تتأكد من الأعمال القانونية، لكافة فروع الأجهزة الأمنية، وفي أن تطلب مراجعة، وتدقيق أيّ

قضية، وفي أيّ مرحلة، وتملك الحق كذلك في تبديل، وتغيير كافة قرارات الأجهزة، عدا تلك الصادرة عن قيادة الجهاز الأمني... أترى... ليست هي بالمهمة السهلة!.

فالهيئة تعتبر السلطة الثانية في الجهاز بعد القيادة... بالطبع بعد ديرجينسكي، واوريتسكي، وبيتروس، وليتسيس، وينجينسكي - وياغودا!!

لم تتغير طريقة عيش هذه المجموعة الرفاقية عن السابق، ولم يتأخروا، أو يتعاظموا بالمنصب الجديد، على الرغم من أن المذكورين مكسموفيتش، وليون ليبرت، ورافائيل، وروتينبورغ، وماريربولسكي سلافيوف (لم تكن لهم أيّ علاقة بالحزب الشيوعي) - أمام الرفاق عاشوا في الشقق الخاصة، أو في فندق «سافوي» المعروف بتأمين «الرفاهية المطلقة»... وكانوا هناك أيضاً يمارسون لعبة القمار (لمَ.... لا طالما لديهم في البنوك أرصدة بآلاف الروبلات) ويحتسون الخمرة، ويعاشرون النساء» كان لدى كوسيروف ثروة طائلة (سبعون ألفاً) ومع ذلك لم يترفع عن سرقة الكؤوس، والملاعق الذهبية من مصادرات الجهاز الأمني، أو قل حتى العادية منها (لكن من أين للجهاز كل هذه الأشياء).

إذاً لم «تصادر الكؤوس، والأشياء الثمينة بغرض تحقيق هدف معنوي، بل كانت تذهب للاستخدام الشخصي في الحركة الثورية». (كم رفض المذكور، الاعتراف - بأن يكون قد ارتشى في السابق، وإن ما لديه من عشرات آلاف الروبلات، المودعة في حسابه الخاص في بنوك واشنطن، ما هي إلا إرث متناقل (لعله تصور أن مثل هذه الحالة تتطابق وواقعية مفهوم الثورة العالمية)!

فهل هذا من العدل بشيء، أمن الإنصاف استخدام كافة الصلاحيات على رقاب البشر، يعتقلون من شاؤوا اعتقاله، ويتركون من شاؤوا تركه -

ويتضح فيما بعد، بأن هذا ما كان ليتم، إلا لتمييز، ومعرفة السمكة الذهبية (التي تبيض ذهباً)... وكثيراً ما وقعت هذه الأسماك في تلك الشبكة (فالثورة اشتعلت بسرعة، وعلى عجل، دون التحضير والتنسيق اللازمين، لذا استطاع البرجوازيون إخفاء الكثير من الأحجار الكريمة، والعقود والكرادين، والأساور والخواتم، والأقراط) وراحوا يسعون، لإقامة الصلات مع أقارب المعتقلين، عن طريق إنسان وسيط شكلي.

كثيرة هي الشخصيات، التي تعرضت لعمليات المحاكمة، ومنها الفتاة (أوسبينكا) البالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً، بعدما أنهت الدراسة الثانوية (الغيمنازي[1]) في مدينة بيتربورغ، لم يتح لها إكمال متابعة تحصيلها، بسبب حلول السلطة السوفييتية، وعملت في ربيع العام الثامن عشر في الجهاز الأمني الطوارئي، إذ قدمت خدماتها كمخبرة، طالما كان مظهرها الخارجي يتوافق والمهمة الموكلة...

هكذا هم المخبرون، يقول كريلنكو مبرراً عمله هذا «نحن لا نرى عيباً في ذلك... طالما أن القائم به، يعترف بأن عمله هذا ضروري لمصلحة الثورة - وما عليه إلا أن ينفذ ما هو مطلوب منه.. لكن على رسلكم... لقد تبين أن أوسبينكا ليست لديها أيّ عقيدة سياسية - وهذا هو ما يخيف، إذ تجيب على هذا قائلة: «لقد وافقت على قيامي بهذه المهمة، كي يدفعوا لي نسبة معينة» إذاً العمل على المفتوح، خمسة بخمسة.... لكن مع من؟... فالمحكمة تتجنب أن يطلق عليها هذا الاعتبار، حسبما يقول كريلنكو معبراً بكلماته الخاصة: أوسبينكا هذه، لم تكن عاملة في كوادر الجهاز الأمني... بل عملت... بالقطعة)[2]. لكننا نعود لنستعرض توضيح المدعي

١- مدرسة ثانوية في العهد القيصري.

٢- ما تقدمه من القطع المصادرة، أو المسروقة، أو المهداة.

العام، الذي يأخذ في الحسبان المفهوم الإنساني عند تقييمها: لقد تعودت ألا تقوم بعدّ النقود، إذ ما قيمة هذه الخمسمئة روبل التي تقبضها كراتب من إدارة الإمداد العسكري؟ فهي لا تساوي قيمة عمل بلطجي واحد؟ (كتقديم المساعدة للبائع في نزع الختم عن أقفال المخازن) الذي يمنحها مقابل هذا العمل خمسة آلاف روبل. أو أن تقوم بشيء آخر، على غرار المبلغ الذي قبضته من زوجة المعتقل كريفس ميشيرسكي المساوي لسبعة آلاف روبل، مع التنويه، بأن أوسبينكا هذه، لم تبق مخبرة بسيطة لفترة طويلة، إذ إنها وبمساعدة عدة شخصيات رفيعة في الجهاز، أصبحت خلال عدة شهور محققة شيوعية.

إلا أننا لم نستطع حتى الآن استبيان جوهر قضية السبعة آلاف، لقد كان ب. أ. ميشيرسكي مضيعاً كبيراً، واعتقل بسبب عدم مشاركته في المباحثات الاقتصادية الحكومية (السوفييتية) مع (يوري لارين)، وكان لدى زوجته ملكيات كبيرة من الأشياء القيمة والدراهم. وراحت المخابرات تمارس عمليات الشانتاج للاتصال معها، إذ كانوا يأتون للبيت، ويوهمونها في كل مرة، مدى الخطورة المطبقة على زوجها، الذي تعرض لحكم الإعدام.. ويطلبون منها مقابل رأسه الكثير من المال... وقامت زوجة كريفس بالإبلاغ عن هذا الشانتاج (قامت بالإبلاغ بنفسها)، عن طريق القاضي المحلف ياكوفلييف الذي شنع بالمرتشين، بشدة مطلقة، بقدر ما يكنه من حقد، وبغض طبقي لمنظومة المحاكم البروليتارية - التي تحاكم بلا قانون). إلا أن ياكوفلييف رئيس المحكمة آنذاك ارتكب خطأً طبقياً.. فبدلاً من أن يقوم بإبلاغ ديرجبنسكي عن القضية، وينهي كل شيء عائلياً - قرر أن يعطي زوجة كريفس أوراقاً مالية مرقمة من قبله، تدفعها مع الرشوة المطلوبة منها، وفي الوقت نفسه طلب منها أن تقوم بإخفاء اختصاصي في الاختزال، خلف الستارة. قدم إلى المنزل رجل يدعى

كودليوك الصديق المقرب، لكوسيروف، للاتفاق على السعر (البالغ ستة آلاف روبل). وفي هذا الأثناء تم تدوين الاختزال للحوالات المرسلة إلى كوسيروف، وسولوفييف، والقوميساريين الآخرين، مع تسجيل كافة الأحاديث الفياضة، التي دارت عن الجهاز وعن آلاف الروبلات المرتشى بها... استلم كودليوك سلفته المقررة، وسلم الزوجة بالمقابل بطاقة دخول إلى الإدارة (الجهاز الأمني) ممنوحة من قبل هيئة الرقابة والتفتيش الثوري الممهورة بتوقيع ليبرت روتينبورغ. (كي تتابع عملية المقايضة التجارية هناك). لكن عند خروج كودليوك، ثم إلقاء القبض عليه! وهو في غاية الاضطراب، تمت مواجهته بالأدلة (أما زوجة كريفس تمكنت من الدخول إلى هيئة الرقابة، وبقيت تتردد إليها للتأكد من مصير زوجها).

أستميحكم القول، لو قلت: ألا تلطخ مثل هذه الفضائح الثياب السماوية للجهاز الأمني؟ وهل يعقل أن يكون رئيس المحكمة الثورية الموسكوفية من عمل، بما أملاه عليه العقل؟ أم تراه قد جنّ... لا بد من أنه وصل إلى مثل هذه الحالة ليقوم بمثل هذا العمل؟...

أجل... هكذا كانت تلك المرحلة - هذه التي لفعت، وأخفيت عنا جميعاً، وبقيت في ذاكرة التاريخ العظيم... لتبين لنا... إن الجهاز قام في السنوات الأولى، بارتكاب الكثير من الفضائح الشنيعة التي تعطي الانطباع السيئ عن حزب البرولتياريا، الذي لم يعتد في ذلك التاريخ على مثل هذه الأفعال. نعم.. لقد خطا الجهاز الأمني في السنة الأولى، الخطوة الأولى على طريق المجد. حيث يكتب كريلنكو معبراً عن هذا بكلام مبهم: لقد ظهر «جدال بين المحكمة وواجباتها الوظيفية من جهة - وبين الواجبات اللا قضائية للجهاز الأمني من جهة ثانية.. هذا الجدال الذي شق الحزب، والطبقة العاملة إلى معسكرين منفصلين. كان يمكن أن تظهر قضايا كثيرة مماثلة لقضية كوسيروف (على الرغم من حدوث

الكثير منها)، وكذلك كان يمكن أن تصل إلى كافة المستويات الحكومية.

كان من الضروري إنقاذ الجهاز... أجل إنقاذ الجهاز... يطلب سولوفييف من المحكمة الثورية السماح له بالذهاب إلى سجن تاراكان (مع الأسف ليس لوبيانكا) لمقابلة السجين كودليوك، بغية التحدث إليه، والتشاور معه... ورفضت المحكمة هذا الطلب.

وإذ ذاك قام سولوفييف بالتوجه إلى حجرة كودليوك دون إذن من المحكمة... ويا للمصادفة... لقد كان السجين مريضاً للغاية (وحالته لا تسمح حتى بإبلاغه عن حضور سولوفييف المحتد) -! يشير إلى هذا كريلنكو! - وما أن أحس كودليوك باقتراب أجله، اعتراه الندم الشديد على الكيفية التي استطاع فيها الكذب على الجهاز والوشي على كوسيروف، وعلى القوميسارية، والآخرين العاملين في الجهاز، وإن ما تم تسجيله بطريقة الاختزال وراء الستارة ما هو في الحقيقة - إلا كذب باطل.

كم هي المشاهد كثيرا! أوه... أين أنت يا شكسبير؟... لقد اخترق سولوفييف جدران حجرات السجن الهشة! وتبرأ كودليوك مما اقترفت يداه المرتجفتين - أما نحن، وأينما كنا سواء في المسرح، أو في السينما، أو في الشارع، كانت تصرخ أصواتنا طوال السنوات الثورية لتلف (!العواصف المعادية للثورة).

«لكن من ذلك الذي كتب بطاقة السماح بالدخول؟ - يلح كريلنكو... لا يعقل أن تسقط بين يدي الزوجة (زوجة ميشيرسكي) من الهواء؟.. لا... فالمتهم «لا يريد أن يصرح، بأن سولوفييف متورط في هذا... وقد تكون الأدلة غير كافية». وحزم كريلنكو أمره وقدر أن «المواطنين: الذين ما زالوا طليقي اليدين، لا بد من أنهم يمسكون بالقنبلة في فوهة المدفع» ولديهم الإمكانية، لإرسال سولوفييف إلى سجن تاراكان، إذاً

وطالما الأمر كذلك، فلنستجوب ليبرت روتينبورغ، وتم استدعاؤهما! - إلا أنهما لم يحضرا! بكل بساطة لم يحضرا، وزاغا، وتهربا. لكن.. نرجوكم أسمحوا لنا باستجواب ميشيرسكي الزوجة!... لا... ولكم أن تتصوروا حتى هذه الأرستقراطية المتلاشية وجدت الجرأة، بألا تحضر إلى المحكمة الثورية!.

بعد قبض الرشوة أطلق سراح ميشيرسكي بكفالة ياكولوف - وهرب مع زوجته إلى فلندا، وما أن حان موعد محاكمة كوسيروف حتى وضعوا ياكولوف تحت حراسة وتحفظ شديدين، وبمرور بعض الوقت تم إعدامه (أليس لنا أن نستغرب بعد كل هذا! كيف وصل الأمر إلى هذه الدرجة اللا قانونية؟ ولماذا لم ينبرِ أحد ما للدفاع عنه؟.

تبرأ كودليوك من ذنبه - ومات، ولم يعترف كوسيروف!! وسولوفييف لا ذنب له!، ولم يكن بالمستطاع استجوابه...

لكنه في ذلك الوقت، جاء إلى المحكمة الثورية، عدد كبير من الشهود المتطوعين بكل إرادتهم - وكان منهم معاون رئيس الجهاز الأمني الرفيق بيتبرس - وحضر أيضاً فيلكس أدموندوفيتش والقلق يعتريه، وأدار رأسه المستطيل، ووجهه التأملي المتنسك صوب المحكمة المنعقدة، وراح يدلي بشهادته الخطية، مدافعاً عن البريء كوسيروف، وعن أخلاقه الثورية العالية، ونوعيته العمالية.

«على رسلك... لا تدلِ بهذه الشهادة أمامنا، بل أمام كريلنكو، الذي بادر إلى تلاوة الشهادة الخطية قائلاً «بين يدي شهادة رائعة، موقعة من الرفيق سولوفييف والرفيق ديرجينسكي لصالح كوسيروف» (يا لك من ملازم هياب هاهم رفاق لوبيانكا، يتذكرونك الآن أثناء محاكمتك). ولربما يسهل علينا أن نخمن، ونتصور بعد هذا كله، ماذا يمكن لديرجينسكي، القول عن كوسيروف في ذلك الوقت: إنه مخابراتي

حديدي، لا تعتريه رحمة بالأعداء، عدا عن أنه رفيق حصيف جيد، ذو قلب دافئ، ورأس بارد، ويد نظيفة.

من بين أكوام الافتراء هذه، ينتفض في وجهنا تمثال الفارس البرونزي كوسيروف، على الرغم من تلك السيرة الحياتية الشاذة لهذه الشخصية الإنسانية، التي تعرضت للمحاكمة أكثر من مرة قبل قيام الثورة، وكلها كانت بسبب اتهامه - بالقتل: لقد قام في مدينة (كوستروم) بمواجهة العجوز سميرنوفا بأسلوب تضليلي مقيت، بغرض السرقة، والنهب، وخنقها على أثر ذلك! ومن ثم وجهت إليه التهمة بقتل والده، وبعدها تهمة قتل زميله بهدف الحصول على جواز سفره... وحوكم بتهم متعددة لقيامه بالاحتيال، والنصب. وبذلك يكون قد أمضى سنوات طويلة محكوماً بالأشغال الشاقة (الأمر الذي يؤكد هواجسه في أن يعيش حياة رغيدة)، لكن العفو القيصري خلصه من قدره.

هذه هي الأصوات العادلة الصارمة لكبار المخابراتيين، التي أوقفت التهمة وقدمت الشهادة لصالح المتهم، وما كافة المحاكمات السابقة التي تعرض لها، إلا محاكمات تمت على يد الملاكين البرجوازيين، ولا يمكن بحال من الأحوال أخذها بالحسبان بعد قيام المجتمع الجديد... ما هذا؟! وراح الملازم المتطرف من على منبر الادّعاء، يفند حججه الخطابية قائلاً: إنه لجهل مطبق إن نعتمد مثل هذه العقوبات - الفكرية السابقة، في سياق عملياتنا المحكمية التي نقوم بها هنا في هذه المحكمة الثورية.

«إذا ما كان في المحاكم القيصرية، شيء من الحسنات، فإنها جعلتنا نصدق بشكل خاص، أولئك القضاة المحلفين... وجعلتنا ننظر إلى قرارات الحكم الصادرة عنها بعين من الصدق، والرضى بسبب ما كانت تخضع له من التدقيق، وتلافي الأخطاء قدر الإمكان.

من المؤسف أن نسمع كريلنكو يقول ما معناه، إن شغل سلطة الادّعاء، قبل ثلاثة أشهر من محاكمة العميل رومان مالينوفسكي، معبود لينين، وبغض النظر عن المحكوميات الجنائية الأربع لعضو اللجنة المركزية، وعضو مجلس الدوما، فإنه يبقى لديه موقع طبقي لا تشوبه شائبة: «إن كل عمل إجرامي يبقى في نظرنا، حصيلة للنظام الاجتماعي، وبهذا تكون فكرة المحاكمات الجنائية، طبق قوانين المجتمعات الرأسمالية والعهد القيصري، ليست حسب وجهة نظرنا عوامل ثابتة أبدية. غير مشكوك فيها... وإننا نعرف الكثير من تلك الحالات، وحتى إنه يتواجد بيننا الكثير من تلك الشخصيات، التي كان لها في الماضي عوامل مماثلة إلا إننا لا نستخلص من هذا أيّ نتيجة، ذلك أن الضرورة تقتضي أن نقبل بهذا الإنسان في أوساطنا... هذا الذي يعرف مبادئنا، دون أن نتخوف من وجود محكوميات سابقة تهدده، وتضعه خارج صفوف الثوريين»....

أجل هكذا استطاع الرفيق كريلنكو التحدث، وتمكن بما لديه من قدرة على الإقناع الشديد، أن يعتم صورة كوسيروف، لتتكون لدى المحكمة حالة فرضت على الرفيق ديرجينسكي القول: (برزت لدي فكرة لحظية (في هذه اللحظة فقط - المؤلف)، ألم يقع كوسيروف ضحية التهويشات السياسية التي دارت في الآونة الأخيرة حول لجنة الطوارئ»؟.

فجأة تذكر كريلنكو «لا أريد، ولم أرد قط، أن تغدو عملية المحاكمة هذه، محاكمة لالكوسيروف، ولا أوسبينكايا، ولا حتى عملية محاكمة للجهاز الأمني الطوارئي وهذا ما لا أريده... ولا أستطيع حتى إرادته بل يتوجب علي أن أقاوم هذا، وبكل قواي... ذلك لأن من كان على رأس هذه اللجنة الطوارئية، هم من أكثر الرفاق أهمية، بل وأكثرهم شرفاً وجرأةً، أولئك الذين أخذوا على عاتقهم أكثر المهمات، والوظائف دقة، ويكون من الحظر، وحتى من المجازفة أن يخطئوا في تحقيقها... يجب

على الثورة بعد كل هذا، أن تقدم لهم مقابل ما قدموه، شكرها... وإني مضطر للتنويه إلى هذا الجانب كيما يستطيع أحد ما القول فيما بعد: بأني كنت أداة للغدر السياسي».

هكذا... كان المدعي العام يسير على النصال، وأتضح بأن لديه بعض العلاقات في أزمان العمل السري (قد لا تكون بعيدة عن لينين)، وإلا من أين له، أن يعرف كيف سينقلب الغد، وبدا هذا واضحاً من خلال استعراضه عدة محاكمات سابقة، إضافة لتلك التي نحن بصددها الآن.... وماذا بعد... فأيّ اتجاهات. وأيّ نفحات تلك التي كانت سائدة في بداية عام ١٩١٩... لذا - يكفي... وها الوقت قد حان لشكم جهاز الأمن الطوارئي! (يا لصدق ذاك التعبير الرائع) الذي تدغدغ به لسان بوخارين إذ قال: «يجب أن تحل محل الثورية المقوننة ثورية القوانين، فالديالكتيك كيفما شئته كان!... وينصح كريلكنو قائلاً: «إن المحكمة الثورية مدعوة، لأن تحل محل اللجنة الطوارئية». (تحل محل)؟، عدا عن أنه يجب «أن تكون أكثر ضرواةً، بغية تحقيق منظومة الترويع، والإرهاب، والتهديد أكثر مما كانت عليه اللجنة الطوارئية». (٥١١)... وكانت... وها هو دفنها؟!..

مهلكم - لقد استبدلها. لكن وماذا يبقى لعناصر اللجنة (التشيكستيين)؟...

الهوينا.. فالأيام على درجة كبيرة من الخطورة... لا تتعجلوا... فالدليل آت... متلفعٌ بمعطف عسكري حتى كعبيه.

لكن... أليس من المحتمل أن تكون مصادركم كاذبة أيها الرفيق كريلنكو؟

نعم... ادلهمت السماء في تلك الأيام فوق لوبيانكا، وكان يمكن لهذا الكتاب الذي بين أيدينا، أن ينحى منحىً آخر، إلا أنني أفترض، إن فيلكس الحديدي، كان قد توجه إلى فلاديمير إيلتش، مسترشداً

ومستنصحاً، وجاء الفرج بعد مرور يومين، حيث صدر في السابع عشر من شباط عام ١٩١٩ قرار عن اللجنة المركزية التنفيذية العسكرية، يحرم اللجنة الطوارئية من حقوقها القضائية (أما غير القضائية... أفلا تبقى كما كانت)؟ - «وإن كان لفترة ليست بالمديدة».

إلا أن تحقيقنا اليومي ازداد تعقيداً، وتصرفت أوسبينكايا بشكل مقزز، إذ قامت من على منصة المتهمين (واحتقرت المحكمة، والقادة المخابراتيين الآخرين بما فيهم أولئك الذين لم يكن لهم علاقة عملية بالمحاكمة، وبخاصة الرفيق بيتروس! (لقد تبين أنها استخدمت اسمه الكريم في عملية اتصالها (الشانتاجي) وجلست عنده في المكتب أثناء تحدثه مع المخابراتيين الآخرين).. وها هي الآن تلمح إلى شخصية مبهمة قبل الثورة: إنها شخصية الماضي للرفيق بيتروس (من مدينة ريغا)، يا لها من أفعى، لقد تعملقت خلال الأشهر الثمانية، بغض النظر عن الوقت التي كانت تمضيه في أوساط العاملين «طالما... إنه لم تتم عملية إقامة النظام العسكري الصارم... على الرغم من أن ذلك الوقت، ليس ببعيد المنال (هل يعقل)؟ فبغية حماية المصالح الثورية - فإنه لا يمكن أن نقر أيّ أحكام للمواطنة أوسبنيكايا، عدا الحكم بتصفيتها» ليس رمياً بالرصاص كما جرت العادة أن يقال، بالتصفية!... ألا ترى إنها ما زالت فتاة صغيرة أيها المواطن كريلنكو... ولا بأس في ذلك، أن تكيلوا لها عشرة - أو قل - ربع قرن... طالما يكون النظام عندها، قد أصبح صارماً؟... على رسلكم: «لا تتوفر إجابات أخرى، وإن وجدت، فإنها لن تكون لصالح المجتمع والثورة - ودون هذا لا يمكن أن تحل المسألة، ولا يحقق العزل الانفرادي في حالتنا هذه أيّ ثمرة».

هه... لقد اغتاظت... لا بد من أنها تعرفت الكثير الكثير.

أما كوسيروف... قضي الأمر... ووجبت التضحية به، وأطلقوا عليه الرصاص، وإلى أهداف قادمة أخرى.

ترى ألا يمكننا، أن نقرأ الأرشيف اللوبيانكي في المستقبل؟... لا... سيحرقونه.... بل أحرقوه!!.

عمليتنا هذه، كما يرى القارئ قليلة الأهمية، وكان يمكن ألا نتوقف عندها، لكن هذا ما كان.

قضية «الكنسيين» «١١-١٦ كانون الثاني) التي تحمل كما يقول كريلنكو «مكاناً مهماً في المدون التاريخي للثورة الروسية»... أجل في المدون التاريخي، ولمَ لا، طالما أن قضية كوسيروف، تم إسقاطها خلال يوم واحد، فكيف بهذه، التي استمر عيشنا فيها خمسة أيام.

المتهمون فيها، هم: أ. د. سمارين - شخصية مشهورة في روسيا، وكان يشغل منصب المدعي العام في المجمع السنودسي، ويعتبر المجتهد الأول في تحرير الكنيسة من سلطة التسلط الكنسي، عدا عن إنه العدو الأول لراسبوتين، وأفلح في اقتلاعه من منصبه (إنما المدعي يعتبر، بأنه لا فرق بين سمارين وراسبوتين، وهما في أدنى الاعتبارات حالة واحدة... ما الفرق)؟... الشخصية الثانية بهذه القضية، كانت البروفسور كوزنيتسوف يحمل شهادة الحقوق الكنسية من جامعة موسكو، إضافة إلى شخصيات أخرى من القمامصة: إسبينكي، وتسفيتكوف (الذي وصفه المدعي: «بأنه شخصية اجتماعية كبيرة، إن لم تكن أفضل ممن كان يوزع المبرات، والعطايا الخيرية).

أما جريمتهم هي: إنهم أنشؤوا «المجلس الموسكوفي لتوحيد الأبرشيات» الذي ضم في صفوفه «الفتيان المؤمنين - من الأعمار الثمانية عشرة» ليعملوا كحراس متطوعين للبطريركية (دون سلاح بالطبع)، وكانوا يتناوبون الحراسة على الأبواب ليل نهار بهدف: دق ناقوس الخطر

عند تعرض البطريرك لخطر النظام، وليستدعوا المواطنين بالهواتف وتجتمع الجماهير خلف البطريرك، فيما لو تعرض للاعتقال، ولتطالب (الثورة المضادة هذه) مجلس مفوضي الشعب بإطلاق سراحه.

يا له من تدبير روحي قديم - الدعوة لاجتماع، وتحشّد الرعية بواسطة الأجراس، ولتلتمّ الصفوف، وتطالب، وترفع العرائض!...

ويستغرب المدعي: لكن ما الخطر الذي يتهدد البطريرك؟ ولمَ التخطيط لحمايته؟

آه.... أتعني ما تقول: ها هم عناصر الجهاز يقومون منذ سنتين بممارسة التنكيل غير المشروع بحق العناصر غير المرغوب فيها، وخلال فترة زمنية ليست ببعيدة قام أربعة من الجنود الحمر بتقل الميتروبوليت في مدينة كييف، وها هم يهمون بملاحقة البطريرك «إن لم تكن القضية منتهية، ولم يبق إلا أن يرسل إلى المحكمة الثورية». (بسبب العلاقة القديمة ما بين الجماهير العريضة من العمال والفلاحين، الذين ما زالوا واقعين تحت تأثير الدعاية الأكليريكية - ولندع أعداءنا الطبقيين لشأنهم، وإن كان لوقت ما) - فلماذا كل هذا القلق أيها الأرثوذكسيون على البطريرك؟ - لكن البطرك تيخون لم يصمت طوال السنين الماضية - وتوجه برسائله إلى القوميسياريات الشعبية (المفوضيات)، وإلى الأجهزة الكنسية، وإلى الرعية، وكتبت هذه الرسائل على الآلة الكاتبة، بعد امتناع المطابع عن نشرها (هي ذات الطريقة البدائية)، وتضمنت الكشف عن تصفية الأبرياء، وعن الإفلاس الذي حل بالبلاد - ولمَ كل هذا القلق؟. ولمَ هذا الخوف غير المبرر على البطريرك؟.

أما التهمة الثانية: هي إنه كانت تجري في طول البلاد وعرضها عملية تسجيل ومصادرة أملاك الكنيسة (الأمر الذي يعني إغلاق الأديرة، ومصادرة أراضي الشيوع الكنسية، والأغذية، والكؤوس - وقام مجلس

الأبرشيات عند ذلك بالدعوة لاتخاذ التدابير: في قرع الأجراس لمقاومة أعمال المصادرة (ألا يعتبر هذا تصرفاً طبيعياً؟ أليست هي الطريقة نفسها التي اتبعتها الكنسية لمقاومة الغزو التتري)؟.

أما الذنب الثالث: كان تقديم الاحتجاجات السليطة إلى مفوضية الشعب دون انقطاع، وعبروا فيها عن استيائهم من ازدراء العاملين المحليين في الكنائس، ومن التجديف اللا محدود في خرق قانون حرية المعتقد وعلى الرغم من كل هذا لم تعطِ هذه الاحتجاجات مفعولها (وأدت تصريحات لونتش - بروئيفيتش مدير مجلس مفوضية الشعب إلى التشهير بالعاملين الكنسيين المحليين.

بعد استعراض ذنوب المتهمين كلها، ماذا كان يمكن أن يُطلب إليهم، جراء جرائمهم المرتكبة هذه؟، وما الشيء الذي سيقوله قارئ المعتقد الثوري؟... الموت... الموت فقط! (لسمارين وكوزنيتسوف حسبما طلب كريلنكو).

لكن... وريثما شحذ المحامون البرجوازيون هممهم ضد القانونية اللعينة، قاموا بتدبيج خطاباتهم المطولة (نعتذر عن ذكرها هنا، بسبب صعوبة استيعابنا الفني لها)، وأصبح الأمر واضحاً... وتبدل حكم الإعدام!... ونقول ثانية لا يمكن أن يكون هذا كذاك؟ ولا يُحتمل أن يكون ديرجينسكي، قد أوصى اللجنة الأمنية (في الجهاز الأمني - بالإعدام)؟، ولا يُعقل أن يكون قد عُمم هذا على محكمة مجلس مفوضية الشعب؟ ولم يزل هذا الموضوع، موضوع نفي، وإلا لكان انتعش، وتشنش. (لو أنهم، قاموا على سبيل الافتراض بهذا العمل، بغية تثبيت النظام الجمهوري، وإبعاد الخطر المباشر لهذه الشخصيات، على الرغم من أننا على يقين مطلق، من أن هذه الأعمال الإبداعية... للمخابراتيين، تختلف عن أعمال الشخصيات الحرباوية الكبيرة في الجهاز، وذلك حسبما تقتضيه الضرورة

الثورية». «إن النظام السوفييتي يعتز... بقرار اللجنة العسكرية الطوارئية القاضي بتبديل حكم الإعدام» لكن هذا «لا يلزمنا في أن نعتبر مسألة تبديل الحكم، وقد حلت مرة واحدة إلى الأبد... خلال زمن وجود السلطة السوفييتية»...

يا لهم من أنبياء ممتازين!... عدلوا حكم الإعدام تعديلاً كلياً وبسرعة! لكن ما زال هناك رتل ما، مطلوب تبذيره! (والعبء يقع على عاتق كريلنكو نفسه، وعلى عاتق إخوانه الطبقيين)...

ولكن وماذا بعد أن استمعت المحكمة، وحكمت على سمارين وكوزنيتسوف بالإعدام واتبعته بالعفو: أي بالذهاب إلى المعسكر المركزي، حيث يتحقق هناك النصر على الإمبريالية العالمية! (وربما يكون البعض ما زال قابعاً حتى الآن) و «المحظوظ منهم من سلم إلى الخدمة الكنسية» - خمسة عشر عاماً مع التخفيض إلى خمسة.

ثمة متهمون... ألحقوا بهذه المحاكمات على الرغم من قلة المواد الاتهامية، فمنهم من كان من الرهبان، ومن معلمي زفينغوروسكي... التي عرفت قضيتهم في عام ١٩١٨ تحت هذا الاسم، وبقوا سنة ونصف السنة دون أن يُحكم عليهم (ربما يكونون قد تلقوا الحكم مرة أولى، وقد يتلقونه مرة ثانية... وذلك حسبما يكون الأمر نافعاً). وفي صيف ذلك العام ظهر عمال الجهاز في زفينغوروسكي، عند الشماس آيون[1] وطلبوا منه، تسليم رفات الجثث المدفونة (كي يعيدوا بعثها)، وعلى الأخص منها، جدث (سافا). ولم يكتفوا أثناء ذلك بالتدخين أمام الهيكل (أمام المذبح) ولم

١- كان الشماس ضابطاً من ضباط الخيالة من مدينة فيركوف، وحلت عليه التوبة فيما بعد، ووزع كل ما يملك على المتسولين، وغادر إلى الدير - لا نعلم - لا نعلم ان كان توزيعه للملكية حقيقياً، ولو افترضنا ذلك - ماذا بقي لديه في هذه الحالة من العطرة الطبقية.

ينزعوا قبعاتهم داخل الكنيسة، بل راح أحدهم، بعد أن التقط جمجمة سافا يبصق فيها معبراً عن ازدرائه للإيمانية الوهمية، وعاثوا فساداً داخل الحرم، مما استدعى دق أجراس الخطر، واحتشد الشعب المتمرد، الذي بادأ العاملين (في الجهاز) بالقتل لقد أنكر من بقي منهم (وهذا كاف لكريلنكو) القيام بأيّ أعمال تجديف، والبصق في الجمجمة. فمن منا لا يتذكر تلك المشاهد؟ كان انطباعي الأولي، عندما كان لي من العمر ثلاث أو أربع سنوات، عدم تصديق ما كنت أسمعه، واندهشت كيف تمكن المخابراتيون الانضباطيون الشجعان دخول كنيسة كيسلاروفسكي، ليفرقوا جموع المصلين الخاشعين، الغارقين في صلاتهم، وليندفعوا إلى المقام - المذبح قاطعين الخدمة الدينية.

نطلب من قرائنا الحصفاء، الأخذ في الحسبان: إنه في عام ١٩١٨ تجددت عاداتنا القضائية، وإن كل محكمة موسكوفية (عدا عن المحاكمات غير العادلة، التي تمت على أعضاء الجهاز الأمني) كانت عملية غير منفصلة عن سياق المحاكمات التلقائية التي أملتها الظروف... لا... بل هي إنذار السياسة القضائية، وفي الوقت نفسه هي نموذج لمواجهة تمدد المخازن الأخرى في باقي الأقاليم، إنها - صنف - وفصل من فصول كتاب المتواليات الحسابية، طراز وحيد يقع ثقله وحمله، وتنفيذه على عاتق التلاميذ النجباء فيما بعد، وهكذا فإذا ما قلنا - «عملية محاكمة الكنسيين» يفهم من ذلك تعرض الكثير الكثير للمحاكمة... أجل هكذا.. ويوضح المدعي العام بذاته، وبمطواعية مطلقة «إن كافة الكنسيين تقريباً» استقدموا إلى المحاكم في كافة أقاليم الجمهورية)، (المحاكمات المتماثلة)، وأنه ليس بالوقت البعيد، الذي انعقدت فيه المحاكمات في سفيرودفينسكي، وتفيرسكي، وريازانسكي، وسيراتوف، وكازان، وأوف، وسولفيتسنغودسكي وفي تساريغو

كوكشايسكي، وطالت رجال الخدمة المتدينين، والمنشدين، ورعاة الأبرشيات، وقادة «الكنيسة الأرثوذكسية الكافرة المحررة بالثورة الأكتوبرية».

لا بد للقارئ من تذكر بعض المفارقات: لماذا نفذت تلك المحاكمات المتعددة قبل إجراء عملية المحاكمة المعروفة باسم العملية الموسكوفية؟ هذا ما أغفلته دراستنا هذه، إلا أننا سنعود للقول، إن الاضطهاد القضائي، وغير القضائي للكنيسة المحررة، كان قد بدأ عام ١٩١٨، وبلغ أوجه في عملية زفيفوروسكي، وتوجه البطريرك في نفس العام برسالة إلى مجلس مفوضية الشعب، جاء فيها: لا حرية لرجال الدين (وقد دفع العديد من الشجعان دماءهم، وأستشهد لقاء هذه الحرية... لقد وضعتم يدكم على ممتلكات الكنيسة، وثرواتها التي جمعها المتعبدون، دون أن يتوقعوا يوماً، تخضع فيه إرادتهم الإنسانية للعنف والموت). (بالطبع لم يطلع المجلس على الرسالة، وقهقه العاملون: ها قد وجد شيء يلومنا به - الإرادة الإنسانية - أجل لا رغبة لدينا في أن نعمل مع الأسلاف - وعلينا أن نتوجه بالعمل للأحفاد فقط).

«وتم إعدام الأساقفة، والقساوسة، والرهبان، والزهاد، الذين لا ذنب لهم، بتهم باطلة مبنية على أساس مبهم من أقاويل معاداة الثورة». لكن وحسبما تقول به، مناورات دينيكيا - كولتشاك، فإن هذا الإجراء، ما هو إلا تسهيل لحماية الثورة من الأرثوذكسية. وما أن أشرفت الحرب الأهلية على الانتهاء - حتى أخذوا بتلابيب الكنيسة، وسيق خدامها إلى المحاكم، وبحلول عام ١٩٢٠، اندفعوا إلى كاتدرائية القديس سيرغي، ونبشوا جثمان الفاشي سيرغي روداينجسكي، وقذفوا بها إلى المتحف الموسكوفي. ويسرد البطريرك، ما قاله لكيلوتشفيسكي/ إن أبواب الكاتدرائية تغلق، ويطفئ الشمعدان فوق الضريح فقط - في تلك الحالة التي نفقد فيها آخر

مـا تبقـى لـدينا مـن دفقـات روحيـة. أولانـا إياهـا مؤسـسو الأرض الروسـية العظماء/ أمثال سيرغي». ولم ينكـر كليوتشفينسـكي، بـأن اهـتلاك آخـر الدفقات، سيتحقق أثناء حياته.

لقد طلب البطريرك مقابلة ممثل مفوضية مجلس الشعب، كـي يقنعـه بعدم المساس بالكاتدرائية، وبالتابوت الضريح، لأن الكنيسة منفصلة مـن حيث الأسـاس عـن الدولـة، وردوا عليـه: إن الرفيـق ليـنين مـشغول بمناقـشة بعض الأمور المهمة، وسيتم تحديد موعد آخر في الأيام القريبة القادمة وليس - المتأخرة.

صدر في الخامس والعشرين من أب ١٩٢٠ بيان عن مجلس المفوضية ينص: على تهديم أضرحة القديسين ومقابرهم، لما تسببه من إعاقة، وعرقلة في طريق بناء النظام الاجتماعي الجديد العادل.

لم يبق لنا الآن، وبعد كل هذا، إلا أن نراقب الجهاز الكريلنكوي، وتدقيق تصرفات المحكمة العليا (كما يحلو لهم تسميتها)!، ونقف نحن الحشرات متحجرين، عندما يزأرون... قيام!... محكمة)!!.

قضية «المركز التكتيكي»، «السادس من آب عام ١٩٢٠) - خضع ثمانيـة وعـشرون مـنهم للمحاكمـة، ولا تتـوفر لـدينا إحـصائية دقيقـة عـن الذين، وجه الاتهام لهم.

بدأ المدعي العام كلمته المفعمة بالتحليلات الطبقية، بصوت فنان لم تَشُبه البحـة بعـد: وجـدت ومـا زالـت قيـد الوجـود، طبقـة اجتماعيـة قوميـة في سـلم التكـوين الاجتمـاعي، كـان قـد أولاهـا ممثلـو الثـورة الاشـتراكية، الكـثير مـن التأمـل والتمحـيص، هـذه الطبقـة هـي - ما يعرف بطبقة المثقفين... وسيكون لنا الشأن في محاكمة نشاط هـذه الطبقـة الروسـية المثقفـة، مـع التطـرق إلى تاريخهـا، وإلى حكـم الثـورة عليها.

إن ضيق أفقنا الاختصاصي في بحثنا هذا، لا يعطينا الإمكانية لأن نحيط بكيفية تأمل قادة الاشتراكية، حول مستقبلية ما يسمى بالمثقفين، وما الشيء الذي انتهوا إليه بفكرهم التأملي هذا؟... لكن ما يعترينا، هو أن كافة المواد المتعلقة بهذا الموضوع، منشورة، ويمكننا الوصول إليها، مع كافة التفصيلات المتصلة بها، لذا وبغية التوضيح العام لهذه الحالة في الجمهورية، سنذكر آراء رئيس مجلس القوميسارية الشعبية في تلك السنوات، بينما كانت تجري جلسات المحكمة الثورية.

يقول فلاديمير إيلتش لينين في رسالته الموجهة إلى غوركي في أيلول عام ١٩١٩ (سبق وأن اقتبسنا منها) حول اهتمامات هذا الأخير بمسألة اعتقال المثقفين، وبخاصة التكتيك الأساسي للطبقة الروسية في تلك الآونة (بما فيهم الكاديت): «في الواقع، إن أولئك ليسوا عقل (الأمة)، بل حثالتها) وفي مكان آخر منها «ذلك - سيكون الذنب ذنبها (الطبقة المثقفة)، ولو كلنا الضربات القوية المريرة لها»... وفيما إذا كانت تبحث عن العدل - فلمَ لا تأتي إلينا؟... «فالرصاصة لم تأتني إلا من المثقفين)، «أي من كابلان».

يقول عن الطبقة المثقفة: ما هي إلا عفن - ليبرالي، «متسامحة»، «مهملة لدرجة كبيرة، لا ندر أن كان مثلها، لدى «البشر المتعلمين»، ويضيف: ظنت نفسها باستمرار بأنها لم «تخن قضية العمال». (أجل القضية العمالية - التي أقسمت بالوفاء لها).

هذه السخرية من المثقفين، وهذا الازدراء بهم، تلقفه الكتاب الاجتماعيون، والصحف وأوسعوه تحليلاً، وخلصوا - إلى إن المثقفين أنفسهم لعنوا بظنونهم، وثقافاتهم، وميوعتهم الأبدية، فهم حالة من التخلف عن العصر ميؤوس منها.

لكن، أمن العدل: أن يهدر صوت سلطة الادّعاء في أقبية المحكمة العليا، ويعيدنا إلى القفص: «هذه الطبقة الاجتماعية.. خضعت خلال هذه السنين لعدة

تجارب، لإعادة تقييمها»... وإعادة التقييم؟ كما كان يقال من تلك الأيام... ماذا تحمل في طياتها؟ ما مجرياتها؟... ها إليك «دخلت الطبقة المثقفة الروسية في أتون الثورة، وهي ترفع شعارات الحكم الشعبي، وخرجت حليفاً للجنرالات (السود منهم، وليس البيض حتى)، حليفاً مرتزقاً (!)... ومنصباً للدعاية الغربية الإمبريالية، واستباح المثقفون راياتهم، ورموها في القذارة» (كريلنكو).

لذا... ولهذا السبب «لا ضرورة لزيادة تعداد ممثليها» لأن «هذه الجماعة الاجتماعية عفا عليها الزمن»!.

الزمن... بداية القرن العشرين! ويا لهذه القدرة التنبؤية!.

أما بالنسبة للثوريين العماليين! (أملت الظروف زيادتهم... وراحوا طوال سنين العشرينيات يزدادون.... ويزدادون)!...

سنعرض، بنفور عام ثمانية وعشرين شخصية من الشخصيات حلفاء الجنرالات السود، ومن مرتزقة الإمبريالية الأوروبية، ولشد ما يؤلمنا، وما يحز في نفوسنا، تلك التسميات المتواترة لهذه المراكز، فتارة تسمى بالمركز التكتيكي، وتارة بالاجتماعي، وتارة باليميني (وكما نذكر في تلك السنوات، فقد زحفت هذه المراكز تباعاً، منها الهندسية، ومنها المنشفية، وأخرى تروتسكية - زينا فيفيية، ورابعة بوخارنية - يمينيّة، وقد قضي عليها كلها... قضاءً مبرماً. ولذا ولهذا السبب فقط، بقينا وإياكم على قيد الحياة، لكن أين مركزكم... لا شك إنه هناك. مع الإمبريالية.

كم هي الحقيقة مُرّة، كم اعتصرت قلوبنا، عندما عرفنا، أن متهمي ذاك المركز التكتيكي، لم يكونوا من حيث الأساس تنظيماً، ولم يكن لهم:

١- لا نظام داخلي.

٢- ولا منهاج سياسي.

٣- ولا اشتراك عضوي.

ولكن... فماذا كانوا إذاً؟... كانوا يلتقون (يا للهول شيء تقشعر له الأبدان) نعم التقوا، وتعرف كل واحد إلى الآخر! (شيء ييبس الأوصال) يا للتهم الكثيرة المدعمة بالأدلة: لقد ثبت على المتهمين الثمانية والعشرين، دليلان هما عبارة عن رسالتين (موجهتين من وراء الحدود) مرسلتين من شخصين: مياكوتين، وفيدروف، نعم إنهما غائبان، إلا إنهما كانا قد اشتركا قبل أكتوبر بعدة لجان مختلفة، الأمر الذي يؤكد وجودهما، ويعطينا الحق في أن نكون بانتظار الغائبين، والحاضرين. كان محتوى الرسالتين: مشكلات خلافية مع دينيكين حول - مسائل بسيطة، مثل المسألة الفلاحية (الأرض لمن يعمل بها)، أو المسألة اليهودية، أو المسألة الفيدرالية الاجتماعية، أو سبل الإدارة (الديمقراطية، وليست دكتاتورية)، ومسائل أخرى... لكن ما هو الاستنتاج المستخلص من هذين الدليلين؟ لا شيء.... إنه بسيط جداً.... المراسلة ذاتها، والتقاء الموجودين مع دينيكين! (بر... افو..)، لكن ومع ذلك توفرت التهم المباشرة للحاضرين، تبادل المعلومات مع معارفهم المقيمين على التخوم (وليكن في مدينة كييف على سبيل المثال)، التي لم تكن خاضعة بعد للسلطة السوفييتية المركزية! وهذا يعني حتى ولو افترضنا، إن هذه كانت في السابق أرضاً روسية، وحصل أن تنازلنا عن حيز منها لألمانيا، حسبما اقتضته مصلحة الثورة العالمية آنذاك، .... فإن الناس ستبقى تتواصل وليكن عن طريق المراسلة، وإلا كيف لهم، أن يعيشوا هناك يا إيفان إيفانوفيتش؟.

ولا بد من يحيَوا هكذا... ويقوم ن. م. *كشيكين (عضو اللجنة المركزية للكاديت)* ليعتذر من على منصة المتهمين بوقاحة: «لم يكن الإنسان ليرغب في أن يكون أعمى قط، ولا بد من أن يكون طموحاً لكل شيء، وعارفاً بما يجري في كل مكان».

معرفة كل شيء، ومعرفة ما يجري في كل مكان؟... ولا يرغب في أن يكون أعمى؟؟... هكذا قام المدعي العام، بتصنيف عملهم هذا، وكأنه خيانة! النظام السوفييتي...

خيانة، .. وأيّ خيانة!... بيد أن المخيف في عملهم هذا، هو أنهم دوّنوا في معمعان الحرب الأهلية أعمالهم ومذكراتهم وخطتهم «وأنهم كانوا عارفين بالحقوق الحكومية والعلوم المالية والعلاقات الاقتصادية، والقضايا والمعارف الاجتماعية)... وسطروا أعمالهم دون أن يفطنوا... بكل بساطة.. أو حتى أن يتذكروا ما سبق من مؤلفات للرفيق لينين وتروتسكي وبوخارين... ويتوقفوا عندها ملياً. لقد كتب البروفسور س. أ. كوتلياروفسكي عن مسألة البناء الفيدرالي في روسيا، وكتب ف. ب. ستيمبوفسكي - عن العلاقات الزراعية (واضح بأنه لم يكتب عن الجماعية منها) وف. س. موراليفيتش عن العلوم الاجتماعية في روسيا المستقبل، والبروفسور كارتاشيوف عن مشروع تنظيم حقوق العقائد... أما البيولوجي (الكبير) ن. ك. كوبتسوف (لم يشاهد في الوطن، لا عند الملاحقة، ولا أثناء الإعدام) وكان قد سمح هذا الأخير لهذه الحيتان البرجوازية بالاجتماع عنده في المعهد (وفي هذا المكان بالذات وجد ن. د. كوندراييف نفسه، وحكم عليه نهائياً عام ١٩٢١).

وماذا بعد... يا مدعينا العام!، إن قلوبنا تكاد أن تقفز من صدورنا، لكثرة ما اعترانا من خوف وارتجاف واجف أثناء انتظار صدور هذا الحكم... وانتظار العقوبة التي تنطلق على هؤلاء الصنائع الجنرالية؟.. هيا فلتكن حتى عقوبة موحدة - الإعدام رمياً بالرصاص!... لكن هذه لم يكن قد طلبها المدعي العام، إنما المحكمة هي التي أقرتها... (أي كان... لا تخافوا.. على رسللكم... خفف الحكم عنهم،... واستعاضوا عنه بزجهم في المعسكر المركزي حتى نهاية الحرب الأهلية).

انحصر ذنب المتهمين بمجمله في أنهم لم يقبعوا في الزوايا، يرضعون فتات حصصهم من الخبز التقنيني، (بل راحوا يتداولون، ويتناقشون، ويتفقون على الكيفية التي سيكون عليها نظام الحكم، بعد سقوط النظام السوفييتي القائم)!!...

يسمى هذا في المصطلح العصري: تدارس الخيار بين خيارين.

وراح صوت المدعي العام يدوي: ما هذا الذي نسمعه؟ وكادت عيناه تقفزان من محجريهما، وهو يجول ببصره في جنبات القاعة، باحثاً في الوقت نفسه عن ورقة يريد أن يستشهد بما فيها:

الآن... وحالاً (يجب إرسالهم إلى التعذيب!. أليس صحيحاً! نيقولا فاسيلفيتش.... تفضل!.

«إن مفهوم التعذيب لدينا... ينحصر من حيث الواقع في زج السياسيين الحكوميين في السجن».

هكذا إذاً!... التعذيب هو زج السياسيين في السجن كما يقول المدعي العام! يا لها من نظرة شمولية!.. ها قد أشرقت شمس العدالة الجديدة!... وماذا بعد...

«إن النضال ضد الحكومة القيصرية، كان عندهم (أي عند السياسيين)، طبيعة إنسانية ثابتة، لم يستطيعوا الإفلات منها، إلا بممارسة النضال ضد القيصرية» فكيف إذاً، لم يستطيعوا التعلم قط، إمكانية الخيار بين خيارين؟.. وكيما نتمكن من الاعتقاد أيضاً - في أن هذه النزعة ربما تكون حتى، هي نفسها الطبيعة الأولى عند المثقفين؟.

آخ... ليست هي وثيقة الاستشهاد المطلوبة... يا للأغبياء... دسوا غيرها من الوثائق المتعلقة بالعملية... سهواً... يا للخجل... بينما نيقولا فاسيليفيتش، أردف ترنيمته قائلاً:

«حتى لو فيما كان هؤلاء المتهمون، حينها في موسكو، ولم يحركوا ساكناً - «وما كان في حقيقة الأمر يماثل هذا تماماً»... - فالأمر سيان، حتى لو كانت الأحاديث الدائرة أثناء احتساء كوب من الشاي، عن ماهية النظام، الذي سيحل فيما لو سقط النظام السوفييتي، فإنها بحد ذاتها، تعتبر فعلاً معادياً للثورة... فالفعل الجرمي في زمن الحرب الأهلية، ليس هو ذاك الفعل الموجه ضد (النظام السوفييتي) فحسب، إنما هو ذاك التقاعس والتكاسل، وعدم النشاط الذي يعتبر جرماً بحد ذاته.

ها قد اتضح الآن كل شيء فالحكم عليهم بالإعدام - لم يأتِ إلا نتيجة للعطالة، وعدم النشاط والقعود عند احتساء أكواب.... الشاي.

كان المثقفون في لينينغراد قد قرروا (على سبيل المثال) في حال دخول بورنيتش المدينة «يجب علينا، وقبل كل شيء آخر، الاهتمام بدعوة مجلس الدوما الديمقراطي في المدينة للانعقاد» (الأمر الذي يعني التحصن والحماية من الدكتاتورية الجنرالية).

كريلنكو: - لكم أريد أن أصرخ في وجوهكم «ألا يقتضي الواجب عليكم، أن تفكروا في الكيفية التي يجب عليكم فيها، أن تلقوا أجسادكم، كي لا تسمحوا ليودنيتش بالعبور»!!.

أما هم... (القضاة المبجلون)... لن يلقوا قط.

(نقول بالمناسبة حتى نيقولا فاسيليفيتش، ما كان ليفعل ذلك).

إضافة للمتهمين، الذين سبق ذكرهم يوجد متهمون آخرون، وهم أولئك الذين كانوا على دراية واطلاع - وتكتموا على ما عرفوه (عرف - ولم يبلغ، عن جماعته).

إذن... هذا هو الخمول، والتكاسل، وها هو النشاط الجرمي الفاعل: لقد قدم المتهمون الآخرون المساعدة المالية للفقراء، عبر عضو الصليب الأحمر ل. ن. خروشيوفا (يمكن لكم التصور، بأن مجمل هذه الأموال -

كان قد صب في أكشاك البيع في السجن) ثمناً للثياب (وفوق ذلك كله، الصوفية منها)؟.

لا حدود للإجراءات، التي يجب أن تتخذ بحق هذه الجرائم البشعة! ولن تكون هذه الروادع كافيةً، حتى بما فيها العقوبات البروليتارية!.

هكذا... تترنح أطياف تلك الشخصيات الثمانية والعشرين أمامنا، وكأنها صور مائلة مهتزة لأشرطة مشوشة منعكسة على الشاشة السينمائية، ولم نتبين فيها أفواههم وملامحهم، ولا شخصياتهم - أخائفون كانوا؟ أم مترددون؟ أم أعزة أباة؟... لأننا لم نعرف ردودهم! ولم نسمع حتى تلك الكلمات الأخيرة، التي تلفظوا بها - وربما يفرض علينا الواقع، أن نعمد إلى استدراك هذه السلبية، بطريقة التصور الفني، من خلال ما ورد على لسان المدعي: «إنها حالة من تأنيب الضمير، والندم على ما ارتكب من أخطاء وهفوات. إنها الطبيعة الوسطية للمثقفين، وعدم رباطة الجأش السياسية - أجل.. أجل... إليك هذه هي الطبيعة الوسطية، بين بين)! - لهذا السبب وحده، بررت الماركسية كلياً عملية تقييم المثاقفة، التي كان البلاشفة يكيلون لها هذا التقييم.

لكن... ومن تلك الفتاة... التي تلوح أمامنا؟

هذه - ابنة تولستوي الكسندرليون. سأل كريلنكو: لكن ما الشيء الذي فعلته لتكون هنا، وفي هذه الجلسات المحكمية؟... أجيب «كانت تصنع الشاي، أثناء لقاءاتهم» - إليها ثلاث سنوات في لمعسكر المركزي!.

ملاحظة: إذا ما استعرضنا الصحافة الغربية (التي استطعنا معرفة الحقيقة من خلال صفحاتها «الغربية) نجد أنه في صيف عام ١٩١٧ ظهر اتحاد الشخصيات الاجتماعية في عهد الوزارات المؤقتة - وكان هدفه تقديم المساعدة في مواصلة الحرب حتى النصر النهائي، إضافة للوقوف في وجه التيارات الاشتراكية، وبخاصة الآيسيريين. وبعد الانقلاب الأكتوبري سافر

بعض الأعضاء، وبقي الآخرون، وامتنع عليهم أمر الدعوة لعقد اجتماع دوري لهذا التنظيم الاتحادي، لمتابعة ومزاولة نشاطهم. وبما أن المثقفين اعتادوا الفكر، وتقييم الأوضاع الراهنة، وتبادل الآراء - كان من الصعب عليهم التوقف عن مزاولة هذه العادة بشكل فجائي، وسمح لهم بحكم قربهم من دفة الحكم، بعقد اللقاءات التي اتسمت بطابع المؤتمرات العلمية، وتعددت الموضوعات التي كان يمكن التعرض لها في تلك الآونة، ودار الحديث عن صلح بريست، وعن السلام اللاتفي، وعن الخروج من الحرب بأقل ثمن ممكن من التنازل عن الأرض، وعن العلاقات مع الحلفاء، والأعداء السابقين بعد استمرار الحرب في أوروبا.

قال أحدهم: باسم الحرية والديمقراطية والواجب التحالفي، يتوجب علينا متابعة مساعدة الحلفاء، واعتبروا أن من وقع، وعقد السلام البريستي، أشخاص لا يملكون الصلاحية الكاملة في البلاد، وأمل بعضهم في أن ينطلق الجيش الأحمر بعد تثبيت أقدامه إلى ألمانيا، لكن بعضهم تأمل وعاش حتى ذلك الزمن، الذي تُرك الألمان فيه يسيطرون على نصف روسيا حسبما جاء في الاتفاق، مما يتوجب إبعاد البلاشفة (على العكس من الألمان الذين اعتبروا، العمل مع الكاديت بمثابة العمل مع الإنكليز، ومع الدول الأخرى عدا السوفييتية منها، والتي لا بد من أنها ستجدد الحرب معها (أي ألمانيا).

ثمة من انشق عن اتحاد الشخصيات الاجتماعية في صيف عام ١٩١٨، وأطلقوا على أنفسهم المركز القومي - ولم يكن في الواقع إلا حلقةً بدت في تكوين منشئها الكاديتي، وأعطت لنفسها إطاراً تنظيمياً حزبياً، عمل المناشفة على منعه، ولم تستطع هذه الحلقة من إعطاء أيّ نتائج، عدا عن عقد الاجتماعات التمهيدية في معهد البروفسور كولتسوف، وكان الأعضاء من وقت لآخر ينتدبون ممثلهم إلى كوبان للتشاور، لكن المنتدبين

أولئك طاب لهم المقام، ونسوا الموسكوفيين (نقول بالمناسبة، بأنه لم يبدِ بعض المتحالفين الاهتمام بجيش المتطوعين)، وركز أعضاء المركز جل اهتمامهم بالعمل على وضع الخطط السلمية لروسيا المستقبل.

ظهر إلى جانب المركز القومي في الوقت نفسه، تنظيم أكثر يسارية، هو اتحاد البعث (تكون بالأساس من الآيسيريين - الذين شعروا بعدم الأريحية، حيال التعامل مع الكاديين، وقاموا بتطوير النواحي الحزبية الأدبية، والتمثيلية). بغرض الصراع ضد الألمان، وضد البلاشفة، إلا أنه اتضح لهم فيما بعد، عدم توفر الإمكانية لمتابعة هذا الصراع، نظراً لإنشاء العمل على حيز جغرافي كبير، وقرروا إرسال البعض منهم إلى الجنوب، لكنهم تنافروا مع جيش المتطوعين بسبب رجعيته.

بعد أن نهش الصدأ العسكرية الشيوعية، قررت التنظيمات الثلاثة عام ١٩١٩ المحافظة على التنسيق المنظم فيما بينهما، وشكلوا مجلساً من ستة أعضاء (عضوين من كل تنظيم، يجتمع من آن لآخر. إلا أنه قد تم إنهاء هذا المجلس عام ١٩١٩ ولم يعد موجوداً واعتقلوا فيما بعد عام ١٩٢٠ الأعضاء - الذين أطلق على مجلسهم المؤلف من ستة أعضاء «المركز التكتيكي».

كان قد تم اعتقالهم، بناء على بلاغ من أحد المشتركين التافهين في المركز وقام فينغو - غرادسكي بتمثيل دور «المجلس» الناجح في الحجرة التي كانوا معتقلين فيها - وسمع ما تحدثوا به ببساطة تامة، وجمعت المعلومات، التي أخفوها عن محققي الزمن الكريلنكوي.

كان من عداد المتهمين: المؤرخ الروسي المعروف س. ب. ميلكوف (أحد الستة) وكتب مذكراته عن هذه التجربة، وبعدها هاجر إلى الخارج، بدافع تلقائي، لا ينم عن رغبة عارمة - وكان يمكن له، أن يتملص من كتابتها، لولا نشر كتاب كريلنكو، وخطبه المدوية. رسم ميلكوف

سيرةً ذاتيةً مطلقةً، وأعطى صورةً وافيةً عن التحقيق السوفييتي «لم تتوفر عندها أيّ أدلة، ولم يجرِ تحقيق، ولم تبرز أيّ وثائق، واستمدت كافة مواد الاتهام من المعلومات، التي قدمها المتهمون أنفسهم... والذين لم يحافظوا على صمتهم أثناء التحقيق الأولي... وأتضح أن اللا توافق المبدئي الذي جمعنا، استدعى، وبلا لزوم، أن أثقل مستقبلي ومستقبل الآخرين.

... إذ ما أن تقف أمام حتمية تنفيذ الإعدام تبرز حالة لا يمكن لك فيها، أن تحسب حساب التاريخ.

ورد في «الكتاب الأحمر للجهاز الأمني» الصادر عام ١٩٢٢ أن أكثر البراهين، والمعلومات التحقيقية، كانت (وبالحرف الواحد) دون تمعن.

يضع ميلكونوف اللوم، ودونما سخرية، على المحقق ياكوف آكرانوف (المحقق الذي أشرف على ليّ رقابهم) - لقد خدعه، وخدع كل الذين كانوا معه، من الأغبياء الحذقين، في الوقت الذي كان يعتبر فيه (بأنه لا يمكن، أن يتعرض لأيّ إهانة). إن هذه الخدعة هي أسوأ من التأثير الفيزيولوجي، على الرغم من أن ميلكونوف نفسه، هو الذي أبرز الكثير من الشخصيات التاريخية للثورة الروسية بفطنة وذكاء، وها هو نفسه يقع بنفس المطب: إذ يؤكد في مذكراته مشاركة تلك الشخصيات في اتحاد البعث، التي انتعشت تحت ضغط دليل المراسلة المقدم إليهم، وعندها (صار يقدم بنفسه الأدلة الأقل، أو الأكثر ارتباطاً بالواقعة) بسرد قصصي غير مرتبط بأسئلة الاستجواب (أذهلت هذه الإثباتات، وضغطت على كل واحد من المتهمين بشكل منفصل كما جعلهم يتصورون بدورهم: بأنه تكلم عن كل شيء، تحت ظروف من عدم السيطرة الإرادية).

اشترى آكرانوف الجميع، بقوله: إن هذه القضية «قضية قديمة» وأن كافة المراكز ائتمرت في زمن سابق - لذا لا خطورة، من التحقيق معها، وإن ما يقوم به الجهاز ما هو إلا إجراء تحقيقي ليس إلا، بغرض استجلاء

الموقف التاريخي، وعبر الكثير من المتهمين لياكوف ساولوفيتش - عن الامتنان والعرفان... ووضع أمام المتهمين الآخرين، معادلة «السلطة» السوفييتية وروسيا، وكل مناهضه للأولى، هي في الوقت نفسه مناهضة للثانية، وبالتالي تصبحان تحت نطاق الإجرامية.... وبهذا حصل على أدلة قضائية رخيصة كما جاء في مقالة كويلياريفسكي، وحسبما جاء في الحاشية المدونة تحتها، (كانت مهمة التحقيق مع المعتقل الآنف الذكر لأكرانوف).

وأثناء المحكمة؟... يقول ميلكونوف: «إن التقليد الثوري (للمثقفين) يتطلب بطولة فائقةً، إلا أنه لم يكن في النفس أي حماس لتحقيق هذه البطولة، وتحويل المحكمة إلى مظاهرة احتجاج أمر - يعني الإساءة المتعمدة ليس لنفسك فقط بل للآخرين.

هكذا وبكل سهولة، علق المتهمون في صنّارة الجهاز الأمني، واستسلموا، وقتلوا باستسلامهم هذا المثقفين الروس، هؤلاء الذين كانوا في عهد القيصرية أكثر عناداً وقسوةً، وحباً للحرية - ولم تستطع القيصرية، أن تأخذ منهم لاحقاً، ولا باطلاً.

نضيف إلى ما سبق، تلك الحنكة المصيدة المستخدمة من قبل المحقق اكرانوف أثناء التحقيق: «في قضية تاغانتسيف عام ١٩٢١ (على الرغم من أن هذه القضية لا تمت لعرضنا هذا بصلة، بسبب عدم حصول محاكمة (عملية خاصة بها). صمت البروفسور تاغانتسيف أربعين يوماً من التحقيق، لكن آكرانوف تغلب عليه فيما بعد، بتوقيع اتفاقية: «أنا تاغانتسيف، أعترف بأني سأقوم بتقديم معلومات كاملة دون أن أخفي شيئاً... على ألاّ تستدعى أيّ شخصية من الشخصيات المشاركة في مجموعتنا للتحقيق وإني أقوم بهذا، كي أهون من مصائر المشاركين في عمليتنا».

أنا المكلف من قبل الجهاز الأمني الطوارئي ياكوف ساولوفيتش، أتعهد بمساعدة المواطن تاغانتسيف أن أنهي التحقيق في القضية على وجه السرعة، وأعطي محاضر التحقيق بعدها إلى محكمة علنية... وأتعهد بأنه لن تستخدم أيّ عقوبات، ضد أحد من المتهمين، فوق حدود العقوبات المحكومين بها..

وأعدم الجهاز الأمني بسبب «قضية تاغانتسيف» سبعة وثمانين إنساناً.

وهكذا أشرقت شمس حريتنا، وهكذا شب الصبي الأكتوبري اللعوب، القانون السمين.

الفصل السادس

القانون يسترجل

لقد طال استعراضنا وسردنا، على الرغم من أننا لم نبدأ بعد، وما زال أمامنا الكثير من الأساسيات، للعمليات الكبيرة، التي سنتطرق إليها، إلا أننا نستطيع القول، بأن الخطوط الأساسية لها، قد ارتسمت، واتضحت.

سنتتبع قانوننا هذا، منذ مرحلة الطفولة، ونذكر بالأشياء المنسية، حتى ولو كانت غير سياسية.

عملية غلافتوب (أيار عام ١٩٢١) - على الرغم من أنها لا تتعلق بالمهندسين، ولا بالاختصاصيين، على الرغم مما أشيع عنها في تلك الآونة.

انقضى الشتاء الأكثر ضراوة من الشتاءات الأربعة، التي مرت على الحرب الأهلية، ولم يبق عندها شيء توقد به القطارات العاجزة عن جر نفسها لبلوغ المحطات، وحل الجوع والبرد، وموجة الاضطرابات في المصانع التي ألغيت من التاريخ في الزمن الحاضر، وبقي السؤال الشهير: من هو المذنب في هذا؟

بالطبع ليست القيادة كلها، ولا حتى المحلية منها! - اعتبارٌ له أهميته. خاصة إذا كان هؤلاء الرفاق القادمون من أنحاء مختلفة (أي القادة الشيوعيون) ولم يكن لديهم عندها التصور الصحيح عن المسائل، التي لا بد (من أن يتوفر أحد ما يرسم المدخل الصحيح لها) أي الخبراء

الاختصاصيون الأمر الذي يعني (بأن القادة ليسوا المذنبين - بل المذنبون أولئك الذين أعدوا، ودققوا، ووضعوا الخطط) (عن كيفية الإطعام، والتوقيد بالأصفار)، ليس الذنب ذنب من أقر بل الذنب ذنب من خطط!. فالتنفيذ حسب المشروع المخطط إملاء الفراغ - والمذنبون في ذلك الاختصاصيون، لأن الأصفار لم ولن تفلح - «وهذا ذنب الاختصاص، وليس ذنب مجلس العمل، ولا مجلس الدفاع، وحتى ليست هي «مسؤولية القيادة وإدارة الوقود الأساسية»، التي ليس لديها لا الفحم، ولا الحطب ولا النفط - فهؤلاء الاختصاصيون هم من كون حالة عبثية عويصة، والذنب ذنبهم في عدم صمودهم أمام برقيات ريكوف المستعجلة - وأعطوا، وسلموا لأحد ما، ليس حسبما جاء في الخطة.

الاختصاصيون مذنبون في كل شيء، وعلى الرغم من كل هذا لم تكن أحكام البروليتاريا عليهم قاسية، إن لم تكن أكثر ليناً، وهذا يعود بالطبع، إلى أن الأضلاع البروليتارية تحافظ على هذا التحاشي الداخلي، لهؤلاء الاختصاصيين الملعونين - لأنه دونهم لا يمكن أن تسير الأمور، وإلا سيسير كل شيء إلى الوراء، ولم تقم المحكمة، بملاحقتهم، حتى إن كريلنكو يقول في مذكراته عام ١٩٢٠ «لم يدر الحديث عن التخريب» فالاختصاصيون مذنبون، بكل بساطة لكن ليس بدوافع شريرة - إنهم نسّاك، ولم يكن الأفضل مما قدموا وخلقوا، والأمر لا يتعدى في أنهم ألغَوا العمل في الزمن الرأسمالي بكل بساطة، وقد يكونون أيضاً بالبساطة نفسها، أنانيين ومرتشين.

هكذا... ففي أول سنة من مرحلة إعادة التعمير والإنشاء، رسم خط منقط، مستهجن للتساهل والتسامح مع المهندسين.

كان عام ١٩٢٢، عاماً غنياً بعمليات المحاكمة العلنية - نعم لقد كانت السنة الأولى بعد الاستقرار السلمي، غنية لدرجة، إن فصلنا هذا،

سيدور الكلام فيه عن تلك العمليات، المنفذة في هذا العام حصراً! «ومما يثير الاستغراب! إن الحرب انتهت - والمحاكم انتعشت بهذا الشكل الفاضح؟... ولمَ لا، طالما أنه في عام ١٩٤٨-١٩٤٩، انتعش التنين بشكل خارق، أفلا يكون قد وجد بعد هذا كله قانونية شرعية بسيطة)؟.

على الرغم من انعقاد المؤتمر الرابع للمجالس في كانون الأول من عام ١٩٢١، وإقراره «تضييق مهمات الجهاز الأمني الطوارئي) - إلا أن هذا التضييق قد تم تصغير فكرته، بإطلاق تسمية الإدارة السياسية الحكومية عليه - في أكتوبر من عام ١٩٢٢، اتسعت صفوف الإدارة السياسية من جديد، وفي كانون الأول قال ديرجبنسكي لمراسل صحيفة البرافدا: يجب علينا الآن تدقيق التيارات والتجمعات المعادية للسوفييتية بدقة متناهية، فالإدارة السياسية خفضت من جهازها، لكنها دعمتّه بالنوعيّة».

إلا أننا لن نتغاضى عن ذلك في بداية العام الجديد.

القضية التي سنتكلم عنها الآن، هي قضية انتحار المهندس أولدنبرغر (المحكمة العليا ١٩٢٢) - ولا شك بأنها قضية منسية، ولا وجود لذكرها بسبب خصوصيتها، لأن حجمها منذ الأساس - لا يتعدى حياة إنسان واحد فقط! وبنهايته كان يجب أن تنتهي، لكن طالما أنها لم تنته، فلا بد من أن يكون هذا المهندس بالذات، كان قد شارك عشرة مهندسين، وشكلوا مركزاً، وقعدوا أمام المحكمة العليا، لتكون بذلك قد أصبحت عملية قضائية ذات خصوصية، تستحق العناء، ها هو... يجلس في قفص الاتهام - رفيق حزبي معروف، يدعى سيديلسكوف يلينكوف، ومعه اثنان من العاملين القانونيين، واثنان من النقابيين.

لكن... كما انغلق الوتر العتيق عند تشيخوف، إن لم يكن أكثر إيلاماً كانت عملية محاكمة حجارة الدومينو الأسلاف، أي أعضاء «البروم بارتيا» الحزب الضاعي... عمل المذكور (المرحوم) ثلاثين عاماً

مشرفاً على مؤسسة التمديدات المائية الموسكوفية، أي قبل بداية القرن الذي نحن فيه، وأصبح فيما بعد كبيراً للمهندسين في المصلحة ذاتها، وجاء القرن الفضي للفنون العامة، أربعة مجالس دوما حكومية، وثلاث حروب، وثلاث ثورات، وبقيت موسكو بقضها وقضيضها تشرب ماء أولد ينبرغر، بما فيهم الاكاديميون والأنصار المستقبليون، والرجعيون، والثوريون، وطلاب الكليات العسكرية، والغفارديون الحمر، ومجالس اللجان الشعبية، والجهاز الأمني الطوارئي، واللجنة الثورية - كلهم شربوا من مياه أولد ينبرغر الباردة، لم يكن متزوجاً ولم يكن له أولاد، وجل ما كان لديه طوال حياته هذه الأنابيب المخصصة لجر المياه، وفي عام ١٩٠٥ لم يسمح لجنود الحراسة استخدام التمديدات المائية - «خوفاً من أن تسبب عدم درايتهم بكسر الأنابيب، وتعطيل الماكينات». (وأضربت الشبكة المائية في ذلك الوقت دون تحريض من أحد، وبقيت المدينة عام ١٩٠٥ دون ماء - ألا يحتمل أن يكون أولد نيبرغر، هو من قام بقطعها)؟ وفي اليوم الثاني من أيام ثورة شباط، توجه إلى عماله قائلاً: هيا إلى العمل، الثورة انتهت وكفى... فليعد الجميع إلى العمل، ويجب أن تعود المياه إلى مجاريها، أثناء معارك أكتوبر الموسكوفية كان لديه اهتمام واحد أحد: الحفاظ على أنابيب المياه، أما عماله فقد أضربوا رداً على الانقلاب البلشفي، واستدعوه فأجاب «لم أشارك في الإضراب لسبب فني، وفيما عدا ذلك... عدا ذلك أنا مع)... وقبض نقود المضربين من لجان المحاسبة، ووقع على الاستلام، وراح يركض بنفسه بحثاً عن عزقات وصل الأنابيب المخربة.

مع كل هذا... كان هو العدو، ألم يقل للعمال: «إن السلطة السوفييتية، لن تستطيع الثبات والاستمرار أكثر من أسبوعين» ذلك لأن قوة اقتصادية نشيطة، تمنع قيام ذلك... وسمح كريلنكو لنفسه، أن يعلن

من على قوس المحكمة العليا! «الجميع اعتقد في هذا، وليس المختص وحده - حتى نحن اعتقدنا بذلك، وليس لمرة واحدة.

ومع كل هذا... إنه العدو! حسبما قال لنا الرفيق لينين: بغية مراقبة الاختصاصيين البرجوازيين، يتوجب على اللجنة التنفيذية الثورية، تخصيص العيون، ليكونوا في يقظة دائمة.

كانت اثنتان من هذه العيون اليقظة، تلازمان أولد ينبرغر (الأول - عامل التمديدات ماكاروف ريمبليافسكي، كان قد سرح من الخدمة بسبب «التصرفات السيئة» وأرسل إلى اللجنة التنفيذية الثورية، لأن «الراتب هناك كان أكثر» - ومن هناك، كان يأتي للتفتيش على المدير السابق، لينتقم من غريمه، ويشفي غليله)، ومن البدهي ألا يغمض للانتقام جفن، وبخاصة عند هذا المنافح القوي عن المصالح العمالية، وبهذا استلم الشيوعيون إدارة مؤسسة المياه «العمال فقط، هم من يجب أن يكونوا في القيادة وعلى الشوعيين فقط، أن يأخذوا زمام القيادة بشكل كامل - وثبتت صحة هذه الواقعة، التي نتحدث عنها في أضابير العملية المذكورة. إلا أن التنظيم الحزبي الموسكوفي، لم يغمض عينيه عن متابعة حالة التمديدات (وقعد الجهاز الأمني بجوارها)، «انطلاقاً من إحساسنا بالحقد الطبقي، قمنا ببناء الجيش في الوقت المناسب، باسم هذا الإحساس لا يمكن لأحد أن يتبوأ مناصب المسؤولية، إلا من كان من معسكرنا، ولا يمكن تكليف أحد منهم.... بأعمال القوميسارية»، وسرعان ما راحوا يوجهون ويقيمون، ويعلمون كبير المهندسين، إذ دون هذا كله، قد تتشوش شخصيته الفنية «ها هم ينبشون أعشاش الرجال العمليين».

لم يتم إنقاذ التمديدات على الرغم من كل تلك الإجراءات!، ولم تسر الأمور على ما يرام، إن لم تكن أكثر سوءاً! - وهكذا تدبرت الطغمة الهندسية، تنفيذ أفكارها الشريرة خلسة، وأكثر من هذا كله «تجاوزت

حدود طبيعتها الثقافية، التي بسببها لم يستطع أولد ينبرغر طوال حياته التكلم بشكل فج، وها هو أخيراً تجرأ ليصف نشاط المدير الجديد زيبوك قائلاً: «أما من حيث الشخصية فهو جذاب جداً» ويضيف كريلنكو: «أما من حيث تكوينه الداخلي» - فهذا جائر!.

هكذا تبين إذ ذاك بشكل جلي أن «المهندس أولد ينبرغر قام عامداً متعمداً، بخيانة مصالح الطبقة العاملة، واعتبر عدواً صريحاً لديكتاتورية الطبقة - إلا أن اللجنة وجدت كل شيء على أحسن ما يرام، فالمياه تجري في مجاريها، بينما العمال الضليعون في الجناية، لم يستسلموا بل على العكس راحوا ينشرون وينشرون التقارير في اللجنة الثورية التنفيذية. وجل ما أراده أولد ينبرغر هو تدمير، وتعطيل الأنابيب بكل بساطة، إلا أنه في واقع الأمر لم يستطع تنفيذ هذا الأمر، بل هم الذين استطاعوا فعله - وأعاقوه، وأعاقوا عمليات الإصلاح التبذيرية المسرفة للمراجل، وتبديل الخزانات الخشبية بخزانات بيتونية.

... وأخذ العمال يتكلمون أثناء الاجتماعات في مصلحة المياه علانيةً، عن كبير مهندسيهم - «وعن الروح التخريبية الفنية المنظمة» ويجب ألا يصدق في شيء، ويتوجب مقاومته بكل السبل.

ولم تصطلح الأمور، وأضحت مع كل هذا أكثر سوءاً!.

إن أكثر ما يحز في النفس «السيكولوجية البروليتارية الموروثة» لعمال التمديدات، والنقابيين - فغالبية العاملين في هذه المصلحة «مصابون بعدوى سيكولوجية البرجوازية الصغيرة» ووقفوا إلى جانب أولد ينبرغر ولم يهتموا بما خربه، بل إنهم زادوا على هذا، وقاموا بترشيحه ممثلاً عنهم، عند موعد قدوم الانتخابات في المجلس الموسكوفي، وعارضتهم في هذا الحلقة الحزبية، ورشحت ممثلين ضده، ولم تفلح بعملها هذا، بسبب ما لكبير المهندسين من شعبية في أوساط العمال، وعلى أثر هذا قامت الحلقة

الشيوعية، بالتوجه إلى اللجنة المناطقية بكل مرجعياتها، وأعلنت في بيانها أثناء الاجتماع «إن أولد ينبرغر ما هو إلا مركز، وروح التخريب، وسيكون عدونا السياسي الأول في المجلس الموسكوفي»!. وجاء رد العمال على هذا، إذ علا الضجيج، والصراخ «لا.... ليس صحيحاً»!. «تكذبون». وعندها أعلن سكرتير اللجنة الحزبية، الرفيق سيدلتيكوف مباشرة، أمام عدة آلاف من قادة المجموعات البروليتارية «لا رغبة لي، حتى بالتحدث مع هؤلاء الرجعيين المتطرفين»! ولا بد من أننا سنتكلم معهم في مكان آخر.

اتخذ قرار حزبي «باستبعاد كبير المهندسين من.... مصلحة المياه»، ووضعوه تحت حالة من التحقيق المستمر، واستدعوه دونما انقطاع، ولمرات عديدة متكررة، للحضور أمام اللجان الأولية، ومن ثم الرئيسية، واستجوبوه، وكلفوه بمهمات سريعة التنفيذ، وراحوا يسجلون كل غياب له، في بروتوكولات «تستخدم في حالة تعرضه لعملية محاكمة في المستقبل». وتوصلوا من خلال مجلس العمل والدفاع (الذي يرأسه الرفيق لينين) إلى تعيين «لجنة ثلاثية طارئة» لإدارة مصلحة المياه (مؤلفة من رئيس المصلحة، ورئيس مجلس النقابة، والرفيق كوئيبيشيف).

مرت سنون أربع، والماء ينساب في الأنابيب، دون أن يلحظ الموسكوفيون شيئاً..

ليكتب الرفيق سبيليكوف بعدها، مقالة في مجلة «الحياة الاقتصادية» «نظراً لاضطراب الآراء الاجتماعية، وكثرة الأقاويل عن الحالة الكارثية لوضع التمديدات المائية»، أريد أن أعلن: «إن الكثير من الأراجيف المتعلقة بهذه المسألة تنذر بالخطر وأردف قائلاً: «إن التمديدات الناقلة للمياه تحت الأرض «تغسل القاعدة الأرضية تحت موسكو عمداً (كانت هذه التمديدات، قد نفذت في عهد إيفان كاليت)، وعلى الأثر استدعى المجلس الموسكوفي اللجنة الطارئة، وتحققت من إن «الحالة الفنية

مقبولة، والقيادة الفنية معقولة»، وعلى أثر هذا، نفى أولد ينبرغر كافة الاتهامات، الأمر الذي آثار حفيظة سيديلينكوف، ليقول دون مبالاة: «لقد وضعت مهمة لنفسي، بأن أثير فضيحة حول تلك المسألة، وستتدفق عندها قضية الاختصاصيين في إطار المسألة نفسها».

ماذا بقي لزعماء العمال؟... وما الوسيلة الصادقة الأخرى تحديداً؟، لا شك إنها إبلاغ الجهاز الأمني الطوارئي، وهذا ما كان!!. لقد اعتبر «صورة تخريب مصلحة المياه تعمدية من قبل أولد ينبرغر» وليس لديه أيّ شكوك «من وجود تنظيم معاد للثورة في مصلحة المياه»)، وأضاف: إن حالة الخزان المائي البرجي في روبليوف، حالة كارثية.

لا ريب من أن أولد ينبرغر، ارتكب هفوة غير حصيفة، وغير مناسبة، بدخوله مبارزة لدنة، باسم المثقفين الوسطيين، وها قد «ذبحوه» - بالتوصية على شراء مراجل أجنبية جديدة (بدلاً من الروسية، التي لا تتوفر الإمكانية لإصلاحها الآن) - ويكون بهذا قد أنهى نفسه بنفسه (وكان ما حصل عبئاً كبيراً، على عاتق فرد واحد، عدا عن أنه ليس مدرباً على مثل هذه المحاكمات». لم تترك القضية، وكان يمكن إيجاد التنظيم المعادي للثورة، ويتولى عمال الجهاز الضليعون عملية كشفه. ومرّ شهران، والمناورات العقيمة مستمرة. لكن ما إن بدأت روح السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب)، حتى تطلّب الأمر وجوب «إعطاء الدروس لهؤلاء وأولئك» وهكذا دنت مرحلة «عملية المحكمة العليا، وبدا كريلنكو متجهماً لدرجة ما، وعديم الرحمة لحد ما، إلى حدّ طالما أنه يدرك: «إن العمالة الروسية كانت محقة بالطبع في أن ترى في كل ممن ليس من جماعتها، عدواً متوقعاً، أكثر مما يكون صديقاً»، لكن «عند التغيير المستقبلي لسياستنا العملية، والعامة، قد يطلب منا، أن نتنازل ونناور أكثر ريثما يتضح للحزب ضرورة اختيار الطريق التكتيكي المناسب، ضد الذين

سيصبحون بمنطقيتهم الفطرية، معارضين للمناضلين الصامدين الشرفاء».

الحقيقة، لم يلاق العمال الذين قدموا شهاداتهم ضد الرفيق سيديلينكوف، وضد الفنيين المخابراتين، إلا السخرية «واستخفت المحكمة بهم، واستصغرتهم ببساطة مطلقة». ورد المحاكم سيديلينكوف دون مبالاة على تهديدات المتهم «أيها الرفيق كريلنكو! إني أعرف هذه المقالة، إلا أن من يحاكم هنا، هم الأعداء الطبقيون، وإن ما ورد في تلك المقالات متعلق بأعداء الطبقة».

إلا أن كريلنكو عكر الجو «ووتر الموقف» بخفة واضحة، على الرغم من وضوح كذب بلاغات المؤسسة الحكومية... وتضخيم ذنب الظروف (مسببات الظروف الحالية)، (والحقد الشخصي، وتصفية الحسابات الشخصية).. واستخدام المراكز الوظيفية... وعدم المسؤولية السياسية... وسوء استخدام المنصب، ونفوذ العاملين السوفييت، وأعضاء اللجنة الشعبية الحزبية، والإخلال بالعمل في مصلحة المياه... وإلحاق الخسارة بمجلس مدينة موسكو البلدي، وبروسيا السوفييتية، وبسبب قلة أمثال هؤلاء الاختصاصيين. قد ساعد في عدم توفر إمكانية التبديل... «ولن نعمد هنا، إلى الكلام عن النفقات الشخصية.... في زماننا هذا، الذي يعتبر فيه، جوهر النضال هو المضمون الأساسي لحيواتنا، وكأننا قد تعودنا بطريقة ما، أن نقلل محاسبتنا لهذه النفقات المهدورة... (٤٥٨)، لذلك يجب على المحكمة الثورية العليا، أن تقول كلمتها المسموعة... فالعقوبات الجنائية، يجب أن تعالج بكل صرامة!... وإننا لم نأتِ إلى هنا، لنمثل الهزليات»!..

أبتي... ماذا أسمع الآن؟... هل يعقل؟ لقد تعود قارئي أن يسر لي!... الإعدا... م. للجميع.

لا .... لقد كان صادقاً بحق، العفو عن الجميع، وضحك الجميع بسبب التوبة الصادقة.... ويحكم على المتهمين... بالاستنكار الشعبي. هما حقيقتان.

أما سيديلينكوف يعتقد بأنهم - حكموا عليه بالسجن لمدة عام.

أسمحوا لي... بألا أصدق هذا!!

أوه... من يتصور حثالة العشرينيات، من يتصورهم صائرين بحراً مضاءً من الفرح الغامر!... حتى ولو... طرنا إلى آخر الدنيا، ... حتى ولو كنا صبياناً - كيف لنا أن ننسى تلك التنخعات، وتلك الخرخره، التي طاردت المهندسين في العشرينيات.... والتهمتهم، وأتت على آخرهم.

إلا إننا سنرى الآن... ماذا سيكون في العام الثامن عشر.

★★★

سنرتاح قليلاً من حبيبنا المدعي العام في العمليتين التاليتين، فهو مشغول في الإعداد للعملية الكبيرة للآيسيريين (هذه العملية الساذجة، المثيلة لعملية ساراتنكوف عام ١٩١٩، والتي كنا قد ذكرناها سابقاً)، كانت قد سببت في السابق نظراً لضخامتها التنينية، الهيجان والاضطراب في أوروبا، الأمر الذي جعل اللجنة الوطنية لأن تتذكر على حين غره، إنا ومنذ أربع سنوات، ونحن نقوم بالمحاكمة دون الاعتماد على تشريع جنائي، لا قديماً، ولا جديداً، وقد لا يبدل هذا الاهتمام الطارئ بالتشريع، من حالة كريلنكو شيئاً؟ طالما يجب تنسيق كل شيء تنسيقاً مسبقاً.

لقد كانت عمليات المحاكمة المقبلة للكنسيين شأناً داخلياً، ولا يمكن توجيه الاتهام إلى أوروبا المتقدمة في أن تكون وراءها، عدا عن إنه تتوفر الإمكانية لإبرامها دون تشريع.

كنا قد رأينا في السابق، إن الحكومة قد فهمت عملية فصل الكنيسة عن الدولة، على أساس، أن لها الحق في أن تعيد الهيكل إليها،

مع محتوياته من معلقات، ورسومات، وأيقونات، وعلى أن تبقى الكنيسة هي مالكة للدفات الكبيرة الحاوية بداخلها المخطوطات المقدسة.... طالما لاحت في الأفق بوادر النصر عام ١٩١٨، أسرع وأسهل مما كان متوقعاً، إذ انطلقوا إلى مصادرة الكنيسة، وتجريدها من محتوياتها، لكن هذه القفزة سببت الاضطراب الشعبي الكبير الذي ألّف في خضم اشتعال الحرب الأهلية جبهة داخلية ضد المؤمنين، مما استدعى إرجاء الجدل بين الشيوعيين والمسيحيين إلى حين.

في نهاية الحرب الأهلية، حل الجوع الماحق في منطقة الفولغا، ولم تزين أكاليل النصر في هذه الحرب، على الرغم من قلة ما أشير إليه في أدبياتنا في تلك الأيام، ووصل الجوع إلى مرحلة، صار فيها البشر يأكلون بعضهم، والأهل يأكلون أطفالهم - ولم يسبق أن عرفت روسيا، جوعاً مشابهاً، حتى في أحلك الأوقات (وكثيراً ما تشهد على ذلك المدونات التاريخية، التي بقيت صامدة لعدة سنوات تحت الجليد الذي كما هو معروف، بأنه لا يمكن أن يتخمر بحال من الأحوال، ويتحول إلى خبز فتات). ولو أتيح لنا تصوير فيلم واحد عن جوع تلك الأيام، لفاق نوره، أكثر مما عرفنا، ورأينا عن الثورة، وعن الحرب الأهلية. لكن لا الأفلام - ولا الروايات، ولا حتى الإحصائيات - تفعل شيئاً، فالجميع يحاول نسيانها، لكن في الوقت نفسه يصعب طيها، ودفنها، ولهذا السبب تعودنا أن نلقي بوزر الجوع على عاتق الكولاك - لكن لنا أن نتساءل في حمأة الموت المنتشر من كان هذا الكولاك؟... ويوضح لنا كريلنكو عبر الرسالة الموجهة إلى لوناتشارسكي (على الرغم من وعد الأخير بنشرها، فإنها لم تنشر في بلادنا قط). إن الجوع الماحق، والفقر المدقع انتشر بسبب - هبوط الإنتاجية بكافة أنواعها (فالأيدي الكادحة مشغولة بحمل السلاح)، وبسبب انخفاض مستوى الأمانة، وقلة التطلعات الفلاحية، حيث لم يتركوا لأنفسهم شيئاً حتى ولو

كان نذراً يسيراً. لكن لو أن أحداً ما، وفي زمن ما، قام بإحصاء القطارات المحملة بالمواد الغذائية خلال عدة أشهر، والمقدمة حسب نصوص اتفاقية السلام البريستي إلى ألمانيا - بعد أن حرمت الألوف من البشر من الاحتجاج والمعارضة عليها حتى من قبل أولئك الناس الواقعين في مناطق الجوع المستقبلي (على الرغم من أنها كانت تذهب إلى ألمانيا لتستكمل حربها في الغرب) لعرف بشكل مباشر السلسلة السببية القصيرة: كيف أن سكان الفولغا يأكلون أولادهم، بسبب إمساك البلاشفة بتقاليد الحكم، وتسببهم في إشعال الحرب الأهلية.

تكمن عبقرية الساسة، في أنها تستخلص النجاح من ويلات الشعب، وتؤول هذه الخاطرة - إلى أنه يمكن لك قذف ثلاث كرات بيلياردية إلى الجيب بضربة واحدة: دع القساوسة الآن، يطعمون الفولغيين!!! أليسوا مسيحيين - خيرين:

١- إذا رفضوا - نلقي بأسباب المجاعة على عاتقهم، وندمر الكنيسة.

٢- إذا وافقوا - نكتسح الهياكل.

٣- في كلتا الحالتين نحصل على احتياطي العملة.

يخيل إلي، أن أفعال الكنيسة نفسها، أوجدت الأحجية، فكما يشير البطريرك تيخون إلى أن الكنيسة شكلت قبل عام ١٩٢١، وفي بداية المجاعة لجاناً في الأبرشيات التابعة لها في عموم روسيا، بغية تقديم المساعدة للجائعين في الفم مباشرة، وهذا أمر يعني، تخلي الدكتاتورية البروليتارية عن دورها، ويؤدي إلى تعريتها لذا قامت الأخيرة بمنع هذه اللجان من ممارسة أعمالها وصودرت الأموال لصالح الخزينة. وتوجه البطريرك طالباً العون من البابا في روما، ومن أسقف كيزبييرغسكي - إلا أنهم منعوا هذا أيضاً، متذرعين، بأن إجراء المباحثات مع الأجانب، هو من اختصاص السلطة فقط، ولن ننفخ بوق الإنذار دون سبب، وكتبت الصحف: إن

السلطة تستطيع بكافة السبل، التعامل مع مسألة الجوع هذه ذاتياً بينما كان الفولغويون يأكلون الأعشاب، والنعال، والقوارض، والأبواب - والمواشي والخيول، وبعد لأي قدمت الحكومة المساعدة (كانون الأول عام ١٩٢١) في (تشكيل لجان مساعدة الجائعين). واقترحت اللجنة على الكنيسة: التضحية بمقدراتها من أجل الجائعين - التضحية بكل الأشياء التي لا تحمل طبيعة الاستخدام التعبدي. وافق البطرك على المساعدة ووضع دليلاً لتلك التضحية بكل شيء - إنما طوعاً وفي ١٩ شباط عام ١٩٢٢ توجه البطريرك برسالة يطلب فيها: السماح لمجلس الأبرشيات بالتبرع بالمواد، التي لا تحمل صفة خدمة الرب.

وهكذا.... وللمرة الثانية، كاد كل شيء يتشتت في دوامة الحلول الوسط، التي تلف الإدارة البروليتارية.

الفكرة - تأتي كالبرق الصاعق: فكرة، قرار اللجنة المركزية التنفيذية الصادر في ٢٦ شباط: مصادرة كافة مقدرات «الكنائس من أجل الجائعين».

توجه البطريرك إلى كالينين - ولم يجب، عندها قام بتوجيه رسالة مستميتة (٢٨ شباط) لا يمكن لنا من وجهة النظر الكنسية، ولا يمكن للكنائس حتى، أن توافق على المصادرة الواردة في القرار المرسوم..

ربما كان من السهل علينا الآن بعد مرور نصف قرن، أن نلوم البطريرك، وربما كان من الواجب على قادة الكنائس المسيحية، ألا ينشغلوا في صياغة الأفكار: ألم يتوفر لدى السلطة السوفييتية مصادر أخرى لتقديم المساعدة؟ ومن الذي أوصل منطقة الفولغا للمجاعة؟ ألم يكن عليهم التمسك بهذه المقدرات المادية، التي تتعلق بها عملية الظهور المستقبلية (هذا إذا كانت مستقبلية) ورسوخ العقائد الجديدة، لكن علينا أن نتصور حالة البطرك المسكين، المنتخب بعد أكتوبر، إذ لم يمض عليه سوى

سنوات قليلة في القيادة الكنسية، كان عليه، أن يحافظ على ما وصل إليه سواءً تعرض للمضايقة أو للطرد أو للإعدام أو للثقة.

بدأت الصحف في ذلك الوقت بمطاردة متدرجة للبطريرك، وللشخصيات الكنسية الرفيعة، التي كانت تخنق الجوع بيديها الهزيلتين، وكان كلما تشبث البطريرك، كلما زادت حالته وهناً. وفي آذار بدأت الحركة وسط المؤمنين - التراجع عن القدرات المادية، والدخول بالمفاوضة مع السلطة، وعبّر الأسقف أنطونين غرانوفسكي عمّا تبقى من الهواجس، أمام كالينين عضو اللجنة المركزية لمساعدة الجائعين: «إن المؤمنين قلقون، في ذهاب القدرات المادية الكنسية، لأغراض طبقية غريبة عن غرضهم السامي»، وبالاطلاع على مبادئ العلم المتطور. يوافق القارئ المجرب على أن هذا محتمل جداً، فضرورات التدخل، وتحرير الشرق ليس أقل أهميّة من الفولغيين أنفسهم).

ويضيف ميتروبوليت بيتروغراد بنيامين، بنزعة يقينية: «هذه - للرب، ونعطي كل شيء حسب مشيئتنا»، لكن هذا من شيمة روحانيّ الإكليروس، والمؤمنين: سنتابع القدرات الكنسية المادية، حتى لحظة تحويلها إلى خبز من أجل الجائعين. لقد عانى الميتروبوليت، من أن يكون كلامه هذا، قد أدى إلى إدانة الإدارة البطريركية.

كانت الأمور تجري في بيتروغراد وبسلام، ووافق الميتروبوليت في اجتماع اللجنة المركزية على مساعدة الجائعين (انعقد الاجتماع في آذار عام ١٩٢٢) في جو احتفالي - حسب شهادة من كان في الاجتماع - إن الكنيسة الأرثوذكسية تعطي كل شيء من أجل مساعدة الجائعين، لكنها في حال تنفيذ المصادرة بالقوة، فيكون للأبرشية رأي آخر. وأيد رئيس لجنة مساعدة الجائعين في بيتروغراد - طالما لا تستدعي الضرورة تنفيذ المصادرة وإن هذا سيؤدي بدوره إلى إقامة العلاقات الحسنة بين السلطة والكنيسة

بشكل أو بآخر... وفي نفحة حارة، وقف الجميع وقال الميتروبوليت: «إن العبء كل العبء - في التفرقة والعداوة، لكن سيأتي زمن - يتفق فيه الروس، وأني سأكون أول من ينزع لباس الحبرية عن أم الأب في كازان، واذرف دموعي الدافئة الحلوة عليها، وأسلمها».

وبارك البلاشفة - أعضاء اللجنة مساعدة الجائعين، وقام أولئك برؤوس معتمرة، بتوديعه حتى الخارج «إنها الحقيقة البيتروغرادية». وتأكدت بدءاً من ٨-٩-١٠ من شهر آذار[1]، نتائج المحادثات السلمية الناجحة، وأعطيت الانطباع الجيد عن الميتروبوليت «لقد تم الاتفاق في قصر سمولني، من أن كافة الأكواب، والألبسة الحبرية ستصر، وتحول إلى سبائك بحضور المؤمنين».

وها للمرة الثانية، يطلى حل وسطي آخر، فالأبخرة المسيحية السامة، تسمم الإدارة الثورية، فلا حاجة للجائعين الفولغيين، ولا حاجة لهذه الوحدة، ولا لهذا العطاء للمقدرات الكنيسة، ويتم تغيير الأعضاء السذج للجنة البيتروغرادية، وتطلق الصحافة عليهم «القساوسة الأغبياء» و «أمراء الكنيسة». ويتضح الأمر لممثلي الكنيسة، بأنه لا حاجة لتضحياتهم، ولن تجري معهم أيّ مباحثات، فكل شيء يعود للسلطة - وستأخذ ما تراه ضرورياً وقت ما تشاء. وبدأت في بيتروغراد، كما في الأماكن الأخرى المصادرات الضرورية، منها حدوث الصدامات، منها قد توفرت الآن، الأسس القانونية للبدء بالعمليات الكنسية.

العمليات الكنسية (٢٦ نيسان - ١٧ أيار عام ١٩٢٢)، المكان المتحف السياسي الفني، المحكمة الثورية الموسكوفية برئاسة بيك، والمدعين العامين لونين ولونغينوف، وسبعة عشر محاكماً من القمامصة، والدينويين،

١- مقالة «الكنيسة والجماعة». «وكيف ستكون مصادرة مقدرات الكنسية».

المتهمين بنشر النداء البطريركي. هذا الاتهام - لهو أهم من المنح، أو عدم المنح للمقدرات المادية: القمص أ. ب قام بتسليم قدرات هيكله إلا أنه بقي من حيث المبدأ، منافحاً عن النداء البطريركي، الذي كان قد اعتبر مصادرة الأبرشية، مصادرة تعسفية - وأصبح الشخصية المحورية للعملية - وسينفذ عليه الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص (الأمر الذي يؤكد: ليس المهم إطعام الجائعين، بل المهم هو تحطيم الكنيسة في الساعة المناسبة).

في الخامس من أيار، استدعي إلى المحكمة الشاهد - البطريرك تيخون، وعلى الرغم من أن الحضور كان قد اختير لحضور المحكمة (ما جرى في عام ١٩٢٢، لا يختلف عما جرى في أعوام ١٩٣٧-١٩٦٨) إلا أن النظارة الروس (أي الحضور)، لم يختمروا بعد، ولم تتخمر كذلك، تلك الغشاوة الرقيقة للمجالس السوفييتية، إذ ما أن أدخل البطريرك، حتى هم نصف الحاضرين بالوقوف لسعادته.

أخذ البطريرك على عاتقه الذنب كله، في صياغة ونشر النداء، ورئيس المحكمة يحاول أن ينفي ذلك، لا ليس من المعقول!، وهل يعقل أن تقوم بكتابة هذا النداء بيدك - وتكتب كل السطور؟ أليس من المحتمل، أن تكونوا، قد أمليتموه؟، ومن الذي قام بكتابته؟ ومن المستشار؟ وبعد لماذا نوهتم في ندائكم إلى الحملة، التي تشنها الصحف ضدكم؟ (إنهم يلاحقونكم، ولماذا علينا أن نسمع بهذا)؟، ما الشيء الذي أردتم قوله؟

البطريرك - عليكم أن تسألوا أولئك، الذين يمارسون الملاحقة والاضطهاد، عن الهدف الذي يريدون تحقيقه؟

رئيس المحكمة - لكن ذلك، ليس له علاقة بالدين!

البطريرك - لكنه (أي الدين) يحمل الصفة التاريخية.

الرئيس - إنكم استخدمتم عبارة، في الوقت الذي كنتم فيه تجرون المحادثات - كان المرسوم ينشر «من وراء الظهر».

البطريرك - نعم

الرئيس - تكونون بهذا الشكل قد عبرتم، إن السلطة السوفييتية تصرفت بشكل خاطئ.

حجة دافعة مميتة! كرروها لنا ملايين المرات في مكاتب التحقيق الليلي!

ولم نتجرأ أن نجيب! كيف؟

البطريرك - نعم

الرئيس - هل تعتبرون قوانين الدولة ملزمة، أم لا؟

البطريرك - اعترف بها، طالما أنها لا تتناقض، وقواعد الخير.

(أكنتم، تجيبون هكذا، لو أن تاريخنا كان غير هذا)؟

ويستمر تبادل الأسئلة عن القوانين، والبطريرك يوضح: لو أن الكنيسة سلمت كنوزها طوعاً - لما كانت دنست المقدسات، بينما انتزاعها عنوةً، أدى إلى تدنيسها، ولم يرد في النداء قط، بأننا لن نعطي على الإطلاق، إنما كانت الإدانة فيه، لطريقة التسليم على الرغم من الإدارة.

اندهش الرفيق الرئيس بيك - ما الأهم لكم في النهاية - القوانين الكنسية، أم وجهة نظر السلطة السوفييتية؟

(جواب متوقع - السلطة السوفييتية)!

لا بأس، لندع تدنيس الكنيسة للقوانين - صدح المدعي - من وجهة نظر الرحمة!!!

(لأول مرة، منذ خمسين عاماً، يتذكرون في المحكمة هذه الرحمة الإلهية).

يستنتج من التحليل اللغوي، الفيلولوجي، إن «تدنيس المقدسات» تعني حرفياً كلمة: سرقة - المقدس.

المدعي: هذا يعني، نحن ممثلو السلطة السوفييتية - سارقو الأشياء المقدسة؟

(علت الضجة في القاعة، واستمرت لوقت ما، استراحة!! إنها صلاحية المساعدين القومندية).

المدعي - هكذا إذاً تنعتون السلطة السوفييتية، وأعضاء اللجنة المركزية باللصوص.

البطريرك - إني قد أوردت، مثالاً عن القاعدة اللغوية.

وفيما بعد سيناقش مصطلح «التجديف» عند مصادرة كنيسة فاسبيلي كيسارسكي) حيث لم تدخل أيقونة العذراء في الصندوق المعد لنقلها، ورفسوها بأرجلهم، كي تحشر، فالبطريرك لم يكن هناك؟

المدعي - من أين عرفتم هذا؟ فلتذكروا كنية القسيس، الذي نقل هذا الخبر!!..

(سنزجه في الحال).

لم يسمّ البطريرك

يعني - كذب:

المدعي يتابع خطوته المظفرة - إذاً... من نشر هذا الافتراء الشنيع؟

الرئيس - فلتسموا لنا، أولئك الذين داسو الأيقونة بأرجلهم؟ - (أجل لا بد من أنهم تركوا بطاقة زيارتهم، بعد خروجهم من الكنيسة)! - وإلا ستضطر المحكمة - بعدم تصديقكم.

الرئيس - هذا يعني، بأنكم تعلنون، ما تسمعون حرفياً؟

البطريرك - لا أتمكّن من تسميتهم.

بقي عليكم الإثبات، إن البطريرك أراد أن يقلب نظام الحكم السوفييتي، تم هذا الإثبات على الشكل التالي: «تعتبر الدعاية، محاولة لتحضير الرأي العام، كي يقوم في المستقبل، بالتحضير لعملية الانقلاب.

وتقترح المحكمة، أن تثار ضد البطرك قضية جنائية.

وصدر الحكم في السابع من أيار بالحكم على أحد عشر متهماً، من أصل السبع عشر بالإعدام (ينفذ على الفور، على خمسة منهم)!

وكما قال كريلنكو: لم نأتِ إلى هنا لنمثل الهزليات!

وبمرور أسبوع واحد، استبعد البطريرك من منصبه، واعتقل (إلا أنها لم تكن النهاية، بل تم نقله حالياً إلى دير دوفسكي، وسجن هناك، حتى جاء الوقت، الذي تعود فيه المؤمنون على غيابه... تذكر!! إن كريلنكو كان قد استغرب: ما الخطر الذي يهدد البطريرك؟... صح... بينما يخطف، ويسرق... فلا يعنيه عندها.... لا الرنين ولا.... الهاتف نفسه).

وبمرور أسبوع آخر اعتقلوا في مدينة بيتروغراد الميتروبوليت بنيامين، لم يكن ذا منصب رفيع في الكنيسة حتى أنه - عين كما عينت كافة الميتروبوليتية في ربيع عام ١٩١٧- لأول مرة منذ عهد نوفغورد القديمة - أنتخب (تبخون) ميتروبوليتياً في مدينة موسكو (وبنيامين) في مدينة بيتروغراد. كان بنيامين، إنساناً متهاوداً حميماً وديعاً ضيفاً دائماً في المصانع، والفبارك، وهو ذو شعبية واسعة في الأوساط الدينية التحتية، واستطاع أن ينجح في الانتخابات بفضل أصواتهم.

رأى بتحرير الكنيسة من السياسة (التي عانت الكنيسة منها الكثير الكثير)، دون أن يستوعب أزمنة مهمته، ولهذا السبب، سيق إلى...

بلغ عدد المتهمين عشرات الأشخاص في العملية الكنسية البيتروغرادية (٩-٥حزيران عام ١٩٢٢)، (بسبب مقاومتهم تسليم الكنوز الكنسية) بما فيهم بروفيسيورية العلوم اللاهوتية، والحقوق الكنسية، والارشمندريتين، والقساوسة، وسدنة المعابد، وكان لرئيس المحكمة سيحيونوف، خمسة وعشرين عاماً (لكنه كما يقال - جباراً)!

أما المدعي العام الأول - عضو لجنة نقابة المحامين ب. أ. كراستكوف - أحمر لامع من أتراب لينين في المهجر، وأكثر ما أحب إيلتش فيه، براعته في العزف على الكمان.

غص شارع نيفسكي، والجادات المتفرعة عنه بالحشود الكثيرة، لم يعهد مثلها من قبل، وما أن اقتادوا الميتروبوليت، حتى ركع الغالبية منهم، وهم يصرخون «خلص عبادك يا رب»!، (أمر عادي، أن يكون الناس ملء الشارع - لكنه من غير العادي، أن تمتلئ دار المحكمة بالناس، وأن يتم على الفور اعتقال المؤمنين المتحمسين منهم). كانت غالبية الحضور في القاعة من الجيش الأحمر، ومع هذا كانوا يقفون في كل الممرات، عند دخول الميتروبوليت إلى قاعة المحكمة بطيبة خاطر، بينما المدعي يطلق عليه تسمية عدو الشعب.

كان جو المحكمة يزداد توتراً كلما انعقدت المحكمة، ولوحظ ضيق حالة المحامين فيها، دون أن ينوه كريلنكو لنا عن هذا شيئاً، لولا وجود شاهد نقل لنا ما كان يجري، ألا وهو (ليزج) كبير المحامين نفسه - ارتعدت القاعة بتهديدات القضاة - على الرغم من أن هذا كان في زمن، ما زالت فيه بقية باقية من الأخلاق، وتتالت الوقائع، ويتعجل بويرشيف بوسكين في إعطاء الساعة الذهبية إلى المحامي كوزفيش، مع دفتر مذكراته...

... وقررت المحكمة وضع الشاهد البروفسور يغوروف تحت الحراسة، بسبب انحيازه للميتروبوليت، واتضح أنه كان جاهزاً لمثل هذا التصرف المتوقع، إذ كانت في يده حقيبة كبيرة فيها الطعام، والمفارش وحتى البطانية.

يلاحظ القارئ كيف أن المحكمة تتحول تدريجياً لتلك الحالات، التي كنا قد عرفناها.

اتهم الميتروبوليت بنيامين، في أنه وافق السلطة السوفييتية عن سوء نية ليحصل بذلك على تخفيف حدة الرسوم بمصادرة كنوز الكنيسة، وإن كل ما قاله للجنة مساعدة الجائعين، وكل ما نشر في أوساط الشعب، ما هو إلا سوء قصد منه (نشر كل ذلك مطبوعاً)، وقام بالإضافة إلى هذا بتنسيق نشاطه مع الدوائر البرجوازية.

الآخر هو القسيس كراسنيتليسكي، الذي كان واحداً من نشطاء الكنيسة، وعميلاً للإدارة السياسية الحكومية، وشهد بأن القسيسون اتفقوا فيما بينهم على أن يثيروا على أرضية المجاعة، الثورة ضد السلطة السوفييتية.

تم سماع شهود الادّعاء، ولم يسمح لشهود المحامين بالكلام وتقديم الأدلة (أجل... كل الأمور إلى الأسوأ... إنما... أكثر... وأكثر)...

طلب المدعي سميرنوف (ستة عشر رأساً) وصنف المدعي كراسينكوف: «كل عمال الكنيسة الأرثوذكسية - ما هم إلا تنظيم معاد للثورة، مما يستدعي زجهم في السجن»!

(كانت البرامج واقعية جداً، ونجحت تقريباً، كقاعدة جيدة، من أجل فتح الحوار بين الشيوعيين، والمسيحيين).

وسنورد للتذكير ليس إلا بعض الجمل المحفوظة في ذاكرة المحامي (س ياغورافيتش) المدافع عن الميتروبوليت: «برأي لا تتوفر الأدلة، والإثباتات لوقوع الذنب، ولا حتى عناصر حدوثه من الأساس، وبالتالي لا تهمة، ولا اتهام.... ماذا سيقول التاريخ؟ - (آخ... لقد روعنا..... التاريخ! سينسى، ولن يقول شيئاً)! ولقد سارت عملية مصادرة الكنوز في بيتروغراد وبهدوء مطلق، ومع ذلك يقف الروحيون البيتروغراديون - في قفص الاتهام، ولمن تلك الأيدي، التي تدفعهم إلى الموت، لا شك بأنها أيدي المبادئ، التي نوهتم عنها - وأيدي مصلحة

السلطة السوفييتية... لكن لا تنسوا قط، إن دماء المعذبين المراقة، تزيد الكنيسة نمواً - (إنما لم ينمُ شيء عندنا) - ولا كلام، أكثر من هذا الكلام، مع ذلك يصعب الافتراق مع الكلمة، فلطالما كان الجدال مستمراً، فلا بد أن يكون المتهمون أحياء، وما أن ينتهي الجدل حتى تنتهي حيواتهم)...

حكمت المحكمة بالموت على عشرة منهم، وانتظروا موتهم هذا طويلاً، استمر لمدة شهر كامل، ريثما انتهت عملية الآيسيريين (ماذا لو أنهم أعدموا مع الآيسيريين)، وتلقى فيما بعد ستة منهم العفو من اللجنة المركزية، ونفذ حكم الإعدام على الأربعة الباقين، وهم «الميتروبوليت بنيامين، والأرشمندريت سيرغي، والعضوان السابقان في مجلس الدوما الحكومية، البروفسور الحقوقي بو. ب. نوفتسكي، والوكيل المحلف كوفشاروف».

لشد ما أرجو القارئ ألا ينسى! عن مبدأ التعددية المهنية، ففي الزمن الذي جرت فيه هاتان العمليتان الكنسيتان، كانت تجري اثنتان وعشرون عملية.

لقد تعجلوا جداً في إصدار «التشريعات» القانون الجنائي، قبيل عملية محاكمة الآيسيريين، وها قد حان الوقت) ليصعقوا القاعدة الصلبة للقانون، وانعقد كما كان متفقاً مؤتمر اللجنة المركزية التنفيذية العليا في ١٢ أيار دون أن يفلحوا بعد في إنهاء دراسة مشروع القانون - وعلى الرغم من ذلك تحول القانون المذكور إلى أدراج مكتبة فلاديمير إيليتش للدراسة، وكانت ست عشرة مادة منه، قد حددت مسبقاً الحدود القصوى لتنفيذ حكم الإعدام، وهذا ما لم يرضِ لينين، وفي الخامس عشر من أيار أضاف إيليتش على حاشية القانون التشريعي ست مواد أيضاً، والتي بموجبها ينفذ الإعدام الضروري. (كانت منها المادة ٩-٦٥

التي تتناول الدعاية والإعلام، وبشكل خاص - الدعوة إلى النشاط السلبي لمعاداة الثورة (الدولة)، أو العودة إلى عدم تنفيذ الواجبات، والفرائض العسكرية، والضريبية[1]). وينفذ الإعدام كذلك على: العائدين من وراء الحدود، دون إذن مسبق (لكن كيف عاد الاشتراكيون، لا بد من أنهم ارتكبوا المخالفة القانونية مسبقاً، وأضيفت أيضاً عقوبة أخرى تعادل الإعدام: وهي الإبعاد خارج الحدود (لقد تنبأ فلاديمير إيلتش لينين، إنه في الوقت القريب لن تكون إعادة الناس المندفعين إلينا من أوروبا، لكنه منع منعاً باتاً، كل من حاول منا، أن يرحل إلى الغرب، أو حتى توجيه الدعوة إلينا، أو الحث على ذلك طوعاً). إن الاستنتاج الرئيس لإيلتش، حسبما بينه لأعضاء اللجنة الوطنية عن العدل: أيها الرفيق تورسكي، اعتقد بأنه يجب وعلى كافة أصعدة النشاطات البلشفية... إيجاد صفة تحدد النشاط والاتصال مع البرجوازية العالمية.

توسيع قاعدة استخدام الإعدام - وأي شيء غير مفهوم في هذا؟ (ترى، هل أبعد الكثير خارج الحدود) - الإرهاب، هو وسيلة الاقناع، واعتقد، أن هذا الموضوع واضح جداً!.

لكن تورسكي، لم يستطع استيعاب كل شيء قيل حول هذا الموضوع وربما لم تكفه قواه لهذا الاستيعاب، فكيف يجب، أن تتم هذه الصياغة؟ وكيف يجب أن تربط الحبكة؟، وفي اليوم الثاني ذهب إلى أمين اللجنة الوطنية الاشتراكية للاستيضاح: لم نستطع أن نعرف كنه، ما قلتموه في الجلسة، وفي وقت لاحق (١٧ أيار) أرسل لينين من مكتبه الرسالة التالية:

١- هذا يعني، مثلاً، القيام بتوجيه منشور انتخابي - كانت المحكمة القيصرية قد حكمت عليه بثلاثة أشهر في السجن.

«الرفيق تورسكي! لاحقاً لجلستنا، أرسل إليكم ملحقاً تمهيدياً، لمشروع القانون الجنائي.

... أرجو أن تكون الفكرة الرئيسية واضحةً، بغض النظر عن النواقص في المسودة: يجب أن تكون ذات صيغة سياسية عادلة (ليس فقط بل شاملة للحقوقية الطبقية) ويجب أن تكون معللة للمحكمة، مبررة للإرهاب، وضرورته، وحدوده، وعلى المحكمة، ألا تستعيد الإرهاب، وإن التعهد بهذا لهو ضرب من الكذب على الذات، إن لم يكن الكذب بعينه، إنما يجب تأسيسه وقوننته مبدئياً، بحيث يكون واضحاً دون افتراء، وتدبيج، ويجب صياغته بحيث يكون شاملاً واسعاً ما دام الوعي الحقوقي، والضمير الثوري هو من يضع شروط استخدامه في القضايا بشكل أكثر، أو أقل اتساعاً.

مع التحيات الشيوعية.

لن نعمد إلى التعليق على هذه الوثيقة المهمة، ويكفي أن نتمعن فيها بشكل عقلاني هادئ.

تتحصر أهمية الوثيقة في أنها من الوثائق الأخيرة للتدبير الدنيوي للينين، قبل أن يلم به المرض، وأهم ما فيها الجانب السياسي، وخلال تسعة أيام بعد هذه الرسالة، أصابته الضربة الأولى، التي تعافى منها بشكل جزئي ولوقتٍ قصير استمر حتى ربيع عام ١٩٢٢، وقد يكون قد كتب هاتين الرسالتين من مخدعه المكتبي المرمري الأبيض، الواقع في زاوية الطابق الثاني، حيث وقفت بندقية الموت المستقبلي للزعيم، منتظرة.

تموضع فيما بعد، محتوى فقرتين من المسودة الإضافية تلك، وولدت منها بعد عدة أعوام، الفقرة الرابعة من المادة الثامنة والخمسين، ونقرأ الآن أمنا المادة الثامنة والخمسين دون استثناء ونشرئب إشراقاً. هذا هو ما تعنيه الصياغة، التي يجب أن تكون، كيفما أمكن أكثر سعةً! هذا ما يعنيه -

الاستخدام الأكثر شمولية!!، نقرأ ونتذكر كيف يجب أن تكون أكفاننا أكثر اتساعاً...

«الدعاية أو الترويج، أو المشاركة في التنظيمات، أو التعاون (موضوعية التعاون) وأهلية المعاونة مع التنظيمات، أو الشخصيات في النشاطات التي لها طابع»...

هيا أعطوني... هذا البلاجيني أفغوستين... وسأدخله على الفور تحت كل شيء كان كما يجب، متدرجاً، مطبوعاً، والإعدام موسعاً - وعند انعقاد جلسه اللجنة المركزية التنفيذية العليا في العشرين من شهر أيار، طرح القانون، ووافقت وأقرت، على أن يباشر العمل بموجب هذا التشريع في الأول من حزيران عام ١٩٢٢.

وبدأت الآن، وعلى أرضية أكثر قوننة الدورة الاثني شهرية. عملية الآيسروف (٨ حزيران - ٧ آب عام ١٩٢٢) المحكمة العليا الرئيس الاعتباري الرفيق كاركلين (كنيته مناسبة هذه المحكمة). ونظراً لما لهذه العملية من أهمية، تم استبدال محامي الدفاع غيوركي ببياتكوف.

لو لم نكن نحن والقارئ، قد طرقنا كالنعوة بما فيه الكفاية، وعرفنا أن الشيء الرئيس في كل العمليات المحكمية، ليس ما يعرف «بالذنب» هو الأساس بل - الملاءمة لكنا فتحنا أوراقنا بسرعة، وقبلنا هذه العملية، إلا إن الملاءمة تعمل دون حساب، فالآيسيريون تميزوا عن المناشفة - بأنهم اعتبروا خطرين، بسبب عدم إذابتهم، ولم يأخذوا منهم المنال - وما أن تم تثبيت أقدام الدكتاتورية البروليتارية الجديدة المحدثة) حتى كان من الملائم، أن تستكمل عملية حتفهم حتى النهاية، ولولا معرفة هذا المبدأ، لكان يمكن فهم هذه العملية بشكل خاطئ، أي على أساس الانتقام الحزبي.

ما أن نتمعن في تقارير الاتهام الموجهة من قبل المحكمة، حتى يثقلنا دون إرادة تصور هذا التاريخ المديد لهذه الدولة، ولعشرات الدول المثيلة - التي تتكون - عدا الدول ذات الأنظمة الديمقراطية البرلمانية - نتيجة سلسلة من الانقلابات للسيطرة على السلطة والحكم، وقد ثبت إن أول من يفلح بتحقيق الانقلاب، يتلفع منذ اللحظات الأولى بثياب الحرية، والرأفة والعدالة، والإنصاف، وتصبح كل خطوة سالفة أو مستقبلية - مدروسة، ومشيدة بالقصائد، والمديح، وفي الوقت ذاته قد تصبح الخطوات اللاحقة فاشلة بسبب كثرة الأعداء - وعندها تتأتى ضرورة المبادأة بالمحكمة، وتنفيذ الإعدام القضائي.

لم ينتقضِ أسبوع واحد على اعتماد القانون الجنائي - الذي مضى على تعزيزه وتوطيده خمس سنوات، ولم يطاول بعد فترة بقاء الآيسيريين، الذين كانوا قبله بعشرين، أو عشرة، أو خمسة أعوام - هؤلاء الذين ترابطوا في عملية القضاء على القيصرية - وشكلوا الحزب الثوري، الذي أخذ على عاتقه (الإرهاب)، (بسبب خصوصيته التكتيكية) الثقل الأساسي من العقوبات والأشغال الشاقة دون أن يترك تقريباً)، ما يكفي للبلاشفة.

أما الآن... أول اتهام لهم: الآيسيريون أصحاب مبادرة الحرب الأهلية! نعم هم من بدأها!، اتهموا في مقاومتهم المسلحة للانقلاب الأكتوبري، عندما ساندوا الحكومة المؤقتة، وشاركوا في تشكيلها، إلا إن كنسها بنيران رشاشات البحارة كان قانونياً (المقصود قيام ثورة أكتوبر بقوة السلاح) - الآيسيريون حاولوا بشكل لا قانوني مطلق، الدفاع عنها (قضية أخرى) - حاولوا إنما بخمول مطلق، لكنهم في ذات الوقت راوحوا مكانهم، وفي الوقت نفسه تبرؤوا، لكن ذنبهم لا يقل عن ذلك) حتى أنهم ردوا على النار بالنار، واستنهضوا طلاب الكليات العسكرية، الذين بقوا لدى الحكومة المؤقتة البائدة يؤدون خدمتهم عندها.

لم ينـدموا علـى مـا قـاموا بـه مـن صـراعات مـسلحة، أو تـصرفات سياسية، ولم يجثوا أمام مجلس اللجنة الوطنية، التي أطلقت على نفسها الحكومة، واستمروا في صمودهم، وعنادهم بالوقوف إلى جانب الحكومة المؤقتة الشرعية، ولم يقروا بإخفاق خطهم السياسي ذي العشرين عاماً (على الرغم من أنهم تبيّنوا ضعفه أكثر من مرة) ولم يطلبوا الصفح، ويتنازلوا عن الصفة الحزبية. (وعلى هذه الأسس غير القانونية، أعلنت تنظيماتهم المحليـة، والإقليميـة عـن تـشكيل حكومـات - مـن أرخـا - نغلـسيك، وساماراسـكي، وامنحوسـكي، وأواومـسكي، وكرانيـسكي، دونـسكي، كوبانـسكي، وأورالـسكي، وزاكافكاسـكي (وراء القوفاز)، على إثر إعلان المركز عن نفسه، بأنه يمثل مجلس اللجنة الوطنية الخاصة بالحزب).

أما الاتهام الثاني: إنهم أوغلوا أنفسهم بالضلوع في الحرب الأهلية، إذ قاموا في الخامس والسادس من كانون الأول عام ١٩١٩ بالتظاهر وأعلنوا تمردهم ضد السلطة الشرعية حكومة العمال والفلاحين، واستمروا في مساندتهم غير القانونية (للانتخابات العامة بواسطة الاقتراع السري الحر والتصويت المباشر) للاجتماعات الدورية ضد الجنود البحارة، والغفارديين الحمـر عنـد بدايـة الحـرب الأهليـة، ولم يقـم الـسكان بالوقـت نفـسه، بالانصياع والامتثال لبيان مجلس اللجنة الوطنية الشعبية.

الاتهـام الثالـث: لم يعترفـوا باتفاقيـة بريـست للـسلام - الـسلام البريستي الذي يعتبر قانونياً، منفذاً، ولم يطح برأس روسيا، بل اقتطع جزءاً من جسمها ولهذا السبب نفسه حدد الاتهام الوجاهي الإضافي «إنها مؤشرات خيانة الدولة، وأعمال إجرامية موجهة لجر البلاد إلى الحرب ثانية».

خيانة الدولة! - إنها كالبلبل، كيفما قذفته يدور.

نبعت أسس الاتهام الرابع الثقيل: في صيف عام ١٩١٨، بينما واصلت ألمانيا بعد لأي الوقوف ضد الحلفاء في الأشهر والأسابيع الأخيرة، وكانت الحكومة السوفييتية ملتزمةً بالاتفاق البريستي، تواصل وتدعم ألمانيا شهرياً في صراعها المرير، بالقطارات المحملة بالمواد «الغذائية» والدفعات الشهرية من الذهب - حضّر الآيسيريون الخونة، مؤامرتهم (إنهم لم يحضروا، لكنهم تدارسوا طريقتهم النمطية... ماذا لو أن)... لتفجير السكك أما القطارات، والسيطرة على الذهب. ملك الشعب - أي أنهم «حضروا للتخريب الإجرامي الوطني - الخطوط الحديدية». (في الوقت الذي لم يخجلوا فيه، ولم يخفوا ما قاموا به، من نقل الذهب الروسي إلى الإمبراطورية الثورية الألمانية المستقبلية، دون أن يرف للرفيق كريلنكو جفن «لا يثير هذا في نفس الرفيق كريلنكو، ولا في شهادتيه العاليتين في التاريخ والحقوق، أي شيء، ولم يستطع حتى أحدٌ من مساعديه، أن يهمس، حتى ولو كانت هذه السكك الحديدية - هي منجزات الشعب، بأن ذلك الانصباب الذهبي... لهو أغلى على الشعب من الحديد)؟...

جر الاتهام الرابع خلفه الاتهام الخامس: لقد حاول الآيسيريون الحصول على الوسائط الفنية للتفجير، بواسطة الأموال، التي تلقوها من ممثلي الحلفاء (كي لا يعطى الذهب لفيل غيلمور، أرادوا أخذ الأموال من دول الائتلاف) - وهذه هي الحدود القصوى للخيانة! (في كل الحالات دمدم كريلنكو بأن الآيسيريين كانوا على علاقة مع أركان ليودنيدروف على الرغم من رمي الحجر، إلا أنه ليس في ذلك البستان، إنما المهم أن يرمي الحجر وكفى.

من هذه النقطة، حيث انتهيا، لم يعد الاتهام السادس مهماً كثيراً: فالآيسيريون كانوا في عام ١٩١٨ جواسيسَ لدول الائتلاف!، وبالأمس كانوا ثوريين - واليوم جواسيس! - كان وقع مثل هذا القول في ذلك

الوقت، كما وقع الانفجار.... وهكذا طال الضرب كافة الأسنان في الخطم من شدة، وكثرة العمليات القضائية.

الاتهام السابع، ... والعاشر - هو التعاون مع سافينكوف، ومع فيلينكو، ومع الكاديت... أو مع اتحاد البعث».... أو حتى مع البطانة البيضاء، أو مع الغفارديين البيض...

هكذا تطاولت سلسلة ممثل الادّعاء (الذي عادت له كنيته في هذه العمليات) وكان يجد دائماً المذكرة الاتهامية الرفاقية، أينما كان سواءً في المكتب أو أثناء انعقاد الجلسات، أو في أيّ لحظة إشراق، أو من خلف قوس المحكمة، وكانت كلها، تحمل في طياتها المعاني القلبية المؤلمة، وتنتزع الإقناع بهذه العمليات، التي تلت عام ١٩٢٧، حتى الثمالة، وتحرز النجاح المنقطع النظير... مذكرة الادّعاء هذه - أحدثت التوحد ما بين الحاكم والمحكوم - ضد العالم الآخر بمجمله، وعزفت ألحانها على أحب الأوتار للمتهمين: ومن على منصة المحكمة، خاطب الآيسيريين قائلاً: ألم نكن وإياكم ثوريين (أنتم ونحن - يعني نحن)! فكيف استطعتم الانحدار لتتحدروا مع الكاديين؟ ومع الضباط (لا بد أن قلبكم ينفطر لهذا)... كيف استطعتم أن تعلّموا بطانتكم البيضاء، تلك القواعد الفنية الرائعة للحفاظ على الأساليب السرية؟! (هذا هو - الطبع الخاص للانقلاب الأكتوبري! إعلان الحرب ضد كافة الأحزاب مباشرة، ومنعهم في الوقت نفسه من الاتحاد فيما بينهم: (عندما لا يتاح لهم اختطافك - لن يدعك حلفاؤك لمصيرك هذا)، أما المتهمون، كادت أن تنفطر قلوبهم: كيف استطاعوا الانحدار لمثل هذا الدرك؟ أفلا يؤثر هذا الحنان، وهذا الحنو الادعائي، وهذه القاعة المضاءة - لتصمّ ذلك الحبيس الأتي من الحجرات المظلمة.

يستطيع كريلنكو أن يجد أيضاً سبيلاً منطقياً آخر (يتطابق مع تلك الحجة المنطقية، الفينشينسكية، ضد كامييف، وبوخارين): بدخولكم

التحـالف مـع البرجوازيـة، قبـضتم المـساعدة الماليـة منهـا، وأول مـا كانـت لصالح العمل، ولم تكن على الإطلاق لمرامٍ، وأهـداف حزبية - لكـن أين هي الحدود؟ ومن ذا الذي يستطيع فعلها؟ فالعمـل كمـا تعلمـون - هـو أيضاً هدف ومرمـى حزبـي؟ وبهـذا تـدهورتم: أنـتم وحـزب الاشـتراكيين الثـوريين، واحتوتكما البرجوازية؟! فأين عظمتكم الثورية بعد كل هذا؟

لقد قطع الاتهام شوطاً كبيراً في التقدم، وزاد عـن المطلوب - ولم يبـق للمحكمة إلا أن تخرج للتداول، وتؤلف لكل واحد منهم - الإعدام المناسـب - لكن التشويش، والبلبلة أعاقا الموضوع:

- إن كـل مـا كـان مـن ذنـب لحـزب الآيسيريين الآن - يعـود إلى عـامي ١٩١٧-١٩١٨.

- لقـد قـرر مجلـس الآيـسيريين في شـباط عـام ١٩١٩، وقـف كافـة أشكال الصراع ضد السلطة البلشفية (هل نـاء تحـت ثقـل الـصراع؟. أم تـراه تأثر بالوجدان الاشتراكي)؟ وفي السابع عشر من شباط عام ١٩١٩، أعلنـت الحكومة البلشفية، العفـو العـام عـن كـل مـا فعلـه الآيسيريون في الـسابق، وخرج الحزب إلى العلن، بعدما كان يعمل في الخفاء - وخلال أسبوعين مـن تاريخــه، بــدأت الاعتقــالات الجماعيــة، وزجــوا بقيادتــه (هكــذا - هــي طريقتنا)! ومنذ ذلك الوقت لم يناضلوا بإرادتهم - بل إنهم أكثـر مـن ذلـك، لم يـستطيعوا النـضال، مــن حيــث هــم قـابعون في الـسجن (قبعـت اللجنـة المركزيـة لهـذا الحـزب في سـجن بوتيركـا، ولـسبب مـا لم يهربـوا، كمـا كانوا يفعلون في زمن القيصرية) - ولم يحققوا شيئاً بعد صدور العفو، حتى قدوم عام ١٩٢٢.

وكيف لهم الخروج من هذه الحالة؟

علـى الـرغم مـن عـدم ممارسـتهم النـضال - اعترفـوا بـسلطة المجـالس السوفييتية! (أي أنهم تـازلوا مؤقتـاً، كمـا آمنـوا في الماضـي، وهـا هـم الآن

يتنازلون دورياً، وبقي لهم فقط المطالبة بإعادة انتخاب هذه المجالس مع السماح بحرية الدعاية الحزبية لها. (حتى أن المتهم ويليمان عضو اللجنة المركزية، قال أثناء المحاكمة: «امنحونا الإمكانية، لأن نستثمر إحساسنا، بما ما يعرف بالحرية الشخصية - وعندها لن نعمد إلى مخالفة القوانين»!.

امنحوهم... ولو كان (الإحساس كله» - أتسمعون؟ كيف يغرد البرجوازي الوحشي العدائي زئيراً!... لكن لا يمكن فعل أي شيء آخر؟.. فاللخطة كما ترون جدية! خاصة وإننا مطوقون بالإعدام من الجهات كلها! (وسيكون كذلك خلال العشرين، والخمسين، وحتى المئة عام القادمة). ومع كل هذا تريدون النشاط الدعائي الحر للحزب! يا لكم من أطفال سذج؟!.

إن رجال السياسة حاضرو الذهن، كما يقول كريلنكو، وربما كان عليهم الرد على هذا بالضحك، أو بهز الأكتاف، أو صرها... وعندها قد يقرر الأمر بشكل عادل «يجب، ودونما إبطاء، اتخاذ كافة التدابير، والفعاليات الحكومية لحرمان هذه المجموعات من إمكانية النشاط ضد السلطة.

وهكذا زجوا بكافة أعضاء اللجنة المركزية (من استطاعوا الإمساك به) في السجن.

لكن... بأيّ تهمة نتهمهم؟ «فمرحلتنا لا تسمح ولا بشكل من الأشكال !ستخدام متابعة المحاكم التحقيقية» - تذمر مدعينا العام...

نقول بالمناسبة: إن اتهاماً واحداً فقط، كان صحيحاً، ففي شهر شباط ذاته من عام ١٩١٩، أصدر الآيسيريون بياناً (دون أن يطبقوه عملياً - وهذا على حد سواء، لأن التشريع الجنائي يساوي بين الإعلان، والفعل)، جاء فيه: يجب العمل على نشر الدعاية في أوساط الجيش الأحمر كي

لا يشارك الجنود الحمر في الحملة التأديبية ضد الفلاحين، ولقد كان مثل هذا العمل بحد ذاته خيانة غادرة للثورة! - الثني عن المشاركة في الحملة التأديبية، إضافة إلى أنهم كانوا من الممكن، أن يتهموا بكل شيء قاله، وكتبه، وفعله (الأغلب ما كتبه، وما قاله) الموفد الآيسيري، الذي أطلق عليه (الوفد الخارجي للجنة المركزية). المؤلف من الآيسيريين الأساسيين الذين نقلوا خطوتهم نحو أوروبا.

إلا أن كل ذلك كان قليلاً بالنسبة لذلك الابتكار: «كثير من هؤلاء المتهمين الجالسين على مقاعد الاتهام، لم يخضعوا لصيغة هذا الاتهام الموجه في عمليات المحاكمة هذه، لو أنهم لم يخضعوا للتهمة في تنظيم فعاليات الأعمال «الإرهابية»... لكن جاء الوقت، وصدر العفو عام ١٩١٩ (ولم يكن أي عضو من شخصيات الدولة السوفييتية على قناعة بأن الآيسيريين قاموا بتنظيم عمليات الإرهاب ضد أعضاء الحكومة السوفييتية! (إلا أنه، من ذا الذي يستطيع أن يدخل في رأسه من حيث الواقع، إن الآيسيريين أصبحوا فجأة إرهابيين؟... عد إلى صوابك وقل - لقد اقتضت الظروف، أن يصدر العفو بسبب واحد، ألا وهو الخطر الذي لم يكن في حسبان أحد، عدا عن اقتضاء الضرورة نفسها - التي أصبحت من الماضي). لكن العفو لم يشمل هذه التهمة الموجهة (بل شملت تهمة الفرع فقط) - لذا رأينا كريلنكو يعلن: قبل كل شيء: عما قاله زعماء الآيسيريين (وهل ترك هؤلاء طليقو اللسان شيئاً في الحياة لم يتقولوا به)!... حتى في تلك الأيام الأولى للانقلاب الأكتوبري؟ قالوا وعلى لسان زعيمهم إبرام غوتس: «إذا ما اعتدى، أو تطاول الحكام المستبدون، على الاجتماعات الدورية للحزب... فإنه لا بد للآيسيريين، من أن يتذكروا تجربتهم التكتيكية السابقة».

يتذكر كريلنكو، أن الإثباتات والأدلة، ستكون قليلة عند إجراء عمليات التحقيق، بسبب مراعاة القواعد السرية «الأمر الذي يضاعف الصعوبة في تنفيذ مهمتي.... ويتطلب الأمر في هذه الحال، التسكع في بعض الدياجير، ولو لبعض الوقت».

تعقدت مهمة كريلنكو، بخاصة، وأن موضوع الإرهاب ضد السلطة السوفييتية، كان قد نوقش ثلاث مرات متتالية في اجتماعات اللجنة المركزية للآيسيريين عام ١٩١٨، ورفضت هذه الفكرة ثلاث مرات (بغض النظر عن تشتيت هذه الاجتماعات الدورية). وصار من الضروري الآن، وبعد مرور عدة سنين، إثبات بأن الآيسيريين قد قاموا فعلاً بالإرهاب. حيث إن الآيسيريين كانوا قد قرروا - إذ ذاك قبل أن يعمد البلاشفة، الانتقال إلى إعدام الاشتراكيين - بأنهم لن يلجؤوا إلى حمل السلاح، إلا إذا اعتدى البلاشفة على حياة السجناء الآيسيريين. (أما السجناء الآخرون... دعهم... ينفذون القتل عليهم)...، وهكذا نرى بأن هذا القرار ترافق عام ١٩٢٠ بالاشتراط!! حيث إنهم لم يمتنعوا بشكل مطلق عن استخدام الإرهاب «وإلا لماذا لم يتم الإعلان الصريح، الذي يحمل طبيعة الشجب المطلق»؟.

ثمة وضوح عام ورد من خلال كلمة الادّعاء المقدم من قبل كريلنكو، الذي قال: إن الحزب لم يقم بأعمال إرهابية، لكن العوامل تتواتر، وتتداخل: لقد كان في ذهن أحد المتهمين خطة لتفجير قطار اللجنة الوطنية السوفييتية عند وصوله إلى موسكو - هذا يعني بأن اللجنة المركزية (الآيسيرية) مدانة بالإرهاب. أما منفذه العملية إيفانوفا، كانت قد ناوبت طوال الليل لوحدها بالقرب من المحطة مع تناول كأس من البيركسيلين - الأمر الذي يعني تنفيذ عملية الاعتداء على القطار الذي كان يقل تروتسكي، وبالتالي يعني أن اللجنة المركزية حتى التي تتحمل وزر الإدانة بالإرهاب. أو ربما كان على عضو اللجنة المركزية دنسكي،

أن يقوم بتحذير كابلان بفصلها من الحزب، فيما لو قامت بإطلاق النار على لينين، إن هذا - لقليل! لماذا - لم يقوموا بمنعها نهائياً؟ (أو: لماذا لم يقوموا بإبلاغ الجهاز الأمني الطوارئي عنها)؟ وعندها ستقوم كابلان بإلصاق كل شيء بهم: ألم تكن آيسيرية؟.

قام كريلنكو على الفور، بنتف الديك الميت، إذ قال: إن الآيسيريين، لم يتخذوا التدابير، لإيقاف فعل الإرهاب الفردي لمحاربيهم المتذمرين العاطلين (نعم.... أقليل ما فعله هؤلاء المحاربون، لقد قام سيميون بتوجيه يد سيرغييف لقتل فولادارسكي - لكن اللجنة المركزية، بقيت في أعين البلاشفة حيادية نظيفة، إلا إنه فيما بعد قام سيميون نفسه، هو وصديقته كونابليوفا بدور مشبوه، وتقوم المحكمة في هذه الحالة بالتحفظ على هذين المحاربين السابقين، وتمسك بهما دورياً بين جلسات المحاكمة ليعودا فيما بعد إلى بيتهما للنوم).

يوضح كريلنكو أحد الشواهد قائلاً: «لو أراد الإنسان التلفيق عموماً وهيهات أن يتاح له القيام بذلك، بحيث يؤدي تلفيقه هذا إلى إصابة النقطة المطلوبة ذاتها مصادفة»، (يا لها من بلاغة متينة لدرجة تمكننا من القول: إن كافة الإثباتات، والأدلة كانت ملفقة). أما القول عن كونابليوفا يختلف، إن لم يكن عكس ما سمعناه: إن الثقة بأدلتها تتحصر في أنها لا تثبت كل شيء، إنما تكتفي فقط، بما يلزم الادّعاء، كي يتمكن، من توجيه التهمة (أي بما يكفي لتنفيذ حكم الإعدام عن المتهمين). «لو أننا طرحنا المسألة بوجه آخر... بأن ما تقوم به كونابليوفا يخالف كل هذا... لاتضح: بأنها تلفق كما يتطلب التلفيق ليس إلا». (هذا ما يعرفه هو»!! - أما هي فلا لزوم لأن تعرف كل شيء حتى النهاية. أما لو كان الأمر كذلك «فهل يمكن... أن يحدث مثل هذا اللقاء؟، إن هذه الإمكانية ليست مستبعدة»... أجل ليست مستبعدة؟ - هذا يعني إنها كانت - هي من يدحرجني، ويمرغني!.

بعد ذلك جاء دور «مجموعة التفجير»، وقد مضى عليها زمن طويل في الطيران، وفجأة «تفتحت بسبب البطالة»!... لذا ما عليكم إلاّ أن تسدوا أذانكم؟! لقد حدث وضبطت عدة حالات لسرقة الأموال من بعض المؤسسات السوفييتية (إذاً فلنتحول إلى الآيسيريين. أليس هم من كان يقوم باستئجار الشقق، والتنقل من مدينة إلى مدينة!، بيد إن مثل هذا التصرف كان في السابق، تصرفاً خيراً، ولبقاً، كما عبر عنه الثوريون في ذلك الوقت، أما الآن صار يحال من يقوم بهذا التصرف إلى المحاكم السوفييتية؟

- «النهب والتكتم على السرقات».

استضاءت مواد العملية بضوء مصباح خافتٍ أصفر داكن لقانون غير موثوق، متأرجح، محبوك بثرثرات حماسية عجت بها مرحلة تاريخية أعقبت الثورة. وقام بها الحزب وقد عانى في جوهره من الترهل والضياع، والخمول، وأصبح غير مؤهل للوقوف ضد البلاشفة.

وليعزى إليه الآن وزر - كل فعل وكل قرار وإقرار، وكل أرجحة، وكل نزوة أو تراجع، الوزر تلو الوزر.

فإذا كان عضو اللجنة المركزية المعتقل في سجن بوتيركا قد كتب عام ١٩٢١، أي قبل عشرة أشهر من تنفيذ عملية محاكمة الآيسيريين: بأنه لم يكن موافقاً على التفويض الكامل لسلطة البلاشفة الديكتاتورية، فإذا ما تم ذلك، فإنما يجب أن يكون عن طريق تكاتف الطبقة العاملة، ومن خلال سبل الدعاية والإعلام (الأمر الذي يعني، بأنه يجلس في السجن وهو غير موافق على فك قيوده، لا بواسطة الإرهاب، ولا بالمؤامرات ولا بالانتفاضات المسلحة)! وهذا ما يعيدهم إلى التهمة الأولى! أي نعم: موافقون على التفويض!!

لكن ولو افترضنا، بأن لا ذنب لهم في التفويض، ولا ذنب لهم في الإرهاب، ولا دور لهم في سحب الأموال تقريباً، فعند ذلك يجب أن يكونوا

مطلقـي الـسراح منـذ زمـن بعيـد، إلا أن الادّعـاء العـام الحبيـب، يـستجمع احتياطيـاً محببـاً باسـتمرار: «في أقـصى الحـالات، يعتـبر الإبـلاغ، عـن قـوام الجريمـة، الـتي لا بـد مـن أن يكـون للمـتهم دور فيهـا ولـو بـشكل مـن الأشكال: ويجب عندها أن يدان ذلك المتهم».

وهكـذا كـان، لقـد انحـصر اتهـام الآيسيريين في أنهـم لم يبلغـوا عـن أنفـسهم! أجـل هكـذا دون زلات أو هفـوات! هـذه - هـي فكـرة الكـشف الحقـوقي في التـشريع، الـذي يعتبر - طريقـاً مرصـوفاً إلى سـيبريا، يتـدحرج عليه، أحفادنا الأعزاء.

نعـم، يطلـق كريلنكـو الرصاصـة في القلـوب بـساطةٍ مطلقـة، عنـدما يقول: «إنهم أعداء قساة بدائيون» - هؤلاء هم المتهمون! فلمَ إجراء المحاكمة، بعد كل هذا، طالما أن الأمر أصبح واضحاً، وكذلك مصيرهم.

مـا زال التـشريع طازجـاً، ولم يـستطع كريلنكـو بعـد تـذكر مـواد معاداة الثورة - لكن ما أن يبدأ في تفصيل الأرقام، ويوردها بعمـق فكـري، ويغـرق في تفسيرها، ويشـرحها حتـى يبـدو الأمـر، وكـأن هـذه المـواد تشحذ نـصال المقاصـل منـذ عـشرات الـسنين، ومـن أكثـر الأشـياء خـصوصية، وأهميـة، هـو تـضافر الطـرق والوسـائل، الـتي نفـذها التـشريع القيـصري القديم، مع هذه التي نقوم بتنفيذها نحن، حتى ولـو كـان علـى النـصف مـن التهم، أو في إقرار العقوبات، ومع كل هذا، ليس لها القوة التأثيرية! فنحن لا يهمنـا موضـوع النيـة، ولا الفعـل نفـسه - فـالأمر علـى حـد سـواء!، فـإذا صادف وكان في النص شيء يؤكد ما نريد - فإننـا نحـاكم بموجبـه سـواءً «حدث هذا الفعل أم لم يحدث - فإنه لا يحمل أي معنى جوهري»، مـا دامـت الزوجة في الفـراش، فـلا يهم إن كـانوا قـد قوضـوا الـسلطة الـسوفييتية، أو قاموا بنشـر الدعاية في الانتخابات أو حتى - وإن قذفوا القنابل - فكله على حد سواء! العقوبة - واحدة لا تتغير.

فكما يقوم الرسام بالنظر إلى اللوحة المرسومة، من كافة الزوايا الضيقة، ليدقق جوانبها المختلفة حتى تبرز اللوحة المطلوبة - نقوم نحن كذلك بتفحص هذا الرسم التقريبي لوقائع عام ١٩٢٢- لنتصور بانوراما أعوام (السابع والثلاثين والخامس - والتاسع والأربعين.

هذه هي - أول تجربة لمحاكمة علنية - تقليداً لما يجري في أوروبا، وأول تجربة «للسخط الجماهيري». ولا ريب في أن من نجح ورأى هذا السخط، فلا بد أنه بالغ قمة النجاح.

هكذا بدت القضية، إمميتان اشتراكيتان، الثانية، والثانية والنصف (أممية الاتحاد الفلندي)، كانتا تراقبان على مر أربعة أعوام، وإن لم يكن بحماس مطلق، إنما بشكل هادئ رصين، مجموع ما يقوم به البلاشفة من أجل عزة ومجد الاشتراكية بالذبح والحرق، والتفريق، وإطلاق الرصاص، وكيف كانوا يخنقون بلادهم. إلا أن هذا كله كان قد فُهم من قبل الأممين، وكأنه تجربة اشتراكية جبارة، لكن ما إن حان ربيع عام ١٩٢٢، حتى أعلنت موسكو، أن سبعة وأربعين آيسيرياً يحاكمون في المحكمة العليا - وعندها عم التلف والاضطراب زعماء الاشتراكية في أوروبا.

في بداية شهر نيسان عام ١٩٢٢، اجتمع في برلين، ممثلو ثلاث أمميات (مثّل اللجنة الأممية السوفييتية بوخارين، ورادك) لتشكيل «جبهة موحدة» ضد البرجوازية، وطالب الاشتراكيون البلاشفة بالتراجع عن إجراء مثل هذه المحاكمة وكان إحداث هذه «الجبهة الموحدة» ضرورياً لمصلحة الثورة العالمية، مما أجبر وفد اللجنة الأممية الموسكوفية الالتزام، وعلى مسؤوليتهم الشخصية، بأن تكون المحاكمة علنية، ويستطيع ممثلو الأمميات حضورها وتدوين محاضرها إن شاؤوا اختزالاً، وسيتم كذلك السماح للمتهمين، بأن يختاروا محامي الدفاع عنهم. كان المهم بالنسبة

للوفد، المبادرة إلى إثبات أهلية هذه المحاكم (تعد هذه القضية بالنسبة للشيوعيين تافهة، إلا أن الاشتراكيين، وافقوا على هذا): على ألا تصدر عن هذه المحاكمة أيّ أحكام بالإعدام.

فرح قادة الاشتراكية، وقرروا أن يذهبوا إلى موسكو، بأنفسهم كمحامين عن المتهمين: أما لينين (عاش أسبوعه الأخير قبل أن يصاب بالشلل الأول، أو قُل دون أن يعلم ما سيصيبه) دعا في صحيفة البرافدا/ وبقوة «لقد دفعنا الكثير الكثير... كيف يمكن لنا، أن نعد بأنه لن يكون أحكام بالإعدام، ونسمح لخونة الاشتراكية حضور محكمتنا؟.

سنرى في وقت لاحق، إن تروتسكي كان موافقاً على ذلك تماماً، وحتى بوخارين ندم فيما بعد على ما فعله، ونشرت صحيفة الشيوعي الألمانية «دروت فاني» مقالاً.

جاء فيه: يكون الشيوعيون أغبياءً، فيما لو اعتبروا تنفيذ هذا الالتزام ضرورياً: المسألة في أن هذه «الجبهة الموحدة» قد سقطت في ألمانيا، لذا كان من العبث، إعطاء مثل هذه الوعود، إلا أن الشيوعيين بدؤوا يدركون القوة غير المحدودة لأساليبهم التاريخية. وما أن اقترب موعد المحاكمة في أيار، كتبت صحيفة «البرافدا»، «نحن مستعدون لتنفيذ هذه الالتزامات بدقة، لكن خارج إطار عملية المحاكمة، إن هذا الإشراف كان يجب أن يكون في حال توفر تلك الشروط، التي تحمي بلادنا من التحريض التكتيكي للساخطين»، وفي شهر أيار حضر إلى موسكو الاشتراكيون المشهورون: فاندر - فيلد، روزينفيلد، تيودور ليبكنيخت (أخ كارل المقتول).

قامت المظاهرات العمالية الساخطة ضد هؤلاء الاشتراكيين، بدءاً من أول محطة قطارات حدودية، وطالب المتظاهرون، بمحاسبتهم، لما يحملونه من نوايا معادية للثورة، وعلى رأسهم فاندرفيلد - لأنه قام بتوقيع! اتفاقية

فرساي الاغتصابية؟، وإلا - سيقومون بتحطيم زجاج القطار والمباشرة في قتلهم، لكن أكثر الاستقبالات الحماسيّة كانت تلك في محطة فيندامسكي في موسكو، لقد غصت الساحة بالمتظاهرين، مع جوقات الاركسترا، والرايات، والأغاني، وكتب على لافتة كبيرة: «متى ستقف أمام المحكمة الثورية أيها السيد الوزير الملكي فاندرفيلد»؟، «كابن! كابن... أين أخوك كارل»؟ وعند خروج الأجانب، علا الصراخ والصفير والزعيق، وطوقوهم بالحلقات، وراح الكورس ينشد:

جاء... جاء فاندرفيلد

جاء إلينا جلف العالم

قد اعتدنا الترحاب

لكن نأسف يا أصحاب

للزيارة نسد الباب

في غمرة هذا الحدث، كانت المفارقة الطريفة التالية: (رأى روزينفيلد بين الصفوف بوخارين ذاته، يضع أصابعه في فيه، ويصفر جذلاً) وفي اليوم الثاني، خرجت سيارات النقل في موسكو، مدهونة تحمل سرادق الفرق الهزلية، وجرى عرض مسرحية بالقرب من نصب بوشكين، تمثل خيانة الآيسيريين وحماتهم. أما تروتسكي، والخطباء الآخرون تفرقوا في المعامل والمصانع، يلقون الخطب التحريضية المطالبة بالموت للآيسيريين، وأجروا بعد ذلك تصويتاً بين العمال الحزبيين وغير الحزبيين (لقد اكتشفت في ذلك الوقت الكثير من القدرات، حيث سيسرح غير الموافقين من العمل، في زمن لا عمل فيه، وسيحرمون من الحصص التوزيعية العمالية - عدا عما لدى الجهاز الأمني من إمكانات أخرى)، وصوتوا.... ووزعوا بعدها العرائض في المعامل، المطالبة بتنفيذ حكم الإعدام فوراً، وامتلأت الصحف بها، مذيلةً

بآلاف التواقيع (الحقيقية، إنه وجد عدد من الذين لم يوافقوا، وتبرعوا حتى بالدفاع عن المتهمين - وتعرض بعضهم للاعتقال).

بدأت المحكمة في الثامن من حزيران، وحاكموا اثنين وثلاثين شخصاً، كان بينهم اثنان وعشرون متهماً من متهمي بوتيركا، وعشرة من الغائبين، الذين دافع بوخارين عنهم، وعدد من الأمميين (قام بوخارين، وبياتكوف في هذه الكوميديا المحكمية، دون أن يحتاطا من المستقبل الآتي... وتركا المستقبل والزمن يفكران لوحدهما - ولم يدركا أن ما بقي لهما من الحياة (بما فيهم كريلنكو) خمسة عشر عاماً... لقد تصلب بياتكوف، وأعاق المتهمين، عن الإفصاح عما يريدون، وساند الاتهام لوفابشارسكي، وبوكروفسكي، وكلارا - تستيكين (ووقع محضر الاتهام زوجة كريلنكو - التي كانت في ذلك الوقت، مكلفة بالتحقيق - إنها قوى الصداقة، والعائلية).

لم يكن الحضور قليلاً، لقد تجاوز الألف والمئتين، وكان منهم اثنان وعشرون فقط من أقارب المتهمين. أما الباقون فغالبيتهم - من الشيوعيين المتزيين بالزي المخابراتي المختارين للحضور، وغالباً ما علا الصراخ من الحضور ومن المتهمين ومن المحامين، وكان المترجمون يشوهون أفكار عملية المحاكمة، ورفضت المحكمة بسخرية - كلمة الدفاع، والتماساته، ولم يسمح للشهود، والدفاع بالحضور وتم تنفيذ عملية الاختزال التدويني بشكل لا تعرف فيه الخطابات الخاصة.

أعلن بياتكوف عند أول جلسة، أن المحكمة ترفض بشكل مسبق النظر إلى القضية بشكل محايد، وتنوي الاستئناس بالتصورات الاستثنائية لمصالح السلطة السوفييتية.

وبمرور أسبوع واحد، خرج المحامون الأجانب عن طور اللياقة، وتقدموا بشكوى إلى المحكمة التي بدا أنها مخالفة للاتفاقات البرلينية - الأمر

الـذي ردت عليـه المحكمـة بـاعتزاز مـن أنهـا - تـستطيع التواصـل مـع أيّ اتفاقات.

لقـد هبطـت الـروح المعنويـة لـدى المحـامين - الاشـتراكيين، وخلـق حـضورهم في هـذه المحكمـة حالـة وهميـة، لاسـتمرار المحكمـة بـشكل عـادي، ورفـضوا الـدفاع بعـدها، وجـلّ مـا أرادوه الآن الـسفر إلى ديـارهم في أوروبـا إلا أنـه لم يـسمح لهم، وفـرض الأمـر علـى الـضيوف أن يعلنـوا إضـراباً عاماً عن الطعام! - وسمحوا لهم فقط بعد الإضراب بالسفر في التاسع عشر من حزيران. ما يؤسف له، إنهم شاركوا في أكثر المشاهد المسرحية إثارة - وتم الاحتفـال في العـشرين مـن حزيـران بالـذكرى الـسنوية لمقتـل نولودايسكي.

جمعـت الـصفوف: والقوافـل العماليـة (وأغلقـت البوابـات في بعـض المعامل، بحيث لا يتمكن العمال من الهرب، وسحبت البطاقة العمالية في بعـضها، وفي الـبعض الآخـر قـاموا بتقـديم طعـام الغـداء لهم، وكتـب علـى اللافتات، والرايات «الموت للمتهمين».

كـان مـن البـدهي أيـضاً، أن تنطلـق الـصفوف العـسكرية، وبـدأ الاحتفال في الساحة الحمراء، وألقى بياتكوف خطبته متوعداً، بإنزال أشد العقوبـات وتـلاه كريلنكـو، وكـامنييف، وبوخـارين، ورادك، وحـل نـور الخطباء الشيوعيين، وتحرك بعدها المتظاهرون إلى دار المحكمة، وأعطى بياتكوف توجيهاته، وإرشاداته بعد وصوله إلى هنـاك، بسوق المتهمين إلى النوافـذ المفتوحـة الـتي كانـت الحـشود تـصخب تحتهـا، وأوقفـوهم لكـي يتعرضوا للاهانة والسخرية الاحتقار، وسقط في هـذه اللحظات لوح خشبي على كوتس «الموت للاشتراكيين الثوريين» - وطال الوقت، ومرت الساعات الخمسة المسائية، ودجا الليل «الأبيض في موسـكو» - وأعلن بيـاتكوف في القاعـة، إن وفـداً مـن المتظـاهرين.. يطلـب الاسـتئذان بالـدخول.... ووضـح

كريلنكو: على الرغم من إن هذا لم يلحظ قانونياً، لكن... وحسب وضع السلطة السوفييتية، يمكن قبوله، واندفع الوفد إلى القاعة، وجرت على مر الساعتين خطابات السباب والشتائم، المطالبة بالموت شنقاً! أما القضاة استمعوا.... وضغطوا الكفوف على الكفوف، وشكروهم، ووعدوهم بعدم الرحمة، وبلغ الهيجان حداً، انتظر فيه المتهمون وأقاربهم، القتل فوراً دون محاكمة (كويتس هو حفيد تاجر الشاي الثري الكبير الذي اشترك بالثورة أيضاً، وكان إرهابياً موفقاً في زمن القيصر، وشارك في قتل، واغتيال - دورنوف، مينا، ريمان، أكيموف، شوفالوف، راتشكوفسكي - وعلى الرغم من كل هذه الانجازات القتالية لم يقع)! لكن حفلة الغضب الشعبي توقفت على الرغم من استمرار المحكمة بعد ذلك مدة شهر ونصف الشهر، وبعد يوم واحد خرج المحامون السوفييت من المحكمة (وانتظرهم الاعتقال والنفي).

هنا - يمكن استجلاء الكثير من الصور والتعرف عليها في المستقبل. إلا أن المتهمين لم ينصاعوا بعد ولم تتحطم كامل إرادتهم، ولم يضطروا للتكلم ضد أنفسهم، وما زالت تدعمهم التصورات التقليدية المخادعة للحزب اليساري في أنهم - المدافعون عن مصالح الطبقة العمالية، وعاد لهم بعد انقضاء السنين الطويلة من الإصلاحية، والاستسلام، الصمود المتأخر. ويقوم المتهم بيرغ بتوجيه الاتهام للبلاشفة في إطلاق النار على المتظاهرين، الذين كانوا يقومون بحراسة الاجتماع الدوري ويردف المتهم ليبروف: «أقر بذنبي في أنني لم أعمل في عام ١٩١٨ بما فيه الكفاية، لتقويض سلطة البلاشفة»، أما يغفيني باتنر، وبيرغ أضافا: كل على حدة: «اعتبر نفسي مذنباً أمام روسيا العمالية في أنني لم أستطع أن أقاوم بكل قواي ما يسمى بالسلطة العمالية - الفلاحية، إلا أنني أرجو، ألا يكون زمني قد ولى». (لقد ولى يا عزيزي، وإلى غير

رجعة)! لكن بالعودة إلى الولع بنغمة العبارات القديمة، القائلة: إنه يوجد في هذا بعض الصلابة.

يعلق المدعي العام: إن المتهمين خطيرون على روسيا السوفييتية، لأنهم يعتبرون كل ما فعلوه كان خيراً «يحتمل أن يكون بعض المتهمين، قد وجد سلوانه، في أنه قد يأتي زمن ما، ويكتب التاريخ عن تصرفهم بإطراء وتمجيد».

أما المتهم غيندلمان فقد تلا بياناً «نحن لا نعترف بمحكمتكم»...، وحاول المحامي نفسه أن يسأل رئيس المحكمة كريلنكو عن مسألة أدلة الإثبات المنتزعة، وعن «الطرق الخاصة المتبعة بالتعامل مع الشهود، قبل عملية المحكمة» - ولنقرأ وضوح المعالجة في أجهزة الإدارة السياسية. «كل شيء هنا كاف! - ولم يبق لنا، إلا القليل في انتظار التحقيقات المثالية)، وتبين: من أن التحقيقات الأولية تمت تحت إشراف المدعي العام «كريلنكو أيضاً» وعند هذا تكون قد تموضعت اللا موضوعية عملياً في الأدلة.

وماذا، لو كان هناك بعض الخشونة، بعض السلبيات، إلا أنه في النهاية «لا يطلب التحقيق منا عن مسألة الوضوح، إلا أن نقول ببرودة أعصاب تامة... ليس علينا، أن نشتغل في مسألة الكيفية التي سيقدر بها التاريخ، تلك القضايا التي قمنا بها.

ويلتف كريلنكو ثانية، ليقول - يجب أن تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة في علم القضاء السوفييتي - التي يتم فيها التذكير بالتحقيق!، أو بالتحقيق التمهيدي، الذي يسبق عملية التحقيق!... لاحظ كيف يترتب هذا الأمر الذكي عنده: ما كان لكم، لولا إشراف المدعي العام، لأن تعتبروه تحقيقاً - لكنه كان تحقيقاً تمهيدياً، وماذا تعتبرون إعادة التحقيق تحت عين المدعي العام، عندما تنحل كافة النهايات، وتشد البراغي - هذا هو ما يسمى فعلاً بالتحقيق! إن اختلاط «معطيات أجهزة التحقيق، ليست

تحقيقاً وافياً ومدققاً ويملك قدرة إثبات مستقبلية، أقل بكثير من معطيات التحقيق نفسها» عندما تستخدم ببراعة، وإتقان.

لا تدق الماء في الهاون.

نختصر القول، كان الأمر مزعجاً لكريلنكو، أن يحضر لهذه العملية مدة سنة ونصف السنة وهو يكأكئ حولها مدة شهرين، وتستمر كلمته الادعائية خمس عشرة ساعة. فما الحال، التي سيكون عليها المتهمون بعد هذا كله؟ «هؤلاء الذين لم يقعوا، ولا لمرة واحدة في يد أجهزة الطوارئ، التي كانت تملك في ذلك الوقت الصلاحية الكاملة، لكن بفضل هذه أو تلك الظروف، أفلحوا في تحقيق الهدف»، والآن لم يبقَ على كريلنكو من شغل شاغل - إلا أن يجرهم إلى الإعدام القانوني.

من الطبيعي كان «يجب أن يكون الحكم واحداً - إعدام الجميع دون استثناء» إلا أن كريلنكو، تحفظ بروح طيبة عندما قال: نظراً لما يعرفه العالم، عن هذه القضية - لا تؤخذ أقوال المدعي العام «دليلاً للمحكمة» التي كان منوطاً فيها، استقبال هذه المعلومات، إما للاطلاع، وإما للتقيد بها».

إنها لمحكمة جيدة تلك، التي يجب أن توضح لها!.

بعد طلب الادّعاء العام الحكم بالإعدام - عرض على المتهمين، أن يعلنوا الندامة، والانسحاب من الحزب... ورفض الجميع.

إذ ذاك بدت المحكمة جسارتها في إعلان الأحكام: لقد توجب تنفيذ الإعدام عملياً «على الجميع دون استثناء» لكنها اكتفت بعشرين منهم وحكم على الباقي - بالسجن، والنفي إلى المعسكرات، وتم تحويل مئة منهم إلى المؤسسات الإنتاجية.

تذكروا... - تذكروا أيها القراء: إن المحكمة العليا هي (التي تشرف على كافة المحاكم في الجمهورية، وتعطيهم (هي) التوجيهات القيادية،

وتستخدم أحكامها بمثابة «دليل نموذجي» وعليكم أن تقدروا بأنفسكم كم ستتدحرج على هذا الأنموذج..... رقاب من باقي الأقاليم والمحافظات.

على الرغم من أن القضية برمتها، ستعرض على محكمة النقض في رئاسة اللجنة المركزية التنفيذية العليا، وتحولها أولاً إلى لجنة المداولة الثورية، ليتم الاقتراح هناك، بتبديل حكم الإعدام، بالنفي خارج الحدود، إلا أن تروتسكي، وستالين، وبوخارين (الثلاثي - الواحد) منحوا المتهمين خمس ساعات للانسحاب من الحزب، ليصبح الحكم خمس سنوات، وإلا الإعدام الفوري. ونجح مقترح كافييف. وإذ ذاك يتعلق مستقبل المحكومين، بسلوك الآيسيريين، الذين ما زالوا أحراراً «خارج الحدود - طبعاً». فإذا ما استمروا في متابعة تآمرهم السري - بما فيه أكثر من ذلك - أي النضال السري المسلح - عندها سيتم تنفيذ حكم الإعدام على العشرين أولئك.

وهكذا راحوا، يعرضونهم للتعذيب تحت سطوة الموت، إذ يمكنهم تنفيذ حكم الإعدام في أي وقت شاؤوا... وقاموا على أثر ذلك بنقلهم من سجن بوتيركا إلى لوبيانكا، وحرموهم من وسائط الإعلام والمراسلة - عدا عن اعتقال زوجات بعضهم، وإبعادهن خارج موسكو.

كان قد تم حصاد الموسم الثاني في حقول روسيا، وقام الجهاز الأمني بإطلاق النار على الملاكين في (يارسلاف - بيرخوردف، وتعرض الميتروبوليت بنيامين في بيتروغراد للمضايقة، والمضايقة)... وسبح نوابنا، وصحافيونا الأولون تحت سماء المياه الزرقاء خارج الحدود، ووضعت اللجنة المركزية التنفيذية في عبها حياة الرفاه للعمال وللفلاحين.

وقرأ عندها أعضاء الأحزاب اليمنية ستين عدداً من أعداد «البرافدا»، التي قامت بنشر سلسلة عمليات هذه المحاكمات (وشاركهم الجميع بذلك) - وقالوا: نعم... نعم، ولم ينبس أحد قط - ببنت شفة.

لماذا التعجب بعد هذا كله من أمر السبعة والثلاثين؟ وما بالكم تشكون؟ ألم يكن الجميع رهائن، بلا أسس محكمية - بدءاً من التشكيل غير المحكمي للجهاز الأمني، والتشكيل المحكمي للمحكمة الثورية، إضافة إلى العمليات المبكرة لهذا التشريع القانوني الفتي؟ ألم يكن عام ١٩٣٧ نفسه غير ملائم؟ (إلا أنه كان أكثر ملاءمة لستالين، وقد يكون كذلك للتاريخ؟.

وفشلت نبوءة كريلنكو... في أنهم لم يحاكموا الماضي بل المستقبل!.

تتضح جرأة الحسام.... من تلويحته الأولى.

★★★

في العشرين من أب عام ١٩٢٤، عبر الحدود السوفييتية بوريس فيكتوروفيتش سافينكوف، وتم اعتقاله... وسيق إلى لوبيانكا.

ملحوظة توضيحية:

دارت الظنون الكثيرة عن هذه العودة، وأكدت الصحيفة السوفييتية «نيفا» بعد وقت طويل العدد (رقم ١١ عام ١٩٦٧) توضيحاً، أدلى به بورتسيف «الأبيض» عام ١٩٣٣ لصحيفة بوبليكا «روسيا المصورة» باريس الإصدار الجديد ١١- ك. ن. ٤٧، جاء فيه: بعد أن استمالت الإدارة السياسية كلاً من سافينكوف، ومغفلين آخرين للتعامل معها، قامت وإياهم بنصب الشرك التالي: تلتهب في روسيا التنظيمات السرية الكثيرة، ولا تتوفر لها القيادة القديرة! - ألم يكن من الضروري، ابتكار هذا الشخص! - ألا يمكن بعدها، أن تنتهي حياة سافينكوف المضطربة، بموت هادئ في مدينة مينسك. (انتهت الملحوظة).

تألف التحقيق من استجواب واحد - تقديم الأدلة بشكل طوعي، وتقدير النشاطات. وفي ٢٣ تموز سلمت وثيقة الاتهام (سرعة غير محتملة لكنها أعطت نتائجها، ولا بد من أن يكون أحد ما، قد قدر هذا بشكل

دقيق: (إرغام سافينكوف على إعطاء الأدلة الكاذبة الزهيدة - بحيث تكفي لتشويه صورتها الصادقة).

تمت صياغة وثيقة الاتهام، بعبارات اصطلاحية مقلوبة، لم يعترف سافينكوف بما نسب إليه، وتأتي النتيجة «إنه العدو الحقيقي للفلاحية المدقعه» و «ساعد البرجوازية الروسية في تحقيق الطموحات الإمبريالية». (للتنويه... كانت الحرب في عام ١٩١٨ مستمرة مع ألمانيا). «اتصل مع ممثلي قيادة الحلفاء» (تم هذا عندما كان يعمل في وزارة الدفاع). و «دخل في اللجنة الحزبية عن سوء نيّة». (هذا يعني بأنه انتخب نائباً في البرلمان عن العسكريين)، فلتقرق كل الدجاجات. وكان متهماً، إضافة لما سبق «بالتعاطف الديني». وكانت أكثر الاتهامات مناوبةً وجاهزيةً، لتنفيذ عمليات المحاكمة المستقبلية تلقي المال من الإمبريالية، والاتصال مع بولونيا (لم يروا اسماً لليابان)...! - وأراد كذلك تلويث الجيش الأحمر، بالقذارة الصهيونية).

بدأت المحكمة في ٢٢ آب، وكان رئيس المحكمة، أولبرخ (المرة الأولى التي نتعامل فيها معه)، وكان المدعي العام، والمحامون من نفس العربة، دافع سافينكوف عن نفسه باقتضاب، ولم يسأل عن الأدلة والإثباتات المتوفرة ضده، ويبدو أنه كان تحت تأثير ذاك النغم، الذي يطبق على المتهمين: ألسنا وإياكم روساً!... فأنتم ونحن - في الوقت نفسه نحن!... أنتم تحبون روسيا، وإنا بلا شك نقدر حبكم هذا - ألا نحبها مثلكم؟ ألسنا نعمل وإياكم لصمود، ومجد روسيا في هذا الوقت؟ ألستم من أراد الصراع ضدنا؟... إذن... هيا هلموا... إلى الدحرجة!..

يا للعجب! كان الحكم «اتخاذ أقصى حدود العقوبات، بسبب عدم الاستجابة لمصالح النظام الثوري وحمايته، لأن بواعث الانتقام، لا يمكن أن تكون، ولا بحال من الأحوال، موجهة للوعي البروليتاري الطبقي» - يستبدل حكم الإعدام، بعشر سنوات من حجز الحرية.

لقد كان ذلك - مثيراً للدهشة!، ولكم تكدر الكثير من العقول!....
أهو تهاون السلطة؟ أم انحطاط قواها؟... حتى أن أولبرخ، وضح في البرافدا، معتذراً عن الأسباب، التي دفعتهم للشفقة على سافينكوف، ذلك أنه قد مرت سنوات (سبع)، ولشدة ما أصبحت السلطة السوفييتية خلالها قوية وصلبة! - فكيف بعد ذلك كله، يمكن أن نخاف من مثل هذا السافينكوف، (وإذا ما مر عشرون عاماً، قد نضعف، وعندها لا مؤاخذة، لو أعدم منا مئات الألوف).

هكذا دواليك، بعد الأحجية الأولى، جاءت الأحجية الثانية: يعتبر الحكم بالإعدام، عدم الإعدام. (ويشرح بورتسيف موضحاً: إن تعرض حكم سافينكوف للتبديل، جاء بسبب بعض التراكيبية القيادية في الإدارة السياسية، التي كانت مستعدة للتحالف مع الاشتراكيين، وسيطلق سراحه، ليتهم بالنشاطات المذكورة - وبهذا ذهب للاتفاق مع أجهزة التحقيق)، وتقرر المحكمة بعدها، إرسال سافينكوف... بمثابة رسالة لخارج الحدود، ورافقه في هذا بورتسيف، الذي حاول إقناع المهاجرين - الثوريين، بأمل السلطة البلشفية في الدعم الشعبي، وفي أن يتلافوا الصراع ضدها.

وفي أيار عام ١٩٢٥، كانت الأحجية قد سترت بثلثيها: إذ قام سافينكوف وتحت ضغط حالة نفسية قاهرة، بالهرب عبر نافذة غير محصنة، وسقط في الساحة الداخلية لسجن لوبيانكا، وصمتت الملائكة، وآذان الحراس، ولم يسرعوا بكل بساطة، للإمساك به، وإنقاذه. إلا أن الوثيقة التسويقية الوصفية لهذه الحالة (جاءت بحيث لا تبرز حالة التأذي بأنها ناتجة عن الخدمة). وترك لهم سافينكوف توضيحاً معقولاً مترابطاً، حول الأسباب التي دفعته لعملية الانتحار - وكانت رسالته قابلة للتصديق، من حيث المحتوى، والأسلوب، وصدقوا: بأنه لا يمكن أن يكتب هذه الرسالة، إلا سافينكوف، واعتراف بانتحاره، بسبب معاناته من حالة الإفلاس السياسي، وهكذا قام

بورتسيف، بتعليق كافة مثالبه، التي قام بها في السابق (على قرون سافينكوف) من مناصرة للبيض، وارتداده عليهم فيما بعد، ولم يشك لا في أصل الرسالة، ولا في عملية الانتحار، فللجميع... سويه من الفطنة! لها حدودها.

ملحوظة إضافية:

أما نحن!... يا لنا من! أغبياء لقد نبهنا السجناء المتآمرون في سجن لوبيانكا، من أن الشباك الحديدية المرنة للمظلة الشبكية التي تغطي ساحة لوبيانكا، ما زالت حتى تاريخه مرتخية في نفس المكان، الذي سقط فيه سافينكوف... ومع ذلك ما زلنا نذعن لتلك الأساطير الجميلة، وننسى فوق هذا كله تجارب السجانيين العالميين! إن مثل هذه الشباك السقفيّة (فوق ساحة السجن)، كانت قد ركبت في السجون الأميركية في بداية القرن - فكيف لنا بعد ذلك، أن نقول: إن التقنية السوفييتية متأخرة؟ (انتهت الملحوظة).

أما الأحجية الثانية - أي مسألة الرحمة غير العادية في الحكم - تستجليها جثة الثلث الأخير - فالسمع هم الصمم، ولك أن تحل اللغز - لكنه قد بلغني، ونقلت ما عرفته عن هذا الموضوع إلى م ب باكونوفيتش عام ١٩٦٧، وما زال عندها في نشاطه، وحيويته الشبابية، تشع من عينيه نظرة براقة، ورد علي قائلاً: أصدق... ما قيل يطابق الواقع! أما أنا فلم أصدق بليومكين. واعتقد بأن ما رواه - ما هو إلا مباهاة، وتبين، أنه في نهاية العشرينيات، وتحت إطار من السرية المطلقة، قال بليومكين لباكونوفيتش، بأنه كتب بما يعرف برسالة ما قبل الموت لسافينكوف، حسبما أوكل إليه من الإدارة السياسية، ويبدو أن سافينكوف كان يسمح لبليومكين، بالحضور إليه في حجرة السجن - و «يسليه» في الأمسيات. هل شعر عندها سافينكوف، بأن الموت يتردد إليه في الحجرة زائراً - هذا الموت المستجدى، الموت الصداقي، الذي لا تستطيع تخمين

ظهوره، وقدومه ولا بحال من الأحوال، وهذا ما ساعد بليومكين بالغوص في طبيعة الحديث لأفكار سافينكوف، التي كانت تتنازعه في اللحظات الأخيرة.

وربما جادل بعضهم وسأل، لكن لماذا نفذ هذا - من النافذة؟ أو لم يكن من الممكن دس السم، وهذا أسهل من ذاك؟ وربما افترض أحدهم، بأنه قد يأتي أحد ما، ليتأكد من الرفاة، ويتقصى أسباب الموت، لكن علينا وفي هذا السياق إكمال حديثنا عن بليومكين، ومستقبله، وقدراته المخابراتية الفائقة، التي تحدث لنا عنها في زمن ما، دونما خوف، أو تردد، المرتد ماندليتام (ايرنبورغ ماندليتام)؛ وراح يسرد لنا الحديث - وبشكل مفاجئ، أحجم عن الحديث وتوقف على الرغم من توفر المادة الكلامية عنده: بعد أن تم اكتساح الآيسيريين اليساريين عام ١٩١٨/ لم يكتفَ عندها، بعدم تعريض قاتل فيرباخ للمحاكمة، على الرغم من اشتراكه مع الآيسيريين اليساريين في ذلك بل إنه تحت حماية، ديرجينسكي وملاذه (وبطريقة ما، أراد الاحتفاظ بكوسيروف) ظاهرياً في قوام البلاشفة، واحتفظوا به، كي ينفذ أعمال السفك الرطبة (الطازجة)، وسافر بأسلوب ما في الثلاثينيات خارج الحدود من أجل تنفيذ اغتيال سري. إلا أن روح المغامرة، وإعجاب تروتسكي، قادا بليومكين إلى جزيرة بريتسوف. ويسأل معلم القانون، فيما إذا كان هذا تكليفاً له، بتنفيذ مهمة لصالح اتحاد الجمهوريات السوفييتية؟ سلمه تروتسكي رزمة لرادك، نقلها بليومكين، وسلمها للمذكور، وبقيت زيارته لتروتسكي، تتم تحت إطار من السرية، لو لم يسقط رادك، ويهوي، ولو لم يكن زميلاً له، أغرق رادك بليومكين، واستدعى ذلك قيام وليمة الصيام الغرائبية، الذي كان هو أول من قام بتقديم الحليب الدموي بيديه.

إلا أن العمليات الشهيرة، ما زالت، وبكافة حالاتها... ووجوهها إلى الأمام.

الفصل السابع

القانون ينضج

أين هذه الحشود الزاحفة من الغرب والشرق على أسيجتنا الحديدية الشائكة؟ ألم نقم بإعدامها بموجب المادة /٧١/، بسبب عودتها إلى جمهورية روسيا الفيدرالية الاشتراكية؟

فعلى الرغم من أن التوقع العلمي، لم يأخذ بالحسبان هذه الحشود، إلا أنها بقيت في المسامع تلك الإملاءات، التي أملاها لينين، الوحيد على الأرض الروسية، الذي كانت تنطبق عليه هذه المادة الغريبة الأطوار فيما لو حُوكم على أساسها، لكن طالت سافينكوف، وراوغوا عليه في استخدام هذه المادة عليه، وبدلاً من أن يؤخذ بهذه المادة، حدث العكس، وأصبحت العقوبة نفيه خارج الحدود بدلاً من الإعدام، وتم تنفيذ هذا الأسلوب بكثافة وسرعة فائقتين، وكافيتين.

ناهيك، أنه في تلك الأيام الساخنة، كان لينين هو من ألف في السابق، نصوص هذه السنن التشريعية في أيار عام ١٩٢٢، ولم يترك أيّ أفكار براقة إلا وضمنها فيها:

«الرفيق ديرجينسكي!، إن مسألة نفي الكتاب، والبروفيسورية، المتعاونين في معاداة الثورة خارج الحدود، يجب إعدادها بدقة أكبر، ودون هذا التحضير والإعداد، نرتبك ونتوه... ويجب أن تصبح المسألة على هذا المنوال، بحيث يتم إلقاء القبض على هؤلاء «الجواسيس العسكريين»

واضطهادهم بشكل منظم، ومستمر، ونفيهم خارج أراضي الاتحاد، وإني لأرجو، أن يتم ذلك بشكل سري، دونما بوح، وإعلان من قبل اللجنة السياسية».

من الطبيعي، أن تتطلب مثل هذه المسألة، السرية المطلقة، والأهمية الفائقة، واتخاذ كافة التدابير الصارمة، لأن من يعمل على فتح الثغرات في صفوف الطبقة العاملة في روسيا السوفييتية، ويعمل على تحطيمها، هم أولئك الذين يشكلون التكون الثقافي الهلامي لمراكز البرجوازية الثقافية الماضية، التي كانت قد لعبت الدور الأساسي في النطاقات الإيديولوجية للجواسيس العسكريين - وكان من الصعب، أن تعتمد على أسلوب أفضل، من تلك الفكرة الثابتة القائلة بتجميعهم على وجه السرعة، وقذفهم خارج الحدود.

أما لينين، كان مستلقياً في ذلك الوقت، بسبب علته، واتضح أن أعضاء اللجنة السياسية، أيدوا الرفيق ديرجينسكي، وقام باصطياده. وما أن جاءت نهاية عام ١٩٢٢، حتى تم زج ثلاثمئة من الروس المعروفين، العاملين في المجالات الأدبية في السجون... ومن ثم إلى الصنادل؟ ليس بغرض البقاء على سطح السفن، بل بغرض التكديس في أوروبا (كان من عداد أولئك المبعدين، الفلاسفة: ن. و. لوسكي)، وس. ن. بولاكوف، ون. أ. بيرديابيف، وف. أ. ستيبنون، وب. ب تيشسلافوف، وأ ب كارسافين، ون. أ. إيلين، وبعدهم المؤرخون س. ب. ميلكونوف، وف. أ. مياكوتين، وأ. أ كنيريفيتير، وي ي: لابشين، ومن الكتاب والأدباء الاجتماعيين: أيخن فيلر، وايزكويف، وم. أ. أسوركين، وأ. ف. بشيخوتوف، ابعدوا الجميع على شكل مجموعات صغيرة عام ١٩٢٣، وكان منهم كذلك: ليون تولستوي، وف. ب. يوغاكوف، ودفع معهم أيضاً الرياضي د. ب. سيلسيفانوف، بسبب معارفه الرياضية.

إلا أن عملية الاصطياد المستمر المظلم، لن تتماشى وواقع الحال، واتضح أن هدير الهجرة، ما هو إلا هدية»، ولم يكن هذا الإجراء، هو الأفضل، وربما كان من العبثية إفلات هذه المادة الخامية الجيدة للإعدام، ويمكن أن يشكل هذا التكديس في الخارج مادة لنفث السموم الضارة، ولذا تراهم - أقلعوا - عن اتخاذ هذه التدابير، وتمت فيما بعد التطهيرات بطريقة، الإرسال إلى معسكر دوخنين، أو إلى الأرخبيلاك.

حُبك التشريع الجنائي المصدق عام ١٩٢٦ (وبقي حتى زمن خروتشوف)، الذي طور فيما بعد ليشمل كافة أحابيل المواد السياسية السابقة في شبكة المادة العنيفة (الثامنة والخمسين) - وتم تحضيره لهذا الصيد، الذي سرعان ما اتسع ليطال المثقفين المهندسين - الفنيين - الأكثر خطورة - الذين قاموا فيما سبق، بالتغيير الشديد في وضعية الملكيات الشعبية، وكان من الصعب عليهم مواجهة هذه الفئة بطرق التعليم التقدمي فقط. حيث اتضح الآن، ذلك الخطأ، الذي كان في عملية المحاكمة، ودفاع أولدينبرغ (الممتاز آنذاك، ضد تكوين فكرة المركز الصناعي) - وسرعان ما أطلق التصريح الكريلنكوفي: «لم يدر الحديث عام ١٩٢٠-١٩٢١ عن تخريب المهندسين»، ولم يكن التخريب إذ ذاك خطراً لدرجة كبيرة (اعتقد، أن اكتشاف هذه الكلمة، هو من فعل محقق - منجم) لم تكن فكرة البحث عن الضرر واضحة بشكل كافٍ - بغض النظر، عن أنه لم يتكون في التاريخ الإنساني بعد، مفهوم هذه الفكرة، إلا أنهم استطاعوا دونما صعوبة تحقيق هذا الاكتشاف في كافة فروع الصناعة، وفي كافة المناحي الإنتاجية، إلا أنه لم يكن هذا الاكتشاف التفصيلي تحت أيّ نية هدفها التحسين في آلية التنفيذ الصناعي، لكن طبيعة ستالين - هي بمجملها الجانب البحثي في عمله، الذي يجسد عدلنا، وإنصافنا - ومن الواضح، بأنهم سعوا. فقط لتحقيق هذا الجانب ليس إلا، أجل لقد

نضج قانوننا في النهاية، وصار بإمكانه الإعلان عن نفسه للعالم أجمع، سيما وأنه لم يسبق وأن تحقق له مثيل في هذا العالم من حيث الواقع!، وتأتي عملية المحاكمة هذه المرة، فريدة، ضخمة جيدة التخطيط، والتمحيص... وعلى هذا اللواء انعقدت على المهندسين.

القضية المنجمية (٨ أيار - ١٥ حزيران ١٩٢٨)، تمت بحضور اختصاصي المحكمة العليا لعموم الاتحاد السوفييتي؛ الرئيس؟. يا. فيشينسكي، الادّعاء الأول ن. ف. كريلنكو (لقاء شهيرا!، وكأن انتقال شارة المحاماة، تتم بالتتابع)[1]. وثلاثة وخمسين متهماً، وستة وخمسين شاهداً... ويالضخامة هذه العملية!!!

مهلكم... يكمن عيب هذه المحاكمة في ضخامتها: إذ لو لفت على كل متهم ثلاثة خيوط، لبلغ عددها عند ذلك المئة والتسعة والخمسين، ولدى كريلنكو من الأصابع عشرة، ولفيشينسكي أيضاً مثلها. «لقد حاولا طبعاً، فضح المتهمين أمام المجتمع، ونشر جريمتهم الكبرى» إلا أنه، لم يوافق من المتهمين على ذلك إلا - ستة عشر، وثلاثة عشر منهم «تلووا، وتعرجوا»، وثلاثة وعشرون لم يعترفوا ويقروا بأنهم متهمون «الأمر الذي سبب تضارباً غير مسموح فيه، وبالتالي، قد لا تستطيع الجماهير استيعاب ما جرى، ونظراً لكثرة المؤهلات المكتسبة، بخاصة من خبرات العمليات السابقة» لم يتمكن لا المتهمون، ولا المحامون المساكين، من زحزحة، وتحريك جلمود الحكم وكمنت سلبية العملية الجديدة، في أنهم اعتبروا - عينك، عينك - بأن لا غفران لهم في نظر كريلنكو المحنك.

١- أما الأعضاء كانوا من الشوريين الأوائل: فاسيليف - بوجين، انطونوف - ساراتوفسكي، وربما تهيأ لك لدى سماع كنيتهما - بأنهما كان محفوظين في الذاكرة، وعندما تقرأ في صحيفة «الأزفستيا» عام ١٩٦٢، رثاءً لضحايا التنكيل - تراها مذيلة بتوقيع المعمّد انطونوف سراتوفسكي، ولا بد من انه تذوق ذلك بنفسه

توفرت القوة أخيراً، على عتبة المجتمع اللا طبقي تنفيذ عمليات المحاكمة غير الأخلاقية (المنعكسة عن خاصية اللا نزاع الداخلي بين صفوفنا)، حيث طمحوا عندها، في تحقيق الحبية ما بين المحكمة، والمدعي العام، والدفاع، والمتهم.

أجل.. إن معايير القضية المنجمية - كانت فقط الصناعة المنجمية في دونباس وبهذا حل عصر عدم التطابق.

ما إن انتهت تقية المنجمين، حتى راح كريلنكو يحفر حفرة انتقامية جديدة في نفس اليوم (حتى أن اثنين من رفاقه في القضية المنجمية، أسقطا فيها). وهما مدعي الحق العام أوسادتشي، وشين)، ولا كلام في هذا الموضوع، طالما كان قد أيده في تحقيق هذه الرغبة والنية، جهاز الإدارة السياسية العامة، التي كانت قد أصبحت تحت قبضة ياغدا القوية - وكان من الضروري عند حل التشكيل الوهمي لتنظيم المهندسين، وكشفه، وبغية تحقيق هذا الهدف، كان يجب إيجاد عدة شخصيات بارزة ضارة، تترأس التنظيم المفترض، دون أن يشترط بالطبع، في أن تكون هذه الشخصية الشامخة، من أولئك الذين لا يمتون للهندسة بشيء؟ - كيمو أكيموفيتش بالتشينسكي، مهندس كبير مقوّه، من رعيل بداية القرن، وكان قد شارك في الحرب العالمية الأولى، وشغل هذا الرفيق إذ ذاك رئيس لجنة الصناعة العسكرية، وبعد شباط، أصبح الرفيق وزيراً للتجارة والصناعة، ولوحق في عهد القيصرية، بسبب نشاطاته الثورية وسجن ثلاث مرات بعد ثورة أكتوبر (١٩١٧، ١٩١٨، ١٩٢٢)، وأصبح اعتباراً من عام ١٩٢٠ بروفيسيوراً في معهد غورني، ومحاضراً في تخطيط الدولة (وسيتم الحديث عنه بالتفصيل في الجزء الثالث - الفصل العاشر).

كنس هذا الباليتشينسكي، كمتهم رئيس في هذه العملية الجبارة، إلا إن كريلنكو المستخف بالإلمام في الأمور الهندسية الجديدة عليه، ولم

يكن ليعرف حركية هذا المنحنى السوبرماني (السوبر - مانية) فقط، بل إنه، لم يكن لديه التصور المطلق، عن روح المقاومة الممكنة، بغض النظر، عما لديه من نشاطات أدعائية تهويشية سابقة في حياته كمدع عام. واتضح أن خيار كريلنكو كان مخطئاً لأن بالتيشينسكي تحمل الأساليب كافة، التي كان يعرفها جهاز الإدارة السياسية العامة - ولم يستسلم، ومات دون أن يوقع أيّ سخافة، على الرغم مما مورس عليه وعلى رفاقه ن. ك فون ميك، أ. ب. ميليتشكو من كافة التجارب - ولم يستسلموا، ولا نعرف حتى هذا التاريخ طريقة موتهم، أكانت بالتعذيب، أم إطلاق النار - وعلى الرغم من عدم المعرفة هذه، إلا أنهم أثبتوا لنا، كيف يمكن أن تكون المقاومة، وكيف يمكن أن يكون الصمود - وتركوا بهذا شعلة تحمل اللوم والعتاب، لكل المتهمين المشهورين الآتين.

أعلن ياغدا، كتغطية لفشله الذريع، بياناً فقيراً صادراً عن الإدارة السياسية العامة تضمن إطلاق النار على الثلاثة بسبب التخريب الذي قاموا به، ومحاكمة أعداد كبيرة من المتهمين دون ذكر أسمائهم.

لكن، كم بلغ الوقت الضائع على هذه القضية - حوالي السنة تقريباً! وكم استهلكت من ليالي التحقيق الطويلة؟!، وكم هدرت الفانتازايا المستخدمة في التحقيق؟ - والنتيجة فراغ في فراغ.

تطلب الأمر من كريلنكو، البدء من جديد في البحث عن شخصية لامعة مرموقة بشرط في الوقت نفسه، أن تكون ضعيفة، ومعطاءة، لكن لا نعرف إلى أيّ درجة يجب أن تكون من الرداءة، لتدس على هذه الأجناس الهندسية اللئيمة - وبانقضاء العام، بعد تلقي التجربة الفاشلة، وبدءاً من عام ١٩٢٩، حمل كريلنكو حملة على خرنيكوف، لكن هذا القومي رفض، ولم يوافق على تنفيذ هذا الدور الحقير، وشدوا بعده خيدوتوف العريق، لكن هذا لم يكن إلا مهندس نسيج، ولم يمت بصلة إلى الفرع الذي

يلعبون فيه لعبتهم وانقضى عام آخر، والبلاد تنتظر العملية التخريبية الشاملة، وينتظر معها الرفيق ستالين - أجدبت الحظوظ، ولم تراقص بحال من الأحوال كريلنكو ولكن في عام ١٩٣٠ فقط عثر على أحد ما واقترح: رامزين! - اعتقلوه، خلال ثلاثة أشهر، كان محضراً للعب دور ممثل أصيل رائع في عملية تحسين، وتطوير قدراتنا العدلية والإنصافية وإبرازها كأنموذج خارق للعدل العالمي.

عملية الحزب الصناعي (٢٥ تشرين الثاني عام ١٩٣٠) بحضور اختصاصي المحكمة العليا، بما فيهم فيشينسكي وأنطونوف ساراتوفسكي وحبيبنا الأول كريلنكو.

لا توجد الآن أيّ «أسباب فنية» تعيقنا، في تقديم هذا الاختزال الكامل لتلك العملية، وللقارئ الاطلاع عليها - على الرغم من أنه لم يسمح عندها لا للصحافيين، ولا للمراسلين الأجانب بحضور جلسات هذه العملية[1].

فكرة عظيمة: جلست على منصة المتهمين العصبة الصناعية بكافة فروعها، مع أجهزتها التخطيطية في كافة البلاد. (عين المنظم وحدها هي التي رأت الصدوع، والأخاديد الواقعة فيها الصناعة - والخطوط الحديدية) وعلى الرغم من الشح في استخدام المواد؛ كان عدد المتهمين ثمانية فقط (أخذت في الحسبان أخطاء قضية المنجمين).

فلتصرخوا - ثمانية فقط يستطيعون تمثيل كافة الصناعات؟ ألم يكن لدينا الكثير منها؟ ثلاثة من الثمانية كانوا من القطاع النسيجي، أكثر القطاعات الدفاعية الأهمية، لكن مما كانت مؤلفة صفوف الشهود؟ سبعة شهود من ذوات الطبيعة التخريبية، وتم اعتقالهم، لكنه لم

١- «عملية الحزب الصناعي» «النشاط القانوني السوفييتي» ١٩٣١.

يبـق مـن بالـةِ الوثـائق التحـسينية ، والرسـومات والمخططـات والإرشـادات والنشرات والتطورات والتقارير والمذكرات الخاصة شيئاً... حتى ولو ورقة واحدة! فكيف فات الإدارة السياسية العامة هذا؟ وكيف صمّت آذانها عنها؟ على الرغم مما اعتقلته من أعداد كبيرة، لم تخطف حتى ولو ورقة واحدة؟ «ويا لكثرتها»، لكن تم «إتلاف» كل شيء!... «كيف لنا الاحتفاظ بهذا الأرشيف»؟ واكتفوا، بجلب عدة مقبلات: صحيفةً من صحفنا، وصحف المهجرين لحضور المحكمة عدة مرات، لكن ما الادّعاء والاتهام الذي سيواجه به المتهمون!؟... الهوينا... أليس شخص نيقولا فاسيلفيتش كريلنكو كافياً، أهي المرة الأولى، التي تتم فيها هذه الأمور؟ «إن أفضل الأدلة، في كافة الحالات، تلك التي يقر بها المتهم».

لكن، ليس كل اعتراف - غير ضروري، بل ضروري ذلك الاعتراف الروحي، عندما يخرج الندم من الصدر بمناجاة كاملة، وبرغبة ذاتية للبوح والإفصاح والتعنيف والفضح، واللؤم! ويقترحون على العجوز فيدوتوف الجلوس، والاكتفاء بما قدم له من أدلة - ويستمر في تقديم الحبكة والسرد، والتوضيح والمعالجة! أو لم يتطلب الأمر على مدى خمس جلسات متتالية، ولو لتوجيه سؤال واحد. المتهمون هم الذين يتكلمون، ويوضحون، بل ويطلبون إضافةً إلى هذا، الاستئذان بالكلام، كي يسدّوا الفراغ، الذي سقط سهواً، ويطرحون بشكل استدلالي كل ما هو ضروري للادعاء دونما أسئلة، ويُقدّم رامزين، بعد الانتهاء من التجوال في أفق التوضيح، والشرح، خلاصة توضيحيّة قصيرة، كما وكأنه يشرح لطلاب مبتدئين، إن أكثر ما خافة المتهمون، هو ألا يبقى شيء غير موضح ومعالج، وأن يبقى أحد ما دون فضح، أو أن يسقط من كنيته حرف واحد، أو كي لا تتكشف النوايا التخريبية، وتبقى دون إيضاح واستيضاح. هكذا يقومون بتطهير أنفسهم، بأنفسهم! - «إنـي عـدو طبقـي» «لقـد تم شـرائي»،

«أيديولوجيتنا البرجوازية». أيها المدعي «لقد كانت هذه غلطتنا»؟ ويضيف تشارنوفسكي «جريمتنا» ولم يبق لكريلنكو، إلا أن يقعد في الجلسات الخمس دون عمل، سوى احتساء الشاي، والتهام البسكويت، وأشياءً أخرى يقدمونها له.

لكن كيف استطاع هؤلاء المتهمون، تحمل هذا التفجير الانفعالي؟ ولم تسجل تلك الاعترافات على آلة التسجيل، بينما كان المحامي العام أوتسيب يرسم خربشاته «كانت كلمات المتهمين تنساب باردة حدية، بهدوء منقطع النظير». ليس ككل المرات! - لقد كانت هذه تجربة رائعة! - بل ممتعة، حكيمة، جدية، باردة؟، بالإضافة إلى كل هذا كان المدعون يملون نصوصهم بشكل علني واضح متسلسل، مبسط رصين، الأمر الذي جعل فيشينكسي يطلب منهم التكلم بصوت عال، وبصورة أوضح... إننا لا نسمع.

لم يخالف الدفاع سير عملية المحاكمة، وأحكامها، لقد كان موافقاً على كافة المقترحات المقدمة من المدعى العام، الذي أطلق في كلمته الادعائية على حججه تسمية - إنها تاريخية - مقتضبة مؤثرة في القلب، ذلك لأن «الدفاع السوفييتي قبل كل شيء، هو مواطن سوفييتي». «وهو مثل كل الطبقة العاملة، التي تعاني الإحساس بالحيرة والارتباك» تحت ضغط الدفاع عن هذه الجرائم «عملية الحزب الصناعي». تقدم الدفاع أثناء جلسات التحقيق في المحكمة - بأسئلة هيابة متواضعة، وكان ينكص عنها، فيما لو قاطعه فيشينسكي، وجل ما فعله المحامون، هو أنهم دافعوا عن اثنين من النسيجيين البسطاء، دون جدال في تكوين الجريمة ذاتها، ولا في طبيعة تصنيف فعلها، بل اكتفوا فقط: أليس من الممكن أن نخلص المدافع عنه من الإعدام؟، وإيهما أنفع لنا، أيها الرفيق رئيس المحكمة «رفاته، أم عمله».

ملحوظة: لكن ما هذه الجرائم القذرة، التي أرتكبها المهندسون البرجوازيون؟، لقد خططوا لتخفيض معدلات التطور (فمثلاً، كانت الخطة السنوية للإنتاج بحدود ٢٠-٢٢٪ فقط، بينما العمال كانوا جاهزين لإعطاء إنتاج يساوي ٤٠٪) كما وأنهم، أخّروا معدلات إنتاج واستخراج الوقود المحلي، ولم يطوروا بشكل كاف، وعلى وجه السرعة أعمال التعدين - واستخدموا الجدل النظري الاقتصادي في عملية «إمداد مناجم دونباس، بالطاقة الكهربائية من محطة التوليد على نهر الدنيبر؟ هل أنشئت أنابيب الوقود بين موسكو - دونباس»؟. وبغية التأخير في إقرار المسائل المهمة (غرق المهندسون في الجدل، على الرغم من أن الموضوع لا يستحق كل هذا القدر من الإطالة) وأعاقوا تنفيذ المخططات الهندسية المدروسة (لم يصادقوا عليها فوراً)، وقادوا خطاً معادياً للسوفييتية من خلال إلقاء محاضرتهم، وركبوا معدات قديمة، وجمدوا رأس المال (وزجوه في طريق مسدود، لإطالة أمد البناء، والتشييد) ونفذوا إصلاحات غير ضرورية، واستخدموا المعادن بغباء مطلق (تصنيع الحديد الهش اللا نوعي)، وأحدثوا خللاً في التناسب بين الورش والمواد، وإمكانية معاملتها (وأكثر ما اتضح هذا في مجال الصناعات النسيجية، حيث أنشؤوا معملاً، بل معملين زيادة عما يتوفر من محصول القطن) وعملوا بعد ذلك قفزات فوق معدلات الخطة الأعظمية، والأصغرية، وبدأ التطور التجريبي المتسارع علناً، مما انعكست آثاره على قطاعات الصناعات النسيجية، والشيء الأكثر أهمية: إنهم خططوا (لكن مخططاتهم، لم تتحقق ولو لمرة واحدة) للتخريب في القدرات بشكل لم يظهر فيها التخريب للعيان، مثل التكسير، أو أيّ أشياء أخرى، عدا عن، أنه كان كافياً من خلال التخطيط، والناحية العلمية، لأن يؤدي الأمر إلى خلق أزمة شاملة، وبالتالي شلل اقتصادي عام ١٩٣٠، إلا أنها لم تؤثر - بسبب

مضاعفة خطة الإنتاج الصناعي المعاكسة التي أقرّتها الجماهير (أي مضاعفة أرقام الإنتاج) انتهت الملحوظة.

هه. هه... إنما شيء ما يحضر القارئ الارتيابي الشكاك... كيف؟ أهل ما قرأتموه كان قليلاً؟... إذا كنا في المحكمة نضاعف كل مادة... ونضربها بخمسة - بل بثمانية - فلمَ عندها.. لا نجد هذا الناتج، ليس - بالقليل؟.

- إيه.. إيه تشدّ الستينيّات قارئها إليها - أليس من المحتمل، أن يكون قد جرى كل هذا، بسبب خطط مضاعفة الإنتاج الصناعي المعاكسة؟ إليك كيف ينتج اختلال التناسب، إن كل خطة حكومية، إن لم تناقش في أيّ اجتماعات نقابية، يمكن أن يكون عندها، كيفما كان قد اعوج فيها هذا التناسب.

أوه! لكم هو مر الخبز الدعائي! لقد نشروا كل كلمة!، الأمر الذي يعني بأن المهندسين سيقرؤون كل ما ينشر، وتسمي حوذياً - هيا فلتصعدوا إلى العربة ودونما خوف، أو وجل. راح كريلنكو يطرح أسئلة عن التفاصيل الهندسية!، والمثالب المفخخة بها صفحات الصحف الكبيرة الملأى بالحروف الطباعية - لأدق التفاصيل الفنية، فالحساب يضعف كل قارئ، ولا تكفيه لا الأمسيات، ولا أيّ منافذ أخرى، يستطيع فيها أن يطلع على كل - شيء مطبوع، بل يكتفي بملاحظة أساليب الترجيح، والإسناد لعدد من الفقرات بكلمة واحدة، واحدة؟ ضُربوا!... ضُربوا!

وماذا لو قُرأ كل شيء؟... كل قذف وتشهير؟

لأدرك عندها، وعبر تشهيره الذاتي المقزّز، المقدم بلا عقلانية، وبلا حصافة، بأنه مأخوذ، ليقذف في لوبيانكا الحانقة، ليس بجريرة عمل ارتكبه. لوبيانكا تلك، التي انعقدت فوق توابيت ضحاياها، غمامات زرقاء، تحمل الفكر المستطير للقرن العشرين.

أما المعتقلون - ها هم يؤخذون ويعاقبون ويداسون، بينما الفكرة - باقية مرفرفة فوق ألسنة المتهمين المتعبة الخائفة، التي أفلحت في أن تسمي لنا كل شيء، وتقول لنا كل شيء.

ملاحظة: ترى في أيّ ظروف كانوا يعملون؟ إذ كما يقول كالنيكوف: كما تعلمون لقد تشكلت لدينا عدم الثقة الفنية»، أما لارتشييف يقول: «أردنا ذلك، أو لم نرد، فإنا ملزمون.. باستخراج اثنين وأربعين مليون طن نفط (هذا ما نص عليه الأمر العلوي) علماً بأنه لم يكن ممكناً ولا بحال من الأحوال استخراج مثل هذه الكمية في مثل تلك الظروف» «عملية الحزب الصناعي».

بين هذين المستحيلين غير الممكنين، كانت ظروف عمل جيلنا من المهندسين - وإن معهد النفط الفني ليفتخر بأبحاثه الرئيسية - خاصة بعد الارتفاع الحاد في استجرار الوقود إلى المعامل، وانطلاقاً من هذا لا بد من أن تتضمن الخطة العملية، تقليل متطلبات استهلاك النفط - وبهذا يكونوا، قد أضروا في عدم تخفيضهم الاحتياط النفطي. أما ما يتعلق بخطة النقل، كانوا قد وضعوا، وجهزوا كافة القاطرات - برأس قاطر، وهذا يعني بأنهم أضروا، وجمّدوا رأس المال! (لكن أليس توقف الرؤوس القاطرة، يبرر لنا عملية استخدامها لزمن طويل، أما نحن يكفينا، مجيء اليوم الثاني)!!

بغية استخدام الخطوط الحديدية ذات الاتجاه الواحد، قرروا زيادة حجم المقطورات البخارية، والقاطرات - أليس هذا تعديلاً؟ لا إنه تخريب! - لأن هذا التعديل يتطلب الوسائط المادية على تقوية الهياكل العليا من الجسور والطرق - وبمماحكةٍ اقتصاديةٍ عميقةٍ نلاحظ إنه في الولايات المتحدة الأمريكية، قد بخس رأس المال، وغلت اليد العاملة - بينما عندنا جرى العكس لأنه يمنع علينا استخدامها، وقفز فيدوتوف قفزة إفرادية:

لا لزوم لشراء الآلات الأمريكية الباهظة الثمن، والأفضل، بل من المريح لنا، أن نشتري خلال العشر سنوات القادمة الآلات الإنكليزية الأقل تطوراً، والأرخص ثمناً، ونشغّل العمال عليها، لأنه على حد سواء سيتم تغييرها خلال عقد من الزمن مهما فعلنا، وعندها سنشتري الأعلى.. هذا تخريب - تحت ستار الاقتصاد، لا يريد أن يكون لدى الصناعة السوفييتية آلات متطورة! - وراحوا يشيدون أبنية الفبارك بالحديد والأسمنت بدلاً من الأسمنت المادة الأكثر رخصاً، مع العلم، بأنه خلال مئة عام لا بد من أن تثبت فعاليتها - هذا تخريب، وتجميد لرأس (المال! وهذا أيضاً استهلاك للتسليح غير اقتصادي! (فكيف الحفاظ عليها... أمن دون أسنان)؟

ويتنازل فيدوتوف، وهو ما زال على منصة الاتهام قائلاً: هذا طبيعي، فيما لو اعتبرتم، استهلاك أي كوبيك في الوقت الحالي عملاً تخريبياً، وتقول الحكمة الإنكليزية، لست غنياً لدرجة أشتري فيها الأشياء الرخيصة... لقد حاول التوضيح للمدعي العام العنيد بلطف:

إن كافة أنواع المناورات النظرية، تعطى قيماً.. تكون في نهاية الأمر معتبرةً قيماً ضارةً....

إذاً.. كيف لهذا المتهم المروّع، أن يقول شيئاً أكثر وضوحاً؟... الفطرية، كما هي لأجلنا. فهي لأجلكم أيضاً - ضرورية!، أليس عليكم أن تمسكوا باليوم، دون تفكير بالغد.

ويحاول فيدوتوف العريق، توضيح: مسألة استهلاك مئات الألوف والملايين من الروبلات بسبب هذه الخطة الخمسية المتعجلة المتوحشة، فالقطن لا يفرز في أماكن الإنتاج قبل إرساله إلى الفبارك، بل يرسل دوكما دون فرز وتشذيب، إلا أن الادّعاء لا يستمع لهذا! ويعود ويكرر بعناد جلمودي السؤال الصعب، الذي يريك المتهم الواضح حتى كعبي رجليه، عشرات المرات؛ لماذا قمتم إذاً ببناء «الفبارك القصور» - بطوابق عالية، وممرات واسعة وتجهيزات

تهوية ممتازة؟ أليس هذا تخريباً واضحاً، لأن في ذلك تجميد لرأس المال بلا طائل!! ويعيد المخربون البرجوازيون التوضيح: بأن اللجنة الشعبية للعمل، أرادت أن تبني للطبقة العاملة في البلاد أماكن عمل مريحة مع تهوية جيدة (هذا يعني أن اللجنة ذاتها أيضاً تخريبية. سجلوا هذا) عدا عن أطباء الصحة العامة، طلبوا أن يكون ارتفاع الطابق تسعة أمتار علماً أن فيدوتوف قام بتخفيضها إلى ستة أمتار - إذا ولماذا لا يكون خمسة؟؟ هذا تخريب أو حتى ولو خُفضت إلى الأربعة والنصف - فالأمر سيان... ولا بد من أن يعتبر تخريباً وقحاً: إذ ربما يكونون قد أرادوا بذلك خلق الظروف السيئة للطبقة العاملة السوفييتية، وإجبارها على العمل في معمل رأسمالي التكوين)، ويقوم كريلنكو بالتوضيح؛ إنه حسب قيمة الفبارك وتجهيزاتها، فإن النسبة ٣٠٪ منها ثا... نيه يعود... لتُصرف على هذه الطوابق العليا...! وكيف تجرأتم على تركيب مثل هذه التهوية العالية القدرة؟

... لقد حسبوا استطاعتها عن أكثر أيام الصيف حرارة.. لماذا أكثر الأيام حرارة؟

... دع العمال يتعرقوا ولو قليلاً في الأيام الحارة!!!

«إنه خلل التناسب... نتيجة التنظيم المشوش الفاشل، الذي قام به «المركز الهندسي» «لا حاجة لنا، لأيّ أفعال تخريبية أخرى... فإن ما بين أيدينا كاف لأن يسير كل شيء على ما يرام»، لم يستطع تشير - نوفسكي عندها التعبير بوضوح أكثر، بعد ما أمضى الشهور الكثيرة في سجن لوبيانكا (هذا يعني) أن تلك الأقفال كانت قد سكنت الرأس قبل أن تخرج للتنفيذ) من الطبيعي أن تؤدي الخطة غير المدروسة، للأعمال التخريبية «لقد ملكنا الإمكانية، لأن ننتج ولو افتراضاً ألف طن، بينما وجب علينا - (حسب الخطة المغفلة - «أن ننتج ثلاثة آلاف طن دون اتخاذ الإجراءات اللازمة لهذا الإنتاج».. انتهت الملاحظة.

لم تكن بالشيء القليل، تلك الوثائق المختزلة الدقيقة الطاهرة الخاصة، بوقائع تلك السنين، وكثيرة هي المرات، التي أوصل فيها كريانكو معتقليه، إلى التكلم تحت حالة من التعب، والملل - من جراء النق والنقيق المتواصل، الذي يبقر الأذن وينقرها، لدرجة أصبح فيها المعتقلون، مؤلفو المسرحية، خجلين، لأن الأمر يتطلّب أيضاً - الاستمرار - باللعب بغية الحصول على نتفة حياتية.

كريلنكو - أنتم موافقون؟

فدوتوف - موافق على الرغم من أني عموماً... لا أفكر.

كريلنكو - هل تصادقون على هذا؟

فيدوتوف - يمكن القول.. من حيث بعض النواحي - يبدو لي... بشكل عام - نعم.

لم يبق للمهندسين مخرج، وسدت كافة المنافذ (حتى أمام أولئك الذين ما زالوا أحراراً، ولم يتعرضوا بعد للاعتقال، فمن كان لديه الشجاعة فليعمل، بعدما سمع ورأى كيف قذفت نوعيتهم بالسب والشتم) - أجل لا بد من ذلك، ولا سوء أسوأ مما حصل قط، فكما كان السوء منتشراً في الماضي، فلا بد أن يكون كذلك في المستقبل.

إن تعجلوا - فالتعجل عمل تخريبي، وإن لم يتعجلوا - فالتخريب كامن في توقيف معدل الإنتاج، إن حاولوا تطوير فروعهم الصناعية... فحذار - تأخير مقصود، وبالتالي تخريب؛ وإذا ما انصاعوا لسياسة القفز.. حسب النزعات - فهذا إخلال بالنسبة وبالتالي تخريب؛ والإصلاح، والتحسين، والتحضير - تجميد لرأس المال، العمل، العمل حتى تتآكل الأجهزة - تخريب! (وكل هذا الحصاد جمعه المحققون وتعرفوا إليه عن طريق استخدام وتطبيق الطرق الذاتية! كالحرمان من النوم - والعزل في الغرف

المظلمة على المتهمين، الذين لم يبق لديهم، إلا أن يوردوا الأمثلة المقنعة! أين استطعتم إلحاق الضرر في أي مجال وكيف، ومتى)؟.

هيا... أوردوا لنا مثالاً واضحاً، ... أتحفونا بمثال بيّنٍ على تخريبكم يحثهم كريلكنو دونما ترو.

(ويقدمون، ويقدمون.. إليكم الأمثلة الساطعة! هل من أحد سيكتب التاريخ الفني لتلك السنين! وإن كان... فلا بد سيعطيكم الأمثلة، وغير الأمثلة! ويحدد لكم عندها مدى التشنج في خططكم الخمسية الفاشلة، وإذ ذاك سنعرف حجم الثروات الوطنية المهدورة! وسنعرف كيف أجهضت كافة الخطط الجيدة، ونفذت تلك الأكثر رداءة، بطريقة رديئة أكثر منها.. لكن... إذا كان الأغبياء يقودون المهندسين الماسيين فماذا ستكون نتيجة ذلك؟ فالسطحيون الغيورون - هم الذين شدوا، وشدوا أكثر، وأكثر بالقادة الأغبياء).

نعم، ليس هو بالمريح - أن نفصل أكثر من ذلك، فكلما كان التفصيل زائداً، كلما قلّ النزوع الشرير للإعدام.

لكن مهلكم.. ليس ما قلناه كل شيء، إنما ما زالت الجريمة الأساسية إلى الأمام! ها هم، وها هي أعمالكم أضحت مفهومة، سهلة للاستيعاب حتى للأمّي الجاهل!!! الحزب الصناعي:

أ- حضر للاشتراك في عملية التدخل، ب- تلقى الأموال من الإمبريالية، ج- قام بأعمال التجسس، د- وزع الحقائب الوزارية للحكومة المزمع قيامها.

هذا كل شيء! كمت الأفواه، وخنق المعترضون. وجل ما كان يسمع من خلف النوافذ زعيق المتظاهرين، وزئيرهم «الموت! الموت! الموت»!

أما التفصيل الأكثر لا ضرورة له؟... وما لزوم التفصيل والشرح؟... إلا إذا أردتم سماع المزيد... بيد أن الترويع سيكون مضاعفاً عند الشرح، لقد

جاء في الاتهام أيضاً، أن رئاسة الأركان الفرنسية كانت قد أشرفت عليهم، وكأن ليس لدى الفرنسيين، ما يكفيهم من اهتماماتهم، وصعوباتهم، ولا لديهم صراع محتدم بين الأحزاب... وكان كافياً لأن يصفر المتهمون! - حتى تتحرك كتائبهم للتدخل!. لقد تم تحديد موعد الانطلاق في بداية عام ١٩٢٨، لكنهم لم يتفقوا على هذا الموعد، ولم يتماسكوا بعد.. حسناً... ثم إرجاؤه إلى عام ١٩٣٠ للمرة الثانية، ولم يتفقوا... وحدد بدلاً منه عام ١٩٣١. هكذا... فمختصر القول، إن فرنسا نفسها لن تحارب، إنما كانت ستأخذ لنفسها! (جزاء الإشراف على التنظيم، جزءاً من الشاطئ اليميني لأوكرانيا، وكذلك إنكلترا لن تحارب أيضاً، لكنها وبغرض التخويف، كانت تسدي الوعود بتوجيه أسطولها إلى البحر الأسود، البلطيق (ولها مقابل هذا نفط القوقاز)، أما المحاربون الأساسيون هم... مئة ألف مهاجر (كانوا قد تشتتوا وتفرقوا... إنما بصفرة واحدة... يجتمعون)، وبعد ذلك يأتي دور بولونيا (لا نصف أوكرانيا) ورومانيا (ومعروف مدى النصر الباهر الذي حققته في الحرب العالمية الأول، وهي في الوقت نفسه عدو مقيت)! ولاتفيا، واستونيا (إن هاتين الجمهوريتين صغيرتان، ولهما جل الاهتمام في بناء جمهوريتهما الفتيتين، لذا كان من مصلحتهما المشاركة في التأثير على الجماهير وتوجيهها باتجاه الحرب)، والأكثر ترويعاً - هو توجيه الضربة الرئيسية... لكن كيف تم الاطلاع على هذا!؟، ... نعم ستبدأ الضربة من بيسارابيّ، وتمتد حتى تصل إلى الشاطئ الأيمن لنهر دنيبر - وهكذا حتى تطال موسكو)[1]... وفي هذه اللحظة، تتم السيطرة على الخطوط الحديدية.. وسيحل الدمار..؟؟؟ - ليس

١- من قام برسم (خطة الهجوم هذه) لكريلنكو، على علبة السجائر، أليس ذاك نفسه، الذي ابتكر فكرة دفاعنا في بداية عام ١٩٤١؟.

هذا كل شيء، بل سيتم إحداث الانقطاعات!، إذ سيقوم أعضاء الحزب الصناعي بنزع كافة المصهرات، والفواصم في محطات التوليد، وسيعم الظلام على الاتحاد... وتتوقف كافة الماكينات، بما فيها النسيجية!، ويعم التخريب. (انتبه... لم يقم المتهمون، حتى جلسة الاختتام، بتسمية وسائط التخريب، ولا تسمية المعامل!، ولم يضعوا أيّ خطوط جغرافية لمواقعهم، ولم يذكروا أسماء الأجانب، ولا أسماء مواطنينا)!، فلتربطوا هنا وفي هذا السياق، ضربة مميتة بالقطاع النسيجي، التي يكون قد تعرّض لها في تلك الآونة، وأضيفوا من اثنين إلى ثلاث فبارك نسيجية، يقوم المخربون ببنائها في بيلاروسيا كي تكون بمثابة قواعد استناد للمتدخلين (... إنهم لا يعرفون المزاح)!، وما إن يحتلها المتدخلون، حتى يندفعوا إلى موسكو!. أما المؤامرة الغادرة هي، في أنهم أرادوا (ولم ينجحوا) في تجفيف المصاطب المائية في كوبان، ومستنقعات بولسكي، والمستنقعات المحيطة ببحيرة إيلمين (كان يمنع على فينشيسكي تسمية المكان بدقة، لكن شاهد ما أفشى السر الممنوع) - وعندها تنفتح أقصر الطرق أمام المتدخلين، دون أن تبتل أرجُلهم، وحوافر خيلهم، ويصلون إلى موسكو (لماذا لم يتمكن التتر من هذا؟... ولماذا لم يستطع نابليون العثور على موسكو؟...

أجل لقد كان كل هذا بسبب مستنقعات بولسكي وإيلمين، ... لو أنهم جففوها وكشفوا عن صخرها الأبيض!... لوصلوا)... نعم فلتضيفوا أيضاً، وأيضاً... بأنه تحت ستار مصنع تقطيع الأخشاب، تم بناء (دون ذكر المكان) هنكارات لتربض فيها الطائرات (طائرات المتدخلين) وتقف تحتها أثناء المطر، وسيتم تسليحها، وبنيت كذلك (دون ذكر المكان) المستودعات لهم! (فأين أقام المحتلون، الذين لا بيوت لهم في الحروب السابقة)؟... كان المتهمون قد تلقوا كل هذه المخططات من سيد أجنبي لغز، أطلق عليه اسم ك. و. ر. (لن نسمي الأسماء، ولا بشكل من

الأشكال، ولن نسمي حتى الدول التابعين لها في النهاية إلى أما في زمن متأخر، كانت قد تمت المباشرة في «تحضير الأعمال الخيانية لبعض وحدات الجيش الأحمر)، (كذلك لم تسمّ القوات، ولا صنفها، ولا الوحدات، ولا الأسماء)، وبهذا لم يقدموا للحقيقة شيئاً - إلا أنهم حزموا أمرهم، ونووا (ولم يغفلوا شيئاً) في أن يربطوا مؤسسة عسكرية مركزية ما، بدائرة الممولين، المؤلفة من الضباط القدماء في الجيش الأبيض (أخ الجيش الأبيض... إذاً اسحلوهم... اعتقلوهم)!، وكذلك تم تشكيل حلقات طلابية معادية للسوفييتية... (طلاب؟ هيا اسحلوهم... واعتقلوهم)!

(غير أن مقولة: آلو... آلو - لا تتكسر - وكأنها لم تجعل الطبقة الكادحة تتكدر بعد، لأن كل شيء يهوي الآن، وإن السلطة السوفييتية، قد انحدرت تماماً - وأظهرت بشكل جلي، ذاك المنحى: كثيراً ما نوهنا إليه.. إلا أن ما حصل كان قليلاً! ولم تكن الخسارة كبيرة في مجال الصناعات النسيجية فقط).

لكن.. لماذا ومع كل هذا، لم يتحقق التدخل؟ هل يعود ذلك لأسباب مختلفة معقدة!! أم بسبب عدم انتخاب حزب بوانكار في فرنسا، أم لأن مهاجرينا - الصناعيين، اعتقدوا، بأن منشآتهم الصناعية السابقة، لم يتمّ تجهيزها بعد، بما فيه الكفاية، من قبل البلاشفة، لذا كان من الأجدى، ترك البلاشفة يكملون التجهيز أكثر وأكثر.. أم لأن بولونيا، ورومانيا، لم تستطيعا الاتفاق حتى الآن.

لكن الأفضل والأمثل في ذلك كله، ألا يتم ويتحقق التدخل، ويكفي، ما نفذ من تحقيق كينونة الحزب الصناعي!... أتسمعون الهمت؟ أتسمعون هدير العمال الكادحين (الموت الموت.. الموت» وهم يتقدمون قدماً «ليضحّوا بحيواتهم، ويلاقوا الويلات، والحرمان عند قدوم الحرب،

ويعودوا، ليحصدوا إنتاج تضحياتهم تلك، من نتائج أفعال هذه الشخصيات الماثلة أمامكم»! (كلمة لكريلنكو). (لكن كيف تمكن من الرؤية في الوسط المائي) ولا سيما تلك الحيوات والحرمان، والمعاناة، التي سيدفعها هؤلاء المتظاهرون الصادقون في عام ١٩٤١ - ثمناً لتصرفات هذه الشخصيات!... إلى أين تدسون إصبعكم أيها المدعي؟ وإلامَ تشير)؟.

إذاً... لهذا، كان «الحزب الصناعي»؟... ولماذا - هذا الحزب تحديداً، وليس مهندسو المركز الفني؟؟.. فنحن تعودنا - على المراكز!

في البداية كان مركزاً، وقرروا تحويله إلى حزب فهذا ألذّ مذاقاً، وسيؤمن السهولة أكثر من أجل حيازة الحقيبة في حكومة المستقبل المقترحة، وهذا يعني جماهير المركز الهندسي - الفني للصراع من أجل السلطة» لكن الصراع مع من؟ - مع الأحزاب الأخرى!، أولها حزب الكادحين العمال والفلاحين، لأن لديهم مئتي ألف عضو! وثانيها مع حزب البلاشفة! أما المركز؟... ها إليكم ثلاثة أحزاب تمتزج مع بعضها، لتكون المركز الموحد، إلا إن الإدارة السياسية سحقته، والأفضل من ذلك.. سحقونا جميعاً! (فالمتهمون راضون)!.

...(مبعث سرور عارم لستالين، سحق ثلاثة أحزاب دفعة واحدة... ألا يكون المجد بهذا أكبر حجماً... بإضافة ثلاثة مراكز»)!.

وطالما كان حزبا - فالأمر يعني وجود لجنة مركزية خاصة به! لكن في الحقيقة دون أيّ مؤتمرات، وانتخابات، ودون أن تتم في الواقع، حتى ولو لمرة واحدة. فمن أراد الدخول، حتى ولو كانوا خمسة أشخاص. فالكل يتنازل للآخر، والآخر يتنازل عن المنصب الرئاسي للآخر، دون أيّ اجتماعات منعقدة - لا عند اللجنة المركزية (ولا يوجد أحد يذكر هذا، لكن رامزين وحده يتذكر هذا جيداً، ليس هذا فقط، بل يسمّي)! - ولا في المجموعات الفرعية، ولا أي اجتماع بلا بشر حتى... يقول

تشارنوفسكي: «لم يكن في الوجود حزب صناعي، ولم يكن له حتى أيّ درجة من التكوين الشكلي». لكن كم كان عدد الأخطاء؟ يجيب لارتشيف: «من الصعب تعداد الأعضاء، فالكم الدقيق غير معروف!، لكن كيف حزيتم؟ وكيف تبادلتم البيانات؟... ويجيب، كأن أحداً ما، كان يقابل الأخر في المؤسسة - يتم التناقل شفاها، وبعدها كل يخرب حسب معرفته. (إلا أن رامزين يسمي بثقة مطلقة، ألفين من الأعضاء. اثنان هنا، وخمسة هناك في السجن، على الرغم من إن عدد المهندسين، كان قد بلغ في عموم الاتحاد أثناء المحاكمة من الثلاثين - إلى أربعين ألف مهندس. هذا يعني اعتقال واحد من سبعة - وترويع الستة الآخرين بالأول) - وكيف كان التماس مع الفلاحين؟... هكذا إما عند لقائهم أثناء مناقشة الخطة الحكومية، أو في إدارة الشؤون الزراعية - ومن هناك، كانوا ينسقون الأفعال ضد شيوعيي الريف»...

ترى... أين كنا قد رأينا؟... أوه إليك... أين: في «القداديس» القديسون كانوا يقومون بالوعظ، أثناء المسيرة، والأوركسترا تصخب... ويقف من الجنود ثمانية في خوذهم وحرابهم، وألفين من المتهمين مرسومين على شرفات الأبنية! هو.. ذا الحزب الصناعي.

لا شي يحدث... بل كل شيء يُلعب! (إنه لمن الصعب علينا الآن التصديق، كيف بدا كل ذلك التهديد، والوعيد، والجدية، كما وكأنها صادقة، لتأخذ بخناقنا فيما بعد). ويلجون بالإعادة والتكرار، ليدخلوا في روعنا مع كل مشهد، هذا الشبح، الذي يأخذ في الازدياد، والتضاعف، كيما يفرط عقد المتهمين، ويحاولون التملص والإفلات و (التنصل) - لذا تراهم «يطبقون عليهم بتلك الأدلة، والإثباتات، وتقاطع المعلومات بسرعة منقطعة النظير»، وتأتي النتيجة حيوية، كما وكأنها طحلبية أزلية. لكن كريلنكو عقد العزم فقط، على أن يظهرها،

كجانب جديد للحزب الصناعي - ليبرهن للقواعد الاجتماعية صدق انتمائها التنظيمي، بعد أن أصبحت معزولة الطبقة، والتحليل لا يؤديان الغرض بشيء، ويكون بهذا قد تراجع عن منظومة ستانيسلافسكي، وراح يوزع الأدوار، ويتركها للارتجال: لندع كل منهم، يتحدث عن حياته، وعن الكيفية التي نظر بها إلى الثورة، والكيفية التي أوصلته، لأن يقوم بأعمال تخريبية.

لكنه دمجٌ أرعن، فكيف تكون هيئة إنسانية واحدة، ضربت بشكل مجاني، خمسة عوامل دفعة واحدة: الأول: نعلم وبالغرابة بأن هذه القياطس البرجوازية من حيث نسبها لكن ليس الثمانية كلهم - منهم أبناء عائلات فقيرة، ضمنهم ابن الفلاح، ومنهم ابن موظف محاسب، ورب عائلة كبيرة، ومنهم ابن حرفي، ومنهم ابن معلم ريفي، ومنهم ابن بائع كشة... فالثمانية تعلموا بقروش نحاسية، وعملوا خلال كافة مراحلهم التعليمية في الصيف كي يكفوا أودهم... وتعليمهم! - وبدؤوا من الثمانية عشرة، والرابعة عشرة من عمرهم بالعمل، منهم من عمل بيديه، ومنهم من عمل على القطارات... بل إن الأكثر غرابة وإعجازاً من كل هذا، إنهم سلكوا طريق العلم، في زمن القيصرية، ولم يسد الطريق أمامهم! وأنهى الجميع الدراسة الثانوية بشكل اعتيادي، وأنهوا بعد ذلك المعهد الفني، وصاروا أساتذة عظاماً، (فكيف بعد كل هذا... يكونون برجوازيين؟... لكن هم (عصبة المحكمة) من قال لنا... بأنهم أبناء ملاكين زراعيين، ورأسماليين!؟... فالسنة التقويمية لا تخطئ أبداً)!؟....

وها هم الآن في الزمن السوفييتي، مهندسون مكافحون... لا يستطيعون حتى، تأمين التعليم العالي لأولادهم (الستم أبناء الطبقة المثقفة - فهذه آخر درجة من التصنيف الطبقي، ... فلتذكروا هذا)!. لا تحاول.. فالمحكمة... لا تحب النقاش، وكريلنكو لا يحاول قط:

(فالمتهمون أنفسهم) متعجلون للكلام. والإحاطة بكلِ شاردة وواردة، على خلفية الانتصارات العامة - وهذا هو الشيء الأهم)!

لنبدأ الآن بالتمايز ما بين المتهمين أنفسهم (لقد تكلموا حتى الآن بسلاسة مطلقة) فسمة المؤهل في أعمارهم - تعزز أهم حالة لمنطق التسلسلية: فمنهم من كان له من العمر ستون عاماً، أو أكثر - وإن توضيح المسألة يعطي انطباعاً بالتوافق العاطفي. لكن الجزار الوقح، ذا الأربعين عاماً، ولارتشيف، وأوتشكين ذا الثلاثين عاماً (كان الأخير، هو من يقوم بإبلاغ الجهاز الرئيس للأمن منذ عام ١٩٢١) قاموا بجمع كافة المعلومات الأساسية عن الحزب الصناعي، ومقولة التدخل من المتهمين أنفسهم، ذلك لأن رامزين (في حال نجاحه المفرط)، لم تطعه الهندسة، ولم تقم بمد يدها إليه - ما عرف عنه، بأنه كان مخبراً (مسخّراً)، لذا تراه أثناء المحكمة، كان يهم بالتقاط إيماءات، تلميحات كريلنكو، حتى ولو لفظ ربع كلمة منها، ليأخذ دوره، ويكمل التشكيل التنظيمي الدقيق، ويقوم بإثبات كافة الاتهامات على أساس من ذاكرته الفياضة، وبما ملك من قدرة، ونشاط وتأثير تؤهله، لأن يتمكن من القيام بهذا العمل (حسبما اقتضت المهمة المسندة إليه من الإدارة السياسة العامة). وكان مكلفاً بصلاحية كاملة، لإجراء محادثات التدخل في باريس - وكذلك كان الآخر أوتشكين أكثر نجاحاً، على الرغم من أنه لم يكن يبلغ من العمر أكثر من تسعة وعشرين عاماً «واستطاع أن ينال ثقة مجلس اللجان الوطنية اللا متناهية»، (التي كانت بمثابة مجلس وزراء عند المتهمين المتآمرين).

لا يقلّ البرفيسور تشارنوفسكي، ذو الاثنين والستين عاماً، حنكةً عن المذكورين، وقد قام الطلاب الجدد بملاحقته عبر جريدة الحائط في زمان ما، بعد ما أمضى ثلاثة وعشرين عاماً في إلقاء المحاضرات، وقاموا

بعد ذلك باستدعائه إلى اجتماع طلابي عام (كي يقدم تقريراً مفصلاً عن نشاطه» (إلا أنه رفض هذا، ولم ينصَعْ لطلب الاستدعاء).

أما البرفيسور كالينكوف، كان قد قاد عام ١٩٢١ عملية صراع مفتوحة ضد السلطة السوفييتية - لا سيما أثناء إضرابات البرفيسورية المذكورة سابقاً، للمطالبة بالاستقلالية الأكاديمية، وفي عام ١٩٢١ أعاد مجلس الجامعة انتخابه، ليحتل منصب رئيس الجامعة لدورة ثانية، لكن اللجنة الوطنية لم توافق عليه، وعينت بدلاً منه. وأضرب الطلاب على ذلك (لأنه عندها، لم تتشكل بعد، الطبقة الطلابية (البروليتارية الحالية) بالاشتراك مع البرفيسورية - وبقي كالينكوف في منصبه لمدة عام، على الرغم من أنف السلطة (وفقط في عام ١٩٢٢، تمكنت السلطة من لي رقاب الاستقلالية، بعد تنفيذ الكثير من الاعتقالات).

أما فيدوتوف - كان عمره ستة وستين عاماً، زادت خبرته العملية، عن خبرة أقرانه في الهندسة أحد عشر عاماً، وتنقل أثناء عمله في كافة فبارك الغزل والنسيج في عموم روسيا (يا لهم من مقيتين.. ولشد ما كانت الرغبة في التخلص منهم)!، وفي عام ١٩٠٥ ترك منصبه كمدير عندما كان تحت سلطة مازوروف، واستغنى عن راتبه العالي، وراح يكثر من اشتراكه في «المآتم الحمراء» خلف جنازات العمال، الذين يقتلهم القوزاق، وها هو الآن يعاني من المرض، وضعف بصر، وبات لا يستطيع الخروج من المنزل.

وعلى الرغم من كل هذا - حضروا، وشاركوا في التخطيط للتدخل، والتقويض الاقتصادي؟ أما تشارنوفسكي، لم يكن لديه الوقت الكافي لقضاء الأمسيات، لأنه كان دائم العمل، في أمور التعليم، ودراسة العلوم الجديدة (مثل تنظيم الإنتاج - بعد أن بدأت عملية التنظيم، مثله مثل الكثيرين من المهندسين البرفيسورية، الذين ما زالوا في الذاكرة منذ الطفولة، لا سيما منهم أولئك، الذين أضناهم العمل مع الطلاب الدارسين،

معـدي الـدبلومات، والدراسـات العليـا، وحلقـات البحـث والرسـائل، ولم يستطيعوا عندها الالتفات إلى عـائلاتهم، إلا في الحادية عشرة مساءً، ذلـك لأن ما بقي منهم في كافة أصقاع البلاد، يبلغ ثلاثين ألفاً لا سيما بعد أن بدأت الخطة الخمسية - ألم يكونوا واقعين على قمة الانفجار.

ومع كل هذا - أعدوا المؤامرة - وتحسبوا لاستلام البقشيش!

كلمة شريفة واحدة، قالها رامزين أمام المحكمة «إن سبيل التخريب، دخيل على البنية الداخلية للهندسة».

كان كريلنكو يجبر المتهمين طوال الجلسات على التلوي، والتبرم، والانحناء، بسبب ما لديهم من معرفة قليلة (أو قل جهلة) في الأمور السياسية - ذلك لأن السياسة أصعب بكثير، بل أكثر علواً من أي تعامل مع المواد والمعـادن، وصنـع الأنابيـب، وتركيبهـا! فهـا هنـا لا وجـوب لأن، يعنيـك، لا الرأس، ولا العلم... ولا المردود، فكل شيء مبني على الكيفية المزاجية، التي استُقبلت فيها الثورة الأكتوبرية - فإذا كنت قد استقبلتها بارتياب وشك - فهذا يعني، بأنك مصنف في خانة العدائية السافرة؟ لماذا؟... لماذا؟...

لقـد أضنـاهم كريلنكـو بأسـئلته النظريـة - المـصاغة مـن الـتلفظ بالإنسانية البسيطة التي لا تمس الأدوار، كي ينجلي أمامنا كنه الحقيقة نفسها - فكلما كانت حاصلة بالفعل، كلما ظهرت تلك الفقاعات المنبعثة منها.

بدايـة، رأى المهندسون في الانقـلاب الأكتـوبري - (الـسقوط - في واقـع الأمـر كـان سقوطاً علـى مـدى سـنوات طويلـة)، ورأوا فيـه كـذلك، حرمـان النـاس البسطاء مـن الحريـة (لـن تعـود الحريـة قـط). إذ كيـف كـان يمكـن للمهندسـين، تقبـل ديكتاتوريـة العمـال - أتـرابهم في الـصناعة، قليلـي الخبرة والتأهيـل والاسـتيعاب لقـوانين الفيزيـاء الاقتـصاديّة لعمليـة الإنتـاج: إلا أنهـم في المقابـل عـارفون لأدوارهـم الرئيـسية في قيـادة المهندسـين! ولمَ لا يكـون

المهندسون، أكثر مسؤولية في بناء هذا المجتمع طالما يترأسه في الواقع، أولئك اللذين يستطيعون توجيه نشاطاتهم؟ (لكن دون تجاوز القيادة المعنوية للمجتمع) - أليس علوم السوبرنيتيكا الاجتماعية تؤدي إلى نفس الغرض في هذه الأيام، أليس السياسة العقابية هي القيد على رقبة المجتمع، تعيقه في أن يدير رأسه حيث شاء، وتجعله يتحرك على يديه؟ لماذا لا يملك المهندسون رأياً سياسياً؟ لأن السياسة - ليست هي نوع من أنواع العلم - وهي كذلك - مجالٌ تجريبي، لا ترسمه، ولا تحده أيّ علاقات رياضية، عدا عن أن الإنسانية ذاتها، معرضة للأنانية، وللذات العمياء (حتى أن تشارنوفيسكي قال في المحكمة: «يجب على السياسة، أن تسترشد لدرجة ما، بالنتاج التقني».

جل ما حققه هجوم عسكريي الشيوعية، هو تيئيس المهندسين في أنهم معلولو الفكر، لا يستطيعون المشاركة، وها قد فقدت غالبيتهم حتى عام ١٩٢٠ قوة التأثير، إن لم يكونوا قد محقوا معها... وما أن بدأ الإنتاج الاقتصادي - حتى بدأ المهندسون بالاندفاع للعمل بكامل رغبتهم، واستقبلوا هذه الخطوة بتعاطف منقطع النظير، وبدا لهم أن السلطة ثابت إلى رشدها... لكن.. الهوينا.. لا ضرورة للاشتراط المسبق، فالهندسة ينظر إليها فقط كطبقة اجتماعية - مريبة ولا تملك حق تعليم أبنائها، وتدفع الرواتب لها بأقل ما تستحقه قياساً بإنتاجها، ومع ذلك يطلب منها النجاح في الإنتاج، الالتزام به - مع أنها حُرمت من حق دعم هذا لالتزام ويستطيع أي عامل الآن، ليس رفض تنفيذ توجيهات المهندسين فقط - بل تحقيرهم وضربهم دون جزاء - وسيكون كما هي العادة، مالكاً حق تمثيل الحقوق العمالية - كما كان دائماً على حق.

يعترض كريلنكو - أتتذكرون عملية محاكمة أولدينبرغر؟ (كيف قمنا بالدفاع عنه عندها) فيدتوف - نعم... كاد يفقد حياته، كي يلفت انتباهكم إلى وضع المهندسين.

كريلنكو - (بخيبة أمل - لكن السؤال لم يكن على هذا المنوال)؟

فيدتوف - لقد مات، ولم يمت لوحده، لقد مات طوعاً، لكن الكثير منهم ماتوا قتلاً.

كريلنكو - هذا يعني إنها الحقيقة (تصفحوا عملية أولدينبرغر ثانية، وتصوروا معي ذلك الاضطهاد، وفي النهاية «كان الكثير قد قتل».

هكذا يكون المهندس مذنباً في كل الحالات، حتى في تلك، التي لم يكن له فيها ذنب، وربما يكون قد أخطأ في تنفيذ عمل ما، وهذا أمر طبيعي، طالما أنه إنسان - لكن بجريرة خطئه هذا قد يفترسونه، إن لم يقم زملاؤه بالتغطية عليه. فهل سيقدّرون عندها، يا ترى هذه العلنية؟ وتلك الصرخة؟... أم يضطر المهندسون في غالب الأحيان، للكذب أمام القيادة الحزبية؟. بغية الحفاظ على هيئة الهندسة وسمعتها وكان من الضروري، أن تتوحد عملياً، وأن يعمل كل منهم على انتشال الآخر - فالجميع واقعون تحت التهديد، لكن ومن أجل هذا التوحد، لا لزوم لأيّ مؤتمرات وأيّ اجتماعات، ولا لزوم أيضاً لأيّ بطاقات عضوية وجل ما هو ضروري الفهم المتبادل الدقيق بين الناس المفكرين. وعندها فقط يصل هذا التوحد إلى ذروته، بعقل تلك الكلمات الهادئة الرصينة، دونما ضرورة للتصويت، ويكفي عند ذلك فقط الفعل المنظم لتلك القرارات داخل الهيكل الحزبي الواحد (هذا ما لم يستطع ستالين، ولا المحققون، ولا ثلتهم... فهمه... فلا يوجد لديهم التجربة الكافية في العلاقات الإنسانية المتبادلة، ولم يروا مثلها في التاريخ الحزبي)!

نعم... إن مثل هذا التوحد بين المهندسين، قد وجد منذ زمن بعيد في هذه البلاد الجاهلة المترامية الأطراف، وقد اختُبرت قوتها عبر الكثير من النشاطات - لكن السلطة الجديدة قد لاحظت، وعملت على تقويضها من جذورها.

ويحين وقتها عام ١٩٢٧.. وتتبخر عندها حكمة الإنتاج الوطني الاقتصادي! - ويتضح أن كل عملية الإنتاج الوطني الاقتصادي كانت - كذبا متهوراً، وتبرز عندها تلك البرامج غير العادية المتهورة لتلك القفزات، التي كانت تفوق الطاقة الصناعية، وإنهم يرسمون خططاً ومهماتٍ غير قابلة للتحقيق - حيال هذه الظروف.. ماذا كان علينا أن نفعل بهذه الممتلكات الوطنية الاقتصادية؟ هل نرضخ للجنون؟، أم نتنحّى جانباً؟ لأنه ليس من المتاح لنا أن ندون على الورق أيّ أرقام - لكن «ألم يكن على رفاقنا العاملين الحقيقيين، تنفيذ هذه الخطة تحت ضغط القوة)، الأمر الذي يعني، وكأنها محاولة لتمويت هذه الخطط، وإعادة صياغتها بتعقل - واستبعاد هذه المهمات المطنبة، والوصول في النهاية إلى صيغة، هندسية للخطة الحكومية، كي يتم تصحيح الفجوات الغيبية للقادة - إن أكثر ما يضحك هو: ما مصلح تهم في كل هذا؟ وأي مصلحة للصناعات وللشعب؟ إن كل تغيير يؤدي في كل الحالات إلى تدمير القرار، وبالتالي ستنبثق في الأرض الملايين السائلة والصلبة، وسط هذا اللغط عن الكمية، وعن الخطة، وعن إعادة صياغة الخطة، ليتمّ الدفاع «عن النوعية - روح التكنولوجيا»، وسيصار إلى تربية الطلاب على هذا الأساس.

هو ذا الخيط النسيجي الرفيع للحقيقة... كما كانت، وكما بدت لكن إذا ما تلفظت بها في الثلاثينيات، وطرق الأسماع ما قلته؟ - سيحل الموت!

لكن كي لا تغتاظ الصفوف - نادراً ما كان يسمع عن هذا!

لذا كان لا بد من إعادة جرش المؤامرة الهندسية الصامتة المنفذة عن البلاد، وصبها في قالب التخريبية، والتدخل.

هكذا بدت اللوحة أمامنا، غير متماسكة، وغير مثمرة - لاستجلاء الحقيقة، وزحف العمل الإخراجي بتثاقل، لقد باح فيدوتوف عن سر حرمانه

من النوم خلال ثمانية أشهر، ... وقيل له، منذ زمن ليس هو بالبعيد، ولا بالقريب (ربما كان هذا استدراجاً؟ ونفذ الدور الموكل إليه - وستعمل الإدارة السياسية على تنفيذ وعودها)؟

نعم هكذا كان الشهود، ومع كل هذا، راحت الأدوار المسندة إليهم تحيد عن مرماها.

كريلنكو - هل اشتركتم مع المجموعة؟

الشاهد كيربيونكا - اشتركت مرتين أو ثلاث مرات، أثناء التحضير لمسألة التدخل

كريلنكو - (مشجعاً) تابع

كيربيتونكا - أحجم... لا أعرف أكثر من هذا

كريلنكو - يحفز ويثير، ويذكر

كيربيتونكا - (بغباء) - عدا التدخل.. لا أملك أيّ معلومات أخرى.

لم تتوافق المعلومات عند مواجهة الشاهد كويريانوف مع كيربيتونكا الأمر الذي أثار حنق كريلنكو، وراح يصرخ على المعتقلين الأغنياء.

إذاً.. علينا أن نعمل لتكون الأجوبة متماثلة!، وهكذا سيعاد ترتيب كل شيء، وستتم مقايسة الفواصل الزمنية في الكواليس بين المشاهد، ويتضح ثانية إن المتهمين كانوا في حالة من عدم الانصياع، ويتوقع أن يتعرضوا للنتف ثانية ويباشر كريلنكو عملية نتف هؤلاء الثمانية: ها... الصناعيون المهاجرون.. قد أصدروا مقالة، نفوا فيها إجراء أيّ محادثات مع رامزين، ولارتشيف، ولا يعرفون شيئاً عما يسمى «بالحزب الصناعي». انتزعت الأدلة والإثباتات تحت التعذيب... هيه... ماذا تقولون عن ذلك؟... إلهي!... أي اضطراب وهيجان لف المتهمين، وراحوا يندفعون متزاحمين للإدلاء بأقوالهم، طالبين فرصة الكلام!!... أين ذهب ذاك

الهدوء المنهك القوى، الذي اعتراهم عدة أيام، بينما كانوا يحضرون أنفسهم وزملاءهم! لتثور في أنفسهم ثائرة الاستياء والامتعاض من المهاجرين!، ولينـدفعوا ابتغاء نشر تصريح خطي في الصحف - ناهيك بأنه جاء تصريحاً جماعياً منافحاً عن سبل ووسائط الإدارة السياسية العامة.

(أليست هذه، رتوش تزيينية براقة كما الألماس)؟

رامزين - إن وجودنا هنا، لهو إثبات كاف، لعدم تعرضنا للتعذيب، والتنكيل! إذاً لأيّ حالة تصلح هذه التعذيبات، طالما كان تنفيذها قبل المحاكمات ممنوعاً!؟ فيدوتوف - لقد أسدى لي سجاني فائدة، وأيّ فائدة... لدرجة بت أحس فيها؛ بأنني أفضل مما كنت طليقاً!

أوتشكين - وأنا أيضاً... على أحسن حال!

فقط هما حالتا الشهامة والنبل اللتان جعلتا كريلنكو وفيشينسكي يعرضان عن نشر هذا التصريح الخطي الجماعي، وإلا لكانوا - كتبوه! ووقعوه!.

نعم... ربما كان لدى البعض بعض الشك؟ لذا ترى الرفيق كريلنكو يقتطع شيئاً من تألقه المنطقي، ليقطع ذاك الدابر، ويقول: «لو أنّا افترضنا، ولو للحظة واحدة، إن هؤلاء الناس لا يقولون الحقيقة - فلما إذاً نقوم باعتقالهم؟، ولماذا يفيضون ثرثراتهم هذه فجأة»؟.

هذه هي قوة الفكرة - لن يحزر المعتقلون، حتى بعد مئة عام: إن عامل الاعتقال ذاته، يثبت الاتهام!، وإلا ما المبرر، لاعتقال المتهمين لو لم يكونوا مذنبين! فطالما تم الاعتقال فلا بد من أن يكونوا مذنبين!

وبالفعل... ما الذي جعلهم يتآمرون؟

«لندع مسألة التعذيب جانباً!... ولنطرح السؤال سيكولوجياً، لماذا اعترفوا؟ وأتساءل ماذا بقي لهم؟... أن يفعلوا»؟

لكن كما هي الحقيقة، وكما هي السيكولوجيا!، فإن على كل من عاش في تلك المؤسسة، عليه أن يتذكر: ماذا بقي له أن يعمل؟

«يكتب إيفانوف رازوميك، إنه في عام ١٩٣٨ جلس مع كريلنكو في سجن بوتيركا وفي حجرة واحدة، وكان مكان كريلنكو متوضعاً تحت سرير خشبي، وإني لا أتذكر ذلك بشكل حيوي «كيف زحفت إليه»، وكيف كانت تلك الرفوف الخشبية منخفضة لدرجة لا تستطيع فيها الزحف على صدرك، دون أن يسحل وجهك على الأرض الإسفلتية القذرة، ويصعب على المبتدئ، التكيف مع هذا، حيث يباشر الزحف على القوائم الأربع، ويدخل رأسه، وتبقى عجيزته المنتفخة خارجاً، وسيمر الوقت الطويل، لتنحف العجيزة.

ساوى ذلك الوقت، ما بين الظلم والعدل والإنصاف السوفييتي. وإني لأتصور ذلك الإنسان، وتلك العجيزة بشماتة الإثم، وما هذا التوصيف لتلك الحالة، إلا ليخفف من روعي لمدى طويل... وقد يزيدني هدوءاً)...

إضافة إلى هذا، كان يمكن للمدعي العام، الانقضاض، كما ولو أن كل شيء قيل تحت «التعذيب» كان حقيقياً - لكن من غير الواضح، ما الذي أجبر الجميع على الاعتراف بصوت واحد دونما لجلجة، ودون جدال كما الكورس المنظم؟... وأين، وكيف تمكنوا من تقرير هذه المؤامرة الجبارة؟ - طالما لم يملك أحدهم، التواصل مع الآخر أثناء التحقيق؟.

(فبعد عدة صفحات سيحدثنا الشاهد السليم، عن هذه الأين)..

والآن لست أنا من يوضح للقارئ، بل دع القارئ نفسه يوضح لي ما هو وجه القباحة في «أحجية عمليات الثلاثينيات الموسكوفية». «كانوا أول ما سحقوا «الحزب الصناعي»، وبعد ذلك انتقلت الأحجية إلى محاكمات الزعماء الروحيين)؟ علماً بأن عدد المتورطين لم يبلغ الألفين، ولا المئتين، ولا الثلاثمئة، بل كان عددهم ثمانية فقط، منهم من اقتيد إلى المحكمة؛

فالكورس المؤلف من ثمانية لا يحتاج للكثير من الذكاء والتوجيه. وقد ملك كريلنكو المقدرة عبر السنين، لأن ينتقي... وانتقى، لكن بالتشيسكي لم ينكر - وأعدم (وأعلن موته أمام «قيادة الحزب الصناعي» على الرغم من أنهم يذكرونه في الأدلة، إلا أنه لم تبق كلمة واحدة مما قاله، مدونة في المحضر - عدا عن أنهم سئموا بعد ذلك من استخلاص الإقرار المطلوب من خرينكوف - الذي لم يتراجع أمامهم، وقد ورد في الحاشية ولمرة واحدة «إن خرينكوف مات أثناء التحقيق» لقد كتبت الحاشية للأغبياء، أما نحن فندرك، ونعلم، ونعلنها بأحرف كبيرة وبالخط العريض، بأنه مات تحت التعذيب أثناء التحقيق! (مات موتاً، وأعلن عنه بأنه رئيس «الحزب الصناعي»، لكن دون أن يتمكنوا من استخلاص كلمة واحدة منه، ولم يحصلوا ولو على برهان صغير، ولا على أي دليل يثبت دوره اللحني في الكورس، ولا حتى إشارة واحدة، ذلك لأنه لم يدلِ بأيّ معلومة مهما صُغرت)!... وفجأة ينبري الكنز - رامزين! هذا الجبروت، وتلك المقدرة الفائقة!.. هذا الذي ذهب كل مذهب، كي يتسنى له العيش! لكن أيّ عبقرية تلك!، لقد اعتقل في نهاية العام، قبيل عملية المحاكمة بقليل - ومع ذلك لم ينخرط في دوره فقط، بل راح يقضم المشاهد قضماً، وأمسك بزمام المداخلات اللصقية، وأظهر البراهين بحلل قشيبة، وألحقها بالأسماء، والكنى، وأحياناً دبّجها بأسلوب منمق خنوع» «كان نشاط الحزب الصناعي، متشعباً لدرجة تصعب الإحاطة به خلال أحد عشر يوماً من المحاكمة ليتسنى كشف كافة الملابسات بتفصيل كامل» (هذا يعني... استمروا في التدوين أكثر وأكثر)! «إنني على يقين كامل، بأن طبقة صغيرة معادية للسوفييتية، ما زالت متخفية في الدوائر الهندسية» (فراخ... فراخ. هيا أمسكوا بها)- ترى لأيّ درجة كان مؤهلاً: ليعرف حل الأحجية ليصححها وينفذها بشكل فني بدا كعصى لا حياة فيها، ووجد في نفسه

فجـأة «سمـات الجريمـة الروسـية، الـتي يتطلـب تطهيرهـا - مـن كـل النـدم والغفران الشعبي».

تنويه: لا يستحق رامزين أن تتحاشاه الذاكرة الروسية، وإني لا أعتقد، أنـه يستحق ألا يضحى نموذجاً اسمياً ماجنـاً وخائنـاً أعمـى. إنه النـار البنغالية للخيانة، إن لم يكن الوحيد في هذا المجال، لكنه - الأبرز فيه (انتهى التنويه).

إذاً، جل الصعوبة أمام كريلنكو، وأمام الإدارة السياسية، كانت كامنـة - في عـدم الخطـأ في انتقائيـة الوجـوه، لكـن المخـاطرة لم تكـن بالكبيرة: فالتزاوج التحقيقي، قد يؤدي دائماً إلى المقبرة، فمن يعبر ثقوب المصافي، والغرابيل - هو الذي يُعالج ويُطعم، ويقاد إلى المحكمة!

لكـن أيـن تمظهـرت «الحـزورة» في ذلك؟ وكيف سيتم صقلهم؟... هـا إليكم.. كيف: ألا ترغبون في العيش (منهم من أحب العيش، لأجله ولأجل أطفاله وأحفاده) فلتتذكروا!! قد يطلق عليكم الرصاص، قبل أن تفلتوا من باب الإدارة السياسية، وعندها لـن يساوي ذلك الذي فعلتموه شيئاً؟ (لا شـك، أن هــذا مــا كــان، ومــن لم يــستوعب - فإليــه دورة الكــنس اللوبيانكي». من المريح لنا ولكم، فيما إذا لعبتم أيّ مسرحية، بنصوص لستم كاتبيها كمحترفين، فإننا نحن النواب العامّون، نقوم بتعليمكم، وسنحاول تـذكر المـصطلحات الفنيـة (غالبـاً، مـا خلـط كريلنكـو أثنـاء المحاكمة، بين عمود المرفق للقاطرة والمقطورة) وإذا ما تراجعتم، ستحل عليكم لعنة البين والشين - وما عليكم إلا الصبر! فالحياة كما تعلمون غالية!- لكن ما الضمانة.. لو أنكم قمتم بإطلاق النار علينا بعدما قلنا كـل شـيء؟ - لكــن مــا الــداعي لأن نقـوم بالانتقــام مــنكم، فــأنتم - اختصاصيون رائعون، ولا ذنب لكم، وإنا لكم لمقدرون وكونوا على يقين بأنه حتى الآن، تمت عمليات تخريبية كثيرة، وتركنا كل المتهمين، الذين تـصرفوا بـشكل لائـق، أحيـاء (رحمـة المـتهمين المطـواعين في العمليـات

القضائية السابقة - شرط مهم لتحقيق النجاح في العمليات المستقبلية، كي تتواصل سلسلة الأمل هذه، حتى قدوم زمن محاكمة زينافييف - كامنييف) لكن عليكم تنفيذ كافة شروطنا حتى النهاية، لأنه يجب أن تتوافق عمليتنا مع منحى النفع العام للمجتمع الاشتراكي!

وهكذا ينفذ المتهمون كافة الشروط

مع كل حذاقة المعارضة الهندسية المتنورة، استسلمت لهذه التجربة القذرة - ولهذا الفهم المتساهل لهذا المقلب الأخير (إنما حتى تاريخه، لم ينشر المجروش الزجاجي في صحن الطبقة العمالية!

ولم يفلح المدعي العام بالتكفير عن هذا!

بعدها تأتي الدوافع العقائدية... ألم يبدأ التخريب بناءً عليها؟ - أليس انطلاقاً من هذه الإيديولوجية التخريبية، راحوا يعترفون بشكل حبي؟ ألم يقلبوا ثانية بسبب هذه المعتقدية (في السجن) في الفرن العالي للسنة الثالثة من الخطة الخمسية؟ ومع كل هذا راحوا يرجون، ويطلبون في كلماتهم الأخيرة، منحهم الحياة، لكن هذا - لم يكن عندهم بالأمر المهم، (إذ يقول فيدوتوف: «لا مفر لنا فالمدعي العام على حق»!، لكن كان الأمر الأهم لهؤلاء المتهمين الغريبي الأطوار، الواقعين على عتبة الموت - هو إقناع الشعب والعالم كله بنزاهته، وعصمته، وبعد النظر للدولة السوفييتية. أما رامزين يجل بشكل خاص «الوعي الثوري للجماهير البروليتارية وزعمائها الذين «استطاعوا إيجاد أنسب الطرق السياسية الاقتصادية» التي فاقت ما تصوره العلماء، وجاءت أكثر مصداقية، وأخذت في الحسبان وتيرة تطور الملكية الشعبية. «وأدركت الآن ماهية وجوب الغفران، وضرورة الثبات[1] لاكتساح الصعوبات واجتثاثها».. إلى أخره.

١- هذا ما كان يقال عندنا في عام ١٩٣٠- من ذلك الزمن، الذي كنت فيه أحبو عن مدارج طفولتي.

أما لارتشيف قال «لن يقهر الاتحاد السوفييتي، بقوى هذا العالم الرأسمالي المترهل» وكالينكوف يقول: «إن ديكتاتورية البرولتياريا ضرورة حتمية، فمصالح الشعب، ومصالح النظام السوفييتي تصب في هدف وطموح واحد». وحتى إن ما تم في الريف «كان سبيلاً قويماً للحزب، وسعيه على طرائق تدمير الكولاكيّة».. لقد كان لديهم الوقت الكافي، ليستوعبوا كل شيء، ريثما يحين زمن إعدامهم. حتى إن المثقفين النادمين هؤلاء وجدوا مسلكاً في حنجرتهم للتنبؤ: «لا بد.. وحسب معطيات التطور)، من أن تصبح الحياة الفردية في المجتمع ضيقة، وستحتل الإرادة الجماعية الشكل الأرقى فيه».

وهكذا.. وبفضل شد عدة الدواب الثمانية تحققت كافة أهداف العملية.

١- شطب الشح والجوع والبرد والعري والالتباس والسخافة في البلد تحت يافطة المهندسين المخربين.

٢- تخويف الشعب من ظهور نتوء المتدخلين، وبهذا أصبح الشعب مستعداً لقبول التضحية من جديد.

٣- تحطيم التكافل الهندسي، وإخافة الطبقة المثقفة وتشتيتها.

وكي لا تبقى أيّ شكوك في تحقيق أهداف هذه العملية، يهتف رامزين للمرة الثانية. «أريد القول في نهاية العمليات الحالية لمحاكمة الحزب الصناعي، إنه كان من الممكن، وبناء على الماضي المظلم المشين للطبقة المثقفة، أن يُنصب الصليب على رمسها وللأبد)، وينبري لارتشيف «كان يجب تصفية هذه الطائفة... لأنه لم يكن الإخلاص بادياً في أوساط هذه الطبقة الهندسية... وحتى إنه لا يمكن أن يكون»!... ويتبعه أوتشكين: «الطبقة المثقفة هي كما الوحل بشكل أو بآخر. لأنها ليست متناً فقريّاً، حسبما أورد المدعى العام الحكومي، لا بل إنها دون أدنى شك، لا فقرية...

ولكم هو منخفض حدسها، قياساً بطبقة البروليتاريا» (لكن ما السبب في تفوق الحدس لدى الطبقة البروليتارية دائماً، لا بد من أنها تتحسس كل شيء عبر خيشومها).

إذاً لماذا يقدم هؤلاء المجتهدون هذا الذي قدموه!... فأول ما أعلن الإعدام على الرئيس، وأما أولئك، ربما تلقوا حكماً بعشر سنين (وفجأة يندفع رامزين، ليرضي الرؤوس الحرارية الفنية».

هكذا وضعت السنون العشر، تاريخ طبقتنا المثقفة - فمن لعنة السنة العشرين (قد يخطر ببال القارئ «إنها ليست عقل الأمة، بل هي يبابها» وحتى لعنة السنة الثلاثين، التي حلت فيها تلك اللعنة على «اتحاد الجنرالات السود» «العملاء المأجورين للإمبريالية» فهل نستغرب بعد هذا - لماذا رسخت عندنا كلمة «المثقفين» كما وكأنها شتيمة؟

على هذا المنوال تعتمل العمليات المحكمية العلنية! وهكذا بلغت بها الفكرة الستالينية المكتشفة حدّ الكمال (فمن... بعد هذا يستطيع، أن يحسد هتلر، وغوبلز، كيف أنهما حشرا رايختهما المحترق في البين)...

ها قد بلغ المعدل (الوسطي) قمته - ويمكن أن يحافظ الآن على هذا المنوال لعدة سنوات تالية، حتى ولم تم ذلك في ظل فصل من فصول المسرحية - أو حسبما يرتئيه المخرج الأول، فالأنسب له الآن، أن يحدد موعد المسرحية خلال ثلاثة أشهر، حتى ولو

تم ضغط موعد حفظ البروفات، فمع ذلك لا بأس عليكم، مشاهدة، وسماع مسرحنا فقط!

المسرح الأكمل!.

عملية المكسب السياسي لاتحاد المناشفة (١-٩ آذار عام ١٩٣١).
بحضور أعضاء المحكمة العليا، لكن رئاستها أنيطت لسبب ما بشفيرنيك، وبقيت عضوية كل من، أنطونوف - ساراتوفسكي، كريلنكو، ومساعدة

روغينسكي: فالمخرج على ثقة تامة بنفسه (ذلك لأن المادة ليست فنية، إنما هي حزبية مألوفة) - وصعد إلى المسرح أربعة عشر متهماً.

كل شيء يمر، ليس بسلاسة فقط - بل بسلاسة أخاذة، أتعلم كان لي عندها من العمر اثني عشر عاماً، ومرت علي سنوات ثلاث، وأنا أتصفح الصحيفة الكبيرة «الإزفستيا» وأقرأ من وقت لآخر تلك المحاضر المختزلة لهاتين العمليتين، وأحسست عند قراءتي عملية «الحزب الصناعي» بقلبي يتقافز في صدري، لما استكشفته من كذب بين السطور لكني وللحق أقول، لقد كان الديكور المسرحي جباراً - لذلك التدخل الكلي! ولذاك الشلل الذي حل في الصناعات، وتوزيع الحقائب الوزارية!.. كان المناشفة معلقين في صميم الديكور، باهتي الوجوه. لكن الممثلين، كانوا ينطقون بلا مبالاة، لدرجة يتملكك فيها التثاؤب من جراء التكرار غير الموهوب (فهل يعقل، أن يكون ستالين قد أحس بجلده الخرتيتي إحساسي هذا؟ وكيف لنا أن نتبين، لو أنه ألغى الحزب الصناعي، لكانت اختفت يا ترى... مثل تلك العمليات لعدة سنوات تالية)؟.

لكم هو ممل التعامل مع تلك الاختزالات، لكني سأورد لكم الآن حديثاً طازجاً، نقله أحد المتهمين الرئيسيين في تلك العملية - ألا وهو ميخائيل بيتروفيتش ياكوبوفيتش الذي تسربت شفاعته بطلب إعادة الاعتبار مع التزوير في بعض الوقائع إلى منقذنا - صادر عن دار ساميزدات. والآن هي بين أيدي الناس، يقرؤون عمّا كان في ذلك الزمن.

تنويه: رفضت الشفاعة لأن العملية دخلت في طورها الذهبي المجمل لتاريخنا، ويُمنع انتزاع أيّ حصاة من ركنها - كيما ينهار، ولذلك بقيت المحكومية على ياكوبوفيتش، وخصص له راتب شهري تقاعدي للتسلية، بسبب ما كان لديه من نشاطات ثورية!... فأي قبح لدينا، يماثل ذاك الذي كان... انتهى التنويه!

لقـد وضـحت الحكايـة لنـا، ماهيـة تلـك السلـسلة العملياتيـة في الثلاثينيات.

إذاً نعود لمعرفة الكيفية، التي تشكل بها هذا «المكتب السياسي للاتحاد» الذي لم يكن له أي وجود في الأصل؟! لقد كان لدى الإدارة السياسية العامة مهمة تخطيطية: لإثبات أن المناشفة يتسللون ويندسون في المناصب الحكومية، لتسهل عليهم عملية تحقيق هدف معاودة الثورة، إلا أن هذا لم يحصل في الواقع: فالمناشفة الحاليون، لا يشغلون أيّ مناصب، ولم يقع أمثالهم في شرك هذه العملية (يقول ف. ك إيكوف: يقولون ربما كان مثل هذا المكتب السياسي عند المناشفة سرياً، وبقي قابعاً دون نشاط - لكنهم لم يعرفوا أثناء تعرضهم للمحاكمة، عنه شيئاً، وعبر ايكوف الخطة الثانية، وتلقى ثمان، وكان لدى الإدارة السياسية العامة مثل هذا البرنامج: بحيث يشمل اثنين من القطاع الزراعي الاقتصادي، واثنين من المؤسسة التجارية واثنين من البنك الحكومي، وواحد من الاتحاد المركزي، وواحد من هيئة التخطيط الحكومي (لأيّ درجة وصل عدم الدهاء)؟. لذا قاموا بانتقاء ما يناسبهم من الوظائف، لكن هل كانوا فعلاً من المناشفة؟ - هكذا يقال!

وعلى الرغم من ذلك وقعوا مع أنهم لا يمتون للمناشفة بصلة، لكنهم أقروا بأن يكونوا مناشفة، على الرغم من عدم اهتمام العاملين في الإدارة السياسية العامة بالموقف السياسي الحقيقي للمتهمين، الذين لم يكونوا حتى على معرفة سابقة ببعضهم، ومع ذلك سُحلوا حتى بما فيهم الشهود، بسبب إيجادهم مثل هؤلاء المناشفة (وتلقى كافة الشهود آجالاً بأحكام مختلفة).

تنويه: كان من بين المتهمين إنسان يدعى كوزما انطونوفيتش غفورديف، ولكم كان مستقبله مريراً - لقد كان رئيساً لمجموعة العمال

في لجنة الصناعات - العسكرية. وكان قد خرج من السجن (سجن كريستوف) على أثر قيام ثورة شباط، وأصبح فيما بعد وزيراً للعمل، لكنه صار على أثر هذا من المقيمين لفترة طويلة في معسكر الغولاغ، ومن أبرز معذبيه. وقد اعتقل لأول مرة عام ١٩١٩، وهكذا تمكن من الانزلاق (ووضعت عائلته تحت الإقامة الجبرية لفترة طويلة، كما وكأنها رهن الاعتقال، ولم يسمح للأطفال بالذهاب إلى المدرسة) وفيما بعد ألغي الاعتقال، إلا أنه جر ثانية عام ١٩٢٨ للمرة الأخيرة، وقبع في السجن منذ ذلك الوقت حتى عام ١٩٥٧ وأطلق سراحه وهو بحالة إعياء مرضي شديد توفي على أثرها... انتهى التنويه.

تقدم رامزين للمرة الثانية، بخدمة متقطعة النظير، وبكلمات جياشة، إلا أن الأمل الأكثر للإدارة السياسية العامة، كان ملقى على عاتق المتهم الأساسي فلاديمير كوستافوفيتش غرومان (الذي كان مع كل الأسف عضواً في مجلس الدوما)، وعلى عاتق العميل المأجور بيوتين.

ونعود الآن لنستعرض حياة ياكوبوفيتش، لقد بدأت ثورته المبكرة حتى قبل أن ينهي دراسته الثانوية، وفي آذار عام ١٩١٧ أصبح رئيساً لمجلس إدارات السمولني، وكان خطيباً مفوهاً وصاحب حجه وإقناع شديدين (قاداه إلى مرام متعددة). وكان قد أطلق في أحد المؤتمرات على الجبهة الغربية حملةً شعواء رعناء على الصحفيين أعداء الشعب، الذين كانوا يدعون لمواصلة الحرب - كان هذا في عام ١٩١٧، وكاد الحضور أن يقتلعوه من على المنبر على أسنة الحراب لو لم يقم بالاعتذار عما تفوه به، لكنه عاد فيما بعد ليجد في كلمته طريقة ما، أجبر فيها المستمعون على تكرار تسمية الصحفيين بأعداء الشعب، لكن ردة الفعل لم تكن كما في المرة الأولى، بل على العكس من ذلك دوى التصفيق - وانتخب من عداد الوفد المبعوث إلى اجتماعات اللجنة العسكرية لمجلس بيتروغراد، ومارس

الكثير من التأثير في تعيين القوميساريين في الجيش الأحمر[1]، ورحل في النهاية إلى الجبهة الجنوبية الغربية، ليحتل وظيفة القوميسار فيها، وقام شخصياً باعتقال دينكين في مدينة بيردتشيف (على أثر عصيان كونيلوفسكي). ولشد ما يعتريه الندم الآن (حتى أثناء عملية المحاكمة) على أنه لم يطلق النار عليه في ذلك الوقت.

هذا هو دأب ثاقب النظر، ومالك الوضوح والصراحة لدرجة قصوى، والمأخوذ بأفكاره الواقعية، وغير الواقعية... فها تراه قد انخرط منذ الطفولة في الحزب المنشفي، وكان منهم، ولم يتوان قط، في أن يقترح خططه المقنعة على قيادته بجرأة وحماس للاندماج مع البلاشفة، في قوام حكومة عام ١٩١٧ وعام ١٩١٩- والدخول في الكومنتيرن (عارضة إذ ذاك دان وآخرون، ووقفوا ضد مقترحاته). ولشد ما تألم في حزيران عام ١٩١٧ لإحساسه بالخطأ المميت لمجلس البيتروسوفييت، الذي بارك الحكومة في استدعائها القوات ضد البلاشفة، على الرغم من حملها السلاح. وما أن قام الانقلاب الأكتوبري، حتى تقدم باقتراح على حزبه، ليدعم البلاشفة كلياً، وليعززوا بهذا التعاون مركز التشكيلة الحكومية، وفي النهاية حلت عليه اللعنة، لعنة مارتوف، وخرج نهائياً من حزب المناشفة عام ١٩٢٠، بعد أن تيقن، بأنه مسلوب القوة في جرفهم إلى ملة البلاشفة.

أوردت هذا التفصيل وهذه التسميات كي أبين: إن ياكوبوفيتش لم يكن منشفياً قط، بل كان طوال عهد الثورة بلشفياً عريقاً عن غير قصد، وشغل في عام ١٩٢٠، وظيفة القوميسارية (محافظ) في مدينة سمولنسك، وفي مدينة برود (المحافظ الوحيد لمرتين - غير بلشفي). لا بل كان الأفضل

١ـ علينا الا نخلط بين الجنرال بماكوبوفيتش رئيس الأركان، الذي كان ممثلاً لوزارة الدفاع في المؤتمر.

بين الجميع حسب تقدير اللجنة المنطقية في مدينة برود (الأمر الذي يؤكد، بأنه تخطى كل هذه المراحل، دون إجراءات عقابية، ولا أدري ما هو السبب الذي جعله يبدو أثناء المحاكمة، وكأنه غلالة ما). وشغل فيما بعد طوال سني العشرينيات رئاسة تحرير «صحيفة التجارة» إضافة إلى وظائف علية. وما أن قرروا اعتقال «المتسللين» المناشفة عام ١٩٣٠، بناء على خطة الإدارة السياسية العامة حتى تم اعتقاله.

وقع مثل الآخرين في شواء - المحققين، الذي تصرفوا حياله، كما وكأنه سلم - أو غرفة تبريد أو سدادة ساخنة، وممسحة لأرضيّة الجهاز، وساطوه، وضيعته إبرام غينزبورغ عذاباً، لدرجة كشفا فيها بيأس مطلق كافة الذنوب. ولم يتعرضا في هذا الامتحان للتعذيب، والضرب بل تعرضا فقط للحرمان من النوم مدة أسبوعين (يقول ياكوبوفيتش: «دعوني أنم»... وإليكم الوجدان والشرف) هذا عدا ما مورس عليه، أثناء مقابلة الشهود الذين دفعوا «للإقرار» وقول التفاهات، حتى إن المحقق ذاته كان يقول: «أدري... أدري. إن هذا كله لم يكن! - لكن ما العمل؟ هذا - ما يطلبون»!.

طُلب ياكوبوفيتش في إحدى المرات إلى مكتب المحقق، بحضور أحد المعتقلين، وما أن ولج باب المكتب، حتى غرق المحقق في الضحك، وأردف: «هذا موسى عيسوفيتش تتلباوم، يطلب منك، أن تقبله في صفوف تنظيمكم المعادي للسوفييتية، وسأخرج لأترككما تتحدثان بحرية»!.

وراح تتلباوم يتوسل: «أرجوك أيها الرفيق ياكوبوفيتش!.. أن تقبلوني عضواً في مكتبكم السياسي لاتحاد المناشفة!... إنهم يتهمونني «بقبض الرشوة من الشركات الأجنبية»! ويهددونني بإطلاق النار... وخير لي... أن أموت مضاداً من أن أموت جانياً»!!

لا... لم يكن على خطأ: لقد تلقى حكماً طفولياً - السجن خمس سنوات).

لكم كان المناشفة في نظر الإدارة السياسية، ضعفاء، حتى بلغ بهم الأمر إلى استقدام المتهمين المتطوعين لصالحهم!... (لكن لا تتعجل كانت تنتظر تتلباوم المهمات العظيمة: الاتصال مع المناشفة ومع قيادة الأممية الثانية في الخارج! حسناً.. لقد حاز على الخمسة أعوام بشرف) وقبل ياكوبوفيتش، انضمام تتلباوم إلى مكتبه السياسي بتشجيع من المحقق.

تنويه: لقد جند الكثيرون، دون طلب منهم: مثل: روبين، الذي سارع إلى التبرؤ عند مقابلته كشاهد مع ياكوبوفيتش، وأخذوه بعد ذلك في دورة طويلة (مع متابعة التحقيق معه) حتى وصل إلى معسكر سوزدالسكي، وتقابل هناك مع ياكوبوفيتش ومع شير اللذين قدما الأدلة ضده في حجرة واحدة (واهتما به، بعد رجوعه من السجن الانفرادي، واقتسما معه أشياءهما) وسأل روبين ياكوبوفيتش: «كيف استطعتم التفكير... بأني عضو معكم في المكتب السياسي المنشفي»؟ (وأجاب ياكوبوفيتش، إجابة مدهشة لم ترد الطبقة الروسية بمثلها قبل مئة عام): «الشعب كله يعاني - وعلينا نحن (المثقفون) أن نعاني، ما يعانيه». كان هناك الكثير من لحظات الإلهام مع ياكوبوفيتش أثناء التحقيق، لا سيما عندما تبين عند استدعاء كريلنكو له بأنه كان على معرفة وثيقة به. فكلاهما كانا جنديين شيوعيين في السنوات الغابرة، (إبان العمليات الأولى)، وكثيراً ما كان كريلنكو يسافر إلى محافظة سمولنسكي، لتقدير الأعمال الإنتاجية، حتى إنه كان ينام، وياكوبوفيتش في الغرفة نفسها، وها كريلنكو يقول له الآن:

ميخائيل بيتروفيتش... أقول لكم بصراحة: إني أعتبركم «شيوعياً» - (أمر أثلج صدر ياكوبوفيتش، وأراحه)- وإني لا أشك في براءتكم قط، لكن كما ترى، هذه هي مهمتنا، ومهمتكم الحزبية - لقد

اقتضى الأمر تنفيذ هذه العملية - كان كريلنكو قد تلقى أمراً بهذا الشأن من ستالين. أما ياكوبوفيتش خفق قلبه لهذه الفكرة، كأنه حصان، تعجل بنفسه، ليدخل اللجام إلى خطمه) - وإني لأرجوك، تقديم المساعدة الجمة والتعاون مع التحقيق، وإذا ما برزت صعوبات طارئة ما - فإني سأطلب من رئيس المحكمة في مثل تلك الحالات، أن يتيح لكم الفرصة بالكلام.

!!!

ووعد -... وعد - بأن يقر بالمهمة الملقاة على عاتقه، علماً، بأنه لم يسبق له أن تلقى مثلها طوال سني خدمته في النظام السوفييتي.

قبيل انعقاد جلسات العملية بعدة أيام، تم استقدام أعضاء المكتب السياسي البلشفي، لعقد الجلسة التنسيقية الأولى في مكتب المحقق ديمتري ماتفييفتش، بغرض تنسيق الأدوار بين الأعضاء، بحيث يتفهم كل عضو الدور المنوط به (نعم - على غرار مؤتمر متهمي اللجنة المركزية «للحزب الصناعي»!، الأمر الذي أثار استغراب كريلنكو). لكن كثرة تشابك أحابيل الكذب والتزوير، عقدت الوضع، وخلقت صعوبة التفهم، والاستيعاب في رؤوس الأعضاء، مما استدعى جلسة ثانية.

لكن بأيّ أحاسيس خرج ياكوبوفيتش من هذه العملية؟ فبعد اجترار هذا العذاب كله، وبعد كل هذا الكذب، المعتمل في الصدر - كان عليه أن يكون في المحكمة فضيحة عالمية؟... لكن هذه:

١- ستكون ضربة في ظهر السلطة السوفييتية! وستكون في الوقت نفسه عملية حض، وإنكار للهدف الحياتي، الذي عاش من أجله، وإدانة لكافة السبل التي انسلخ بها عن المنشفية الخاطئة، ليلتحق بالبلشفية القوية.

٢- بعد هذه الفضيحة، لن يمنح الموت، ولن تطلق عليه النار بسهولة، بل سيعمدون إلى تعذيبه من جديد، ورغبة منهم في الانتقام سيوصلونه إلى فقدان العقل... مع أن الجسد مضمخ بالعذابات، ولا يحتمل فوق هذا كله عذاباً جديداً - فأين له أن يجد السند الأخلاقي لكل هذا؟ ومن أين له أن يستمد الرجولة؟

(لقد كتبت أدلته وحججه تحت تأثير صدى كلماته المتلظية! - وإنها لحالة نادرة أن تتلقى فيها التفسيرات «لما بعد موته»

وإني لأجد هذا أمراً سيّان، سيما بعد سماعنا تفسيرات وتحليلات بوخارين، وريكوف حول أسباب ادّعائهما، واستسلامهما لهذا اللغز المحكمي!... هي نفسها سلامة النية، والإخلاص الحزبي، والوهن الإنساني... وكذلك هي غياب المرتكزات الأخلاقية لعملية الصراع - بسبب عدم توفر مواقع مستقلة لكل من الطالب والمطلوب).

لم يكتف ياكوبوفيتش بتكرار هذا الاجترار التسلسلي التلفيقي بإذعان فحسب، بل راح يتقول لدرجة، لم تستطع فيها لا فانتازية ستالين، ولا فانتازية ضائعية الصبية ولا حتى فانتازية المتهمين المنهمكين بلوغها، لكنه بهذا يكون قد مثل الدور الروحي الذي وعد به كريلنكو.

قامت ما تسمى بمبعوثية المناشفة خارج الحدود (كان ضمن هذه المبعوثية عملياً - كافة أعضاء اللجنة المركزية) بنشر تبرؤها من المتهمين في صحيفة «فوروبرتس» جاء فيه: ما هذه إلا - مهزلة محاكم مخزية، منفذه على قاعدة أدلة العملاء، والمتهمين التعساء المجبرين على مثل هذا الإرهاب.. وإن غالبية المسحوقين كانوا قد خرجوا من الحزب منذ أكثر من عشر سنوات، ولم يعودوا إليه قط - وأكثر ما يثير السخرية، ذاك الحديث عن الكميات الكبيرة من الأموال، التي يملكها الحزب طوال سني وجوده.

بعد أن انتهى كريلنكو من اطلاعه على المقالة، طلب من شفيرنيك السماح للمتهمين بالرد عليها (هكذا يجب تحريك الخيوط كلها دفعة واحدة، كما حصل في عملية «الحزب الصناعي») الجميع تكلم.... والجميع دافع عن أساليب الإدارة السياسية العامة ضد اللجنة المركزية الحزبية للمناشفة...

لكن... ما الشيء الذي يذكره ياكوبوفيتش الآن، عن تلك «الردود» وعن تلك الخطابات الأخيرة؟ التي لم يلتزم فيها بقول ما هو متفق عليه مع كريلنكو، ولم يكتف بالسمو والتحليق، بل تملكته كما الشظية سيالة من الارتعاد، والتمنطق الرائع، لكن على من يرتعد؟... أعلى هؤلاء الغارقين بالتعذيب، الفاضحين لذنبهم، المموتين لألف مرة.... وها هو يصب جام غضبه علناً، ليس على المدعي العام! ولا على الإدارة السياسية!، بل على المبعوثية الخارجية! المتبدلة الأطوار تحت نزعة من سيكولوجية الارتهان للرفاهية والراحة، دونما إحساس بالخطورة (يا لها من مبعوثية... متسولة للعيش الهنيء، الذي لا يقارن بما هو متوفر هنا في لوبيانكا)... إنهم قابعون هناك.. راضون مرضيون دونما وازع من ضمير - فكيف لهم... ألا يشفقوا على هؤلاء في ويلاتهم ومعاناتهم؟ كيف استطاعوا التبرؤ بكل وقاحة دون مشاركتهم تعاستهم ومصابهم؟ (لقد جاء رداً قوياً، وأثار تمجيد بناة العملية)!.

حتى إن ياكوبوفيتش تحدث عام ١٩٦٧ عن هذا الموضوع، وهو يرتجف من الحقد الدفين على المبعوثية الخارجية، وعلى خيانتها وجحدها، وغدرها للثورة الاشتراكية بشكل مطلق، كما في العام ١٩١٧.

لم تتوفر لدينا مثل هذه المحاضر الاختزالية عن هذه الأموال، لكنني حصلت عليها في الفترة الأخيرة وقرأت: بأنه قال أثناء المحاكمة، هاتفاً بصوت جهوري: إن المبعوثية الخارجية، تلقت تكليفاً من الأممية الثانية

بتنفيذ التخريب! - وصب جام غضبه على المناشفة المهاجرين، الذين نشروا مقالاتهم دون وجدان وضمير، ولم تأخذهم في ذلك الرحمة والشفقة على ضحايا العملية المساكين، وأثبتوا في ذلك، أنهم كانوا مناشفة منذ زمن بعيد - أليست هي الحقيقة، لكن على ماذا استند ياكوبوفيتش في حقده هذا؟

أليس على الكيفية التي استطاع المناشفة المهاجرون، ألا يشاركوا فيها المهتمين مصيرهم؟

نحن نحب أن نغضب على الوادعين، على أولئك الأكثر ضعفاً، وهذا من طبع الإنسان كما وكأن البراهين تشير بحذاقة إلى أننا على حق.

لقد قال كريلنكو في كلمته الادعائية: إن ياكوبوفيتش، متعصب لأفكار الثورة المضادة، وبناء عليه أطلب له: الرمي بالرصاص!

لم يشعر ياكوبوفيتش في ذلك اليوم بدموع الامتنان، بل ومنذ اللحظة التي راح فيها يتنقل بين المعسكرات المختلفة، وحتى هذا الوقت يشعر بالامتنان والعرفان ذاتهما لكريلنكو، لأنه لم يباشر إلى تحقيره، وإهانته، والسخرية منه في قفص الاتهام، بل أطلق عليه بكل صدق: كلمة المتعصب (وإن يكن لفكرة الثورة المضادة)، وطلب الإعدام له، إعداماً امتنانياً بسيطاً، ينهي تلك الآلام. وقد وافق ياكوبوفيتش عند إلقاء كلمته الأخيرة قائلاً: إن الجريمة، التي اعترفت بها (لقد أعطى هذا التعبير «لأن الجريمة، التي اعترفت بها، المعنى الكبير لها» - فالفهيم يدرك، ويستوعب: بأنها ليست الجريمة، التي قمت بها)!، تستحق أقسى تدابير العقاب - وإني لن أطلب التساهل معي! ولن أطلب إعطاء الحياة لي! (انزعج كرومان الجالس إلى جانبه، وهاش قائلاً «أجننت!... إنك لا تملك الحق في أن تتفوه بهذا أمام رفاقك)!.

لكن أليس هذا القول بمثابة كنز للمدعي العام[1]؟

ألم تتجلِ عمليات المحاكمة المستقبلية عام ١٩٣٦-١٩٣٨ بعد؟

ألم... يفهم ستالين ويتيقن من خلال هذه العملية أن ألد أعدائه - هم الثرثارون، لكنه مع ذلك يتابع، وينظم... لأن في مثل هذا... مسرحية في حد ذاتها!؟

★★★

نعم... فلترحمني أيها القارئ المتسامح!، لقد ساقني قلمي حتى اللحظة، دونما اختلاج، وانقباض قلبي، وانزلقت وإياه على صفحات الورق بلا مبالاة، ذلك لأننا خلال هذه الأعوام الخمسة عشرة، رزحنا تحت الحماية المهيبة لهذه الثورة المقوننة، ثورة القوانين، إلا أن المستقبل سيكون أكثر إيلاماً: ولعل القارئ يذكر، كيف تبين لنا عشرات المرات حتى بعد زمن خروتشوف «عندما بدأت اعتباراً من عام ١٩٤٣ عملية المخالفة الصريحة لحدود القوننة اللينينية»، فكيف لنا خوض هذه اللجة اللا مقوننة؟ وكيف نتوجه وسط هذه المغاصات المريرة؟.

ونستعرض هنا عرضاً لعملية المحاكمة الأخيرة، التي كان يعرف العالم عنها الشيء الكثير، ويعرف كافة أسماء المتهمين فيها، ولم تحجب قضيتهم وكتب عنها في الصحافة الغربية، وتوضحت كافة

١- إنه لقدر محتوم - مكن معذبينا، لأن يكونوا مسلوبين وعلنيين واستجاب القدر نفسه ليلكوبوفيتش للمرة الثانية عام ١٩٧٤ بعدما صار عجوزاً ووقع في بيت العجزة قرب مدينة كاراكاندي، لتقدم إليه مجموعة من المخابرتيين، وتجري معه مقابلة، فصوروه على اشرطة سينمائية، وتلا عليهم خطاباً مطولا ضد «معسكر الأرخبيلاك» إلا انه نظراً لماضيه، لم يعمم المخابراتيين ما سمعوا منه، لأنه ما زال إنساناً غير مرغوب فيه إلا أنهم عادوا واستخدموه ضدي شخصياً عام ١٩٧٨، لترويج الكذب والافتراء - الملاحظة - (كتبت عام ١٩٧٨).

الجوانب فيها، ولم يبق لنا ولكم إلا ملامسة - تلك الأحجية. واستغابه القيمين عليها إلى حدود معينة: حيث تبين الأرقام الإحصائية المتوفرة شيئاً مغايراً لما قدم أثناء المحاكمات، وقد قام أحد الباحثين، من الذين يملكون صلاحية الغوص في مثل هذه الأرقام التفصيلية المنشورة، وقدم لائحة بالفارين وتحقق بعدها من هذه اللا تطابقية الفاضحة، إذ لاحظ المراسلون الصحفيون مثل هذه التغيرات عند كريستيسكي بعدما ترك بعض الفراغات والانقطاعات في سرده كي يقوم فيما بعد بتصحيحها عند توفر المعطيات المطلوبة (وكما اعتقد: بأن اللوائح الأمنية وضعت قبل بدء المحاكمة، إذ تضمن الحقل الأول - اسم وكنية المتهم، وفي الحقل الثاني - طبيعة الأساليب المستخدمة معه، مع ترك فسحة فارغة، يدون فيها بعض الملحقات، فيما لو تم التراجع عما ورد في النص أثناء المحاكمة. أما الحقل الثالث دون فيه اسم وكنية العنصر المخابراتي المسؤول عن تنفيذ الأسلوب أو الطريقة، فيما إذا ضل كريستيفسكي فجأة، عن معرفة الشخصية القادمة إليه، وما العمل المسند إليه تنفيذه).

لكن عدم الدقة في الإحصائية لا يبدل من الصورة شيئاً، ولكم كانت دهشة العالم كبيرة، عندهما راح يتابع ثلاث تمثيليات متتالية دفعة واحدة (أو قلْ ثلاث مسرحيات قيمات). ظهرت فيها الشخصيات التي قلبت العالم والتي اضطرب بسببها والمتمثلة بالزعماء الكبار للحزب الشيوعي الكبير، مكسورة الخاطر كئيبة بما أُمرت به، تبصق على ذقونها كما الماعز، وتحقر نفسها وقناعاتها بخنوع مطلق، معترفة بجرائمها، التي لا يمكن أن تقوم بمثلها قط.

لم يكن المنظر مرسوماً في ذاكرة التاريخ، خاصة بما احتواه من ذهول أخاذ في عملية تضاده وتباينه، الذي برز أثناء عملية

ديمتروف في مدينة لايبزغ، التي لم يمض عليها الكثير من الوقت: ديمتروف هذا هو ذاته المزمجر كما الليث في وجه القضاة النازيين، وها هو يقف الآن بقامته المشوقة أمام رفاقه، الذين جُبل وإياهم من طبيعة واحدة متقسية لا تعرف الانحناء، والتي اضطرب العالم واهتز أمام جبروتها... فمنهم كان عظام الشأن، الذين حملوا اسم «الغفارديين اللينينيين» - الذين يقفون الآن أمام المحكمة، وهم مضمخين ببولهم الذاتي.

على الرغم من ظهور الكثير من الإيضاحات في ذلك الوقت ولا سيما منها، التوضيح الجلي - (لأرتوركيستلير) - فمع ذلك بقيت الأحجية تتشعب، ليتم تداولها على وجوه عدة.

لقد كتب الكثير عن العقاقير التيبتية، التي تسلب الإرادة، وكتب عن طرق مختلفة للتنويم المغناطيسي، ومع كل هذا، لم تتعرض تلك البينات للتنفيذ والتعريض والتجربة: بخاصة إذا ما كانت مثل هذه الوسائل بين أيدي رجال الأمن الداخلي، الذين لا تردعهم روادع أخلاقية تمنعهم من الاستعانة بمثلها؟... فلماذا لا تُستخدم لإضعاف وإنهاك إرادة المعتقلين؟ بخاصة إذا ما علمنا بأن الكثير من المنومين المغناطيسيين تركوا نشاطاتهم الذاتية في العشرينيات، وتوجهوا ليلتحقوا بالعمل عند أجهزة الإدارة السياسية الأمنية العامة ليدربوا طلاب مدرسة التنويم المحدثة في الثلاثينيات.

لقد تلقت زوجة كامنييف معلومات من زوجها قبل عملية المحاكمة، تؤكد أن زوجها وقع تحت تأثير عملية كبح الجماح دونما إرادة منه (لقد استطاعت التحدث عن هذا قبل اعتقالها).

لكننا نتساءل، لماذا لم يخضعوا إرادة بالتشينسكي، وخرينكوف، بمثل هذه العقاقير، وبواسطة التنويم المغناطيسي؟

فـالجواب لا.... لا داعـي للـشرح والتوضـيح التفـصيلي للمفهـوم السيكولوجي، ذلك لأن هذه الطريقة قد لا تجدي معهم نفعاً.

لم يعمدوا إلى استخدام الطرق السابقة معهم، ذلك لأنهم بمجملهم - ثوريون قدماء، ما ارتعدت فرائصهم في غياهب السجون القيصرية قط، وكانوا قساة متصلبين شجعان، بل إنهم كانوا أكثر من ذلك مناضلين أشداء، بيد أن هفوة صغيرة تعترضنا - لنقول عن الحالتين (الرفاق الحاليون المعرضون للمحاكمة). بأنهم لم يكونوا ثوريين قدماء، إنما تناقلوا هذه الأمجاد فقط، بحكم الوراثة والمجاورة الوطنية لوطنيي الآليروف، وللفوضويين، أولئك الذين ألقوا القنابل وتآمروا، وتعرضوا للأشغال الشاقة، وتلقوا أحكاماً مختلفة - على العكس من الحاليين، الذين لم يروا التحقيق الجائر أبداً (لم يروه بسبب عدم وجوده، وممارسته في روسيا القيصرية إذاك). هؤلاء لم يعرفوا - لا التحقيق، ولا الحكم بالسجن، ولم يزجوا في الزنزانات، ولم ينقلوا إلى ساخالين، ولا إلى أيٍّ من معسكرات الأعمال الشاقة، كالياقوتية، ولم ينضموا إلى البلاشفة قط: بيد أننا نعلم، بأن الكثير من الأعباء على معتنقي البلشفية كديرجينسكي، الذي أمضى حياته متنقلاً بين سجن وآخر، لكنه وحسب معاييرنا، نقول بأنه لم يمضِ سنوات سجنه العشر البسيطة، وبهذا يكون عشرياً بسيطاً قياساً بأي كولخوزي مسجون في أيامنا هذه (مع العلم بأنه أمضى ثلاث سنوات فيها في معسكر الأشغال الشاقة، ومع ذلك لم ير شيئاً).

إذاً، كان لزعماء الحرب الذين اقتادونا إلى عمليات الستة والثامنة والثلاثين، ماضياً ثورياً، قضوا فيه فترات سجن قصيرة واحتجاز هين مع فترات نفي متقطعة، ولم يتسنَّ لهم، استنشاق رائحة الأشغال الشاقة، فكان لدى بوخارين اعتقالات قصيرة، إلا أنها كانت

تافهة ولم تستمر أكثر من سنة واحدة متواصلة، إذ تواجد في معسكر أونيغي[1] لفترة قصيرة. أما كامنييف زار السجن سنتين بسبب عمله الدعائي، وبسبب ترحاله الدائم في المدن الروسية. ولدينا من اليافعين، الذين لم تتجاوز أعمارهم الستة عشر عاماً، من حكم - عليه بخمس سنوات مباشرة.

أما زينافييف، ربما كان من المضحك لو قلنا بأنه لم يسجن أكثر من ثلاثة أشهر، ولم يكن لديه أي حكم قضائي! مقارنة بطلائع ساكني معسكر الأرخبيلاك. لقد كانوا فتية لم يروا السجون. أما ريكوف، وي. ن. سميرنوف اعتقلا لأكثر من مرة، وسجنا من عام إلى خمسة أعوام، وكانت فترة سجنهما سهلة إلى حد ما، واستطاعا الفرار من كافة المنافي، التي تواجدا بها دون صعوبة، وكان العفو يشملهما أحياناً، ولم تَطَلْهما قبل أن يسجنا في لوبيانكا، كلابات التحقيق المجحف، وقضيا تلك الفترة السابقة من سجنهما، وكأنهما لم يكونا في سجن حقيقي. (لا تتوفر قاعدة للافتراض، من أن يكون تروتسكي قد وقع في تلك الكلابات - وتصرف بشكل يحقر هيكلية حياته، وأثبت بأنه أكثر صلابة: وهذا لم يأت من عدم، على الرغم من أنه عرف في حياته كذلك السجون السهلة، والتحقيقات الجدية إلى حد ما، وقضى مدة سنتين في معسكر أوست - كوت، وتكمن الخطورة التروتسكيّة في أنه كان يشغل منصب رئيس المجلس الثوري، ويعتبر المؤسس الأول للمحاكم الثورية، التي هي أنجس من أن تعبر عن صلابة حقيقية: فمن

١- استخلصت هذه المعلومات من الفصل الأول من موسوعة الإنسكلوبيديا (غرافان) حيث جمعت من السيرة الذاتية او من خلال توصيف نشاطات بعض شخصيات الحزب الشيوعي.

كان يأمر بإطلاق النار هو نفسه الآن يتخثر أمام موته الشخصي: فهاتان الصلابتان غير مرتبطتين مع بعضهما بعضاً). أما رادك - العميل (ليس لعملية واحدة بل لثلاث عمليات)!!.

أما ياغدا - نُوه إليه كجان ليس إلا. (فقاتل الملايين هذا - لم يستطع تقبل أن يفوقه قاتل آخر، ولم يستطع أن يجد في قلبه شيئاً من التكامل حتى آخر ساعة وراح يطلب الرحمة من ستالين بثبات وثقة، كما وكأن ستالين يجلس أمامه في القاعة: «إني أتوجه إليكم! لقد قمت كرمى لكم بتكوين أضخم قناليس (سياليتي) اعتقال»!!... يقول أحد المتواجدين هناك في تلك الآونة، بدى طيف ستالين في هذه اللحظة من خلال كوة صغيرة مغطاة بستائر شفافة في الطابق الثاني يتخايل تحت ضوء خافت يشبه السحر، وكان يبدده من أن لآخر اشتعال عود ثقاب، لاح من خلاله طيف غليونه، تنبعث منه غلالة دخانية - إن من كان منكم في مدينة باختش سراي (عاصمة جزيرة القرم القديمة عندما كانت تحت الاحتلال التركي - المترجم)، يتذكر، أو يعرف عن هذا الشعب الشرقي؟ - ففي قاعة اجتماع المجلس الحكومي، وعلى محاذاة الطابق الثاني يوجد صف من الكوى مغطاة بألواح من الصفيح المثقب بثقوب صغيرة - تخفي خلفها رواقاً غير مضاء، ويصعب على من في القاعة، التمييز فيما إذا كان أحد ما في ذلك الرواق.

هكذا.... فالخان لا يُرى.... والمجلس يأتمر ويتشاور كما وكأنه بينهم. وإذا ما أيقنا هذا النزوع الشرقي لدى ستالين، كان لا بد لنا من التصديق، في أنه كان يراقب سير هذه الكوميديا الأكتوبرية متخفياً، وقد لا أستطيع أن أجزم، بأن نفسه قد ترفض هذه الرائعة وطلاوتها).

وبعد... ألا يرتبط كل فهمنا هذا، بالتصديق بشذوذ وغرابة هؤلاء البشر، إذ لو أن الأمر كان متعلقاً بصياغة محاضر عادية لمواطنين بؤساء، لما كنا قد طرحنا هذه المسألة: إلا أننا نتساءل لمَ هذا الكم الكثير من الافتراءات على أنفسهم وعلى غيرهم؟ - وإلا كان يمكن لنا، أن نتقبل الموضوع، وكأنه مفهوم لدينا. فالإنسان ضعيف واهن، يتراجع ويضعف، لكننا اعتبرنا أمثال بوخارين، وزينافييف، وكامنييف، وبيانكو، ون. ي. سميرنوف أناساً فوق البشر، وهذا هو السبب الجوهري لعدم فهمنا ذلك.

في الحقيقة كان من الصعب هذه المرة، على مخرجي المسرحية، انتقاء المنفذين بدقة أكبر من عمليات المهندسين السابقة: فهناك توفر عامل انتقاء رزمة من بين أربعين، أما هنا، فالأمر مختلف فالمجموعة صغيرة، والجميع يعرف المنفذين الرئيسيين، والنظار يتمنون، أن ينفذوا أدوارهم باستمرار.

لكن في كل الحالات تتوفر إمكانية الاصطفاء، لأن المحكومين الذين كانوا قد تميزوا بالحزم وبعد النظر - لم يمثلوا بين يدي قاتليهم بل أنهوا حيواتهم بأنفسهم قبل الاعتقال (أمثال: سكريبنك، وتومسكي، وغامارتيك). أما من سلم نفسه للاعتقال، كان من أولئك الراغبين بالحياة، وبذلك أمكن حبك سفائف الأحبولة من محبي العيش! لكن منهم من تصرف أثناء التحقيق بشكل مغاير، واستفاق، وتصلب، واستشهد بصمت مطبق دون أي عار. ولنا أن نتساءل مرة أخرى عن السبب، الذي حدا بهم لاقتياد كل من: شلياينكوف ورودزوتك، وباستيشيف، واينوكيدزه، وتشوبا، وكوسيور، وحتى كريلنكو إلى هذه المحاكمة العلنية مع العلم بأن أسماءهم كانت قد زينت كافة العمليات السابقة.

لقد اختاروا أكثر اللدنين عريكةً!، ومع ذلك كان الاصطفاء من الصنف الأدنى، لأن المخرج المشورب يعرف كلاً منهم بشكل جيد، ويعرف أنهم ضعفاء على حد سواء، ويعرف نقطة ضعف كل واحد منهم... ومن هنا. ومن هذا المنحى بالذات برز تفوقه الشذوذي المظلم، ونزوعه السيكولوجي الرئيسي عبر منجزاته الحياتية المنحصرة في: رؤية ضعف البشر عند أدنى حد للوجود الحياتي.

هذا ديدن من تميز منذ أزمان بعيدة، بنمو عقله الثاقب وسط الزعماء البلاشفة المقوننين (الذين كرس كيوستيلر بحوثه العبقرية لهم) - وحتى بوخارين كان أيضاً، على أدنى حال من درجات الحيوية، إذ يصبح الإنسان عند الخوف، أكثر صلة بالأرض وهذا ما أدركه ستالين كلياً، ليمسكه بقبضته الحديدية المميتة، كما وكأنه يلاعب فأراً، يمنيه بين الحين والآخر بالإفلات. بوخارين هذا هو نفسه، الذي سطر دستورنا العلمي حرفاً حرفاً (غير العملي) ذا الوقع الجميل على أسماعنا - وراح يحلق به عالياً تحت الغيم، على اعتقاد منه، أنه ربح «أس الكبة»: الذي قذف الدستور في وجهه، لأنه أعاق، بل لطف من تلك الديكتاتورية، وغدا بعدها بنفسه - إلى المرعى.

لم يكنّ بوخارين الحب، لا لكامنييف، ولا لزينافييف... حتى منذ ذلك الوقت، الذي تعرضا فيه للمحاكمة عند مقتل كيروف، وقال عندها للمقربين: «وماذا بعد؟ هذا هو الشعب، الذي ظن بأنه لا يمكن أن يحدث شيئاً... وها هو قد حدث»... (إنها المقولة التقليدية لسذج تلك الأيام «من الممكن أن يكون شيء ما، قد حدث... إنما هذا عبث فعندنا لا يسجنون». كان هذا في عام ١٩٣٥... ومن المتكلم... إنه المنظر الأول للحزب)! هذا الذي كان أثناء المحاكمة الثانية لكامنييف، وزينافييف في عام ١٩٣٦، يقنص في جبال تيان شان، دون أن يعلم ما حدث، أو دون

أن يعلم ما سيلم به... نزل من على الجبل ونطق الحكم عليهما بالإعدام، وراحت بعض المقالات الصحفية تحمل الإثباتات والأدلة، التي أدلى بها، كلٌّ منهما ضده... وانطلق ليحد ويوقف التنكيل به؟.... واستعان بالحزب لمنع حدوث هذه الفظاعة؟.. حتى إنه... قام بإرسال برقية مستعجلة إلى «أس الكبة»، يطلب فيها، إيقاف إطلاق النار على زينافييف، وكامنييف، كي... يستطيع السفر على عجل لمواجهتهم كشهود إثبات، وبالتالي يتخلص مما ألصق به. لقد جاء طلبه متأخراً! فلدى «أس الكبة»، ما يكفيه من المحاضر التحقيقية، ولا حاجة به إلى شهود إثبات... أحياءً.

إلا أنهم، لم يأخذوا بتلابيب بوخارين إلا بعد مرور زمن طويل، بعدما فقد «رئاسة تحرير الإزفيستيا»، وسلب كافة مناصبه في الحزب، وحددت كافة نشاطاته - إضافة إلى سحب الشقة الكرملينية في قصر بطرس المريح «المضحك» منه، وعاش بعدها مدة نصف عام، كما وكأنه في السجن، وسافر عند حلول الربيع إلى بيته الصيفي - وحياه حراس قصر الكرملين، كما وكأن شيئاً لم يكن، ولم يتردد إليه خلال هذه الفترة أحد ما... عزيزي الكبة... عزيزي الكبة ودون جواب.

في الوقت نفسه، كان يفتش عن وساطة، تلتمس له الشفاعة عند ستالين! أما «أس الكبة» كان في ذلك الوقت يجري البروفات، ويضيق محاجر عينيه تمحصاً وتدقيقاً... وعرف بعد سنوات طويلة من تنفيذ البروفات، أن بوخارين يقوم بتنفيذ دوره بشكل ممتاز، لأنه كان يتبرأ في كل المرات من تلامذته وأنصاره المسجونين، والمنفيين (بالمناسبة كانت أعدادهم قليلة)، وتحمّل عملية تهشيمهم[1]... أجل لقد تحمل انكسارهم،

١- الوحيد الذي تأخر عن القافلة (يقيم تسيتيلين)، ومع ذلك لبس لمدة طويلة.

وسلبت اتجاهاته الفكرية، بطريقة لم يتحمل فيها مخلوق مثله... وها هو الآن لم يعد رئيس تحرير صحيفة «الإزفيستيا» بل أصبح العضو المرشح للجنة المركزية، بعد أن أوصل كلاً من زينافييف وكامنييف إلى مرحلة الإعدام القانوني، دون أن يهتاج، ولا بصوت عال جهوري، ولا بهمت هامس، بل كان ينفذ كل شيء، وكأنه جزء من البروفة، ومن الدور!.

إضافة إلى ذلك، كان ستالين يهدد منذ زمن بعيد بفصله من الحزب (كثر الذين تعرضوا لمثل هذا التصرف في أوقات مختلفة) - وتبرأ بوخارين (كما الجميع) من أفكاره كلها، كي يبقى في قوام الحزب فقط!، لكنها هذه أيضاً كانت بروفة أولية على تنفيذ الدور ذاته! وإذا ما كانوا يتصرفون على هذا المنوال، وهم ما زالوا رهن حريتهم، وبكامل قوتهم متربعين على قمة سلطة الإجلال والعظمة - فكيف لهم أن يتصرفوا إذاً عندما ستكون أجسادهم بدينها وديدنها (من طعام ونوم) بيد الملقنين اللوبيانكيين، لا شك أنهم سيخضعون في ذلك الوقت للنصوص الحرفية للدراما دون مقاومة.

لكن... ما هو التوجس الأساسي الذي كان يعيشه بوخارين، خلال هذه الشهور الضائعة؟.. لا بد من أن خشيته كانت منحصرة، في ألا يفصل من الحزب، ويحرم منه!.

وعندها يبقى له العيش... خارج الحزب! وعلى هذه الشاكلة (كان العزيز الكبة، يلعب عليه، كما على الآخرين غيره بشكل لا مثيل له، حتى منذ ذلك الزمن، الذي صار فيه الحزب حزباً، ولم يكن عند بوخارين (كما عند الجميع) رأي مستقل، ولم تكن لديهم حتى الإيديولوجية المعارضة ليرتكزوا عليها عند حدوث الانفصال التشتت، بل على العكس من ذلك كان ستالين هو الذي أعلنهم معارضة، قبل أن يمارسوا دورهم فيها، وبالتالي حرمهم كل عون،

وانصبت كافة قواهم - على التشبث بالحزب مع عدم إلحاق الضرر به.

كثيرة هي المستلزمات كي تصبح مستقلاً.

أُسند لبوخارين دور ريادي - وتوجب عليه، ألا يكون قد ترهل، أو أغفل عمل المخرج معه، لا من حيث عامل الزمن، ولا من حيث تعايشه الذاتي مع دوره، ولم تكن عملية إيفاده إلى أوروبا في الشتاء المنصرم للبحث عن المخطوطات الماركسية ضرورية أبداً، إلا لاكتمال شبكه الاتهام في الاتصالات المترابطة، وهذه دلالة واضحة على أن حرية التجوال الدنيوي البحت... لا تحول دون العودة إلى فكرة المشهد الأساسي... ويكون هذا الركون الدائم تحت غيمات الاتهام السوداء، وفي جو حجز الحرية اللانهائي، والاستكانة البيتية المضنية... قد أفلحت بشكل أمثل من عملية تحطيم إرادة الضحية، أكثر من ذلك الضغط اللوبيايكي المباشر (مع العلم بأن الركون لم ينزح عنه - إلا خلال العام القادم).

استدعى غاغانوفيتش (بوخارين) بطريقة ما، وحضر له جلسة مواجهة مع الشاهد سوكولينكوف بحضور عدد من المخابراتيين الكبار. وراح الشاهد يقدم الأدلة عن «المركز اليميني الموازي»، (أي الموازي لخط تروتسكي) ويقدم الإثباتات عن النشاطات السرية لبوخارين، وقاد غاغانوفيتش الاستجواب بشكل حازم، وأمر بعدها باقتياد سوكولينكوف، وأردف متحببا لبوخارين: «إلا أن... الشـ... لا يكذب»!..

واستمرت الصحف في نشر استياء الجماهير، وبوخارين ما زال يعاود اتصاله مع اللجنة المركزية، ويكتب رسائله «عزيزي... الكبة» ويرجو فيها سحب الاتهام عنه علانية.

وتغاضت الصحف عن نشر ذلك التصريح الغامض للمدعي العام الذي جاء فيه «عدم توفر الأدلة الموضوعية لتوجيه الاتهام لبوخارين». وفي الربيع

هاتفه رادك متمنياً اللقاء به، ورد بوخارين متوجساً: «طالما... كنت وإياك متهمين، فما الداعي، لأن نخلق فوقنا غلالة جديدة من الشك؟ وفوجئ بوخارين مساء بقدوم جاره إليه (رادك) ليقول له: «كيما أقول لك هذا فيما بعد... جئت أوضح لك بأن لا ذنب لي في شيء، وفي كل الأحوال لا بد من إنك ستسلم من كل هذا، لأنك لم تكن من حيث الأساس، على أي ارتباط مع التروتسكين.

صدق بوخارين في أنه سيسلم، وبالتالي يفصلونه من الحزب - وإذا ما فعلوا ذلك، كان أمراً مريعاً، وبالحقيقة لم يكن على علاقة طيبة مع التروتسكيين، وكان يعاملهم شر معاملة، إذ كان يقول عنهم: ها هم وضعوا أنفسهم خارج الحزب - وخرجوا بينما الواجب كان يقتضي، أن نبقى مع بعضنا بعضاً نخطئ - معاً وسوياً.

حضر بوخارين مع زوجته الاحتفالات الأكتوبرية (السنوية (وكان الوداع الأخير له مع الساحة الحمراء) وصعد إلى منصة الضيوف مستخدماً بطاقة رئاسة التحرير. وتوجه إليه مسلح من الجيش الأحمر على الفور!... اعتراه ذهول صاعق؟!... هل يُعقل أن يتم المحذور هنا، وفي هذه اللحظة؟... لا... إنه يؤخذ بالقاشوش «لقد استغرب الرفيق ستالين وجودكم هنا؟... ويطلب منكم أن تدركوا أن مكانكم في المقبرة»!.

تركوه يتقلب على هذه الحال، ما بين الحرارة والبرودة مدة نصف عام، وفي الخامس من كانون الأول، تم اعتماد الدستور البوخاريني المقترح (نسبة إلى بوخارين) وأعلنوا العمل به في العهد الستاليني. وعند اجتماع اللجنة المركزية الدوري في الشهر نفسه، اقتيد بياتكوف وقد تغير شكله إضافة لما كانت قد بدلت الأسنان المحطمة من هيئته، وبقي واقفاً تحرسه بعض عناصر الأمن (الياغدايون - نسبة إلى ياغدا - الذي تم اختياره أيضاً ليلعب الدور المنوط به).. وقام بياتكوف بتقديم أكثر الأدلة سفالةً، ضد

بوخارين، وريكوف اللذين كانا يجلسان وسط زعماء الاجتماع. ولم يطق أورجينكدزه سماع ما قيل أمامه، وصم أذنيه بيديه (ولم يرد سماعاً)! «تكلموا... هل تقدمون كل هذه المعلومات طوعاً»؟ (ننوه إلى أن الرصاص سيطال فيما بعد حتى أوردجينكدزه). «بكل تأكيد طوعاً» - تململ بياتكوف.

وأسر ريكوف عند الاستراحة في أذن بوخارين: «يا لها من إرادة قوية، إرادة تومسكي - لقد أدرك كل شيء منذ حلول شهر آب، واستراح، بينما كنت واياك أغبى الأغبياء، لأننا ما زلنا على قيد الحياة».

تقدم بعد ذلك كل من غاغانوفيتش، ومالوتكوف، وألقيا كلمات مشوبة بالسخط، واللعنة (لم يرد غاغانوفيتش التصديق ببراءة بوخارين! - لم يتم إخراجها بعد).

أما ستالين! وأي قلب واسع!... وأي وعي موجه نحو الخير والصلاح: «مع كل ما قيل، اعتبر التهمة الموجه إلى بوخارين غير ثابتة، وقد يكون ريكوف مذنباً. أما بوخارين فلا (كما كأنها رغبة منه، في أن يحفز أحداً ما. لاتهام بوخارين)!.

هكذا تسقط الإرادات عند الانتقال من البرودة إلى السخونة!.. وهكذا يتعايش الأبطال الضائعون في أدوارهم!.

هكذا دونما انقطاع راحوا يحملون إليه في البيت، بروتوكولات (محاضر) التحقيق، بدءاً من شباب معهد البروفيسورية الأحمر، وانتهاءً برادك، وآخرين مثله - وزجوا كلهم دون استثناء بكاهل الأدلة على الخيانة البوخارينية السوداء، وجاؤوا إليه في المنزل لا لأنه يحمل صفة المتهم - بل لأنه يحمل صفة العضوية في اللجنة المركزية، وأرادوا استطلاع ما حدث ليس إلا، بل ربما على الأغلب بدافع الحصول على معلومات جديدة. ولقد قال بوخارين لزوجته العشرينية، التي أنجبت له بعد لأي، ابناً

في الربيع ذاته: «لتحصي المرات... فبت لا أستطيع عدها!... وكاد رأسه ينفجر تحت ثقل الإساءة - دون أن يستطيع إنهاء حياته علماً بأن في حوزته مسدسين في البيت (كان قد أعطاهما له ستالين في الوقت المناسب).

هل يعقل بعد كل هذا، ألا يكون قد تعايش، وانسجم مع الدور كما يجب؟ جاءت بعدها عملية علنية أخرى - أعدموا فيها رزمةً من الضحايا... ورحمتهم ما زالت تحل على بوخارين، ولم يأخذوه بعد!.

قرر في بداية شهر شباط عام ١٩٣٧، إعلان الإضراب عن الطعام بيتياً كي تقوم اللجنة المركزية باتخاذ الإجراءات المناسبة، وتنزع التهمة عنه - وسطر أثناءها رسالة إلى العزيز الكبة - لقد تحمل الإضراب بشكل مشرف، حتى قامت اللجنة بالدعوة إلى عقد اجتماع طارئ لبحث المسائل التالية:

١- الأعمال الإجرامية للمركز اليميني.

٢- التصرف غير الحزبي للرفيق بوخارين ولجوئه إلى الإضراب عن الطعام.

لقد تردد بوخارين بينه، وبين نفسه متسائلاً: ألا يحتمل أن يكون بتصرفه هذا، قد ارتكب عملاً من شأنه إلحاق الإهانة بالحزب؟... وجرّ نفسه لحضور الاجتماع متثاقلاً غير حليق نحيل الهيئة، كما وكأنه قد اعتقل، وأمضى في المعتقل فترة لا بأس بها - «ما هذا الذي ابتكرتموه»؟ - تساءل الكبة الغالي بتودد وتحبب - «وماذا في الأمر، حتى لو افترضنا بأن لمثل هذه الاتهامات من وجوداً؟.. فلماذا يريدون فصلك من الحزب»؟... تجهم ستالين وتغضن وجهه من هؤلاء السفهاء: «لا... لا يستطيع أحد فصلك من الحزب»!... وصدق بوخارين، وانتعش، وانتشى، واعتذر بكل طيبة خاطر أمام الاجتماع عن فعلته، وأوقف إضرابه. «وفي المنزل: «هيا... قطعي لي السجق! لقد قال الكبة - لن يفصلوني من الحزب».

«إلا أنـه أثنـاء الاجتمـاع كـان قـد أطلـق كـل مـن غاغـانوفيتش، ومولوتوف على بوخارين (على الرغم من أنهما كانا على درجة كبيرة من السلاطة والوقاحة - فإنهما لا يعدان في هذا الحال - بشيء مقارنة بستالين[1]، تسمية المرتزق الفاشيتسي، وطالبا بإعدامه. وهوت معنوية بوخارين من جديد، وراح في أيامه الأخيرة يدبج رسالة مطولة إلى اللجنة المركزية المستقبلية» وبقيت هذه الرسالة محفوظة، وتناقلها الناس شفاهاً وصارت معروفة فيما بعد لكل العالم - إلا أنها لم تفعل فعلها، ولم تهزه (وبالتالي لم تهز حتى عواطف أعضاء اللجنة المركزية المستقبلية» ورُوست الرسالة بالعبارة المعبرة التالية: اللجنة المركزية صاحبة النفوذ المعنوي الذي لا نفوذ بعده). فلماذا أراد هذا المنظر اللامع العريق المعروف السير للخلف عبر كلماته الأخيرة؟ أليس هذا عويل جديد لتثبيت نفسه في الحزب (مع العلم بأنه كان دفع ثمن إخلاصه الكثير الكثير)! أم هو تأكيد جديد آخر على أنه «يستحسن استحساناً كاملاً» كل ما كان من أفعال قبيل عام ١٩٣٧ بلا استثناء، الأمر الذي يعني، ليس كل العمليات التهكمية السابقة، بل حتى كافة السيالات الاعتقالية العظيمة المنصبة في أسيقة السجون والمعسكرات!.

أليس هذا يثبت - بأنه يكون قد صادق على أنه كفوء، وأهل لأن يغوص في بحارهم؟ وها جاء الوقت أخيراً لتؤتى أكله، ويكون أداةً طيعة في يد الملقن، وفي يد المحترجين الفتية - هذا الإنسان القوي المفتول العضلات، المصارع الصياد، الذي (كان قد تمكن لأكثر من مرة من إلقاء «أس الكبة» أرضاً، في جولة عراك هزلي أمام أعضاء اللجنة المركزية للحزب! - أليس من المستبعد، أن يكون الكبة غفر له ذلك)!

١ـ أيّ إثباتات وأدلة ستحرم منها، بسبب تقادم العمر للخير الصالح مولوتوف.

ليس من الضروري تعريض مثل هذا الإنسان المجهز بتلك الوسيلة، والمحطم إلى هذه الدرجة الكبيرة، للتعذيب بسبب ما يحتله من موقع، أقوى بكثير من ذلك، الذي كان لدى ياكوبوفيتش - خيتش عام ١٩٣١، وبسبب أنّه لم يكن خاضعاً لمثل هذين الدليلين ذاتهما، إلا أنه كان في واقع الأمر، أكثر ضعفاً من ياكوبوفيتش المتعطش للموت، على العكس منه، الخائف من حتفه.

بقي لنا، إيراد الحوار السهل التالي مع فيشنسكي كما كان في الحقيقة:

- هل صحيح، أن المعارضة ضد الحزب هي في الوقت نفسه صراع معه؟

- الحقيقة نعم.

- لكن الصراع مع الحزب، لا يمكن إلا أن يتنامى إلى حالة شن الحرب ضده؟

- حسب منطق الأشياء... نعم.

- هذا يعني، بأنه يمكن أن يؤدي هذا السياق، إلى ارتكاب أيّ شناعة ضد الحزب (من قتل وجاسوسية، وخيانة وطنية)؟

- لكن اسمحوا لي بالتنويه، بأن كل ما ذكر، لم يدخل حيز التطبيق.

- لكنه كان يمكن أن يكون؟

- تقول نظري ليس إلا... (ألا ترى بأنه منظر فكري).

- إلا أن المحصلة، تبقى مصلحة الحزب في نظركم هي المصلحة العليا؟

- أجل طبعاً... طبعاً!

إذاً يكون بعد هذا الحوار، قد بقي بعض التفاوت البسيط، ويتوجب بعدها تحقيق الحلم، في خلق الضرورة لخزي كافة أقطاب المعارضة منذ هذه اللحظة، وحتى الأيام القادمة، بغية تحقيق المصلحة - في أن يعترفوا بتنفيذ ذلك، الذي يمكن تحقيقه، ولو نظرياً. أفلا يمكن أن يكون هذا قابلاً للتحقيق؟ - بلى يُمكن... وهكذا تكون قد توفرت الإمكانية للإقرار بالحقيقة فقط، ليس أكثر... - إنها نقلة فلسفية صغيرة... اتفقنا؟... لا بأس، إنما بقيت إضافة بسيطة!... وليس عليكم توضيحها: الآن، وطالما أنكم في المحكمة، عليكم أن تعودوا، وتقولوا شيئاً ما، بشكل آخر - أي أن تذكروا، بأنكم تنفذون فقط، الدور الذي أوكلته البرجوازية إليكم، بإلحاق الضرر بالحزب... ومن البدهي عندها تكونوا قد أمنتم لأنفسكم موتاً هنيئاً: لكن الأمور ستجري على الشكل الأمثل - إذ نقوم بالحفاظ على حياتكم، ونرسلكم تحت إطار من السرية المطلقة إلى جزيرة مونت - كريستو حيث تعلمون هناك في الجوانب الاشتراكية - الاقتصادية - لكنكم حسب تصوري، كنتم قد قمتم في العمليات السابقة، بإعدامات كثيرة؟ - فكيف لكم الآن تحقيق هذا التوازن - بينكم، وبينهم؟!.. بعد أن تركتم الكثير الكثير من الأحياء، أحياء، لكن بالصحف وبالصحف فقط!..

وبعد.... كثيرة هي الألغاز، وقد يكون الكثير منها، لكن لا ندر أين توجد مثل هذه الأحجية الفظة.

هو نفس اللحن الميلودي، الذي لم يقهر قط، خلال الزمن الماضي، ولم يطرأ عليه أي تغيير، حتى ولو كانت العمليات ذاتها قد تغيرت: ألسنا وإياكم - شيوعيين! فكيف لكم بعد كل هذا، أن تزوغوا عن خط الحزب، وتناهضوه العداء؟... فلتندموا... هيا!... لأننا وإياكم - نكون هذا اللحن!.

تنضج المفاهيم التاريخية في المجتمع ببطء متناهٍ، إلا أنها في النهاية تنضج - ببساطة مطلقة، على العكس من المتهمين، الذين لم يستطيعوا لا في عام ١٩٢٢، ولا في عام ١٩٢٤، و١٩٣٧ التحصن بوجهة نظر، ورأي واحد كي يصرخوا في أذن هذه الميلوديا الساخنة المتبردة، برؤوس مرفوعة.

لا لسنا وإياكم ثوريين!... لا لسنا وإياكم، حتى ولو شئتم روساً... لا لسنا وإياكم شيوعيين!.

كان يكفي الصراخ! - لينتثر الديكور في الأرجاء، ويسقط ملاط المكياج، وليهرب المخرج من على السلم الأسود، وليختبئ الملقن في الجحر الجرذي، ولتجتمع المجموعات الست عشرية على الباب.

إذا ما أجهضت هذه المسرحيات، قد تتكون طرق أخرى... يقرر فيها ستالين التوقف عن عمليات المحاكمة العلنية. والأصح أن نقول، بأنه كان في عام ١٩٣٧ مهووساً في خلق شبكة واسعة من العمليات العلنية في الأقاليم والمناطق - كي تصبح الروح السوداء للمعارضة تحت منظور الجماهير الشعبية، لكنه خُذل بسبب عدم توفر المخرجين الأكفاء، ولم يكن بالمستطاع التحضير بدقة أكثر، حتى أن المتهمين ذاتهم، لم يكونوا على درجة كبيرة من عمق التفكير - الأمر الذي خلق عند ستالين حالة من الحيرة والإرباك قلّما عرف الناس عنها شيئاً، وبالتالي أدت إلى انقطاع وتوقف عدة عمليات، أو أرجئت، أو أقلع عنها.

لعله من المفيد، التكلم هنا عن إحدى هذه العمليات - ألا وهي القضية الكادية، التي أول ما كتب عنها بالتفصيل في صحيفة منطقة إيفانوف.

في عام ١٩٤٣، وفي الأقاصي الخرساء من إقليم إيفانوف، وعلى تخوم منطقتي كوسترومسكي، يجينخوردسكي، كانت قد أحدثت منطقة جديدة، مركزها بلدة كادي العريقة المنسية، وعينت لها قيادة من مختلف

الأمكنة، لم يكن أعضاؤها على معرفة مسبقة ببعضهم... ورأوا تلك الأراضي الكامدة الشاحبة الصماء، المترامية الأطراف، والمعدَمة إلا من أهراءات الحبوب الوفيرة، الأمر الذي استوجب، المطالبة بتأمين المساعدات المالية، والآليات للإدارة الحكيمة، مقابل الحبوب، وشاعت الأقدار أن يكون السكرتير الأول للجنة المنطقية فيدور إيفانوفيتش سميرنوف، إنساناً ذا إيمانٍ مطلقٍ بالعدل، وكذلك، أن يكون مدير الإنتاج ستافروف رجلاً أصيلاً من الفلاحين المتعلمين الغيورين «النشطاء» حسب التسمية التي كانوا يطلقونها في العشرينيات، على هؤلاء الذين عاملوا الأرض بأيديهم (الأمر الذي شجع السلطة السوفييتية، بأنه قد يأتي زمن ما، وإن لم يتقرر بعد التنكر لهؤلاء النشطاء).

لم يتعرض ستافروف للهلاك، بسبب انتظامه في صفوف الحزب في مرحلة نزع ملكية الكولاك (أليس من المحتمل أن يكون قد قام بنزع ملكية أترابه بنفسه).

إذاً... حاول الاثنان معاً تقديم شيء ما للفلاحين، من خلال منصبهما لكن التوجيهات العليا، جاءت بمجملها عكس ما أرادا المباشرة به: وكأنما تقصدت القيادة العليا جعل هذين الرجلين أكثر غضاريّة، وانحدارية، وكتب الكاديون في إحدى المرات، عريضة يطلبون فيها تخفيض خطة التخزين للحبوب في المنطقة، بسبب صعوبة تنفيذها، وإلا قد تتعرض المنطقة لإملاق يفوق حدود التوقع (بخاصة في تلك الآونة (في سني الثلاثينيات): التي لا نستطيع أن نقدر الآن، اعتبار مثل هذا الطلب عادياً، إن لم نتذكر ذلك الوقت وصعوبته). مما جعل القيادة تنظر لهذا بمثابة تدنيس للخطة، إن لم يكن عصياناً وتمرداً مضاداً للسلطة!... لكن وحسب أساليب تلك الأيام ذاتها لم تكن تتخذ التدابير الجائرة ضد الأنداد وبقي الرجلان في منصبيهما يمارسان مبادراتهما الذاتية.... وبينما كان سميرنوف

في إجازة قام معاونه فاسيلي فيدروفيتش رومانوف (السكرتير الثاني) بتقديم مداخله أقام اللجنة المنطقية، جاء فيها: «كان يمكن أن تكون النجاحات في المنطقة أكثر روعة؟ لولا (تروتسكية) ستافروف»، وبدأت «قضية ستافروف الشخصية» ويا للأسلوب الطريف: الفصل من العمل أولاً، وترهيب سميرنوف مؤقتاً، وتحييده، ونكوصه... والوصول إليه فيما بعد - إنها أبسط حالة قياسية للتكتيك الستاليني في اللجنة المركزية)، إلا أنه تبين أثناء الاجتماع الحزبي، إن ستافروف كان تروتسكياً... بقدر ما كان اليسوعي البابوي الروحي... وكان رئيس ممثلية المنطقة فاسيلي غريغورفيتش فلاسوف إنساناً متعلماً بالفطرة، ومن محبّي الاطلاع، وكان من صنف أولئك الرجال، المندهشين، من أن لا يكون الروس قد خلقوا منذ الأساس، إلا ليكونوا نقابيين - بالفطرة. وكان لماحاً سريع البديهة ذا منطق حمراوي في الجدل والمحاكمة، والمحاججة، ملتهباً حتى درجة التوهج، صادقاً لأبعد الحدود، واستطاع بهذا كله إقناع الرفاق في الاجتماع الحزبي، بفصل السكرتير الثاني للجنة المنطقية رومانوف من الحزب بسبب افتراءاته! ووجهوا التوبيخ لرومانوف، الذي وقف أمام الحضور، وتلفظ بكلماته، التي حملت توضيحاً دقيقاً لأمثاله من الناس المتشبثين بإيمانيّتهم المطلقة بالظروف: «على الرغم من تأكيدكم، أن ستافروف ليس تروتسكياً! فإني باق على إيماني، بأنه تروتسكي، وسيأتي الوقت، ويتأكد الحزب فيه من صدق رؤيتي، ومن عدم أحقيه التوبيخ الموجه لي» وتأكد الحزب، وقامت ممثلية وزارة الداخلية المناطقية باعتقال ستافروف دونما إبطاء، وبمرور شهر واحد عين رومانوف مكانه، بدلاً من انتزاعه من منصبه كسكرتير ثانٍ في اللجنة المنطقية - وساقوا ستافروف إلى الداخلية، وأقر هناك بتروتسكيته، وبأنه تحالف مع الآيسيريين تحالفاً حياتياً، ويعتبر عضواً في التنظيم اليميني السري في

المنطقة (ألا ترى كومة اتهام - ألا يتحمل بعد هذا، أن يكون لديه المؤهل لأن يقيم الاتصال المباشر مع دول الائتلاف). لعله لم يقر بذلك، لكن هذا ما لا يستطع أحد معرفته، ولن يستطع قط بسبب موت المرحوم في داخلية منطقة إيفانوف تحت التعذيب، إلا أن أوراق المحاضر أعدّت على وجه السرعة، واعتقل السكرتير الأول سميرنوف، بسبب تنظيمه اليميني المقترح، وألحقوه بسابوروف مدير إدارة الإنتاج، وبآخرين.

من الممتع معرفة الكيفية، التي تقرر فيها مصير فلاسوف، إذ وبمرور شهر واحد، طلب رئيس اللجنة المناطقية فصله من الحزب، وكنا قد نوهنا سابقاً (في الفصل الرابع) كيف أغاض هذا النائب العام لمنطقة روستوف، وكيف أثار أيضاً مدير الأمن الداخلي في مديرية المنطقة ن. ي. كريلوف، بسبب الدفاع عن اعتقال اثنين من أعضاء نقابته الأذكياء، بتهمة إلحاق الضرر المزعوم (كان فلاسوف يقبل في صفوف عماله، أولئك، الذين كانوا قد برعوا في عملهم (من العمال السابقين)، على العكس من هؤلاء البروليتاريين الحركيين، الذين لا يملكون الخبرة، ولم تكن لديهم منذ الأساس إرادة العمل). كانت إدارة الأمن الداخلي جاهزةً للانخراط في العمليات (عمليات التتبع لإحالتهم إلى القضاء) النقابية العالمية!، لذا قام معاون الأمن الداخلي سوركين بالذهاب إلى التعاونية المنطقية، ليقترح على فلاسوف: منح مديرية الأمن الداخلي أقمشة دون مقابل «ليتم إخراج قيمتها البالغة سبعمئة روبل عن القيود - بطريقة ما». (ألم تكن هذه الأقمشة عبارة عن مزق نسيجية لا قيمة لها)! علماً بأنها كانت تساوي راتب شهرين من رواتب فلاسوف (الذي لم يعتد على ذلك، وبادر المدير إلى طرده! «كيف تتجرأ... وتطرح علي... أنا الشيوعي، القيام بمثل هذه الأفعال»؟ وفي اليوم الثاني ظهر كريلوف، بوظيفته الجديدة، رئيساً للجنة الحزبية المناطقية

«كانت هذه التغيرات بمثابة حفلات تنكرية ومقالب مستمدة من روح والسنة السابعة والثلاثين)!، وأعطى توجيهاته، لعقد اجتماع طارئ، لبحث الأمور المستجدة «البحث في نشاطات سميرنوف التخريبية - ونشاطات أونيفر المشبوهة في الجمعيات التعاونية الاستهلاكية». إذاً... فليقدم الرفيق فلاسوف تقريره!... «هكذا.... إن لم تكن الأشياء مزيفة، فلا بد من أن تكون مطرزة! «غرزة بعد غرزة» لم يقم أحد من الحضور بتوجيه الاتهام لفلاسوف!... إلا أنه كان كافياً، أن يتحدث بكلمتين عن النشاطات التخريبية للسكرتير السابق للجنة المنطقية في عهده، لتنتفض مديرية الأمن، وتقاطعه قائلةً: «وأين كنتم؟ ولماذا لم تأتوا إلينا، وتبلغونا عنه»؟... ذهل الجميع... وأحجموا... وعلا الوجوم وجوه الجميع... إنما ليس هو فلاسوف من تعود الصمت! وسرعان ما جاء الرد: «لن استمر في تقديم تقريري!، وليقم كريلوف بذلك بدلاً عني - أليس هو من قام بالاعتقال... وتابع ملاحقة قضية سميرنوف واونيفر»!. رفض كريلوف: «لست ملماً بالتفاصيل» وتابع فلاسوف! «طالما أنكم لستم ملمين بذلك - فهذا يعني أنكم اعتقلتموه، دون الاعتماد على أيّ قاعدة»!... وهكذا انقطع الاجتماع... ولم يستمر.

إنما هل استطاع الناس التحصن، والدفاع باستمرار؟ (لم تكن الحالة في السابعة والثلاثين واضحة، وإننا سنفقد الكثير من أولئك الأقوياء أصحاب المواقف القوية، إن لم نذكر، إنه وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم - ولج إلى مكتب فلاسوف، كل من محاسب الجمعية السابق /ت/ ومعاونه /ن/ يحملان له عشرة آلاف روبل «فاسيلي إريفوروفيتش! هيا فلتهربوا هذه الليلة!... وهذه الليلة بالذات وإلا وقعتم في الشرك»!، إلا أن فلاسوف لم يفعل، وأخذ في الحسبان، بأنه من غير اللائق بالشيوعي الهروب! وصدرت الصحف الصباحية تحمل في عناوينها الرئيسية العبارات

اللاذعة من الأعمال المرتكبة في اللجنة المنطقية (ألم تكن صحافتنا أداة طيعة في يد إدارة الأمن الداخلي).

وفي المساء اقترح على فلاسوف تقديم تقريره أمام اللجنة (إن لم تكن هذه خطوة أولية - فلا بد من أنها ستكون نموذجاً وفق الطريقة السوفييتية العامة)! جرت هذه القضية عام ١٩٣٩ وفي العام التالي حدثت قضية فيكوجان بروسبيرتو في موسكو، وتلتها قضايا كثيرة أخرى في عموم المدن الروسية الكبيرة، وكثيراً ما تصادفنا مع ذكريات الكتاب والصحافيين، التي طغت في الفترة، التي تلت نهاية مرحلة الجوع، وأصبحت في عمق التاريخ تنذر بالخطر.. لا بد من أن نذكر الآن وفي هذا السياق صدور قرار سري في تشرين الثاني من عام ١٩٣٦، أي بعد مرور سنتين على تبديل البطاقات التموينية بمنع الاتجار بالدقيق في إقليم إيفانوفسكي (وفي الأقاليم الأخرى) وجاء صدوره في تلك السنين، التي كان فيها الكثير من الناس في القرى يخبزون في بيوتهم، ولم تتوفر عندهم بعد الأفران العامة وبالتالي، فإن منع الاتجار بالطحين، يعني عدم توفر العيش! وراحت الطوابير الطويلة في إقليم كادي، تتكاثر بشكل غير ملحوظ في بعض الأحيان، (بسبب تنفيذ الضربات الهجومية عليها: ذلك لأنه كانت قد منعت صناعة الخبز الأسود في مراكز المناطق عام ١٩٣٧، وسمح فقط بصناعة الخبز الأبيض). لم يكن في ذلك الوقت مخابز أخرى عدا الفرن المركزي، الأمر الذي جعل الناس يندفعون من القرى بحثاً عن الخبز الأسود، مع أن الطحين كان ملء المستودعات، إلا أن منافذها سدت بحواجز منيعة بوجه المواطنين!، لكن فلاسوف وجد حلاً على الرغم من التوجيهات الحكومية اللعينة، وأطعم المنطقة في ذلك العام باتفاق مع ثمانية كولخوزات، على إقامة المخابز الشعبية في العزب (الكولاكية)، (كانت هذه المخابز بسيطة، تعمل على الحطب على غرار الأفران الروسية القديمة، ويصنع

الخبز على شكل كعكات - حرصاً على أن تكون شعبية عامة بعيدة عن الخصوصية)، والتزمت المستودعات بالاتفاق، وحلت المشكلة على أساس اتخاذ القرارات الأبدية، التي استدعت الحاجة لإيجادها، وبالتالي اختفت الصفوف أمام الأفران بعد تطبيق هذه الفكرة بيوم واحد، دونما المساس بقرار منع الاتجار بالدقيق، ونفذ فلاسوف قراره، واستمر توزيع الطحين، واستجر منه من المناطق الأخرى، واكتفى بتوزيع الخبز الأسود، ... غير أن هذا اعتبر مخالفة للأوامر حتى وإن كان بحرف واحد وهذا مخالف لروح الأمر - وهو الاقتصاد بالدقيق، وسيان أكل الشعب أو لم يأكل، مما خلق مبرراً لأن يتلقى النقد في اللجنة المنطقية.

عاش بعد هذا الهجوم النقدي ليلاً مضطرباً، وفي صباح اليوم الثاني، تم اعتقال هذا الديك (الدبيك) الصغير الصارم (كان رجلاً، صغير الجسم، اعتلاه رأس لماح، حمل فيه بعض العجرفة). لقد حاول ألا يسلم البطاقة الحزبية (إذ لم يُتخذ البارحة قرار من اللجنة بإبعاده)! وبطاقة العضوية في مجلس السوفييت (كان قد انتخب من قبل الشعب، ولا يفقده قرار اللجنة المناطقية، حصانته النيابية)!، إلا أن الشرطة، لم تستوعب هذه التلفظات الشكلية، وانقضوا عليه، وجروه عنوة إلى دار الأمن الداخلي عبر شوارع كاديا نهاراً، وما أن شاهد أحد الباعة ما حصل لمعلمه (البساطة - ليست هي بالمتلازمة الثابتة عند أهل الريف دائماً، ولم يكن الناس عندها قد تعلموا قول عكس ما يفكرون فيه). حتى هتف هذا الشاب البائع الكومسمولي صائحاً: «يا للأوغاد!... حتى معلمي يأخذونه»! وطرد على الفور من عمله، ومن منظمة الكومسمول، وتدحرج من على سلّم المعروفِ إلى الحفرة.

تأخر اعتقال فلاسوف قياساً بأترابه وأعوانه، ريثما تم ترتيب القضية دونه، ولم تبق إلا تهيئة الأمور تحت إطار عملية المحاكمة العلنية. وسيق إلى

عمق إقليم إيفانوف (كما وكأنه الأخير لا أحد بعده) دون أن يمارسوا عليه الضغط التعذيبي اللازم، واستخلصوا منه استجوابين دونما الحاجة إلى شهود، وعجت إضبارته التحقيقية بموجز مطول عن سيرته في اللجنة التنفيذية، وبعض المقتطفات من الصحف المحلية، واتهم بأنه:

١- المسبب في ظاهرة الطوابير طلباً للخبز.

٢- وفي ندرة التشكيلة البضائعية، وانخفاضها إلى أدنى الحدود (وكأن البضائع متوفرة في كل مكان... وسلمت إلى مدينة كادي بوفرة مطلقة).

٣- وفي وجود فائض من استجرار مادة الملح (كان الاستجرار من اللزوميّات الأساسية للاحتياط (التعبوي)، على غرار ما كان متبعاً في روسيا، حيث كانوا يتحرزون عند قيام الحروب خوفاً من فقدان مادة الملح).

سيق المتهمون في نهاية شهر أيلول، إلى المحاكمة العلنية المنعقدة في كادي، ولم تكن الطريق قصيرة (تذكر! إن التجوال والتنقل بالسفن المغلقة، كان أحد أكثر سبل التعذيب رخصاً): انطلقوا من إيفانوف إلى كينبشمي - بالقاطرات المقفلة ومن هناك إلى كادي بطريق صحراوية طولها مئة وعشرين كيلو متراً، سارت العربات عليها أرتالاً، أثارت الرعب والاضطراب عند مرورها في القرى خوفاً من قدوم حرب أخرى. كان المسؤول عن تنظيم هذه القافلة الإرهابية الدنيئة كليوكين (رئيس القسم السري الخاص في الإدارة الأمنية لشؤون التنظيمات السياسية المضادة للثورة). وبلغ عدد الحراس المرافقين أربعين عنصراً من احتياط شرطة الخيالة، ساقوا المعتقلين يومياً (ولمدة ثلاثة أيام بدءاً من ٢٤ أيلول) تحت حراب البنادق المصلته من مركز الأمن الداخلي في مدينة كادي إلى مكان المحاكمة في النادي -

وكانوا يمرون في كل مرة أمام تلك الأماكن التي كانوا يعملون بها قادة - أما النادي - مكان المحاكمة لم يكن مكتمل البناء، وفيه بعض النوافذ والجدران غير مجهزة، ولا تتوفر فيه الإنارة الكهربائية (إذ لم تصل الكهرباء بعد إلى المدينة). وعقدت الجلسات تحت ضوء القناديل، واستقدموا بعض الجماهير من الكولخوزات لحضور المحاكمة، وعجت المدينة بهم، وشغلوا الأدراج، والنوافذ والمداخل، وزاد عددهم عن سبعمئة شخصاً واحتل الشيوعيون الصفوف الأولى، لتبدوا المحكمة أكثر صلابة وقوة.

حضر المحاكمة الاختصاصيون من المحكمة الإقليمية، منهم معاون رئيس المحكمة الإقليمية شوبين - وعضوية كل من تبشي، وزار وزيروف، وقام بتوجيه الاتهام خريج المعهد الإقليمي النائب العام كراسنك (على الرغم من رفض المتهمين لمحامي الدفاع إلا أنه بقي واقفاً وملاصقاً لهم، بحيث لا تبقى جلسات المحكمة دون دفاع). بدأت المحكمة بكلمة اتهامية احتفالية تهديدية طويلة، فحواها: إنه تم في مدينة كادي تشكيل مجموعة بوخارينية - يمينية سرية (تعمل على امتداد إقليم إيفانوف)، ووضعت نصب عينها هدف (ها هو البوق يصدح - فانتظر الاعتقال أينما كنت). التخريب وقلب نظام الحكم في مدينة كادي (ألم يجدوا لهذه البداية، إلا هذه الحركة اليمينية... مجديّة)؟

أعلن المدعي العام شفاعته: على الرغم من وفاة ستافروف في السجن، تبقى الأدلة، التي قدمها قبل موته، معطيات ثابتة لدى المحكمة (اعتمدت كافة أدلة الاتهام الموجهة لهذه المجموعة، على تلك المقدمة من المرحوم ستافروف)... مع الموافقة: على تضمين أدلة الميت، وكأنه ما زال حياً (إنها الأفضلية المطلقة لا يستطيع أحد المتهمين مجاراته، ومجادلته)!.

لكن القناعة الكادية (نسبة إلى المدينة) لم تلتقِ بعلماء الحذاقة بعد، وها هي تنتظر الآتي - وما زالوا يقرؤون ويكررون، ويدونون محاضر الأدلة، وإثبات التحقيق للميت من جديد، ويبدؤون باستجواب المتهمين على أساسها - يا للحيرة!، رفض الجميع الاعترافات المصنعة عن التحقيق الأولي، وتنصلوا منها!.

إنه لأمر محير كيف يمكن أن يكون التصرف لو كانت مثل هذه الحالة حدثت في القاعة الأكتوبرية لدار السوفييت؟ لكنهم قرروا هنا، الاستمرار دونما خجل! وراح القاضي يلوح بيديه... كيف استطعتم، التقوّل عن التحقيق الأولي أشياء مختلفة؟ أجاب أونيفز بحالةٍ واهنة، وبصوت خفيف: «طالما أنني ما زلت شيوعياً، لا أستطيع التحدث أمام المحكمة علانية، عن أساليب التحقيق في الأمن الداخلي (ها هو الموديل الجديد للعملية البوخارينية!... وإليك... ها هم يقيدون من جديد... ويبلعون كل شيء، بحيث لا يعرف الشعب، أو حتى كي لا يفكر بشيء سيئ حيال الحزب، ها هو اهتمامهم وهاجسهم، الذي نسيه القاضي منذ زمن بعيد).

صال كلوكين وجال، أثناء الاستراحة في غرفة المتهمين، وقال لفلاسوف: اسمع لقد رأيت كيف تبرم الوغدان سميرنوف، وادنيفز؟ ويجب عليك أنت، أن تعترف بنفسك مذنباً، وتقول الصدق والحقيقة!! «كل الحقيقة»! - لقد راودت الرغبة نفس «والدي» فلاسوف، الذي لم يلحقه الوهن بعد، في أن يوافق - قل الحقيقة في أنكم لا تختلفون عن الفاشية الألمانية بشيء.... ويحتدم كلوكين غضباً: «انتظر لو أنك لم... فستدفع دمك ثمناً»[1]!!.

١- سيراق دمك في القريب العاجل! - ألقي القبض على كليوكين ضمن جماعة بيجوفسكي الاينكافيدسكي، وارسل الى المعسكر، وجز رأسه هناك بحراب غوبيدوليني.

منذ تلك اللحظة... ينتقل فلاسوف من الدور الثانوي في العملية، إلى الدور الرئيسي الأولي - وكأنه الملهم الروحي للجماعة.

ملأت الصفوف المداخل كافة.... ونصتت متيقظةً لمعرفة أسباب أزمة الخبز، التي حان للمحكمة التحدث عنها، بخاصة منهم من عانى منها، وما زال أمامهم حياً (بالطبع كان قد تم إغراق السوق بالخبز قبل المحكمة، ولم تُرَ أيّ طوابير عندها). ويوجه السؤال لسميرنوف: «هل عرفتم عن طوابير الخبز في المنطقة»؟ - «ماذا تصرفتم حيالها»؟.

حافظ سميرنوف على نبرته الصوتية الهادئة، وأبدى ثقته ببراءته، على الرغم من التعذيب الذي لاقاه، فهو على كل حال، إنسان روسي راكد، بدت البساطة على وجهه واضحة، وها هو الآن، على غير عجلة من أمره، طالما أن القاعة تستمع لكل حرف يقوله: «كثيراً ما كنا نتوجه بالطلب إلى المنظمات الإقليمية، إلا أن السبل أعيتنا، ولم نتلقَّ شيئاً مما طلبنا، ولقد كلفت فلاسوف بتوجيه تقرير تفصيلي إلى الرفيق ستالين» - «ولماذا لم تقوموا أنتم بصياغته»؟. «ثانية... لا يعرفون في المحكمة عن ذلك شيئاً، وها قد اسقط في يدهم)! - «كنا قد كتبناه معاً، وقمت بتوجيهه إلى اللجنة المركزية مباشرة دون الرجوع إلى اللجنة المنطقية، وحُفظت نسخة منه في ملفات اللجنة». عمّ الوجوم القاعة... وحبست الأنفاس... واضطرب القاضي، وحار فيما إذا كان عليه الاستمرار بالأسئلة، أم لا، ... لكن أحداً ما تلفظ مستفسراً؟:

- وماذا بعد.

أجل هذا هو التساؤل الذي ارتسم على شفة كل من كان في القاعة «وماذا بعد»؟ أما سميرنوف فظلّ هادئاً، ولم يعترِه التشنج والخوف، ولم يرزح تحت هلاك المثالية (إن ما قاله لا يكفي للعملية الموسكوفية)! وراح يجيب على التساؤلات بصوت هادئ ومسموع.

- لا شيء... لم يأت الرد على ذلك؟

وأردف بصوت منهك... هذا ما كنت أتوقعه.

أجل لم يأت الرد، فالأب المعلم لم يجب! وها هي المحكمة العلنية صارت في أوجها!

وها قد تأكدت للجماهير النقاط السوداء المعششة في المؤسسة المسؤولة عن إطعام الناس!

وها هو القاضي يملك إمكانية إقفال المحاضر!!.... لكن لا... تمهلوا!.... فلمثل هذا التصرف، لا يكفيكم العقل، ولا الحصافة... ها هم يبقون ثلاثة أيام أخرى متواصلة! يراوحون في أمكنتهم المبللة.

أفلس القاضي: إن ما قمتم به، لهو الرياء والنفاق بعينه! يد تخرب، ويد تكتب للرفيق ستالين! وفوق ذلك كله... انتظرتم الرد؟، ولندع المتهم فلاسوف يجيب على هذا - كيف استطاع أن يرتب أمر هذا التخريب المريع - بإيقاف بيع الطحين؟ وإيقاف خبز الجودار في المركز المناطقي!.

موافق بالإجابة على كل شيء أمام المحكمة، فيما لو دعوتم المدعي العام كراسنيك ليترك المنصة، وأجلستموه إلى جانبي!.

غير واضح!... علا الصراخ، وعم الضجيج...! كفى كفى... ما هذه الفوضى...؟ ما أن أمسك فلاسوف بزمام الموقف، حتى راح يسرد تلقائياً.

أقول... إن ما يتعلق بأمر بيع الدقيق، ومنع خبز الجودار، تم بناءً على توجيه ورد من رئاسة اللجنة التنفيذية - ويعتبر المدعي العام كراسنيك عضواً دائماً فيها، وإذا ما كانت هذه الأعمال تخريبية - فلماذا يصر المدعي العام على عملية المنع وكأنها تخريبية الأمر الذي يعني بأنكم - مخربون قبل أن أكون؟.

تنهد المدعي العام، فالضربة قاسية وسريعة... وحارت المحكمة فيما تجيب... وأخيراً غمغم القاضي:

- إذا ما تطلب الأمر ذلك... فسيكون (؟) - وسنحاكم المدعي العام لكننا اليوم نحاكمكم أنتم!.

(حقيقتان لا ثالث لهما - متعلقتان بالنوع)!.

- إني أطالب بإزاحته من منصب الادّعاء العام - وخزهم فلاسوف دون اضطراب... استراحة..

أي معنى تربوي عميق، تحمله هذه العمليات المتماثلة في نفوس الجماهير؟ بينما هم... يستجرون منا ما يريدون، فبعد استجواب المتهمين تبدأ عملية استجواب الشهود، وكان منهم المحاسب (ن).

- ما مدى معرفتكم بالنشاطات التخريبية لفلاسوف؟

- لا شيء.

- كيف لا شيء؟

- لقد كنت في غرفة الشهود، ولم استمع إلى ما قيل.

- لا لزوم للاستماع، فعبر أيديكم مر الكثير من الوثائق... وهل يعقل بأنكم لا تعرفون شيئاً؟.

- الوثائق كانت نظامية.

- لكن كيف يكون هذا - ورزمٌ كبيرةٌ من الصحف حملت المعلومات عن النشاطات التخريبية لفلاسوف... وأنتم لا تعرفون عنها....؟

- يمكنكم سؤال أولئك - الذين كتبوا تلك المقالات.

- إنما قل لنا، هل يتوفر الكثير من الخبز لدى السلطة السوفييتية؟

- هكذا إذاً... كيف ستكون الإجابة؟... ومن يجزم بأن يقول هذا الشاهد: لم يسبق لي أن قرأت هذا؟

- يتوفر الكثير.

- إذاً... ولمَ هذه الصفوف الطويلة الواقفة عندكم؟

- لا أعلم!

- وبمن يتعلق هذا؟

- لا أعلم!

- لكن... ولمَ لا تعلمون؟... ومن كان المدير عندكم؟

- فاسيلي غريغوردفيتش.

- فليأخذ الشيطان فاسيلي غريفوردفيتش!... إنه المتهم فلاسوف! مما يعني إن كل شيء يتعلق به.

الشاهد يصمت!!!

ويملي رئيس المحكمة على كاتبه: «جواب: نتيجة الأعمال التخريبية لفلاسوف تشكلت تلك الطوابير طلباً للخبز، على الرغم من توفر الاحتياطي الكبير منه لدى السلطة».

حمل المدعي العام خطبه الحاقدة المطوّلة، ملامحه الشخصية الذاتية، فبدلاً من أن يكون مدافعاً عن الحق العام، راح يدافع عن نفسه منوهاً إلى أن مصلحة الوطن بالنسبة إليه هي العليا، مثله مثل أي مواطن شريف حميم.

لم يطلب سميرنوف في آخر كلمة له، أي شيء، ولم يبد أي ندم، فكيف لهذا الإنسان الصلب المستقيم المخلص، إصلاح كل شيء الآن، على الرغم من أنه استصعب تسليم رأسه كاملاً في زمن مثل زمن عام ١٩٣٧، وكان في هذا على العكس من سابوورف الذي طالب بالحفاظ على حياته - «ليس لأجلي، بل لأجل أولادي الصغار»، ويلكزه فلاسوف منزعجاً «يا لك من غبي»!؟

إلا أن فلاسوف لم يفوت التظاهرة الأخيرة، دون أن يعبر عن سلاطته:

إني لا اعتبركم محكمة - بل ممثلون تؤدون مسرحية محكمة، طبق أدوار مرسومة... إنكم منفذون شائنون لاستفزازية القوميسارية الوطنية للشؤون الداخلية، وسيان عندي، حتى ولو حكمتكم علي بالموت... فلن

أقول لكم... ما سمعتم منه، وإني لواثق، من أنه سيأتي زمن - تصبحون فيه في المكان الذي أنا فيه...!

واستمرت جلسة التداول مجتمعة من الساعة السابعة مساء حتى الواحدة ليلاً، بينما كانت القاعة المضاءة بقناديل الكيروسين، تصخب بطنين الحضور، بما فيهم المتهمون القابعون تحت الحراب!

لكم طال وقت صياغة الأحكام، ولكم طالت تلاوتها المفعمة بكافة التعابير الفانتازية، لكل صنوف وأنواع أعمال التخريب، بناءً على علاقة المتهمين بكل ما حصل، بسبب نيتهم المبيّتة للقيام بذلك. حكم على كل من سميرنوف وأونيفز وسابوروف، وفلاسوف بالإعدام رمياً بالرصاص، وحكم على اثنين من المجموعة بالسجن عشر سنوات، وعلى واحد - بالسجن ثماني سنوات، وتوصلت المحكمة إلى كشف تنظيم كومسمولي تخريبي في كادي (لن يتوانوا عن زج المدينة كلها... ولعلكم ما زلتم تذكرون ذلك البائع الكومسمولي الشاب)؟ أما إيفانوف... اعتبرته المحكمة، مركز التنظيمات السرية، التي تتبع بالطبع إلى الموسكوفية... فها... (ها... النفق يحفر تحت بوخارين).

بعد الكلمة الاحتفالية «رمياً بالرصاص» ترك القاضي فاصلاً زمنياً للتصفيق - لكن ساد القاعة على أثر ذلك إضراب حزين، وسمعت التنهدات ونشيج الغرباء المشوب بالصراخ... وغشي على الأقرباء، وفقدوا الوعي، حتى إن التصفيق لم يصدح كما كان مفروضاً في الصفين الأماميين، حيث جلس أعضاء الحزب، ولم يكن حتى من اللائق، أن تقام هذه الاحتفالية «إيه... آبائي أنتم... ماذا تفعلون»؟! وعلت الأصوات مخاطبة القضاة... وسقطت زوجة أونيفز بائسة... وعم القاعة شبه المظلمة، الهرج والمرج... لينبري من بينها صوت فلاسوف صائحاً على جلساء المقاعد الأمامية:

إيه... ماذا جرى لكم أيها الأنذال... لماذا... لا تصفقون؟... أيها الشيوعيون! واندفع القائد السياسي لفصيل الحرس، وراح يكدم وجه فلاسوف بقبضة مسدسه، وهم فلاسوف بانتزاع مسدسه، وتدخل إذ ذاك قائد شرطة الحرس، وأبعد الموجه السياسي المخطئ، وأعطى أمراً: «إلى السلاح» - ووجهت ثلاثون سبطانة (بارودة ومسدس)... نحو المتهمين، ونحو الصفوف... (بدا الأمر... وكأنهم... يقنصون المحكومين)!

زادت ظلمة القاعة المضاءة بالقناديل، من البلبلة والهلع، وبات الحضور على درجة كبيرة من الإقناع، إن لم يكن تحت تأثير واقع العملية المحكمية ذاتها... فإنه كان تحت تأثير سبطانات البنادق الموجهة نحوهم، وساد الذعر، واندفع الحضور خارجين من النوافذ والأبواب، وسط أصوات تحطم الزجاج، وكادت أن تبقى زوجة أونيفز المغمى عليها، تحت المقاعد حتى الصباح.

وهكذا.... فالتصفيق لم يصدح!!

لتكن ملحوظتي هذه مكرسة لفتاة الأعوام الثمانية، زويا فلاسوف: لقد أحبت أباها لدرجة الجنون، ولم تستطع بعد تلك الحادثة، من متابعة دراستها بسبب ما كانت تتعرض له «والدك مخرب»... ووقعت أكثر من مرة في عراك «بل والدي جيد، وبريء».

عاشت بعد المحاكمة مدة عام واحد (دون مرض)، ولم تضحك طوال تلك السنة لمرة واحدة، وكانت تسير مطأطئة الرأس، والعجائز ينصحنها: «إذا ما تطلعت نحو الأرض، فإنك لا بد من أن تموتي قريباً» ماتت أثر التهاب في القشرة الدماغية، وصرخت عند احتضارها: «أين والدي؟.... فلتعيدوه إليّ»! انتهت الملحوظة يعتبر تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص على المحكومين بحكم المنوع، ويجب أن يساقوا تحت حراسة مشددة، لأن

ضياعهم في هذه الظروف خسارة، وأيّ خسارة، فبعد اقتيادهم عبر المركز الإقليمي ويأتي بتنفيذ حكم الإعدام عليهم.

المهمة الأولى: تمت طوبرتهم في الشارع ليلاً، وساروا إلى الداخلية بحيث كان كل محكوم محاطاً بخمسة من المرافقين، الأول يحمل القنديل، والثاني يسير في المقدمة شاهراً المسدس، واثنان يمسكان بالمحكوم من تحت إبطيه ويحملان باليدين الأخريين المسدسات، والآخر يسير في الخلف، وهو يصوب بندقيّته على ظهر المحكوم أما الصفوف المتبقية من الشرطة طوقتهم بشكل دائري متناسق كي تمنع هجوم الصفوف الشعبية.

يوافق كل ذي عقل الآن على أنه لو كانت كافة المحاكمات علنية - لما تمكنت قوات القوميسارية الشعبية للشؤون الداخلية من تنفيذ مهماتها العظيمة.

لذا ولهذا السبب لم تنفذ عمليات محاكمة سياسية علنية في بلدنا!

الفصل الثامن

الإعدام

إن لحكم الإعدام في روسيا، تاريخية مقوننة، إذ جاء في كراس ألكسي ميخائيلوفيتش أكثر من ثمانٍ وعشرين حالة عقابية مؤدية للإعدام، وكذلك جاء في كراسة أنظمة القوات المسلحة، لمؤلفها بطرس، أكثر من مئتي لفظة إعدام، هذا مع العلم أن اليزابيت، لم تستخدم طريقة الموت هذه ولو مرة واحدة، على الرغم من أنها لم تلغها: ويقولون إنه منذ توليها العرش كانت قد أعطت عهداً بألا تعدم أحداً - ولم تحكم على أحد طوال حكمها، الذي استمر عشرين عاماً، على الرغم من خوضها حرباً استمرت سبع سنوات - ومع ذلك تخطتها، علماً بأن ما يثير العجب في أن فترة حكمها كانت في منتصف القرن الثامن عشر قبل زمن المقاصل الباكوبينية بنصف قرن، بينما نحن كنا قد رفضنا كل ما جاء قبلنا، وسخرنا منه، ورفضنا الإقرار بذاك التصرف، وحسن النية، وزدنا على ذلك تشهيرنا بأليزابيت، وسودنا ما فعلته: لقد أبدلت حكم الإعدام - بالجلد بالسياط، ووخز الخياشيم، والوسم بالنار وبالنفي إلى سيبريا، وما تشهيرنا بها، إلا دفاع عنها: فكيف نقلب ظهر المجن على الرغم من أنف التصور الاجتماعي الشعبي، أليس من الممكن أن يختار المحكوم بالموت في يومنا هذا النموذج الأنسب لحجب الشمس عنه، أو حتى إطفائها، إنما بملء إرادته، مع العلم بأننا لم نخيره بدافع إنساني؟ وربما إنا وفي سياق كتابنا

هذا، نميل إلى ذلك الذي يعتقد، بأن العشرين عاماً، أو قل العشرة أعوام في معسكراتنا، لهي أقسى من الإعدام الإليزابيتي؟!

وتكون اليزابيت هنا، قد ملكت حسب معاييرنا الآنية، رؤى المجتمع الإنساني.

أما يكاترينا - قد أقرت الإعدام، إنما بشكل جزئي وطبقي (اللذين قد يكونان أكثر مصداقية)... وبدا لها عدم الإعدام لأحد، إنما هو أمر فظيع وليس آمناً. وبغية الحفاظ على نفسها، وعلى عرشها ونظامها وعند تلك الحالات السياسية المضطربة كالعصيان الموسكوفي الطاغوتي في عهدي - ميتروفيتش وبوغاتشييف). أقرت الإعدام وقد يكون الإعدام بالنسبة لأصحاب الجرائم غير قابل للإلغاء.

أما في عهد بافل، تم تصديق إلغاء عقوبة الإعدام (على الرغم من كثرة الحروب - كانت الحملات تتم دون محاكم ميدانية). وفي زمن القيصرية (عهد الكسندر الأول) حكم بالإعدام على العسكريين الخونة المتخاذلين في حملة عام ١٨١٢ (وقد يقول لنا قائل: هل يذهب الجواسيس التقليديون إلى الموت؟... ليس تماماً... إذ لم يكن حينها مكان للقتل السري، حيث كان يمكن أن يقاد الإنسان إلى الموت نتيجة اجتماع نقابي! لكن في كل الأحوال لا تعطى الحياة لربها، إلا عبر التصويت عليها من قبل القضاة - وخلال نصف قرن من عهد بوغاتشيف، وحتى قبيل الثورة الأكتوبرية، لم يدركوا مجرماً حكومياً واحداً في بلدنا).

لم يتبدل شيء منذ تعليق مشانق الأكتوبريين الخمسة، وطبق حكم الإعدام على مرتكبي الجرائم الحكومية، وكان قد تم التأكيد عليها في صحائف التشريعيين عام ١٨٤٥ وعام ١٩٠٤، واكتملت أيضاً بالقوانين الجنائية - العسكرية، ولم تتبدل فيما يتعلق بالمجرمين المحاكمين في المحاكم العادية.

وبعد... كم بلغ عدد الأشخاص المحكومين بالإعدام في روسيا (ذلك الوقت)؟ على الرغم من إنا كنا قد ذكرنا في السابق أعداد الشخصيات الليبرالية المعدَمة ما بين عامي ١٩٠٥-١٩٠٩، حيث بلغت خلال ثمانين عاماً (٨٩٤ حالة)، أي بما يعادل أحدى عشرة حالة في العام، بيد أننا سنورد أرقاماً أكثر دقة للعلامة القانوني الروسي ن. س. تاغانتسيف، الذي يقول: بأن الإعدام كان في روسيا تدبيراً استثنائياً قبل عام ١٩٠٥، وخلال ثلاثين عاماً، وبدءاً من عام ١٨٧٦، وحتى عام ١٩٠٥ (زمن الأحرار الوطنيين، والأفعال الإرهابية غير المتعمدة، وزمن المشغولين بالطبخ المشاعي أو زمن الاضطرابات الجماهيرية، والاضطرابات الفلاحية، وحتى الزمن التي تكونت وتعززت فيه أحزاب الثورة المستقبلية). بلغ عدد المشنوقين ٤٨٦، أي حوالي سبعة عشر إنساناً في العام الواحد لعموم روسيا كلها (بما فيهم مشنوقي الجنايات[1]. بينما أثارت أعداد المحكومين الكثيرة خلال سنوات الثورة الأولى حفيظة الشعب، ونفذ الإعدام عام ١٩٠٨ على حوالي /٢٢٠٠/ (أي حوالي خمسة أشخاص في الشهر)، إنما نفذ الإعدام على من قام بأعمال إرهابية، وبأعمال قتل ونهب، وربما كانت هذه الحالة، حالة وبائية ليس إلا، كما يقول تاغانتسيف (وبعدها انقطع الوباء).

ملاحظة: من نافل القول، أن يكون قد طبقت عام ١٩٠٦ طريقة المحاكم العسكرية الميدانية وكانت أكثر المسائل تعقيداً، فيمن ينفذ حكم الإعدام (كان المطلوب - تنفيذ الحكم بعد يوم واحد على صدوره). كان قد قام المحكومون، بإطلاق النار على القوات من آن لآخر - مما أثار الأحاسيس بعدم الرضى بين الصفوف، على الرغم من ندرة من رضي أن يكون جلاداً من جلادي هذه الأيام». من مطلقي الرصاص في القذال - يستطيع أن يقتل الكثير الكثير دونما عارض.

١- كانت حالات الإعدام ثلاث عشرة حالة عام ١٨٨٤ في مدينة سليسلبورغ.

لقد غيرت الحكومة المؤقتة في بيانها كافة أحكام الإعدام، وفي حزيران من عام ١٩١٧ أعادتها في مناطق الأعمال القتالية للجيش، وفي النطاقات الجبهوية - على مرتكبي - الخيانة العسكرية، والقتل، والاغتصاب، والنهب وقطع الطرق (بسبب كثرة هذه الحالات في تلك المناطق) واتخذت أكثر الإجراءات استثنائية ضد ماحقي الحكومة المؤقتة، وكان شعار البلاشفة يقول: (فليسقط حكم الإعدام - الذي يطبقه كيرنسكي»!.

وتقول الحكاية: إنه قد دار جدالٌ حاد في قصر سمولني ليلة ٢٥-٢٦ أكتوبر حول: فيما إذا كان يجب، أن يرد في البيان الأول: صيغة تبديل حكم الإعدام أبدياً؟ - وسخر لينين عندها من طوباوية رفاقه، حيث أدرك، أنه دون الإعدام، لا يمكن أن يتقدم النظام الاجتماعي الجديد في البلاد، إلا أنه بعد تشكيل حكومة ائتلافية من الآيسيريين اليساريين، تراجعت مفاهيمهم المخادعة، وتم اعتباراً من ٢٨ أكتوبر عام ١٩١٧ تغيير حكم الإعدام، ولم ينتج عن هذا أي شيء خير. (لكن كيف تم هذا التغيير؟ في بداية عام ١٩١٨ أمر تروتسكي بمحاكمة الكسي شاستي... الأدميرال، الذي لم يحاول قط، إغراق أسطول بحر البلطيق، وحكم عليه بالإعدام فوراً رمياً بالرصاص خلال ٢٤ ساعة، (حكم عليه بالإعدام كاركلين لومان رئيس المحكمة في تلك الآونة)، ونفذ الحكم! وقام كريلنكو ممثل سلطة الادّعاء العام قائلاً: «ما بالكم تضطربون؟ ها قد تم تغيير حكم الإعدام... ولن نعدم شاستي - بل سنطلق عليه النار»! وأطلقوا.

لو عدنا إلى الوثائق الرسمية، لوجدنا، أن حكم الإعدام، كان قد تم إحياؤه، وبكافة الحقوق في حزيران عام ١٩١٨. لا... ليس إحياؤه... بل - إقراره كعصر جديد للإعدام.

وإذا ما عدنا لاستعراض ما قاله ليتسيس في كراسه «سنتان من النضال» إنه لم يقلل من حالات الإعدام - إنما كان لا يملك معلومات كاملة، عن المحاكم الثورية، التي نفذت الإعدام كحالة إجرامية قصوى، عدا عن أن الجهاز الأمني الطوارئي كان ينفذها دون محاكمة - وبالتالي تكون قد بلغت حالات الإعدام في المحافظات خلال ستة عشر شهراً (من حزيران عام ١٩١٨- وحتى أكتوبر عام ١٩١٩) أكثر من ستة عشر ألف إنسان - أي أكثر من ألف شخص في الشهر الواحد[1] (وننوه أنه كان قد تم إعدام كل من عضو المعهد الروسي (البطرسبورغي) الأول في عام ١٩٠٥ ؛ وعضو المجلس النيابي خروستاليف - نوسار الفنان الذي كان صمم نماذج اللباس العسكري للجيش الأحمر في الحرب الأهلية). هذا إضافة إلى - نتاج المحاكم العسكرية الثورية، وألوف الأرقام مع أشهرها الحياتيّة.

ربما تكون هذه الأحكام المعلنة، وغير المعلنة، ليست هي الوحيدة، إنما توجد تلك الخفية منها، التي طالت آلاف الضحايا، والتي أسكرت وجلدت روسيا في بداية عصر الإعدام عام ١٩١٨.

أكثر ما يرعبنا كما اعتقد، هو معرفة نماذج المسحوقين من محاربي النواحي، والمغلوبين - في فرق البوارج، التي لم تكن مدونة في كل المرات غير المعدودة، حتى إنهم لم ينجحوا في رفع أصواتهم المسموعة إلى الآخرين، وقد بلغت أعدادهم المئات من الضباط والسجناء الآخرين - إن كان في الخليج الفلندي، أو في البحر الأبيض، أو في بحر قزوين، أو في البحر الأسود، وحتى في بحيرة بايكال، ولا تدخل أرقامها هذه في عداد تاريخية المحاكمات... يا لها من تاريخية أخلاقية، ولدت لنا كل هذا الذي كان

١- نورد إحدى المقارنات مع ما كان سابقاً: فخلال ثمانين عاماً من حقبة الدواوين التفتيشية (١٤٤٢-١٤٩٨)، بلغ من حكم عليهم بالحرق عشرة آلاف إنسان، أي نحو عشرة في الشهر الواحد.

وكل ما سيكون، وبما لا يوازي ما كان في قروننا منذ بيوريكا الأول وبما لا يقارن بهذا القتل الوفير، والأحزمة المريعة، التي خلفها البلاشفة ضد كل الذين عاشوا وأنهوا الحرب الأهلية.

لو لم نقل، إن الموت بالإعدام قد ألغي... في كانون الثاني عام ١٩١٨، لكنا أغفلنا الترس المميز!.. الذي لولاه... لوقع المحقق في مأزق فقدان الثقة، أمام الناس، وأمام، قدرة الاحتماء بالدكتاتورية، التي تكون قد حرمت نفسها من السيف التأديبي في زمن، كان فيه دنكين في كوبان... وفرانكلين في القرم، والفرسان البولونيون على صهوات جيادهم... جاهزين للمسير.. لكن.. لهذا كان هذا المرسوم الفائق الحصافة بادئ ذي بدء: الذي لم يعمم على المحاكم العسكرية الثورية، بل تم تعميمه على الجهاز الأمني، وعلى مؤخرة القوات، لذلك كان يمكن دفع المخصصين للإعدام، ونقلهم إلى مواقع القتل الأكثر قرباً، وهكذا تكون قد حفظت مثل هذه الأوامر للتاريخ:

«سري - دوري».

إلى رؤساء أجهزة الأمن الطوارئي، وأجهزة الأمن الطوارئي الاستثنائي يوزع على الأقسام الخاصة.

نظراً لإلغائكم حكم الإعدام، تفرض أشد العقوبات الإجرامية بحق كل من يرتكب مختلف الجرائم - ويرسل إلى نطاق المناطق العسكرية، فيما إذا كان مكان وقوع الجريمة خارج النطاق التعميمي لمرسوم إلغاء الموت بالإعدام.

١٥ نيسان عام ١٩٢٠ رقم ١٦٠٧٥٦/ ٣٢٥

مدير الأقسام الخاصة في الجهاز الأمني الطوارئي.

التوقيع

ياغدا

كان المرسوم ثانيةً معداً لتنظيف السجون (إذ ذيل المرسوم بالحالات الشاملة، التي يمكن فيها تنفيذ حكم الإعدام)، وحفظ هذا التصريح الممهور بتاريخ ٥ أيار عام ١٩٢٠ في أرشيف السجن البوتيزي (تم إطلاق النار على اثنين وسبعين شخصاً في ليلة واحدة، بعد تصديق المرسوم المتضمن إلغاء عقوبة الإعدام)، مما لا شك فيه، في أن هذا كان أمراً شنيعاً مرعباً بدناءته).

الأمر الثالث الذي كان يحمل العزاء والسلوان، هو أن فعالية المرسوم قصيرة الأمد - أربعة شهور (ريثما تتكدس الأعداد الكافية من المساجين من جديد) وأعطيت صلاحية تنفيذ هذا المرسوم فيما بعد إلى الجهاز الأمني الطوارئي في ٢٨ آب عام ١٩٢٠.

تتعجل الثورة في تبديل الأسماء، بحيث تبدو وكأنها جديدة، حيث تم تبديل «حكم الإعدام» إلى - إجراءات قصوى لم تدخل حتى تحت إطار «العقاب» بقدر ما كانت واردة تحت السبل المتعلقة بحماية الاشتراكية. وتوضح الأسس القانونية الواردة في مواد التشريع الجنائي لعام ١٩٢٤: بأن هذه (أي الإجراءات القصوى) ما هي إلا إجراء حدي مؤقت، يسبق حالة الإلغاء الكامل لحكم الموت بالإعدام من قبل اللجنة التنفيذية المركزية.

بدؤوا عملياً بإلغائها في عام ١٩٢٧، وتركوا مفعولها قائماً فقط على ما يتعلق بتلك الجرائم المرتكبة بحق الدولة، وضد الجيش (المادة الثامنة والخمسون والبند العسكري منها). عدا عن شموليتها عمليات قطع الطرق (لكنه معلوم ذلك التأويل السياسي الدافع لمفهوم «قطع الطرق» في تلك السنين، وحتى في هذه الأيام: بدءاً من البسماتش[1]، وحتى فدائيي الغابات الليتوانيين المسلحين بالقومية اللا توافقية، وعصاة المعسكرات،

١- عضو في عصابة معادية للثورة في اسيا الوسطى أثناء الحرب الأهلية.

والمشاركين في هيجانات المدن، بما فيهم أيضاً قطاع الطرق، الذين ينضوي تحت لوائهم الأشخاص المتورطون بعمليات القتل، والنهب والاغتصاب - ومن ثم تم إلغاء عقوبة الإعدام رمياً بالرصاص بالذكرى العاشرة لثورة أكتوبر.

لكن بحلول الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر كان قد أضيف الموت المقونن بالإعدام «أي نسبة السبعة إلى الثمانية» - إلى القانون المهم للاشتراكية الثلاثية، التي وعدت بها الرعايا كافة، برصاصة تلحق كل وصولي متهالك على الفتات الحكومي.

كما في كل البدايات المتّسمة بالجدية، انهالوا على تطبيق ذلك القانون ما بين عامي ١٩٣٢-١٩٣٣، وأخذوا يطلقون النار حينها بحماس وغيرية منقطعة النظير في زمن عدّ آمناً ومستقراً (زمن كيروف) وسيق مئتان وخمسة وستون شخصاً[1] إلى الموت دفعة واحدة، وفي وقت واحد (حيث تم إعدامهم في سجن القسم اللينينغرادي في شهر كانون الأول عام ١٩٣٢ - وسقط في هذا القسم خلال سنة واحدة ألف ضحية).

يا له من (سفاح)! ويا له من تابع سحري كئيب قبيح!، كيف تمكن من قتل ستة رجال، لا ذنب لهم، إلا في أنهم نشلوا بضع نتف من أملاك الآخرين... نعم لقد أفناهم بضربات مزراقة المتلاحقة - وكنا قد عرفنا عنه في المدارس، وعرفنا حتى اسمه[2] وإلا لضاعت الحقيقة وهوت في الماء متهاوية، وفقدنا الأمل عندها، في أن يأتي زمن تؤكد فيه الوثائق حكايات الشهود، الذين مازالوا على قيد الحياة، هذا فيما إذا كان ستالين قد توقف عن قتل أحد ما بشكل نهائي - بيد أني أعتبر بأن الجاني يستحق

١- حسب شهادة «ب» الذي كان يقدم الطعام إلى حجرات المحكومين بالإعدام.

٢- لكن الشيء الذي لم يعرف في المدارس، هو أن السفاح، وبناءً على حكم المحكمة (الطبقية) مكث في السجن احد عشر عاماً (في قبو سجن ديرايغانوفسكي في موسكو) بسبب وحشيته. (ا. س. بيرغافين).

تقطيع الأوصال على هذه الجريمة النكراء في قتل الفلاحين الستة! إلا أنهم، ومع كل هذا الذي جرى مازالوا يصرخون علينا بولولاتهم! «كيف تتجرؤون على فضحه»؟ و «تقلقون هذا الظل العظيم»؟... فستالين هذا... يعتبر ملك الحركة الشيوعية العالمية»! - ليس هذا وحسب بل وملك التشريع الجنائي!.

باستحسان نقول وبتجرد، دونما تدخل من أحاسيسنا، كانت بدايتا كل من لينين وتروتسكي متميزتين، ولربما كانت اللجنة التنفيذية المركزية قد رغبت، أو رغبت فعلاً في الإلغاء الكامل للتدابير القصوى، بناءً على وعد سابق - إلا أن المصيبة كانت في أن الأب المعلم قد «ألغى بشكل كامل» وجود اللجنة التنفيذية المركزية العليا نفسها، وعلى الأثر صات السوفييت الأعلى على أننا إيفانوفنا... إليك هذه هي «التدابير القصوى» قد ظهرت على شكل عقوبات، وليس سبيلاً «لحماية» الأشياء اللا مفهومة، لدرجة أن إعدامات عامي ١٩٣٧-١٩٣٨ لم تطرق آذان ستالين: وكانت حتى مجرد «حماية».

مَن من الحقوقيين الإداريين؟ ومَن من مؤرخي الحقوق يستطيع أن يقدم لنا إحصائية دقيقة؟ وأين ذلك المستودع المحفوظ؟ وكيف لنا اختراقه لنحصل على الأرقام؟... التي لا وجود لها... ولن يكون لها وجود، حتى ولو تجاسرنا بعدها، في تكرار هذه الأرقام - على مسامع الذين اختمروا في غرف التوقيف بين عامي ٣٩-٤٠ وتحت أقبية، وقناطر السجون البوتيرية، التي انصرمت فيها صفوف الشهداء القنافذ، المتوسطة منها والكبيرة!! حتى إذا ما سألنا الحجرات التي لم يمضِ عليها الزمن الطويل عن معرفتها تلك، لأجابت، بأنه تم إعدام تلك القنافذ البشرية على مدى سنتين، وطالت ما لا يقل عن نصف مليون إنسان «سياسي» من الاتحاد، وأربعمئة وثمانين ألفاً من اللصوص (الذين خضعوا لأحكام البند الثالث من المادة التاسعة

والخمسين)، والتي كانت بمجموعها عبارة عن تشكيل «أرضية ارتكازية لياغدا»، ولكي يتم في الوقت نفسه تشذيب «العالم القديم عالم النبلاء واللصوص».

ثانية نقول، إلى أيّ درجة تتوفر المصداقية في هذه الأرقام؟ حتى إذا ما اعتبرنا أن هذه الإعدامات قد نفذت خلال سنتين، وليس خلال سنة ونصف السنة، علينا عندها أن نتوقع، بأنه من أجل المادة «الثامنة والخمسين» كان يجب أن ينفذ شهرياً بحدود ثماني وعشرين ألف حالة إعدام داخل الاتحاد فقط، إنما نتساءل ثانية، عن أماكن تنفيذ هذه الإعدامات؟... لقد بلغ عددها نحو مئة وخمسين موقعاً (ولا بد من أن تكون أعدادها قد فاقت هذا الرقم بكثير، ففي بوسكوف وحدها، كانت قد استخدمت كافة أقبية الكنائس، وأنشئت في غرف النساك القديمة غرف خاصة للتعذيب، وللرمي بالرصاص خاصة بجهاز الأمن، حتى إذا ما حل عام ١٩٥٣، منعت المجموعات السياحية من دخول تلك الأماكن بسبب وجود الأرشيف، (الذي لم ينظف من خيوط العنكبوت التي علته مدة عشر سنوات، أما العظام وبقايا الجثث نقلت عند بدء عمليات الترميم والإصلاح بالشاحنات) مما يعني أنه نفذ الإعدام على ستة أشخاص في يوم واحد، وهذا يعتبر رقماً خيالياً، حتى وإن قللنا منه كيفما شئنا! وقد شهد الكثير من سكان كراسنا - دار، على أنه كان يساق إلى البناية المركزية لجهاز الإدارة السياسية العامة، الواقعة في شارع البرولتياريا، كل ليلة أكثر من مئتي إنسان! (واعدم حسب مصادر أخرى نحو مليون وسبعمئة ألف إنسان حتى الأول من كانون الثاني عام ١٩٣٣.

ازداد استخدام عقوبة الموت بالإعدام خلال الحرب الوطنية، لأسباب مختلفة (منها عسكرة الخطوط الحديدية)، وترسخت الخبرة (وصدر في نيسان عام ١٩٤٢ توجيهاً يفضي بزيادة الإعدام).

لم تؤخر هذه الوقائع المذكورة بقدر ما، عملية إلغاء الإعدام الموعودة نهائيا، لكن تضحية وضمير شعبنا، استحقا في كل الأحوال هذا الإلغاء: وفي أيار عام ١٩٤٧ بدل يوسف فيسارنيوفيتش رأيه، وأملى على رئاسة المجلس الأعلى نصاً، بإلغاء الإعدام في حالة السلم (على أن يستبدل الإعدام - بعقوبة السجن مدة خمسة وعشرين عاماً «ربع قرن». ولشدّ (ما أعجبت الضفدعة بنفسها أمام المرآة، بينما كانت تملي نصها).

إلا أن شعبنا الخسيس المجرم، لا يملك خاصية تقدير الكرم والجود، لذلك عانى كل منا سنتين ونصف السنة من فقدان حق استخدام الإعدام، وفي ١٢ كانون الأول عام ١٩٥٠، أعطيت الأوامر المضادة: «نظراً لورود الطلبات الكثيرة من الجمهوريات الاشتراكية (أوكرانيا)... ومن النقابات (ويا لهم من أحبة هؤلاء النقابيون، طالما أنهم يعرفون دائماً، ما يجب أن يكون)، ومن التنظيمات الفلاحية (لا بد من أن يكون قد أوحي إليهم بأن يحملوا هذا الحلم، لأن كافة تلك التنظيمات الفلاحية، كانت قد أوغرت صدر الرحيم في سنين الاجتياح العظيم)! وكذلك من الشخصيات الأدبية (إن هذا يقارب الحقيقة تماماً). وهكذا أعيد استخدام طريقة الإعدام، من أجل التخلص من أولئك المكدسين (من خونة الوطن، والجواسيس، والمتسللين - المخربين).

إذاً... هكذا كانوا يردون لنا المألوف الذي اعتدناه، في كل حالة كانت رؤوسنا فيها تتطاول دون رقاب، وأعادوا استخدامه عام ١٩٤٥ - بسبب القتل العمد، وردوه لنا عام ١٩٦١ - بسبب سرقة الممتلكات الحكومية، وتزوير العملة، والإرهاب في داخل السجون (الذي مارسه السجناء، الذين كانوا يخيفون قيادة المعسكرات ويهددونها بالقتل من جراء نقراتهم الاحتجاجية).. وأعادوه في حزيران عام ١٩٦١ - بسبب مخالفة التعليمات، في عملية تداول الأحكام، وفي شباط عام ١٩٦٢ - بسبب

التطاول (التهديد بتلويح الأيدي) على حياة شرطة الحرس، أو بوجه عناصر فرقة المتطوعين، وكذلك بسبب الاغتصاب، وأخيراً وليس آخراً، بسبب الرشوة.

لكن كان ذلك الإلغاء في كافة المرات، إلغاءً مؤقتاً - ريثما يأتي الإلغاء العام مستقبلاً... الذي ما زال يكتب نصه حتى يومنا هذا!... ومن كل هذا... ومن كل ما سبق... نستخلص: إن أكثر الفترات التاريخية، التي احتملنا العيش فيها دون إعدام، كانت في عهد اليزابيت بيتروفنا.

★★★

يتراءى لنا، في خضم عيشنا الهادئ الأعمى، أن المحكومين بالموت المحتم في زنزاناتهم المنفردة، كانوا قلة قليلة، وكأننا كنا في حالة من اليقين العفوي، بأننا لن نقع في حجرات الموت أبداً، ذلك لأن مثل هذا الوقوع يحتاج لذنب خطير، أو في أدنى الحالات إلى اعتلاء متن حياة بارزة (مسؤولة)، إلا أنه يلزمنا الكثير من رجرجة الرؤوس كي نستطيع التصور، أن غياهب حجرات الموت قد تطال الناس البسطاء لارتكابهم أفعالاً عادية، إن لم تكن أقل من ذلك - وكل حسب نصيبه - ولكم لاقى هؤلاء في الكثير من الأحيان، الجور، وقلة الرحمة، والحِدّة (هكذا كان المعتقلون يسمون «الإجراءات القصوى» وكانوا لا يطيقون الكلمات القصوية، وينعتونها، بأنها ستكون بشكل أو بآخر، إما أكثر طولاً، أو أقصر مما في والحِدّة من حد).

فعلى سبيل المثال، تلقى أكرون بيزا، الحكم بالموت - بسبب الأخطاء في تحليل نوعية الحبوب الكولخوزية، (وربما تكون هذه التحاليل، ليس محط إعجاب من قبل القيادة)؟ في عام ١٩٣٧ - وحكم على ميلينكوف رئيس الجمعية الحرفية (التي تقوم بإنتاج بكرات الخيوط) بالموت - بسبب حريق شب في الورشة، نتيجةً لشرارة كهربائية! - في عام

١٩٣٧ أيضاً (في الحقيقة رق قلبهم عليه - وأبدلوا إعدامه بالسجن عشر سنين). وفي عام ١٩٣٢ انتظر الموقوفون في السجون الكنسية موتهم، وكان منهم فيلدمان - بسبب ما وجد لديه من العملات!، وفيتيليفتش الخازن - بسبب بيعه لشريط معدني دقيق، واستحقت اليهودية تاجرة الخبز والألعاب المصير نفسه!.

وهل يستغرب بعد هذا، أن يحكم على الشاب القروي غيراسك (من تابعية منطقة إيفانوف) بالموت، لأنه تنزه في قرية نيكول فيش المجاورة، واحتسى الخمرة، ووجه لكمة قوية إلى ظهرٍ ما - لم يلكم ظهر الشرطي... لا... بل ظهر حصانه! (وانتفض ذلك الشرطي غاضباً، وانتزع إحدى العوارض الخشبية من السياج (سياج دار سوفييت القرية) وسحب خط الهاتف... وصاح: «ليقهر الشيطان»!!..

إن حظنا من الوقوع في حجرات الموت، لا يقررها الفعل الذي نفعل، أو الفعل الذي لم نفعله - بل يقرره دوزان العجلة الكبرى ذاتها، تحت ضغط الظروف الخارجية القاهرة، على غرار ما كان في لينينغراد عند وقوعها تحت الحصار، فماذا كان الشيء الذي يفكر فيه الرفيق القائد الأعلى جدانوف؟ إن لم يفكر في طبيعة عمل الأجهزة الأمنية اللينينغرادية العامة، التي لم يكن لديها في تلك الظروف الصعبة، أحكام بالموت؟ وهل يعقل أن يضمحل الجهاز؟... لا... أبداً.. لا بد من كشف المؤامرات السرية الكبرى، التي كان يحيكها الألمان في الخارج؟... طالما كان الأمر متاحاً، لكشف الكثير منها، ومن أمثالها المكتشفة سابقاً في الزمن الستاليني عام ١٩١٩، ولا بد كذلك، أن يكون لدى جدانوف الكثير منها في عام ١٩٤٢!... وتمت التوصية عليها - وحبكت، وتكشفت، وأصبحت جاهزة ليمسك بأحابيلها أحدٌ ما!... ولتناموا أيها اللينينغراديون في غرفكم الباردة. نوماً قريراً... ريثما تهبط اليد المخلبية السوداء فوق رؤوسكم، حيث كان لا يتعلق بكم شيء

البتة إذ يكفي أن يشار إلى جنرال ما... وليكن إيغناتوفسكي - إنه لوح بمنديل أبيض ناصع من نافذته المطلة على نهر النيفا - إشارة!، على الرغم من أن إيغناتوفسكي هذا كان مهندساً محباً للتسامر مع البحارة، والفنيين... يا للهول... نقطة اعتراض!... فليقصم!... وليؤخذ... ها قد حان وقت الحساب!

إذاً حددوا لنا أسماء أربعين عضواً من أعضاء تنظيمكم... ويسمى... فإذا كنت من جوقة الألكسندريين، فإن حظوظ من أسميتهم عندك... ليست بكبيرة، أما إذا كنت بروفسوراً في المعهد التكنولوجي... فها إليك... إنك في اللائحة. إذاً ما الشيء الذي يكون عندها، قد تعلق بك فعلاً؟... فطبقاً للائحة - الموت للجميع إعداماً.

ويعدمون... ويبقى قسطنطين إيفانوفيتش ستراخوفيتش بطريقة ما حياً (العالم الهيدرولوجي الروسي العظيم)، لكن أحداً ما في الأمن، ما زال غير راضٍ على قلة الأسماء في تلك اللائحة، وعدم كفاية من نفذ عليهم الحكم بالإعدام... ويختارون... لو تعلم من؟... ستراخوفيتش ليشكل قطباً لائقاً، من أجل فضح التنظيم الجديد، ويستدعيه النقيب التشولير: «ماذا أصابكم؟... أرى إنكم اعترفتم بسرعة غير عادية، متعمدين في ذلك... الذهاب إلى الدنيا الأخرى... كي تختفي معكم أسماء الحكومة السرية... التي شكلتموها؟... ما المنصب الذي كلفتم به؟... وهكذا... بقي قابعاً في حجرة المحكومين بالموت، ليقع ثانية في دائرة تحقيقية جديدة!، ويقترح المحقق عليه، إيراد التشكيلة الوزارية (أراد إنهاء كل شيء بسرعة): إلا أن التشولير لا يكتفي... ويستمر التحقيق... ويطلقون الرصاص على مجموعة إيغناتوفسكي... ويتملك الحنق ستراخوفيتش أثناء جلسات الاستجواب.. لا لأنه يريد العيش، بل لأنه تعب من الموت، بعد أن قذفه الكذب والتلفيق إلى الامتعاض والاشمئزاز، ليقف في إحدى جلسات الاستجواب التعاطفي

بحضور إحدى الشخصيات البارزة، ضارباً على الطاولة بقوة: «بفعلكم هذا... ستعدمون جميعاً... إني لن أكذب أكثر من ذلك، وأسحب اعترافاتي السابقة»! وتساعده هذه الشرارة المنفعلة! - لم يتوقفوا عن استجوابه فقط، بل نسوه في حجرة المحكومين بالموت.

ربما... تكون طفرة اليأس في نفوس المغلوبين، نافعة.

لقد كانت أعداد المعدومين في البداية كبيرة إذ بلغت ألف حالة، إلا أنها بلغت فيما بعد مئات الألوف، ونحن ما زلنا نجمع، ونطرح... ونقسم، ونضرب ونتأوه، ونضعف ويعترينا مع كل هذا الوجوم، وتبقى الأرقام - تطيح بعقلنا... وفيما بعد ننسى... وننسى... حتى يقوم في زمن ما، أحد أحفاد المشنوقين، بنشر هذه الأعداد في إحدى دور النشر، على شكل صحائف مبوبة - عندها نقلبها حتى آخر صفحة، وتغرورق عيوننا بالدمع، ولا نتعظ منها بما بقي لنا من حياة.

يقام في منزل أحد المعارف من أرانب المعسكرات القدامى في كل عام (الخامس من أيار يوم الموت القاتل الكبير) طقس سنوي، حيث تتوضع على الكنف صور المعدمين رمياً بالرصاص (الذين قضوا في المعسكرات - وكانت قد جمعت صورهم بالعشرات) وتُجري مهابة احتفالية طوال اليوم - نصفها كنسية، ونصفها متحفية، وتصدح موسيقى الحداد، ويتوافد الأصدقاء يرفعون الصور صامتين، يستمعون، ويتهامسون، ويخرجون دون وداع.

لو أن مثل هذه الجلسات انعقدت في كل مكان... لحملت قلوبنا، حتى ولو نبضه واحدة من أرواح أولئك الأموات.

كيما يكون - كل ما كان... قد ذهب هباءً منثوراً!!

كيف يحدث كل هذا؟ وكيف ينظرُ الناس؟ وبماذا يشعرون؟ وبمَ يفكرون؟ وإلى من تعود القرارات؟ وكيف يتخذونها؟ وبماذا يشعرون في الدقائق الأخيرة تحديداً؟ كيف... هؤلاء... والـ هم... وأولئك...

قد يستشف بعض الناس، ما وراء الستار، بتعطش بدهي موجع (على الرغم... من أن أحداً منا... لا يدرك ذلك أبداً)... وبدهي كذلك، ألا يتحدث المتأثرون عن كل ما عندهم... ذلك لأنهم... قد صفحوا عنهم!

هذا ما كان يعرفه السفاح، ويعرف بأنهم لن يتكلموا عنه فيما بعد قط (لأن ذلك العم ليوشا الصليبي الذائع الصيت، هو الذي قيد أيديهم خلف ظهورهم، وهو الذي وضع الأغلال والأصفاد، حتى إذا ما خطر لأحد ما من المساقين، الصراخ بالممرات «فوداعاً إخوتي» يكم فمه إلى الأبد - فلمَ إذاً... وها هو المبرر لأن يحدثكم لاحقاً؟ ربما يكون هذا العم يتمشى الآن... في شوارع لينينغراد... ويسير منتصباً... وإذا ما قابلتموه أثناء جلسات الجعة المنتشرة في الجزر... أو عند مشاهدة مباراة كرة القدم... فلتسألوه)؟!.

إلا أن الجلاد لا يعرف كل شيء حتى النهاية، وربما يهوي عليه مرافق الآلية.. ولسبب ما، ويفلت في مؤخرة رأسه، رصاصة كتيمة الصوت، ويحتم عليه إذ ذاك الموت غبياً دون أن يفهم كنه كل ما حصل... وهكذا فهو لم يعرف حتى النهاية، والنهاية يعرفها القتلى فقط - وبالتالي لا أحد غيرهم.

في الحقيقة!! إن المخطط الرسام أيضاً - قد يعرف، إنما بشكل مبهم، وغير جلي، لكنه يعرف شيئاً ما... ولحد ما... يقدم الرصاصة نفسها... والحبل ذاته.

بهذا نكون قد شكلنا لوحةً تقريبية لحجرات الموت، من على ألسنة المغفور لهم، (الفنانين)، وبتنا نعرف بأنهم لا ينامون ليلاً، بل ينتظرون ما يحمله الصباح لهم من أشياء مطمئنة، حيث يرد في رواية «القيم الخيالية» لناركوف (مارتشينكو) وبعد مقدمة تمهيدية فاجرة كثيرة الفقرات - يصف كما ديستوفسكي، إنما بنزقٍ تأثيري بالغ تفوقه فيه، حجرات الموت، ويقدم لوحة توصيفية لمسرحية الرمي بالرصاص، تعد حسب رأيي رائعة، يصعب التحقق منها، لكنها قريبة من التصديق.

إن مـن أكثـر تخمينـات الأدبـاء الأوائـل، الـذين انـصاعوا للـزمن الكرلوفسكي بشكل طوعي أهميـة، تلك التي جاء بها الأديب ليونيد أندرييف، الـذي اسـتطاع كخيـالي فانتـازي، أن يتـصور علـى سبيل المثـال حجـرات المـوت في عـام ١٩٣٧، وأن يـدس مجـساته التكنولوجيـة وحبائلـه الاستـشعارية ليعـرف عـن جلسائها: كيـف ينتظـرون؟ وكيـف يـصيحون ويصمتون؟... وقلّما من استطاع أن يماثله بتلك الحاسة التنبؤية، التي وصف لنا فيها الأحاسيس اللا متوقعة في دواخل المحكومين بالموت:

١- يعـاني المحكومـون مـن البـرد الـشديد، حيـث كـان يفـرض علـيهم النـوم علـى الأرض الأسمنتيّـة تحـت النوافـذ وفي درجـة حـرارة تعـادل الـثلاث (ستراخوفيتش). وريثما يحين موعد تنفيذ حكم الإعدام، يكـون المحكـوم قد تثلجت أوصاله.

٢- يعـاني المحكومـون مـن ضـيق المكـان ونقـص الهـواء، حيـث كـان يحشر في الحجرة سبعة أشخاص (ليس أقل، ويمكـن أن يكـون أكثـر) أو عشرة... وخمسة عشر... وثمانيـة وعشرون (ستراخوفيش لينينغـراد ١٩٤٢)، ويتركـون علـى هـذه الحالـة، أسـابيعَ وشـهوراً، متوجـسين ومترقـبين دور أحـدهم للـشنق! حتـى يـصل الأمـر بهـم إلى عـدم الـتفكير بالإعـدام، ولا بالكيفية التي سينقلبون إليها، ولا التي يتنفسون بها؟.

بلـغ عـدد الـذين تم زجهـم في الـسجن الإيفـانوفي - وفي سـجون وزارة الداخليـة رقـم/١/ و/٢/ وفي الـسجن ك. ب. ز. - أربعـين ألـف سـجين بوقت واحد مع العلم بأن هذا الرقم مشكوك فيه بنسبة الثلاثة إلى الأربعـة آلاف، وخصص السجن رقم /٢/ للمتهمين المحكومين بـالنفي إلى المعسكرات أو بالإعدام، أو المعفيين منه إضافة إلى اللصوص - واستمروا علـى هـذه الحالـة عدة أيام واقفين في قاووش كبير، كتفاً لكتف، دون أن يتمكـن أحـدهم من رفع يده، ولقد تكسرت أرجل من كان واقفاً جانب الأسـرة الخشبية،

وعلى الرغم من أن هذا كان في فصل الشتاء، إلا أن المساجين عمدوا إلى تكسير زجاج النوافذ كي لا يموتوا من الاختناق... (كان من منتظري الموت في القاووش العجوز الأشيب القمريّ عضو حزب العمال الروسي الاشتراكي عام ١٨٩٨ آليكين، الذي كان قد ترك حزب البلاشفة عام ١٩١٧ (بعد أزمة نيسان).

٣- يعاني المحكومون من الجوع طوال فترة انتظار تنفيذ الحكم، وكان الشيء الوحيد في عذابهم، ليس الخوف من الموت، بل الجوع، ومر على البعض مدة طويلة دون أن يقدم لهم إلا النذر اليسير من الطعام، ولقد قضى الكسندر بابيتش خمسة وسبعين يوماً في حجرة المحكومين عام ١٩٤١ (في سجن كراسنايارسكي) انهار على أثرها كلياً، واستسلم ينتظر الموت خلاصاً وحيداً من هذه الحياة غير الطبيعية - مما أجبرهم على استبدال الإعدام بالسجن عشرة أعوام في المعسكر - لكن ما الحد الأقصى للتواجد في غرف الموت؟... ومن له أن يعرف هذا الحد؟ لقد قبع الشيخ فسيفولد بيتروفيتش غوليتسين مئة وأربعين يوماً (١٩٣٨) منتظراً تنفيذ حكم الموت... ترى أيكون هذا الحد قياسياً؟... لا فحسبما نعلم فإن الأكاديمي ن. ي. فافيلوف انتظر الرمي بالرصاص عدة شهور قاربت العام، ونقل بعدها إلى ساراتوفسكي، وأمضى فترة معينة من سجنه في غرفة مرصوصة بالمساجين دون نوافذ، حتى جاء العفو عنه عام ١٩٤٢ (العفو عن الإعدام) لينقل إلى حجرة عامة بعد أن فقد القدرة على الحركة، مما استدعي نقله على الأيدي عند التنزه.

٤- عانوا كذلك من قلة الرعاية الطبية، ولقد مرض آخر - يمينكو من جراء قعوده الطويل في حجرة الموت (١٩٣٨) ولم يحل إلى المشفى، بل إنهم لم يستدعوا له طبيباً يعاينه، وعندما صار الأمر ملحاً جاء الطبيب، واكتفى بالنظر إليه من خلال الشباك، دون أن يكشف عليه، أو حتى

يسأله عن شكواه، ودفع إليه بقليل من البودرة الطبية. بينما أصُيب سترافوفيتش بداء الاستسقاء، ولم يثر مرضه الشكوك وأرسلوا له طبيب الأسنان.

ألم يكن الواجب يقتضي، أن يقوم الطبيب فيما لو كلف بذلك، بمعالجة المحكوم حتى يطيل أمد انتظاره للموت؟ أو أن يعمل على التسريع في تنفيذ الحكم بالإعدام، بدوافع إنسانية... وليس على غرار ما كان من مشهد مسرحي لستراخوفيتش: بعد أن يدخل الطبيب ويتحدث مع المناوب، يقوم بغرز أصبعه في جسد المحكوم عليه... «ميت!.. ميت»!! وكثيراً (ما كان يقوم بعزل المصابين بالهزال الشديد منوهاً... إلى عدم الضرورة في تعذيب الناس، ويقول للمساجين.. ها قد حل قطاف رؤوسكم)!.

لكن ما الغاية من الاحتفاظ بهم لفترة طويلة؟ ألا يمكن أن يعود هذا إلى نقص في الجلادين؟ بيد أننا عند إجراء المقارنة، نجد أن الكثير من المحكومين قد أفرج عنهم، بعد أن طلبوا منهم توقيع طلبات استرحام بالعفو، حتى إنهم لجؤوا إلى تزوير تواقيع كل من امتنع عن التوقيع بسبب عدم رغبته الخوض في صفقات جديدة، علماً بأن سير هذه الطلبات في الماكينة الروتينية الدوّارة، لم يكن أكثر سرعة من دوران الشهور نفسها.

ثمة حالات كثيرة، حصل فيها التضارب، بين إدارات الأجهزة (وربما كان هذا نادراً حسبما سمعنا من أعضاء اللجنة المركزية). كانت إدارة التحقيق - والقضاء قد لاحقت كشف قضايا شنيعة مرعبة، ولم تستطع إلا أن تحكم على المجرمين بالعقوبات المناسبة - رمياً بالرصاص، بعد نطقهم بأحكام الموت وتدوينها في محاضر خاصة في ديوان المحكمة، حيث يصبح أمر هؤلاء المحكومين، لا يعنيهم بشيء: على الرغم من أنه ثبت بالحقيقة، بأنه لم تجرَ في تلك الآونة أيّ عصيانات وفتن، ولم يكن قد حصل أي تغيير في حياة الحكومة، مما جعل هؤلاء المحكومين واقعين تحت مفارقة

التناقض، بين أن يبقوا أحياءً، أو أن تستوجب الظروف إماتتهم فوراً، لكن هذا لم يحصل بل بقي مصيرهم خاضعاً لإرادة السجون بالكامل، هذه الإرادة اللصيقة لمعسكر الأرخبيلاك التي كانت قد نظرت إلى هؤلاء وأولئك من وجهة نظر اقتصادية بحته، طالما كان المحكومون عاطلين عن العمل، على الرغم من أعدادهم الكبيرة، التي كان يجب أن تخضع لزيادة تنفيذ الإعدام بحقهم، وليس إرسالهم إلى معسكر الأرخبيلاك بصفتهم قوى عاملة.

هكذا كان ينظر مدير المشرفين الإداريين للبيت الكبير (سوكولوف)، إلى ستراخوفيتش، الذي كان قد ملّ في النهاية من القعود في حجرة الموت، وراح يطلب الأوراق والأقلام لمزاولة النشاطات العلمية، وأول ما ألف كراساً «عن التأثير المتبادل بين السوائل، والأجسام الصلبة السابحة بها» و «حساب الستاتيك للنوابض، والمخمدات النابضية للصدمة» وبعدها «النظرية الأساسية للتوازن»، وعلى أثر ذلك عزلوه في حجرة منفصلة (علمية) وحسنوا من طعامه، وبدأت تأتيه الطلبات، والتوصيات من الجبهة اللينينغرادية، وراح يضع الحسابات لهم عن «حجم الصبيب الناري على الأهداف الجوية» - حتى أدى الأمر، إلى قيام جدانوف باستبدال حكم الإعدام إلى خمسة عشر عاماً (لكن عاد البريد من الأرض الكبيرة ببطء وبساطة أكثر، حاملاً رحمة موسكوفية أكثر من الرحمة الجدانوفية: وصار الحكم عشر سنين فقط).

ملاحظة: ما زالت كافة الكراريس تلك، محفوظة عند ستراخوفينش حتى الآن، بينما كان مستقبله العلمي قابعاً وراء الأقفاص، وأتيح له ترؤس واحدة، من أكثر المؤسسات أهمية في الاتحاد السوفييتي، وهي مؤسسة تصميم المحركات الصاروخية. (انتهت الملاحظة).

لقد قرر (ن. ي) الأستاذ المساعد في الرياضيات والمسجون في حجرة الموت، السخرية من المحقق كرجكوف بدافع نزوع شخصي (نعم... هذا

هو المقلب). والقضية وما فيها: إن المحقق كان طالباً بالمراسلة!، ولهذا قام باستدعاء (ن. ي) من حجرة الموت - وكلفه بحل مسألة حول، نظرية الحركة التبادلية، التي يتابع العمل عليها (وربما حق القول: بأنها قد تكون ليست من عمله).

ألا يستنتج بهذا العرض من أن يكون الأدب العالمي قد احتوى العلم في حجرات ما قبل الموت؟

إضافة لما سبق قد تستخدم حجرة الموت كوسيلة تحقيقية، وأسلوب تأثيري على غرار ما كان مع اثنين من (كراسنايارسك) حسبما يقول (تشافداروف) كانا رفضا الاعتراف والإقرار بما أسند إليهما، واستدعيا إلى المحكمة فجأة «وحكموا عليهما بالإعدام وسيقا إلى حجرة الموت (يتابع تشافداروف فلتاته): «نفذت المحكمة عليهما تمثيلية كاذبة».

وأيّ محكمة هذه - تشترك في تمثيلية، وأيّ كلمات يمكن إطلاقها على هذه المحاكم الكاذبة؟... وسارت الأمور حسب عرض المشاهد مشهداً تلو مشهد - حتى اكتمال المسرحية)... أجل لقد تجرع الموقوفان المقلب الإعدامي بشكل تام، وزجا بعد ذلك مع المحكوم عليهم بالإعدام... وكأنهما محكومان بالموت»... وفجأة اعتراهما الندم... على أنهما قد أبديا الكثير من العناد أثناء التحقيق، وطلبا من حراس المراقبة، إبلاغ المحقق، بأنهما جاهزان للتوقيع على الاعتراف، وناولهما... ووقعا... وسحبهما بعد ذلك من حجرة المحكومين بالموت... مما يعني - ليس لتنفيذ حكم الإعدام.

أما جلساء الحجرة المحكومون الحقيقيون بالموت، كانوا قد استخدموا كمادة أساسية في اللعبة التحقيقية - وصارت تعتريهم الآن، بعض أحاسيس التوبة، بخاصة عندما شاهدوا الناس أمامهم «قد ندموا» وصفح عنهم، دون أن يدركوا، أن هذه ما هي إلا فقرة إخراجية تشويقية.

يقولـون: إن قسطنطين روكاسوفسكي المارشـال العتيـد، قـد سـيق مرتين للغابـةِ، لتنفيـذ إعدامـه رميـاً بالرصـاص الـوهمي عـام ١٩٣٩، ووجهـت السبطانات نحوه، دون نار، وأنزلت، وأعيد إلى السجن.. كل هذا ما هو إلا إجـراءات قـصوى تـستخدم لـصالح تطبيـق أسـاليب التحقيـق... ومـع ذلـك لم يحدث له مكروه... وما زال حياً وبصحة جيدة.. ولم يتأذَّ من ذلك..

أمـا لـو أراد قتـل نفسه، فإنـه سيـستلم لكـل شـيء، ويقـع تحـت تـأثير التنويم المغناطيسي لحكم الإعدام بالموت، وغالبا لا يتذكر أحداً من الذين تم الصفح عنهم، من جلسائه في حجرة الموت، ولا بد إنه كان قد قاوم كل شيء عملياً حتى التذكر لعملية العفو عن غيره. لكـن قـد تكـون في بعض الحالات الشاذة استثنائية مـا، علـى غـرار مـا كـان في سـجن لينينغـراد عـام ١٩٣٢، حيث قـام المحكومـون بـانتزاع المسدس مـن الرقيـب، وأطلقـوا عليـه الرصاص، وطبقت عليهم آنذاك الآلية الفنية التالية، فبعـد التحديـد المبـدئي للشخص الـذي نـص الأمـر بـسحبه تمـت عمليـة مراقبتـه مـن خـلال الكـوة، لينقض عليـه خمـسة مـن الرقبـاء الأشـداء دون سـلاح، منـدفعين بقـوة عاتيـة لانتزاع المطلوب من بين السجناء الثمانيـة أو العـشرة - وقـد يكـون مـن بينـهم أو جميعهم، قـد تقـدموا بطلـب اسـتئناف واسـترحام، ومـا زالـوا ينتظـرون الـصفح عنـه: «فلتمـت... أنـت اليـوم... أمـا أنـا فـدعني إلى الغـد»... ابتعـدوا عـن المختـار منهم للمـوت، وراحـوا يراقبـون دون مبـالاة، كيـف يقيـد الحـراس المحكوم عليه، وهو يصرخ طالبا المساعدة... إلا أنهـم (الحـراس) يـدفعون في فيـه كـرة أطفـال قماشـية (كثيراً مـا لعبنـا... وشـاهدنا هـذه الكـرة... ولم نستطع أن نخمن عندها كافة أوجه استخدامها... عدا اللعب بها)؟..، (كم كان هذا المثال رائعاً كي يدون في صحائف الأسس الديالكتيكية)!.

الأمل!... قد يكون أكثر ما هو مناط بك - إما أن تصمد، وإما تهن؟.. فلو كـانوا قـد تعـاونوا في كـل حجـرة مـن حجـرات المـوت، علـى خنـق كـل

جلاد، جاء إليهم حبياً - لكانت توقفت عمليات الإعدام - وربما كان هذا أكثر مصداقية، من طلبات الاسترحام تلك، الموجهة إلى اللجنة التنفيذية العليا!.. فلطالما كان الرقص على شفير القبر - فلمَ لا تقاوم؟.

لكن ألم يكن هذا ما يحدث عند الاعتقال؟... ومع هذا... ها هم الجميع رهناً له، والجميع على الركب - كما وكأنهم على أرجل مبتورة، يزحفون في مضمار الأمل والرجاء.

★★★

يتذكر فاسيلي غريفوروفيتش فلاسوف، تلك الليلة التي أعقبت الحكم عليه بالإعدام، عندها ساقوه في شوارع كادي المظلمة تحت فوهات أربعة مسدسات، واللكز يعتمل في جنبيه، ورأسه مطأطأ تدور فيه فكرة وحيدة، يشوبها التمني في ألا يطلقوا عليه الرصاص استفزازاً تحت ذريعة محاولة الفرار، مما كان يعني، بأنه ما زال غير مصدق حكم المحكمة، وما زالت لديه نسخة من الأمل في الحياة.

تحفظوا عليه بعد ذلك المسير في ديوان الأمن راقداً على المكاتب، وتحت حراسة متواصلة، قام بها شرطيان أو ثلاثة، ومن حين لآخر كانوا يتبادلون الحديث تحت أضواء القنديل الكيروسيني «ومرت الأيام الأربعة، وأنا استمع... واستمع، دون أن أتبين شيئاً مما قالوه حتى هذا التاريخ، ولا بد من أن همسهم دار حول السبب الذي حوكمت من أجله؟ - «أفلا تكون المشكلة بعد كل هذا... كامنة في عقلنا»؟.

عاش فلاسوف في هذه الغرفة خمسة أيام، منتظراً تصديق الحكم، وتنفيذه في مدينة كادي، نظراً لصعوبة نقل المحكومين أبعد من ذلك، وأثناء ذلك قام أحد ما بإرسال برقية استرحام باسمه طالباً العفو: «لا أقر بنفسي مذنباً، أرجو الحفاظ على حياتي»... ولا جواب على الطلب، بينما كان فلاسوف في هذه الفترة، يرتجف ويداه ترتعشان، لدرجة لم يستطع

فيها الإمساك بالملعقة، مما اضطره لاحتساء الحساء من الصحن مباشرة، الأمر الذي آثار سخرية كليوكين (وسرعان ما تقرر نقله بعد انتهاء القضية الكادية، من إقليم إيفانوف إلى موسكو. لقد كان ذلك العام بالنسبة لأولئك، حاملي النجوم القرمزية، غائماً لدرجة لم يتبينوا في سماء الغولاغ شروق الشمس وغروبها وربما حان الوقت لنفض الأدران وقذفها في تلك الوهدة، التي لم يروا مثلها قط.

لم يأتِ الجواب، لا بالتصديق ولا بالعفو، واقتضى الأمر سوق هؤلاء المتهمين الأربعة إلى كينشيم، وتم نقلهم في أربع سيارات صغيرة احتوت الواحدة منها عائلة من الشرطة، وتم إيداعهم - في أديره تحت أرضية (كانت هذه الأبنية الدينية الهندسية، قد حررت من الإيديولوجية الرهبانية التي ألحقت بنا الضرر، وأصابتنا في عيوننا).

انضم إليهم هناك عدد من المحكومين، ونقلوا جميعاً في القافلة الاعتقالية إلى إيفانوف. وعند وصولهم، تم فصل ثلاثة منهم في قاعة الأمتعة، وكان منهم: سابوروف، وفلاسوف، وآخر من المجموعات الملحقة، وساقوا ما تبقى من الآخرين إلى الحتف رمياً بالرصاص، كيما تنوء السجون بالأحمال، وهكذا ودع فلاسوف صديقه سميرنوف.

أما الثلاثة المفرزون، أقعدوهم في فناء السجن رقم /١/ وفي جو أكتوبري رطب ينخر العظام، واستمروا في جلوسهم هذا أربع ساعات، ريثما يقرروا أخذهم أو تركهم، أو بينما يبحثون عن طور آخر لم تتكشف منه أيّ دلائل على عدم تنفيذ حكم الإعدام عليهم في ذلك اليوم، مما أجبر المحكومين على افتراش الأرض، ريثما ينتهون من بحثهم هذا! وجاءت اللحظة، التي اعتقد فيها سابوروف بأنهم سيساقون إلى مكان الإعدام (بينما ساقوهم إلى الحجرة)... لم يصرخ من شدة خوفه لكنه تشبث بيد جاره، الذي علا صراخه من الألم، وسحبوه على الأثر.. ودفعوه تحت الحراب.

كان السجن يحتوي على أربع حجرات خاصة بالمحكومين بالإعدام - تشترك في ممر واحد مع حجرات الأطفال، وحجرات المرضى! وكان لكل حجرة بابان خشبيان مع كوة مغطاة بشبكة حديدية، يتربع إلى الأسفل منها قفلان (احتفظ بمفاتيحهما لدى، الرقيب، ولدى المسؤول عن السجن كل على حده، كي لا يستطيع أي منهما، فتح الباب دون الآخر) وكان جدار الحجرة /٤١/ ملاصقاً لمكتب الاستجواب، وكثيراً ما سمع المحكومون القلقون من الانتظار الدائم للموت، صراخ المعذبين يثقب آذانهم.

وقع فلاسوف في الزنزانة الانفرادية رقم /٦١/ وبلغ طولها خمسة أمتار وبعرض يقارب المتر الواحد، توضّع فيها سريران حديديان مثبتان بعارضة حديدية في الأرض، ورقد على كل سرير أعرج، محكومان، إضافة إلى أربعة عشر محكوماً افترشوا الأرض الأسمنتية جنباً إلى جنب.

خصص لكل محكوم مساحة تقل عن أرشين[1] مربع، ينتظر الموت عليها، على الرغم من إنه كان من المتعارف عليه منذ القديم، في أن يخصص للمحكوم ثلاثة أرشينات مربعة... ومع ذلك كانت قد بدت تلك المساحة لتشيخوف قليلة جداً...

لقد تكرر سؤال فلاسوف خلال هذه الفترة، عن الوقت الذي سينفذ فيه الإعدام «ها نحن قاعدون... منذ زمن طويل... وما زلنا أحياء»...

وبدأت دوامة الانتظار... وجافى النوم اليوم عيون الجميع وهم ينتظرون موتهم، خائري العزائم والقوى، يصيخون السمع لوقع الخطوات... التي تقترب شيئاً فشيئاً في الممر (لشد ما كانت خطوات ذلك الرقيب... تزيد الانتظار مرارة، وتحط من خاصية الصمود لدى الإنسان) بخاصة في تلك الليالي، التي تعقب صدور العفو عن أحد منهم: حيث يخرج المعفو عنه،

١- وحدة قياس قديمة تساوي ٧١.١٢ سم.

مزغللاً من الفرح، ويترك الحجرة بجلسائها في حالة من الرعب المبهم - يتوجسون حلول الكارثة بقلقٍ منقطع النظير، بعد كل حالة عفو، حيث يتضاعف احتمال قدومهم ليلاً، لسحب ذاك الذي رفض طلبه!...

كثيراً ما كانت الأقفال تصرصر في الليل، وتسقط القلوب - ربما جاء دوري. لا إنه دور أحد غيري؟... وقبع الرقيب الطائش الباب الخشبي، لسبب قد يكون عارضاً وتافهاً... «هيا! انزعوا أشياءكم عن رفوف النافذة!! على الرغم من بساطة السبب، قد يزيد أمل البقاء عن الأربعة عشر سجنا، عاماً واحداً... وقد يتكرر هذا الطلب بنزع الأغراض عن النوافذ مئات المرات - دون أن ينتج عنه ضياع طلقة واحدة في رأس أحد منهم - لكن وعلى الرغم من هذا كله، فهم ممتنون له كثير الامتنان، إذ مر كل شيء بسلام «سنقوم بنزعها حالاً... أيها القائد»!.

صباحاً... وعندما يثوبون إلى رشدهم، ويتملصون من الخوف، يأخذهم السهاد، ويخلدون للنوم... ويأتي الرقيب ثانيةً، ويدلج الحجرة، وهو يحمل دلواً من الحساء، ويبادرهم: «عمتم صباحاً»!. كان من المفروض وحسبما يقتضي النظام في السجن، أن تفتح الأبواب الحديدية بحضور مناوب السجن، لكنه وكما تعرفون بأن أفضل الناس، ذلك الذي يكون أكثر كسلاً من الأوامر والتحذيرات التي وضعها بنفسه - يدخل الرقيب دون مرافقه المناوب... ويحييهم بإنسانية مطلقة، بل هي أثمن من أن تقول عنها إنسانية ببساطة!... وعندما يقول لهم «صباح الخير».

أيّ كلمة أكثر طيبة، قيلت لمن هو على وجه الأرض، تفوق طيبة هذه التي قيلت لهم! وأي امتنان يحملونه لهذا الصوت الدافئ، ولهذه الرقة... التي زرعت الاطمئنان في قلوبهم، وراحوا يغطون في نومهم حتى منتصف النهار (فقط في هذا الصباح تناولوا الطعام، وبعضهم لم يستطع ازدراء الأكل عند الاستيقاظ، بعدما تلقى خبراً - عن معرفة الأهل بحكم الإعدام عليه،

بعدما كان من الممكن ألا يعرفوا عن هذا أبداً - ها قد عاد التواصل، وقد يطول بقاء كل منهم في الحجرة، إلا أنهم ما زالوا راقدين يتعفنون في جو من الرطوبة القاتلة).

لم يكن ما ذكرناه، هو الانتعاش الوحيد في حياتهم، بل كان لديهم انتعاش آخر - جاء بعد مرور مدير السجن - الصرصور العبوس، المقزز ماكاروف - وقدم الأوراق لهم، لرفع طلبات الاسترحام... وسألهم فيما إذا كان البعض منهم بحاجة للنقود، أو الدخان، بدت هذه الأسئلة مستهجنة لدرجة كبيرة بسبب ما حملت من إنسانية خارقة: منحتهم انطباعاً مشوشاً ومضطرباً، بأنهم ليسوا كمثل الناس، وإنهم ليسوا محكومين بالموت؟.

نزع المحكومون أغطية علب الكبريت، ورقموها كأحجار الدومنو، ولعبوا بها، وانفرجت أسارير فلاسوف، لدى سماعه حديث أحد ما عن الجمعيات الاستهلاكية، التي كانت تثير عنده دائماً مسحة هزلية (وكثيراً ما تحدث عن هذه الجمعيات بتميق رائع، يستحق أن يحقق لها فصلاً خاصاً). وكان يستمع إليه كل من ياكوف بيتروفيتش وكولياف رئيس اللجنة المنطقية الذي راح يتذكر وجوده وعمله في سوغوفسكي في عام ١٩١٧، وبقي لمدة عشرة أيام متواصلة ثابتاً في جلسته دون أن يغير من وضعيته سانداً رأسه على كفيه، ومرفقيه على ركبتيه، وهو غارق في التمعن والنظر إلى نقطة محددة على الجدار (لقد كان من الممتع له، لا بل من السهل عليه تذكر ربيع... ذلك العام... دون أن يتذكر أحداً من الذين قتلوا على يده من (الضباط) في تلك الآونة... فلا ضرورة لذلك). لكن ما أثاره الآن حديث فلاسوف وفلسفته: «كيف تستطيع هذا»!؟ - «هل تحضر نفسك الآن لتلك اللجنة»؟ - أجاب فلاسوف مغتاظاً وهو يتلاعب في الألفاظ: - لا... لقد أرهقت نفسي في الحياة لشيء واحد فقط - وهو أن أقول للجلاد... إنك أنت وحدك المسؤول عن موتي! وليس القاضي، ولا النائب

العـام - وعليـك أن تعـيش بـوزر هـذا!... فلـو لم تكـن موجـوداً، لمـا وجـد الجلادون المتطوعون، ولما وجدت الأحكام بالإعدام... فدعهم يقتلوني... أيها الزاحف اللعين»!.

كـان قـد نفـذ الإعـدام رمياً بالرصـاص علـى كولياكوف، ونفـذ كـذلك علـى قسطنطين سـيرغييفيتش أركـادوف المـدير الـسابق لإدارة «منطقة فلاديمير». لكن ولسبب ما كان الوداع معهم ثقيلاً، وفي الليل سمع وقع أقدام رجال متعجلين تقترب شيئاً فشيئاً، بينما بدا الهدوء عليه، أكثر مما كان معروفاً، بتربيته الهادئة، وتحرك بكل بطء، وهو يدلك قبعته بيديه، وكأنه ينفض عنها الغبار... محاولاً بذلك إطالة تلك اللحظة أكثر من الممكن - لحظة الخروج من وسط الناس الأرضيين لأول مرة... وما أن نطق آخر كلمة وداع «وداعاً»... حتى كاد صوته يختنق عند آخر حرف منها.

في اللحظـة الأولى، الـتي تعقـب تحديـد الـضحية، يـصبح الأمـر عنـد الآخرين أكثر راحة «لست أنا» - لكن الآن، وبعد استجرار الضحية... أنـى له، أن يصبح الأمر أكثر سهولة، من ذاك الذي اقتادوه للتو، يبقي بعدها المحكومون بالموت، يوماً كاملاً دون أكل.

غير أن غيراسـك مخـرب مجلـس القريـة، أكـل كـثيراً ونـام كـثيراً وعاش كما يعيش البشر ولكنه لم يستطع أن يصدق، بأنهم قد يرمونه بالرصاص (وبالفعل لم يقتل، وأبدل حكمه بعشر سنين).

وعلى مرأى الأعين، وخلال ثلاثة - أربعة أيام، غطّى الشيب رؤوس بعض المحكومين.

عنـدما تمتـد مرحلـة انتظـار المـوت - يطـول الـشعر... وينمـو - ويـؤمرون بجـزه، وبغـسله فـالعيش الـسجيني يقـسي الـنفس بنفـسها، دون معرفـة أيّ أحكام. فمنهم من فقد القدرة على التكلم بكلام منطقي، ومنهم من

فقد التواصل مع المفاهيم - إلا أن الأمر سيان... فإنهم متروكون هنا، انتظاراً لنصيبهم من الموت كلهم سواء، من فقد عقله في حجرة الموت، أو من جن جنونه، فالجميع إلى الموت!.

لم تكن الإعفاءات قليلة، حيث كان قد تم التوجه لأول مرة بعد الثورة (في ربيع عام ١٩٣٧)، نحو تبديل أحكام الإعدام بخمسة عشر عاماً - أو بخمسة وعشرين... ومع ذلك تحملوا عبء هذا التقليل، لدرجة أن بعضها استبدل بخمسة أعوام... ولا غرو في ذلك طالما تكثر مثل هذه الأعاجيب في بلد العجائب: البارحة ليلاً كان مستحقاً الإعدام... واليوم صباحاً - حكم طفولي هين، قد يمنح المجرم خطأ في ألا يساق إلى المعسكرات.

كان قد سُجن معهم في الحجرة الكوباني (نسبة إلى كوبان) ف. ب. جوفينكو ذو الستين عاماً (كان في الماضي قائداً لمئة من القوزاق). وكان روح الحجرة بحق، فيما لو كان لمثل هذه الحجرات أرواح: حيث كان يمزح آناً، ويبتسم أحياناً أخرى ابتسامات، تظهر من تحت شاربيه، اللذين منحاه مسحةً تخفي تحتها المرارة - وأصبح بعد الحرب اليابانية، غير صالح لخدمة الصفوف، وألحق بعدها إلى قسم تربية الخيول التابع للمجلس البلدي، وعمل في أوائل الثلاثينيات لدى إدارة الأراضي في منطقة إيفانوف «كمفتش مالي في مزارع تربية الخيول» أي كمراقب لتحسين إمداد الجيش بها، واعتقل بعد ذلك، وحُوكم، وحكم عليه بالإعدام، بسبب إسداء نصائحه التخريبية: في تقديم المقترحات القاضية بخصي فحول الخيول قبل انقضاء ثلاثة حوليات من عمرها، الأمر الذي أدى إلى «تدمير مؤهلات الجيش الأحمر» - ورفع خومينكو بشكواه إلى محكمة النقض، وبعد مرور خمسة عشر يوماً، دخل قائد الجناح، وأبلغه، بأنه لم يكتب على الطلب «مرجعية الشكوى بشكل صحيح» وإذ ذاك تناول ورقة الشكوى، وأسندها إلى الجدار، وتناول القلم من مسؤول اللجنة،

وشطب المؤسسة المرجعية الأولى، ووضع بدلاً عنها الأخرى، كما وكأن الطلب كان مكتوباً على علبة من التبغ. ومرت من لحظة السير المتعرج للشكوى ستون يوماً، وكان مضى على زمن انتظار خومينكو الموت أربعة أشهر (ولينتظر سنة أخرى - ألم ينتظره منذ سنوات طويلة - نقطة اعتراض قانونية! (أليس هذا العالم عالمنا - وليس هذه الحجرة فقط)؟...، وجاءته - بإعادة الاعتبار الكامل! (لا بد أن فورشيلوف كان قد قرر خلال هذه الفترة: خصي الخيول قبل انقضاء ثلاثة حوليات) كما وكأن قطع الرؤوس من فوق الأكتاف - أكثر سهولة. من إيقاد الموقد في بيت ريفي!.

لم تكن الإعفاءات قليلةً... والجميع يأمل... أكثر فأكثر... وفلاسوف يوازن قضيته مع قضايا الآخرين، لكن الأهم من ذلك كله تصرفه وسلوكه أثناء المحكمة، الذي زاد الطين بله، وعقد المشكلة... وإلا... ولولا ذلك.. فعلى من يطلق الرصاص إذاً؟... لا بد من أن ينفذوه على النصف من المحكومين على الأقل - وهذا ما يجب أن يفعلوه!... وأيقن بعد طول تفكير، بأن حالته تستدعي رميه بالرصاص. وجل ما ابتغاه، ألا يَحني رأسه عند ذلك قط، فالمجازفة خاصية أساسية في طبعه، وبالتالي لا بد من أن تنعكس على سلوكه، وقرر أن يبقى سليطاً حتى النهاية.

واستدارت الأيام، وانعكست الواقعة، فبينما كان يتمشى في الممر انتابه شعور ما (كما وكأنه أراد أن يدغدغ أعصابه ويريح نفسه) وقرر فتح باب غرفة المحكومين، وانتصب تشينغولي رئيس قسم التحقيق (في إدارة الأمن الداخلي لإقليم إيفانوف) عند العتبة... ونطق سائلاً: - من منكم هنا، محكوم بالقضية الكادية؟

كان تشينغولي يرتدي قميصاً حريرياً، ذا أكمام قصيرة (حسب الزي العسكري الجديد، الذي لم يمض الوقت الطويل على إقراره) يشبه

القميص النسائي، وما أن خطا داخل الحجرة، حتى فاحت رائحة العطر، وعبقت في أنحاء الحجرة.

قفز فلاسوف عن السرير برشاقة... وصاح بصوت حاد:

- ما وراء الضابط الكولونيالي هذا؟... فلينقلع القاتل خارجاً! وقذف ببصقة غزيرة في وجه تشينغولي.

وأصابت الهدف.

- أما ذاك (التشينغولي) مسحها وتراجع، سيما وأنه أدرك، بأنه لا يملك الحق بالدخول إلى هذه الحجرة، إلا بمرافقة ستة أنفار - كما كان معلوماً.. - وهل يستطيع الصمت؟.

أرنب عاقل، وكان عليه ألا يتصرف بهذه الطريقة، فماذا لو أن إضبارة قضيتك بين يدي تشينغولي، الذي تتعلق به الكثير من الأمور الخاصة بالإعفاء؟ سيما وأنه لم يسأل عن هذا الكادي لوجه الله: «من هنا محكوم بالقضية الكادية»؟... وقد يكون قد جاء إلى هنا... إلى هذه الحجرة لهذا السبب.

إلا أنك قد تصل حداً، تصبح فيه غير مريد لشيء، قد ترفض، أن تكون أرنباً عاقلاً مقززاً، حتى إذا ما أنار الرأس الأرنبي الفهم الكامل لقضية الأرانب المخصصين بالأصل، إما للحمهم، أو لفرائهم، تدرك عندها، بأن الكسب الممكن فقط، هو تأخير الموت ليس إلا، وترغب عند هذه الحال بالصراخ: (فلتحل عليكم اللعنة... هيا أطلقوا النار حالاً»!.

تملك فلاسوف الإحساس بالغضب والحقد في اليوم الواحد والأربعين، قبل حلول موعد الرمي بالرصاص، وعرضوا عليه كتابة طلب بالاسترحام - إلا أنه رفض ذلك.. وبقدوم اليوم الثاني والأربعين، استدعي إلى المكتب، وأبلغوه أن اللجنة التنفيذية العليا لعموم الاتحاد، أبدلت عقوبته الإجرامية

القصوى، إلى عشرين عاماً بالسجن في معسكر إعادة التأهيل، مع الحرمان من الحقوق المدنية لمدة خمسة أعوام.

ابتسم فلاسوف الشاحب ابتسامة صفراوية علت وجهه، حتى وجد في النهاية ما يقول: - الغرابة، إنني حوكمت، بسبب عدم إيماني المطلق، بانتصار الاشتراكية في بلد واحد، لكن كيف يؤمن ويعتقد - كالنين نفسه، بأننا سنحتاج إلى عشرين عاماً أيضاً، ومع ذلك لن يختفي وجود هذه المعسكرات في بلدنا؟

بدا لهم... عندها... استحالة استمرار وجودها - حتى عشرين عاماً... لكن ويا للغرابة.. لقد أعوزنا وجودها أربعين عاماً أخرى.

الفصل التاسع

المحبس

آخ... - المحبس - كلمة لطيفة - ويا لها من كلمة راسخة... لكنها في الوقت نفسه واخزة، تتبدى لك فيها - مناعة تلك الجدران ذاتها، التي لن تفلت مهنا خارجاً أبداً. هذه الحروف محتشدة - بالصرامة، والحراب، والحدة، (تلك الحراب القنفذية الناشبة أشواكها في الظهور، وتذرو أعواد الجودار القاسية في العيون، وتحيق بك أطواق الأسيجة المسننة الحادة من كل جانب، تليها خطوط الأسلاك الشائكة المشحوذة)... وإذاً... ما تمكنت، وحان لك قراءة علامات التحذير - حذار... انتبه - فأعلم أنك متاخم لمنطقة «اعتقالية قريبة» بينما القرن!... أجل القرن ينبري لك ناتئاً!... مصوباً نحوك بشكل مباشر.

لو أمعنت النظر في الحذر المنغرس في العادات الروسية، والنظام الحياتي لهذه المؤسسة المحدثة مؤخراً، ولنقل تسعين عاماً - لرأيت قرناً واحداً، بل قرنين: وكان أول من بدأ في مواجهة هذا القرن ذي الرأس المسنن، هم أعضاء حزب إرادة الشعب - إذ راح ينطحهم، وينغرز في عظم صدورهم، وتقبلوه بألم لا يطاق - وبمرور الوقت... وشيئاً فشيئاً، أصبح يتكور، ويستدير، ويحدودب، وراح الحزب ينزلق عليه، ليقعد على

قاعدته السفلية الوبرية المنتفخة، ويقتلعه من جذوره (كان هذا في بداية القرن العشرين) - لكن ما إن جاء عام ١٩١٧، سرعان ما راحوا يتحسّسون جذور القرن الثاني، وحسب منطق مقولة «لا يملك الحق» وغدا هذا المنطق ينمو، ويتمخرط، ويتسنن، ويقطع - في البؤر الرغامية للرقاب، التي لا تملك ذاك الحق: إنه الحبس بالسجن[1]، الذي ما إن تدق أبواب نفير الحراس الليليين القاصية والدانية، وبنقرة واحدة في العام: حتى تروح في الو... ن.... ن... والرن، والطن، والزن، وتتفتح السجون[2].

لو استجلينا أمر هذا القطع المكافئ، بالاستناد إلى قول عضو من أعضاء شيليسيليو رتسيف (العمل الراسخ)، وليكن غيرس فيغر)، لوجدنا تلك البداية المخيفة: المعتقل رقم لا اسم له، يعرف به، والجندرما علماء في سجن لوبيانكا: صامتون لا ينبسون ببنت شفة، وإذا ما تلفظت بكلمة «نحن»... - «هيا أخبر عن نفسك». هدوء مصمت مطبق، وحجرة السجن في دغش غسقي، والزجاج مغبر، والأرض إسفلتية، كوة التهوية تفتح لدقيقة واحدة في اليوم، والحلل تقرقع في الخارج فارغة، إلا من قلة قليلة من الحساء. والكتب غير متوفرة، ويمنع تداولها، وتمر سنتان لا ترى فيهما إنساناً، وبعد مرور ثلاث سنوات فقط - ترى أمامك أوراقاً مرقمة.

وبعد ذلك... رويداً رويداً، تزداد الفسحة وتتسع، حيث يتوفر فيها الخبز الأبيض، والشاي مع السكر في متناول الأيدي، وإذا ما توفرت النقود لك أن تشتري: فالدخان مسموح، والزجاج أصبح أكثر شفافية، وكوة التهوية مفتوحة أبداً، والجدران مطلية بألوان فاقعة، وتستطيع رؤية المكتبة، باشتراك مصدق من المكتبة البيتربورغية، وتستطيع أن تتحدث مع الآخرين من خلال الحواجز الشبكية، ويمكنك إلقاء المحاضرات إن

١- الحبس بالسجون - والسجن بالحبسوس (مصطلح رسمي).

٢- السجون ذات الطابع الخاص.

أحببت، وهكذا أمست اليد المعتَقلة ماسكة بزمام السجن «إلا أننا بحاجة إلى قطعة من الأرض» ها إليكم ساحتين من ساحات السجن، فاقتسموها، وازرعوها خضراً وزهوراً - قارب عددها ٤٥٠ نوعاً، إضافة إلى إمكانية التأهيل المهني، فصرنا نجارين، وحدادين، وصار لدينا دخل نقدي نشتري به الكتب، حتى السياسية منها والصحف الأجنبية، وسمح لنا بمراسلة الأهل، وبالتنزه؟ - طوال اليوم فيما لو أردت.

ويتذكر فيفر شيئاً فشيئاً: «بات الرقيب لا يصرخ في وجهنا، بل صرنا نحن من يصرخ في وجهه» أما في عام ١٩٠٢ رفض الرقيب استقبال الشكاوى، ونزعت الرتبة عن كتفيه جراء تصرفه هذا! وكان التحقيق يتم على الشكل التالي: وصل المحقق العسكري، واعتذر بكل تواضع عن عدم لباقة الرقيب الناظر!.

لكن كيف جرى هذا الزحف، وهذا التوسع؟... ويوضح فيفر بعض الأسباب المؤدية إلى هذا: أولاً... لا بد من أنها إنسانية الأمّار، وثانياً، نتيجة «لعيش الجندرما المتلازم مع المحروسين» واعتيادهم على ذلك، إضافة إلى ثبات المعتقلين، وأهليتهم، وتصرفهم المتعقل، ومع كل هذا أعتقد: إن ريح الزمن وطراوته، ونقاوته، كان يطرد غيوم التنديد، والتهديد والوعيد، لتطغى بدلاً منها نسيمات الحرية، التي أخذت تلامس المجتمع، والتي لولاها لما تمكن المحقق العسكري من تقرير تأهيل الجندرما بدورات تعليمية قصيرة (تمنعهم بعدها من ارتكاب مثل تلك الأفعال) تشدهم، وتضبطهم، ولكانت نيكوليفينا قد حدت من تصرف «العمل الراسخ» ليس نزع الرتب فحسب بل تسعة غرامات.

إن ضعضعة، وضعف منظومة السجون القيصرية، لم تتأتَ من سياق طبيعي، بل جاءت - نتيجة سبب واحد، هو وقوف الشعب بأكمله وراء الثوريين الأمر الذي ساهم في إضعاف، وتهاوي منظومة السجن القيصرية.

وربما خسرت القيصرية رأسها، ليس بسبب إطلاق النار في الشوارع (ثورة شباط)، بل خسرته في سنوات سابقة لهذا التاريخ، بعدما أصبح شباب الأسر الميسورة، يعتبرون دخول السجن شرفاً، واعتبر الضباط (حتى الغفارديين منهم) مسألة الشد على يد الجندرما - غير مشرفة. وبازدياد إضعاف تلك المنظومة - استغاضت بوادر النصر والظفر «للمنحى السياسي» وبات الحزب الثوري يتحسس قواه بشكل جلي، ويعمل على تسيير قوانينه الخاصة، دون تسيير القوانين الحكومية.

قدم العام السابع عشر على روسيا على أسس تلك القواعد السالفة الذكر، وهو يحمل على كتفيه العام الثامن عشر، الذي سنقفز للتكلم عنه مباشرة، ذلك لأن مادتنا التحليلية، لا تسمح لنا بالتوقف عند السابع عشر، إذ إنه وبدءاً من الشهر الأول منه، فرغت السجون السياسية (وحتى الجنائية) ونظارات التوقيف، والسجون التحقيقية، ومحابس الأشغال الشاقة، وعاش رقباؤها حالة من القلق طوال ذلك العام - ويا للعجب!... ربما كان ذلك بسبب فساد البطاطا المزروعة في حواكير السجناء السابقين (بيد أن أمورهم تحسنت في بداية عام ١٩١٨ واستمر رقباء الصفوف يخدمون بشكل جيد حتى عام ١٩٢٨).

وتتكشف بدءاً من الشهر الأخير من عام ١٩١٧، صعوبة الاستمرار دون سجون، فلا مكان نمسك به أعضاء حزب إرادة الشعب إلا وراء القضبان (انظر الفصل الثاني) - لأنه لا تتوفر في المجتمع أماكن، أكثر ظلمة من تلك، وبهذا يكونون قد عبروا الساحة الوبرية بين القرنين، وراحوا يتلمسون القرن الآخر.

من الطبيعي كان قد أُعلن في البداية، أنه لن تعاد بشاعة السجن القيصري، ولا يمكن حتى، أن تكون أيّ «مضايقات أخلاقية» ولا أي صمت سجني مطبق، ولا انفرادية، ولا تنزه منفصل، ولا خطوات موحدة موزونة بين الواحد والآخر، وحتى الحجر باتت ممنوعة).

هيا... أعزائي... التفوا، وتحدثوا قدر ما تشاؤون، وليشتك كل منكم للآخر عن البلاشفة، لكن للتحذير نقول: إن النظام السجني بات يخضع في الحراسة الخارجية للقوى العسكرية، أما الاستقبال (للمساجين) موروث قيصري حسب القاعدة السجنية (لم تخضع هذه المنظومة الحكومية لعملية إعادة البناء الجديد بعد)!.

بيد أنه تبين ولحسن المصادفات، أن الحرب الأهلية، لم تحدث التدمير الكامل لا للمراكز، ولا للحراب الأساسية، ولم يفُتْهم رفض استخدام تلك الكلمات القديمة، حيث باتوا يطلقون عليها الآن تسمية المعازل السياسية، تواصلاً مع التسمية السابقة: إلا أنهم أقروا، بأن أعضاء الأحزاب الثورية السابقة، هم أعداء لهم، وأشاروا إلى أن الغاية من سجنهم، ليس له طابع العقاب، بقدر ما تقتضي الضرورة عزل هؤلاء (ربما بشكل مؤقت) ثوار الموضة القديمة، عن انطلاقة النظام الجديد في المجتمع، مع العلم أنهم استقبلوا في هذه المعازل مجموعات مراكز القوى السابقة (من زمن السوزدالية، وحتى الحرب الأهلية)، كلآيسيريين، ورجال الدين، والاجتماعيين الديمقراطيين.

إذاً عاد السجناء السابقون إلى هنا، وهم على معرفة كاملة بحقوقهم الاعتقالية، وبالتقاليد المجربة منذ زمن بعيد - فكيف لهم الآن التنازل عنها. وحسبها إنها كانت (مستخدمة، وصادرة عن القيصر المغدور، وعن الثورة) وتنص على أن يقدم للسجناء السياسيين فيها، جعالة خاصة (بما فيها نصف علبة سجائر في اليوم) مع السماح لهم بشراء (الحليب، والجبن) من المتجر، مع حرية التنزه لعدة ساعات في اليوم، ولهم الحق في أن يطالبوا رقباء السجون بمخاطبتهم بصيغة الجمع «أنتم» (في الوقت الذي كانوا فيه، لا يقفون لقيادي السجن) ولهم الحق بالجمع بين الزوجين في حجرة واحدة، مع توفر الصحف، والمجلات والكتب، وأدوات الكتابة، والأشياء

الشخصية من أدوات حلاقة وأدوات حادة في الحجرة، عدا عن السماح لهم في الشهر ثلاث مرات بتوجيه الرسائل، واللقاء مع الأهل والأقارب لمرة واحدة، إضافة إلى هذا كله فإن النوافذ لم تكن مسلحة بأيّ أنواع من الشباك (لم يكن عندها قد عرفت بعد «الحجر الكمامات» كما وسمح لهم بالتنقل بين الحجر دون ممانعة، والتنزه، وحمل باقات الورود، والليلك، وحرية التقاء الرفيق أثناء التنفس، ورمي أكياس الهدايا، والباقات من ساحة (تنفس) إلى ساحة أخرى، ويسمح للنساء الحوامل بالذهاب من السجن إلى المعسكر قبل الولادة بشهرين.

كل ما أسلفناه كان فقط - للسجناء المعادين للنظام القيصري، إلا أن سجناء العشرينيات قد استوعبوا، إن لم يكونوا قد فاقوا سلفهم في مسألة التسيير الذاتي، وإحساسهم بأنفسهم، بأنهم جزء متكامل من حلقة موظفي السجن: هذا التسيير الذاتي (خولهم باختيار الأقدم منهم بشكل حر، ليمثلهم ويدافع عن مصالحهم أمام إدارة السجن) مما أضعف الضغط السجني على الفرد منهم، وصانوه بصدورهم، وخلصوه من وبائه - وضاعف من قدرة الاحتجاج لديهم بعدة أصوات.

ومع كل هذا قرروا ألا يتنازلوا! أما السلطات السجنية قررت انتزاع هذه الحقوق منهم، ودار صراع الطرشان في ذلك المكان، دون سماع انفجار قذائف المدفعية، عدا بعض صليات من البنادق بين الحين والآخر، وانحبست قرقعة الزجاج المتحطم، ولم يتعد صوتها نصف فرسخ... نعم... لقد جرى الصراع الأصم، من أجل الحفاظ على بقية باقية من الحرية، ومن أجل استنزاع نتف من حقوق امتلاك حرية الفكر، لمدة طويلة من الزمن استمرت عشرين عاماً - دون أن تنشر عن تلك الحرب المجلدات التوضيحية، وبقيت كافة دردشاتها، ولوائح نصرها، وعمق إصابتها بعيدة المنال عنا، حتى هذا الوقت، بسبب عدم توفر أدوات الكتابة في معسكر

الأرخبيلاك، وبسبب انقطاع التواصل شفاهاً بين الناس، وصرنا نتلقى من آن لآخر بضعة من رذاذ متطاير يصل إلينا أحياناً مضاءً بنور قمري لا هو بالساطع ولا بالخافت.

نعم... بقينا مذ ذاك الوقت، وحيثما تمايلنا - نسمع، ونعلم عن ملاحم الدبابات، وعن الانفجارات القريبة - لكن ما طائلنا من هذه الحرب طالما أن الحجرات مقفلة، والمساجين ينفذون شعائر حقوقهم بالتواصل، بالطرق على الأبواب، وبالصراخ من نافذة إلى أخرى، وبتدلية خيوطهم المربوطة ببعض الأوراق المكتوبة من طابق إلى طابق، ومصرين، ولو في أدنى حالة من الإصرار، على أن يبقى مستمراً طواف شيوخ المجموعات الحزبية القديمة على أتباعهم في الحجرات بشكل حر؟... ما لنا ولهذه الحرب، إذا كان مديرو سجون لوبيانكا يدخلون الحجر، ويُجبر السجناء على الوقوف، حتى إذا ما رفضتا آنا. غ. فا. (١٩٢٦) - (والآيسيرية كاتيا أوليتسكايا (١٩٣١) الوقوف لهم (يقرر ذلك البربري معاقبتهما بالحرمان من الحقوق، ويخرجهما من الحجرة، إلى الزنزانة)... ما لهذا الصراع، إذا كانت الفتاتان شورا، وفيرا (١٩٢٥)، قد احتجتا على الأوامر اللوبيانكية المحطمة للكرامة الشخصية، التي كانت تقضي بالتحدث همساً - وراحتا تشدوان على الأثر (بأغانٍ عن الليلك والربيع) بكلمات أتت من صوت منبعث من الحجرة - ليقوم المدير لابيش دوكيس بعدها، بشدهما من شعرهما عبر الممرات إلى غرفة المرحاض؟... أو كما فعل الطلاب المعتقلون عام (١٩٢٤) عندما راحوا يرددون أغاني ثورية في المقطورة التي كانت تقلهم من لينينغراد ويقوم المرافق بحرمانهم من الماء؟ ويصيحون بوجهه «حتى المرافق القيصري، لم يكن ليفعل ذلك»؟ - ويرد عليهم بالضرب؟!... أو عند استدعاء الآيسيري كوزلوف لمعاقبته على أثر تكلمه بصوت عال مع المرافق الجلاد، أثناء نفيه إلى كيم - يربط بالأسلاك، ويضرب؟!.

تـرى... ألا نعتـاد، إلا علـى اسـتيعاب تلـك المـروءة الممارسـة عـسكرياً فقط؟ (وأين مروءة أولئك، وتينك الذين يحلقون في الفضاء)، ومـروءة أولئك المـدججين بالأوسمـة والنياشـين، وننـسى المـروءات الأخـرى - قبـل المـروءة الوطنية - التي هي... هي بعينها الضرورية لمجتمعنا... لكنها... لا ليست هـي عندنا...

قـام الآيـسيري ستروجيـسكي ورفاقـه في سـجن فياتـسكي عـام ١٩٢٣ بالتحصن في الحجرة (ما كان عددهم؟ وكيف تداعوا؟ وضد مـن احتجـوا)؟ ودلقـوا الكيروسـن علـى الفـراش، وأشـعلوا النـار بأنفسهم، حسبما قضت شـريعة شلسبورغ، - كيما تنحدرون أكثر وأكثر - وقامت عندها القيامة، وأثيرت ضجة، وأيما ضجة، وتقلقل المجتمـع الروسـي بأكملـه. بينمـا الآن بـات لا يـدرك هـذا الـذي حـصل لا من كان في لافيانكا، ولا في موسكو، ولا حتى التاريخ، ولن يثير عنـــدهم شـــواء اللحـــم ولا تكـــسير العظـــام أدنـــى إحـــساس بالسمع!.

مـن هنـا تجلـت الفكـرة العندلية الأولى: حيث الإقامـة الجيـدة، الـتي لا تـستطيع خلالها التواصـل مـع العـالم الخـارجي لمدة نـصف عـام - هـا هنـا حيث لا يسمع صوتك، حتى لـو تمكنـت مـن حـرق نفسك، ففـي عـام ١٩٢٣ نقلوا إلى هنـا محتجـزي الحـزب الاجتمـاعي مـن بيترو مينسك (شـبه جزيـرة أوجينـسكي) - ووزعـوهم علـى ثـلاث خلـوات موحـشة: منهـا خلـوه سافاتيفـسكي - مؤلفـة مـن بنـايتين لفنـدق قـديم شمـل ريعهمـا جـزءاً مـن البحيرة المجاورة، وكانتا مخصصتين لحجـاج بيـت المقـدس - ومـرت الشهور الأولى، وكـل شـيء يسير على خير مـا يـرام، وكـان يـزورهم مـن آن لآخـر بعض الأهل والأقـارب، وممثلـو السلطة بغـرض إجـراء اللقـاءات، والمحادثـات مع ثلاثة من شيوخ الأحزاب...

أفلا تكون هذه الخلوات - عبارة عن مناطق حرية، يملك فيها الفرد حرية التحدث والتفكير، والعمل دونما مقابل؟.

لم يكن عندها، قد انبلج بعد فجر الأرخبيلاك، ولم تتضح تسمية «فردات الأزواج» وكانت تزحف تلك الإشاعات الثقيلة إلى الآذان ببطء شديد: سياسيو السلطة... يقومون بتصفية سياسي السلطة.

وبالحقيقة، كان قد شهد من عاش حتى منتصف كانون الأول، وقف كافة النشاطات الملاحية، وقطع المواصلات والاتصالات مع العالم، حتى أعلن مدير المعسكر العندلي (سالافيتسكي) إيخمانس... نعم لقد تلقينا نظاماً حذقاً جديداً... وهذا أمر طبيعي... فكل شيء إلى تغيير... أوه... لا... لقد أضحت المراسلة ممنوعة إضافة إلى منع أشياء أخرى نعيشها الآن ونتحسسها. حيث منع بدءاً من العشرين من شهر كانون الأول عام ١٩٢٣، الخروج من المبنى على مدار اليوم ولم يسمح بالخروج فقط في النهار حتى الساعة السادسة مساءً.

وقررت مجموعات الآيسيريين ورجال الدين، الاحتجاج وإعلان التعبئة في اليوم الأول لقرار منع التنزه حتى السادسة، إلا أن يد قائد المعزل سافايفسكي تاغيتوف، راحت تتلمس أخمص السلاح قبل حلول الساعة السادسة المحددة للمنع (أليس من المحتمل، أن تكون الساعة قد قدمت؟ دون الإذاعة عنها في المذياع)! ويبدأ الحراس يدخلون منطقة المعسكر بأسلحتهم، وأخذوا في فتح النار على المتنزهين الذين ما زال تنزههم قانونياً بعد... وبثلاث صليّات... وستة قتلى... وثلاثة جرحى إصاباتهم بليغة.

وصل إيخمانس في اليوم التالي... إنه لخطأ محزن... ولا بد من أن يُزاح تاغيتوف من منصبه (أحيل، وعلق)... وتم دفن الموتى... وصدحت أصوات تراتيل الكورس على مقبرة لاتيتسكي.

أنتم يا ضحايا هذا الصراع المميت

(ألم تكن هي المرة الأخيرة، التي تسمع فيها تلاوة مثل هذه الألحان المأتمية على الشهداء الطازجين)؟ وقام المؤبنون بوضع جلمود من الصخر الأملس على المقبرة، وحفروا عليه أسماء القتلى[1]!

لا... لا يصح القول، بأن تكون وسائل الإعلام الوطنية قد أغفلت هذه الواقعة!... لا... لقد كتبت البرافدا ملحوظة بخط ناعم: هجم السجناء على الحراس، ووقع نتيجة هذا الهجوم ستة قتلى، أما صحيفة «رونتي فان» الشريفة، وصفت العصيان في المعسكر بالتفصيل.

ملاحظة: كان من بين مجموعة سافاتيفسكي، رجل قام بجمع الوثائق الطبية عن نتائج إطلاق النار - كي يقوم بنشرها في زمن ما، إلا أنه وبعد مرور عام واحد، نكشوا، واكتشفوا الأرضية المزدوجة للحقيبة عند تفتيشه في منفى سفر دلوفسكي، وعثروا على الكنز، لكن بعثورهم هذا، تعثر التاريخ الروسي... انتهت الملاحظة.

لكنهم بعد ذلك أوقفوا تطبيق النظام الجديد، ومرت سنة بحالها دون أن يتحدث أحد عن هذا التعبير، وما أن دنت نهاية العام حتى راحت تدب إشاعات جديدة، عن احتمال اجتماعهم للمرة الثانية (في كانون الأول عام ١٩٢٤) لتعزيز تطبيق النظام... مما لا شك فيه!، أن التنين شعر بالجوع... وصار يطالب بضحايا جديدة استطاعت مجموعات الاشتراكيين الثلاث: سافاتيفسكي، وتروتسكي، وموكافسكي المنتشرة في الجزر المختلفة، من الاتفاق سرياً، على إرسال بيان مشترك يتضمن التحذير النهائي لموسكو، ولقيادة معسكر سالوفسكي، يخيرونهم فيه، بين نقلهم إلى مكان يصعب تحديد الجهات الأربع فيه، أو أن يحافظ على النظام

١- قلب ذلك الجلمود الصخري عام ١٩٢٥، ووجدت عليه أسماء الشهداء، ومن هذا الذي يستطيع ان يطأ تلك المنطقة من السياج - ليبحث ويرى بنفسه!

السجيني القديم، وحددت مدة الإنذار - أسبوعين - وإلا ستعلن كافة المجموعات الإضراب عن الطعام.

أجبر هذا الاتحاد التوافقي، الآخرين على سماع صوته، وكان لا يمكن مرور مثل هذا الإنذار بمحاذاة. الأذان دون سماعه. وقبل مرور يوم واحد من مدته، وصل ايخمانس وأعلن أمام كل قطيع على حدة، رفض موسكو لهذا الطلب، وبدأت المجموعات الثلاث وفي اليوم المحدد، بالإضراب عن الطعام (وامتنعوا حتى عن شرب المياه العادية) وبلغ عدد المضربين من المجموعات السافانية، حوالي المئتي إنسان، بما فيهم المرضى المعفيين من هذا الالتزام، وكان الأطباء منهم يكشفون عليهم كل يوم، إلا إنه كان من الصعب كما هو معلوم، استمرار الإضراب الجماعي بوقت أطول من الإضراب الفردي. بسبب مساواته بين الأكثر ضعفاً قوةً، إذ لا يمكن تحقيق فكرة الإضراب إلا بوجود الصرامة والحزم، والمعرفة والثقة المتبادلة، وإلا لا بد من أن يبرز هذا التباين في تحمل حالات الألم بين المجموعات الحزبية الثلاث، وبين تلك الألوف المؤلفة من البشر المختلفي الأطوار، واستدعى الأمر إجراء التصويت ما بين المجموعات السافانية على الاستمرار في الإضراب (كانوا ينقلون صناديق الاقتراع من غرفة إلى أخرى) أو إيقافه؟

لم تكن موسكو وإيخمانس معها، على عجلة من أمرهما، فهما على أيّ حال، على درجة كبيرة من الشبع ولم تتحمس كذلك صحف العاصمة لهذا الأمر، ولم تعقد الاجتماعات الطلابية في محاذاة كاتدرائية كازانسكي (كما هي العادة) فالانغلاق المطبق يحيق بتاريخنا... بكل جدارة.

أوقفت القطعان الإضراب، وخسرت معركتها، على الرغم من أنه تبين فيما بعد، بأنها لم تخسرها بشكل كامل: إذ استمر العمل بالنظام

السابق حتى الشتاء، بعد أن أضافوا إليه العمل في قطع الأخشاب من الغابة، وهذا في غاية المنطقية، لكن وبحلول ربيع عام ١٩٢٥ اتضح بأن المضربين عن الطعام ربحوا الرهان، ونقلت المجموعات الثلاث إلى سولوفكوف!... إلى اليابسة، حيث لن تكون هناك ليال قطبية بيضاء... إلا لمدة نصف عام!.

لكن قائد خفارة القافلة كان (حسب مقاييس ذلك الزمن) فظاً لدرجة كبيرة، (ولم تكن جُعالة الإطعام في الطريق أقل فظاظةً) إذ وقع المحتجزون ضحية مكيدة غادرة: فتحت يافطة التذرع، بتقديم اقتراح إلى الشيوخ، ليقيموا في المقطورات «القيادية» الأكثر راحة، من المقطورات الشعبية، تم سحب زمام القيادة المباشر من أيديهم، وحرمهم من السيطرة المباشرة على مجموعاتهم، وفصلوا مقطورة الشيوخ في محطة فياتكا، ودفعوها إلى معزل تابولسكي، وانجلى الأمر عندها... في إن نتائج إضراب السنة الماضية كانت خاسرة، فاقتطاع الشيوخ المؤثرين الأقوياء، منح النظام قدرة لولبيه على الآخرين، وأشرف كل من باغدا، وكاتانيانين على عملية إسكان السولوفيين في معزل فيرخنيورالسكي (بشكل شخصي)، الذي كان قد تم تجهيزه منذ زمن بعيد. وبهذا يكون قد تم «افتتاحه» بقدومهم في ربيع عام ١٩٢٥ (تحت قيادة دوبير) - الذي أتيح له، في أن يصبح فزاعة لا يستهان بها خلال السنوات العشر القادمة.

انتزع المكان الجديد على الفور حرية التحرك لشيوخ السولوفية السابقة، وأرتجت الأبواب خلفهم، ومنعوا من حق التجوال بين الحجرات (على الرغم من انتخابهم عدة شيوخ كممثلين لهم) ومنع تناقل وتبادل النقود والأشياء، والكتب فيما بينهم، على غرار ما كان في السابق، وراحوا يتصارخون عبر النوافذ - مما أثار حفيظة الحراس، الذين راحوا يطلقون الرصاص من أبراجهم - ورداً على ذلك قام السجناء بتحطيم زجاج النوافذ، وخربوا موجودات السجن (لا... لا ضرورة لذلك.. كان عليك التفكير قبل

تحطيم زجاج سجوننا - بأنك ستترك طوال الشتاء وراء نوافذ مشرعة للريح،... وهذا ليس هو بالمستغرب في هذا الزمن، الذي لا يماثل الزمن القيصري، الذي كان الزجاجون فيه، يتراكضون لإصلاح ما أفسد خلال لحظات)!.. وهكذا استمر الصراع، إنما في ظروف يائسة، وفي ظروف الربح فيها غير محقق.

وبحلول عام ١٩٢٨ (حسب رواية بطرس بيتروفيتش روبين) ولسبب ما، حل الإضراب عن الطعام في معسكر فيرخينورالسكي، إلا إن الظروف عندها، قد تغيرت، وخف الحماس، والتشجيع والتألق... ولم يتصرف الأطباء إزاءهم كما كانوا يتصرفون في السابق، واندفع الخفراء بدءاً من اليوم الأول للإضراب، إلى الحجرات بأعداد كبيرة - وراحوا يضربون الناس الضعفاء بالعصي والجزم بكل بساطة... وأوسعوهم تنكيلاً حتى انتهى الإضراب... وأوقف!!

★★★

تناقلنا وبإيمان ساذج قوة الإضراب عن الطعام من تجارب الماضي، من أدبيات السلف، فالإضراب سلاح معنوي يفترض توفر الوجدان لدى السجانين دون أن يفقدوه بعد، ويفترض كذلك، بأن السجانين، ما زالوا يخافون الرأي الاجتماعي العام. ويصبح الإضراب عند وجود هذين الشرطين، ذا قوة، وأيّ قوة؟!.

فالسجانون القيصريون كانوا وَدودين، حتى إذا ما قدم المعتقل إليهم اضطربوا وتأوهوا، وسهروا عليه، وأسعفوه عند مرضه إلى المستوصف. ولن نسهب في هذا، على الرغم من وجود الأمثلة الكثيرة على ذلك، بخاصة وأن كتابنا هذا ليس مكرساً للكلام عنهم، ولو كان كذلك لكان من المضحك القول، بأنه كافٍ للسجين فالنتين في ذلك الزمن القيصري، لأن يضرب عن الطعام خمسة عشر يوماً، ليحصل على امتياز في تغيير نظمه

السجنية، لا بل يطلق سراحه (ويسافر إلى النمسا ملتحقاً بلينين). ناهيك أن المضربين في المركز الإداري للأشغال الشاقة، انتصروا، وحققوا مطالبهم بتهوين الأنظمة عام ١٩١٢، وتابعوا تجربتهم في العام الثاني - وحصلوا على حق التنزه، بما فيهم المعاقبين السياسيين - لدرجة أنّهم لم يخضعوا أثناءها لمراقبة الحرس، ونجحوا كذلك بحق المراسلة، وتوجيه نداءاتهم إلى «الشعب الروسي». (كان قد قام أحد المعاقبين بهذا)، ونشر بعضها مطبوعاً (هل يعقل، أن تعلو العين على الحاجب؟!... ومن المجنون منا)؟ في العدد الأول من صحيفة «البشير فيستنيك للمنافي ومعسكرات الأشغال الشاقة) (ماذا يساوي هذا «البشير فيستنيك»؟... هيا لنحاول القيام بمثل هذا... الآن)! - وتمكن ديرجنيسكي ورفاقه عام ١٩١٤ من خلال إضرابهم عن الطعام لمدة خمسة أيام (في الحقيقة عن الماء). من النجاح في تحقيق كافة مطالبهم «المعيشيّة».

لم يشكل الإضراب في تلك السنوات، أيّ خطورة، أو أيّ صعوبة في تنفيذه من قبل المعتقلين، عدا بعض العذاب من الجوع ذاته، ولم يتمكن السجانون أثناءها من تبريح المعتقل بالضرب والتعذيب، ولا يملكون حتى حق إعادة المحاكمة، ومضاعفة مدة المحكومية، ولا حتى حق إطلاق النار عليه، أو تصفيته على مراحل (لقد أدركنا أهمية ذلك الذي كان - مؤخراً).

شعر المعتقلون في ثورة عام ١٩٠٥، وفي السنوات التي أعقبتها، بأنهم أصحاب السجن، ولم يصعب عليهم إعلان الإضراب، وتدمير الممتلكات الحكومية في السجون، أو حتى التفكير بإعلان الإضراب الشامل والعام، على الرغم من إيضاح عدم الجدوى من تلك الفكرة، وقام مئة وتسعون عائلة من عائلات المعتقلين (في السجون المحلية لمدينة نيكولايف) عام ١٩٠٦، بإعلان الإضراب العام بملء إرادتهم، وأصدروا المناشير بحرية

كاملة، وعقدوا الاجتماعات قرب السجن يومياً، يلقون فيها الخطابات الشعبية، التي ألزمت إدارة السجون، (بينما كان المعتقلون يرقبون هذا من خلف النوافذ دون رادع) بقبول مطالبهم، وأنشد المحتشدون والمعتقلون وراء القضبان الأناشيد الثورية معاً، واستمرت الحال على هذا المنوال ثمانية أيام (دون إعاقة، لأن ذلك العام كان عام الانفصال الثوري) حتى تحققت كافة المطالب في اليوم التاسع، وكثيراً ما تم مثل هذا الهيجان في مختلف المدن (أوديسا وخيرسون وفي اليزابيتا غراد).

آوه لكم كان سهلاً... تحقيق النصر آنذاك!!.

ربما كان من الممتع أن نقارن هنا عرضاً، كيف كانت حالة الإضرابات عن الطعام في زمن الحكومة المؤقتة، والذي كان قد شارك فيها، بعض البلاشفة، الذين أمضوا في السجن فترة قليلة، استمرت من حزيران، وحتى زمن كورنيلوف (كان منهم كامنييف وتروتسكي وراسكولينكوف الذي استمر لفترة أطول)، ولم يجدوا عندها مبرراً للإضراب، لأنه لم يكن في حينها نظام للسجون.

تكدر وجه الصورة المليحة للإضراب في العشرينيات (من حيث تلك النقاط التي أسلفنا الكلام عنها... لكن كيف)؟... نعتقد وكما هو معلوم على نطاق واسع، إن مسوغات كيفية الصراع، تُنتزع على أكمل وجه، ليست طبقاً لتلك المعترف بها من قبل السياسيين، بل طبقاً لتلك التي لا يعترفون.. (أو يقرون بها «مثل وحي المادة الثامنة والخمسين»، التي لا تعترف بالجماهير العريضة مسببة وجودها. لكن شيئاً ما ثلمته تلك السهام، التي لم تكن أسبق بالاختراق من تلك الأيدي الحديدية، التي كانت تلتقطها وهي طائرة في السماء. وللحقيقة ما زالت الطلبات الخطية الموجهة لطلب إعلان الإضراب عن الطعام مقبولة، ولم يروا منها حتى الآن أيّ مشاهدات تخريبية، إنما لا بد من أن تتكون على أثرها ضوابط وقواعد

أكثر تعاسةً، وأكثر جديةً: إذ يفرض على المضرب، العزل في حجرة انفرادية (حيث كان يتم وضعهم في كل من سجن بوتيركا، وسجن بوكاتشوف في حجرة برجية منفصلة) ويجب عليه كذلك ألا يعرف، أو يعلم عن إضرابه الاحتجاجي هذا، أي من نزلاء الحجر المجاورة، وحتى نزلاء الحجرة ذاتها، التي قبع فيها المضرب حتى بداية اليوم الأول من الإضراب - أليست هذه حالة اجتماعية يتطلب بترها على الفور، واتخاذ التدابير كافة التي من شأنها، أن تؤكد لإداريي السجن، أن الإضراب ينفذ بصدق وشرف - ولا يقوم من في الحجر المجاورة بإطعامه خلسةً (إلا أن التساؤل هنا، كيف كان يتم التأكد من هذا في السابق؟... أبكلمة «الشرف الصادق»)؟!... سيما وأن الإضراب كان يتم عن طريق طلب إفرادي لإدارة السجن، كما جرت العادة خلال تلك السنوات.

جرت في الثلاثينيات حالة انقلابية في التفكير الحكومي، حيال قضية الإضرابات - وحتى حيال المستضعفة، والمنفردة، والوجلة منها - أليست الحكومة بحاجة لمثلها؟ أليس من الأمثل لها أن يكون المعتقل غير متمالك لإرادته، وفاقداً لقراره الشخصي - ويكفي الإدارة، أن تفكر، وتقرر بدلاً عنه! لعلّ يستطيع مثل هذا المعتقل تحقيق وجوده في المجتمع الجديد. وهكذا وبدءاً من الثلاثينيات توقفت عملية قبول الطلبات القانونية، للإضراب عن الطعام «إذ اعتبر الإضراب وسيلةً من وسائل الصراع... الذي لم يعد ممكناً الآن».

وعلى أثر هذا الإجراء عام ١٩٣٢، أبلغوا يكاترينا أوليتسكي، والآخرين - أن السلطة ألغت إضرابكم)! - وصيامكم، لكن أوليتسكايا، لم تنصع للأمر، واستمرت في تجويع نفسها، وسمحوا لها بذلك مدة خمسة عشر يوماً في زنزانة منفردة، ونقلت بعدها إلى المشفى، وقدموا لها، رحمة منهم، الحليب وقطع الخبز، ومع ذلك صمدت تسعة

عشر يوماً وانتصرت وحصلت على فترات تنفس مديدة، وباتت تتلقى الصحف، والأعطيات من الصليب الأحمر (هكذا يجب علينا أن نتأوه، ونئن، حتى نحصل على هذه المنح القانونية)! ومع كل ذلك لم يكن النصر ذا قيمة، قياساً بالثمن المدفوع. وتتذكر أوليتسكايا الإضرابات السخيفة، حتى عند الآخرين: عليك وبغية الحصول على حق إرسال الطرود، أو تبديل رفاق فترة التنفس، أن تجوع عشرين يوماً، وهل يساوي هذا!... ذاك؟، سيّما وإنك لا تستطيع استرداد قواك الضائعة في تلك السجون النموذجية الجديدة، هذا فيما إذا توفرت الإمكانية لاستعادتها، وعلى الرغم من ذلك صام الكثير من المعتقلين عشرين يوماً وماتوا (كما حصل مع سيكتانت) فهل لك بعدها الإمكانية بالسماح لنفسك بالجوع، بخاصة في السجون ذات النظم الجديدة، التي ظهرت فيها المعيقات الكثيرة، كالحجز في الإفراديات، وسرية الإضراب، والوسائط الجبارة للردع:

١- مماطلة إدارة السجن (الأناة) (لقد رأينا في الأمثلة السابقة مثل هذه الظاهرة).

٢- الكذب، الذي يتم بفضل التعتيم الإعلامي، فهل لك أن تكذب، حتى وإن لم يكن بالشكل الأمثل فيما، لو أن الصحفيين نقلوا وتابعوا خطوات المضربين خطوةً خطوةً؟ لا... الأمر بات الآن بشكل مختلف وما الذي يمنعهم من فعل ذلك؟.. ففي عام ١٩٣٣، أضرب س. أ. تشيباتاريوف سبعة عشر يوماً في سجن خاباروفسكي - نسكي، مطالباً بإعلام زوجته عن مكان وجوده (وجاؤوا إليه من إدارة السجن (وخارت قواه»، واضطرب بسبب ما اعتراه من هواجس على زوجته)، وفي اليوم السابع، جاء إليه معاون مدير الإدارة السياسية في الإقليم، والنائب العام في المنطقة الغربية من مقاطعة خاباروفسكي (يتضح من حضور هذه الشخصيات الكبيرة ندرة حالات الإضراب) وأطلعوه على إيصال البرقيّة

(كإثبات على إعلام الزوجة) - واستطاعوا بذلك إقناعه بتناول الحساء، بينما الإيصال كان مزوراً (لماذا كانت تلك الشخصيات قلقة؟

أليس بسبب الحفاظ على حياة السجين تشيباتاريوف؟... مما يؤكد بأنه ما زالت حتى منتصف الثلاثينيات، تقع المسؤولية على الإدارة، فيما يتعلق بالإضراب المديد عن الطعام).

٣- التغذية الصناعية القسريّة، ولا شك بأن هذه الوسيلة مقتبسة عن أساليب الرعاية الحيوانية، ويمكن تحقيقها فقط - عند تأمين التعتيم والسرية، وبات استخدامها عام ١٩٣٧، بادياً للعيان وبوتيرة عالية بخاصة عندما طبقت على الإضراب الجماعي للاشتراكيين في مركز ياروسلافسكي لمدة خمسة عشر يوماً.

احتاج هذا العمل للكثير من الاغتصاب - وهذا ما كان في الواقع، إذ كان ينقضّ أربعة رجال أشداء على الكائن الضعيف، ويتم تجريده من المقاومة والممانعة - وبقوة ولمرّة واحدة.... ويحصل ما يحصل بعدها - ليس هو بالأمر المهم - إنما المهم ذلك الإكراه - وكسر وتحطيم إرادة المعتقل... ليس عليك إلا والاستسلام، واترك الباقي علينا... يأخذون صفيحة معدنية، ويفتحون الفم، ويوسعون الفتحة الشدقية بين الفكين، ويدخلون الخرطوم «هيا ابلع»! وإذا ما مانعت البلع يدفعون الخرطوم بعمق أكثر ويصبون السائل الغذائي مباشرة في المعدة، ويدلكون البطن كي لا يقفز السجين للمراجعة... لا ريب أن هذه العملية، ما هي إلا تدنيس معنوي، إلا أنها في الوقت نفسه حلاوة مقززة، حيث ترضع المعدة بعدها بابتهاج وطلاوة ولذة...

هكذا... هذا هو العلم... ودأبه التطور والاختراع، والابتكار وكان لا بد من أن تبرز طرق أكثر تطوراً: وهي طريقة الحقن عن طريق الشرج، أو بالتنقيط عبر الأنف.

٤- بروز نزعة جديدة حيال الإضراب: فعملية الإضراب بحد ذاتها، حالة استمرارية لنشاطات معادية للثورة، إنما في السجن... ويجب معاقبة المضربين بمواعيد جديدة إذ تفيد هذه الخاصية في تكاثر فروع غنية متطورة في خبرة السجون ذات النظم الجديدة وأكثر ما ترسخ في المجالات الأكثر أهمية، ومن الطبيعي ألا يتوقف هذا على الإحساس الذاتي بالعزلة فقط، بل يولد التكاسل والتثاقل... فلمَ كل هذا.. طالما يتوفر عامل الصبر؟... أجل الأناة للمرة الثانية... ألا وهو صبر الشبعان أمام الجياع:

وردت في منتصف عام ١٩٣٨، نتيجة توجيهات وأوامر جديدة: لا تعتبر إدارة السجن مسؤولة عن حالات الموت، نتيجة الإضراب عن الطعام! واختفت المسؤولية الشخصية للسجانين، التي كنا نوهنا عنها سابقاً! (ولن يأتي النائب العام ثانية إلى تشيباتاربوف، فيما لو فعلها)!.. إضافة إلى هذا وكي لا يضطرب المحقق: تم اقتراح شطب أيام الإضراب من الأيام المخصصة للتحقيق، وهذا يعني، ليس اعتبار الإضراب وكأنه لم يكن إطلاقاً، بل كما وكأن السجين أمضى أيامه هذه حراً طليقاً بملء إرادته!... فدع عواقب الإضراب المحسوسة وحدها، تستنفذ طاقة المعتقل وتضنيه!.

أو بما معناه... أردتم الهلاك!... حسنا فلتهلكوا!.

لسوء الحظ... أعلن أرنولد روبابورت الإضراب عن الطعام في سجن آرخا - نغنيلسك، أثناء صدور التوجيهات الأنفة الذكر، ونفذ الإضراب بحرص منقطع النظير، حتى بلغ درجة «التجفاف»، واستمر على هذه الحال ثلاثة عشر يوماً (من المناسب مقارنته بإضراب ديرجنسكي ذي الخمسة أيام، على الرغم من عدم معرفتنا فيما إذا كان محجوزاً في حجرة (انفرادية؟ - وحقق النصر) معزولاً في الانفرادية، تحت مراقبة المرضين أحياناً دون أن يعوده الطبيب، أو يزوره أحد من الإدارة بدافع

الاهتمام، للاطلاع على مطالبه من وراء هذا الإضراب؟... عدا الاهتمام الوحيد من المراقب في تفتيش انفراديته بدقة، وقذف الأشياء الممنوعة، وعلب الكبريت خارجاً - ثمة ما أراده روبابورت، وقف عمليات التحقيق الساخرة معه، (وكان قد حضر نفسه بشكل علمي لهذا الإضراب) حيث راح يأكل من جُعالة الإطعام (الزبدة الحيوانية والخبز الأبيض) وامتنع عن الخبز الأسود لمدة أسبوع، وجاع لدرجة أضحى الضوء يُستشف؟ من خلال كفه، ويضيف متذكراً: انتابه شعور بالرهافة، ووضوح فائق في الأفكار... إلا أن المشرفة الطبية البشوشة ما روسيًا، نصحته في إحدى المرات، هامسةً في إذنه «تراجع فالإضراب لا يساعدك في شيء... وإلا ستموت! وما فعلته كان يجب أن يتم قبل أسبوع من هذا الوقت»... وانصاع وتراجع بلا نتيجة... وناولوه بعد كل هذا الصيام كأساً ساخناً من النبيذ الأحمر مع قطعة من الخبز، وحملوه إلى الحجرة العامة، وبمرور عدة أيام، بدؤوا في استجوابه من جديد (لكن دون ضياع عبء الإضراب هباء منثوراً، إذ أدرك المحقق، بأنه ذو إرادة كافية، ولديه الجاهزية المطلقة للموت، وبالتالي خفت حدة التحقيق معه (هكذا إذاً... لقد اتضح بأنك ذئب! قال المحقق)، (نعم ذئب أجاب روبابورت مؤكداً - ولن أكون أمامكم كلباً قط).

وأعلن روبابورت فيما بعد إضراباً آخر، عند إعادة نفيه إلى المعسكر الانتقالي كوتلاسكي: إلا أنه سرعان، ما تحولت حالته هذه إلى كوميديا، لقد طالب بإنجاز جديد ورفض الالتحاق بالقافلة، وجاؤوا إليه في اليوم الثالث يطلبون منه: «هيا انهض.. والتحق بالقافلة»! - «لا لا تملكون الحق في ذلك فأنا في حالة إضراب، عندئذٍ أمسك به أربعة من القبضايات، ودفعوه عنوةً، ونهض بلا حول وطول والتحق بالقافلة - بينما سارت خلفه عناصر الحراسة وحرابها وكلابها.

وبهذا انتصرت النظم السجنية الجديدة على الإضراب البرجوازي، ولم يبق للأشخاص الأقوياء، أي سبيل لمقاومة الماكينة السجنية، ما عدا الانتحار الذاتي... إنما.. أيكون الانتحار في مثل هذه الحالة، نضالاً؟... أم أنه انصياع، وأي انصياع؟.

وتعتبر الآيسيرية ي. أوتيسكا، أن التروتسكيين، هم أول من أحبطوا الإضراب عن الطعام بقوة، واستبعدوه كوسيلة صراع نضالي، وتبعهم في ذلك الشيوعيون: حيث كانوا يعلنون الإضراب ببساطة مطلقة، ويتراجعون عنه بالبساطة ذاتها... وتقول: صام زعيمهم ي. ن. سميرنوف عن الطعام أربعة أيام قبل العمليات الموسكوفية، واستسلم بعدها بسرعة.. وتراجع. ويقال أيضاً عن التروتسكين بأنهم عارضوا عام ١٩٣٦ بشكل مبدئي أشكال الإضرابات كافةً ضد النظام السوفييتي، واعرضوا عن مساندة المضربين الآيسيريين والاشتراكيين - الديمقراطيين.

ملاحظة: عن مساندة الاشتراكيين، والاشتراكيين الديمقراطيين، الذين سارعوا إلى المساندة، ووصموا كل من رفض (من مساجين سجن كاراكوندا كاليمسكي الانتقالي). التوقيع على العريضة الاحتجاجية الموجهة إلى كالينين عام ١٩٣٦ (بخصوص نفي الطليعة الثورية - يقصدون أنفسهم)، بأنه «خائن وعميل» - «من حديث لماكوتينسكي».

لا شك أن التاريخ يقدر مدى هذا اللوم، فيما إذا كان صادقاً، أم غير صادق، لكن للتنويه نقول، بأن أحداً، لم يدفع ثمناً قاسياً للإضراب، أكثر مما دفعه التروتسكيون (وسنعود للحديث عن إضراباتهم، واحتجاجهم في المعسكرات في الجزء الثالث).

قد تكون سهولة إعلان الإضراب، والتراجع عنه، عائدةً بشكل عام، إلى خاصية الطبيعة الاندفاعية، والتسرع في إبداء الأحاسيس، سيما وأن هذه الطبائع كانت في أوساط الثوريين الروس القدامى، كما كانت أيضاً

في كل مكان سواء في إيطاليا، أو في فرنسا - إلا أنه لم يكن بالمستطاع، لا في روسيا، ولا في إيطاليا ولا في فرنسا، التخلص من الإضرابات بالشكل الذي كان في الاتحاد السوفييتي (عندنا)، ومن المحتمل بأن التضحيات الجسدية، وروح الصمود المفعمة بها إضرابات الربع الثاني من قرننا الحالي، لم تكن ولا بشكل من الأشكال، أقل مما كانت عليه في الربع الأول، لكن غياب الرأي العام الموحد في البلاد - عزز النظم السجنية الجديدة، وحلت بالمعتقلين الخسائر الفادحة المتكررة، بدلاً من أن ينالوا الظفر بشكل أسهل.

مرت عشرات الأعوام، وفعل الزمن فعله، فالإضراب عن الطعام - حق طبيعي أولي للمعتقل، إلا أنه أصبح مع الزمن غريباً عن المعتقل نفسه، ومبهماً لدرجة لم يثر الشغف الكافي، واختلف الأمر عند السجانين، وصاروا ينظرون للإضراب نظرة غباء ومخالفة شريرة.

عندما أعلن غينادي سمبلوف المتقاعد، الإضراب عن الطعام في سجن لينينغراد، دخل إليه المدعي العام بحجة ما (قد تكون... التذرع بالتجوال) وسأله: «لماذا تعذبون أنفسكم» وأجاب سمبلوف.

- لأن الحقيقة عندي أغلى من الحياة!.

أثارت هذه الجملة المدعي، وأخرجته عن طوره - ونقلوه في اليوم التالي إلى المشفى اللينينغرادي (دار المجانين) المخصص للمسجونين، وصرح الطبيب له:

إنكم مصابون بالشيزوفرينيا.

★★★

على آخر حلقة حلزونية من القرن، وفي أضيق قسم منها، تأججت مراكز القوى القديمة وتمحورت المعازل الخاصة في بداية السابعة والثلاثين، وأطل منها آخر ضوء، وآخر بقية باقية من الهواء والضوء،

وأضحت الإضرابات الواهنة عند الاشتراكيين في معزل باروسلافسكي محاولات يائسة أخيرة، وما زالوا يطالبون بما كان يطالب به الشيوخ من قبلهم بحجرات مفتوحة تسمح بحرية التحرك والتنقل، مع أنهم كانوا غير آملين بما يطلبون، وعلى الرغم من إنهاء الإضراب (الذي استمر خمسة عشر يوماً) بطريقة التغذية القسرية، استمروا بالمطالبة، وكأنهم يذودون عن شيء يتعلق بنظامهم من حيث ساعات التنفس، وحرية تداول الصحف وأوراق الكتابة.... ذادوا ولم يفلحوا... وانتزعت منهم مع كل هذا الأشياء الخاصة، وقذفوا إليهم بملابس السجن الخاصة بالمعازل، وجاء وقت - اقتطعوا فيه فترة التنفس مدة نصف ساعة، وبعدها خمس وعشرين دقيقة.

أجل لقد أصبح هؤلاء البشر لوحدهم، هؤلاء الذين تجرجروا عبر سيرة السجون والمعسكرات الطويلة، وفق ضوابط وقواعد الصولجان الكبير، منهم من كان محكوماً بعشرين عاماً ومنهم بخمسة عشر عاماً، لم يعرفوا خلالها عيش البشر العاديين، إن كان من حيث الإطعام، أو من حيث الإضرابات المتكررة، وصمدوا على الرغم من هذه الظروف، دون أن يتمكنوا من السجانين كما اعتادوا قبل الثورة، عندما كانوا يتحالفون مع الزمن ضد عدو ضعيف واهن، بينما صار الزمن الآن متحالفاً مع عدو قوي جبار صامد...

لقد كان من بينهم الفتية، الذين اعتبروا أنفسهم آيسيريين وايسديكيين، وفوضويين، على الرغم من أنهم أنفسهم صفعوا أحزابهم التي زالت من الوجود، وبقي لهم الركون في السجون كمجرمين خطرين.

دار النضال السجني للاشتراكيين في حلقة مفرغة، وأضحى كل واحد منهم عبر السنين الطويلة (وليس عبر سنة واحدة) فاقداً لصدقيّته، وأمله، وراح يُرضع وحدانيته من الفراغ - على العكس مما كان في زمن القيصرية: حيث كان الشعب يلقي الزهور عليهم، ما أن تنفتح أبواب

السجون أمامهم، وتروح الصحف في نشر امتعاضهم، بحملةٍ بالسباب والشتائم على السلطة، التي كانت وراء سجنهم (بينما لم يتكشف هذا لستالين، الذي اعتبر الاشتراكيين بشكل خاص أكثر خطورة على اشتراكيته بالذات) - وصمت الشعب، وبات لا يملك حتى التفكير بالتجرؤ لأن يتعاطف مع المسجونين! - وصمتت الصحف، ولم تعد تتخاصم، بعدما أصبح هؤلاء غير خطرين، وغير معروفين، لا بل إنهم اعتبروا وكأن لا وجود لهم ولا وجود للاشتراكيين الروس من حيث الأساس. ونادراً ما كانوا! ينوهون لذكرهم عند استعراض الماضي لا بل الماضي البعيد، ولم تطرق ذاكرة الشباب حتى، إلى أنهم ما زالوا باقين على قيد الحياة في مكان ما، حيث يقبع الآيسيريون بالتناوب ما بين المنافي في تشينتسكي، وتشردمينسكي والمعازل الأورالية العليا، وفلاديميرسكي - وباتوا لا يتحسسون في غرفهم المظلمة الكتيمة مسؤولية أخطائهم المحتملة، أكانت في برامجهم السياسية، أو في اختيار زعمائهم، وكانت الأخطاء، في مجال التكتيك، وإن في مجال التطبيق وبدت كافة نشاطاتهم غير فعالة بشكل مطلق، وانتهت حيواتهم للمعاناة والعذاب - وللضياع المحتم.

لقد خيمت عليهم ظلال الوحدانية لدرجة حدت بهم، إلى قبول الرتب الممنوحة إليهم من الإدارة السياسية بعيد الثورة، كسياسيين، ووافقوها على تصنيفها لهم بأنهم «على اليمين[1]»، بدءاً من الكاديين، الذين نظر إليهم، بأنهم ليسوا سياسيين فقط، بل معادين للثورة والثوريين، وكذلك الكايير، والكونتري الذين اعتبروا زبالة التاريخ، ومعذبي العقيدة المسيحية، ونظر كذلك أيضاً إلى كل من لا يعرف لا «اليسار» ولا «اليمين» (وهذا ما سنكونه - نحن وإياكم جميعاً) بأنهم يحملون ذات الصفة - عدا

١- لا أحب لا هذا «اليسار» ولا ذاك «اليمين»! لأنهما مشروطان بالتقاذف ولا يحافظان على الجوهر.

عن هذا كله تلقى الكاييرون، تصنيفهم هذا، بملء إرادتهم واختيارهم في بعض الأحيان، وبلا اختيار منهم في أحيان أخرى، وانعزلوا... وانفردوا، وتحاشوا، وأثاروا مستقبل المادة الثامنة والخمسين، ووقعوا في ذلك الخندق، الذي حتم عليهم الوقوع فيه.

تتمظهر الأشياء والأعمال بحدة طبقاً للاتجاه، الذي تتراءى لك منه، وسنذكر هنا وفي هذا الفصل، توصيف حالة الاشتراكيين حسب وجهة نظرهم - المضاءة بشعاع تراجيدي صافٍ. ويتذكر الكاريرون - الذين تحاشوا الساسة في سجن سالوفسكي، باستخفاف، وازدراء، قائلين: «الساسة؟ ويا لهم من بغضاء! يحتقرون الجميع، وينعزلون في أكماتهم، كل حسب نوعه، ويطالبون بالامتياز - أما فيما بينهم، يتسابون دونما انقطاع» - وكيفما أردت لا بد من أنك تعدّ في هذا - أيضاً حقيقة ما؟ سواءً كانت في هذه المجادلات غير المثمرة، أو في تلك التعايشات غير المنتمية، التي باتت مضحكة وممجوجة، أو في تلك المطالبات غير المنتهية، بحصص إضافية خاصة بهم، أمام صفوف الجائعين، والمقتولين؟ عدا أن اللقب الفخري «للساسة» اعتبر في الزمن السوفييتي هدية ملغومة، وهنا يبرز لوم آخر وهو - لماذا انحشر هؤلاء الاشتراكيون المطاردون في زمن القيصرية في هذه السجون السوفييتية، دون اكتراث؟ وأين ذهبت معاناة المطاردة تلك - التي لم تكن بالقليلة - ومن يستطع إغفال الاشتراكيين منهم.

أما المعتقلون أولئك، والذين كانوا أكثر يسارية، من الاشتراكيين - كالتروتسكيين، والشيوعيين - فتنكروا بدورهم أيضاً للاشتراكية، بما فيهم الكاييرون - وأطبقوا عليهم خندق الوحدانية الدائري.

أما التروتسكيون والشيوعيون: فقد اعتبر كل منهما (على حدة): بأن منحاه أكثر نقاوة، ورقياً من مناحي الآخرين، التي احتقروها، لا بل إن كليهما كرها الاشتراكيين (وفي الوقت نفسه كره كل منهما الآخر)

القابعين معهم وراء القضبان الحديدية في البناء نفسه، والذين كانوا يتنزهون معهم أثناء فترات التنفس في ردهات السجن، وتتذكر ي. أوليتسكا إبان إعادة نفيها إلى خليج فانيون عام ١٩٣٧، كيف أن الاشتراكيين في كلا الحجرين النسائي والرجالي، راحوا يتصارخون قرب السياج بغرض البحث عن جماعتهم، وتتبع أخبارهم، مما أثار حنق الشيوعيتين ليزاكوتيك، وماريا كرونيكوف تحسباً من أن يؤدي تصرف هؤلاء الاشتراكيين غير المسؤول إلى فرض عقوبات جديدة من قبل إدارة السجن، وقد قالتا: «إن مصيبتنا كلها - من أولئك الاشتراكيين الملاعين - (إيضاح عميق فائق الديالكتيكيّة)! - لا بد أنهما مستحقتا الخنق بلا شك»! - بعد أن تم سجنهما عام ١٩٢٥ في لوبيانكا، على أثر غنائهما، أغنية عن الليلك، وكانت إحداهما آيسيرية، والأخرى من المعارضة، ولم يكن يجمع بينهما أي غرض سياسي ليشتركا في غنائيّه معاً، على الرغم من أنه كان من المفروض إن تتحد الآيسيرية مع المعارضة للاحتجاج معاً.

غالباً ما كان نزلاء السجون القيصرية، يتحدون من أجل النضال المشترك (ولعلنا نتذكر عملية الفرار الجماعي من وكر سيفاستبول) بينما اختلف الأمر في السجون السوفييتية وصار يرى كل تيار النقاوة فيما يعتقده، وفي الراية التي يحملها، ولم يتحد مع الآخرين، وغدا كل من التروتسكيين، والاشتراكيين، يناضلون بمعزل عن التعاون مع بعضهما، علماً بأن الشيوعيين لم يمارسوا عملية النضال قط، إذ لا يليق بهم النضال ضد نظامهم وسلطتهم الحاكمة في السجون؟

لهذا السبب بالذات، تعرض الشيوعيون بعد زجهم في السجون المؤقتة للاضطهاد وبشكل أكثر قساوة مما تعرض له الآخرون، وتعرضت الشيوعية ناديجدا سوروفيتسف عام ١٩٢٨ إلى معاملة زجريّة؟ ومنعت من التحدث والتكلم مع الآخرين، بينما كان الاشتراكيون يصخبون أثناء

فترة التنفس (ويصطفون كما الأوز) ويتحدثون في حلقاتهم دون تحرج، وبلغ الأمر درجةً لم يسمحوا فيها للفتاة بالاهتمام حتى بتلك الورود، التي خلفها المعتقلون السابقون مزروعةً في باحات السجن، وحرموها أيضاً من قراءة الصحف (لكن الإدارة السياسية سمحت لها مقابل ذلك كله باحتواء مؤلفات ماركس وآنجلز ولينين) وسمحوا لها بلقاء أمها في أوقات الظلام، إلا أنها سرعان ما وافت المنية والدتها المنكّل بها (ولم يبق لديها شيء تقوله للسلطة الممسكة بابنتها)؟.

إن تباين التصرف في السجون عبر السنين الكثيرة، أدى إلى تفاوت العقوبات بشكل عميق، فبينما كان الاشتراكيون المسجونون عام ١٩٣٧، يتلقون أحكاماً (الجزء الكبير منهم) بعشر سنين، دون إجبارهم على التشهير بأنفسهم، سيما وأنهم لم يخفوا آراءهم الخاصة الكافية لإدانتهم بيد أن الشيوعيين لم تكن لديهم في كثير من الأحيان الآراء الخاصة - وإن كان كذلك فبأي سبب يدان إن لم يقم بالتشهير بنفسه؟.

★★★

على الرغم من ترامي معسكر أرخبيل الغولاغ - لم تتضاءل إنتاجية السجون الانتقالية، ولم تفقد تقاليد السجون القديمة، استمرارية غيريّتها وحماسها، وأصبح كل شيء جديداً، بحيث لا يستطيع أحد معرفة ذاك الكم التربوي الذي قدمه الأرخبيل لتلك الجماهير على الرغم من أنه لم يصل بعد إلى مرحلة الامتلاء، التي يمكن أن تمنحه الانضمام إلى منظومة السجون الطوارئية.

ليس كل ما تبتلعه الماكينة العظيمة من أشخاص، يفترض اختلاطهم مع ساكني الأرخبيلاك، فمنهم من كان الأجانب المشهورين، ومنهم من كان من الشخصيات الكبيرة المعروفة، ومنهم من كان من المساجين السريين، الذين كانوا من جماعتهم، أي من العناصر الأمنية المجردة من

الرتب، ولم يسمح لهم ولا بحال من الأحوال بالظهور علناً في المعسكرات: حيث تحمل عربة الإفشاء المتدحرجة، خسارة سياسية معنوية كبيرة، وماثل هؤلاء في العزل الاشتراكيين أيضاً بسبب صراعهم المستمر مع الإدارة، ومُنعوا من الاندماج مع الجماهير - خاصة تحت إطار الامتياز والحقوق المرعية، وبقوا مخنوقين وحدهم. إلا أن الظروف أعوزت السلطة في أزمان متأخرة من الخمسينيات لاستخدام السجون ذات الصفة الخاصة لعزل متمردي المعسكرات، وأمر ستالين بعد أن خاب الأمل في إصلاح اللصوص، بتسليمهم إلى المحاجر السجنية بعد أن أصبحوا في أرذل العمر (السنوات الأخيرة من حياتهم) واضطروا إلى أن يتحمل المحبس الحكومي المجاني إقامتهم، إذ لو أنهم أرسُلوا إلى المعسكر فوراً، لماتوا، وتخلصوا من قضاء مدة محكوميتهم، بخاصة وأنهم لا يستطيعون القيام بالأعمال الخدمية - كالرعي وأعمال أخرى، وكثيراً ما كان بينهم من له من العمر سبعين عاماً، كالعجوز كوبيكين، الذي كان يقبع في بزار المدينة الفولاغية، وتوارثت الأوساط السجينة أغانيه لأزمان طويلة امتدت لعشرات السنين الأمر الذي حدا بقيادة المعسكر إلى تبديل سجنه.

طبقاً للمهمات، حفظت وتجددت، وترسخت، وتحسنت القاعدة السجنية القديمة، الموروثة عن السلالة الرومانوفية، بإضافة سجون الأديرة إليها، وغدت المراكز السجنية محصنة كسجن باروسلافسكي، الذي توفرت فيه المعدات المريحة (مثل الأبواب المسكوبة من الحديد الصلب، والأسرة المثبتة، والتابوريهات والطاولات في أرضية الحجر)، ولم يتطلّب إلا تثبيت الستائر على النوافذ، وتركيب الحواجز بين ساحات التنفس المتناسبة مع كل حجرة (في بداية عام ١٩٣٧، قطعت الأشجار من حول السجون، ونبشت كافة الحدائق والساحات المرجية، وفرشت بالإسفلت). أما في مركز سوزدالسكي، تطلّب الأمر إعادة تجهيز غرف الدير، بينما

بقي جسد السجين نفسه، كما هو سواءً كان في الدير أم في سجن آخر، تحت مظلة القانون الحكومي، وبالتالي كان لا بد من مواءمة المهمات فيزيولوجياً، طالما كان من السهل إعادة ملاءمة البناء على وجه السرعة، كما حدث في أحد أبنية ديرنوخانوفسكي - حيث تطلّب إعادة استكمال النقص فيه ليلائم القاعدة السجنية، ويلحق بحصن بيتروبافلسكي، وسيليسبورغ في عهد ايكسكورنتسف، وبمركز فلاديميرسكي الذي تم توسيعه في عهد (يوجوف)، الذي كان قد استوعب العديد من المساجين عبر عشرات السنين. وكنا قد نوهنا إلى الفاعلية التي امتاز بها مركز توبولسكي، الذي كان (قد استعمل بدءاً من عام ١٩٢٥) لسجناء الأورال الأعلى (فالمعازل ما زالت تتعايش على ويلاتنا، وتعمل حتى هذه اللحظة التي كتبت فيها هذه السطور). ويمكن لنا، أن نستنتج من قصيدة لتفاردوفسكي عنوانها «من بعد إلى بعد» بأن مركز الكسندروفسكي لم يفرغ من ساكنيه، حتى في زمن ستالين، إلا أن معلوماتنا قليلة عن سجن أورولوفسكي: سوى أنه قد تعرض خلال الحرب الوطنية للدمار، لكن وحسب مقولة الجار للجار، أكملت السجون المعدة في فلاديميرسكي مهمته.

كان إطعام المعازل السياسية في العشرينيات (كما كان يطلق عليها السياسيون، المعازل السياسية) لائقاً جداً، إذ كانت وجبة الغداء من اللحم المحضر بالخضار الطازجة بشكل دائم، مع السماح للسجناء بشراء الحليب من الأكشاك. أما ما بين عامي ١٩٣١-١٩٣٢ ساءت الأحوال فجأة، ولم تكن حتى أفضل من تلك الحالات، التي كان فيها الإنسان طليقاً، وزادت حالات الغثيان، ودوار الرأس في تلك الآونة، إنما عاد الإطعام في زمن متأخر إلى التحسن لكن ليس بالشكل الأمثل، وقد عانى أحد السجناء، ويدعى كورنيف من الجوع في سجن فلاديميرسكي، حيث كانت الجراية

أربعمئة وخمسين غراماً من الخبز، وقطعتي سكر وحفنة من الحساء الساخن، غير المُشبع - وهو عبارة عن ماء مغلي «مع الكروش». (يقولون... إن هذا العام لم يكن عاماً قياسياً، بسبب انتشار الجوع في أوساط الطلقاء: إلا أنهم سمحوا في ذلك العام بطيبة خاطر، بإحضار الطعام للمساجين (ولم تُحدد عدد الطرود المرسلة من قبل الأهل).

كان الضوء في الحجر خافتاً بشكل دائم - وشكلت الستائر والزجاج المحجّر في الحجر جواً غسقياً (فالظلام - عنصر مهم في قهر الأنفس) ونصبت خلف الستائر الكتيمة الشباك الحديدية، التي تجلد الثلج عليها في الشتاء، وسدت آخر منفذ للضوء، وصارت القراءة عملية إنهاك للعيون. على العكس مما كان متبعاً في سجن فلاديميرسكي، حيث عوضوا نقص الضوء بإشعال الأنوار الكهربائية الساطعة ليلاً، كي يمنع السجناء من النوم، أما في سجن ديمتروفسكي (ن. أ. كوزيروف) كانت الأضواء المستخدمة (عام ١٩٣٨) في الليل - عبارة عن سراج (مشحرة) متوضع على رف يطاول السقف، ويحرق آخر ما تبقى من هواء الحجرة، وظهرت في عام ١٩٣٩ مصابيح متوهجة نصف حمراء. أما الهواء فقد تم تقنينه، حيث بقيت فتحات التهوية مغلقة، لا تفتح إلا عند إخلاء الحجرة. ويتذكر أحد السجناء في مركزي ديمتروفسكي وياروسلافسكي (ي. غينزبورغ قائلاً: كان الخبز يتعفن من شدة الرطوبة بمرور نصف يوم من الصباح وحتى المساء، والمفارش تضمخ بالرطوبة، والجدران تخضر من العفن)... بينما لم يكن في مركز فلاديمير عام ١٩٤٨ أي تقنين بالهواء، بل على العكس من ذلك، فتحت مسارب التهوية بشكل دائم. وتراوحت فترات التنفس في كافة السجون من خمس عشرة - حتى خمس وأربعين دقيقة.. ومنع التعامل بزراعة الحدائق في مركزي شيلسلبورغ، وسالوفسكي، واقتلعت الأشجار، واجتثت النباتات، وفرشوا الأرض بالأسمنت والإسفلت،

ومنعوا السجناء من رفع رؤوسهم نحو السماء عند التنفس - «عليكم النظر إلى أرجلكم فقط» - ويذكر كل من كوزيروف وآدموف (السجن الكازاني) حيث منعت اللقاءات عام ١٩٣٧، وسُمح بتوجيه وتلقي الرسائل (رسالتان في العام الواحد)، وسُمح بقراءة الرسالة وإعادتها إلى إدارة السجن، وحُددت كمية الشراء من الأكشاك بعدة نقود، وُخصص الجزء الأكبر منها للأمتعة... ويضيف آداموف بتأثير بالغ، روح الفرح العامر، الذي انتابه عندما نزعت الأسرة والطاولات المثبتة بالبراغي في أرضية الغرفة، ولامس جسده الأسرة الخشبية البسيطة، والحشايا الزرقاء (في سجن سوزال) وتجالسوا وراء الطاولات الخشبية العادية. وقد عايش السجين كوزنييف خلال وجوده في سجن فلاديميرسكي نظامين مختلفين: الأول ما بين عامي (١٩٤٧-١٩٤٨) عندما سمحوا للسجين بالاحتفاظ بأغراضه الشخصية مع السماح له بالاستلقاء على الأسرة نهاراً مع تخفيف حدة المراقبة الصارمة التي كان يقوم بها الخفير المرابط عبر كوة الباب، والنظام الآخر ما بين عامي (١٩٤٩-١٩٥٣) عندما ارتجت أبواب الحجرات بالأقفال الكبيرة (مفتاح لدى المراقب والآخر لدى المناوب) ومنع الاستلقاء والتحدث بصوت مسموع (التحدث همساً - سجن كازان)، وأخرجت كافة الأمتعة الشخصية، وسلمت لهم بدلة مصنوعة من النسيج المخطط ذاته، الذي كان يغطي المفروشات، وسمح بالمراسلة لمرتين في العام، شرط كتابة الرسائل نهاراً في الوقت الذي يحدده مدير السجن (حتى إذا ما قصر النهار، قد لا تستطيع كتابتها)؟ على أن تكتب الرسالة على ورقة ذات قياس أصغر مرتين من الورقة البريدية، وكثيراً ما تكررت في تلك الآونة الغارات، والبحث الشرس عن الأمتعة الشخصية، ومصادرتها عند العثور عليها، وتعرية المساجين منها، وقل الاتصال ما بين الحجرات إلى درجة كبيرة، حيث كان الخفراء يزحفون إلى المراحيض بعد كل تنفس حاملين

المصابيح بحثاً عن الكتابات على الجدران، حتى إذا ما وجدوا شيئاً منها أحالوا قاطني الحجرات إلى غرفة خاصة، مخصصة للجلد والضرب وكثيراً ما كان السعال ينتاب المعذبين في هذه الحجرة الضيقة (هيا ضعوا رؤوسكم تحت اللحاف... واسعلوا)!! عقاباً على التجوال ما بين الحجر (لقد اعتبر كوزيروف هذه الحجرة، بمثابة... «المذبح»)، بينما يقول غيزبورغ: إن الغرف الضيقة استخدمت ليس بسبب، إنما حسبما اقتضته الخطة، إذ على الجميع أن يجربوا الجلوس هنا، كي يعرفوا كنه هذه الغرفة، وقد تضمن كراس القواعد للسجون، بنداً مميزاً (بالخط العريض)... يقول «في الحالات، التي يظهر فيها عدم الانصياع والانضباط في الغرف الضيقة، فللمدير الحق بتمديد فترة الإقامة حتى عشرين يوماً». لكن ما هي قلة الانضباط هذه؟... حيث يقول كوزيروف: (تتطابق كافة الوصفات لهذه الغرف الضيقة مع روايات الآخرين عنها، حيث أطلقوا عليها اسم: الوسم السلطوي المتفرد) حيث كانت عقوبة التجوال بين الحجر، المكوث خمسة أيام على أرض الغرفة، دون ألبسة داخلية وأحذية، وفي جو خريفي بارد (وقد تكون الأرضية موحلة، ورطبة، حيث كان يصب الماء عليها من آن لآخر في سجن كازان) كان لدى كوزيروف تابورية (غير موجودة عند غيزبورغ)، وتملكه الشعور بأنه سيموت لا محالة، وتجمدت أطرافه، إنما شيئاً فشيئاً، راحت تنتشر في الجو نفحات داخلية خفيفة من الدفء، وشعر بالنعاس، يراود أجفانه، ونام طالما كان قد تعلم النوم وقوفاً (جلوساً على التابورية)، كانوا يقدمون للمعاقب ثلاثة أكواب من الماء المغلي، يطغى عليك الإحساس بالحلاوة بعد شربه، مع قطعة خبز من ثلاثمئة غرام وقطعة سكر غير مقررة دسها أحد المناوبين... كان يصعب عليك تمييز الضوء، الذي بدا وكأنه ضوء مخبري وامض... وقضى كوزيروف الخمسة أيام وهو يحسب الوقت الذي تنتهي فيه - إلا أنهم لم يخرجوه من الحجرة، وسمع

بأذنيه المرهفتين بعض الهمس في الممر - وتبين إن حسابه العقابي يستحق ستة أيام... وانقضت دون خروجه... وكان هذا بمثابة استفزاز مقصود:... تريثوا... خمسة أيام... وحان وقت الإفراج... لا... يبقى ليوم سادس بسبب قلة الانضباط والطاعة... وأذعن وتابع إلى اليوم السابع وأفرج عنه وكأن شيئاً لم يكن (ربما أراد مدير السجن اختبار درجة إذعان كل سجين هناك... بخاصة أولئك الذين لم يستكينوا الجلوس في هذه الغرفة) - بدت الحجرة العامة لكوزيروف قصراً منفياً، بعد خروجه من الغرفة الضيقة، وأصيب خلال نصف عام بالبكم نتيجة دمل خراجي كبير في حنجرته. أما جليسه فقد جن جنونه بسبب إقامته المتكررة في غرفة التعذيب (ومضى كوزيروف وجليسه مدة عام في حجرة عامة واحدة) (كثيرة هي حالات الجنون في المعازل السياسية - فحسبما ذكرت السجينة ناديجدا بورتسيف - عبر ما جمعته من معلومات، لا تقل عما أحصاه وجمعه المدون التاريخي الروسي، الذي ألفه وقدمه شليسبلورغ خلال اثنين وعشرين عاماً)...

ألا يعتقد القارئ معي، وبعد كل هذا، بأننا تسلقنا قمة القرن شيئاً فشيئاً؟ - الذي قد يفوق القرن الأول علواً وارتفاعاً؟ وربما يكون حتى أكثر حدةً؟

إلا أن الآراء تتداخل، وتتشابك وتتناقض... فمنفيو المعسكرات يقرون بصوت واحد: بأن معازل فلاديميرسكي كانت في الخمسينيات منتجعات حسبما رآه وتصوره فلاديمير بوريسوفيتش، وزيليدوفيتش، المرسلان إلى هناك، من محطة آيزو... وهذا ما رأته كذلك آنا بيتروفنا سكريبنكوفا، التي وقعت هناك عام (١٩٥٦) قادمة من معسكر كيمير.. وشُدهت بإمكانية توجيه العرائض الدورية كل عشرة أيام (حتى أنها أضحت تكتب... إلى الأمم المتحدة) هذا إضافة إلى وجود مكتبة غنية حتى بالكتب الأجنبية، وكانوا يقدمون الأوراق إلى الراغبين بكتابة العرائض الحولية في حجرهم.

يجب ألا ننسى أيضاً مرونة قانوننا، فبعد الحكم على ألفٍ من النسوة (الزوجات) بالسجن في الحبس السياسي، أخفوا ما أصدره من أحكام على حين غرة، واستبدلوها بأحكام النفي إلى معسكر (كالين حيث يتم هناك غسل الذهب المستخرج) وهكذا استبدلوا وبدلوا دون أيّ محاكمة، وبهذا كان هذا الحبس السياسي فريد من نوعه، إلا إنه لا يتعدى إن يكون غرفة معسكرية للدخول فقط.

هنا بالذات - وفقط هنا! - كان يجب أن يبدأ فصلنا، وكان يجب أن ينجلي كما الضوء الأخاذ، الذي سيصبح مع الزمن هالة نورانية، تبدأ أول ما تبدأ بإنارة روح المعتقل الإفرادي المنتزع من ململة الحياة لدرجة يبدأ فيها بعد الدقائق المنقضية بقبول يمنحه المعاشرة الودية مع العالم - عليه (على المعتقل الإفرادي) التخلص من كل ما من شأنه، أن يكون مثيراً له على الإطلاق، في التعلق بحياته السابقة حتى بمنحه استقراراً لدرجة الشفافية. فكيف على أصابعه أن تتطاول، وتغرف وتعبث بحفنة من تراب أرض الحواكير، (التي أضحت الآن... إسفلتية) وكيف على هامته المستلقية على كتفيه، أن تبقى مرفوعة نحو السماء الأبدية (مع العلم بأن هذا كان ممنوعاً)، وأيّ صحوة لطيفة تلك، وتثيرها فيه الطيور المتقافزة على شرفات النوافذ (التي تسدها الستائر والشباك، وفتحات التهوية المرتجة وراء الأقفال)...! وأيّ أفكار جلية، وأيّ استنتاجات مدهشة يسطرها على تلك الأوراق المعطاة له (علماً بأنه قد لا يتاح له، الحصول عليها من الكشك السجيني، وإذا ما قام بإملائها، قد ترقد في خزانة السجن إلى الأبد).

لكن... وإلى حدّ ما تربكنا اشتراطاتنا المشاكسة، وتتداعى على أساسها خطط وبرامج فصلنا، وكأننا لا نلّم: بنظام السجون الحديثة، ولا بالسجون ذات الاستخدام الخاص (وأي استخدام)؟ - أليست هذه الأخيرة منها تطهر روح الإنسان؟ أو قد تقضي عليه نهائياً، إذا كنت كل صباح

ترى، أول ما ترى - العيون، المقطنة لجليسك في الحجرة - حتى قبل أن تفكر في كيفية خلاص اليوم التالي، وها نيقولا - الكسندروفيتش كوزيروف المستغرق في بحور العلم الفلكي الرائع، ينقطع وجومه بالاعتقال، الذي لا مناص من التخلص منه، إلا بالتفكير عن الأبدية اللا نهائية، وعن النظام العالمي - وعن روحه المعنوية العالية، وعن النجوم، وعن بنيتها الداخلية، وعن صيرورة هذا الوقت وانقضائه.

هكذا راحت تتكشف له الحالات الجديدة في علوم الفيزياء، التي رهن الحياة لها، كلياً في سجن ديمتروفسكي، إلا أنه، وعند الخوض في جدلية أرقامه الصماء، اصطدم بمعطيات رقمية غيبيّة، ولم يستطع الاستمرار في تكوينها - إذ يلزمه الكثير، الكثير منها، ومن أين له... التقاطها في خضم هذا التوحد مع الغليان الليلي في جو لا تستطيع فيه حتى الطيور بلوغه.. وراح العالم على أثر ذلك يتهجد.. إلهي.. لقد قمت بكل شيء أستطيع فعله، ولكن عليك مساعدتي! وأيّما مساعدة على الاستمرار.

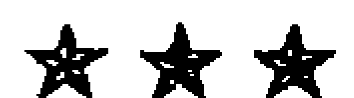
كان قد تقرر في ذلك الوقت تخصيصه بكتاب واحد كل عشرة أيام (وصار وحيداً في حجرته)، وتوفرت في مكتبة السجن إذ ذاك بعض الإصدارات عن «المسرحية الحمراء» للكاتب بيدني ديميان، وكانوا من آن لأخر يدلجون الحجرة، وما أن انقضت نصف ساعة على صلاته - حتى دخلوا يبدلون له الكتاب على غرار ما كان في السابق دون سؤاله، وقذفوا إليه - بكتاب «موجز الفيزياء الفلكية» لكن كيف جاء هذا المخطط إلى تلك المكتبة؟... لا... لا يمكن لأحد تصوّر الكيفية، التي جاء فيها هذا الكتاب. إلا أن نيقولا الكسندروفيتش انهال عليه تمحيصاً، لاعتقاد تملكه، بأن فرصته معه لن تطول، وراح يستذكر، ويغط في الاستذكار، لأن عليه أن يعب ما قد يحتاجه من هذا الكتاب اليوم... ومر يوم.. ويومان وبقي له معه ثمانية أيام - وعلى حين غره حانت فترة تجوال مدير السجن،

وسرعان ما لاحظ وبحدة متناهية - «هكذا إذاً... إنك اختصاصي في علم الفلك»؟ - «حسناً» «فليحسب الكتاب»! لكن بعد أن فتحت له مقدمة الكتاب المبهمة سبيل العمل، الذي استمر فيه طوال وجوده في معسكر نوريلسكي.

هكذا... بتنا ملزمين أن نبدأ فصلنا القادم عن التناقضات النفسية وراء القضبان.. لكن ما ماهية هذه التناقضات؟... إلا أن قرقعة مفاتيح الرقيب الأرعن، تصوت في قفل باب الحجرة، وينبلج وجه خضري متجهم، يدقق لائحة اسميّة طويلة: «الكنية»؟ اسم الأب؟... تاريخ الولادة؟ المادة المحكوم بموجبها؟ المدة؟ نهاية المدة؟... هيا فلتحضر نفسك وأمتعتك على وجه السرعة»!

لكن ما بالكم... إخوتي... الهوينا... الهوينا... إلى أين... إلهي باركنا!... كيف لنا أن نفلح في لملمة عظامنا...

هكذا... إذا ما بقينا أحياء - سنكمل حديثنا في مرة أخرى... في الجزء القادم (الرابع) إذا ما كنا عندها على قيد الحياة...



الفهرس

Архипелаг ГУЛАГ

ألكسندر سولجنيتسين

أرخبيل غولاغ

ترجمة
نجم سلمان الحجار

АРХИПЕЛАГ ГУЛАГ

ان السؤال الذي يطرح نفسه، إنما يتصل بحجم وتوقيت الحملة التعبوية على الثورة الروسية تحت عباءة « الغولاغ» والدكتاتورية «الستالينية» في ظل الظروف الصعبة والمأساوية التي كانت تعيشها البلاد.

ان المنحى العام الذي سارت فيه الأمور، يتسم بطابع الحقد والتجني على التجربة السوفييتية، ووصمها تاريخيا. وهي بالتالي انتصار للرأسمالية، ودعاية مجانبة لفكر العولمة، وانتصار لا اخلاقي لأحلام الامبراطورية الأمريكية غير المتوجة، والتي تمارس أبشع الجرائم الإنسانية على مر العصور، وصورتها في العراق وأفغانستان وفلسطين.. وغيرها ماثلة أمامنا الا... بجرائم سجون غوانتنامو وأبو غريب، وفضائح السجو...

كل هذا لا يجري في مطلع ومنتصف القر... كأحداث ما ورد في الكتاب، بل في مطلع القر... والعشرين. وبعد اطلاق شرعة حقوق الإنسان.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy